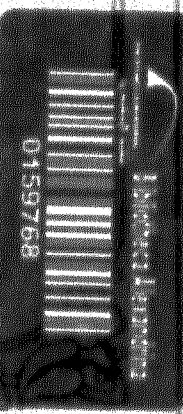
خليل مطران
شاعر الأقطار العربية

مرآة الأيام
في ملخص التاريخ العام

دار مارون عبود



مرآة الأيام

في ملخص التاريخ العام

خليل مطران
شاعر الأقطار العربية

مرآة الأيام
في ملخص التاريخ العام

دار مارون عبود
ص.ب. ٨٥٨٦ - ١١
تلفون : ٩٣٤٧١٤

بسم الله المبديء المعيد

أما بعد فاني لما رأيت مكاتبنا العربية في حاجة الى تاريخ عام ينتفع به المطالع * ويرجع إليه في تحقيق الوقائع * استخرت الله على ما عندي من قصر الباع * وضيق الاطلاع * في وضع هذا المختصر نقلاً عن أشهر التصانيف * الموثوق بصحتها بين أهل هذا العلم الشريف * وقد التزمت فيه الايجاز في سرد الحوادث وذكر مواقعها * وتجنبت ايراد الأقوال المختلفة في كثير من مواضعها * وتحريت ما أمكن ان أفرغه في قالب عربي يقرب من المتداول * ليكون أساس في الذوق وأدنى الى المتناول * ولم أخرج في كثير من صور التعبير عن المصطلح عليه من الألفاظ المعروفة * والتراكيب المألوفة * مخافة أن تلتبس أوضاعه على الأفهام * وتخفى وجوه مقاصده تحت لثام الابهام * اذ لا يخفى أن لغتنا العربية على اتساع مناحيها * لا تزال مفتقرة الى كثير من مرادفات الأوضاع الأجنبية للتعبير عن معانيها * وذلك على امكان أخذه من اللغة الفصحى من وجه المجاز والاشتقاق والتمثيل * يقتضي ما يعنت القاريء فضلاً عن الكاتب من ضروب التفسير والتأويل * ولذلك اجتزأت باللفظ الجاري على الألسنة والأقلام * في هذه الأيام * عملاً بقولهم الغلط المشهور * خير من الصواب المهجور *

وقد عقدت فصولاً مسهبة أفردتها لإخبار الأمة العربية وذكر أجلّ ما روي عنها * وفصلت بما وسعني من الاطالة تواريخ الدول الشرقية وخصوصاً الاسلامية منها * وذكرت من حوادث الثلاثين السنة الأخيرة ما لم يجمع في كتاب * ولم يتعرض

للاخبار عنه الى الآن أحد من الباحثين والكتاب * وأنا أرجو أن أكون في ذلك كله قد قاربت خطة الصواب * وقمت من هذا العمل بما يخولني رضى ذوي الألباب * اذ لم أقصد به الا أن أجعله خدمة عميمة * صادرة عن نية مستقيمة * ارفعها الى الوطن العزيز والأمة العربية الكريمة * أبلغها الله آمالها * وأجمل مآلها.

خليل مطران

تمهيد

اشتُهر شاعراً ، ولم تعرف غير النخبة أن خليل مطران مؤرخ ، وعالم اجتماع ، واقتصاد ، ولغة ، وتربية .

كتب في جميع المناحي الأدبية ، وجدّد مستوحيًا ثقافته الأوروبية من غير الخروج على التقاليد المتأصلة في نفس كل شرقي ، وهو القائل :

«لقد وجّهت الشعر العربي وجهة جديدة منذ ظهر ديواني الأول لأن شعرنا العربي لم يعد ملائمًا لاحتياجاتنا الحالية» .

وجاء في مجلة «لي نوفل ليترار» الفرنسية[1] :

« ... من أكبر شعراء العرب المعاصرين ، إن لم يكن أكبرهم ، يتقدم إليّ بقامته النحيفة ، ومشيته القلقة ، وقد تجعّد وجهه بابتسام الترحيب ، ويذكِّرني مرآه أولئك الشعراء الفلاسفة الذين كانوا يزيِّنون بلاط الخلفاء ويطلعونهم على الحقيقة في عقد من أزاهر الكلام ، سمًا أو دواء في خاتم ثمين. ولطالما أنست الجوهرة الحقيقة التي تطويها وخلصت الجواهري من الموت» .

ولن نتناول ، هنا ، شعر خليل مطران بالدرس ، لأننا سنعود إلى شعره في مجال آخر : فمطران ، في «الهلال» وفي «المقتطف» وفي «الأهرام» وفي «المجلّة المصرية» ،

---

(١) لي نوفل ليترار ، العدد ٢٥/ ١٢/ ١٩٣٧ ، ص

وفي استفتاءات في موضوعات مختلفة منها ثقافية واجتماعية وفنية وقومية ، قدّم أجوبة سديدة لا يمكن أن تصدر إلّا عن كبار المفكّرين والأئمّة . وفي المقتطف مقالات عديدة يبسطها ويحلّلها .

ودار مارون عبود جادة في البحث عن هذا المنجم الذي لم يكتشف بعد . فما ظهر لخليل مطران ليس إلا مدماكًا من ناطحة سحاب . والدّار تعمل على نشر هذا التراث المطراني ، إضافة إلى مخطوطات سأسعى إلى إخراجها كاملة إلى النور ، بعد أن صنّفت شعره المطبوع والمخطوط في ثلاثة أجزاء ، مبوِّبًا ومفهرسًا على حروف الهجاء .

ولمطران شأن في عالم النثر ، بل إن له مدرسة خاصة في النثر ، وهو صاحب مقال صحافي مميز ، وناقد أدبي ، ومترجم مسرحي ، واقتصادي ، وتربوي ، وجامع للحكم والأمثال ، وله معجم لم يُتمم وأصوله في حوزتي أعمل على إتمامه .

إشتغل خليل مطران أول ما اشتغل في جريدة «الأهرام» كوكيل عنها في القاهرة[٢] ، ثم تولى رئاسة تحريرها . إلّا أنه تركها عام ١٨٩٩ وأنشأ «المجلة المصرية» . وفي عام ١٩٠٢ أنشأ مع أخيه جورج صحيفة «الجوائب المصرية» ، وفي هذه الفترة أصدر كتابه «ملخّص التاريخ العام» ، وهو كتاب أوجز فيه حيث يجب الإيجاز ، وأسهب في أماكن أخرى . وهذا الكتاب وغيره من كتب النثر تدل على خصائص النثر المطراني . وستجمعها الدار قريباً .

والملاحظ أن مطران قرض الزّجل ، فقد قرأت له :

يا ميجانا يا ميجانا يا ميجانا مين قدك عْلَى القلب جار وجنى
رمان صدرك حل وقتو للجنا ديريه صوبي تا ندوق خير السنا

(٢) ولد مطران في بعلبك وسافر الى مصر ، وغادرها الى باريس معتزمًا الإقامة فيها غير أنه عاد الى مصر واستوطن فيها . حكم عليه بالاعدام عام ١٩١٥ ، غير أن الوزير السابق حبيب المطران يقول إنه سافر الى اسطنبول ليدرس فيها لكن مستشار السلطان عبد الحميد الثاني وهو يوسف المطران أشار عليه بمغادرة الآستانة فتركها الى مصر (مقابلة مع الوزير حبيب المطران)

ولمطران روايات عديدة ، ومسرحيات معربة لشكسبير وكورناي وراسين وغيرهم.

ترجم الموجز في علم الاقتصاد ، وأسس النقابة الزراعية في مصر ، ودار التمثيل العربي.

وفي عام ١٩٢٦ كلفته الحكومة المصرية الإشراف على «المرسح الوطني».

ناضل في سبيل الحرية ، وناضلت أسرته في سبيل إعلان الدستور. ويبدو أن تعلّقه بوطنه الأمّ ، وحبّه لأبناء جلدته حداه على قول الكلمة الصريحة ، فوجد مصر ملاذًا له ومتنفّسًا ، غير ناسٍ أبناء وطنه العاملين في كل فن والمبرزين في النشاطات المختلفة... والحاملين المشاعل. فقد قال فيهم :

«استطاع اللبنانيون بكدّهم وإقدامهم منذ عهد محمد علي الكبير أن يحرزوا مكانة مرموقة في القطر المصري. جاءوا ببضائعَ جديدة ومعلومات جديدة وابتكارات في كل فن. ونما عددهم على توالي الأيام حتى أصبحوا جالية ذات شأن في كل فروع الحياة.

إمتاز أفراد منهم في العلم والتعليم والزراعة والصناعة وضروب المشروعات المالية ، فلا تبدو ظاهرة من ظواهر الحياة المصرية الجديدة إلّا ولهم فيها أثر تقادم ومجهود تجدّد...»(٣).

وليس أدل على نثره غير الوقوف على مؤلّفه «ملخص التاريخ العام» هذا ، وقراءته هي المعوّل الأول والأخير للحكم على هذا الرجل المعروف شاعرًا ، المنسي ناثرًا.

نظير مارون عبود

---

(٢) مخطوطة.

فهرست

صفحة

في تاريخ اليونانيين

التاريخ الروماني

القرون المتوسطة

(٣٥) **تاريخ السلطنة الشرقية**..

(٣٦) **ذكر كلوفيس والميروفنجيين (٤٨١—٧٥٢)**........................

تاريخ الأمصار الحديثة

التاريخ العصري

«تاريخ الشرق القديم» . . .

—١—

أصول الأمم والقول في أصول لغاتها واوائل أحوالها المعاشية والمدنية

الأرض والانسان

اختلفت أهل الأديان الأولى في صفة الله وابداع الكون وخلق الانسان. وتناول أهل العلم الحديث هذا الموضوع يكيفونه ويشرحونه بأدوات الاستدلال واقيسة النواميس الطبيعية ولكن الأجمل بنا أن ندع كلا من قرآئنا يرجع في هذا البحث الى معتقده الديني أو رأيه العلمي فلا نتعرض له.

الأجيال البشرية

تكاد تنوعات الجنس البشري لا تدخل تحت حصر وسببها اختلاط الأجيال وتأثير البيئات والمواطن.

أما الأجيال الكبرى فثلاثة وهي الابيض والأصفر والأسود وتلحق بكل منها أجيال فرعية متنوعة نشأت عن اختلاط الأجيال الكبرى في التخوم التي تجاورت فيها.

وقد نما الجيل الأبيض في بقاع ايران الأولى ومنها انتشر الى الهند وآسيا الغربية وكل أوربا. ونما الأصفر في الصين وشمال آسيا وجزائر ملقا. ونما الأسود في افريقية واوستراليا. ويرد الهنود الحمر الامريكيون الى الجيل الأصفر. واما اللغات فتنقسم الى ثلاثة أقسام كبيرة. الأول منها يشمل المسميات بذوات الهجاء الواحد وهي المؤلفة من الفاظ أصلية كل لفظة منها هي الفعل وهي الاسم وينطق بها بصيغة واحدة وانما يختلف معناها باختلاف موضعها من الجملة وبحسب ارتباطها بالكلمات الأخرى المقارنة لها والثاني يشمل المسميات بالمذيلة وهي المؤلفة من ألفاظ أصلية كالأولى لا تمييز فيها بين الاسم والفعل الا بادوات وحروف تزاد على اواخرها فتتنوع بها معانيها كما تتنوع معاني الألفاظ في لغاتنا بالتصريف والاعراب.

والثالث يشمل المسميات باللغات المتصرفة وهي المؤلفة من الفاظ تتنوع معانيها بتنوع ابنيتها وحركاتها ويتميز فيها الاسم عن الفعل فيفيد الأول الجنس والعدد ويفيد الثاني الزمان والحدث. وهذا القسم هو الأتم والأليق لتمثيل الفكر وايضاحه وكل اللغات التي وجدت وتوجد الآن في الدنيا ترجع الى أحد هذه الأقسام الكبرى.

وأكملها لغات الجيل الأبيض وهي من القسم الثالث وتليها لغات التتر والترك والفينيين والتاموليين وهي من القسم الثاني وتتبعها لغة الصينيين فهي من القسم الأول ولا تزال على قديم عهدها الا في شيء قليل أصلح منها فجعل أقرب الى القسم الثاني.

الجيل الأسود والجيل الأبيض

لا يذكر التاريخ شيئاً عن الأقدمين من سكان افريقيا واوقيانيا وامريكا واما الجيل الأصفر فقد وجدت عنده أقدم سجلات الذكر وكانت له حضارة ذاتية وممالك لا تزال موجودة وأشهر أقسام هذا الجيل هم الصينيون والمغول ويلحق بهم أيضاً شعوب الهند الصينية. ومنهم الأناميون والتبتيون وأقدم سكان الهند والقبائل التركية والهونية من غرب الصين الى بحر قزبين. ولعل أصل المجر من بعض تلك القبائل.

الجيل الأبيض وفي الآريين والساميين

ينقسم الجيل الأبيض الى فصيلتين كبيرتين. وهما السامية في الجنوب الشرقي من آسيا وفي شرقي افريقيا. والآرية أو الهندية الأوربية في آسيا الغربية وأوربا. والظاهر أن مهد الفصيلة الآرية كان في البلاد الواقعة في الشمال الغربي من نهر السند بأرض تركستان. وقد خرجت من تلك البقعة طوارىء كثيرة امتدت من ضفاف نهر الكنج الى أقاصي الغرب ويشهد بذلك ما اكتشف حديثاً من تقارب القواعد التصريفية وتشابه أصول الألفاظ الأساسية بين اللغات القديمة فثبت به أن اليونانية واللاتينية شقيقتان مأخوذتان من السنسكريت لغة البراهمة الهنديين وان السلتية والألمانية والسلافية متفرعة منها أيضاً فمن مثل هذه المباحث ثبتت القربى بين الهنود والماديين والفرس في الشرق والبلاجيين واليونانيين في آسيا الصغرى وافريقيا وايطاليا والسلتيين والجرمانيين والسلافيين في شمال البحر الاسود وفي جبال البلقان والألب.

وقبل أن تتفرق تلك القبائل الجالية كانت قد استخدمت البقر والخيل من الماشية ووضعت النير في رقابها. وكذلك استخدمت الخروف والماعز والخنزير والاوز. وأخذت في حرث الأرض وصنع ادوات من بعض المعادن. وبعضها أقام المنازل الثابتة. وكان الزواج في عرف تلك الأقوام عقداً دينياً وكانت الأسرة اساس كل نظام عام وكانت القبيلة مجتمعاً من الاسر (العائلات) والشعب جمهوراً من القبائل وكان زعيم الشعب القاضي الأعلى في السلم والقائد الأول في الحرب.

وقد وجد عند تلك القبائل شيء من العلم بوجود خالق الا أنها افسدته بجهلها فاتخذت من القوى الطبيعية آلهة ومعبودات.

اما الساميون الذين استوطنوا ما بينَ دجلة والبحر المتوسط والبحر الأحمر فقد كانت لغاتهم تقارب لغات الأقوام المتقدم ذكرها ولذلك يظن أنهم كانوا جميعاً من أصل واحد. والذي في التوراة أن العرب واليهود والسوريين والفينيقيين من نسل ابراهيم. وان فريقاً من الساميين رحلوا عن بلادهم واستوطنوا شرق افريقيا الى مضيق جبل طارق وبقي عندهم دون سواهم الاعتقاد بالاله الواحد.

ويلخص مما تقدم ان الجيل الأبيض انشعب شعبتين عظيمتين امتدتا من الشرق الى الغرب أي من وسط آسيا الى البقعة الغربية من هذه القارة الى شمال افريقيا فاوربا بأسرها .

المناشيء الأولى للمدنية

استمر أجدادنا الأولون في حالة الهمجية حتى وجدوا أراضي خصيبة طاب لهم استيطانها لسهولة المعيشة فيها فاستراحوا قليلاً من الجهد المستمر في البحث عن القوت وانتظم مجتمعهم واكتشفوا أقدم الصنائع واتفقوا على النظامات الأولى التي دار عليها مدار الفتهم ونشأتهم الحديثة .

ولما كان الناس بطبعهم ينزعون الى استيطان السهول التي تحصنها الجبال وترويها الانهار كما تنحدر قطرات المياه من الأماكن المرتفعة الى الأماكن المنحطة لتنشىء مجاريها فيها كان الواقف على رسم آسيا يجد فيها بلا استغراب ان المناشيء الأولى للمجتمعات البشرية المنتظمة انما كانت الصين والهند واشور لما توفر في هذه البلدان من وجود الجبال العاصمة لسهولها والانهار المحيية لتربتها . وكأنها بما طوتها عليه الطبيعة من الخصب العجيب ونشرته فوق اغوارها وانجادها من حلى المزروع والمغروس مهود اعدتها مزدانة بالازهار والثمار لذوي الحداثة من الشعوب . أما مصر في افريقيا فكانت كهذه الأمصار من امهات الحضارة وان خالفتها بكونها لا جبال فيها .

الكتب الأولى

تبين علمآء العصر من تصفح أقدم الكتب التي استطاعوا الوقوف عليها أن الشعوب الأولى ارادت ادراك كل شيء وتفسير كل شيء فنسبت الى المفعولات ما كان لعلتها من الحياة والقوة . ولكن تدقيق البحث في تلك الكتب بالمقارنات والمقاربة بين الأصول اللغوية والأنفاس الانشآئية أوصلنا الى معرفة الشيء الكثير عن تسلسل الأقوام وأصل وجود معتقداتهم ومع أن هذه المعرفة لا تزال غير تامة الا أنها من المكتشفات الجليلة الفوائد التي لم تكن لتخطر على قلوب أهل القرون السابقة لهذا القرن .

— ٢ —

الصين والمغول

أقدم عهد للمدنية الصينية

يؤخذ من مطالعة الأسفار القديمة ان كل الشعوب كانت تبعد أصلها التاريخي الى ما تشآوه من الازمان. ومنها الصينيون فانهم كانوا يزعمون ان اجدادهم وجدوا منذ ثمانين أو مئة الف سنة قبل العهد المعروف من تاريخهم وهو يرد في حقيقته الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد. ومشهور عن هذه المملكة ان فيها أقدم سجلات التاريخ لما كان عليه ملوكها من الرغبة في تخليد مآثرهم ولكن تلك السجلات لم يشرع في كتابتها بالاستمرار الا منذ سنة ٢٦٠٠.

ولسنا ندري في أي زمان أو على أي كيفية تألفت هذه الأمة الكبيرة وانما نعلم انها ثابتة منذ أربعة آلاف سنة الى هذه الأيام على صفات وأخلاق لم تتغير وانها كانت والهنود على طرفي نقيض من حيث الحالة المعاشية فهي قاصرة شغلها على زراعتها وصناعتها واستخراج كل الرزق الذي يسعها استخراجه من الطبيعة واولئك مكتفون بما توفر لديهم من خيرات بلادهم الخصيبة لاهون بالخيالات الدينية مجتهدون في استكثار آلهتهم متوغلون في عالم الروح والتصور.

وكانت ديانة الصينيين سمجة تفضلها آدابهم الخلقية في المعايشة والمعاملة ومن كليات آدابهم القواعد الخمس الثابتة التي وضعها لهم الامبراطور شون في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهي تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء والابناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه وكانت المملكة لذلك العهد مقسومة الى امارات وايالات واعمال ومدائن. وكان عدد كبير من الشعوب يحملون اليها الجزية وجمهور من الامراء ينتمون اليها.

السلائل الامبراطورية وحكم الشرفاء في الصين

كان الملوك الى سنة ٢٢٠٠ يولون بالانتخاب ثم تأسست الوراثة للملك ولكن عظمآء القوم كانوا يختارون بين أولاد الامبراطور المتوفي اليقهم بالخلافة.

وأول سلالة توارثت الملك في الصين سلالة «هيا» وكان رأسها الملك «يو» واستمر حكمها اربعة قرون ثم انقرضت على كراهة ومقت بسبب ما ركبه آخر ملوكها من المنكرات وقام على اثرها رأس سلالة «شنغ» (١٧٦٦) وكان ملكاً عظيماً ذا حكمة وذكآء وقد أطنب في مدحه الحكيم كونفوشيوس.

واتفق في عهده ان حدثت مجاعة فأراد استعطاف السماء لتخفيف تلك المصيبة فاعترف اعترافاً عاماً على رؤوس الاشهاد بذنوبه واقتدى به خلفاؤه كلما وقعت رزيئة عامة على بلادهم. على ان آخر ملوك الشنغيين جاء أشبه بآخر الملوك من سلالة هيا. وحدث ان وزيره انذره يوماً في امر فقتله شر قتلة فثار عليه الامير «ووونج» حاكم فوتشيو ودحره فجمع مقتنياته في قصر واحرقه والقى بنفسه في النار فمات سنة ١١٢٢ واستوى «ووونج» على عرش الصين فأنشأ المحكمة الشهيرة المؤلفة من اعضاء غير قابلين للعزل وذلك ليكونوا ذوي استقلال ويحكموا بمقتضى الحكمة السياسية الصينية التي كانت تستوجب «احترام الاجداد والسير في المسالك الحميدة التي سلكوها» وفي عهد هذه السلالة الثالثة كثرت الممالك التي تحمل الجزية الى الصين حتى بلغت ١٢٥ مملكة ويقال ان الصينيين في ذلك الزمان شيدوا المرصد الفلكي الذي لا يزال موجوداً واكتشفوا ابرة القبلة والمزولة وعرفوا بعض الشيء من أصول الهندسة.

السور الكبير وفي احراق الكتب وفي اتساع المملكة الصينية في اوائل التاريخ الميلادي.

وفي مدة آخر عقب من أعقاب تشيو ازداد عدد الممالك والامارات المستقلة في الصين ولم تلبث ان خلعته فقامت سلالة تسين ووحدت المملكة التي سميت باسمها

(تسين ومنها الصين) وكان القائم بذلك الامبراطور «تسين شي هوانغ تي» (٢٤٧ ق م) وهو الذي ابتنى السور الكبير البالغ طوله ٢٥٠٠ كيلومتر لردِ صدمات التتر وانشأ الطرق وخرق الجبال. غير أنه طمع في جر ذيل العفاء على ماضي الصين ليبدأ تاريخها من عهده فاحرق الكتب واوقع بالعلماء والأدباء ولكنه لم يستطع افنآء جميع الكتب فبقي منها ما يدل على ما كان قبله. وانقرضت سلالته سنة ٢٠٢ قبل الميلاد وقامت سلالة الهان فاعادت حالة الصين الى سكينتها الأولى فاسترجع العلماء سيادتهم ونفوذهم وبلغت الصين أوج عظمتها وتقدمت جيوشها ظافرة الى بحر قزوين تجاه املاك الرومانيين وكانت جميع الملوك والشعوب الى البحر الشرقي خاضعة لها.

غارة المغول في القرن الثالث عشر

وكان القسم الأعظم من الدنيا المعروفة في ذلك الاوان مقتسماً بين المملكة الصينية والمملكة الرومانية فلما تكاثرت الخلائق الهمجية المستوطنة ما بين السور الكبير الى بحر قزوين وطمعت في اغتنام ما كان محتشداً في السلطنتين المتقدم ذكرهما من الاموال والذخائر أخذت تتجهمر وتبرح صحراءها واحدة اثر أخرى في أزمنة مختلفة فتنبث يميناً وشمالاً لشن الغارة عليهما. وسنرى ما وقع على رومه من بلية هذه الأقوام اما الصين فانها قسمت بعد فتكهم بها الى مملكتين يفصل بينهما النهر الازرق.

وانتقل ملك الصين في ذلك العهد الى سلائل مختلفة لا تذكر واحدة منها بمأثرة الى أن قام الامبراطور «ينغ» من اسرة «تنغ» فضم المملكتين سنة ٦١٨ ولكنه لم يتسن له أن يجعل سلطنته على ما يكفي من المنعة لصد غارات المغول.

وكان المغول قاطنين شواطىء بحر قزوين. وكانت منازلهم من الاكواخ القائمة على عجل يتنقلون عليها وهم يسوقون مواشيهم وكان الرجل منهم يقضي نهاره على صهوة جواده وربما مست الحاجة فقضى ليله راكباً. يقتات من اللحم المدقوق الذي يذخره بين السرج وظهر الحصان أو من اللبن المجفف ولا يخشى التعب ولا الفاقة ويطيع رؤساءه طاعة عمياء ويحب عصابته حباً شديداً ويفاخر بها.

وان زعيم احدى العصائب المغولية وكان يدعى تمودجين جمع كل تلك العصائب سنة ١٢٠٣ تحت سلطته ولقب نفسه بجانكيزخان ومعناه زعيم الزعماء ووعد خيالته الموصوفة بالبسالة والمكر بأنه يقودها الى فتح الدنيا باسرها.

وأول عمل شرع فيه ايقاعه بالتتر الذين كانوا ساداته سابقاً فانتزع منهم ما كان لهم من الفتوحات في الصين الشمالية وبعث ولاة عهده لاخضاع الولايات التي كانت جنوبي النهر الازرق وكوريا ثم زحف بجيوشه على غربي آسيا واوروبا تاركاً وراءه الدمار في الفرس وروسيا وبولونيا حتى وصل الى سفح جبال بوهيميا. وكان هذا الملك الجديد اوسع ملك طلعت عليه الشمس الى ذلك الزمان غير أنه لم يدم الا قليل وانما بقي المغول من بعده مستبدين بالحكم في روسيا مدة قرنين الى عهد ايوان الثالث في اوائل الازمان المتأخرة في التاريخ.

ولما دنت منية جانكيزخان سنة ١٢٢٧ قسم ملكه بين ولاة عهده اربعة أقسام وهي الصين ودجاغاتاي أو تركستان وبلاد فارس والكابتشاك أو روسيا الجنوبية. ولقب حفيده كوبلاي بالخان الأكبر وكان مالك الصين وتبت وبيجو وكوشنشين وله السيادة على الأقسام الاخرى الى ضفاف نهر الدنيابر غير أن هذه السيادة لم تدم الا الى اواخر القرن الثالث عشر ثم تمّ الانفصال بين هذه الممالك الأربع.

أول من دخل الصين من أهل اوربا

وكان كوبلاي خان رأس سلالة يان (١٢٧٩) وقد تخلق باخلاق شعبه وحافظ على تقاليده واعان على تقدم المعارف والزراعة وانتحل دين بوذا الذي نشأ في الهند ودخل الصين منها وله نحو مئتي مليون تابع من الصينيين أي أكثر من نصف السكان. وفي عهده توصل رجل من البندقية يدعى ماركو بولو الى دخول بلاطه والانتظام في حاشيته فاقام لديه ١٧ سنة الى ١٣٦٨ التي طرد فيها الأجانب من الصين بسبب ثورة أهلية حدثت. ولا يزال ما كتبه ذلك الرجل محفوظاً وهو من الغرابة بمكان. وعلى اثر هذه الثورة تولت الملك سلالة منج الصينية مكان السلالة المغولية واستقرت فيه الى سنة ١٦٤٤ وكان البرتغاليون قد دخلوا ماكاوه سنة ١٥١٤ ومن ذلك يؤخذ أن سقوط سلالة منج كان بعد دخول الأوربيين الى الصين بزمان طويل.

المملكة المغولية الجديدة في اسيا الوسطى والهند

وفي هذا العهد قامت أول قائمة للأتراك الذين كان منشأهم من تركستان وكانوا ذوي قرابة للمغول. وفيه ظهر تيمورلنك أو تيمور الأعرج الذي جمع اليه اشتات القبائل المغولية الرحالة وافتتح من سنة ١٢٧٠ الى سنة ١٤٠٥ بلاد تركستان وفارس والهند وآسيا الصغرى ودمر المغول المعروفين بالعصائب الذهبية في كابتشاك الا أنه لم يتوصل مع ذلك الى كسر شوكتها وظهر على الاتراك واسر سلطانهم في موقعة انسير التي تعرف اليوم بانقرة ولم تبق بعد ذلك مملكة قائمة في آسيا الا مملكة الصين فزحف عليها بالجماهير التي لا تحصى من مقاتلته ولكن المنية ادركته في اثناء مسيره.

وكان قد شاخ في الحروب ولم يعرف الملل ولا الكلال ولم يزل الى اليوم معروفاً في التاريخ بأنه أظلم فاتح اما مملكته فانقسمت بعده واضمحلت ولم يبق منها الا جزء في شبه جزيرة الكنج بالهند واستمر قائماً الى أن استولى عليه الانكليز في اواخر القرن الخالي.

الصين في الازمان المتأخرة

ولما كانت سنة ١٦٤٤ اغار التتر المندشوريون من الجنوب على الصين وكان سكانها منغمسين في بحبوحة الترف وملوكها من آل منج مهملين امر المعدات الحربية وتنشئة الأمة على خلق البسالة ففتحوها واسقطوا بيت منج المتقدم ذكره واقاموا مكانه اسرة تسين منهم وهي لا تزال مالكة الى اليوم وتخلقوا بأخلاق الصينيين ليسهل لهم قيادهم وافتتحوا بلاداً كثيرة ضموها الى الصين بحيث جعلوها على ما هي عليه الآن من الاتساع.

وفي سنة ١٨٤٠ وقعت بين هؤلاء الامراء وبين الانكليز حرب الافيون الشهيرة التي انتهت بفتح خمسة من المواني الصينية للتجارة الاجنبية. وفي سنة ١٨٦٠ دارت رحى الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسويين معاً وكان ختامها بانتصار الفرنسويين على جيوشهم في باليكاوة واستيلائهم على بكين عاصمتهم.

ومحصل القول ان الجيل الأصفر كان ذا شأن عظيم في الدنيا فمنه الهونيون الذين كان على يدهم سقوط المملكة الرومانية ومنه المغول الذين اقاموا تحت قيادة جانكيزخان أعظم مملكة في القرن الثالث عشر ومنه المغول الاخرون الذين دمر بهم تيمورلنك عشرين مملكة واهلك شعوباً برمتها. ومنه الاتراك الذين ظهروا على النصرانية مدة قرون طويلة ومنه الشعب الصيني الذي تمتع بالحياة المدنية خمسين قرناً متواصلة وكان من تاريخه ما ذكرناه.

كنفوشيوس والأمة الصينية

تقدم لنا ذكر هذا الحكيم الشهير الذي لا تزال تعاليمه حية بين قومه وعليها مدار نظامات الصين الى اليوم ولا بدّ لكل طالب علم أن يستظهرها لينال في الامتحانات الشهادات التي بها يحصى بين أهل المعارف وتخوله حق الدخول في المناصب.

ولم يكن لكنفوشيوس في زمانه حق وضع الشرائع لقومه بل كان ينشر الحكمة بينهم ويعلمهم إياها. ومن حكمه العظيمة قوله إنه «لا شيء أسهل من الجري على المبادىء التي جرى عليها أجدادنا الحكماء الأقدمون. قد كانوا لا يحيدون عن النواميس الأساسية ،الثلاثة التي تقوم عليها الصلات بين المالك والرعية والأب والأبناء والرجل والمرأة وكانوا يتمسكون بالفضائل الخمس الأصلية وهي محبة الإنسان لأبناء جنسه بدون تمييز بينهم. والعدل أي إعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لأحد على آخر. والمحافظة على العادات التي رسخت والأديان التي أمرنا بها حتى لا تكون للأمة إلا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها. والاستقامة أي طلب الحقيقة بلا تضليل ولا خداع. والصدق أي الاستقامة في السير والخطاب ذلك ما جعل أجدادنا مجلين في حياتهم أحياء بالذكر الجميل بعد مماتهم فعلينا أن نقتدي بهم ونحذو على مثالهم. اه

ومن تعاليمه الدينية قوله «إن السماء هي المنبع الذي خرج منه كل شيء وإن أجدادنا خرجوا من السماء وولدوا الذراري التالية فأول واجب يتعين على الانسان أن يقوم بمفترض نعمة السماء وثانيه أن يعرف جميل الأجداد».

فيثبت مما تقدم أن الدين والحكومة في الصين مبدأهما الحب البنوي وبعبارة أخرى ميل الموجود الى من أوجده ولذلك كان الصينيون يكرمون السماء باعتبار انها مصدر كل الكائنات ويكرمون الامبراطور ابن السماء باعتبار كونه أباً للأمة. على أن قوة هذا الميل هي التي حفظت الحالة الداخلية في الصين غير متغيرة مع ما تناوب البلاد من الغزوات وتوالى على عرشها من السلائل الوطنية والأجنبية.

وهي التي جعلت تلك الأمة المؤلفة من أربع مئة مليون من الناس تنعم بالعيش الرغيد بلا انقطاع. وإذا نظرنا بالتدقيق الى تقدم الصين من حيث الأحوال المعاشية وجدناها لا تكاد تحسدنا على شيء خلا بعض المخترعات الحديثة العظيمة. فإن أهلها يستغلون القمح والبقول والثمار والقطن والحرير والكتان وكثيراً من قشور الأشجار التي يصنعون منها الأنسجة. ويستخرجون المعادن ويتفننون في النجارة وصناعة الخزف والورق والصباغة وتقطيع الحجارة وتركيب العجلات. ولا يكاد يخلو مكان في مملكتهم من الطرق والترع والجسور المعلقة التي ترتفع فوق الأنهار أو تصل بين الجبال ولها متانة جسورنا مع كونها أخف منها.

ولهم آداب لغوية قديمة العهد ترد الى أربعة آلاف سنة. وحكمة لا تقل عن سواها من تعاليم الأمم المختلفة وعلوم مخصوصة لا يحتاجون معها الى علوم أوروبا وهم أول الذين اكتشفوا إبرة القبلة والبارود والمطبعة. وفي كل ذلك لم يستعينوا بالأجنبي لأنهم اعتبروا بماضيهم واحترموا حكوماتهم مع تبدل الملوك الذين تولوها.

ولم يوجد في الصين قط كهنة ولا شرفاء ولا أرقاء. ولا تفاوت فيها بين الناس إلا بالجد والكفاءة والمعرفة التي بها يبلغ المناصب مستحقوها بدون التفات الى الأصل والجاه غير أن الصينيين مع سلامة مبادئهم وكثرة سعيهم في التماس الرزق لم يلبثوا أن ابتلوا بالشقاء والفاقة والنقائص التي تنشأ عن كثرة الزحام والإفراط في الترف فدخل الكذب والاحتيال في أصلح أحوالهم النظامية والمذهبية وفشا الظلم واشتدت القسوة وعمت الرشوة ولزموا الانحطاط المعنوي حتى لم تكن لهم غاية سامية ينتهون اليها في دين أو فلسفة أو فن أو صناعة. بل قصروا همهم على طلب حاجاتهم والسعي في

إدراك ملاذهم الحسية ولم يشعروا بالآلام الفكرية التي عاناها غيرهم من الشعوب ليحوزوا مجداً خالداً أو ينتقلوا من طور إلى طور أصلح لهم وأرقى ومن هذا القبيل لم يستفد العالم من الصين شيئاً فهي فيه وكأنها ليست منه. وإذا جلت فيها وجدت منازلها مبنية بالخشب والأجر بناء حقيراً لا رونق له ولا معنى وألفيت صناعتي التصوير والحفر في انحطاط شديد ولم تظفر من المرسوم أو المنقوش بشيء يدلك على الحياة المعنوية بل كل ذلك نقل عن الأشكال الحسية السمجة ولا يؤثر في ناظره إلا تأثير الحركات الشهوانية.

— ٣ —

الهند

المقابلة بين الصين والهند

الصين والهند متتاخمتان ولا تفصل بينهما إلا جبال حملايا غير أن بينهما بوناً شاسعاً في الأخلاق والفطرة. ففي الصين تجد الفكر جافاً بعيداً عن الخيال ناظراً الى ما لديه لا الى ما وراء الأفق وفي الهند تجد الفكر سائداً عليه الوهم. وصاحبه بعيد الأماني مولع بغير المرئيات.

والحكومة في البلادين آلة واحدة غير أن الذين يديرونها في الصين هم العلماء وأما الذين يديرونها في الهند فهم الكهنة. وكل رجل في الصين يستطيع الوصول الى أرقى المقامات وأما في الهند فكل يلزم الطبقة التي ولد فيها ولا يخرج منها.

أول سكان الهند

تتألف الهند من واديي السند والكنج وشبه جزيرة دقهان وكان أول ساكنيها أناساً من الجيل الأسود آخرهم القوم المسمون بالغونديين ثم قطنتها بعدهم قبائل من تركستان تعرف بالتامولية والتلنجية وغيرها وهي فرع من الجيل المغولي ثم أقام فيها

أناس سمر الألوان الى الحمرة وكانت إقامتهم في الشواطىء الشرقية للبحر الهندي. وليس للهند تاريخ يعرف إلا منذ دخلها الآريون وهؤلاء كانوا فريقاً من قبائل كثيرة بيضاء تقطن القوقاف الهندي في مساكن مبنية. ولما تكاثرت مع كرور الزمان أعقاب تلك القبائل حتى ضاقت بهم بقعتهم الصغيرة وقامت بينهم المشاحنات والخصومات السياسية والدينية على قدم وساق هاجرت جماهير كثيرة منهم بلادها حتى ملأت نصف آسيا والهند وأوربا بأسرها. فمن أولئك المهاجرين السلتيون والبلاجيون واليونيون في آسيا الصغرى والإيرانيون في ماديا والفرس والجرمانيون والسلافيون من جبال أورال الى نهر الراين.

أما الآريون فقصدوا الجنوب الشرقي واجتازوا نهر السند وأخضعوا بنجاب التي كانت تعرف ببقعة الأنهار الخمسة بعد قتال طويل ورد ذكره في سفر «الفيدا» وهو أول الكتب المقدسة وأقدم كتاب للجيل الأبيض. يشتمل على قصائد دينية وصلوات ويرجح انه وجد قبل الميلاد بست مئة سنة.

ثم أن الآريين الذين استوطنوا بنجاب زحفوا قبل الميلاد بنحو خمس مئة سَنة على وادي نهر الكنج وتقدموا الى مصابه التي تمتزج بمصاب نهر البراهمابوترا. غير أن جبال حملايا وكثرة عدد الأمم المغولية في الهند الصينية حالت دون تقدمهم الى جهة الشرق فأخذوا يتحاربون فيما بينهم حروباً ورد وصف أشهرها في كتاب الماهابهراتا. وهو سفر يتألف من ٢٥٠٠٠٠ بيت من الشعر وفيه ذكر المواقع الهائلة التي وقعت بين قبيلة الكورو وقبيلة الباندوايين الى ظهور البطل كريشنا الذي يعتقد الهنود أنه هو الإله «وخنو» هبط الى الأرض متجسداً. والظاهر أن هذا الكتاب الشعري أشبه بالقصيدة المعروفة بالألياذة المنسوبة الى هوميروس. والأمكنة التي حدثت فيها الحوادث المروية فيه لا تخرج عن وادي الكنج وأشهرها مدينة دلهي.

ويوجد أيضاً كتاب آخر شعري يسمى الرامايانا وصف فيه فتح الآريين لشبه جزيرة الهند ولجزيرة سيلان وناظمه يدعى فالميكي أودعه ٤٨٠٠٠ بيت من الشعر الجميل الذي يجعل له مكاناً بجانب فرجيل وهوميروس.

تاريخ الهند

لا تاريخ للهنود إلا ما كتبوه عن آلهتهم. وغاية ما يعرف عنهم في أول أمرهم أن داريوس افتتح البلاد الواقعة الى يمين السند. وان الاسكندر وجد على الضفة الشمالية من السند ملوكاً كثيرين منهم تكسيل ابيسار والمكان المعروف كل منهما باسم فورس ووجد أيضاً شعوباً كثيرة مستقلة وكان ينوي التقدم الى «باطنه» عاصمة أمبراطورية البرازيين عند ملتقى نهري الدجمنة والكنج لو لم تحل دونه ثورة جنوده عليه عند شواطىء نهر ايفاز. ويروى أن رجلاً هندياً خاملاً يدعى تشاندراكوبتا عظم أمره واشتدت سطوته فطرد الحكام الذين أبقاهم الاسكندر في بنجاب وأسقط امبراطورية البرازيين. وان فاتحاً آخر معاصراً لقيصر يدعى فيكرامادينيا ملك أيضاً على قسم كبير من شبه جزيرة الهند وأدخل في بلاطه كاليداسا أشهر شعراء الهند صاحب القصيدة المعروفة بالسكونتالا. وان ملوك الباكتريان اليونانيين ملكوا قسماً من وادي السند ولا تزال لهم فيها انواط تدل عليهم وعقدوا صلات تجارية مستمرة بينه وبين مصر. وثابت أن تجاراً رومانيين أنشأوا هناك متاجر وكانوا في كل سنة يأتون بنحو عشرين مليوناً من الفرنكات نقوداً ليشتروا بها الحرير واللؤلؤ والطيوب والعاج والأفاويه ومن ذلك العهد أخذت الأموال تنصرف من جميع الأقطار الى الهند فتتجمع فيها وتعظم بها ثروة أمرائها على الخصوص فأطمع ذلك مسلمي بلاد فارس في فتح الهند وفي أول القرن الحادي عشر زحف زعيم تركي يدعى محموداً الخرنويدي على الهند ففتحها وغنم ما استطاع من ثروتها وأدخل قسماً كبيراً من أهلها في دينه. ثم استولى المغول على البلاد بعد الأتراك وكان ملوكهم يقيمون في دلحي وبقي لهم الحكم المعروف بحكم المغول الكبار الى آخر القرن الماضي. وأول ما وقعت صلة بين أوربا والهند مباشرة كان على أثر فتح رأس الرجاء الصالح ووصول فاسكو دي غاما الى كلكوتا سنة ١٤٩٨ ثم جاءها تجار من البرتغال فكسبوا المكاسب الجمة وعظمت سطوتهم فيها الى أن خلفهم فيها تجار من بلجيكا ثم من فرنسا وانكلترا. والهند اليوم قسم من المملكة البريطانية ويحكم الانكليز فيها على مئتي مليون نفس من حملايا الى سيلان.

طبقات الناس في الهند

ورد في الكتب الهندية المقدسة أن المعبود الأكبر برهمه قسم الشعب الى أربع طبقات البراهمة أو الكهنة الذين خرجوا من رأسه والقساطرة أو المحاربين الذين خرجوا من ذراعيه والفايسية أو الفلاحين والتجار الذين خرجوا من بطنه وفخذيه والسوادرة أو المحترفين والأسرى والمغلوبين الذي خرجوا من رجليه.

والطبقات الثلاث الأولى هي السائدة وكانت من الآريين الفاتحين وكان محظوراً عليها مصاهرة الطبقة الرابعة. وكان الذين يولدون من أهل الطبقة الأخيرة أو الذين يخرقون حرمة الشرائع الدينية يعدون أنجاساً و يمنعون عن سكنى المدن وعن الاستحمام في نهر الكنج المقدس وعن قراءة الفيدا. ومن مسهم فهو نجس مثلهم.

وكان للبراهمة دون سواهم حق قراءة الكتب الموحاة وتفسيرها و بما أن كل علم وكل حكمة كانا متضمنين في تلك الكتب على زعم المعتقدين بها كان البراهمة معدودين أطباء وقضاة وشعراء مع كونهم كهنة. وقد سادوا بالتهويل الديني وكثيراً ما حاول الأبطال والراجوات وهم الملوك الذين كانوا ينتخبون من بين المحاربين أن يتخلصوا من ربقة البراهمة ففشلوا واضطروا أن يصبروا على سلطتهم مرغمين. وعندئذ استقر نظام الهند على قواعده التي لا تزال أركانها الأساسية محفوظة الى الآن. وتوجد تلك القواعد في كتاب شرائع مانو. ومانو هذا ورد ذكره في الفيدا بأنه الأب العام للبشر والشارع الأعظم لهم. وشرائعه منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر مجموعة في كتاب مقسوم الى ١٢ باباً.

النظام السياسي والدين

إن شرائع مانو المزعوم أنها موحاة تحتوي كتوراة موسى على تاريخ خلقة العالم والنظام الكهنوتي والمبادىء التي يجب أن يجري عليها الفرد والأسرة والمدينة وواجبات الأمراء، وأهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري وقوانين العقوبات والقوانين المدنية.

وملخص كل ذلك بقاعدتين إحداهما تقضي على الأمة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتهما تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية.

وقد أقرت شرائع مانو جميع الآلهة التي ذكرت في الفيدا ولكنها جعلت فوقها إلهاً يدعى برهم هو الكائن المطلق الدائم الروحاني المستقل الذي يصدر منه برهمة. وبرهمة هو المبدأ الحي المحرك للعالم الذي تصدر منه المعبودة براماتامه المزعوم انها حياة العالم. وهذه المعبودة باقترانها مع ماناس الذي هو المبدأ العقلي تلد الكائنات طبقات أرقاها أقربها الى برهمة وأقربها إليه أكثرها حكمة وعلماً وفضيلة. وهكذا كانت الإلهة عند الهنود طبقات متسلسلة والكائنات المنبثقة منها متفاوتة كتفاوتها ولكل من الآلهة والكائنات مرتبته العالية أو المنخفضة في أثناء ذلك التسلسل العام بقدر ما عنده من الذكاء وما لعمله من الشأن. فبرهم هو الكائن الأول المطلق ويليه برهمه خالق العوالم ثم وخنو مدبرها ثم سيفا معيدها على طريقة التناسخ ثم الآلهة التي تمثل القوة الطبيعية وبعدها الانسان بدرجاته ثم سائر الكائنات مع تفاوتها.

وللهنود ثواب وعقاب في الدار الآخرة فالثواب للمتناهين في الصلاح بأن تعود نفوسهم الى روح المعبود الأكبر وتلزمها غير مفترقة عنها ولسائر الصالحين بأن يدخلوا جنة نعيم ذات سبعة وعشرين مكاناً.

والعقاب للمجرمين أن يلقوا في (الناراكا) أو الجحيم وفيه واحد وعشرون مكاناً يختلف فيها العذاب شدة باختلاف جرم الذنوب ومع ذلك فالذين في الجحيم والذين في النعيم لا يلبثون أن يعودوا الى الأرض بصور أخرى مترقين في كل عودة ترقياً جديداً من طبقة الى ما فوقها الى أن يولدوا كهنة فإذا ماتوا لزمت نفوسهم روح برهم ولم تنفصل عنه.

البوذية

وجد في القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى ساكيموني لقب بالحكيم أو بوذا. وكان والده أميراً في قطر مجاور لنابول. ولما بلغ التاسعة والعشرين من العمر تخلى عن ملك أبيه وثروته وأسرته وانفرد في القفر يطلب معرفة الحقيقة. وفي السادسة

والثلاثين عاد من القفر وأخذ يخاطب الجماعات على اختلافها بدون نظر الى تفاوتها في الطبقات وكان يحدثها بالأمثال فيؤثر في النفوس تأثيراً عظيماً.

على أن مخاطبته بأسرار الدين للطبقة السفلى كان خروجاً منه عن قاعدة الدين البرهمي القاضية بمنع تعليم مثل ذلك للسوادرة.

وكان فضلاً عن ذلك يهدم أساسات الدين المذكور بتعليمه أن الناس أمام الشرائع الأدبية متساوون وأن الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية. وأن كل امرىء من أي طبقة كان يحصل بتقواه وفضله على النجاة والاتحاد بالجوهر الإلهي. وإن كلاً من غني وفقير يستطيع أن يكون كاهناً. وأن للانسان ستة مكملات العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهارة والصبر وحب الناس والبر.

وكان يقول لهم: «إني أتيت لأفرغ الحكمة في قلوب الجهلة والحكمة هي العلم والفضيلة والصدقة. والرجل الكامل لا يعد شيئاً إذا لم يغث الملهوفين. إن تعليمي لهو تعليم رحمة. ويجده السعداء في هذا العصر صعب المراس ويأنفون من الانقياد إليه لشرف أصلهم ولكن باب الخلاص مفتوح لجميع الذين يبيدون شهواتهم ورذائلهم كما يحطم الفيل كوخ القصب».

وقد انتشر هذا المذهب الحسن انتشاراً عظيماً وعلى الخصوص بين السوادرة والمحاربين. واستمر صاحبه يجاهد في تأييده مع مقاومة البراهمة الى أن بلغ الثمانين. ولم يحتج قط الى الاستعانة بالقوة وكان يوصي باحترام الأمراء والقيام بما يجب لهم فلم يضطهدوه. وبعد وفاته عقد تلامذته مجتمعاً اشترك فيه خمس مئة من رجال هذا الدين فتناقشوا سبعة أشهر الى أن قرروا قواعد المذهب وأوضاعه ثم زادوها جلاءً وتثبيتاً في مجتمعين آخرين عقدوا أحدهما في القرن الخامس قبل الميلاد والثاني قبل المسيح بمئة وخمسين سنة.

وخلاصة هذا الدين انه عدل الدين الهندي القديم من حيث فتح باب النجاة للجميع على السواء وزاد على الآلهة القديمة آلهة جعلها أطهر منها.

وكان معبد البوذيين لا يوجد فيه إلا تمثال بوذا يكرمه الناس تكريماً ولا يعبدونه عبادة وكانت لا تقدم فيه ضحايا ولا تجرى حفلات خرافية. كل ذلك قبل أن يدخل الفساد على هذا الدين.

إلا أن البراهمة لم يلبثوا أن اضطهدوه وأمروا بقتل ذويه من سيلان الى حملايا ففازوا بمعظم أمنيتهم في الهند ولكن البوذية انتشرت في تبت التي هي مركزها الأكبر الآن وفي بلاد المغول والصين والهند الصينية وسيلان.

وتوجد في الهند آثار صناعات بديعة كالبناء والنقش والنحت والتصوير. وفي الجملة فقد اختص أهلها بثلاثة من الأمور التي امتازت بها الأمة اليونانية على سائر الأمم وهي الفكر والشعر والصناعة.

— ٤ —

تاريخ مصر

قسمة تاريخ مصر

يقسم تاريخ مصر القديم إلى عهدين العهد الأبعد والعهد الأدنى. ويشتمل الأول على حوادث الزمان الذي مر من تاريخ ملك مينس أول الفراعنة الى سقوط الوجه البحري تحت حكم الرعاة ويشتمل الثاني على حوادث الزمان الذي مرّ من تولي الرعاة الى استيلاء الفرس على القطر.

وجملة الأسر التي ملكت مصر في العهدين المتقدم ذكرهما ست وعشرون منها اثنتا عشرة في الزمن الأبعد والباقية في الزمن الأدنى.

وكانت الأهمية العظمى قبل الفراعنة لمملكتي ثيبة وثيس ثم انتقلت معهم الى مدينة منفيس أو منف التي شادها ميناس على مدخل الدلتا.

ويؤخذ من بعض المطالعات أن مصر كانت في عهد ابراهيم ذات حكومة منظمة وانها تلقت مبادىء المدنية والعلم من كهنة أحباش هجروا وطنهم في جمهور من أتباعهم أيام كان ميرواي قائماً بتدبير الدولة الحبشية وهبطوا اليها من النيل الأعلى ونشروا تعاليمهم في جميع أرجائها وهم الذين أسسوا مملكتي ثيبة وثيس.

ذكر سكان مصر الأولين

ليس القطر المصري بالقطر الذي قام فيه أول مجتمع متمدن ومع ذلك فتاريخه يشمل سبعين قرناً وهو صحيح الرواية عن كثير من الوقائع والرجال. ولا تزال أسماء جمهور من ملوكه وأفعالهم منقوشة على الأبنية التي ملأوا بها البلاد وينسب تشييد هرم صقارة ذي الدرجات الى الملك الرابع من السلالة الأولى.

ولم يأت أول سكان مصر من الغرب هابطين إليها مع النيل كما كان يظن سابقاً ولكنهم أتوا من الشمال مارّين ببوغاز السويس. وكانوا من الجيل الذي تسميه التوراة بنسل حام وكان العرب يدعونهم بالحمر بسبب لون جلودهم والظاهر أنهم هم الذين عرفوا باسم الكوشيين وكانوا أول المستوطنين لشواطىء البحر الهندي بطوله وشواطىء خليج العجم والبحر الأحمر. والمحققون على أنهم كانوا أهل ولايات صغيرة الى أن قام بينهم زعيمهم الشهير مينس فساد على جميع الوادي من البحر الى شلالات سيان أو اصوان وأصبح رأس السلالة الملكية الأولى قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة. ولا يعرف شيء يذكر عن هذه المدة المجهولة سوى دعوى المصريين فيما بعد بأن زمرة من الآلهة كانوا ملوك مصر في تلك الأزمان ثم خلفهم أنصاف الآلهة أو الكهنة نوابهم وخلف هؤلاء جماعة من المحاربين. ذلك ما كان يدعيه المصريون جرياً على عادة الأقدمين في الرواية عما جهلوه من أخبار سلفهم أو عما أرادوا تعظيمه من شأنهم: وأما العرب فقد نقلوا في تواريخهم عن الأمم الأجنبية أحاديث لا يعوّل على أكثرها لثبوت فساده وإنما نروي هنا عنهم بعض ما قالوه عن فراعنة مصر ونروي في غير هذا المكان شيئاً مما قالوه عن المتقدمين من ملوك بعض الأمم الأخرى على احتمال أن تكون بعض الأسماء التي يذكرونها والوقائع التي يحكونها لا يخلو من

الصحة إذ لا يزال المحققون يبحثون فيه ولم يهتدوا الى نقضه أو إثباته. قال أبو الفداء قال ابن سعيد وأسنده الى الشريف الادريسي أن أول من ملك مصر بعد الطوفان «بيصر» بن حام بن نوح ونزل مدينة منف «منفيس» هو وثلاثون من ولده وأهله ثم ملكها بعده ابنه «مصر» وسميت البلاد به لامتداد عمره وطول مدة ملكه ثم ملك بعده ابنه «قفط» ثم أخوه «اتريب» وأتريب المذكور هو الذي بنى مدينة عين شمس وبها الآثار العظيمة الى الآن ثم ملك بعده أخوه «صا» وبه سميت مدينة صا وهي مدينة خراب على النيل من أسفله ثم ملك بعده «تذراس» ثم «ماليق» بن تذراس ثم «حرابا» بن ماليق ثم «كلكلي» بن حرابا ثم «حريبا» بن ماليق ثم «طوليس» وهو فرعون ابرهيم. اه ملخصاً.

وفي عهد السلالة الرابعة أي قبل الميلاد بنحو ٤٢٠٠ سنة ظهرت كل عجائب الحضارة المصرية وارتقت الصناعة على الخصوص مرتقى لم تكد أعظم أعصار الصناعة بعده تبلغه. وكان ذلك منتهى ما استطاعت مصر إدراكه من العظمة والأبهة فلم تزدها عليه القرون التالية شيئاً مذكوراً.

وأشهر عظماء السلالة السادسة فاتح يدعى بابو وملكة اسمها نيكوتريس كان يلقبها مانتون بالجميلة ذات الخدين الورديين وهي التي انتقمت لأخيها بدعوتها قاتليه الى مأدبة في بناء تحت الأرض وإطلاقها عليهم مياه النيل بغتة.

ثم ان الآثار تقل من السلالة السادسة الى الحادية عشرة ومن أجل ذلك لا يذكر التاريخ عن تلك المدة شيئاً ولعل مصائب عظيمة أصابت القطر فيها فتوارى تاريخه في ظلماتها وعند تولي السلالة الثانية عشرة كان الملك قد انتقل كرسيه الى ثيبة بسبب انسلاخ قسم كبير من القطر عنه فأعاد ملوكها الدولة الى ما كانت عليه قبلاً وافتتحوا الحرب الهائلة التي وقعت بين مصر والحبشة. وأشهرهم امنمحات الذي احتفر بحيرة موريس على مساحة عشرة ملايين متر مربع لتعديل الفيضان على الضفة اليسرى من النيل ولم يبق منها الى الآن إلا ما يعرف ببركة القرون.

دولة الرعاة أو الهيكسوس سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد

كانت مصر في عهد السلالة الخامسة عشرة تحت حكم الملك تيماوس قبل الميلاد بألفي سنة فدخلتها عصابة من الرعاة من طريق بوغاز السويس وافتتحت الدلتا ومصر الوسطى وكانت السلالة السابعة عشرة من ملوكهم فلقبوا بالهيكسوس وجعلوا كرسيهم ممفيس وحصنوا مركز أفاريس وهو الذي قام على أطلاله الآن ثغر بور سعيد وذلك ليمنعوا أمثالهم من العصابات الرحالة أن يشنوا الغارة على مصر بعدهم كما فعلوا. واستتب لهم الملك خمسة قرون ثم تغلب عليهم ملوك ثيبة فردوهم الى أسوار أفاريس، ثم طردهم منها أموزيس سنة ١٧٠٠ فخرجوا من القطر.

عظمة مصر من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد

ومر على مصر بعد طرد الرعاة عصر تقدم استمر نحو ألف سنة. وكان بدؤه على يد امراء السلالة الثامنة عشرة (١٧٠٣ — ١٤٦٢). وفي هذا الزمان كان كبار اليونانيين يأتون مصر ليقتبسوا من علومها وصنائعها.

وأشهر ملوكها اموزيس الملقب بالمنقذ وتوطميس الأول الذي اقام الآثار على شواطىء الفرات والنيل الأعلى ذكراً لانتصاراته. والملكة هاتازو التي كتب ذكر غلباتها في هيكل الدير البحري بثيبة. وتوطميس الثالث فاتح آسيا الغربية والسودان وهو الذي قال فيه أحد الشعراء انه جعل حدود مصر حيث شاء. وتوجد هذه العبارة منقوشة على رأس عمود في متحف الجيزة. وامنوفيس الثالث الذي دعاه اليونانيون ممنون وهو صاحب التمثال الذي كانت نسمع له رنة عند اشراق الشمس.

واستمرت هذه العظمة لمصر تحت حكم السلالة التاسعة عشرة فان احد ملوكها وهو ساتي الأول زحف الى ارمينيا وابتنى غرفة في الكرنك من أجمل مصنوعات الهندسة المصرية واحتفر من النيل الى البحر الاحمر ترعة لا تزال آثارها تدل عليها وبئراً على طريق بعض مناجم الذهب كان يخرج منها الماء كما يخرج من الينابيع او كما يستخرج من الآبار المعروفة في هذه الايام بالارتازية. وخلف هذا الملك

سزوستريس الثاني الذي نسب اليه اليونانيون كل فتوحات الملوك السابقين عن خطأ وكان مع ذلك بطلاً تشهد بفعاله آثار ابنية شادها في بيروت وقصيدة محفورة على احد جدران الكرنك. وأكبر مزية كانت لهذا الملك حبه للبناء فقد اقام هيكلي ابسامبول بثيبة ومسالّ الاقصر. وكان يستخدم الارقاء لهذه الابنية ومنهم لاسرائيليون الذين كانوا منتشرين في الوجه البحري واضطروا أن يحفروا مقاطع لحجارة ويصنعوا اللبن ويبنوا الحواجز الواقية للمدن من الفيضان. على أن شدة ستبداد هذا الملك بهم أوجدت عندهم البسالة والحزم فلم يكن عهد ابنه منبتاه حتى خرج الاسرائيليون من مصر. ولا يزال ضريح هذا الملك في وادي باب الملوك.

انحطاط مصر وذكر غارة الاحباش

كان ابتداء السلالة العشرين بملك عظيم يدعى رعمسيس الثالث. فتح عدة بلاد في سوريا والسودان ولكن مصر اخذت بعده في الانحطاط لأنها ضعفت بسبب كثرة الفتوح فهي لم تكتف بالأرض الخصيبة التي يرويها النيل وتذود عنها الصحراء بل تطاولت الى اخضاع آسيا وبلاد الكوشيين وبلاد الليبيين حتى جزيرة قبرص لتكون لها بذلك السيادة على البحر.

ولما تولى الملوك المتقاعدون على أثر الفراعنة الباسلين دس الكهنة لهم الدسائس فاسقطوهم واجلسوا الكاهن الأكبر لعامون على سرير ثيبة وقامت في الوقت نفسه السلالة الحادية والعشرون على عرش تانيس في الدلتا. وكان انقسام مصر هذا سبباً في خضوعها لنفوذ الشعوب المجاورة لها عوضاً عن أن تكون صاحبة السيادة عليها. ومن تفنن ملوكها الساقطين في تلك الأيام انهم اتخذوا لهم اسماء اشورية وادخلوا الاميرات منهم في حرم سليمان وجعلوا حراسهم من الليبيين فلم يلبث هؤلاء أن قسموا البلاد بين زعمائهم وملوكهم اياها. وغنم الاثيوبيون فرصة هذا النزاع فاستولوا على القطر واحرق ملكهم ساباكون ملك مصر حياً وهو بوكوريس من السلالة الرابعة والعشرين واستمر ملك الكوشيين على مصر خمسين سنة من ٧١٥ الى ٦٦٥ قبل الميلاد بعد أن كانوا خاضعين لها الازمان الطويلة. وكانت سلالتهم الخامسة

والعشرين. ومن ملوكها المعروفين سباكوس أو سوا الذي استعان به اوزاي على شلنمصر كما جاء في التوراة ومنهم تراكا الذي انجد حزقيا في مقاتلته لسنحاريب. وذكر مانتون انها قامت ثورة ارجعت ثالث اعقاب الملك ساباكون مدحوراً الى بلاد اثيوبيا وانها كانت في مقدمة الثائرين اسرة أصلها من مدينة سايس الصعيدية نشأت منها السلالة السادسة والعشرون (٦٦٥) وقد ذكر هيرودتس في تاريخه رأس هذه العائلة واسمه بساميتيخوس.

آخر الفراعنة

قال هيرودتس ان آخر الملوك الاثيوبيين رأى حلماً ازعجه فعاد الى بلاده وفوض الأحكام الى كاهن يدعى سيتوس ولما توفي هذا قسم المحاربون الملك بين اثني عشر منهم وكان بساميتيخوس احدهم فاستعان بقرصان من الكاريين واليونيين على زملائه واسقطهم.

ولكثرة اعجابه بمهارة اليونانيين العسكرية احتاط منهم بعدد كبير فاغضب بذلك الجيش المصري فهاجر منه كثيرون الى الحبشة. ثم حاول أن يستعيد ملك سوريا فحاصر فيها مدينة ازوت الكنعانية ولم يفتحها الا بعد ٢٨ سنة.

اما خلفه نيكاو فاستأنف حفر ترعة ساتي بين البحر الأحمر والبحر المتوسط وارسل اناساً من الفينيقيين للطواف حول افريقيا وقهر يوشيا ملك يهوذا في مجدو. ثم تقدم الى الفرات ولكن البابليين انتصروا عليه فذهبت من يده كل البلاد التي فتحها.

ثم خلف نيكاو ابرياس فقاتل السيرانيين وهم طائفة من اليونان كانوا مستوطنين قطعة من افريقيا القديمة بجوار القطر المصري فظهروا عليه فسخط عليه جنوده وظنوا فيه الخيانة واقاموا مكانه رجلاً منهم يدعى امازيس وفي عهده لاح آخر بارق للعمران والحضارة في مصر. قيل كان في ذلك الزمان عشرون الف مدينة قائمة على ضفاف النيل.

واهم ما عمله هذا الملك انه وهب اليونانيين مدينة نوكراتيس وعقد صلات ودادية مع ملوك ماديا وليديا وبابل وكانوا جميعاً في خوف من عصائب جبلية يدعى

رجالها بالفرس نمت واشتد بأسها واتسعت فتوحاتها حتى طمعت في ممالكهم. ولم تلبث أن فتكت بهم واسقطتهم وأخذت بلادهم ولم تغنهم نجدات امازيس ولما توفي هذا الملك وخلفه ابنه بسامنيت اسقطه القائد الفارسي كامبيز لستة أشهر من حكمه وفتح مصر (٥٢٧)

مصر لعهد الفرس واليونانيين والرومانيين والعرب

ومن ذلك العهد فقدت مصر استقلالها ولم تستعده مع انها ثارت مراراً لخلع نير الاجانب عنها. وقد تولاها الاسكندر بعد الفرس وابقى فيها مدينة الاسكندرية المسماة باسمه (٣٣١) وخلفته فيها سلالة اللاجيديين نسل بطلميوس احد قواد الاسكندر فطاب حكمها مدة قرن وخبث مدة قرنين ثم خلفها الرومانيون على اثر موت كليوباترا (٣٠) والغوا الديانة الفرعونية سنة ٣٨١ بعد الميلاد فدمروا الهياكل وحطموا تماثيل الآلهة ولم يبقوا من تلك المدينة الشهيرة الجليلة الا آثاراً يبحث عنها المؤرخون في هذه الايام.

فتنصرت مصر وظلت كذلك على الرغم منها مدة قرنين ونصف قرن بلا راحة ولا سكينة وفي سنة ٦٤٠ للميلاد فتحها العرب وادخلوا اليها الدين الاسلامي فازهر كثيراً في عهد الفاطميين الذين ابتنوا القاهرة وشادوا فيها الازهر الشريف.

الدين والحكومة والصنائع في مصر

كان في مصر دينان احدهما للشعب والآخر للكهنة وكان الأول مادياً سمجاً الّهوا به بعض الحيوانات واشهرها الثور أبيس والثاني ارقى منه وكان أصحابه ينسبون كل ما يحدث من خير الى اوزيريس اله الخير ومن شر الى تيفون اله الشر. والظاهر ان هذا الدين كان في أول امره يعلم بوجود اله واحد لا مبدأ له ولا نهاية ودار اخرى بعد الحياة بدليل شدة عناية المصريين بحفظ جثث موتاهم.

وفي الكتابات الباقية ما يدل على انهم كانوا يقولون بالتناسخ على طريقة الهنود. وعندما فسدت عقيدة المصريين بالاله الواحد قالوا بوجود معبود أول هو أوزيريس

أو الشمس مصدر كل حياة ومعبود ثان هو ايزيس او الطبيعة ومعبود ثالث هو هورس نجلهما.

أما الحكومة فكانت ملكية مطلقة كل الاطلاق وذلك لاعتقاد المصريين ان الملوك هم «ابناء الشمس» ولهم حظ من الالوهية.

ولم تكن عند المصريين طبقات ممتازة كطبقة الكهنوت وطبقة الشرفاء وطبقة العامة بل كان الناس فيها على فرق لا تتوارث ذكر هيرودتس سبعاً منها وهي الكهنة ثم المحاربون ثم الحراثون ثم الرعاة ثم التجار ثم البحارة ثم التراجمة. وكانت أيضاً توجد فرق أخرى فرعية كثيرة وكان الولد بحكم العادة لا اللزوم ينشأ على مهنة أبيه في الفرقة التي هو منها ولكن لا يمتنع عليه الترقي والخروج منها والدخول في أخرى يكون أهلاً لها. وكتب ديودوروس ان الحنث باليمين أو الكذب فيها كان عقابه الموت وان الذي كان يرى رجلاً تحت القتل ولا يبادر لانقاذه يقتل وان النمام كان يعاقب.

وكان كل مصري مكلفاً بايداع كتابة لدى القاضي يذكر فيها وجوه ارتزاقه ومن ذكر غير الحقيقة كان عقابه شديداً. وكانت تقطع يدا مصطنع النقود الزائفة ولسان الجاسوس الذي يبوح للأعداء باحد اسرار المملكة.

وكان لا يجوز أن يتجاوز الربى رأس المال. وإذا عجز مدين عن تأدية ما عليه فهو مسؤول عن دينه بماله ومقتناه لا بذاته. ومن شاء رهن موميا والده في دين فإذا لم يفه حرم الدفن في مدفن أهله عند مماته.

وقد مهر المصريون في فنون كثيرة صناعية وبرعوا في تركيب الآلات واستخدامها ونبغوا في الهندسة وعلم الكائنات. واخترعوا الخط الهيروغليفي الذي كانت حروفه بادىء بدء تمثل الأشياء وترسم بعض المعاني ثم أضيفت اليه لتتمته علامات صوتية كالحروف والاهجية المستعملة في لغاتنا. والمحققون على أن اللغة القبطية مشتقة من اللغة المصرية القديمة التي هي فرع من شجرة اللغات السامية.

ومما خرج فيه المصريون فن التلوين الذي لا يفنيه الدهر ولا تزال الوان بعض آثارهم ساطعة ثابتة الى هذا اليوم. وكذلك كان لهم الباع الأطول في صنع التماثيل

التي ضاهوا بها اليونانيين. واما لأبنيتهم بفخامتها وعظمة منظرها فهي فاقدة المثل في الدنيا تشهد بذلك هياكل ثيبة وبهو الكرنك القائم على مئة واربعين عموداً ضخماً أكثرها يبلغ ارتفاعه سبعين قدماً وقطر محيطه احدى عشرة. والاهرام التي يبلغ ارتفاع احدها مئة وخمسين متراً. والمسلات والقرافات المبنية تحت الأرض وابو الهول الكبير الذي تبلغ المسافة من ذقنه الى أعلى رأسه ستاً وعشرين قدماً. وبحيرة موريس والجسور والترع المعدلة للنيل وغيرها مما تدل جملته على أنه لم يشتغل شعب بالتراب والحجر بقدر ما اشتغل بهما المصريون.

— ٥ —

الأشوريون

نهرا دجلة والفرات ومدينتا بابل ونينوى

يحد هذان النهران العظيمان بلاد ما بين النهرين وهي جبلية من جهة الشمال لكنها في وسطها وجنوبها رملية منبسطة. وكان أول سكان القسم الجنوبي منها شعب الكوشيين الذين ورد ذكرهم آنفاً وأول سكان الجهات الجبلية قبائل عرفت بالتورانية يظن ان منها الرعاة فاتحي مصر وأول سكان الوسط قبائل سامية بيضاء اشتهرت في التاريخ باسم الأشوريين والعبريين والعرب والفينيقيين ويذهب بعض المؤرخين الى أن الملوك الرعاة كانوا من العرب. وقد قامت فيما بين النهرين مدينتان عظيمتان احداهما بابل على الفرات والثانية نينوى على دجلة وكانتا بالتداول عاصمتي المملكة الاشورية. وليس في القدم اشهر من بابل التي كانت جدرانها تبلغ استدارتها من ١٥ الى ٢٠ ميلاً أو من ٦٠ الى ٨٠ كيلومتراً ويبلغ ارتفاعها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ قدم فوق الأرض. وكان الكهنة الكلدانيون يردون عهد بنائها الى ٤٠٠٠٠٠ سنة ولكن التوراة جعلته في زمان نشأة الشعب العبري وجاء فيها أن نمرود الصياد الشهير هو

الذي اسسها وملكها لخلفائه من بعده الى أن رحل الايرانيون من بلادهم رحلتهم الكبيرة فاستوطن قسم منهم بالقرب من السند والآخر في وسط بلاد فارس ومنها تقدم الى بابل فاخضعها ثم لم يلبث ان طرد منها ورجعت الى سادتها الأولين. ثم استولى عليها فراعنة الدولة الثامنة عشرة مدة قرنين أو يزيدان وكان يحكمها ملوك من زعماء العرب تابعون للفراعنة وعندما اخذت مصر في الانحطاط تحرر الامراء الاشوريون من ربقتها وأخذوا يغزون فدوخوا البلاد من الفرات الى لبنان واستولوا على البقاع الواقعة شرقي دجلة وجعلوا ماديا من ولاياتهم. ويزعم الكاهن الكلداني بيروز أنهم وصلوا الى بكتريانا والهند. ولكن تاريخ الاشوريين لا يخرج من الظلمات الا في عهد اسورنازيبال وابنه سلمنصر الذي ورد في التوراة ذكر محاربته للعبريين وانتصاره على آكاب ملك اسرائيل. وكان من خلفائه الملك نينوس الذي توفي عن الملكة الشهيرة سميراميس امرأته فنهضت باعباء جميع هذه المملكة ووسعت بابل وابتنت فيها الأرصفة والحدائق المعلقة واقامت حواليها جداراً طوله سبعون الف متر وعرضه ممشى ست مركبات مصفوفة. وكان سردانابال آخر ملك من ملوك السلطنة الاشورية الأولى. عاش عيشة انثة فاثار بها عليه القائدين فول الكلداني وارباسيس المادي فحارباه فانتصر عليهما اربع مرار ثم فازا عليه وحصراه في نينوى فالقى بنفسه في النار مع نسائه وامواله (٨٧٩) وهدمت نينوى.

الدولة الاشورية الثانية (من ٧٤٤ الى ٦٠٦ قبل الميلاد)

وكان الماديون قد استقلوا ببلادهم على يد ارباسيس والبابليون قد تولوا ملك اشور على يد فول زعيمهم فدفعه هذا الانتصار الى استئناف الغزو للشعوب المستوطنة غرب الفرات فظفر عليهم واضطر مناحيم ملك يهوذا الى دفع الجزية له. وبوفاته نهض الاشوريون تحت قيادة احد احفاد ملوكهم الاقدمين واسمه تغلت فلاصر (٧٤٤) فانتصروا على بابل واقاموا الدولة الاشورية الثانية. فعظمت جداً بفتوحات هذا الملك الذي نشر سلطته من فلسطين الى الهند وبانتصار خلفه سرغون في رافيا على سباقون الحبشي وبفتوحات سنحاريب الذي اعاد بناء مدينة نينوى (٧٠٧) وأسر حدون فاتح مصر (٦٨١) وسردانابال الثاني مخضع آسيا الصغرى.

ولكن نهاية هذه السلطنة الكبيرة كانت كنهاية الأولى من حيث اتحد الاشوريون والماديون وثاروا معاً على الملك ساراق فاقتدى بسردانابال والقى بنفسه وامواله في النار ودخل المنتصرون نينوى فدمروها من اساساتها (٦٠٦) ولم تقم بعد ذلك لها قائمة واستمرت اربعة وعشرين قرناً ونصف قرن ممحوة من وجه الأرض الى أن توصل أحد علماء الاثار الفرنسويين سنة ١٨٤٤ الى الوقوف في بلاد الموصل على بعض اثارها واكتشاف اسرار الكتابة بلغتها المعروفة بالمسمارية.

الدولة الاشورية الاخيرة واستيلاء سيروس على بابل (٥٣٠ ق. م.).

وخلفت بابل نينوى فعادت كرسي الملك ومن الملوك الذين قاموا فيها نبوخذ نصر العظيم الذي استظهر على نبتشاو المصري في سير سازيوم وهدم اورشليم (٥٨٨) وفتح صور بعد حصار استمر ١٣ سنة واخضع القطر المصري وزين بابل بالأبنية الشاهقة الجميلة. وكان الذين خلفوه اربعة من الملوك عاشوا في الترف والعار وفي عهد آخرهم حاصر سيروس ملك فارس مدينة بابل ودخلها من عقيق الفرات وقد جففه (٥٣٨) وجعلها احدى عواصمه. ثم اقتدى به الاسكندر ولكن بعض الملوك اليونانيين الذين قاموا فيها بعده هجروها وابتنوا على الفرات مدينة سلجوق فاستعاضوا بها عنها. وليس يرى في مكانها اليوم الا آثار قلما يمر بها انسي. ولما اعاد البارتيون بادىء بدء والفرس من بعدهم تشييد المملكة الشرقية العظمى التي لم يستطع الرومانيون اسقاطها كما ارادوا اختار ملوكهم مدينة كتازيفون على الفرات كرسياً لهم. ثم ساد بعدهم العرب على تلك البلاد فشيدوا بغداد وجعلوها ملكة قرى الشرق ولا تزال الى اليوم احدى المدائن الكبرى تحت سلطة الخليفة العثماني.

الحكومة والدين والصنائع في اشور

كان ملك نينوى كسائر الملوك الشرقيين صاحب السلطة المطلقة على حياة رعاياه واموالهم وكان الشعب متساوياً ليس بينه تفاوت بالطبقات.

وكانت العامة من الشعب تعبد بعض السمك وبعض الطير والكهنة يعبدون الكواكب واعظم الهتهم باعل أو الشمس. ومما ادخلوه في اذهان الناس لاستجرار

الاموال منهم ان في النجوم ارواحاً تؤثر على حال الانسان ومآله. وكان لهم اشتغال مستمر بها وهم الذين وضعوا لدائرة محيط الكرة اثنتي عشرة علامة وقسموا الدائرة الى ٣٦٠ درجة والدرجة الى ٦٠ دقيقة ووضعوا حساب انخساف القمر ونظاماً للوزن والقياس وسك النقود كان عليه مدار التجارة في جميع العالم القديم وانشأوا علم وصف النجوم من شدة اشتغالهم بها على سبيل الاتجار ليبيعوا للناس طلاسم وعلامات تخولهم قوة السحر.

ولم يكن الاشوريون متأخرين عن المصريين في الزراعة والصناعة فقد جمعوا بهما ثروة عظيمة للمملكة ومن مصنوعاتهم التي كان يتنافس باقتنائها الرومانيون الطنافس البابلية والانسجة والخزفيات الملبسة والمصوغات. وقد ظهر على المنقوشات المكتشفة حديثاً من براعة الاشوريين في فن النقش وقطع التماثيل ما لم يكن في حسبان احد.

ويغلب على فكر المتأمل ان اليونانيين لم يقتبسوا مصدر افكارهم الدينية وصناعتهم النحتية والنقشية من مصر فقط بل من اشور أيضاً بطريق سيليسيا واسيا الصغرى.

—٦—

الفينيقيون

المدائن الفينيقية بين لبنان والبحر

بين الفرات والبحر الغربي (المتوسط) سهل متسع قطنه الساميون الرحالون قديماً. وجبال لبنان التي استوطنت اوديتها الخصيبة قبائل الكنعانيين الذين كان أول ظهورهم على شواطىء خليج العجم. واشهر تلك القبائل القبيلة الفينيقية التي هي فرع من العبريين. اقامت في بلاد الاردن وعلى الشاطىء الضيق الواقع بين سلسلة جبال لبنان والبحر المتوسط. وعندما فتح يشوع وادي الاردن انحصر الفينيقيون بين

لبنان وبين البحر فأصبحوا بحكم الطبع بحارة واصطنعوا المراكب واجروها فوق المياه في طلب الرزق الى أن تعاظمت ثروتهم فابتنوا المدائن الكثيرة لتوسيع نطاق التجارة ولما ضاقت بهم على تكاثرهم ارسلوا طوارىء منهم تستعمر شواطىء وبلاداً اخرى. وكانت اشهر مدائنهم صيدا المعروف اهلها بالبراعة في صنع الزجاج والارجوان وصور ذات المقام الأول بين القرى الفينيقية وارادوس وببلوس وبيرت وهي اليوم بيروت.

وجاء في التوراة وصف الترف والسعة والرخاء والدعة التي عاش بها القوم فافسدت اخلاقهم وعقائدهم حتى كانت الأمهات تحرق اطفالها ضحية للاله الكبير باعل ملوك وكانت المحرمات الشهوانية محللة في تعبدهم للمعبودة استارتي.

تجارة الفينيقيين ومستعمراتهم

ولكن الفينيقيين اعاضوا الانسانية خيراً عن هذه السيئات بما عمموه من التجارة والصناعة وما انشأوه من المستعمرات التي ازداد معها انتشار المدنية. وقد استوطنوا جزائر البحر الاسود قبل اليونانيين واسسوا متاجر جمة في افريقيا واسبانيا وغاليا وصقليا وعاملوا شبه جزيرة العرب والهند والحبشة. وكانوا الى القرن الخامس يملكون ثلاث مدن في صقليا وهي موتيا وسلينونت وبانورما. وأهم المدائن التي شادوها في افريقيا لبتيس وادرومات واوتيك وقرطاجنة. ولم تلبث هذه المدينة العظيمة ان استقلت وأصبحت اعظم مملكة بحرية وجدت قديماً حيث اخضعت لسيادتها المستعمرات الفينيقية المجاورة لها واستأثرت بتجارة القسم الغربي من البحر المتوسط.

فاقتصر الفينيقيون الاصليون على مشاطرة اليونانيين تجارة القسم الشرقي منه وجعلوا يستزيدون صلاتهم مع البلاد التي يماسها البحر الهندي واخذوا من اليهود ميناثين في البحر الأحمر فكانوا يسيرون منهما اساطيلهم لاجتلاب العاج والتبر والبخور والطيوب من بلاد العرب واللؤلؤ الجميل من خليج العجم والمحاصيل الكثيرة من الهند. وكانت لهم قوافل تجتاز بابل وبلاد العرب وفارس والباكثريانا وتبت لتعود اليهم منها بالجلود المصنوعة والحرير الذي كان يباع بوزن الذهب

والحجارة الكريمة. وكانوا يضيفون في تجارتهم الى هذه الاصناف مصنوعاتهم الأهلية كالزجاج والارجوان والوفاً من ادوات التحلي والزينة.

فاتحو فينيقية

وحرك هذا التقدم العظيم جشع الفاتحين فنهض فراعنة السلالة الثامنة عشر لغزو فينيقية واستولوا عليها وبعد ان تخلصت من ربقتهم اغار عليها الأشوريون مراراً وحاولوا فتح صور فما تسنى دخولها الا لسنحاريب ثم عاد اليها نبوخذ نصر (٥٧٤) فاضعفها ودمرها بعده الاسكندر. فانقسمت من ثم فينيقية بين الممالك الثلاث الكبرى مملكة الفرس ومملكة السلجوقيين ومملكة الرومانيين وكان شعبها قد نقل من الشرق الى الغرب كل ما استطاع اقتباسه عن مصر واشور من احاسن الفنون والصناعات والعلوم وعن بابل من طريقة الحساب الشبيهة بالطريقة المترية المعروفة اليوم وعن منفيس الكتابة المقدسة التي استخرجوا منها حروف هجائهم الشهيرة فنقلها عنهم كل الشعوب وعدلوها على ما يوافقهم وكانت من أعظم الممهدات للتقدم العقلي والاجتماعي.

— ٧ —

اليهود

التقاليد القديمة

ينتسب العبريون الى ابراهيم الذي أتى من بلاد الكلدان (٢٠٠٠ قبل الميلاد) واستوطن أرض كنعان وولد له فيها ولدان اسحق ويعقوب الصالح ابو البنين الاثني عشر الذين تألفت منهم اسباط يهوذا الاثنا عشر. وكل يعلم قصة يوسف الذي باعه

اخوته لقافلة مصرية وتوصل بحكمته ودهائه الى أعلى منصب في مصر اذ عين وزيراً لأحد الفراعنة واستدعى اليه اسرته فاسكنها أرض غسان بين النيل والبحر الأحمر.

وقد نما العبريون في تلك الارض الخصيبة وتكاثروا ولم يختلطوا بالمصريين فاوقعوا الريبة منهم في قلوبهم فعاملهم المصريون معاملة الأسرى الذين كان يأتي بهم فراعنتهم من البلاد البعيدة واكرهوهم على ترك رعي الانعام وسكنى القرى واستخدموهم في بناء المدائن وانشاء الترع وما ماثلها من الاعمال الشاقة ولما رأى فرعون ذلك الزمان ان عددهم في ازدياد مستمر مع تلك الشدة الهائلة عليهم امر بقتل الذكور من اولادهم وحدث ان امرأة من سبط لاوي خبأت ولدها ثلاثة أشهر ثم وضعته في تابوت وارسلته يطفو على النيل في المكان الذي كانت تغتسل فيه أبنة الملك فسمعت بكاءه فانقذته ودعي بموسى لأنه نجا من الماء وربي في قصر الملوك وتلقى علوم كهنة مصر وكانت أمه قد عرفته أصله ودينه سراً فلما رأى ذات يوم أحد المصريين يضرب يهوديا قتله وفر الى يثرب في الحجاز وهناك رأى ما كان عليه دين ابائه من الانتشار وما كانت عليه عيشة اليهود الرعوية من الصفاء والرخاء فعزم على انقاذ قومه من « بيت الاستعباد » وارجعهم الى الصحراء مع مواشيهم.

النظام الديني والمدني لليهود

وتاه اليهود في صحراء جزيرة العرب زماناً طويلاً كان موسى يعلمهم في اثنائه التوحيد بالله. ثم جاءهم من جبل طور سيناء بالشريعة الدينية والمدنية وكلها حكم عالية شريفة تلطف بالفقير ولا تنزل الرقيق عن رتبة الانسان وتأمر بالاحسان وتنهى عن الاضرار حتى بالحيوان. وكان اليهود متساوين امام الله والشريعة وكانت ثرواتهم متعادلة على التقريب وذلك لأنهم كانوا في السنة السبتية التي تأتي كل تسع سنين وفي اليوبيل الذي يأتي كل تسع واربعين سنة يعتقون الرقيق ويتركون الديون بعضهم لبعض ويردون الملك المبيع الى مالكه الأول. وكان كهنة اليهود من نسل لاوي دون سواه وكان الغريب لا يعتبر عندهم بمثابة عدو وكانت للمرأة كرامة تداني كرامة الرجل في البيت. ولسنا ننقل للقرآء شيئاً من نخب آيات التوراة وتعاليمها لاشتهارها بما يغني عن ايرادها.

فتح فلسطين وفي القضاة وفي الملوك (١٠٩٧)

كان موسى قد اختار لقومه الأرض التي اختارها ابراهيم لنصب خيمته فيها ولكن توفي قبل ايصالهم اليها فخلفه يوشع وعبر بهم الأردن وهدم مدينة أريحا وقسم أرض كنعان بين اسباط اسرائيل الاثني عشر. ولما مات انحلت عرى الاتحاد بين الاسباط فضعفت جميعاً واصبحت حكومة الشيوخ لا تستطيع تتمة فتح البلاد ولا رد غارات الملوك المجاورين عن اليهود فوقعوا في الاسر قبيلة بعد اخرى ثم اخذ ينقذهم منه رجال ذوو بأس ودهاء يخرجون منهم فكانوا كلما تم لهم الانتصار على الاعداء عينهم الشعب قضاة عليه وكانت لهم سلطة الملوك دون القليل منها واللقب. واشهر اولئك القضاة اوثونيال وآهود وسمجار والنبية دبورا وجدعون الذي انتصر على جيش كبير بثلاث مئة مقاتل ويفتاح الذي ضحى ابنته قرباناً لنذر نذره وشمشوم المعروف بشدته العجيبة والكاهن الكبير عالي الذي أخذ الفلسطينيون في ايامه صندوق الشهادة أو تابوت العهد وكانت فيه الوصايا العشر وصموئيل الذي عدل بين اليهود وقرن الحكم بالحكمة ومع ذلك اراد منه الشعب تتويج ملك عليهم فاجابهم مكرهاً الى سؤلهم واختار لهم شاول من نسل بنيامين (١٠٩٧) لما كان عليه من سلامة الطوية وسهولة القياد مع كونه ذا بأس وبسالة فمسحه ملكاً وافرغ على رأسه الزيت المقدس ثم اودع له في تابوت العهد وصية بما له من الحقوق وما يتعين عليه من الواجبات. فكان شاول في أول امره عند حسن ظن النبي به وانصف واعتدل في سيره وانتصر في غزواته ثم غره الفوز فطغى وتجبر وأقام ٣٠٠٠ جندي لحراسته واستعلى على الكاهن الأكبر صمويل فغضب ومسح في السر راعياً عبرياً يدعى داود وأدخله القصر ليستخلف به الملك العاصي ولما قتل داود جليات الجبار الفلسطيني اعجب به قومه فوقعت الغيرة منه في قلب شاول فحاول مراراً أن يطعنه برمحه فلم يصبه ثم قتل شاول في احدى معاركه مع الفلسطينيين سنة ١٠٥٨ وخلفه داود فخضع له سبطاً يهوذا وبنيامين اولاً ثم سائر اسباط يهوذا فنمت في عهده المملكة اليهودية الصغيرة وفتحت صهيون (القدس) ونكلت بالفلسطينيين والموآبين ووسعت حدودها شمالاً الى الفرات وغرباً الى البحر الأحمر. ووضع داود في اوقات

السلم قواعد للعبادة ولادارة شؤون الدولة واقام جيشاً عظيماً كان العشر منه دائماً مسلحاً وجمع الادوات والمعدات لتشييد الهيكل وعقد معاهدات تجارية مع صور غير أنه اثم في اواخر سني حياته بقتله القائد اوريا فتنغص عليه عيشه وزادت نكدة ثورة ابنه ابشالون. ولا تزال الكنيسة ترتل ما انشأه في ذلك من الزبور ذات المعاني السامية.

وخلفه ابنه سليمان (١٠١٩) ولم يكن بالرجل الحربي بل احب الحضارة والعمران وحكم من داخل قصره جرياً على عادة امراء الشرق. واول ما شرع فيه تأييد سلطته بتعذيب معانديه وقتلهم. ثم شيد هيكل اورشليم العظيم وانفق عليه مالاً طائلاً. واشتهر بالحكمة البالغة وسداد الرأي العجيب ولا سيما بعد الحكم المعروف الذي فصل فيه بين امين تقاضتا اليه في ولد كانت كل منهما تدعيه. وأسس تدمر في وسط الصحراء وانشأ المراكب واجراها على البحر للملاحة وعاهد صور ومصر على التجارة وعظم صيته حتى ان ملكة سبا أتت تزوره. غير ان سليمان جنى على نفسه بعبادته للأوثان فاضعف بذلك شوكته ومهابته ثم اثار عليه السوريين والآدوميين وسائر رعاياه بما حملهم من شدة الضرائب ولما أدركه أجله كان الشقاء عاماً في شعبه.

الانقسام (٩٧٨) والأسر (٥٩٩)

وتولى بعده ابنه رحبعام فأبى تخفيف اثقال الضرائب فانفصلت عنه عشر قبائل وبقيت بنيامين ويهوذا خاضعتين له (٩٧٨) ومن ثم وجد شعبان يهوديان يهوذا وملكه رحبعام واسرائيل وملكه يوربعام بن ناباط وكان الثاني اكثر عددا واوسع ملكاً والأول اغنى واعلى مقاماً اذ كان لديه تابوت العهد. وكان جميع اليهود في كل عام يزورون هيكل اورشليم ويأتونه بالهدايا فحاول يوربعام ملك اسرائيل ان يمنع شعبه عن الذهاب الى مملكة يهوذا والاستيطان فيها واقام لهم مذبحين يقربون عليهما فانفصلوا عن الهيكل الأصلي وكان ذلك تمهيدا لرجوع اسرائيل الى الوثنية بما كان له من الصلات المستمرة مع السوريين. اما يهوذا فاحتفظ بالشريعة الموسوية ولكن

الوثنية لم تلبث ان دخلت فيه أيضاً فقام الانبياء تباعاً يقاومونها و يبعدون الشعب عنها تارة بالوعيد وطوراً بالمواعيد الى ان فازوا بما ارادوا .

على أن انقسام المملكة العبرية الى قسمين آل بها الى الضعف والانحطاط حتى انحصرت حدودها في فلسطين بعد أن بلغت الفرات ولم يكف ذلك انذاراً لها بل أخذ كل من فريقيها يحارب الآخر حروباً هائلة مع انهما محوطان بالاعداء فما عتما أن وقعا في الفوضى وساد عليهما البابليون . وفي سنة ٧٢١ سقطت مملكة اسرائيل وقبض ملك نينوى سرجون على الملك يوشه في السامرة . وفي سنة ٥٨٨ سقطت مملكة يهوذا واستأسر نبوخذ نصر الملك صدقيا وجره الى بابل مكبلاً بالقيود وفقأ عينيه بعد ان ذبح بنيه وزعماء شعبه بمرأى منه .

اليهود تحت حكم الفرس واليونانيين والرومانيين (من ٥٣٨ قبل الميلاد الى ٧٠ بعده)

واستمر أسر اليهود سبعين سنة أي منذ خراب اورشليم سنة ٥٩٩ الى صدور امر كورش آذناً لهم باعادة بناء الهيكل فرجع ٤٢ الفاً منهم بقيادة زور وبابل الى البقعة التي كانت فيها مدينتهم المقدسة فاخذوا يشيدون الهيكل وحالت غيرة السامريين ودسائسهم حيناً دون انجازه وذلك في عهد كمبيز ملك فارس غير ان اليهود عادوا اليه في عهد داريوس الذي تسميه التوراة احشورش فاتموه سنة ٥١٦ . وفي عهد ارتكسزرسيس المعروف بطويل اليد قدم اورشليم المعلم الشهير اسدراس في مقدمة عدد كبير من اليهود وعلم الناس أحكام الشريعة الموسوية الصحيحة وفي هذه الاثناء رفع نحميا اسوار المدينة غير أنه كان بين سكانها جماعة من المفسدين فطردهم منها اسدراس ونحميا فلجأوا الى السامرة واقاموا هيكلاً يناظر هيكل القدس . وعاش اليهود آمنين في عهد الفرس وكذلك في عهد الاسكندر فانه بعد فتح صور دخل اورشليم وقرب الى الله على مذبحها واعفاهم من الضرائب في السنة السبتية . وبعد وفاة الاسكندر خضع اليهود لملوك مصر قرناً كاملاً ومن مآثر أحدهم بطلميوس فيلادلفوس انه وضع كتاب العبريين في مكتبة الاسكندرية بعد ان كلف اثنين وسبعين عالماً بترجمته ودعيت هذه النسخة المترجمة بالسبعينية . غير أن الملك

فيليباتور نكل بهم واضطهدهم ولكنهم في عهده انتقلوا الى حكم ملوك سوريا. وكان منهم سلجوق الرابع الذي ارسل وزيره هليودور فنهب هيكل اورشليم وانطيوخوس الرابع الذي اقام تمثال المشتري الاولمبي على مذبح الهيكل فأبى كثيرون من اليهود أن يأكلوا اللحم النجس المقرب له فماتوا في أشد العذاب. فكان من ذلك ان اوغرت صدور جميع اليهود فثاروا بقيادة آل مكاب المشاهير ببسالتهم وتحرروا من الربقة الاجنبية غير انهم قضوا قرنين في أشد الاضطراب تارة يسود عليهم الرومانيون وطوراً يمزقهم التحزب الداخلي ومعاركه الى أن حكمهم هيرودوس في عهد اغسطس قيصر فقويت مملكتهم وازهرت ولم تمس رومة استقلالهم الداخلي وفي ذلك الزمان ولد المسيح وقبل وفاة طيباريوس قيصر باربع سنين أخذ ينشر تعاليمه ولم يلبث الرومان أن استولوا على اليهودية وجعلوا شعبها من رعاياهم فخضعوا لهم الى اواخر ايام نيرون ثم ثاروا جهاداً في سبيل الوطن والدين فقتل منهم ١٣ مئة الف نفس ودمرت اورشليم وهدم الهيكل وتفرقوا من عهدها شذر مذر في الأرض. (٧٠ بعد الميلاد) ولم يكن اليهود على شيء من فن أو علم أو صناعة ولكن شريعتهم كانت اطهر الشرائع القديمة وأفضلها. وقد حفظوا اعتقادهم بوحدة الله على صحته مع كل ما عانوه من الآلام والاضطهاد.

— ٨ —

الماديون والفرس

دين المجوس

تقدم لنا القول ان قبائل من الجيل الأبيض نشأت في بلاد البكتريانا والسوجديانا ثم هاجر قسم منها عرف بالآري الى الجنوب الشرقي نحو السند وقسم آخر عرف بالايراني الى بلاد مادي وفارس. ولعل سبب افتراق هذين الفرعين

الكبيرين كان الاختلاف الديني لأن مذهب الماديين والفرس لا ينطبق في شيء على المذهب الذي انتشر فيما بعد بين الهنود على ضفاف الكنج.

وكان اولئك يعتقدون ان صاحب شريعتهم هو زورواستر الذي يرجح انه وجد قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً. وتعاليمه مكتوبة في الاويستا وهو كتاب الفرس المقدس.

وملخص تعاليمه التي هي اشرف واطهر تعاليم اديان الشرك في القدم ان زروان اكريني هو المبدأ الأول لكل شيء الأبدي الازلي الثابت غير المتحرك خلق اورموزد سيد العلم والحكمة ابا الخير والعدل مصدر الحياة والنور كالشمس وهي مثاله للناس. وكذلك خلق اهريمان عدو اورموزد ومبدأ كل شر مادي وادبي.

ولكل من هذين الالهين جنود من الأرواح العالية والسفلى تسعى في توسيع دائرة ملك سيدها غير أنه لا بد أن يأتي يوم يدحر فيه اهريمان فيعود ويصعد الى اورموزد تائباً ويتنعم بالحياة السعيدة مع جميع الذين تبعوه وذلك لأن رحمة اورموزد فوق عدله.

والانسان بمقتضى الدين المجوسي خلق ذا نفس حرة غير فانية هي جزاء الفائز في تنازع مبدئي الخير والشر. وكما أن الارواح الخبيثة تحدق بها لتدفعها الى السوء من قبل اهريمان فكذلك اعطاها زورواستر شريعة اورموزد لتحفظها في دائرة الصلاح.

وهذه الشريعة تفصل حقوق الانسان وحقوق السماء وتدعو الى الايمان والعمل وتريد الصدقة وطهارة النفس والجسم وتسمح للمتعبد بالاشتغال في الامور الدنيوية ليكون له فضل اعظم بمقاومته للتجارب.

وقد جاء في الاويستا «من أكل استطاع أن يسمع ويستوعب القول المقدس ومن لم يأكل فلا قوة له على عمل طاهر» وجاء فيه من حيث اعتبار الشغل امراً مقدساً «احرث ارضك وازرعها ومن زرع بطهارة قام بكل ما تقضي به الشريعة. وان من يعطي الارض بذاراً حسناً لأكبر ممن يقرب الف قربان» ويؤخذ من هذا

الكتاب المقدس ان المؤمن ينبغي عليه أن تكون عنايته بماشيته كعنايته بأرضه ويؤخذ منه أيضاً ان الزواج كان عقداً مقدساً وان كثرة البنين بركة.

ومن مقتضيات الدين المجوسي الصلاة بالنهار والليل «قم في منتصف الليل واغسل يديك واوقد النار التي ينبغي ان تسطع للدلالة على ان اورموزد موجود في كل منزل» وكان بعض الصلاة اعترافاً بين يدي الخالق بالذنوب «اعترف امامك ايها الاب بذنوبي التي ارتكبتها فكراً وقولاً وفعلاً. يا الهي اشفق على نفسي وجسدي في هذه الدنيا وفي الاخرى واني اندم على ما فرط مني بالكلمات الثلاث واتوب».

وكانت الصلوات ترفع الى الله والى بعض الارواح السموية كاللات والعزى. واما القربان فكان يقدم من لحم الحيوان وعصير بعض النبات ونوع من المعجونات المشوية. وبعد التقدمة يأكله الكهنة والحضور. وكان الكهنة يلزمون ايقاد النار المقدسة ويصونون ادوات التقدمة وملابس العبادة.

ولا يعرف شيء عن البعض الذي بقي من تلك القبائل البيضاء على ضفاف الاوكسوس في بكتريانا وسوجديانا اما الماديون فقليل ما يعرف عنهم مأخوذ من تواريخ اليونانيين والمنقوشات المسمارية واما الفرس فهم منذ الحروب المادية بمثابة الرابطة بين اسيا واوربا الى هذا اليوم.

الماديون

غاية ما اتصل بالمؤرخين من أخبار مادي ان ارباسيس حاكمها بالنيابة عن ملوك اشور ثار على الملك ساردانابال (٧٨٩ قبل الميلاد) فاستقل بالبلاد ولكنه ابقى احكامها في حالة الفوضى ولما تولاها الملك ديجوسيس (٧١٠) شيد اكباتانا المعروفة اليوم بهمذان وحكم بالعدل والسلم ٥٤ سنة. ثم خلفه ابنه فراورت فضرب الجزية على الفرس (٦٥٧) ولكنه قتله ملك نينوى فخلفه ابنه سياكسار.

فزحف على نينوى اخذا بثار أبيه وقتل من جيوشها مقتلة عظيمة ومع ذلك لم يتسن له افتتاحها لاضطراره الى العودة عنها مهرعاً لما علمه من هجوم بعض العصائب السكيثية على مملكته.

وكانت هذه العصائب قد انقضت على اسيا الغربية فاعملت في ارجائها السيف والنار وادارت في اطرافها السلب والنهب مدة ثمانٍ وعشرين سنة . وكان من أمر سياكسار معها انه احتال على زعمائها فامنهم ودعاهم الى مأدبة فذبحهم عن اخرهم ورد عصائبهم خاسئة خاسرة وقفل راجعاً الى نينوى ففتحها سنة ٦٠٦ وفتح آسيا الصغرى الى نهر هاليس ثم اخذ يتهيأ لمقاتلة الليديين فاتفق ان انكسفت الشمس ذات يوم انكسافاً تاماً كان قد تنبأ به طاليس الفيلسوف فراعه ذلك وعقد الصلح مع الليديين.

وقام بعده على السرير الملك استياج وبسقوطه كان سقوط تلك الدولة الواسعة . وذلك ان هذا الملك كان قد زوج رجلاً يدعى كمبيز من زعماء الفرس بابنته ماندانا فرزقها الله ولداً دعي كورش قال هيرودتس وحلم استياج ان حفيده سيوقعه عن عرشه يوماً فأمر ارباغوس وزيره ان يقتل الطفل فلم يفعل ولكنه دفعه الى راع يميته فرباه سراً ثم وقف الملك على ما كان فاقر بحفيده ولكنه عاقب ارباغوس بأن دعاه الى مأدبة واطعمه فيها لحم ابن صغير له فكظم الوزير غيظه وأجل ميعاد انتقامه .

حكم كورش (٥٥٩ — ٥٢٩) وفي فتح اسيا الغربية

ولما كبر كورش عرض نفسه لقيادة الفرس ومحاربة الماديين معهم فاجابوه الى سؤله وظفروا على اعدائهم بخيانة من ارباغوس فعلها انتقاماً من الملك ثم انتصروا عليهم في موقعة أخرى واسروا استياج نفسه.

وانتقلت بذلك السيادة على اسيا من الماديين الى الفرس (٥٥٩) ثم تقدم كورش الى البلاد المجاورة للقوقاف ففتحها وزحف على الليديين الذين كانت تمتد سلطتهم من نهر هاليس الى البحر الاسود فدحرهم واسر ملكهم كريسيوس (٥٤٤) ثم فتح بابل بعد ذلك بثماني سنين (٥٣٨) وضم الى املاكه جميع البلاد التي كانت تابعة لهتين المملكتين وهي المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين غربيَّ الفرات . ثم حارب التتر أو السكيثيين لغارة شنوها على ولاياته الشمالية فظهر عليهم

أولاً ولكنهم قتلوه في الموقعة الثانية (٥٢٩) ولزموا حدودهم دون أن يخرجوا منها على مملكة الفرس لقلة عددهم وعددهم. وجلس كمبيز على عرش أبيه كورش.

الفرس في عهد كمبيز (فتح مصر سنة ٥٢٧)

صرف هذا الملك مطامعه الى فتح افريقيا فبدأ بمصر وكانت آخر مملكة كبيرة تركها كورش واقفة فامتلكها على أثر موقعة واحدة (٥٢٧) واراد أن يضرب قرطاجنة فابى عليه الفينيقيون الاسطول الذي طلبه منهم لذلك. وكان قد ارسل جيشين أحدهما لفتح واحة آمون فهلك في الرمال وآخر للزحف على الأحباش فقتل الجوع أكثره وعاد الباقي ذليلاً. فاثر هذا الفشل في عقله فاضطهد كهنة مصر وقتل اخاه واخته وعذب ذويه ثم بلغه حدوث ثورة في آسيا فعاد. واصابه في الطريق جرح وهو يركب جواده فمات على أثره (٥٢٢).

الفرس في عهد دارا

اما الثورة التي كان كمبيز راجعاً لاخمادها فكان الماديون القائمين بها لاسترجاع السيادة من الفرس وكان زعيمهم فيها مجوسي يدعى سمرديس ادعى أنه أخو كمبيز فاجتمع سبعة من اشراف الفرس عازمين على اطفاء الثورة قبل أن تتأجج نارها وقتلوا المجوسي بطعنة خنجر ونصبوا احدهم ملكاً وهو دارا ابن هيستاسب. ويؤخذ من تفسير كتابة مسمارية كشفت حديثاً ان دارا اشتغل بقمع ثورات كثيرة في بدء حكمه ومن ذلك انه ارسل رجلاً يقتل اوتانيس حاكم سرده عاصمة ليديا لأنه كان يتصرف فيها تصرف الملك. ومنه أيضاً ما رواه هيرودتس عن عصيان بابل فقد بتر زوبير احد خدم دارا عضواً من اعضائه وخدع البابليين بأنه مظلوم يريد الانتقام ثم خانهم وسلم المدينة لسيده (٥١٧).

وقسم دارا المملكة الى عشرين ولاية لتسهل عليه جباية الضرائب ويتسنى له تأليف الجنود المنظمة ثم عاد ففتك بالتتر الأوربيين لا الآسيويين واجتاز البسفور فالدانوب على جسر من مراكب بناه وحرسه له اليونانيون الآسيويون فلم يدرك التتر فعاد وترك ٨٠ ألف مقاتل في بلاد التراس لإتمام افتتاحها وافتتاح مقدونيا وأرسل

حملتين أخريين فأخضعت له إحداهما بلاد سيرينايك في أفريقيا القديمة والأخرى البلاد الواقعة غربي السند.

وبلغ إذ ذاك ملك فارس منتهى عظمته فكانت حدوده من السند الى البحر المتوسط ومن الدانوب والأراكس الى البحر الهندي وصحراء شبه جزيرة العرب وصحراء أفريقيا.

ونوى دارا أن يزحف بألف مقاتل على بلاد اليونان فحدثت الحروب الشهيرة بالمادية التي أظهرت ما كان تحت تلك الفخامة الظاهرة من الضعف الخفي.

ولاستيفاء سلسلة ملوك الفرس نقول إن دارا خلفه ابنه أكزيرسيس وسيرد ذكر ما كان له من الوقائع مع اليونانيين وخلف اكزرسيس ارتخشياش الثاني وهو الذي انتزع اليونان منه المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى ومنعوه عن تسيير أساطيله في بحر الأرخبيل الرومي بمقتضى معاهدة صلح عقدها مع سيمون رئيس جمهورية أثينا ثم عاد فتغلب عليهم واسترجع آسيا الصغرى وجزيرة قبرس (٣٨٧) وتوارث الملك من بعده رجال لا يخلقون بالذكر الى أن قام دارا الثالث (٣٣٦) فدحره الاسكندر المقدوني واستولى على مملكته الواسعة. واستمرت الفرس تابعة لليونان بعد غلبة الاسكندر يحكمها قائد منهم الى أن طردهم منها طائفة البارتيين وتولاها ملوك منهم فاستبدوا فيها الى سنة ٢٣٠ ق. م. وكان فيها ظهور أزدشير بابكان رأس دولة الأكاسرة الساسانية ومن خلفائه كسرى أنوشروان الشهير بمغازيه وعدله في أحكامه ومنهم هرمز الذي انتصر على القيصر طيباريوس ومنهم يزدجرد آخر الأكاسرة وفي عهده استولت العرب على بلاد العجم (٦٣٠ للميلاد) فحكموها الى سنة ١٢٥٨ وخلفهم التتر الى سنة ١٥٠٠ وفيها قامت من الفرس ملوك عليهم ولقبوا بالشاهات وهم يتوارثون الملك الى الآن.

وصف ما كانت عليه حكومة الفرس قديماً

كانت الحكومة استبدادية تلطفها سلطة المجوس عند الماديين وسلطة الولاة عند الفرس وقد جعل دارا عدد الولاة عشرين فغلط إذ قلّ بذلك تزاحمهم وعظمت

قوتهم . ولكن الملك كان لا يحكم بالفعل بل بالقوة وكان لا يلتفت الى المملكة ما دامت تؤدي ما عليها من المال والخراج .

ولم يترك الفرس من الأبنية ما هو خليق بالذكر غير أن الأقدمين كانوا يصفون فخامة مدينة همذان أو اكباتان التي كانت لها سبعة أسوار . وقد أعجب بعض السياح المتأخرين بما رأوه من جمال آثار برسوبوليس إحدى عواصم الفرس القديمة وهي الملقبة بذات الأعمدة الأربعين(١) .

— ٩ —

بلاد العرب

تقسيم العرب

إن الأمة العربية من أعظم الأمم شأناً وأجلّها مكانة غير أنها لم تصبح كذلك إلا بعد الاسلام وكانت قبله منحصرة في بقعتها ليس لها في الخارج عنها كبير فعل ولا ذكر ولا في داخلها من الحكمة أو السياسة أو الصناعة أو الدين ما تمتاز به عن الأمم القديمة مثلها . وبلاد العرب يحدها شمالاً الشام وفلسطين والجزيرة وشرقاً العراق والجزيرة أو ما بين النهرين وخليج العجم وجنوباً المحيط الهندي وغرباً مضيق باب المندب وخليجه والبحر الأحمر وبوغاز السويس . وكانت تنقسم الى أقسام أشهرها اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين والعراق . أما العرب فكان المؤرخون يقسمونهم الى ثلاثة أقسام بائدة وعاربة ومستعربة وجاء في كتاب حقائق الأخبار(١) .

---

(١) يبلغ قطر كل من تلك الأعمدة مترين وارتفاعها ٢٤ متراً ويظن أن قبر دارا اكتشف في جبل بالقرب من برسوبوليس .

(١) هو كتاب جليل ظهر حديثاً لمؤلفه العالم الفاضل الميرالاي اسماعيل بك سرهنك ناظر المدرسة الحربية .

أما البائدة فهم العرب الأولى الذين ذهبت عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم وانقطاع أسباب العلم بآثارهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الأولى وكانت مواطن عاد باحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضرموت والشحر ولما انتحلوا عبادة الأصنام أبادهم الله وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفر وبغي وأما جديس وطسم فكانت ديارهم باليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأعمرها وأكثرها ثماراً وحدائق وقصوراً وأما جرهم الأولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانية فكانوا على عهد عاد وكانوا يعاصرون بعضهم بعضاً وبعد أن سالمتهم الأيام أحقاباً قلبت لهم ظهر المجن كما هو الحال في جميع الأمم البائدة فاندثروا بتمامهم وأما جرهم الثانية فهم من ولد قحطان وبهم اتصل اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وكانت مساكن بني قحطان بالحجاز ولما أسكن ابراهيم الخليل ابنه اسماعيل عليهما السلام في مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة لأن أصل اسماعيل عليه السلام ولسانه كان عبرانياً ولذلك قيل له ولولده العرب المستعربة وأما العرب العاربة فهم بنو سبا واسم سبا عبد شمس وقالوا إنه لما أكثر الغزو والسبي سمي سبا وهو ابن بشجب بن يعرب بن قحطان وكان لسبا عدة أولاد منهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة بنو سبا وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التبابعة من ولد سبا المذكور وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبا خلا عمران وأخيه موزيقيا فإنهما ابنا عامر ابن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلب بن مازن بن الأزد والأزد من ولد كهلان بن سبا وفي ذلك خلاف وقيل لهم عاربة لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم بأخلاقهم.

أما من حيث المعتقد في الجاهلية فكانت العرب أصنافاً فصنف أنكروا الخالق والبعث وقالوا بالطبع المحيي والدهر المفني كما أخبر عنهم التنزيل (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر) وصنف اعترفوا بالخالق وأنكروا البعث وهم الذين أخبر عنهم الله بقوله تعالى (أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) وصنف عبدوا الأصنام وكانت أصنامهم مختصة بالقبائل فكان ود لكلب

وهو بدومة الجندل وسواع لهذيل ويغوث لمذجح ولقبائل من اليمن ونسر لذي الكلاع بأرض حمير ويعوق لهمذان واللات لثقيف بالطائف والعزى لقريش وبني كنانة ومناة للأوس والخزرج وهبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة وكان أساف ونائلة بين الصفاء والمروة.

وكان منهم من يميل الى اليهودية ومنهم من يميل الى النصرانية ومنهم من يميل الى الصابئة ويعتقد في أنوآء المنازل اعتقاد المنجمين في السيارات حتى لا يتحرك إلا بنوء من الأنواء ويقول مطرنا بنوء كذا وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن وكانت علومهم علم الأنساب والأنواء والتواريخ وتعبير الرؤيا وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت شريعة الاسلام بها فكانوا لا ينكحون الأمهات والبنات وكان أقبح شيء عندهم الجمع بين الأختين وكانوا وكانوا يعيبون المتزوج بامرأة أبيه ويسمونه الضيزن وكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الحجارة وكانوا يكسبون في كل ثلاثة أعوام شهراً ويغتسلون من الجنابة وكانوا يداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظفار ونتف الإبط وحلق العانة والختان وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى وغير ذلك مما يعلم من المفصلات.

ذكر علوم العرب وآدابهم

وجاء أيضاً في الكتاب المشار إليه ما نصه. فأما علم العرب الذي كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب وكانوا موسومين بين الأمم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها حسب ما أدركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في أسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على حكامها به يأخذون وإليه يصيرون وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج.

قال الصفدي ما كان للعرب ما تفتخر به إلا السيف والضيف والبلاغة وكانوا كل حول يتقاطرون على سوق عكاظ ويتبايعون ويتناشدون ويتعاكظون ولقد بلغ كلف العرب بالشعر وتفضيلهم له أن عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة فقيل لها مذهبات ويقال لها معلقات لأنها علقت في أستار الكعبة أما الكتابة فحكوا أن ثلاثة نفر من طي كانوا على دين عيسى فوضعوا الخط وقاسوا هجآء العربية على هجآء السريانية فتعلمه قوم من الأنبار وجاء الاسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر إنساناً ولقلة القرطاس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين أهل كتاب والأميين وكان هؤلاء من اليهود والنصارى والأميون بمكة.

ذكر ملوك العرب قبل الاسلام

قال أبو الفداء أول من نزل اليمن (قحطان) بن عابر بن شالح المقدم الذكر وقحطان المذكور أول من ملك اليمن ولبس التاج ومات قحطان وملك بعده ابنه (يعرب) بن قحطان وهو أول من نطق بالعربية على ما ذكر ثم ملك بعده ابنه (يشحب) بن يعرب ثم ملك بعده ابنه (عبد شمس) بن يشحب ولما ملك أكثر الغزو في أقطار البلاد فسمي (سبا) وهو الذي بنى السد بأرض مأرب وفجر إليه سبعين نهراً وساق إليه السيول من أمد بعيد وهو الذي بنى مدينة مأرب وعرفت بمدينة سبا ولما مات سبا ملك اليمن بعده ابنه (حمير) ولما ملك أخرج ثمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه (وائل) ثم ملك بعده ابنه (السكسك) ثم ملك بعده (يعفر) ثم وثب على ملك اليمن (ذورياش) وهو عامر بن باران بن عوف بن حمير ثم نهض من بني وائل (النعمان) بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير واجتمع عليه الناس وطرد عامر بن باران عن الملك واستقل النعمان المذكور بملك اليمن ثم ملك بعده ابنه (اشمح) ثم ملك بعده (شداد) بن عاد بن الملطاط بن سبا واجتمع له الملك وغزا البلاد إلى أن بلغ أقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وأبقى الآثار العظيمة ثم ملك بعده أخوه (لقمان) بن عاد ثم ملك بعده أخوه (ذو سدد)

بن عاد ثم ملك بعده ابنه (الحارث) بن ذي سدد ويقال له الحارث الرايش وقيل إن الحارث الرايش المذكور هو ابن قيس بن ضيفي بن سبا الأصفر وهو تبع الأول ثم ملك بعده ابنه ذو (القرنين) الصعب بن الرايش وقد نقل ابن سعيد ان ابن عباس سئل عن ذي القرنين الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز فقال هو من حمير وهو الصعب المذكور فيكون ذو القرنين المذكور في الكتاب العزيز هو الصعب ابن الرايش المذكور لا الاسكندر الرومي ثم ملك بعده ابنه (ذو المنار) أبرهة بن ذي القرنين ثم ملك بعده ابنه (أفريقش) ابن ابرهة ثم ملك بعده أخوه (ذو الاذعار) عمرو بن ذي المنار ثم ملك بعده (شرحبيل) بن عمر بن غالب بن المنتاب بن زيد بن يعفر السكسك بن وائل ابن حمير فإن حمير كرهت ذا الأذعار فخلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل المذكور وجرى بين شرحبيل وذي الاذعار قتال شديد قتل فيه خلق كثير واستقل شرحبيل بالملك ثم ملك بعده ابنه (الهدهاد) بن شرحبيل ثم ملكت بعده ابنته (بلقس) بنت الهدهاد وبقيت في ملك اليمن عشرين سنة «(وتزوجها سليمان بن داود) عليهما السلام ثم ملك بعدها عمها (ناشر النعم) بن شرحبيل وقيل إن ناشر النعم اسمه مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو من ولد المنتاب بن زيد الحميري ثم ملك بعده (شمر يرعش) بن ناشر النعم المذكور وقيل شمر بن أفريقس بن أبرهة ذي المنار ثم ملك بعده ابنه أبو مالك ثم عمران ابن عامر الأزدي وغيرهم من التبابعة الذين نضرب صفحاً عن ذكرهم الى عهد ذي جدن فقد استولت فيه الحبشة على اليمن فملكها منها أربعة ثم من الفرس ثمانية ثم صارت الى الاسلام. وكان للعرب فيما سوى ملوك اليمن ملوك آخرون لا محل لاستقصاء أخبارهم منهم ملوك الحيرة وملوك غسان بأرض الشام وكانوا عمالاً للقياصرة عليها وملوك جرهم وملوك كندة وغيرهم.

إجمال القول عن أصل العرب وفعاليتهم الاجتماعية والدينية وصورة حكومتهم

كان العرب من النسل الارامي الذي يرد اليه اليهود والسوريون ولم تكن لهم وحدة دينية ولا سياسية. واستمروا الى ما قبل ظهور الاسلام على أخلاقهم

واصطلاحاتهم القديمة وكانوا منقسمين الى قبائل وعشائر وما دونها ولكل فريق منهم زعيم أو أمير يطيعونه ويجرون على مطلق إرادته وكانت القبائل تتناظر ويغزو بعضها بعضاً في طلب الغنائم. وكان منهم الأمة أهل العمران والأمة الناجعة الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والأنعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من ألبانها ويتخذون الدفء والأثاث من أوبارها وأشعارها ويحملون أثقالهم على ظهورها. يتنازلون حللاً متفرقة ويبتغون الرزق في غالب الأحيان من القنص وتخطف الناس من السبل. وكانت القبائل المجاورة لخليج العجم على دين المجوس وفريق من سكان اليمن على مذهب نسطور المسيحي والسواد الأعظم من العرب عامة عبدت أوثان مختلفة كما تقدمت الإشارة الى ذلك. وكان أعظم معابدهم الكعبة يشتمل على ثلاثمئة صنم والحجر الأسود الشهير. وكانت مفاتيح الكعبة بأيدي قريش وهم أشرف قبيلة بين العرب وأشهرهم آل هاشم الذين ولد منهم النبي محمد سنة ٥٧٠ كما سيأتي ذكر ذلك ببعض الإسهاب في عرض تاريخ القرون المتوسطة.

تاريخ اليونانيين

— ١٠ —

الأزمنة الأولى

السكان الأولون وذكر البلاجين والهيلينيين

إن بلاد اليونانيين المعروفة باغريقيا إحدى أشباه الجزائر الثلاث التي تنتهي بها أوربا من الجنوب. وهي مع جزرها أصغر مساحة من البرتغال. غير أن شواطئها حسنة التقطيع مستطيلة تزيد بالامتداد على شواطىء أسبانيا وتصلها مقدونية من الشمال بجبال الألب الشرقية. ولها من الجنوب ثلاثة رؤوس ممدودة في البحر المتوسط. ويفصلها البحر عن إيطاليا غرباً وعن آسيا شرقاً.

وبعبارة أوضح كانت بلاد اليونان قديماً تشتمل على أقاليم مقدونية وألبانيا وأبيروس وتساليا وشبه جزيرة المورة وعلى جزائر الأرخبيل اليوناني وجزائر البندقية وكانت لها مستعمرات بآسيا الصغرى وبجزيرة صقليا وبإيطاليا وغيرها وكانت بلاد الإغريق تسمى قديماً بهيلاس.

والظاهر من الاستدلالات والقرائن التاريخية أن أول سكان هذه البلاد كانوا البلاجيين واليونيين الذين تقدم لنا ذكرهم بين فصائل الجيل الأبيض. وهم الذين انتشروا في آسيا الصغرى وأفريقيا وإيطاليا وأوجدوا المدنية في هذه الأمصار وشادوا أبنية لا تزال تنسب إليهم وتدل عليهم.

ويؤخذ من روايات شعرية مشكوك في صحتها أن بعض الطوائف جلت عن

آسيا وأفريقيا الى اغريقيا وأتتها بالحضارة وعلمت أهلها الفنون النافعة وديناً أصح من دينها.

فمن ذلك ما يروى عن قوم يعرفون بالتيتانيين من الأقوام الفينيقية جلوا الى بلاد الاغريق في عصر ابراهيم وعنهم أخذ اليونانيون معارفهم الأولى وعبادتهم للكواكب السيارة التي كان يعبدها الفينيقيون ويقال إن هؤلاء الجالية شيدوا في اغريقيا جملة مدائن أقدمها بيوم سنة ٢٠٨٩ قبل الميلاد ثم لم يلبثوا أن انقرضوا لكثرة غزوهم فأدخلهم اليونانيون في مصف آلهتهم.

ومن ذلك ما يعزى الى سكروبيس المصري من انه بعد استيطانه في الاتيك جمع أهلها في اثنتي عشرة قرية أصبحت أثينا عاصمتها فيما بعد. وانه علمهم غرس الزيتون واستخراج الزيت وحراثة الأرض ووضع قانوناً للزواج وأسس محكمة الأريوباج الشهيرة لدفع المظالم بالأحكام العادلة.

وفي عهده فطن اليونانيون لما يربحه الفينيقيون من التجارة البحرية فأخذوا يبتنون السفن ويتمرسون بآفات البحار مبتدئين بالملاحة في مياه الشواطىء المجاورة الى أن برعوا فيها وباروا بها الصيداويين.

وينسب الى قدموس في بيوسيا انه أدخل اليها الحروف الفينيقية وبنى مدينة قدمه التي قامت حولها ثيبة.

ويذكر عن دانايوس انه أدخل الى أرغوس شيئاً من صناعات مصر وعن بيلوبس الفريجي انه استوطن في اليدة ثم خرج منها أبناء جنسه وانتشروا في شبه الجزيرة كلها وسموها باسمه «بيلوبونيز».

كل ذلك مرويات لا يوثق بها من حيث الرجال الوارد ذكرهم فيها ولكن الصحيح فيها وجود الصلات قديماً بين اغريقيا وشاطىء آسيا المواجه لها.

وأهم حادثة حدثت في تلك الأزمنة المتقدمة هي أن الهيلينيين الذين كانوا

مستوطنين في شمال اغريقيا أغاروا منه على سائر أقسامها وانتشروا في جميع أرجائها فضاع بينهم البلاجيون الى أن فقدوا.

عهد الأبطال في حرب طروادة سنة ١١٨٤ على ما يقال

يروى أن اليونانيين في تلك الأيام كانوا منقسمين الى أربعة أقسام: إثنان منهما لم يكن لهما عمل يذكر وهما اليونيون والدوريون واثنان كانا هما السائدين ويعرف أحدهما باليوليين والآخر بالآخيين. ولا يعرف شيء عن ذلك الزمان سوى أنه وجد فيه أبطال يقال إنهم كانوا يجوزون البلاد من كل جانب لينقذوها من اللصوص والظالمين والسباع الضارية ولذلك أعلاهم الشعب الى رتبة أنصاف آلهة وكرمهم على ما كان عندهم من خلات ومعايب. ومن هؤلاء هرقل وتازاي والزعماء السبعة الذين حاصروا ثيبة لمعاقبة ملكها أديب على سيئاته التي دنّسها بها.

ولكن بين الحوادث المحكية عن تلك الأيام حادثة صحيحة وهي الحرب الأولى التي وقعت بين اغريقيا وآسيا. وكانت في ذلك العهد طروادة عاصمة مملكة قوية واقعة في الشمال الغربي من آسيا الصغرى وهي آخر بقية من دولة البلاجيين. وكانت بين أهل هذه المملكة وبين أهل اغريقيا عداوة جنسية. واتفق أن باريس أحد أبناء بريام ملك طروادة نزل ضيفاً على منيلاس البيلوبونيزي ملك سبارطة فتعشق امرأته هيلانة وفرّ بها فأثرت هذه الخيانة في جميع اليونانيين فتحزبوا لمنيلاس وتألبوا يداً واحدة للانتقام له فجمعوا من العدة ما استطاعوا ونزلوا على شواطىء بلاد طروادة تحت إمرة أغاممنون ملك ميسين وشقيق منيلاس. واستمر اليونانيون الذين كانوا يدعون بالأخائيين عشر سنين وراء أسوار العاصمة ولم يقاتلوا أعداءهم قتالاً يذكر وكان هؤلاء متحصنين في المدينة تحت قيادة هكتور بن بريام لا يبالون ولا تنفد مؤونتهم الى أن قتل أشيل البطل اليوناني الأمير هكتور ومع ذلك استمر الطرواديون غير جزعين فيئس الأخائيون واحتالوا عليهم بأن تظاهروا بالنكوص على أعقابهم وتركوا حصاناً مصنوعاً من الخشب ذا ضخامة عظيمة كأنه قربان منهم لآلهة أعدائهم فأدخله الطرواديون الى مدينتهم وكان في داخله خيرة أبطال اليونان فخرجوا منه

واستولوا على المدينة وقتلوا بريام تحت مذبح أحد الهياكل وأسروا امرأته وبناته ثم عاد الأمراء الأخائيون الذين لم يقتلوا في تلك الحرب الى أوطانهم ومنهم أجاكس «وأشيل وباتروكل فأصابتهم مصائب عظيمة في رجعتهم هذه إذ مات بعضهم في الطريق وتاه أحدهم عولس سنين كثيرة قبل أن يدرك مملكته ووصل أغاممنون الى مملكته فوجد تخته وسرير امرأته في أيدي بعض الغاصبين فقتلوه للتخلص منه. ومنهم جماعة حكم عليهم بمهاجرة مسقط رأسهم بعد وصولهم اليه ومنهم ديوميدس وايدومناي (سنة ١١٧٤ على ما يقال).

وفي القصيدتين الشهيرتين بالايلياد والأوديسة المنسوبتين الى هوميرس الشاعر اليوناني الشهير تفاصيل هذه الحادثة مع ما أضافته اليها العامة من الخيالات المؤثرة والتصورات الوهمية الجميلة.

غارة الدوريين (١١٠٤) والمستعمرات اليونانية ووصف هيئة الحكومة العمومية

وبعد أخذ طروادة قضى اليونانيون ثمانين سنة يتحاربون وكان الفوز في النهاية للدوريين فزحفوا تحت قيادة أبناء هرقل واستولوا على بلوبونيزا (١١٠٤) ثم على لاكونيا وأخذوها مداهمة وطردوا اليوليين من مسانيا والأخائيين من الأرغوليد وأخضعوا قرنثيا وميغار وتقدموا الى أثينا وكان قد لجأ إليها الهاربون. فتنبأ متنبيء بأن الظفر يكون في جانب الفريق الذي يقتل ملكه فذهب ملك أثينا متنكراً الى معسكر الأعداء فقتلوه ثم علموا بالأمر فرجعوا على أعقابهم.

على أن هذه الثورات والحروب دفعت الناس الى الهجرة فذهبت منهم طوارىء الى شواطىء آسيا الصغرى وأخرى الى شواطىء أفريقيا وأخرى الى شواطىء صقليا وايطاليا وكان حلول السواد العظيم منها في المدائن كازمير وفوسه وأفسس وسرينا ومسينا وسرقوصة وتارنته ونابولي وسيباريس. وجعلت هذه البلاد أعمر من وطنها الأصلي وعلى الخصوص الآسيوية منها فقد كانت فيها النشأة الأولى للحضارة اليونانية التي نمت وازدهرت بعد ذلك في أثينا.

وحفظ اليونانيون مع هذا التشتت وحدة جنسهم وكانوا كأبناء الأسرة الواحدة بجامعتي اللغة والدين وكانوا يتوافدون من جميع الجهات الى هيكل دلفس في ميعاد معلوم ليسمعوا أجوبة الآلهة على الأسئلة التي كانوا يطرحونها عليها لمعرفة المستقبل.

ومن أشهر الوسائل التي كانوا يستخدمونها لإدامة ارتباطهم الاجتماعات التي كان يعقدها نوابهم الاثنا عشر في الترموبيل أو في دلفوس للتباحث في المصالح العامة ومعاقبة الذين يجنون الجنايات الماسة للشرف أو المضرة بالوطن.

ومنها الألعاب الأولمبية التي كان يجتمع لها خلق لا يحصى فيتبارى فيها المتبارون ومن فاز منهم شرف تشريفاً كثيراً. وكانت هذه الحفلات تعقد مرة كل أربع سنين وفي سنة ٧٧٦ جعلوا يكتبون اسم الحائز لقصب السبق ليخلد في سجل مخصوص وكان يسلسل تاريخ الحوادث من تاريخ كل مباراة تقع بعده.

وصف حرية افكار اليونانيين وتأثيرها على نظاماتهم

كان استقلال الفكر من أول فضائل اليونانيين واعظمها فملوكها ليسوا الا زعماء عسكريين ولا يقضون قضاء الا بمشورة الشيوخ ولا دخل لهم سوى القسم الأكبر من الغنيمة ونصف لحم الذبائح وما يتبرع به الناس عليهم. ولم تكن عندهم طائفة معينة من الكهنة ولا كتاب مقدس بل كان كل أب هو الكاهن في بيته. وكذلك لم تكن عندهم طبقة مخصوصة للشرفاء بل كان الأنشط والأشجع والأكمل بفضله وصفاته هو الشريف المنعوت ولم يكن الشرفاء يحتجبون عن العامة كثيراً. وكان الملك يجلس في الساحات العامة للنظر في شؤون المملكة ويجلس حواليه الشرفاء على مقاعد من حجر مصقول ويليهم الاحرار من العامة واقفين لا يشتركون في المداولات ولكنهم يؤثرون بعلامات استحسانهم أو استهجانهم على ما كان يراد تقريره.

وكان الرقيق يعامل كالاجير في المنزل. وكان الزواج بامرأة واحدة وكانت بنات الملوك تملأ انيتها ماء من الينابيع كنوسيقى الجميلة أو تقوم ببعض خدم المنزل

كاندروماك تقدم العلف لجواد هكتور وكان اليوناني لا يتشاره بالطعام والشراب ويكثر من الرياضة البدنية كالألعاب والرقص ويكرم ضيفه ولا يرحم عدوه في غضبه كما لا يضن بالعفو مع الاستعطاف ويحب الصداقة ويحرص عليها ولكنه مع هذه الاخلاق قابل للرشوة بسبب فقره مختال لكثرة اعدائه البرابرة حواليه.

وخليق بالذكر ان هذا الشعب على ما كان عنده من الصفات الجليلة لم تكن عنده المهارة والدهاء في السياسة ولا المزايا التي تقوم عليها عظمته ثابتة للأمم.

دين اليونانيين

كان دينهم طبيعياً محضاً يعبدون الغابات والرياح وسائر القوى الطبيعية. ويؤلهون ابطالهم وينسبون اليهم مع ذلك الخصومات والآلام والمعايب البشرية ولكنهم لم يلبثوا ان عينوا وظائف معبوداتهم فانتحل أكثرهم دين الالهة الاثني عشر الذين كانوا في جبل الأولمب وكان رئيسهم المشتري. وكان من هذه المعبودات المنصف والمعاقب والمنتقم والمؤنب للضمير وكان المجرم يعذب في الدار الاخرة. وللصالح جنة يتنعم فيها بما كان يحبه في الحياة من اللذات.

وكان يوضع في وسط الهيكل تمثال أحد الآلهة وحوله تماثيل الآلهة الثانوية التي يقبل ان توجد بجانبه. وهذه كانت بمثابة القديسين والأولياء عندنا وكانت تنسب الى كثير منها ومن الآلهة عجائب مخصوصة كأن يكون أحدها لشفاء الرمد وآخر لشفاء الزكام وما شاكل ذلك مما كان الشعب يكافئها عليه بالهدايا الثمينة من منذورة وموقوفة. وكانت الذبيحة تقسم بين الآلهة والكهنة والشعب فيأكلونها. وكان الآلهة يستشارون ويسألون فيجيبون تارة بالعلامات الجوية التي تفسرها طائفة من المجاذيب كما تشاء وتارة على لسان امرأة متكهنة كانت تصوم ثلاثة ايام ثم تأتي هيكلاً كهيكل دلفس الذي كان اشهر ما يجري من ذلك فيه فتطرح السؤال على الإله ثم تختلج اختلاجاً عصبياً كأن الاله حل فيها وتنطق بما يخطر في فكرها المضطرب جواباً على سؤالها.

وفي الجملة فان معبودات اليونانيين لم تنر اذهانهم ولم ترفع عقولهم الى اسمى من

تلك المعتقدات المضحكة ولكنها اعاضتهم عن ذلك بالمواضيع الشعرية واعانتهم على جعل منحوتاتهم اجمل صناعة وجدت في الدنيا.

— ١١ —

ذكر ليكورغس وسولون

فيما كانت عليه سبارطه قبل ليكورغس

جل ما يعرف عن سبارطه في خلال القرنين اللذين تقدما عهد ليكورغس ان عصابة من ابطال الدوريين قليلة العدد فتحتها واستباحتها ومع ذلك لم يهجرها ساكنوها فكان الدوريون فيما بينهم ابداً مستعدين للنزال كأنهم جيش معسكر في أرض اعداء.

وكانوا منحصرين في المدينة وضواحيها ولهم وحدهم فيها حق حضور المجتمعات العامة وتولي المناصب وهم الذين يعرفون في التاريخ بالسبارطيين وكانوا على مساواة تامة فيما بينهم وكان الشعب الخاضع لهم فريقين احدهما يعرف باللاكونيين وهم المقيمون في المدن التي لها اتصال بالخارج وكانت ممنوحة لهم الحقوق المدنية والآخر يعرف بالهليوت وهم المستعبدون القائمون في البرية على حراثة الأرض يستغلونها لساداتهم ولم يلبث السبارطيون بعد مضي زمن على ما اقتسموه من غنائم البلاد واموالها أن وقع بينهم الشقاق والنزاع لما ازداد من ثروة بعضهم ونقص من مال الآخرين فتحاربوا وضعفت بذلك قوتهم في الداخل وسطوتهم في الخارج.

الكلام على ليكورغس (٨٣٢ على ما يقال) وعلى قوانينه السياسية

من أغرب ما جاء في التواريخ ان سبارطة كان يتولى احكامها ملكان من بيتين مختلفين في آن واحد ودام ذلك من عهد نشأة جمهوريتها الى نهايتها قبل الميلاد بمئتين وخمس وثلاثين سنة. وكان لكيورغس الذي افردنا له هذا الفصل شقيق بوليدكتس احد الملكين في تلك الأيام فلما توفي بوليدكتس في خلال الحوادث التي مر

ذكرها عرضت ارملته على ليكورغس ان تتزوج به وتستخلفه على سرير اخيه ان كان يقتل ابنها فابى ذلك وتولى الحكم وصياً على الملك بن أخيه فاغضبت حكمته وحسن ادارته كبراء القوم فابعدوه عن وطنه فساح ثماني عشرة سنة يطالع قوانين الشعوب الاخرى ونظاماتهم الاجتماعية ثم عاد الى سبارطه وكانت تسمى أيضاً لسيدمونيا واستعان بوحي من كليمة دلفس على وضع دستور جديد لبلاده. وجعله ذا شطرين سياسي ومدني فاما السياسي فكان يقضي باستمرار السبارطيين على ما كانوا عليه من السيادة واللاكونيين على ما كانوا عليه من التابعية لهم. ويبين حقوق الملكين وحقوق مجلس الشيوخ وكان مؤلفاً من ٢٨ عضواً كل منهم في سن الستين على الأقل. وحقوق الجمعية العامة وكانت تتألف من جمهور السبارطيين ولها أن تقبل أو أن ترفض المشروعات المعروضة عليها من الملكين ومن مجلس الشيوخ. وحقوق جمعية القضاة وكانت تفصل المشاكل التي يرفعها اليها المتقاضون. وكان الملكان يرثان التخت والرئاسة الدينية ويقودان العساكر وينفذان الاحكام التي تصدر من مجلس الشيوخ ويوافق عليها الشعب بتمام حريته.

واما الشطر المدني فكان الأتم والأفضل وبمقتضاه قسم ليكورغس الاراضي الى تسعة وثلاثين الف سهم فاعطى منها ثلاثين ألفاً للأكونيين وتسعة الآلاف الاخرى التي كانت افضلها وأخصبها وأوسعها للسبارطيين. وحظر على السبارطيين مبيع حصصهم لسواهم فاخطأ بذلك اذ كان عدد السبارطيين يقل على توالي الايام بسبب الحروب حتى لم يبق منهم الا الف نسمة لعهد ارسطو طاليس وانحصرت تلك الاموال الطائلة في أيديهم على حين كانت املاك اللاكونيين تتناقص وتقل بسبب ازدياد عددهم فنشأت عن ذلك ثورات متوالية لم تلبث أن ضعضعت أركان الدولة وقربت اجلها.

ثم ان ليكورغس بالغ في العناية بحفظ المساواة فمنع استعمال الاشياء الكمالية والنقود الذهبية والفضية والتجارة والصناعة والاشتغال بالآداب. وأمر ان يطعم الناس في مآدب عامة لا تقدم لهم فيها الا المآكل الضرورية للقوت. وقضى على

الجميع بالرياضة البدنية الشاقة وكان قصده من كل ذلك ان يعد للوطن منهم حماة أشداء.

ومما سنه من القوانين المؤدية الى تحقيق هذه الامنية الشريفة انه جعل الوطن احق بالأولاد من والديهم ولذلك كان يقتل الولد الذي يخلق ذا علة أو خلل أو عيب في جسمه. واما سائر الأولاد الاصحاء من ذكور وأناث فكانوا يعودون منذ الطفولية على الحركات الرياضية المقوية للأبدان الملينة للاعضاء وكانوا لا يعلمون الا مبدئين وهما احترام الشيوخ والقانون واحتقار العذاب والموت.

حروب سبارطة ومسانيا (٧٤٣— ٦٦٨)

وكان من نتيجة هذه الوسائل المفيدة والتربية الشديدة ان خرجت سبارطة من انقسامها وتفرق كلمتها عزيزة مرهوبة الجانب فاتمت ما كانت شارعة فيه قبلاً من فتح لاكونيا وزحفت على بيلوبونيزا فبدأت بالمسانيين وهم قبيلة دورية كانت قاطنة غربي تايجات. فوقعت بين الفريقين حربان احداهما استمرت عشرين سنة (٧٤٣ - ٧٢٣) والاخرى سبع عشرة سنة (٦٨٥— ٦٦٨) وكان مقدام الحرب الأولى اريستوديم يروى عنه أنه ذبح ابنته اجابة الى ما صدر اليه من ايعاز بعض الآلهة بلسان.أحد المتكهنين ثم انتحر كي لا يرى اذلال السبارطيين لشعبه بعد سقوط مدينة ايثوم التي دافع عنها عشر سنين.

وكان مقدام الحرب الثانية ارستومين. ويحكى عنه انه دحر السبارطيين ودخل ليلاً الى مدينتهم وعلق علامة انتصار له في احد هياكلهم ولكنه انكسر بعد ذلك واسر ثم نجا وعاد يقاتل اعداءه مستعيناً بملك الاركاديين فخانه حليفه ودحر ثانية فاعتصم بجبل ايرا ودافع عن نفسه احدى عشرة سنة ثم سلم مضطراً فخيره اعداؤه فتخير النفي على الاستعباد.

وعلى أثر الحربين المتقدم ذكرهما هاجر جماعة من المسانيين بلادهم فأسسوا مدينة سينا في صقليا والذين بقوا منهم استعبدوا كالهيلوتيين حراث الأرض. وحارب السبارطيون بعد ذلك التيجانيين والارجيانيين فلم ينزعوا منهم ملك بلادهم ولكن

غلباتهم عليهم زادت في ابعاد شهرتهم حتى انهم كانوا يعدون في القرن السادس أول شعب حربي في اغريقيا.

ذكر ما كانت عليه اثينا الى عهد سولون

بعد وفاة الملك قودروس استعاضت اثينا عن الملك بمجلس اراكنه وكان اعضاؤه دائمين في سنة ١٠٤٥ ثم جعلوا قابلين للتغيير كل عشر سنين في سنة ٧٥٢ وفي سنة ٦٨٣ جعل انتخابهم سنوياً وعددهم تسعة. وعلى هذه الصورة انقلبت الحكومة الاثينية من استبدادية الى دستورية ديمقراطية ولكنها لم تجد حيلة لدفع الفواحش والمنكرات التي كان يرتكبها الشرفاء ولا لاعادة الأمن المفقود والراحة المنشودة بكل ما احدثه الشعب من التغيير في هيئة حكومته. فانتدب رجل من الاراكنة يدعى دراكون لسن قانون يصلح به تلك الحال السيئة فجعله في نهاية الشدة حتى قيل أنه كتبه بالدم فلم يقبله الشعب اذ كان من مقتضياته ان الذي يرتكب جنحة يعاقب بالقتل واستمرت الفتن والمفاسد جارية في مجاريها.

الكلام على سولون (٥٩٤)

وفي سنة ٥٩٤ عهد الى سولون وكان معروفاً بقصائد نظمها أن يصلح القوانين وشكل الدستور فوضع نظاماً سهل به وفاء الديون على المدينين وافرج عن المحبوسين منهم ولكنه أبى اجابة الفقراء الى ما طلبوه من تقسيم الاراضي وتوزيعها على الشعب للمساواة بينهم وقسم الناس الى اربعة أقسام بحسب ثرواتهم. وخص الاقسام الثلاثة الأولى بحق تولي المناصب وعمم للجميع حق حضور جمعيات الشعب والتصدر للحكم في المحاكم وحظر على الاراكنة التسعة تولي المناصب العسكرية. وجعل مجلس الشيوخ مؤلفاً من اربع مئة عضو ينتخبون من الأقسام الثلاثة الأولى ويمتحنون امتحاناً مدققاً قبل تعيينهم وكان هذا المجلس يتداول قبل جمعية الشعب في الاقتراحات ثم يعرضها عليها. وكان الشعب يثبت القوانين المقترحة أو يرفضها ويعين في المناصب ويتناقش في احوال الدولة وامورها ويجتمع في المحاكم للفصل في الدعاوى الكبيرة.

واعاد سولون محكمة الاريوباج فقرر أن يختار اعضاؤها من الاراكنة الخارجين من مناصبهم وان تكون هي المجلس الأعلى للحكم في الدعاوى الكبرى ولمراقبة الاخلاق والحكام والقضاة وكان لها أن تنقض ما ابرمه الشعب. وفي الجملة فان دستور سولون كان يدخل جميع الوطنيين في تقرير الشؤون العامة ولكنه يخص الفريق المتأدب منهم بادارتها. اما قوانينه المدنية فكانت تحدو بالناس على العمل والجد وتختلف عن قوانين ليكورغس من حيث لا تطلب من الرجل الواجب الوطني دون سواه ولا تقتل حكمة الاخلاق فدى للسياسة.

ذكر البيزيستراتيين والكلام على كليستنيس وتميستوكل

وبعد أن وضع سولون قوانينه واجراها في مجاريها ابتعد عن اثينا لاستزادة خبرته ومعارفه القانونية والنظامية بزيارته للأمم الشرقية القديمة ووقوفه على احكامها وادارتها. فلما رجع في سنة ٥٦٥ وجد لأثينا ملكاً تنصب فيها على اثر تجدد الخصومات والفتن التي كان يتوهم قبل سفره انه اباد جرثومتها. وكان الملك يدعى بيزيسترات. لم يلغ الدستور ولكنه بتحببه الى الشعب حصل على نفوذ في المدينة رجح على نفوذ القضاة بل ازاله. وكان لين الجانب محباً للاداب والفنون. وفي سنة ٥٦٠ زعم ان بعض الناس حاول قتله فاذن له باتخاذ الحراس. وقد نفي مرتين ثم عاد مدعوا واستمر مالكا الى آخر عمره وشرف ملكه بحسن ادارته وتقدم البلاد على يده.

وخلفه ابناه هيباركوس وهيبياس (٥٢٨) فحكما معا وفي سنة ٥١٤ قتل بعضهم هيباركوس بطعنة خنجر فاجتمع الملك كله لاخيه وانقلب من ذلك الحين ظالما شرساً. وكانت اسرة كبيرة واسعة الثروة تعرف بالالسيمونيدية قد هجرت اثينا فرارا من وجه الأسرة المالكة واخذت تترقب الفرصة لاسقاطها فلما رأت ما آل اليه امر هيبياس من كره الشعب له استنجدت بسبارطه عليه ورشت كاهنة دلفس لتبدي الموافقة على خلعه فلم يلبث ان جاءها جنود من الدوريين فدخلت معهم الى أثينا ففر منها الملك ولجأ الى بلاد فارس (٥١٠). وعادت المدينة بعد تحريرها من ربقة

الاستبداد فوقعت في الفتن الداخلية. وتنازع فيها السلطة كليستنيس وايساغورس المتقدمان في الشعب ففاز الأول على الثاني الذي لم يجده امداد سبارطه. واراد كليستنيس ان يكافيء شعب اثينا على انتصاره له فحور الدستور تحويراً زاد به نفوذ الشعب وقرر ان كل منتخب يقترع له بستة آلاف صوت فما فوق ينفي عشر سنين بتهمة انه يخشى منه على استقلال المدينة.

وفي هذا العهد كانت أثينا قد فتحت جزيرة اوبه وشبه جزيرة التراس وجزيرة لمنوس فطلب تمستوكل انشاء مئتي سفينة بايراد مناجم الفضة التي كانت تستخرج من لوريون فاجيب الى ما اقترحه.

—١٢—

الحروب المادية (٤٩٠ — ٤٤٩)

ثورة اليونانيين الاسيويين على الفرس (٥٠٠)

كان داريوس قد اخضع اسكيثيا والتراس بدون أن يتنبه اليونانيون الاغريقيون لخطر مجاورته. وحدث في العهد الذي نروي تاريخه أن اليونانيين الاسيويين ثاروا للتحرر من ربقة الفرس وكانت مدينة ميلة وهي احدى مستعمرات اثينا مركز الحركة فالتمست الأنجاد من سبارطة فأبته عليها فطلبته من أثينا فأجابتها اليه وأرسلت اليها سفائن وجنوداً اعانوها على أخذ سرديس واحراقها (٥٠٠) ثم رجع الاثينيون من هذه الحملة فالتقى بهم الفرس في الطريق وكسروهم فعاف الاثينيون هذه الحرب ووقعت مصيبة الفرس كلها على رؤوس الاسيويين اذ نكلوا بهم تنكيلاً واستولوا على ميلة واسترجعوا جميع المستعمرات اليونانية الاسيوية ثم عبأوا جيشاً جراراً بقيادة مردونيوس فسيروه الى اوربا لمعاقبة حلفاء العصاة وارسلوا بجانبه اسطولاً ضخماً.

الحرب المادية الأولى وفي ذكر موقعة ماراتون والقائد ميلتياد (٤٩٠)

واتفق ان نوءاً شديداً حطم الاسطول الفارسي بقرب جبل اثوس وكان أهل

التراس قد ظهروا على مردونيوس وقتلوا عدداً كبيراً من جيشه فعاد الى آسيا. وارسل داريوس حملة ثانية عظيمة قائداها داتيس وارتافرن تحت امرة هيبياس الملك الخائن لبلاده. فسيرت الجيوش على سفائن في البحر ومرت من خلال جزائر الارخبيل فاخضعتها ثم أنزل مئة الف مقاتل منها الى ماراتون وكان فيها ١٠٠٠٠ أثيني والف مقاتل من بلاته (بيوسيا) يقودهم ملتياد فالتقى العدوان واشتد بينهما النزال الى أن فازت الفئة القليلة (٤٩٠) وكان هيبياس في جملة القتلى من الفرس. وحاول الاسطول الفارسي ان يداهم اثينا ففشل وقفل راجعاً الى آسيا. ثم تقدم ملتياد لاسترجاع الارخبيل فدحره العدو امام باروس فاتهم بالخيانة وحكم عليه بغرامة لم يكن في وسعه أن يؤديها فسجن ومات في السجن من جراحه. وأصبح النفوذ الأول في اثينا لثميستوكل فادرك ان الفرس لا بد أن يعودوا الى القتال فاخذ ينفق جميع ايرادات اثينا في زيادة عمارتها البحرية بينما كان داريوس مشتغلاً بقمع ثورة قامت عليه في مصر.

الحرب المادية الثانية وذكر موقعة سلمينه (٤٨٠)

ولم يمهل داريوس في اجله حتى يخمد هذه الثورة فأخمدها زركسيس الذي خلفه (٤٨٥) ثم حشد جيشاً من جميع اطراف سلطنته الواسعة وقاده بنفسه الى فتح اغريقيا وكانت قوته مؤلفة من مليون رجل وفي رواية مليونين والف ومئتي سفينة حربية و٣٠٠٠ سفينة نقل. فلما وصل من سوز الى ابيدوس اجتاز البوغاز على جسر واحتفر قناة أمر منها سفائنه كي لا تقع في خطر الطواف حول رأس اثوس. ثم ملأ التراس ومكدونيا وتساليا برجاله فخضعت له صاغرة ولم يصادف مقاومة الا في مضيق ترموبيل وكان يحميه ليونيداس ملك سبارطة في ثلاث مئة سبارطي وبعض التسبيين. الا أن خائناً من اليونان دل الفرس على طريق غير طريق المضيق فساروا عليها وقد انفرجت كربتهم واحدقوا بسرية ليونيداس الصغيرة فلم توهم اكتافها مع كثرتهم بل قاتلتهم حتى قتلت عن آخرها وتقدم الفرس الى اثينا فدخلوها وتوهموا ان الحرب انتهت مع أن أهل اثينا كانوا قد نزلوا الى مراكبهم فتراجعت بهم الى جزيرة

سلمينه عندما علمت بأخذ مضيق ترموبيل. أما تمستوكل فلم يدركه اليأس مما وقع وبعد ان جعل الاثينيين في مركز موافق لهم في البحر اخذ يحتال على زركسيس حتى حمله على اصدار امر بمنازلة اليونانيين في البحر ظناً منه أنه يجهز عليهم واستصنع ملك الفرس عرشاً شامخاً على شاطىء البحر ليشاهد بعينه القتال فرأى تحطم عمارته (معركة سلمينة ٤٨٠) وعاد فاجتاز بوغاز الدردنيل فاراً ذليلاً بعد أن مر به قبل ذلك بستة أشهر غانماً عزيزاً الا أنه ترك ٣٠٠ الف مقاتل في اغريقيا تحت قيادة مردونيوس فاجتمع لمقاتلتهم في بلاتة مئة الف يوناني تحت قيادة بوزانياس ملك سبارطة وفتكوا بهم فتكاً هائلاً حتى لم ينج منهم الا الذين فروا قبل النزال وفي ذلك اليوم عينه ظهرت العمارة اليونانية على عماراة الفرس في ميكال على شواطىء آسيا (٤٩٧) فتم بذلك انقاذ القارة الاوربية من الاجانب وخلا البحر لاثينا.

انفراد أثينا في إنجاز الحرب وذكر ما وقع لها مع حليفاتها

ظهر مما تقدم أن الفخر الأعظم في دفع الغارات الفارسية كان لأثينا. وقد انفردت بإنجاز الحرب بعد ذلك سوى أنها استعاضت من حليفاتها عن الرجال بالمراكب والمال. وكان الباعث على امتناع سبارطة عن الاشتراك في تلك الحرب ما حصل عندها من السآمة والكدر بسبب خيانة ارتكبها أحد قوادها بوزانياس وذلك انها عهدت إليه أن يذهب الى التراس ليطرد جنود الفرس منها فكان منه أن كاتب زركيس سراً ووعده بتسليم البلاد له على أن يزوجه ابنته ويوليه تلك البلاد بالنيابة عنه.

ومع انفراد أثينا فإنها هي التي بادأت الفرس بالحرب فاستولت على أمفيبوليس ثم على قسم من التراس أرسلت اليه عشرة آلاف من أبنائها لاستعماره وبعد ذلك شرعت تحرر اليونانيين الآسيويين.

واتفق لقائدها سيمون بن ملتياد انه فاز براً وبحراً في يوم واحد بقرب شواطىء الأريمدون (٤٦٦) فأولاها بذلك السيادة المطلقة على البحر ثم انتزع من الفرس مفتاح أوربا باستيلائه على كاليوبولي. وكان رئيس الأراكنة في أثينا لذلك العهد أريستيدس الصديق.

آخر انتصارات اليونانيين وذكر سيمون (٤٤٩)

ولما جلس أرتاكزرسيس المعروف بذي اليد الطويلة على سرير فارس كانت المملكة في انحطاط عظيم فثار عليه المصريون في طلب استقلالهم وأمدهم الأثينيون بالجنود فقاوموه سبع سنين (٤٦٣ — ٤٥٦). وحدث أن سيمون نفي عن وطنه بسبب كثرة الأصوات التي أصابها في الانتخاب الثاني وأن أثينا اشتغلت فضلاً عن ذلك بمحاربة سبارطة لما وقع بين المدينتين من نفرة التناظر فأصلح ارتاكزرسيس بعض شؤونه في هذه الفترة وتجهز لاستئناف الحروب إلا أن سيمون لم يلبث أن أعيد الى منصبه فأصلح ما بين العاصمتين وعاد فبادأ الفرس بالقتال فظهر عليهم براً وبحراً بقرب قبرص وعلى شواطىء آسيا وأتى بذلك على الحروب المادية.

وكان ملك الفرس قد أصبح يخشى سقوط مملكته نفسها فوقع على معاهدة صلح قضت عليه بإعادة الحرية لليونانيين الآسيويين ومنع عمارته من دخول البحر الأسود وجيوشه من التقدم نحو الشواطىء الأعلى مسيرة ثلاثة أيام منها (٤٤٩). وتوفي سيمون في هذا الفوز العظيم.

— ١٣ —

عصر بريكليس

ذكر بريكليس

هو رجل خليق بالذكر على انفراد في جريدة أسماء الذين شرفوا وطنهم. وهو ابن كزانتيب وصاحب الانتصار في ميكال. كان شريف المولد متهماً بنية الاستئثار بالسلطة ولذلك عاش زماناً مبتعداً عن الأعمال ثم تولى رئاسة حزب الشعب. وأكسبه حسن سيرته وجليل خدمته النفوذ بالأعظم في المدينة فاستخدمه لهداية العامة وكبح جماح شهواتها وأرسل طوارىء كثيرة من اليونانيين الى المستعمرات لا لينشئوا فيها مدناً مستقلة كالسابق بل ليكونوا فيها بمثابة حراس في خدمة وطنهم.

اجتماع أعاظم الرجال في أثينا

ولم يكتف بريكليس بأن تكون أثيناَ ذات ثروة وبطش بل دعا إليها جميع الرجال العظام المتفرقين في بلاد اليونان فاجتمعوا فيها وأصبحت بذلك عاصمة النور والحضارة. وكان الناس يأتون إليها من كل فجٍّ ليتمتعوا فيها بالملاهي الأدبية والمسرات العقلية والمشاهد الشائقة من طبيعية وصناعية ويحضرون الحفلات التي ترتل فيها الأشعار الدينية وتنشد القصائد الوطنية ويشهدون في الملاعب تمثيل بعض الحوادث من تاريخ الالهة أو الأبطال.

ودعي ذلك العصر بعصر بريكليس وبلغت فيه أثينا أعظم مبلغ من المجد وقد اجتمع فيها في آن واحد سوفوكل وأوريبيد أكبر الشعراء الذين نظموا الروايات التمثيلية الفاجعة الى أيامنا هذه وليزياس الخطيب المصقع وهيرودتس الراوية الشهير وميتون الفلكي وأبقراط الملقب بأبي الطب وأرستوفان أول شعراء الروايات الهزلية التمثيلية في الأزمنة القديمة وفيدياس أبرع الناحتين وأبولودور وزكسيس وبوليكنوت وبارازيوس أمهر الرسامين وأناكزاغورس وسقراط أعظم فلاسفة الأرض.

ولو أضيف الى هؤلاء المشاهير ايشيل الذي توفي في بدء زمان ظهورهم ثم توسيديد وكزنوفون وبلاطون وأرسطوطاليس الذين جاؤوا بعدهم بقليل لإدراك القارىء السبب الذي من أجله لقبت أثينا في ذلك العصر بمدرسة اليونانية وفيما بعده بمدرسة العالم أجمع.

— ١٤ —

تناظر سبارطة وأثينا وثيبة

غضب الحلفاء على أثينا

كانت أثينا بعد انتصارها بسلمينه قد تولت الرئاسة على ما سمي باتحاد اليونانيين الاغريقيين والآسيويين لاستتمام محاربة الفرس فلما تعب حلفاؤها من القتال اكتفت

بمالهم بدل جنودهم وبقيت تقاتل عنهم . ولما انتهت الحرب استمرت تتقاضى الجزية منهم بدعوى انها تستعد لرد غارة جديدة فرأوا أنها إنما تأخذ أموالهم لزيادة أبنيتها وإقامة حفلاتها الشائقة فتظلموا فلم تكشف ظلامتهم وردتها بكبر وغلظة فشكوا سراً الى سبارطة وكانت عندها غيرة كمينة من أثينا فأخذت تسعى في تأليف محالفة لتقاومها بها براً وبحراً ثم جرت بين الفريقين مناوشات لا يعتد بها من سنة ٤٥٧ الى سنة ٤٣١ أما الحرب الكبيرة فلم تشهر الا على أثر فتح الثيبيين حلفاء سبارطة مدينة بلاته .

حرب المورة (بيلوبونيزا) الى عقد مصالحة نيسياس (٤٣١—٤٢١)

لم تكن هذه الحرب في بدء أمرها على ما أشرنا إليه آنفاً إلا غارات يشنها السبارطيون في كل ربيع على الاتيك ومناوشات بحرية تسطو بها مراكب أثينا على شواطىء المورة . وفي السنة الثالثة من ابتداء هذه الحروب توفي بريكليس بالطاعون (٤٢٩) وخلفه زعماء غير أكفاء لا يستطيعون كبح جماح الشعب فنجمت عن ضعفهم نتائج وخيمة منها انه قتل في مقتلة واحدة ألف ومئتان من العصاة الذين ثاروا على أثينا في جزيرة متلين.

وعندما افتتحت الحرب المنتظمة لم يستقر فيها الفوز لأحد الفريقين من سنة ٤٢٩ الى ٤٢٦ . وقد تغلب البيوسيون في خلالها على مدينة بلاته فهدموها وتغلب الأثينيون على بوتيده فاستولوا عليها . وفي سنة ٤٢٤ دخل برازيداس القائد السبارطي مدينة أمفيبوليس ودخل ديموستين القائد الأثيني مدينة بيلوس وحرر الهيلوتيين وهم الطبقة المسترقة من الشعب . وكان ٤٠٠ سبارطي قد أتوا لإنقاذ بيلوس فأسرهم أعداؤهم في سفاكتيريا وانتصروا بعد ذلك على القرنثيين والبيوسيين والميجاريين وحلفائهم غير أنهم عادوا فانكسروا في دليون وقتل رئيس أراكنتهم كليون أمام بوتيده وقتل برازيداس أيضاً في الموقعة نفسها . ثم علت كلمة أنصار الصلح بين الفريقين (٤٢١) ووقع نيسياس على معاهدة الصلح التي عرفت باسمه .

حملة صقليا وذكر السيبياد (٤٢٥ــ٤١٣)

وجاء هذا الصلح معارضاً لمطامع السيبياد ابن أخت بريكليس وكان يريد الحرب ليترقى في المناصب فاقترح مناوأة صقليا فأجيب الى ذلك ولكنه اتهم في خلال الحرب بأنه ارتكب ذنباً دينياً منكراً فعزل من منصبه بسببه فلجأ الى سبارطة وانتظم في جيشها ليقاتل فيه وطنه قتالاً يقضي به عليه. وكانت في هذه الأثناء جنود حملة صقليا قد تهاونت في حصار مدينة سرقوصة الذي تولى إدارته نيسياس بعد عزل السيبياد ففاز أهل المدينة عليهم وسحقوهم براً وهدموا عمارتهم بحراً وذبحوا زعماءهم الذين وقعوا أحياء بين أيديهم وباعوا العساكر بيع الأرقاء.

وكان هذا الفشل العظيم ضربة قاتلة لأثينا وباعثاً شديداً لسبارطة على استئناف محاربتها فحصنت لذلك مدخل الأتيك واستعانت بالفرس عملاً بمشورة الخائن السيبياد غير أن أثينا قاومت العدوين جميعاً. واتفق أن السيبياد أبعد عن سبارطة لجريمة أخرى اتهم بها فلجأ الى آسيا وتقرب من تيسافرن عامل ملك الفرس على آسيا الصغرى بما أدخله في ذهنه من أن دوام هذه الحرب بين الدول اليونانية مفيد للمملكة الفارسية. وكان لأثينا جيش في ساموس فاتصل السبياد به وأغراه بمواعيد الإعانات من الفرس فولاه قيادته.

وحدث على أثر ذلك أن شعب أثينا قلب حكومته وغير صورتها ودستورها فأنشيء بمقتضى النظام الجديد مجلس عال مؤلف من أربعمئة عضو مكان مجلس الشيوخ وجمعية مؤلفة من خمسة آلاف عضو مندوبين مكان الجمعية التي كانت أبوابها مفتوحة للشعب كافة (٤١١) ولما علم جيش ساموس بهذا النظام أبى الخضوع له فلم يدم أربعة أشهر حتى ألغي وأبقيت منه جمعية الخمسة آلاف ثم عقد الصلح بين الشعب وجيش ساموس على أن يعاد السيبياد الى وطنه فأذن بالعودة وعهد إليه أن يدير رحى الحرب على سبارطة فانتصر في موقعتين بحريتين في بوغاز الدردنيل (٤١١) وفي معركتين برية وبحرية بقرب سيزيك (٤١٠) واستولى على بيزانس أو بيزنطة (٤٠٨) فأيد سيادة أثينا على التراس وأيونيا وعاد الى وطنه غانماً مكرماً (٤٠٧)

إلا أنه غلب بعد ذلك بأشهر في بعض غزواته الصغيرة فخامر النفوس ريب من أمره فجرد من سلطته وفرّ لاجئاً الى آسيا فقتله الفرس فيها.

تحالف سبارطة والفرس وسقوط أثينا (٤٠٤)

كان سيروس أخو الملك أرتكزرسيس الثاني متولياً قيادة الجيش الفارسي في آسيا الصغرى طامعاً في إسقاط أخيه ليخلفه فرأى أن يستعين بالسبارطيين على بلوغ مأربه فأمدّ ليساندر القائد السبارطي بمال ورجال فغلب الأثينيين في موقعة آغوس بوتاموس الشهيرة التي أفقدتهم السيادة البحرية (٤٠٥) ثم استولى على أثينا نفسها (٤٠٤) فدمر جدرانها وجعل بحريتها لا تزيد عن اثنتي عشرة سفينة واستبدل حكومتها بثلاثين رئيساً أقامهم عليها. فاستبدوا وظلموا الى حد أنهم قتلوا بلا ذنب أحدهم لأنه اقترح عليهم العفو عن بعض المحكوم عليهم فلم يطق أهل أثينا هذا النير وانضموا الى رجل شهير منهم يدعى ترازيبولس كان منفياً وعاد لمقاتلة الظالمين فانتصر عليهم وأسقطهم وأعاد دستور سولون (٤٠٣) وبعد مضي هذه الحادثة بأربع سنين صدر الحكم المشهور على سقراط أبي الفلسفة بشرب الشوكران لما اتهم به من إفساد التعاليم الدينية فمات شهيد الخرافات التي كان أول محارب لها.

عظمة سبارطة وذكر حملة العشرة الآلاف (٤٠١) وذكر أجزيلاس

ظهر مما تقدم أن الرئاسة في اغريقيا انتقلت من أثينا الى السيدمونة غير أن هذه لم تحسن شيئاً من فن أو علم ولم يقم فيها إلا زعماء ذوو مطامع وجشع.

وكان سيروس قد استنجد بالسبارطيين لإتمام مقصده فأمدوه بثلاثة عشر ألف مقاتل فتقدم الى جوار بابل وانتصر على جيوش أخيه في كوناكسا ولكنه توفي على الأثر (٤٠١) فأحدق الفرس باليونانيين من كل جانب فتراجع اليونانيون متقهقرين وهم كالبناء المرصوص متحركاً واستعملوا ما شاء الله من الحكمة والدهاء وعانوا ما لا يطاق من المشاق وحيروا أعداءهم بإقدامهم طوراً وإحجامهم حتى نفذوا من طوقهم وجدوا المسير لا يدركهم تعب ولا تستوقفهم العقبات وكانت رجعتهم الشهيرة هذه بقيادة كليارك السبارطي بادىء بدء ثم بقيادة المؤرخ الشهير كزنوفون

الأثيني الذي وصفها في كتاب من أنفس ما كتب في عصره. وكانت جملة ما اجتازوه ألفاً وستمائة كيلومتر من الأرض الوعرة والجبال التي لم تطرق لها مسالك وذلك في القسم الأعلى مما بين النهرين وفي أرمينيا والبنطس الى أن أدركوا البحر الأحمر. وقد دلت هذه العودة التي عرفت في التاريخ بعودة العشرة الآلاف على ما كان في المملكة الفارسية من الضعف الداخلي تحت ظاهر القوة والبأس وهي التي حدت باجزيلاس ملك سبارطة سنة ٣٩٦ على الشروع في فتح مملكة فارس وكان من أمره في هذه الحرب أنه ظهر على ولاة آسيا الصغرى واستثار المصريين وأخذ يستعد لمواصلة السير ولكنه استوقفته دسائس ملك الفرس بما توصل اليه بالرشوة من جمع كلمة قرنثية وثيبة وأرغوس ثم أثينا وتساليا على سبارطة فعاد اجزيلاس مهرعاً من آسيا وانتصر على أعدائه المتحالفين في كورونة فوطّد بذلك دعائم السيادة البرية لسبارطة عليهم غير أن كونون الأثيني تولى قيادة أسطول فينيقي ودمر به أسطولها وأفقدها السيادة البحرية وأقام أسوار أثينا بإمداد من أموال الفرس.

معاهدة انتالسيداس (٣٨٧)

تخوف السبارطيون من تجدد نشأة أثينا وأنفذوا انتالسيداس الى ملك فارس ليعقد معه صلحاً من مقتضاه إرجاع اليونانيين الآسيويين الى سلطته وقبول ما يشرطه على سبارطة.

وإنما وصلت اغريقيا الى هذه الدرجة من التذلل والتزلف لأن المال قام فيها مقام الفضيلة وكان ملك الفرس ذا ثروة عظيمة ينطق برشوته الخطباء في تلك البلاد ويحرك الجنود والأساطيل والمدائن كما يشاء.

تنازع سبارطة وثيبة وذكر أيبامينونداس (٣٨١ — ٣٦٢)

وكانت سبارطة قد ألقت المدائن اليونانية كلها على قدمي ملك الفرس لتستمر قائمة وحدها فيما بينها وأخذت تستبدّ بها استبداداً لا يطاق فهدمت مانتينه بلا موجب وأسقطت أولينتيا لغيرتها منها ونفت جماهير من الوطنيين لتوقع الرعب في

قلوب الباقين وحدث أن فيداس أحد قوادها داهم قلعة قدمه فاستولى عليها (٣٨٢) مع أنها كانت ملك ثيبة حليفة سبارطة واستبقاها لقومه فنهض بيلوبيداس الثيبي في مقدمة جمهور من مواطنيه المنفيين مثله وحالف جميع مدائن بيوسيا لمحاربة سبارطة وكان قائد جيشها ايبامينونداس فلما لقي جيش السبارطيين سحقه سحقاً في موقعة لكتر (٣٧١) ودخل المورة وتقدم الى أسوار سبارطة نفسها غير انه لم يدخلها وشيّد على جوانبها قلعتي ميغالوبوليس ومسانه ليلجأ إليهما الأركاديون والمسانيون حلفاؤه عند مسيس الحاجة (٣٦٩) فاستعانت سبارطة بالأثينيين والفرس ودنيس ملك سرقوصة لإسقاط ثيبة فدخل أيبامينونداس المورة ثانية واستمال ملك الفرس اليه فحالفه ثم أنشأ عمارة مؤلفة من مئة سفينة أمدّ بها رودس وشيوس وبيزنطة وقد ثارت جميعها على أثينا ولكن نكد الطالع غلب على سعد ثيبة فتوفي ايبامينونداس في غزوته الثالثة للمورة وهو منتصر على أعدائه في موقعة مانتينه وسقطت بموته دولة ثيبة.

— ١٥ —

فيليب المقدوني وديموستين (٣٥٩—٣٣٦)

ذكر فيليب (٣٥٩)

إن مقدونيا بقعة متسعة شمالي تساليا والبحر الأسود. حكمها ملوك من أول عهدها ولكنهم كانوا محوطين بالشعوب البربرية ومقيدين بسلطة شرفاء بلادهم فلم يكن لهم شأن يذكر. وقبل أن يتولاها فيليب كانت تدفع الجزية للايليريين وكانت الأحكام فيها فوضى بسبب تداخل ثيبة وأثينا في شؤونها. وكان فيليب في صباه قد أرسل الى ثيبة رهناً على إنفاذ بعض الشروط التي قضت بها ثيبة على مقدونيا فربي في بيت ايبامينونداس وتلقى على يديه فنون الحرب والدهاء وعلم منه كيف يستطيع رجل واحد أن ينقذ بلاده. ثم لم تمض سنتان على بلوغه الملك حتى أنجى وطنه من تداخل الأجانب فيه واعتداء مجاوريه عليه.

فتح أمفيبوليس واحتلال تساليا

ثم أخذ يسعى في توسيع مقدونيا وإدخال اغريقيا كلها تحت ولايتها ففتح بوتيدة ووهبها لجمهورية أولينتيا ليكتفي بذلك معارضتها له في إنفاذ مأربه الكبير ثم فتح أمفيبوليس ولم ينجدها الأثينيون لاغترارهم بما وعد من جلائه عنها بعد حين وأخضع سائر البقعة الواقعة بين نستوس وستريمون وفيها وقع على ما يحتاج إليه من الخشب لابتناء المراكب وعلى مناجم للذهب كان يرده من تعدينها مال كثير في كل سنة. وتقدم من تلك البلاد الى التراس فاستولى على جانب منها ونوى الزحف على بيزنطة فصدّه الأثينيون عنها. فتحول عن هذه الجهة الى غيرها وتداخل في أمور تساليا فأسقط الذين كانوا عليها من الحكام الظالمين وقوى بذلك نفوذه فيها ثم حدث أن الفوسيديين حرثوا حقلاً مقدساً ليستغلوه فحكم عليهم مجلس الأمفيكتيون الكهنوتي بعقوبة لم ينفذوها فتصدر فيليب لحماية الدين وقاتل أهل فوسيدة قتالاً عظيماً دحرهم به (٣٥٢) فعرف التساليون له هذا الفضل ووهبوه ثلاثاً من مدائنهم فوضع فيها حوامي مقدونية وجعلهم بذلك مباشرة تحت سلطته ثم زحف على مضيق الترموبيل فحال الأثينيون دون استيلائه عليه كما حالوا قبلاً دون أخذه لبيزانطة وللأوبة.

ذكر ديموستين

وكان في ذلك العهد الخطيب الشهير ديموستين يكشف الستار عن مطامع فيليب ويحذر اليونانيين منه. غير ان خطبه على بلاغتها لم تقف في وجه ذلك القوي المحتال فما عتم حتى فتح اولينتيا وكانت اشد حائل دون اتساع مقدونيا (٣٤٨) وتقدم منها الى الاوبه ومنها الى الاتيك وانتصر على الاثينيين فعقدوا معه صلحاً اشار به ديموستين نفسه لقضاء الضرورة القصوى به في ذلك الأوان.

الحرب المقدسة الثانية (٣٤٦) وموقعة خرونيا (٣٣٨)

وبينما كانت أثينا لاهية باعيادها وحفلاتها اجتاز فيليب الترموبيل وفتك بالفوسيديين وانتزع منهم ما كان لهم من العضوية في مجلس الامفيكتيون (٣٤٦)

واخذ يستخدم المجلس المشار اليه في جميع اغراضه. غير أنه لم يكثر من الفتوحات في تلك الجهة مخافة أن ييأس أهلها وينهضوا لمصادمته نهضة تقضي عليه أو عليهم فحول وجهته الى نهر الدانوب وادخله في تخوم مملكته ثم انقض على التراس فرد فوسيون الاثيني الشهير غارته عن المستعمرات اليونانية بشواطىء الدردنيل.

وفي هذه الأثناء عزم اليونانيون على القيام بجهاد آخر ينتقمون به لدينهم من اللوكريين فنصبوا فيليب قائداً عاماً لادارة هذه الحرب فلم يلبث ان وصل الى اغريقيا الوسطى واخضع ايلاته فنهض ديموستين يقاوم سيف الفاتح بلسانه القاطع وحالف بين اثينا وثيبة لتدافعا الدفاع الاخير عن الحرية اليونانية وكان ملتقى الجمعين في خرونيا (٣٣٨) فانتصر الملك انتصاراً باهراً على اعدائه ولكنه عامل محاربيه بالحكمة والاعتدال تحبباً اليهم ثم حمل مجلس الامفيكتيون على تعيينه قائداً عاماً لليونانيين في محاربة الفرس وكان يريد بذلك اظهار سلطته بمظهر شرعي. غير أن رجلاً شريفاً يدعى بوزانياس قتله بايعاز من الفرس وقيل من امرأته (٣٣٦) فتوفي في السابعة والاربعين من عمره وقد جعل مقدونيا مملكة عظيمة تمتد تخومها من الترموبيل الى الدانوب ومن شواطىء الادرياتيك الى البحر الاسود. وكانت قد نجت من مخاوف الاجانب في خارجها ومن فتن الاعيان وغيرهم في داخلها.

—١٦—

الاسكندر المقدوني (٣٣٦— ٣٢٣)

خضوع اغريقيا للاسكندر (٣٣٦— ٣٣٤)

عندما علم اليونانيون بوفاة فيليب وبأن الذي يخلفه شاب في العشرين من العمر تحركوا للثورة فهب الاسكندر لتسكينهم فاخضع التراس وايليريا ودمر البرابرة على ضفتي الدانوب ثم بلغه ان أهل ثيبة ذبحوا الحامية المقدونية فقدم في ثلاثة عشر يوماً

من ضفاف الايستر الى بيوسيا وقال ان ديموستين دعاني ولدا حين كنت في ايليريا ودعاني شاباً حين وصلت الى تساليا وسأريه اني رجل حين ادرك اسوار اثينا.

واستولى الاسكندر على ثيبة وذبح ستة آلاف من سكانها وباع ثلاثين الفا منهم بيع الرق فخاف بأسه اليونانيون ومنحوه في قرنثية لقب القائد العام لمحاربة الفرس اجابة الى طلبه ونزولاً على حكمه.

حرب الفرس (٣٣٤) وذكر استفتاح الساحل الاسيوي ومصر

فاجتاز الاسكندر الدردنيل في ثلاثين الف راجل و٤٥٠٠ فارس وانتصر بقرب نهر الغرانيك على مئة وعشرة آلاف من جنود فارس واستمر يتقدم لازما السواحل ليمنع بذلك عمال الفرس من الوصول الى اغريقيا واثارة الخواطر فيها عليه. فتصدى له دارا في مدينة ايسوس باسيا الصغرى فاستظهر الاسكندر عليه (٣٣٣) ورده على اعقابه ولم يتبعه للتنكيل به بل لزم خطة سيره واستأنف التقدم على الشواطىء وكان يحتل جميع الثغور الى أن بلغ مدينة صور فحاصرها سبعة أشهر حتى نزلت على حكمه ثم انقلب منها الى مصر ففتحها وقضى فيها سنة وضحى لآلهتها ليستميل بذلك الشعب اليه وأسس مدينة الاسكندرية واستمنح كهنة آمون لقب ابن الآلهة وكان هذا اللقب لا يمنح الا للفراعنة قبله (٣٣٢).

فتح بلاد فارس وذكر وفاة دارا ومقتل كليتوس (٣٣١—٣٢٧)

ثم استأنف الاسكندر حروبه الاسيوية حتى اذا اخضع جميع عمالات الفرس البحرية اجتاز فلسطين وسوريا ثانية وقطع الفرات ودجلة دون أن يصادمه الفرس مصادمة تذكر وادرك داراً في صحراء اربل فسحق جيشه ففر دارا في شرذمة بقيت له نحو عمالاته الشرقية واما الاسكندر فدخل بابل وقرب فيها قربانا للاله بيلوس وشيد هيكله الذي كان اكزرسيس قد هدمه وافتتح سائر عواصم دارا وهي سوسه التي كانت تحتوي على اموال طائلة وبازرجاد التي كانت بمثابة بيت مقدس المملكة وبرسوبوليس او مدينة فارس وهذه العاصمة احرقها الاسكندر اعلاناً للشرق بأن فاتحاً جديداً جلس على سرير كورش.

ثم اخضع بنفسه وبقواده جميع سكان الجبال المجاورة لتلك البلاد وتقدم الى اكباتان فوصل اليها بعد فرار دارا منها بثمانية أيام فاقتص أثره وكان على وشك أن يظفر به حياً فما ظفر الا بجثته لأن ثلاثة من رجاله كانوا قد قتلوه. وكان من القاتلين له قائد يدعى بيسوس حاول اتخاذ مركز لمقاومة الاسكندر في باكتريانا فلم يمهله الاسكندر بل اجتاز آريا واراكوزيا وباكتريانا الى نهر الاوكسوس بسرعة عجيبة. وهناك وقع بيسوس بين يديه وذلك انه كان قد لجأ الى ما وراء النهر المذكور فقبض عليه جماعة ودفعوه الى الاسكندر فشكل مجلساً من الماديين والفرس لمعاقبته فحكموا بتسليمه الى اخ لدارا فاهلكه في اشد العذاب.

وقضى الاسكندر فصل الشتاء في تلك البقاع فأسس اسكندرية أخرى على ضفاف نهر اياكزارتس واسكنها جماعة من اليونانيين المقاتلين معه بالاجرة وجماعة من البرابرة المجاورين وقسماً من عساكره الذين اصابتهم العاهات فجعلتهم غير صالحين للحرب. وفي تلك الاثناء نهض رجل يدعى سبيتامين أحد شريكي بيسوس في جريمته لاستئناف ما كان زميله قد بدأ به من محاربة الاسكندر فاصابه الفشل ففر ولجأ الى قبيلة كبيرة من قبائل التتر يعرف اهلها بالمساجيتيين فذبحوه وبعثوا برأسه الى الجيش المقدوني.

وعلى أثر هذه الحوادث تزوج الاسكندر بروكسانا ابنة دارا ملك الفرس وأسس مدائن كثيرة في تلك البلاد وترك فيها اثاراً خالدة على الأيام وابقى ذكراً جميلاً لا يشوب صفاءه كدر الا مما ركبه من الفظائع القبيحة كتعذيبه ظلماً لمقرب اليه يدعى فيلوناس وايقاعه بابي الرجل المذكور عقاباً لهما على عدم اخبارهما له بأمر لم يعلما به وهو حدوث تواطىء سري عليه. وكقتله وهو سكران في احدى المآدب لقائده الامين كليتوس (٣٢٧) وكاهلاكه الفيلسوف كاليستينس بسبب مؤامرة لم تكن له يد فيها.

وصول الاسكندر الى ما ورآء السند وذكر عوده الى بابل ووفاته (٣٢٧ — ٣٢٣).

ولم يكف الاسكندر انه جعل من مملكة فارس مملكة مقدونية بل اراد التقدم الى

الهند. فوجد على ضفاف الكوفيس ملكاً هندياً يدعى تكسيل استنجد به على فور احد ملوك تلك البلاد فاستقطع الاسكندر غابة برمتها كانت بقرب معسكره واستصنع منها مراكب اجراها على السند وتغلب على فور ولما اسره سأله كيف تريد ان اعاملك فاجابه معاملة ملك فرضي الاسكندر عنه لهذا الجواب ورد اليه ملكه اوسع مما كان وكلفه بالطاعة له ثم اراد اجتياز نهر ايفاز أو بيجا للدخول الى وادي الكنج فابى عليه ذلك جيشه فاضطر الى الوقوف حيث كان ورسم هناك حدود مملكته وشيد عليها اثني عشر مذبحاً أقام فيها حفلات شائقة. ثم قفل راجعا فجاز السند وهبط الى البحر المحيط واخضع في طريقه كل القبائل التي لقيها على ضفاف هذا النهر وأسس المدائن والمواني ومصانع الخشب وعاد الى بابل وقد اجتاز بلوخستان وكانت تعرف بصحراء جدروزيا وكارمانيا ولم يجتزها جيش قبل جيشه. وفي هذه الأثناء كان نيارك أحد امرائه البحريين يسير اسطوله على جوانب الساحل الى أن أدرك خليج العجم فنفذ منه لملاقاة مولاه وكانت خطته هذه في سيره أول طريق رسمت بحراً لطلاب الاتجار مع أهل الهند.

هذا وان الاسكندر مع ما كانت ترسله اليه مقدونيا واغريقيا من الرجال كان لا يستطيع أن يبني ذلك العدد العظيم من المدائن ويبقي جميع الشعوب التي اخضعها تحت حكمه لو لم يعامل الأمم التي تغلب عليها بالحكمة والدهاء السياسي كأن يقرب القرابين لألهتهم ويزوج الكثيرين من رجاله ببناتهم كما تزوج هو بابنة دارا. وكان أعظم ما يطمع فيه استحكام الصلات التجارية بين الشرق والغرب وبين اغريقيا والفرس بحيث تصبح جميع تلك الخلائق على اختلاف اجناسها مملكة واحدة لتوافق مصالحها. غير أن الموت ادركه في بابل على أثر اكثاره من السكر وركوب الفاحشة فانحلت عرى مقاصده الضخمة (٢١ ابريل ٣٢٣) وعندما كان في حالة النزع دفع خاتمه الى برديكاس أحد قواده فسأله الآخرون من تستخلف على عرشك فاجاب «أولاكم به ولكني اخاف أن تلطخوا بالدماء مشهد دفني» وكان الاسكندر حين وفاته في الثانية والثلاثين من العمر وكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة. وحدث قبل دفنه ما تنبأ به من وقوع الفتن بين رجاله.

عصر الاسكندر

ظهر في عهد فيليب والاسكندر رجال عظماء اتموا مجدهما ومجد اليونانية وهم براكسيتال (٣٦٠— ٢٨٠) الذي كان ابرع الناحتين اليونانيين في ابراز التماثيل خفيفة الرسم في العين عذبته وبامفيل الرسام الذي بلغ من البراعة مبلغ المتقدمين عليه بالزمان وهم فيدياس وبوليكلات وزوكسيس. وكان استاذ ابيل الشهير. ثم ديموستين وليكورغوس وهيبياس واشين وسوفوكل الخطباء الذين لم يشق لهم غبار في ميدان الفصاحة والفيلسوف افلاطون (٤٢٩ — ٣٤٧) اشهر تلامذة سقراط وهو الذي كان بعلم حكمته في حدائق اكاديموس ويخلب الألباب بسحر بيانه العذب الرقيق حتى ان اليونانيين كانوا يزعمون ان اباه ابولون اله الموسيقى والصنائع الجميلة وان طائفة من النحل اودعت عسلها على شفتيه حين ميلاده.

وارسطو طاليس الملقب بأبي الفلسفة (٣٨٤— ٣٢٢) اشهر تلامذة افلاطون ثم قرينه واستاذ الاسكندر وهو صاحب الذكر المخلد في الدنيا بما عرفه وعرّفه من نواميس العقل البشري ونواميس الطبيعة.

ولا تزال الفلسفة الى هذا اليوم تسير على الجادتين اللتين خطها لها أفلاطون وارسطو واحداهما الروحانية الخيالية والأخرى الوضعية التحقيقية.

ويلي هذين الحكيمين في درجة بعيدة عنهما كزينوفون الذي كان عذب الحديث رقيق الحكمة.

—١٧—

انقلاب اغريقيا والممالك اليونانية الى ولايات رومانية (٣٢٣— ١٤٦)

تقسيم مملكة الاسكندر وذكر موقعة أفسس (٣٠١)

بعد وفاة الاسكندر بثلاثة أشهر ولدت امرأته روكسانا ولداً ذكرا دعي اسكندر

اغوس . وكان للاسكندر غلام آخر غير شرعي وأخ ابله واختان تدعيان كليوباترا وتسالونيس وكانت والدته اوليمبياس لا تزال في قيد الحياة . وبعد مناقشة طالت نودي باسكندر اغوس واريداي بن فيليب ملكين معاً وعهد الى انتيباتر احد قواد الاسكندر ان يقوم بتدبير القسم الأوربي من المملكة والى كواتير ادارة الشؤون المتعلقة باريداي فكان بمثابة القيم عليها وجعل برديكاس في مقام وزير أعظم لجميع المملكة . وقد نشأت عن انقسام السلطة على هذه الصورة فتن قتل فيها جميع اعضاء الأسرة المالكة وأكثر قواد الاسكندر ثم تمزقت المملكة وانفكت عرى وحدتها بعد تنازع شديد وفتن هائلة كانت اخيرتها موقعة عظيمة جرت في أفسس احدى قرى فريجيا وهي آخر جهد بذله القائد انتيفون لاعادة وحدة تلك السلطنة السريعة الزوال (٣٠١) .

وكان انقسام المملكة على أثر هذه الموقعة الى اربعة أقسام بين أربعة من قواد الاسكندر اولها مصر امتلكها بطلميوس سوتير مع بلاد العرب وجزء من سوريا وثانيها مقدونيا وبلاد اليونان اخذها كسندر وثالثها بلاد التراس وبيسينيا وجانب من اسيا الصغرى استبد بها زيماخوس ورابعها بقية ما فتحه الاسكندر من البحر الاسود الى نهر السند تولاها سلوقس وسميت بالمملكة السورية .

وكان في خلال سنة ٣١١ مقتل اسكندر اغوس ووالدته روكسانا وخلا الجو للمغتصبين .

مملكتا سوريا (٣٠١ — ١٦٤) ومصر (٣٠١ — ٢٣٠)

واستقل سلوقس نيقاتور أحد المنتصرين في أفسس بجميع البلاد الواقعة بين السند والبحر الاسود وجعل عاصمتي ملكه سلوقة وانطاكية . ثم خلفه ابنه ولم يستطع رد غارة الغاليين عن فريجيا فنزلت على حكمهم واقاموا فيها وسميت من ذلك الوقت غلطة .

وفي عهد انطيوخوس الثاني الذي لقب بالاله استقل القوم الباكتريون في إحدى عمالاته الشرقية ولكن استقلالهم لم يدم الا قليلاً واستقل البارتيون بعمالة أخرى منها

وجددوا مملكة الفرس. ثم ملك انطيوخوس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٤ — ١٨٧) فقاتل الرومانيين فظهروا عليه في الترموبيل (١٩١) وفي مغنازيا (١٩٠) وأخذوا منه جميع البلاد الاسيوية فيما وراء طورس ثم جعلوا سوريا نفسها ولاية رومانية (٦٤) أما مصر فتولاها اللاجيديون الذين دعوا بالبطالسة وأصبحت في زمانهم مملكة شديدة الصولة ومركزاً تجارياً لجميع العالم ومأوى لأهل المعارف والآداب واقيمت لهم مكتبة عظيمة في الاسكندرية.

ولكن لم يلبث الملوك المنهمكون بلذاتهم المستبدون باحكامهم ان خلفوا الملوك العادلين المهرة في السياسة فأضعفوا المملكة الى أن اضاعوها.

وكانت دولة الارتقاء في عهد بطلميوس سوتير (٣٠١) فانه اضاف الى مصر السيرينايك وقبرص والقسم المعروف ببقاع سوريا وفينيقيا. وفي عهد فيلادلف (٢٨٥) فانه وسع نطاق البحرية وانتصر في حرب اقامها عليه اخوه ماجاس حاكم سيرينا وحرب اخرى شهرها عليه ملك سوريا وقد حاول أن يطأ أرض مصر فرده خائباً. وفي عهد افرجيت (٢٤٧) فانه فتح آسيا الى بكتريانا وافريقيا الى داخل الحبشة واخضع له قواده في تلك الاثناء الحجاز ليستولوا على طريق التجارة الى الهند.

اما دور الانحطاط فبدأ بفيلباتور (٢٢٢) ثم زاده ابيفان بانتمائه الى الرومانيين فلم ينفكوا من ذلك العهد عن التداخل في شؤون مصر الى اليوم الذي ضحى فيه انطونيوس الروماني وطنه وشرفه وحياته في غرام كليوباترا فجاء اوكتافيوس قيصر لفتح مصر مكانه فحاولت كليوباترا أن تخلب عقله بمحاسنها كما فعلت بانطونيوس من قبله فلم تنل منه مرامها وخافت من ذل الأسر فوضعت ثعباناً على ثديها فاماتها وانقلبت مصر بعد عزها الى ولاية رومانية (٣٠).

ومما يخلق بالذكر هنا أن مملكة برغما اليونانية باسيا الصغرى كانت أيضاً قد أصبحت ولاية رومانية بمقتضى وصية آخر ملوكها سنة ١٢٩. وملخص حديث هذه المملكة انها بعد ان استقلت زماناً فتحها الفرس ثم اسكندر المقدوني ثم

التراسيون ثم سلوقس الأول ملك سوريا . وبعد امد عادت فاستقلت وتولاها ملوك منها وكان آخرهم الذي اهداها برمتها الى رومة واسمه اتالوس الثالث.

مملكة مقدونيا (٣٠١— ١٤٦) وذكر موقعتي سينوسيفال وبيدنا

لما جلس ابناء انتيفون الذي ورد ذكره في موقعة أفسس على سرير مقدونيا ارادوا أن يضموا اليها اليونانية كلها كما فعل فيليب والاسكندر . وبينما كانت الحرب الثانية قائمة على ساق وقدم بين رومة وقرطاجنة استولى الرومانيون على ايليريا فحاربهم ملك مقدونيا في ذلك العهد وكان اسمه فيليب ليردهم الى البحر وعقد مع انيبال معاهدة (٢١٥) يعده فيها بالأخذ بناصره على اعدائه ويستعين به بعد طرد الرومانيين على ضم اغريقيا الى مقدونيا . غير أن الرومانيين دحروا جيش فيليب على ضفاف نهر الأوس فقفل راجعاً الى مملكته خائب الأمل ثم اجترأ على التحرش برومة بعد ان تخلصت من انيبال فارسلت اليه سحباً من جيوشها فالتقوا في سينوسيفال (١٩٧) بالمقاتلة المقدونيين وسحقوهم سحقاً على ما كان لهم من الشهرة بالبسالة.

وتولى بعد فيليب ابنه برسه فكسر الرومانيون جيوشه في بيدنا (١٦٨) وفي سنة ١٤٦ محيت مقدونيا من عداد الدول وأصبحت مملكة الاسكندر ولاية رومانية.

وفاة ديموستين (٣٢٢) وذكر العصابة الاخائية (٢٥١— ١٤٦)

بينما كان خلفاء الاسكندر يتقاسمون ممالك اسيا نهضت اثينا بارشاد ديموستين زعيم الحزب الوطني فيها لاسترجاع استقلالها فنشأت عن ذلك الحرب المعروفة باللامية في تساليا وتغلب فيها المقدونيون على الاثينيين فنفي ديموستين بسبب ذلك ولشدة اسفه شرب السم ومات (٣٢٢) وبعد وفاته بخمس سنين قتل فوسيون بأمر المقدونيين.

وفي أثناء الاضطرابات التي جرت في مقدونيا كانت المدائن اليونانية قد حاولت استرجاع حريتها فتخلصت من الربقة الاجنبية ولكنه بقي فيها من أهلها حكام مستبدون بغضاء فنهض اراتوس يبغي اسقاط اولئك الظالمين وجدد اتحاداً قديماً

يعرف بالاخائي كان معقوداً بين اثنتي عشرة مدينة ثم أنقذ سيسيون (٢٥١) وقرنثية وميغار وتريزين وارغوس ومانتينه وابيدور وميغالو بوليس وتحالف مع العصبة الايتولية ليقيم بذلك حاجزاً حصيناً دون مطامع المقدونيين ثم ساعد على انقاذ أثينا وارخومين ليتسع نطاق عمله الوطني الى اغريقيا الوسطى.

ولكن ابى ذلك عليه نكد طالع اليونانية لأن سبارطه كانت قد نشطت من عقالها على يد رجل يدعى كليومين اعاد تقسيم الاملاك على الشعب بالحصص المتساوية وجدد المآدب الجمهورية فكان السكان كأهل البيت الواحد يتناولون طعامهم بالاشتراك والف من الوطنيين والاجانب في المدينة شعباً سبارطياً جديداً على مثال ما كان في عهد ليكورغوس ثم أخذ يحارب به عصبة الاخائيين ليجعل له السيادة على شبه جزيرة المورة. فاضطر اراتوس أن يستمد النجدة من المقدونيين وانتصر على كليومين في سيلازي (٢٢١) وهذا الانتصار قتل سبارطه الجديدة غير أنه جعل الاخائيين تحت سيادة مقدونيا التي امتدت على جميع البلاد. فخاف الرومانيون من هذه السطوة الناشئة واستعدوا لتقليص ظلها. وحدث أن استبداد فيليب في احكامه ومقتل اراتوس جعلا للرومانيين انصاراً كثيرين من الايتوليين فاعانوهم على الفوز في يوم سينوسيفال المتقدم ذكره.

وبعد انتصار رومة في هذه الموقعة لم تختص بشيء بل حلت العصابات في تساليا واغريقيا الوسطى ومنحت الحرية والاستقلال لكل مدينة على انفرادها فظن اليونانيون انهم يتلقون بذلك منة منها وانما كانوا يسيرون الى الضعف وفقد الاستقلال وهم لا يعلمون وفي هذه الاثناء تقلد فيلوبومين الميغالوبولي رئاسة الاتحاد الاخائي مكان آراتوس وحاول ان يبعد حلول ذلك الخطب العظيم على البلاد اليونانية وكانت سبارطة قد وقعت في ايدي حكام مستبدين وأصبحت منبع دسائس ومفاسد فحاربها وتغلب على جيشها وقتل بيده حاكمها ماشانيداس واكره خلفه نابيس على رفع الحصار عن ميسين ودخل سبارطه عنوة واشركها في الاتحاد الاخائي وهكذا جعل المورة كلها كالمدينة الواحدة باستقلالها فتكدرت من ذلك رومه وحرشت اهل

ميسين فثاروا فذهب فيلوبومين لاخضاعها وفي اثناء الحملة سقط عن جواده فأسر وحكم عليه بشرب السم (١٨٣).

وبينما كانت رومة بعد ذلك تحارب برسه ملك مقدونيا علمت أن الاخائيين كانوا قد تمنوا سراً أن يفوز الملك عليها فلما انتصرت عليه في موقعة بيدنا عاقبتهم على ما تمنوه بابعادها الفاً من صفوتهم الى ايطاليا (١٦٨) فقضوا سبع عشرة سنة في الغربة ثم اطلق سراحهم فرجعوا الى اوطانهم وفي قلوبهم حقد شديد اثاروا به الاحقاد الكامنة على رومة.

وحدث ان مجلس الشيوخ الروماني قرر في ذلك الوقت أن تفصل قرنثية وسبارطه وارغوس عن الاتحاد فنهض الاخائيون لمحاربة رومة من أجل هذا القرار والتقوا بجيوشها في ليكوبيترا بقرب قرنثية فانتصرت عليهم في آخر معركة دافعوا بها عن حريتهم (١٤٦) واحرق موميوس القائد الروماني قرنثية وحول اغريقيا الى ولاية رومانية وآل امر ذلك الشعب الذي اتسع في الدنيا ذلك الاتساع العظيم الى الدخول في حيز الدولة الرومانية كأنه ذرة ضاعت في بحر محيط.

— ١٨ —

ملخص التاريخ اليوناني

ما افادته بلاد اليونان للحضارة والعمران

كان اليونان اوسع الناس املاً واجدهم عملاً وقد قال احد كبار شعرائهم منذ اربعة وعشرين قرنا ان كل الخيرات تستنزل من لدن الالهة بالسعي. وكذلك فعلوا فكانت لهم المكانة الأولى بين الأمم في زمان صولتهم والآثار الخالدة على صفحات الأيام فيما بعد سقوط دولتهم. ومن عظيم اعمالهم انهم شادوا المدائن العامرة الكثيرة على سواحل البحر المتوسط وحولوا بلادهم الضيقة المجدبة الى اوسع مملكة واغنى

بقعة وسودوها على الدنيا المعروفة في ذلك العهد بالسيف والتجارة وعلى الخصوص بوسائل المدنية والحضارة.

وكان لهم في العلوم القدح المعلى فانهم بما نهجوه في وضع قواعد البحث والتحري من المناهج القويمة الموصلة الى المزيد من معرفة الحقائق وتوسيع نطاق التعديل والتنقيح لما يثبت خروجه عن دائرة الصحة بالقياس العقلي أو بالاختبار التحقيقي قد وضعوا الحياة في علوم الرياضة والهندسة والمكانيكا أو علم حساب الحركة وتوازن القوى المحركة والآلات وعلم الهيئة ووصف النجوم اما المصريون والعبريون فلم يكن لهم فضل في هذه العلوم الا من حيث خلقوها ولكن كما يكون الجنين قبل ان تدب فيه الروح.

واليونانيون أول من وضع علمي النبات والطب ولا مشاحة في أن أهل الازمنة المتأخرة قد فاقوا اليونانيين كثيراً في العلوم بما ولجوه من الابواب التي فتحها لهم ابقراط وارخميدس وأرسطو طاليس وهيبرق الا أن اليونانيين ما زالوا الى هذه الأيام ذوي التقدم في الآداب الانشائية والصنائع الجميلة والفلسفة ولم يكن الرومانيون والأمم التي استحدثت بعدهم الا تلامذة لأولئك الأساتذة العظام الذين بلغوا بشدة مراقبتهم للأحوال التي قارنوا بينها وطبقوا بعضها على بعض فبنوا عليها قواعد تعاليمهم وبسلامة اقيستهم العقلية وصحة نظراتهم الفكرية اعظم مبلغ سمت اليه الباب طلاب الحقائق وذوي المعارف والذكاء.

فاما في الآداب الانشائية فقد رفع هوميروس القصة المنظومة شعراً الى اسمى مراقيها وانشأ بندار القصائد الحماسية التي يشق على النابغين تحديها وخلق اشيل وسوفوكل واروبيد المأساة وهي الرواية التمثيلية الفاجعة فبلغوها الكمال واودعوا فيها أجمل الحكم الدينية والوطنية والخلقية لتنشئة النفوس على الفضائل والصفات الشريفة ونبغ ارستوفان وميناندر في الرواية التمثيلية الهزلية وهيرودوتس وتوسيديد في كتابة التواريخ وديموستين واشين في الخطابة على منابر الشعب وايصقراط وليزياس في الخطابة على منابر المقاضاة.

واما في الصنائع الجميلة فلا يزال المشتغلون بها يقصون اثرهم ويحتذون على مثالهم وانما هم ينقلون عن مرسومهم ومنقوشهم مع تعديل يحدثونه في منقولاتهم ليحلوها بطلاوة الجديد ولكنهم لم يخرجوا قط عن القواعد الأساسية الثلاث التي وضعوها وجروا عليها هم ومن تحداهم الى هذه الأيام. وان انفس ما في متاحفنا لهي بقايا آثارهم من التماثيل التي شوهتها يد الدهر فما زادتها الا قيمة والرسوم الموجودة على آنيتهم وعلى معابدهم ومدافنهم مما يأخذ عنه رسامونا لتحلية ابنيتنا. على ان المتأخرين لم يخترعوا على الحقيقة الا فناً جديداً وهو الموسيقى ولم يتوسعوا ويبتدعوا في فن قديم سوى التصوير.

واما في الفلسفة فقد ادركوا الغاية القصوى وفتحوا للعقل ابواب كل المباحث وقصروا تحريهم على الحقيقة وكان الذي تشعره نفسه بالمقدرة على مجاراة الباحثين أو مباراتهم في ميدان طلب الحقائق لا يثبط سعيه حاجز ولا يحول دون مشيئته حائل وذلك لأنه لم يكن عند القوم طبقة كهنوت تحتبس العلم عن العامة ولا طبقة شرفاء تقصر مدى الفكر عند الفريق الآخر من الناس ولا تعاليم دينية مقوننة يمتنع الخروج عن مضامينها ومعانيها. لذلك مضت القرون الجمة وتوالت الاجيال ولم يزد المتأخرون شيئاً خايقاً بالذكر على ما اكتشفه المتقدمون.

ولقد وجد في الشرق قبل أن يعلو منار اليونانيين حكماء ذوو مدارك وتعاليم سامية ولكن الشعوب التي كانوا يسوسونها ويقودونها كانت كقطعان الأنعام في الطاعة لصوت الراعي بخلاف بلاد الاغريق فإن أول ما شعر الانسان بذاتيته فيها وأول ما امتلك قواه العقلية واستخدمها مخيراً وعرف قدر نفسه كان فيها أيضاً. وإنما بقي للاسترقاق شأن بين قومها لأن أرباب السياسة أرادوه والفلاسفة لم ينهوا عنه. وما كان بالسهل على أمة وجدت في تلك الأعصار أن تتجافى كل العادات السائدة فيها وتقلع عنها.

ذكر ما كان يفوت اليونانيين من الوحدة السياسية والوحدة الدينية

قد وصفنا ما كان لليونانيين من المزايا الباهرة ولكنهم كانت لهم في جنبها معايب

أكبرها عدم وجود الوحدة السياسية والوحدة الدينية عندهم. ومن العجيب انه كان عندهم نظر صادق ورأي صحيح في السياسة وعلى الخصوص أرسطوطاليس فإنه بحث في هذا المعنى بحثاً يخلب الألباب غير أنهم لم يحسنوا قط في الفعل إلا تدبير المدائن المستقلة ولم يجمعهم الاتحاد الأخوي المعزز لبعضهم بالبعض الآخر إلا في أوقات الحروب المادية الى انتهائها وفي أيام انعقاد المحالفة الأخائية. لذلك فقدوا استقلالهم يوم سطت عليهم المملكة المقدونية وقد خرجت من همجيتها وتسلحت لمحاربتهم بما أخذته عنهم من مخترعاتهم. ثم فقدوه أيضاً ولكن بلا مرد حين أغارت عليهم جنود رومة وحولتهم الى تبعة لها.

أما الدين اليوناني فقد كان مخالفاً للفضيلة بقدر ما كان موافقاً للصنائع الجميلة ونظم الشعر. وإنما كانت الآلهة فيه تمثيلاً للقوى الطبيعية في أشكال رجال وكان المنتحلون لدينها يصفونها بمثل ما يوصف به أفسد الناس فطرة من العشق الشديد والرذائل التي تنجم عنه والسرقة والبغضاء والانتقام والخديعة وسائر ما يزين للأمة الشر والباطل عوضاً عن الحق والخير.

وما استمر هذا الدين ينمو على علاته حتى نهض له العقل يناصبه فقتله فسقطت الآلهة عن عروشها في جبل الأولمب واعشوشبت جوانب الهياكل من امتناع الناس عن العبادة وكان يحسن ذلك لو استبدل الدين المتروك بتعليم آخر أحكم منه وأفيد ينير العقل ويطهر الذهن إلا أن ذلك لم يوجد إلا في منثورات من أقوال الشعراء والفلاسفة وكانت العامة لا تصغي اليها ولا تأخذ عنها بل لزمت جهلها وضلالها الى اليوم الذي نفذت فيه بينها عادات الترف الآسيوي على أثر فتوحات الاسكندر فاشتدت الحاجة الى الذهب وكان به فساد الرجال والنظامات حتى أن أولئك القوم الذين عظموا منتهى العظمة ببسالتهم وفضائلهم في موقعتي ماراتون والترموبيل الشهيرتين تحولوا الى جيش مأجور للسلجوقيين والبطالسة.

وقام منهم وزراء للفسق والترف في مدائن آسيا وفقدوا رجولية آبائهم وشمائلهم الباهرة وأصبحوا بلا وطن لأنهم كانوا شعباً بلا حرية وأضاعوا حرمة أنفسهم

وفسدت في أذهانهم صور الحق فتكاثف جهلهم ولم يخرج عمل يذكر من بين أيديهم وقال شاعرهم في ذلك الزمان إن الوطن هو المكان الذي يطيب فيه العيش للانسان ومن أجل ذلك كان لهم إله واحد وهو اللذة الشهوانية يعبدونه بما يحيط به من مواكب المذال والقبائح وكان جهدهم مقصوراً على حشد المال سواء كسبوه بالوسائل السافلة أو بسفك الدماء. على أنه خرج من بلاد اليونان رجال عظماء فترة بعد فترة من الزمن ولكنهم كانوا أشبه بالثمار الشهية التي تأتي بها أرض أجدبت بعد الخصب للدلالة على أصلها.

التاريخ الروماني

— ١٩ —

تشييد مدينة رومة

وصف ما كانت عليه إيطاليا قديماً

إن إيطاليا شبه جزيرة واقعة في جنوب أوربا بين بلاد اليونان واسبانيا. ويروى ان أول سكانها كانوا من البلاجيين ثم من الأتروسك ثم من اللاتين.

المرويات عن أول نشأة رومة وعن نظاماتها في عهد ملوكها الأولين (٧٥٤ — ٥١٠)

بنيت مدينة رومة على نهر الطبر في المكان الذي يمر فيه هذا النهر بين تسع تلال منها الجانيكول والفاتيكان على ضفته اليمنى والسبع الأخرى على ضفته اليسرى.

وقد جاء في الأحاديث الخرافية المروية عن أول نشأة رومة أنه تولاها سبعة ملوك أولهم روملوس وهو الذي أسسها على هضبة البلاتين (٧٥٤) ودعيت باسمه ويزعم انه ابن المريخ وان ذئبة أرضعته في طفولته. وثانيهم نومه. سن لقومه شرائع كثيرة وكان ديناً تتنزل عليه بالوحي الحورية ايجري. وثالثهم تليوس هوستيليوس هدم مدينة البا الملقبة بالطويلة على أثر تبارز الهوارسيين والكورياسيين في قصة مشهورة.

وهي انه لما طالت الحرب بين الرومانيين والألبيين وقع الاتفاق بينهم حقناً للدماء على أن ينتخب كل من الفريقين ثلاثة من أشجع أبطاله فيتبارزون فأي فريق انتصر أبطاله عدّ الغالب. فانتخب الألبيون اخوة ثلاثة يدعون بالكورياسيين وانتخب كذلك الرومانيون منهم اخوة ثلاثة يدعون بالهوارسيين ثم انجلى البراز عن فوز ثالث

الهوارسيين بعد أن قتل أخواه فتم على هذه الصورة فتح المدينة التي يقال إنها كانت مسقط رأس الأولين من سكان رومة.

ورابعهم انكوس مؤسس ثغر أوستيا وخامسهم تركين الملقب بالقديم ويظن قوم أن شعب رومة انتخبه للملك من بين تجاره المثرين ويظن آخرون أن قوم الأتروسك فتحوا رومة لذلك العهد وهم الذين أجلسوا تركين المذكور على سرير الملك وسادسهم سرفيوس تليوس صاحب الشرائع الحكيمة وسابعهم تركين الطاغي الذي طرده الرومانيون لفساد سيرته وشدة مظالمه وركوب ابنه سكستوس الفاحشة بامرأة تسمى لوكريس على الرغم منها.

على أن المؤرخين لا يعرفون شيئاً حقيقياً عن ذلك العصر المعروف بعصر الملوك وجل ما توصلوا اليه في مباحثهم أن مدينة تدعى رومة كوادراتا أسست على هضبة البلاتين وان سكانها كثيراً ما فتكوا بالبلاد المجاورة لهم كاللاتيوم وسابين وبلاد الأتروسك فأضعفوها وغنموا منها وانضم اليهم جمهور من سكانها حتى اضطر سرفيوس أن يوسع لهم دائرة المدينة الى القدر الذي بقيت عليه بعد ذلك في جميع مدة الجمهورية.

ومما يعرفه أهل التاريخ أيضاً عن رومة أنها في عهد آخر ملوكها أصبحت عاصمة اللاتيوم وكانت أقوى دولة في ايطاليا وانه كان فيها من تهذيب الأخلاق ومن النظامات الإدارية والسياسية ما يدل على أنها وجدت في زمان متقادم تحسنت في أثنائه وتكاملت حتى بلغت تلك الدرجة.

وكان في رومة قسمان من الناس أشبه بالشعبين المنفصلين أحدهما الأعيان والآخر العامة أو السوقة. وكان الأول يتألف من بيوتات لكل منها على انفراده آلهته المخصوصة به وأملاكه المشتركة ورئيسه ذو السلطتين الدينية والمدنية فهو الكاهن القائم بخدمة آلهة البيت وهو صاحب الأمر المطلق والقضاء الذي لا مردّ له على امرأته وبنيه والتصرف التام في ارقائه والإشارة المطاعة من عملائه. وكان أهل هذه الطبقة يعرفون بالشعب الحاكم وهو الذي ينتخب الأمير في مجتمعاته ويسنّ القوانين ويقرر

الصلح والحرب. أما السوقة فكانت خليطاً من المغلوبين المجلوبين الى المدينة والأجانب المستوطنين لها ولم يكن لهم شيء من حقوق الأعيان في اتخاذ الآلهة البيتية والزواج والتداخل في الشؤون السياسية. ويقال إن سرفيوس قسم المدينة الى أربعة أحياء والمملكة الى ستة وعشرين مركزاً أو قبيلة زراعية وجملة الشعب من أعيان وسوقة الى ٦ طبقات بحسب درجات الثروة تنقسم كلها الى ١٩٣ جمعية مؤلفة من مئة عضو تسمى سنتوريا وجعل لإحدى هذه الطبقات وحدها ٩٨ جمعية من هذا القبيل ولسائرها ٩٥ جمعية وذلك بحيث يستمر الحكم في أيدي الملاء الأعيان.

الجمهورية والقناصل ونواب العامة (٥١٠ - ٤٩٣)

أما الشرفاء وكانوا يدعون بالبطارقة فهم الذين خلعوا تركين الظالم واستبدلوا الملك بقنصلين ينتخبونهما منهم في كل عام وكانت ثورتهم هذه غريبة في بابها لأنها ثورة أهل شرف ومناصب وكان بروتس أحد القناصل الأولين وهو الذي حكم على ابنيه بالقتل لدخولهما في مؤامرة كان يراد بها إرجاع الملك على أن تركين المخلوع حاول أن ينتقم من القوم فأثار على رومة جميع الشعوب المجاورة لها فانتصرت جيوشهم على عساكرها وسلبوها جميع أملاكها حتى حصروها بين أسوارها إلا أنها عادت فتغلبت عليهم في موقعة هائلة بقرب بحيرة رجيل (٤٩٦) ونجت بذلك منهم. غير أنه كان في داخلها مرض عضال يفترس قواها وينخر عظمها وهو كثرة الديون التي تراكمت على الناس بسبب ما أنفقوه على الحروب المذكورة آنفاً وما غنمه منهم الأعداء.

وكان القانون الروماني لا يكاد يراعي إلا مصلحة الدائنين فاشتدوا على الفقراء في تقاضي أموالهم فغضب هؤلاء وأبوا من أجل ذلك الدخول في الجندية. فخاف مجلس الشيوخ عاقبة هذا الإباء وأنشأ لمقاومته سلطة عالية تفوق سلطة الملوك لا حدّ لها ولا استئناف تمنح لرجل ينتخبه مجلس الشيوخ وتستمر بين يديه ستة أشهر فقط وكان الرجل الذي تخول له هذه السلطة يدعى بالديكتاتور. فلما رأى الشعب عودة الاستبداد المطلق رضخ تهيباً وسلم بما أريد منه ولكن الدائنين ازدادوا عتواً وشدة

عليه الى حد أن الفقراء لم يسعهم إلا الفرار من وجههم والالتجاء الى الجبل المقدس وهو إحدى هضاب رومة ولم ينزلوا منه إلا عندما منحوا الحق بأن ينوب عنهم مندوبون منهم ينتخبونهم في كل سنة ولا ينفذ أمر للقناصل ومجلس الشيوخ إلا بموافقتهم عليه. فاستخدم نواب الشعب سلطتهم هذه باديء بدء للدفاع عنه ثم جعلوها سلاحاً يحاربون به الكبراء ليتوصلوا الى القبض على أزمة الجمهورية (٤٩٣) وأفلحوا في ذلك على ما ستراه في الفصول التالية.

حكومة العشرة والألواح الاثني عشر

ومضت اثنتان وأربعون سنة بعد هذه الحادثة لم تحدث في خلالها إلا حروب صغيرة مع الخارج وإنما كانت الاضطرابات مستمرة في الداخل فحمل ذلك النائب «تارنتيليوس أرسا» على اقتراح وضع قانون مكتوب يطلع عليه الجميع ويلزمون حدوده. وكثر ما عارض الأعيان في نفوذ هذا الاقتراح فعلت كلمة نائب العامة على كلمتهم وانتخب عشرة من أهل الكفاءة لكتابة القوانين الجديدة المطلوبة ومنحوا سلطة غير محدودة الى أن يخرجوا من العهدة التي ألقيت عليهم وقد حاول أحدهم أبيوس كلوديوس أن يستبد بأمره ورأيه غير أن الشعب أسقطه على أثر حادثة فظيعة جرت له وهي انه أراد ركوب الفاحشة بفتاة جميلة فقتلها أبوها لإنقاذها منه فاشتد حنق الشعب على الظالم انتقاماً للفتاة ووالدها وكان عقابه الإهانة والطرد من منصبه.

أما القانون الذي وضع فعرف بقانون الألواح الاثني عشر وأهم ما جاء فيه المساواة بين السوقة والأعيان لدى أحكامه وتخفيض متوسط الفائدة وجعل الحكم النهائي في تقرير القوانين وتسويغ المعاقبة بالاعدام لعامة الشعب وعليه فالعامة بما وضع للحكومة الرومانية من الشريعة الجديدة كانت قد ربحت ما يعرف في أيامنا بالحقوق المدنية غير أنها لم تنل شيئاً من الحقوق السياسية وما ضرها ذلك من حيث أن هذه الحقوق لا تفيد على الحقيقة إلا الذين يوليهم الشعب رئاسته وقيادة حركاته دون الشعب بذاته.

بلوغ السوقة المناصب على اختلافها (٤٤٨ — ٢٨٦)

رأينا أن ثورة سنة ٥١٠ لم تعد بفائدة الا على الأعيان وان عامة الشعب ما فتئت بعد ذلك تطالب بحقوقها الى أن ثارت في سنة ٤٤٨ ثورة عادت كل فوائدها عليها. وعلى أثر هذه الحادثة تولى الاحكام القنصلان هوراسيوس وفاليريوس فمنعا تخويل اية سلطة غير قابلة احكامها للاستئناف في المستقبل وفرضا عقوبة القتل على من يحاول مخالفة ذلك. وقررا أن جميع الامور التي تصدر عن مجتمعات الشعب تكون قوانين نافذة وجددا اللعنة الدينية على أي رجل يمس حرية نواب الشعب أو يلحق بهم أذى من أجل قيامهم بما توجبه عليهم مناصبهم.

وفي سنة ٤٤٥ طلب النائب كانولايوس الغاء امتناع الزواج بين العامة والنبلاء وطلب زملاؤه في وقت معاً قبول العامة في مناصب القنصلية. فاستشاط الاعيان غضباً من هذه الاقتراحات ولكن الشعب تسلح وصعد الى الجبل المقدس أو هضبة جانيكول فاجابه مجلس الشيوخ الى الاقتراح المتعلق بالزواج غير ان الاعيان استمروا خمساً واربعين سنة لا يزوجون السوقة منهم صيانة لامتيازاتهم عليهم واما القنصلية فلم يقبل تأهيل العامة لتوليها وانما قسمت ارضاء للشعب الى قسمين فكان احدهما ينتخب له الاعيان ويلقبون بالقناصل كالسابق الا أن كثيراً من اختصاصات هذا المنصب كانت قد انتزعت منه وجعلت لمنصب آخر انشىء حديثاً وكان يسوغ انتخاب الاكفاء من العامة لتوليه فيدعون بالمراقبين.

وكان انتخابهم أولاً لخمس سنين ثم لثمانية عشر شهراً ومنحوا ما كان للقناصل من حق اجراء تعداد السكان وادارة املاك الحكومة وماليتها وتعديل طبقات الناس واعداد جريدة اسماء الشيوخ واهل المرتبة الثانية من مراتب النبلاء والقيام بشؤون النظام والأمن والشرطة في المدينة. ولم تبق للقناصل الا وظائفهم العسكرية والقضاء المدني ورئاسة مجلس الشيوخ ومجتمعات الشعب لانتخاب القضاة والموظفين وحراسة المدينة وتنفيذ القوانين وعين بعد ذلك في مناصب القناصل ثلاثة وأربعة الى ستة من القواد وكانوا يلقبون بلقب النواب العسكريين وفي سنة ٤٠٠ توصلت العامة الى منصب النيابة العسكرية.

وكانت رومة في هذه الأثناء محاصرة لمدينة فايس عاصمة الاتروسك فتوصل رجل من الصناع يدعى كاميل الى استفتاحها (٣٩٥) ثم اشتغلت رومة بغارة الغاليين الذين دخلوها منتصرين ولما تخلصت منهم وهدأ روع سكانها عادت المنازعات الداخلية واقترح النائبان ليسينيوس ستولون وسكستيوس مشروع قانون يقضي بأن تقسم الاراضي الزراعية بين الناس ولا يسوغ لروماني أن يمتلك منها مساحة تزيد على ٥٠٠ اربان أو ١٥٠٠٠٠٠ متر وقد كان هذا الاقتراح علامة النزاع الأخير بين الفريقين من أهل رومة فابى الأعيان الموافقة عليه واستمرت العامة عشر سنين تعيد انتخاب نائبيها المتقدم ذكرهما طلباً لتنفيذه.

وبعد أن اعيت الحيل الاعيان وعينوا حاكمين مطلقين فلم يتوصلوا الى نقض ما ارادته العامة استحلفوها بحرمة الكهنوت للرجوع عن اصرارها فلم يؤثر فيها ذلك لأنه لم يكن أحد منها في الكهنوت فقرر الشيوخ تعيين خمسة من العامة في كهنوت الكتب المقدسة السيبيلية بجانب الخمسة المختارين من جمهور الاعيان لتلك المناصب. فلم يكتف الشعب بذلك الا مدة قليلة ثم عاد الى مطالباته فلم يلبث ان عين من افراده قنصل في سنة ٣٦٦ فسلخ البطارقة من القنصلية اختصاصاتها القضائية وخلقوا لذلك منصباً جديداً يدعى البريتوار فتوصلت اليه العامة في سنة ٣٣٧.

وكان قد عين منها حاكم مطلق في سنة ٣٥٥ ومراقب في سنة ٣٥٠ ثم عين منها برو قنصل أو وال في خارج رومة في سنة ٣٢٦ وكاهن نبوءات في سنة ٣٠٢. وفي سنة ٣٣٩ صدرت قوانين بوبليوس فيلو قاضية باعتبار قرارات الشعب نافذة عليه وعلى الاعيان بالسواء آذنة بتعيين قنصلين من العامة ثم صدرت قوانين الحاكم المطلق هورتانسيوس في سنة ٢٨٦ وقد عددت فيها كل الامتيازات التي حصل عليها الشعب ووضعت المساواة التامة بين الفريقين المتنازعين من سكان رومة فتأسست بذلك الوحدة الاهلية التي جعلت رومة تقوى على كل قوي وتذلل كل الصعاب.

— ٢٠ —

فتح ايطاليا (٣٦٥ — ٣٤٣)

دخول الغاليين الى رومة (٣٩٠) كاميل

كانت رومة باستيلائها على مدينة فايس قد أصبحت صاحبة النفوذ الأول في ايطاليا الوسطى غير انها لقيت في ذلك العهد صدمة من الغاليين كادت تذهب بها. وكان الغاليون مستوطنين على ضفاف نهر البو منذ قرنين وقد طلبوا من مدينة كلوزيوم ان تمنحهم اراضي احتاجوا اليها فابتها عليهم فحاصروها ثم اغضبهم ما لقوه من مخاشنة بعض النواب الرومانيين فزحفوا على رومه فدحروا جيشها على ضفاف نهر الاليا ووصلوا الى سفح الكابيتول وكان قد لجأ اليه الشيوخ وكثيرون من الشبان الرومانيين فاستمروا فيه تحت الحصار سبعة أشهر. ثم حدث ان اغارت طائفة بربر تعرف بالفينيت على بلاد الغاليين فقنعوا بالجزية من رومة ورجعوا عنها. واذ ذاك عين كاميل حاكماً مطلقاً فقاتل الغاليين وانتصر على بعض شراذم متفرقة من جيشهم واعتبر ذلك الرومانيون لكبريائهم نصراً مبيناً (٣٩٠).

وبقيت رومة بعد هذه الصدمة نصف قرن تضمد جراحها. وفي خلال هذه المدة انتصر قوادها كاميل ومانليوس توركاتوس وفاليريوس كورفوس على الذين شقوا عصا الطاعة عليها من أهل اللاتيوم ودحروا الغاليين الذين جاؤا للأخذ بناصر اولئك العصاة وفتح بعض مدائن الاتروسك واخضعوا بلاد الاتروسك الغربية وسادوا على جميع اللاتيوم حتى اوصلوا املاك رومة الى جوار سمنيوم وعند ذلك شبت حرب شهيرة دامت سبعين سنة (من ٣٤٣ الى ٢٦٥) وكانت نتيجتها وقوع شبه الجزيرة اللاتينية كلها تحت ربقة رومة. ودعيت هذه الحرب بحرب سمنيوم أو حرب الاستقلال اللاتيني التي اشتركت فيها كل شعوب ايطاليا وغلطت فيها كلها غلطة واحدة من حيث كان كلٌ منها يقاتل الرومانيين على حدته.

حرب سمنيوم

تنقسم حرب سمنيوم الى ستة أقسام اذا عدت بينها حملة بيروس

الأول من ٣٤٣ الى ٣٤١. وفيه استجارت مدينة كابو عاصمة كامبانيا برومة لرد غارة للسمنيين عنها ودخلت في ولايتها فاجارتها رومة وكسرت اعداءها غير انها لم تستمر على مقاتلتهم لما رأته من نهوض اللاتينيين كافة لمعاداتها ومناصبتها.

القسم الثاني من ٣٤٠ الى ٣٣٨. وفيه ثار اللاتينيون على رومة لأنهم طلبوا أن يشتركوا في القيادة مع القناصل وان يعاملوا معاملة الرومانيين فأبى ذلك عليهم مجلس الشيوخ فشبت الحرب وفاز فيها الرومانيون فوزاً اخضع لهم المدائن اللاتينية.

القسم الثالث من ٣٢٦ الى ٣١١. وفيه نهض السمنيون بعد مسالمة دامت عشر سنين لطرد الرومانيين من عمالة كامبانيا (٣٢٧) واستعانوا عليهم بمدينة باليبوليس اليونانية فتغلب عليهم بابيريوس كرزور وفابيوس ماكسيموس غير انهم عادوا فانتصروا عليهما بقرب محلة تدعى الفرش كودين واحاطوا بجيشهما احاطة اضطرتهما الى القبول بالاسترقاق مع جنودهما والتوقيع على معاهدة صلح. فأبى مجلس الشيوخ التصديق على هذه المعاهدة ورد القنصلين اللذين وقعا عليها الى السمنيين فلم يقبلوهما فاستأنفا كرة القتال ودخل احدهما ببليوس فيليو الى نفس بلاد السمنيوم منتصراً غانماً وسار بابيريوس على ابوليا مما وراء جبال السمنيوم من الجهة الاخرى وظنت رومة انها حصرت اعداءها الاشداء في جبال الابنين فاقامت حوله سلسلة من المعاقل التي كانت تعرف بالمستعمرات العسكرية.

الرابع من ٣١١ الى ٣٠٥. وفيه حاول الشعوب القاطنون شمالي ايطاليا أن ينجدوا سكان الوسط منها فانقض نحو ستين الفاً من الاتروسك بايعاز جماعة من المندوبين السمنيين على مستعمرة سوتريوم الرومانية ولكن فابيوس ظهر عليهم بقرب بيروزا ودخل السمنيوم واطئاً منها كل موطىء ناهباً سالباً مستبيحاً الأموال والارواح حتى ان شعوبها اخذت تستعطفه وتلتمس منه نهاية هذه الحرب التي طال امدها

عليهم جميعاً فاجابهم الى ذلك بعد ان اعترفوا بعظمة روما وسيادتها عليهم وحفظوا من استقلالهم علاماته الظاهرية (٣٠٥).

الخامس من ٣٠٠ الى ٢٨٠. وفيه تحالفت الشعوب اللاتينية تحالفها الثاني والثالث بايعاز واغراء من السمنيين وكان المتحالفون السينونيين ولاتروسك والاومبريان والغاليين. وعند افتتاح القتال ظفر السينونيون وهم طائفة من الغاليين بجيش روماني قريباً من كمرينوم فاعملوا السيف فيه وذبحوه عن آخره ففتح لهم ممر الابنين ولو استطاعوا ضم جنودهم الى الاومبريان والاتروسك لقضي الأمر على العساكر الرومانية غير ان فابيوس تظاهر بالهجوم على بلاد الاتروسك فلما رجعوا للدفاع عنها هرع الى ملاقاة الغاليين في سهول سنتيوم فدحرهم دحراً (٢٩٥) بعد أن فقد سبعة آلاف جندي من الجناح الايسر الذي كان يقوده داسيوس. ورأى الغاليون ان العدو احدق بهم من كل جانب فتقهقروا عائدين الى بلادهم.

أما السمنيون فلما وجدوا أن جيشهم انكسر في اكيلونيا (٢٩٣) وان قائدهم بنتيوس هيرينيوس غلب أيضاً اقروا بفشلهم ووقعوا على معاهدة صلح (٢٩٠) جعلتهم من حلفاء رومة فوضعت في فينوزا مستعمرة عسكرية قوية لتحفظهم تحت سلطتها. وهكذا أصبحت كل ايطاليا الوسطى على الرغم منها خاضعة لرومة أو حليفة لها أما ايطاليا الشمالية فاستمرت على العداء وكان فيها الاتروسك يتجهزون للقتال والغاليون يقتدون بهم وقد تناسوا ما حل بهم في سنتينوم وكانت في الجنوب زمر من السمنيين لا تزال ترود في جبال كالابرا وتنتظر فرصة الانقضاض على فاتحي بلادها وكان اللوقانيون في قلق واستعداد واليونانيون في خوف من اتساع املاك رومة ومجاورتها لأوطانهم وأهل تارنته يبدون نواجذهم حنقاً وغيرة. الا أن اتحاد كل تلك الشعوب كان من المستحيل لحسن طالع رومة فما خشيت بأسهم متفرقين. ولكنه حدث في الشمال ان الاتروسك ادركوا جيشاً رومانياً فنكلوا به فاشتد الخطر على رومة من جراء ذلك فبعث مجلس شيوخها من فوره جيشاً جراراً فقتل من شعب السينونيين مقتلة هائلة حتى أتى عليهم عن آخرهم فقامت طائفة أخرى من الغاليين تعرف بالبوائية وانضمت الى جيش من الاتروسك لتنتقم لاخوتها الذين قتلوا

فسحقهم الرومانيون جميعاً بقرب بحيرة فاديمون (٢٨٣) واقر أهل شمال ايطاليا بسيادة رومة عليهم اقرار شعوب الوسط من قبلهم.

السادس من ٢٨٠ الى ٢٧٢ ويعرف بحرب بيروس. وكانت مدينة تارنتا قد بقيت وحدها حاملة السلاح لمقاتلة الرومانيين فاستعانت ببيروس ملك ابيرا فجاءها وأقفل حماماتها وملاعبها وملاهيها وجعل كل قادر من أهلها جندياً. وهال الرومانيين في أول مواقعهم معه وجود الفيلة في جيشه فاضطرب نظامهم وقتل منهم خمسة عشر الفاً ولكنهم قتلوا من جنوده ثلاثة عشر الفاً فقال الملك لو انتصرت مرة أخرى مثل هذا الانتصار لرجعت الى ابيرا بلا جندي واحد. ولذلك ارسل وزيره سينياس الى رومة لعقد صلح فاجابه ابيوس في مجلس الشيوخ ليخرج بيروس أولاً من ايطاليا ثم ننظر فيما يطلبه. وأمر سينياس بالخروج من رومة في اليوم نفسه فخرج وقال عند رجوعه «انه خيل لي ان مجلس الشيوخ هذا ليس الا مجلس ملوك» فنوى بيروس ان يباغت رومة مباغتة ولكن كل ساكن فيها كان عسكرياً فلم يستطع الا مشاهدة اسوارها من بعيد لأن جيشاً رومانياً لقيه بقيادة رجل يدعى داسيوس فقاتله في معركة ثانية ودحره واراه ان كل عنائه في سبيل فتح رومة ذاهب عبثاً.

وكان القرطاجنيون قد حاصروا سيرقوصه في صقليا فاستنجد اهلها ببيروس فذهب وفك حصار المدينة وطارد الافريقيين من مركز الى آخر حتى أوصلهم الى ليليبيه ثم تعب من هذه المعارك كما تعب من التي سبقتها فرجع الى ايطاليا فظفر به الرومانيون بقرب مدينة بينيفانت الحصينة وطردوه فحاول فتح مقدونيا ولقب ملكاً عليها ثم ادركته منيته على اسوأ حال في حصار ارغوس وفتحت تارنتا ابوابها للرومانيين (٢٧٢) لأنها فقدت النصير الوحيد لها بفقده وعلى هذه الصورة تم خضوع جنوب ايطاليا لرومة كما خضع لها قبل ذلك شمالها ووسطها.

وكان لا بد لرومة لاستتمام فتح ايطاليا من كبح جماح الغاليين في سيزالبينا[1]

---

(١) كان الرومانيون يسمون القسم الشرقي من إيطاليا بهذا الاسم وكان موقعه بالنسبة اليهم فيما يلي جبال الألب الى جهتهم.

فقاتلتهم مرتين احداهما قبل الحرب القرطاجنية وثانيتهما بعدها وفي سنة ٢٢٦ علم مجلس الشيوخ انهم استنجدوا باخوانهم الغاليين القاطنين فيما وراء جبال الألب في البقعة التي كان يسميها الرومانيون ترنسالبين فاعدلهم ٧٧٠٠٠٠ مقاتل منهم ٥٠٠٠٠٠ ايطالي وتغلب عليهم مرسلوس في موقعة تلمون سنة ٢٢٥ وقتل بيده ملكهم جيزات ثم ارسلت مستعمرات رومانية الى شواطىء نهر البو وأخذت تستعبد السيزالبيين فاستغاثوا بانيبال القائد القرطاجني الشهير ببسالته ومواقعه التي جرت له مع القائد الروماني سيبيون الملقب بالافريقي على ما سيجي ذكر ذلك فلبى دعوتهم وجاء يحارب جيوش رومة ذبا عن بلادهم فاستظهر عليها مراراً فاطمأنت لذلك قلوب السيزالبيين وسكن روعهم وفاتهم أن ينهضوا مع منقذهم نهضة واحدة لا يستثنى فيها أحد من رجالهم ليعينوه على سحق جنود رومة ودكها فكان ما لقوه من عاقبة هذا التقاعد ان مجلس الشيوخ عاد بعد انتصار سيبيون على انيبال في موقعة زاما فأمر بالتنكيل بهم الى أن هجروا أوطانهم قاصدين شواطىء الدانوب وتركوا بين أيدي الرومانيين تلك البلاد الخصيبة وحاجز الألب الحصين الذي كانوا يحتلونه .

— ٢١ —

حروب قرطاجنة (٢٦٤ — ١٤٦)

الحرب القرطاجنية الأولى (٢٦٤ — ٢٤١) وذكر فتح صقليا

كانت قرطاجنة وهي المستعمرة الصورية الشهيرة قد بسطت ظل سيادتها على الامصار من نوميديا الى تخوم سيرينا وأنشأت في داخلية القارة الافريقية متجراً عظيماً على يد القوافل واستولت على الملاحة في البحر المتوسط الغربي . وكانت تفرح لفوز رومة وتعقد المعاهدات معها لسرورها بان رومة تحارب عنها اعداءها الاتروسك واليونانيين والايطاليين الذين كانوا مناظريها في البحر والتجارة ولكنها لما رأت أن رومة ابتلعت جميع ايطاليا وأدركت الابحر الثلاثة الاكتيراني والادرياتيكي

والايوني أوجست خيفة منها وتربصت بها الشر حتى إذا حدثت حادثة صقليا وقعت بسببها الحرب بين الجمهوريتين العظيمتين.

ومعلوم أن صقليا جزيرة خصيبة تتصل بايطاليا من جهة ويمتد النظر منها الى افريقيا من الجهة الاخرى ولذلك كانت لا تستطيع احدى الجمهوريتين الاغضاء عنها. وكانت قرطاجنة محتلتها من زمان قديم غير انها عندما مالأت هيارون ملك سيرقوصه على محاصرة مدينة مسينا التي كان سريرها لآل مامرتينس استنصر هؤلاء برومة فبادرت لانجادهم وانقذت لهم المدينة من اعدائهم (٢٦٤) ودحرت جيش هيارون وأكرهت هذا الملك على عقد الصلح معها فبقي مسالماً لها مدة خمسين سنة ثم أخرجت القرطاجيين من داخل الجزيرة غير أنهم حفظوا المواني لتسلم لهم ارجحيتهم في البحر فانشأت رومة اسطولاً مسلحاً بآلات حديدية ضخمة كانت تتصيد بها مراكب الاعداء وتهدمها وارسلته لمحاربة العمارة القرطاجنية فكسرها في الموقعة الأولى ثم التقاها في موقعة ثانية باكنوم وكان قائده ريغولوس فظهر عليها أيضاً وهذا الانتصار الاخير حدا بريغولوس على النزول الى بر افريقيا (٢٥٦) فوصل الى اسوار قرطاجنة في اشهر قليلة. فأخذ كسنتيب السبارطي قائد جيش قرطاجنة يناوش الرومانيين مناوشات صغيرة الى أن أضعفهم فاوقع بهم في معركة كبيرة وسحقهم سحقاً وأسر ريغولوس فاعيد مدار الحرب الى صقليا ودامت فيها بضع سنين مساجلة عواناً الى أن أنتصر متلوس في بانورما (٢٥١) فانعش امال الرومانيين فارسلت قرطاجنة ريغولوس لطلب المصالحة فحرض مجلس الشيوخ على رفضه ويقال انه عندما رجع اميت في أفظع العذاب. وفي هذه الأثناء وصل الى صقليا هاملكار والد انيبال فاتخذ له حصناً حصيناً في اريكس وتغلب على الرومانيين مدة ست سنين. وكان يحتمل أن تستمر الحرب على هذه الصورة الى ما لا نهاية له لولا ان فطن مجلس الشيوخ لانشاء عمارة جديدة فجعلت الرومانيين سادة البحر فخاف همليكار الحصار والمجاعة وطلبت قرطاجنة انهاء هذه الحرب المدمرة راضية بالتخلي عن صقليا وبالافراج عن الاسرى بلا فدية وبتأدية ٣ آلاف ومئتي وزنة ذهب (٢٦٤ — ٤٢١).

حرب العساكر المأجورة لقرطاجنة (٢٤١— ٢٣٨)

كانت قرطاجنة تحارب بعساكر مأجورين فثاروا عليها واستمروا كذلك ثلاث سنين (٢٤١— ٢٣٨) الى أن أنقذ هاملكار وطنه منهم. ثم وقعت شبهة عليه فنفي جزاء احسانه وكان ابعاده الى اسبانيا ففتحها في عدة سنوات الى نهر الابر هو وصهره اسدروبال فتخوفت رومة منها وعقدت معها في سنة ٢٢٧ معاهدة صلح مشروطاً فيها استقلال ساغنتا وهي مدينة يونانية لاتينية واقعة غربي نهر الابر.

الحرب القرطاجنية الثانية. وذكر انيبال وسيبيون (٢١٨— ٢٠١)

على أن انيبال بن هاملكار لم يلبث أن فتك بالمدينة المتقدم ذكرها دون أن ينتظر ورود الاذن له بذلك من قرطاجنة وتقدم في جيشه الجرار فاجتاز جبال البيريناي ونهر الرون وجبال الألب وكان هذا المسير الشاق من اعجب ما سمع به غير أن انيبال فقد في خلاله نحو النصف من عدد جنوده ريثما وصل الى ما بين حلفائه السيزالبيين (٢١٨) وعند ذلك التقت خيالته بخيالة القنصل سيبيون بقرب نهر التيسين فظهرت عليهم ثم وقعت بين جيشه وبين الرومانيين موقعة اعظم من الأولى على ضفاف نهر الترابي فتم بها الفوز لأنيبال واخرج اعداءه من سيزالبينا. وفي السنة التالية تغلب عليهم أيضاً في موقعة عظيمة بقرب بحيرة ترازيمان في بلاد الاتروسك وتقدم الى وسط ايطاليا وغربيها فاقام اشهراً لا يتعرض فيها الرومانيون لمقاتلته ولكنه في سنة ٢١٦ انتصر عليهم انتصاراً مبيناً في كان وقتل منهم ٥٠ الف رجل فتحركت مدينة كابو وقسم كبير من ايطاليا الغربية للثورة والخروج عن طاعة الرومانيين غير ان رومة اظهرت ثباتاً عجيباً في هذه الازمة فامتنعت عن المهاجمة واخذت تقيم المعاقل والحصون لحصر انيبال فما بينها فخرج من كمبانيا قبل ان تقفل عليه هذه الحلقة المخيفة وبما أن قرطاجنة أبت إرسال النجدات إليه استعان بسردينيا وصقليا وفيليب المقدوني الذي ذكرنا حديثه مع انيبال واستدعى من اسبانيا أخاه اسدروبال في جيش جديد من الاسبانيين والغاليين واوصاه أن يأتيه من الطريق الشاقة التي كان هو أول من اختطها. الا أن الرومانيين سكنوا سردينيا واخمد قائدهم مرسلوس ثورة

سيرقوصة ولم تنقذها منه الآلات التي اخترعها ارخميدس ودحروا جيش فيليب المقدوني على ضفاف نهر الآوس واضطروه الى الرجوع لما أثاروه عليه من الشعوب اليونانية قبل أن يتمكن من ايصال جيشه الى انيبال.

وفي هذه الأثناء كانت رومه قد سلحت عشرين فرقة وحصرت انيبال في ابوليا ولوكانيا وشددت في مضايقة كابو لتجعلها عبرة للبلاد التي تغدر بها فحاول انيبال انقاذ هذه المدينة بدنوه من رومة ولكنه عاد عنها فشلاً ووقعت كابو في أيدي الرومانيين فباعوا جميع سكانها بعد أن استباحوهم ونكلوا بهم. وبذلك لم يبق لأنيبال الا الأمل الوحيد بوصول نجدة أخيه اليه غير أن قنصلين رومانيين كانا قد حالا دون تقدم أخيه على ضفاف الميتور وقتلاه ومزقا جيشه (٢٠٧). ومع ذلك فقد بقي انيبال مقاوماً لأعدائه مدة خمس سنين في أقصى بروتز م الى أن حاصر سيبيون قرطاجنة فاضطره بذلك الى الخروج من ايطاليا. وكانت رومة قد انفذت منذ سنة ٢١٨ قائدين من ابطالها يدعيان كنايوس سيبيون وكرنيليوس سيبيون يحاربان في اسبانيا فلم تلبث كثرة العدد أن قويت عليهما بعد انتصاراتهما فقتلا مع خلق كثير من جيشهما فتولى شاب يدعى مارسيوس قيادة بقية الجيش ولم شعثه وحماه من المجزرة فانتعش بعمله أمل الجمهورية الرومانية وعزمت على مداومة الحرب في تلك البلاد وولت سيبيون الشهير قيادة جيشها الاسباني عامة وكان سيبيون المذكور في ذلك العهد لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره وهو بن كرنيليوس سيبيون القائد الذي ذكرنا آنفاً ما جرى له من الوقائع في اسبانيا.

فلما استلم زمام القيادة افتتح اعماله بمباغتة قرية قرطاجنة التي كانت مدخر عدد القرطاجنيين في اسبانيا فاستولى عليها (٢١٠) ثم انتصر على اسد روبال بمساعدة الاسبانيين وكان قد حببهم بنفسه لحسن معاملته لهم ثم اقصى سائر قواد العدو الى قادس وانتقل الى افريقيا فاقنع سيفاكس ملك النوميديين بعقد محالفة وداد مع رومة (٢٠٥) فجوزي على اعماله هذه بتقليده القنصلية وعند ذلك عزم على الفتك بقرطاجنة نفسها فعارضه فابيوس ولكنه اصر على مراده وكان معولاً في انقاذه على اتفاق كان قد عقده مع ملكين نوميديين في افريقيا فلما عاد اليها وجد احدهما وهو

سيفاكس قد خان عهده وانقلب الى معاداته والآخر واسمه ماسينيسا قد نزعت منه سلطته وخلع عن سريره فهو لا يجديه فتيلاً فلم يثبط هذا الحادث سعيه واستمر على عزمه فدحر الجيوش التي اعترضت مسيره وتقدم لمحاصرة قرطاجنة فعندها استدعت انيبال على ما سبقت الاشارة اليه فقابل سيبيون في موقعة شهيرة بموقعة زاما ففقد عشرين ألفاً من عساكره ودخل قرطاجنة مغلوبا (٢٠٢).

اما سيبيون فلم يطلب تسليم انيبال ولكنه اقترح الشروط الآتية وهي أن تحفظ قرطاجنة قوانينها وشرائعها واملاكها في افريقيا وان تسلم له الاسرى والخائنين وجميع سفنها عداً عشراً منها تستبقيها ثم جميع فيلتها دون أن يجوز لها أن تضري غيرها في المستقبل. وأن تمتنع عن كل حرب في افريقيا بلا اذن من رومة وان لا تجند أجانب مأجورين وأن تدفع لرومة جزية قدرها عشرة آلاف وزنة ذهباً في خمسين سنة وأن تعطي ماسينيسا عوض ما سلبته من ملكه وتقبله حليفاً لها. فرضي القرطاجنيون صاغرين بكل ما اقترحه سبيون ودفعوا اليه اربعة آلاف اسير وجمهوراً من الخونة اماتهم عن آخرهم وخمس مئة مركب احرقها في البحر. وأصبحت قرطاجنة ضعيفة عزلاء بلا سلاح ولا جيش ووضع لها سيبيون بجوارها عدواً لا يخشى ان يعاهدها على الصلح وهو ماسينيسا فانه اقامه ملكاً على نوميديا (٢٠١) ثم عاد هذا الفاتح العظيم الى رومة فقوبل باحتفال وتكريم يفوقان الوصف ومنح منصب القنصلية ثانية والحكم المطلق مدة حياته ولقب بالافريقي مبالغة في التعظيم.

الحرب القرطاجنية الثالثة وخراب قرطاجنة (١٤٦)

على أن حياة قرطاجنة أصبحت بعد موقعة زاما التي ذكرناها آنفاً أشبه بنزع طويل لم تكن لتقوم لها معه قائمة. وفي سنة ١٩٣ فتح ماسينيسا أرضاً خصيبة من أملاك قرطاجنة تدعى بقعة أمبوريا وبعد ذلك بإحدى عشرة سنة انتزع منها أملاكاً أخرى واسعة وفي سنة ١٧٤ استولى على جميع مقاطعة تيسكا وسبعين مدينة. فشكا القرطاجنيون الى رومة أمر اعتدائه على أملاكهم فوعدتهم بالانصاف منه وعداً لم تنجزه ولكنها للتظاهر برغبتها في كشف تلك الظلامة أرسلت الفيلسوف الشهير

كاتون بدعوى البحث والتحقيق فوجد قرطاجنة كثيرة السكان واسعة الثروة نامية نمواً عجيباً فعاد الى رومة موغر الصدر عليها وكان يختم كل خطاب يلقيه في النوادي بهذه العبارة «إني أعتقد وجوب هدم قرطاجنة».

وحدث أن قرطاجنة صدت غارة من غارات ماسينيسا على أملاكها فانتحل مجلس الشيوخ هذا الدفاع العادل عذراً له في استئناف الحرب وأرسل الى قرطاجنة قنصلي رومة مع ثمانين ألف مقاتل (١٤٩) بدعوى أنها خرقت المعاهدة وتجاوزت حدها فلما وصل القنصلان طلبا من قرطاجنة أن تسلم لهما جميع أدوات الحرب والأسلحة فأجابتهما الى ذلك فأمرا أهل المدينة أن يخرجوا منها ويسكنوا على مسافة ١٠ أميال فغاظهم هذا الخداع وجمع أسدروبال سبعين ألف مقاتل في معسكره بنفاريس وأقفلت المدينة أبوابها وتحصنت في داخلها وأخذ سكانها من شيوخ وشبان ونساء وأطفال يصنعون الأسلحة ليل نهار. أما القنصلان الرومانيان فكانا متغافلين عما يجري في الداخل متباطئين في الاستعداد للمهاجمة.

وفي هذه الأثناء كان سيبيون أميليان الذي لقب بالأفريقي الثاني قد طلب من الشعب إقامته عضواً في مجلس مدينة رومة فعينه الشعب قنصلاً فذهب الى أفريقيا وتولى القيادة وردّ النظام الى الجيش وقطع البوغاز المتصل بقرطاجنة الذي يحتمل خروج المحاصرين منه وأقفل الميناء بسور متين جداً ليجيع السكان وكانوا يبلغون ٧٠٠ ألف نفس.

أما القرطاجنيون فثقبوا في الصخور مخرجاً لمراكبهم التي ابتنوها بأخشاب سقوف بيوتهم وكادت تلك المراكب تباغت العمارة الرومانية لولا أن سيبيون تنبه لها فأرسل عليها أسطوله فحطمها. ولما اشتدت المجاعة وأضعفت حالة الدفاع استفتح جانباً من الأسوار ودخل منه الى المدينة غير أن أهلها استمروا محاصرين في منازلهم التي كانت متقاربة حتى لم يستطع جيشه أن يجتاز ما بينها ليصل الى حصن برسا إلا في سنة مع أن موقع ذلك الحصن كان في وسط المدينة ولما وصلت اليه الجنود الرومانية وعدوا بإخلاء سبيل الذين يسلمون من المحاصرين فيه فسلم خمسون ألف رجل وفي

مقدمتهم أسدروبال فحنقت امرأته عليه لجبنه فذبحت ولديها وألقت بنفسها على أثرهما في النار. وتم بذلك وقوع قرطاجنة في أيدي الرومانيين فاستباحوها سلباً ونهباً وإحراقاً ثم أتى رسل من قبل جمهورية رومة وأعلنوا تحول أرض قرطاجنة وتوابعها الى ولاية رومانية (١٤٦).

— ٢٢ —

فتوحات الرومانيين خارج ايطاليا (٢٢٩—١٢٩)

فتح قسم من ايليريا (٢٢٩) وفتح ايستريا (١٢١)

كان البحر الأدرياتيكي في أثناء الفترة بين الحرب القرطاجنية الأولى والثانية تحت سلطة القرصان الايليريين. وحدث أن ملكتهم ذبحت اثنين من مندوبي رومة لأنهما خاطباها بجرأة فأرسل مجلس الشيوخ القنصلين وعشرين ألف مقاتل لمحاربتها (٢٢٩) فدحرا جيشها واضطراها الى تأدية الجزية صاغرة والتنازل عن قسم كبير من ايليريا. وفي سنة ٢٢١ احتل الرومانيون ايستريا فامتلكوا باحتلالها باباً من أبواب ايطاليا ومدوا سلطتهم الى شمال مقدونيا التي كانوا يتهددونها من جهة ايليريا أيضاً.

فتح آسيا الصغرى ومقدونيا واغريقيا (١٩٠—١٤٦)

تقدم لنا ذكر محاربة الرومانيين لأنطيوخوس وفيليب وبرسة والاخائيين ونذكر الآن القواد الذين أداروا رحى تلك الحروب. فمنهم سيبيون الآسيوي المنتصر على انطيوخوس في مغنيسيا سنة ١٩٠ وهو شقيق سيبيون الأفريقي وكان هذا مرافقاً له في تلك الحرب بوظيفة ملازم. ولما رجعا الى رومة اتهما بأنهما ارتشيا فصالحا ملك سوريا فأبى الصغير أن يجيب على هذه التهمة أنفة منه وبرح رومة أما الكبير فأثبت فقره براءته عندما كلف بتأدية الغرامة التي فرضت عليه.

ومنهم كينثوس فلامينوس المنتصر على فيليب في سينوسيفال (١٩٧) ومبتكر الخطة التي جرت عليها رومة في سياستها لاغريقيا. وقد أقام في تلك البلاد زماناً طويلاً بعد تركه للقيادة وأنشأ في مدائنها أحزاباً للرومانيين وطرد منها أعداء مجلس الشيوخ وهو الذي حال دون نفوذ مقاصد فيلوبيمن رئيس العصابة الاخائية وسبب ثورة مسانا التي قتل فيها ذلك الوطني العظيم وهو أيضاً الذي ذهب الى بوزياس ملك بيثنيا وسأله دفع رأس أنيبال اليه فشرب أنيبال السم تفادياً من الوقوع في أيدي الرومانيين (١٨٣).

ومنهم بول اميل المنتصر على برسه في بيدنا سنة ١٦٨ والذي اشتهر في حرب لوزيتانيا وليغوريا وعاد الى وطنه بمسلوبات مقدونيا فكانت حينما زفّ في رومة إكراماً لانتصاراته أفخر الغنائم التي أتى بها قائد روماني قبله. وكان عند عودته قد مات له ولدان شابان فقال «إن سرور رومة يعزيني على مصائبي الهائلة» ومنهم بوميوس هادم قرنثية ومزيل العصابة الاخائية (١٤٦) وهو شهير بشدته ولم يدخر لنفسه شيئاً عن غنائم قرنثية واشترط على الذين تعهدوا بنقل التماثيل والرسوم القرنثية الى رومة انهم إذا أتلفوها أو فقدوها في الطريق أجبروا على عمل مثلها.

فتح اسبانيا وذكر فيرياتوس والكلام على حروب نومنطة (١٩٧ — ١٣٣)

رأينا الاسبانيين يأخذون بناصر الرومانيين في محاربة قرطاجنة لشدة ما كانوا يكرهونها ولكنهم عندما رأوا أن رومة أرسلت اليهم حكاماً من لدنها لإدارة شؤونهم ثاروا (١٩٧) بإيعاز مندوبين أرسلتهم اليهم قرطاجنة حينما أحست بدنو الحرب الثالثة مع رومة وقتل فريق منهم وهم اللوزيتانيون ٩٠٠٠ مقاتل للقائد غلبا الروماني (١٥٣) فتظاهر هذا بالرغبة في مسالمتهم وعرض عليهم أراضي خصيبة يقطنونها فلما وقعوا في أحبولته قتل منهم ٣٠ ألفاً. وكان بين الذين نجوا من المجزرة راعٍ يدعى فيراوياتوس جمع إليه فريقاً من المتشردين وأخذ يحارب الرومانيين مباغتة ومناوشة ويقتل أبسل جنودهم (١٤٩).

واستمر على ذلك خمس سنين حتى توصل إلى إثارة السلتباريين فأصبحت بهم الحرب أكبر شأناً وأثقل وطأة.

وقد توصل بدهائه الى حصر القائد فابيوس ذات يوم في مضيق وجعله يوقع له على معاهدة جاء فيها «انه يكون صلح بين الشعب الروماني وفيرياتوس» (١٤١) وان أخا فابيوس المدعو سابيون أخذ على نفسه أن ينتقم من هذه الخديعة بمثلها فرشا اثنين من ضباط فيرياتوس فقتلاه (١٤٠) وخضع شعبه لرومة ونقل سابيون قسماً كبيراً منهم الى سواحل البحر المتوسط فأسسوا مدينة فالانس. وعندها انحصرت حرب اسبانيا في الشمال الى جهة نومنطة أو نومانس. وكان بومباي في سنة ١٤١ قد عقد مع النومنطيين معاهدة صلح لم يجسر أن يعترف بها لدى مجلس الشيوخ وفي سنة ١٣٨ تقدم القائد الذي خلف بومباي بجنوده الى مدينة نومنطه فلم يفتح عليه ورد على أعقابه.

وفي السنة التالية أحاط النومنطيون بالقنصل مانسيوس وجيوشه فوعدهم بالصلح إن فتحوا له ممراً فأبوه عليه إلا إن يحلف لهم مدير ماليته تيباريوس غراكوس بذلك (١٣٧) ففعل ولكن مجلس الشيوخ أبى التصديق على تلك المعاهدة ودفع إليهم القنصل واستخلفه بقواد آخرين لم يفلحوا أكثر منه فأرسل سيبيون الأفريقي هادم قرطاجنة (١٣٤) فأعاد النظام الى الجيش ونفى منه عادات الراحة والترف ودفع النومنطيين شيئاً فشيئاً حتى حصرهم في مدينتهم فأقفلها عليهم بالمعاقل والمعسكرات فلم يلبثوا أن جاعوا وطلبوا القتال فأباه عليهم حتى أخذ بعضهم يذبح البعض في داخل المدينة (١٣٣) ولم يبق منهم إلا خمسون نومنطياً عاد بهم سيبيون الى رومة. وكانت اسبانيا قد تعبت نهاية التعب من هذه الحروب فاستراحت وأخذت تضمد جراحها. إلا سكان الجبال الشرقية منها وهم الاستوربون والكانتابريون والفاسكيون فإنهم استمروا متمرّدين ولم يدخلوا في الطاعة الا لعهد أغسطس

وفي سنة ١٢٤ استولى قائد يدعى متلوس على جزائر باليار الأسبانية بعد أن ذبح معظم سكانها وفي سنة ١٣٣ تنازل ملك برغام عن مملكته لرومة ولكنها لم تمتلكها إلا بعد حروب كثيرة وقعت لها مع رجل يدعى أريستونيك قام بدعوى أن له حقاً بالملك.

وإنما بلغ الرومانيون هذا المبلغ العظيم في الدنيا في ذلك الوقت القصير لثلاث مزايا جليلة وجدت عندهم وهي : حكمة مجلس شيوخهم وطاعة الأمة للقوانين التي كانت تسنها لنفسها وحسن نظام الجيوش وقيادتهم.

— ٢٣ —

الحروب الأهلية الأولى وذكر الغراكيين وماريوس وسيلا (١٣٣ — ٧٩)

تأثير الفتوحات على الأخلاق والنظامات في رومة

إن افتتاح تلك الولايات الخصيبة كان ذا تأثير شديد على أخلاق أهل رومة وبالتالي على نظاماتهم فقد كثرت الثروة بين فريق قليل منهم تناهى بالإسراف حتى كان كبار الموظفين يضطرون الى الاختلاس من أموال الخزينة ليستعيضوا عما ينفقونه في الملاهي وحتى أن بعض المراقبين وهم حراس الأخلاق عزلوا من مجلس الشيوخ أعضاء من البطارقة الشرفاء بسبب هذه الحادثة وكان الغني ينحصر في نحو ثلاثمئة أسرة وأما سائر الشعب فكان فقيراً يوجد بينه نحو ٣٠٠ ألف متسول مدقع . وكانت الطبقة الوسطى قد بادت لبوار التجارة والزراعة وكثرة المغازي والحروب فلإصلاح هذه الحالة بذل الغراكيون[1] ما في وسعهم لحمل الكبراء على التزام القوانين التي أصبحوا ينتهكونها بلا حرمة وإعادة الشعب الى أخلاقه الوطنية التي جعلته يلقب بسيد الشعوب.

محاولة الاصلاح (١٣٣—١٢١)

في سنة ١٣٣ انتخب تيباريوس غراكوسي نائباً فأراد أن يبتدىء بإصلاح الشعب ويرد إليه فضائله القديمة ورأى أن ذلك لا يتسنى إلا بتعويده على العمل وكانت للجمهورية أراض واسعة اغتصبها الأعيان فأحب تيباريوس تقسيمها على الشعب أجزاء صغيرة لا تباع وسنّ من أجل ذلك قانون ملكية فعارضه الأعيان أشد

المعارضة وأشركوا في ذلك معهم أحد النواب واسمه أوكتافيوس فعزله تيباريوس بدون اكتراث منه للقانون فكان من ذلك أن عاقبه الكبراء بعقاب من جنس عمله وبعثوا إليه بأناس من أرقائهم قتلوه على سلم الكابيتول (١٣٣) ثم قتلوا ونفوا جميع محازبيه وأنصاره فندم الشعب على عدم نهوضه للأخذ بثأر غراكوس وكادت الحرب الأهلية تنتشب فحال دونها سيبيون أميليان ولكن خصومه لم يمهلوه الى أن يظهر مقاصده الإصلاحية فرشوا من قتله ليلاً (١٢٩).

وفي سنة ١٢٣ انتخب كايوس غراكوس نائباً فاستأنف مطالب أخيه وتوصل الى تثبيت القانون الذي كان تيباريوس واضعه وقرر توزيع القمح على الشعب في مواعيد معلومة وأنشأ مستعمرات للرومانيين الفقراء وضرب سلطة مجلس الشيوخ ضربة قاضية بإخراجه إدارة القضاء من اختصاصاته وإعطائها للقساورة أو أهل الطبقة الثانية من الأعيان. وبقي هذا الرجل مدة سنتين لا يفوق سلطته شيء في رومة فحاربه مجلس الشيوخ بمثل سلاحه وكان كلما عرض عليه اقتراحاً يحببه الى الشعب زاده مجلس الشيوخ بنوداً ترضيه أكثر فكان من ذلك أن كايوس لم ينتخب ثالث مرة للنيابة فقتله الأعيان وأماتوا ٣٠٠٠ من أنصاره (١٢١) وبقي النواب الذين جاؤوا بعده إحدى عشرة سنة لا يرفعون في خلالها صوتهم الى أن ظهرت فضائح حرب نوميديا وقام بأعباء الأمور ماريوس فانتقم للغراكيين من الأعيان.

ذكر ماريوس وفتح نوميديا (١١٨ — ١٠٤)

كان ماريوس فلاحاً أمياً من أربينوم شديد البأس حسن القيادة للجنود ولكنه متقلب الرأي في المناصب الإدارية. وكان سيبيون قد لمح بسالته في حرب نومنطة فرقاه ثم توصل بتعضيد آل متلوس الى منصب النيابة سنة ١١٩. وكان أول ما اقترحه إلغاء الترشح للمناصب الانتخابية وذلك بمعنى أن يعرض كل نفسه على الشعب لينتخبه فقاومه الأعيان ولا سيما متلوس القنصل فأنذره ماريوس بالحبس من أجل معارضته ثم أمر جندياً أن يسوقه الى السجن فصفق له الشعب سروراً وإعجاباً غير أنه لم يلبث أن أغضب الشعب بمنعه توزيع القمح عليه مجاناً إجابة لما اقترحه من

ذلك أحد النواب فامتنع الجمهور عن انتخابه ثانية الى سنة ١١٧ فكان فيها ماريوس آخر من وقعت له الأصوات لمنصب قضائي تولاه في رومة مدة ثم في اسبانيا مدة أخرى وكان في أثناء ذلك خاملاً مجهولاً وعند رجوعه الى رومة عقد صلحاً مع الأعيان بتزوجه بجوليا الشريفة أخت جدة قيصر. ونسي له متلوس إساءته فاصطحبه في حرب نوميديا.

وكان ميسيبسا ملك نوميديا وابن ماسينيسا قد قسم مملكته قبيل وفاته (١١٨) بين ولديه وابن أخيه المسمى جوغرتا فقتل هذا أحد ابني عمه وقاتل الآخر قتالاً ظاهراً حتى إذا حصره في سيرتا وقطع عنها موارد القوت فتحت له أبوابها فأماته فيها جوعاً (١١٢) وهالت هذه الجرأة مجلس الشيوخ فأرسل أحد القواد لمعاقبة هذا المعتدي فباعه الصلح بيعاً (١١١) فقام أحد النواب واستدعى الملك ليحاكم في رومة فجاءها غير متهيب ولما كلفه أحد النواب بالإجابة على أسئلته منعه الآخر عن الإجابة لأنه كان قد رشاه.

وكان في رومة مرشح لسرير نوميديا فبعث جوغرتا اليه من قتله فأمره مجلس الشيوخ بالخروج حالاً من رومة وأرسل أحد القناصل وراءه الى أفريقيا فظهر عليه النوميديون واستعبدوا جيشه فعهدت إدارة هذه الحرب الى متلوس فأعاد النظام والبسالة الى العساكر وقاتل عدوه بادىء بدء قتال مناوشات ثم فاز عليه في موتول (١٠٩) وأخضع فاكا عاصمته وسيكا وسيرتا وجميع مدائن الساحل. وفي هذه الأثناء انتخب ماريوس قنصلاً فتولى القيادة وحرم متلوس شرف إنجاز الحرب وانتصر على جوغرتا فلجأ الى موريتانيا فخانه صهره ملكها وسلمه للرومانيين فسيق مكبلاً (١٠٦) وراء ماريوس الى رومة ومات فيها بعد ستة أيام أبى أن يذوق فيها طعاماً (١٠٤) وزيد قسم من نوميديا على ولاية أفريقيا الرومانية.

غارة السمبريين والتاتونيين (١١٣ — ١٠٢)

كان بحر البلتيك قد فاض فأخرج نحو ثلاثمئة ألف سمبري وتاتوني من بلادهم فاجتازوا الدانوب وتغلبوا على قنصل روماني لقوه في طريقهم (١١٣) وشنوا

الغارات مدة ثلاث سنين على نوريكا وبانونيا وايليريا ثم سطوا على غاليا (١١٠) ثم سحقوا خمسة جيوش رومانية (١١٠ ـــ ١٠٥) ففتحت لهم ايطاليا ولكنهم تراجعوا الى جهات اسبانيا للغزو فيها فتمكنت رومة من استدعاء ماريوس وكان في أفريقيا فرجع وهو يعود جنوده على أشق الأعمال حتى إذا أدرك البرابرة بقرب اكس حاربهم فقتل جنوده من التاتونيين خلقاً كثيراً (١٠٢).

وكان السمبريون في هذه الأثناء قد نزلوا من وراء جبال الألب على وادي نهر الأديج فانتقل ماريوس مسرعاً الى ضفاف نهر البو لإنجاد صيفه كاتولوس وتقويته عليهم وقاتلهم بقرب فرسال فأهلك منهم جمهوراً عظيماً وأسر ستين ألفاً وكانت النساء تذبح أولادها وتنتحر كي لا تقع في أيدي الرومانيين(١٠١).

تجدد الفتن الأهلية وذكر ساتورنينوس (١٠٦ ـــ ٩٨)

وكوفىء ماريوس على انتصاراته بأن استمر أربع سنين في منصب القنصلية ولكنه في الخامسة خذله الكبراء، وانتخبوا عدوه متلوس فعاقبهم على ذلك بأن حمل شاباً يدعى ساتورنينوس على طلب النيابة فانتخب دونه رجل آخر من أصدقاء الأعيان فقتله ساتورنينوس وحل محله وكان أول ما اقترحه منح أراض لجنود ماريوس فعارضه متلوس فنفي (١٠٠).

ثم أراد ماريوس إبلاغ أحد أصدقائه واسمه غلوسيا الى منصب القنصلية فقتل لذلك أحد القناصل الذين كانوا قد انتخبوا حديثاً فغضب الجميع من هذه الخطة واسترجعوا متلوس فذهب ماريوس الى آسيا كراهة أن يرى فوز خصمه عليه وآمل أن يخدع ميتريدات ملك البنطس فيوقعه في حرب مع رومة تعهد اليه إدارة رحاها فيستعيد بها ثقة قومه واكرامهم.

ذكر سيلا وثورة الإيطاليين (٩٨ ـــ ٨٨)

كان سيلا شريفاً من آل كورنيليا ذا نشاط وبسالة وذلاقة لسان وميل شديد الى المجد وكان أول تعيينه مديراً للمالية تحت يد ماريوس فاسترضى بدهائه الضباط

والعساكر وماريوس نفسه فانتدبه لمقابلة بوكوس ملك موريتانيا في أمر تسليم جوغرتا وأشركه في زفاف انتصاره واصطحبه في حرب السمبريين إلا أنه وقع خلاف بينهما فانتقل سيلا الى جيش كاتولوس ثم عين قائداً في آسيا.

وكانت البلاد الإيطالية قد أكثرت من طلب معاملة أهلها كما يعامل نفس الرومانيين فأبى ذلك عليها مجلس الشيوخ فتآمر ثمانية من شعوب الوسط والغرب على أن يستقلوا ويقيموا جمهورية على مثال جمهورية رومة ويجعلوا عاصمتها مركز كورفينيوم الحصين الذي دعوه باسم إيطاليكا غير أن اللاتينيين والأتروسك والأمبرتيين والغاليين ثبتوا دون سواهم على تعاهدهم وكان بدء الثورة في مدينة اسكولوم فذبح أهلها القنصل سرفيليوس وجميع عساكره والنساء الرومانيات الموجودة فيها (١٩٠) ثم غلب المتعاهدون قنصلاً في كامبانيا وقتلوا آخر وكان ماريوس يتولى قيادة أحد الجيوش ولكنه لم يهاجم واكتفى بالدفاع لما اشتهر من مصادقته للايطاليين ثم تمارض واعتزل.

أما سيلا فأظهر في هذه الحرب القصيرة بسالة ومهارة عظيمتين كما أظهر مجلس الشيوخ حكمة باهرة حيث أصدر قانونين يمنح بهما الوطنية الرومانية أو المعاملة كالرومانيين أنفسهم لجميع الشعوب التي أقامت على ولاء رومة فلم تمض السنة الثانية حتى كان السمنيون واللوكاتيون منفردين في الثورة فأدخلوا عنوة في الطاعة وقسم الرومانيون المستجدون الى ثمانية أقسام ومنحوا حقوقاً لم تكن على الحقيقة الأوهمية (٨٨).

على أن سيلا انتخب قنصلاً على أثر انتصاراته وعهدت إليه محاربة ميتريدات التي حاول ماريوس أن يتولاها فلم يجب الى سؤاله فوقع بسببها نزاع بينه وبين سيلا نشأ عنه ما نشأ بعد ذلك من الحروب الأهلية الآتي وصفها.

ذكر سلبيسيوس وسينا ومن قتل من أنصارهما (٨٨—٨٤)

واتفق ماريوس مع نائب يدعى سلبيسيوس على نقض الأمر الصادر بتولية سيلا قيادة الجيش لمقاتلة ميتريدات فحدثت بسبب ذلك حركة اضطرت سيلا الى

الخروج من رومة (٨٨) ثم لم يلبث أن عاد اليها متقدماً جيشه ففرّ منه ماريوس إلا أنه قبض عليه وسجنه وأرسل إليه رجلاً سمبرياً ليقتله فخاف السمبري منه ورجع عن جنايته فأطلق سبيل ماريوس ولجأ الى أفريقيا. وكان سيلا قد أصدر قوانين تضعف نفوذ نواب الشعب ليأمن في غيابه غدرة تصيبه كغدرة سلبيسيوس وسافر الى آسيا فما ابتعد حتى طلب القنصل سينا إعادة سلطة النواب كما كانت وأخذ يحارب مجلس الشيوخ من أجل ذلك فقدم ماريوس في هذه الأثناء مصطحباً جيشاً من الأرقاء الهاربين والايطاليين وانضم اليه فانتصرا على عساكر مجلس الشيوخ ودخلا رومة وقتلا كل أصدقاء سيلا في خمسة أيام ليل نهار ولم يعفوا عن اللاجئين منهم الى الهياكل ولا الموجودين في مدائن ايطاليا أين كانوا. وفي غرة يناير سنة ٨٦ تولى القنصلية ماريوس وسينا بلا انتخاب ثم توفي الأول في الثالث عشر من ذلك الشهر على أثر فواحشه فانفرد الثاني بالسلطة وحفظها السنتين التاليتين الى أن قتله جنوده.

انتصار سيلا وعودته وما اصدره من الأحكام بالقتل وذكر توليه الحكم المطلق (٨٤ — ٧٩)

وفي ذلك الوقت رجع سيلا من اسيا منتصراً في مقدمة اربعين ألف مقاتل ودخل كمبانيا بلا معارضة (٨٣) وتغلب على أول جيش روماني لقيه ثم على جيش آخر كان قائده ابن ماريوس بقرب ساكريبورت (٨٢) ودخل رومة فذبح فيها جميع الشيوخ المشاهير ثم سار منها قاصداً بلاد الاتروسك لمقاتلة القنصل كاربون فيها فدحره وعاد مسرعاً للدفاع عن رومة وقد بلغه زحف بونتيوس تلازينوس عليها وبنتيوس هذا أحد زعماء السمنيين لم يلق السلاح منذ ابتداء ثورة الشعوب الثمانية التي تقدم لنا وصفها على رومة وكان قد هاجم هذه المدينة بقصد تدميرها فادركه سيلا عند باب كولين فنكل السمني به ولكن كاسيوس الذي كان يقود ميمنة الجيش انتقم من بنتيوس ورد جيشه على اعقابه وقتل في هذه الموقعة خمسون الفاً نصفهم رومانيون. وفي اليوم الثاني امر سيلا بذبح ثمانية آلاف اسير من السمنيين واللوكانيين ثم ذهب الى مدينة برينست التي كان ابن ماريوس مسجوناً فيها وكانت

قد شقت عصا الطاعة فذبح سكانها وأخذ كل يوم يكتب جريدة باسماء المعدين للذبح من أنصار ماريوس والمتهمين بذلك زوراً واصحاب الثروة الذين يطمع في اموالهم ويدفعها الى الجلادين فيقتلونهم . واستمرت الحال على هذا المنوال ستة أشهر كاملة من غرة دسمبر سنة ٨٢ الى غرة جونيو سنة ٨١ ولا يحصر عدد الذين جزروا في تلك الفوضى الشنعاء ولا سيما وأن شعوباً برمتها كانت توضع خارج القانون أي تحت حكم الاعدام ومدائن كثيرة كان يهلك أهلها ويباعون.

وبعد أن قتل سيلا الرجال بالسيف اراد أن يقتل الشعب بالقوانين فحمل المسخبين على منحه الحكم المطلق ونزع من النواب كل اختصاصاتهم الا شيئاً من السلطة المدنية لا معنى له وحصر كل القوة في مجلس الشيوخ كما كانت قبل ذلك باربعة قرون واذ أتم عمله استقال (٧٦) وعاش سنة بعد ذلك ثم قبض وقد كتب بيده قبل موته ما اراد أن ينقش على قبره فقال وصدق « انه لم يحسن أحد من الناس الى أصدقائه مقدار ما أحسنت ولم يسيء أحد الى أعدائه مقدار ما أسأت » .

انكسار سرتوريوس وسقوط حزب الشعب (٧٢)

كان هذا الحزب قد هلك في رومة فظن سرتوريوس أنه يحييه في اسبانيا وبقي ثماني سنين يقاوم اشهر القواد التي يرسلها مجلس الشيوخ (٨٤ الى ٧٢) ولكن أحد ضباطه قتله في بربنه ولم يكن خليقاً بأن يخلفه فسقط بين ايدي القائد بمباي الذي افتخر بأنه انهى بذلك الحروب الداخلية وانما كان مخمدها الى أجل غير بعيد يبلغ عشرين سنة .

— ٢٤ —

الزمن الذي مرَّ من عهد سيلا الى عهد قيصر وذكر بومباي وسيسرون (٧٩ — ٦٠)

محاربة ميتريدات لعهد سيلا (٩٠ — ٨٤)

علمنا أن الاضطرابات والفتن لم تنحصر في رومة بل قامت في جميع ايطاليا

بسبب اشتداد الولاة على شعوبها واستبدادهم بهم وبشؤونهم ولذلك انقسموا الى فريقين وانحاز الفريق الغربي الى سرتوريوس والفريق الشرقي الى ميتريدات ملك البنطس. وكان هذا الملك قد اخضع عدداً كبيراً من الشعوب التترية السكيثية فيما وراء القوقاف وفتح مملكة البسفور السيمراني وكابدوكيا وفريجيا وبيثنيا باسيا الصغرى. فخاف مجلس الشيوخ من قيام هذه المملكة العظيمة بجوار ولاياته وامر حاكم اسيا بارجاع ملكي بيثنيا وكابدوكيا الى سريريهما (٩٠) فاستعد متريدات سراً للقتال استعداداً كبيراً ولما علم أن ايطاليا ثائرة على رومة والحرب قائمة على قدم وساق ملأ اسيا بجنوده ليفتحها وامر فذبح ٨٠٠٠٠ ايطالي كانوا في المدائن الاسيوية. وعندما اتم غزواته في تلك الجهات اغار على اغريقيا وأخذ اثينا (٨٨) فارسل مجلس الشيوخ سيلاً الى تلك البلاد في ربيع سنة ٨٧ بعد أن اخمد الفتنة الايطالية فحاصر اثينا بخمس فرق واستمر الحصار عشرة أشهر ثم التقى جيش ميتريدات بجيش سيلا في خرونيا فابلى الرومانيون بلاء عجيباً على قلة عددهم ولم ينج من الاسيويين الا عشرة الاف بعد أن كانوا مئة وعشرين ألفاً.

ثم علم سيلا أن قائداً رومانياً يدعى فلاكوس كان يجتاز الادرياتيك ليتولى القيادة مكانه ويجني ثمرة انتصاره وعلم أيضاً أن دوريالوس احد قواد ميتريدات قادم من اسيا في ثمانين الف مقاتل فاختار محاربة الاخير وصادمه في بيوسيا واستولى على ثيبة وثلاث مدائن اخرى اراق فيها دماء كثيرة كما اراقها في اثينا وعند ذلك عقد صلحاً مع ميتريدات الذي أكثر من التذلل له فشرط فيه عليه ان يتخلى عن فتوحاته ويسلم اسراه والخائنين وسبعين سفينة حربية ويؤدي الفي وزنة ذهباً. اما فلاكوس فكان قد قتله رجل يدعى فمبريا وخلفه في القيادة ولما علم سيلا أنه في ليديا ذهب اليها واستمال جيشه فضمه الى جيشه فانتحر فمبريا المذكور (٨٤) وبهذه القوة كلها عاد سيلا الى رومة لاسقاط حزب ماريوس.

محاربة لوكولوس وبمباي لميتريدات (٧٤ — ٦٣)

بعد هذه الحوادث بست سنين بلغ ميتريدات نعي سيلا (٧٨) فدفع سراً ملك

ارمينيا تيكران الى الهجوم على كابدوكيا واستعد للدخول معه في النزال وجهز جيشاً جراراً جمعه من القوقاف الى جبال هيموس وكان بعض الرومانيين المنفيين يثقفون جنوده وجماعة من الضباط الذين أرسلهم اليه سرتوريوس من اسبانيا يقودونها (٧٤).

أما مجلس الشيوخ فعهد الى لوكولوس برو قنصل سيليسيا أي واليها أن يزحف على البنطس فلبى الأمر وفي أثناء مسيره انقذ زميله القائد كونا الذي كان قد حوصر في خلقدونيا بعد أن انكسر مرتين (٧٤) وتقدم من هناك الى سيزيكا ومنها الى البنطس فاستولى على مركز اميزوس الحصين فيها (٧٢) وفي السنة التالية حصر الاعداء مرة أخرى فلم ينج منه الملك الا بما القاه من الغنائم والاموال على الطريق ليعوق بها سيره ولجأ الى تيكران الذي كان في ذلك العهد أكبر ملوك الشرق اذ كانت سلطته تتناول ارمينيا وسوريا وبلاد البارتيين وكان يلقب فيها بملك الملوك.

فجاءه رسول من قبل لوكولوس يطلب منه تسليم ميتريدات فطرده مستكبراً فاجتاز القائد الروماني دجلة وتقدم باحد عشر الف روماني لمقاتلة مئتين وخمسين الف أرمني فانتصر عليهم وأخذ عاصمتهم تيكرانوسرت. وامضى الشتاء في غوردیانا ودعا ملك البارتيين للانضمام اليه فتردد فعزم على محاربته ولكن جنوده الذين كانوا قد اكتظوا شبعاً من كثرة الغنائم ابوا التقدم كما فعل جنود الاسكندر. وفي سنة ٦٧ خلفه بمباي وسحق جيشاً جديداً كان ميتريدات قد حشده ثم ازمع مقاتلة تكران وكان لتكران ابن خانه ودخل في جيش الرومانيين فسلم تكران وتذلل فتركه بمباي ولحق بميتريدات الى القوقاف فتغلب في طريقه على الالبانيين والايبيريين واذ لم يجد فائدة من مداومته اللحاق بالملك الهارب رجع ونظم البنطس على شكل ولاية رومانية في سنة ٦٤ وهبط الى سوريا وفينيقيا فحولها الى ولايتين أيضاً وأخذ اورشليم عنوة واعادها لملكها هيكران الذي وعده بتأدية جزية سنوية.

وفي اثناء هذه الغزوات عاد ميتريدات الى البسفور وكان المظنون انه مات فضايق ابنه ماخارس حتى حمله على الانتحار ثم اراد دخول التراس مع بلوغه

الستين من العمر وتجنيد برابرتها الاشداء الذين لا يدركهم العد والانقضاض بهم على ايطاليا فهالت هذه المقاصد عساكره فثاروا عليه برئاسة ابنه فارناس فكلف ميتريدات أحد الغاليين أن يقتله كي لا يقع في أيدي الرومانيين (٦٣) ولم يبق لبمباي عمل في البلاد الاسيوية سوى توزيع الامارات والممالك على أصدقاء مجلس الشيوخ.

نهضة حزب الشعب في رومة والكلام على المبارزين (٧١)

جرت في اثناء حروب ميتريدات حوادث خليقة بالذكر في ايطاليا. وذلك ان القنصل لبيدوس خطب ذات يوم في اعادة السلطة القديمة لنواب الشعب فقام انصار هذا الرأي على قدم وساق بعد ان ظن أنهم غرقوا في الدماء من عهد سيلا. واتفق في هذه النهضة حاكم سيزالبينا مع لبيدوس فأخذ بمباي على عاتقه محاربتها بالجيش الذي حشده قبلاً لتدمير حزب ماريوس وانتصر على أحد الزعيمين بقرب قنطرة ميلفيوس وعلى الآخر في سيزالبينا ورأينا ما كان من فعله في اسبانيا.

وكان في مدينة كابو ملعب يعود فيه فريق من الناس على المصارعة حتى اذا برعوا فيها أرسلوا الى روما ليتبارزوا امام الشعب فاتفق ان فر سبعة عشر من اولئك المبارزين وفي مقدمتهم رجل يدعى سبارتكوس فلحق بهم احد القواد فقاوموه ثم ظهروا على قائد آخر وكان قد انضم اليهم كثير من الرعاة ومن يماثلهم فانتشروا في ايطاليا ينهبون فقاتلهم قنصلان لكبح جماحهم ففازوا عليهما ثم عهدت القيادة الى كراسوس لمحاربتهم فبددوا جيش أحد ضباطه ولكن كراسوس توصل الى حصرهم في أقصى بروتيوم فاراد سبارتاكوس أن يذهب بجماعته الى صقليا فتخلف عنه بعضهم فاهلكهم الرومانيون ثم أن سبارتكوس اضطره اصحابه المبارزون لشدة ثقتهم بحسن طالعه ان يحارب جيش الرومانيين في موقعة كبيرة تكون القاضية ففعل (٧١) وابلى بلاء الابطال غير انه قتل وبعد ذلك بقليل كان بمباي راجعاً من اسبانيا فظفر ببعض اشتات المبارزين فاهلكهم وادعى أنه صاحب الحق في شرف انجاز هذه الحرب.

تقرب بمباي من الشعب وذكر حرب القرصان (٦٧)

وعندما وصل بمباي الى رومة قابله الكبراء بدون حفاوة ولم يمنحوه قيادة جديدة لاعتقادهم ان ما ناله من قبل يكفيه. اما الشعب فصفق له ورحب به ليستميله فمال اليه وفي سنة ٧٠ استصدر قانوناً يعيد لنواب الشعب سلطتهم القديمة فكافأته العامة على ذلك بمنحه القيادة لتبرئة البحار من القرصان (٦٧) ثم منحته القيادة لانجاز حرب ميتريدات مع أن لوكولوس كان لم يبق له بقية من القوة. وبينما هو يقوم بهذه الغزوات حدثت في رومة مؤامرة كادت تذهب بالجمهورية.

سيسرون وذكر مؤامرة كاتيلينا (٦٣)

ولد سيسرون في ابينوم مسقط رأس ماريوس وشب على فصاحة تندر في الرجال وبعد أن نبغ في فن المحاماة سافر الى بلاد اليونان لاستتمام معارفه فيها ثم عاد وكان أول ما كسب به الشهرة العظيمة خطبه العجيبة التي وصف بها شكوى أهل صقليا من حاكمهم المستبد المرتشي فيريس وما يتهمونه به من المنكرات. وقد أخذ حيناً بناصر بمباي لدى الشعب حتى اذا عرف كنه مقاصده وهي الاستئثار بالسلطة ألف حزباً يدعى حزب أهل الاستقامة للدفاع عن الجمهورية وتوصل الى منصب القنصلية (٦٣) وكانت الحكومة في تلك السنة تحت خطر مؤامرة شديدة قام بها رجل يدعى كاتيلينا من العتاة الظالمين. قتل امرأته وابنه ليتزوج بامرأة اخرى واشتهر بسفك الدماء في رومة وفي افريقيا حين كان حاكمها وعند رجوعه منها ترشح للقنصلية فمحي اسمه منها بناء على شكوى الافريقيين فأخذ يعد مؤامرة كبيرة في نفس رومة وفي بعض جوانب ايطاليا وتسلح للأخذ بناصره كثيرون من الجنود في فمبريا وبلاد الاتروسك والسمنيين ووعده ستوس حاكم افريقيا باثارتها واثارة اسبانيا معها ليشاركه في اثمه وكانت عمارة نهر الأوستي تحت تصرفه وكان قد حاول قتل القناصل مرتين فخابت دسيسته فارجأ الامر الى سنة ٦٣ ولكن سيسرون وقف على السر فطرده من مجلس الشيوخ بخطبة بلغ فيها منتهى الفصاحة وشرح فيها مؤامرته ففر من رومة ولجأ الى جيش ماليوس أحد زعماء الخائنين يبغي محاربة وطنه معه اما سيسرون

فقبض على كل انصاره وامر باعدامهم للحال فخاف سائر المتآمرين واخلدوا الى السكون وخرج القنصل الآخر انطونيوس لمقاتلة ماليوس فظهر عليه وقتل في هذه الموقعة كاتيلينا بعد أن أظهر بسالة عظيمة.

ولما انتهت مدة سيسرون كلفه احد النواب على جاري العادة ان يقسم بأنه لم يخالف القوانين في مدة حكمه فصاح أقسم إني أنقذت الجمهورية فحياه كاتون والشيوخ ولقبوه بأبي الوطن وصفق له جميع الشعب استحساناً.

—٢٥—

ذكر قيصر (٦٠ — ٤٤)

ترجمة قيصر وذكر توليه رئاسة حزب الشعب ثم منصب القنصلية (٦٠)

ان قيصر سليل آل جوليا الشرفاء أكبر بيوتات رومة. وكان يزعم انه ولدته فينوس باقترانها مع يوليوس بن انشيز. وفي السابعة عشرة من سنه قاوم سيلا ولم يخف باسه. وقد عين في سنة ٦٥ عضواً ممتازاً في المجلس البلدي لرومة فاستمال الشعب اليه بما اقامه له من الملاهي الباهرة وبارتكانه على نفوذه عند العامة اعاد الى الكابيتول علامات انتصارات ماريوس اخي جده. وكان خصوم ماريوس قد نزعوها منه.

ثم انتخب الشعب قيصر رئيساً للكهنة. وفي سنة ٦٢ بلغ ما كان قد استدانه ٨٥٠ وزنة فضمنه فيها أحد الاغنياء المشاهير وهو كراسوس فامهله دائنوه فذهب الى اسبانيا الورائية ليتولى حكومتها. وعندما رجع منها سنة ٦٠ وجد بمباي وكراسوس نافرين من مجلس الشيوخ احدهما لأنه لم يصدق له على ما فعله في اسيا والآخر لأنه جرد من كل سلطة في الحكومة. فقرب بينهما وعقد معهما اتفاقا سرياً اشتهر باسم الاتفاق الثلاثي. ومن مقتضاه انهم تحالفوا جميعاً على جعل نفوذهم واموالهم

واعمالهم مشتركة في مصلحة بعضهم البعض. وأول من جنى ثمرة هذا الاشتراك قيصر فانه رقي الى القنصلية فوافق على ما فعله بمباي بآسيا واستمال فريق الجباة بتخفيضه الى الثلثين قيمة ما كانوا يلتزمونه من جباية الخراج واستمنح لنفسه ولاية سيزالبينا وترنسالبينا وايليريا لمدة خمس سنين وقيادة اربع فرق من الجيش (٥٩).

وقبل ان يخرج من رومة عين في النيابة كلوديوس احد انصاره لالجام مجلس الشيوخ وبمباي في اثناء غيابه. فأول ما فعله هذا أنه احتال حتى ابعد كاتون الى قبرص لتحويلها الى ولاية رومانية ونفى سيسرون بدعوى أنه أمات انصار كاتيلينا بحكم غير قانوني وكان الرجلان عدوي قيصر وبقية الابدال من رجال الحرية في رومة.

حروب غاليا والانتصار على الهلفيتين أو السويسيين وذكر أريوفيست والبلجيكيين (٥٨—٥٧)

كان للرومانيين منذ سنة ١٢٥ ولاية في غاليا تدعى ناربونيز وصلات وداد مع شعب يعرف بشعب الأدوينيين يجاورهم شعب آخر يعرف بالسيكانيين. وكان أريوفيست أحد الزعماء الجرمانيين قد سطا بعشرين ألف مقاتل من السويسيين على السيكانيين وجيرانهم الأدونيين ففتك بهم وأخذ يشن الغارات على الهلفيتيين سكان غاليا الشرقية. فعزموا على ترك جبالهم وارتحلوا قاصدين أرضاً أخصب وأبعد عن القلاقل فلما اجتازوا نهر الجورا صدمهم قيصر ومحا قسماً منهم وأعاد الآخرين الى جبالهم كي لا تخلو من السكان فتخسرها رومة. وبعد هذه المعركة التقى بأريوفيست فرده الى ما وراء الرين مدحوراً (٥٨) وعسكرت جنوده منتشرة الى تخوم بلجيكا فاعتصب الأقوام المقيمون بتلك الجهات كرهاً لهذا الجوار المخيف غير أنهم لم يلبثوا أن وقع التنافر بينهم فافترقوا وضعفوا وأوقع قيصر بكل فريق منهم على حدته.

خضوع الأرموريك وأكيتانيا وذكر غزو بريطانيا وما وراء الرين (٥٦—٥٣)

وتوصل قيصر في الحرب الثالثة التي أدارها الى إخضاع الأرموريك وأكيتانيا وفي

الحرب الرابعة والخامسة أقعد سكان ما وراء الرين عن أنجاد الغاليين في ثوراتهم. وزحف مرتين على بريطانيا فقطع كل اتصال بينها وبين غاليا أيضاً.

الثورة العامة وذكر فرسنجيتوريكس وحصار الازيا

غير أن غاليا لم تلبث أن انتشبت فيها ثورة عامة من نهر الغارون الى نهر السين (٥٢) فكان زعيمها أرفين فرسنجيتوريكس فساق قيصر جنوده الى مدينة جنابوم فأخذها وعاقب أهلها على قتل الرومانيين الذين فيها ثم أخذ مدينة بورج وكانت المدينة الوحيدة التي لم يحرقها البيتورجيون في تقهقرهم أمام الرومانيين. وبعد ذلك هاجم مدينة جرغوفيا (كليرمون) فلم يفز فوزاً مبيناً فاستدعى مساعده لابيانوس الذي كان قد تغلب على الأعداء بقرب باريس فلما انضم اليه قاوما مئتي ألف غالي ثم دحراهم ففروا متبددين الى الازيا فأقام قيصر حولها الاستحكامات والقلاع في أيام قليلة وشدّد في مضايقاتها الى أن خرج منها فرسنجيتوريكس وسلم نفسه (٥٢) فأخمدت أنفاس الثورة في جميع غاليا ولم تحدث بعدها إلا حركات صغيرة انتهت في سنة ٥١ بموقعة أوكسللودونوم.

غلبة البارتيين على كراسوس (٥٣)

وفي أثناء هذه الحروب كان كراسوس يحارب البارتيين بعد أن نهب هياكل سوريا وأورشليم فلم يمكنوه منهم لأنهم كانوا راكبين يفرون من وجهه أن أقبل عليهم ويكرون عليه كلما استقر. فهاجمهم ابنه بألف وثلاثمائة خيال فتقهقروا أمامه الى مسافة بعيدة ثم أحدقوا به فأمر أحد رجاله أن يقتله حتى لا يقع حياً بين أيديهم فقطعوا رأس جثته وعلقوها على رمح وأخذوا يظهرونها لسائر جيش الرومانيين فأجبر هؤلاء قائدهم كراسوس أن يجيب زعيم البارتيين الى عقد الصلح فلما ذهب الى موعد المقابلة قتله البارتيون ومن معه ولم يعد الى رومة من جنوده إلا قليلون (٥٣).

الحرب الأهلية بين قيصر وبمباي (٤٩—٤٨)

بعد وفاة كراسوس أصبح بمباي وقيصر خصمين متناظرين أما الأول فتقرب من

مجلس الشيوخ وحث ميلون أحد النواب فقتل النائب كلوديوس لكثرة طعنه على بمباي ورأى مجلس الشيوخ انه في حاجة الى قائد عظيم وحاكم شديد لإضعاف نفوذ قيصر ومقاومته خوفاً منه على الجمهورية فعين بمباي قنصلاً مدى حياته ومنحه السلطة المطلقة. وفي غرة يناير من سنة ٤٩ استصدر بمباي أمراً باعتبار قيصر عدواً للجمهورية إن لم يترك قيادة جنوده وحكومة ولاياته في يوم معلوم فاجتاز قيصر نهر الروبيكون وفي ستين يوماً طرد بمباي والشيوخ الذين حاربوه معه في ايطاليا (٤٩) ثم عاد الى اسبانيا وفتك بجيش كان لبمباي فيها وفي عودته أخذ مرسيليا ودخل رومة وتنصب فيها حاكماً مطلقاً.

وكان بمباي قد لجأ الى أبيروس فحشد فيها جميع الجيوش الرومانية التي كانت في الشرق فاجتاز قيصر بحر الادرياتيك في شهر يناير من سنة ٤٨ وحاول أن يحيط بجيوش بمباي مع قلة عدد جنوده فضعفت بذلك قوته ولم يستطع الفوز عليه فذهب الى تساليا وتبعه إليها بمباي فلقيه قيصر في فارسال وكسره ففر الى مصر فقتل فيها غدراً حين نزوله الى الشاطىء.

حرب الاسكندرية وذكر حكم قيصر المطلق (٤٨ — ٤٤)

وكان قيصر قد تابع بمباي الى مصر فلما دخل الاسكندرية قابل الوزراء بالتحقير لما علمه من غدرهم ثم شغفته كليوباترا بمحاسنها فأراد أن يشركها بالملك مع شقيقها فثارت عليه الاسكندرية بالألوف المؤلفة من سكانها وحاصروه في القصر الملكي فلزمه الى أن أتته نجدة من آسيا فهاجم محاصريه ومزقهم كل ممزق ففر الملك وغرق في النيل وجلست كليوباترة بعده على تخت مصر (٤٨).

ورجع قيصر الى رومة بعد أن غلب فارناس بن ميتريدات في مروره من آسيا (٤٧) وبوصوله علم أن جيشاً كبيراً حشد في أفريقية تحت قيادة جوبا ملك نوميديا للأخذ بثأر بمباي فلقيه في تابسوس وسحق جيشه وأخذ مدينة أوتيك التي كان كاتون فيها فانتحر حتى لا يعيش بعد فقد الحرية الرومانية (٤٦). ثم ذهب قيصر الى اسبانيا لمحاربة جيش عبأه أبناء بمباي فظهر عليه وعند رجوعه الى رومة وضع في

مصف الآلهة وبولغ في تعظيمه وإجلاله ومنح جميع السلطات وهي الحكم المطلق والقنصلية والقضاء والنيابة ورئاسة الكهنة وإمارة مجلس الشيوخ وما سواها فكان ملكاً ولكن بدون لقب. والحق يقال إنه لم يحسن أحد سيرته في حكمه كما أحسنها قيصر فإنه ساس الشعب بالحكمة والكرم والعدل والحلم على أعدائه وكان ينوي استتمام فتح آسيا الى آخر الهند وحفر ترعة قرنثية وإنشاء طريق على جبال الابنين من الأدرياتيك الى بحر توسكانا ومنح الوطنية الرومانية لجميع الشعوب على اختلافها لتتحد المملكة وجمع القوانين في كتاب وكل مولدات الفكر البشري في مكتبة عظيمة. وفي عهده أعيد بناء قرطاجنة وقرنثية وكانت قد أعدت مؤامرة على القيصر لمقاومة سلطته المطلقة وكان زعيمها رجلاً يدعى كاسيوس ومن أعضائها العاملين بروتوس ابن أخي كاتون. فلما كان يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قتله المتآمرون بطعن الخناجر في دار مجلس الشيوخ.

— ٢٦ —

الاتفاق الثلاثي الثاني (٤٣ — ٣٠)

ذكر أوكتافيوس

وظن المتآمرون أنهم بفعلتهم قتلوا عامل الاستبداد في رومة ولكن القنصل انطوان لم يلبث أن أثار عليهم الشعب في مشهد دفن قيصر وطردهم من المدينة. ولم يكن لقيصر نسل بل كان له ابن أخ تبناه واسمه أوكتافيوس فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره أتى رومة ووعد جنود قيصر بأنه يوزع عليهم الأموال المكتوبة لهم في وصيته فاجتمعوا حواليه وائتمروا بأمره. وعند ذلك كلفه مجلس النواب أن يذهب والقنصلين في مقدمة جيشه لمقاتلة انطوان الذي كان محاصراً لبروتوس في مودينه فانتصر عليه (٤٣) ولكن القنصلين الرومانيين قتلا في خلال الموقعة فطلب أوكتافيوس منصب أحدهما فأبى ذلك مجلس الشيوخ عليه فدخل رومة في ثماني فرق من العساكر وقابله الشعب

بالتصفيق ومنحه المنصب الذي كان قد التمسه ووافق على أخذ الأموال التي أوحى بها قيصر لتوزع على الجنود.

الاتفاق الثلاثي الثاني وذكر حرب فيليبه

ولما تحققت أمنية أوكتافيوس اجتمع بأنطوان ولبيدوس في جزيرة صغيرة بنهر رنو وقضوا فيها ثلاثة أيام يعقدون اتفاقاً بينهم فقرروا أن يكون كل منهم قنصلاً الى خمس سنين وأن يكون لهم في هذه المدة حق التصرف بكل الوظائف وأن تكون أوامرهم نافذة وأن تكون بعد انتهاء مدتهم حكومة ولايتي ناربونيزا واسبانيا لأحدهم لبيدوس وحكومة ولايتي غاليا لثانيهم انطوان وحكومة ولايتي أفريقيا وصقليا وسردينيا لثالثهم أوكتافيوس. ثم وعد الثلاثة للاستيثاق من العساكر انهم يعطون كلاً منهم ألف درهم روماني (دراخم) ويقسمون عليهم ١٨ مدينة من أجمل مدا ن ايطاليا.

وعند وصولهم الى رومة أهلكوا مئات من كبرائها وأعيانها بينهم سيسرون وللتظاهر بالانصاف في هذه المجزرة الهائلة وافق كل منهم على قتل أحد أقاربه.

أما بروتس فبخروجه من ايطاليا ذهب الى أثينا وحشد جيشاً جراراً وكان كاسيوس قد استمال الجنود الرومانية الموجودة في الشرق وتقدم القائدان بهذين الجيشين حتى بلغا فيليبه في مقدونيا فوجدا أوكتافيوس أمام بروتوس وأنطوان أمام كاسيوس فانتصر في هذه الموقعة بروتوس بعض الانتصار ولكن كاسيوس دحر وانتحر. وبعد ذلك بعشرين يوماً دارت الدائرة على بروتوس فألقى بنفسه على سيفه وهو يقول «أيتها الفضيلة لست إلا اسماً» وقضى نحبه أما أساطيل الجمهورية فذهبت لتكون تحت إمرة سكستوس بمباي (٤٢) وهو أحد زعماء الثائرين.

ما جرى لأنطوان في الشرق وذكر حرب بيروزا

ولما صفا الجو لأوكتافيوس وأنطوان بعد الحرب المتقدم ذكرها اجتمعا وتناسيا ثالثهما لبيدوس وقررا أن يذهب انطوان آسيا ليأتي بالمال الذي وعد به العساكر ويبقى أوكتافيوس في ايطاليا ليقسم بينهم الأراضي الموعودة.

فاجتاز انطوان اغريقيا وآسيا وهو يجمع الضرائب عن عدة سنين دفعة واحدة ويبذّر في إنفاق الأموال وينتهب ثروات بعض الأغنياء الى أن وصل الى مدينة طرسوس فكتب الى كليوباترا ملكة مصر يسألها عن سبب إرسالها النجدة لكاسيوس أيام كان يحارب وطنه فأتت لتعتذر اليه بنفسها على أمل أن تتيمه بحبها كما تيمت قيصر من قبله فشغف بها وفقد لبه ونسي رومة وامرأته وأنصاره وتبعها الى الاسكندرية (٤١).

أما أوكتافيوس فعانى مشاق عظيمة في توزيع الأراضي وأغضب به كثيرين من الايطاليين فأثارهم عليه انطونيوس أخو أنطوان ليسقطه ولكن اغريبا قائد أوكتافيوس حصره في بيروزا وأجاعه فسلم (٤٠) وفرت امرأة انطوان وأنصاره من إيطاليا ولما علم أنطوان بما حدث نهض من وهدة خموله وأتى مدينة برندس فقابله فيها أوكتافيوس واتفقا على أن يتولى أوكتافيوس حكومة الغرب وأنطوان حكومة ولايات الشرق ولبيدوس حكومة أفريقيا واشترط على الأول أن يقاتل سكستوس وبمباي وعلى الثاني أن يحارب البارتيين (٣٩).

ذكر حكمة أوكتافيوس في إدارته وحملة أنطوان على البارتيين

وفي سنة ٣٨ انتشبت الحرب بين أوكتافيوس وسكستوس في بمباي وكان هذا حاكماً على صقليا وكورسيكا وسردينيا وأخائية بمقتضى معاهدة ميزينا المعقودة سنة ٣٩ فخانه أحد معاتيقه وسلم لأوكتافيوس كورسيكا وسردينيا مع ثلاث فرق رومانية وأنشأ أغريبا ميناء يوليوس وأصلح حال العمارة وأحكم نظام العساكر ولما التقى أوكتافيوس بسكستوس تغلب عليه في موقعة نولوك ففر سكستوس من وجهه الى آسيا فقتله فيها أحد ضباط انطوان (٣٥) ثم رأى أوكتافيوس أن يتخلص من زميله لبيدوس فأفسد عساكره عليه وأبعده الى سيرسية فعاش فيها ثلاثاً وعشرين سنة بعد انخذاله هذا.

ولما رجع أوكتافيوس الى رومة بالغ الشعب في الحفاوة به فأكرم الشعب وقطع دابر الفتن في رومة وايطاليا وفي البر والبحر وأعاد الأمن والراحة وعدل في الأحكام

وألغى بعض الضرائب. وفي سنة ٣٧ أتى أنطوان الى تارنتا فجدد ميثاق الاتفاق الى خمس سنين وعزم على اللحاق بقواده الى آسيا ليتولى حرب البارتيين بنفسه غير أن حبه لكليوباترا ثار في صدره فبقي في انطاكية واستدعى ملكة مصر إليها وأقرّ بأبوته للأولاد الذين رزقهم منها وزاد على مملكتها الساحل الممتد من النيل الى جبل طورس وكان ذلك كله من أملاك رومة وبعد التردد الطويل صح عزمه على مقاتلة البارتيين فمرّ من أرمينيا وكان لم يصطحب آلات الحصار معه فاضطر الى التقهقر وفقد عشرين ألف جندي في رجعته واتفق انه حدثت فتنة بين ملك الماديين وملك البارتيين وعلم أنطوان أن الأول يريد أن يتحد معه على عدوهما فلم ينتهز الفرصة للتعويض عن فشله ورجع مع كليوباترا الى الاسكندرية.

أما أوكتافيوس فبالغ في توطيد الأمن وطهر الأدرياتيك من القرصان ورومة واغريقية من القبائل النهابة السلابة وأضاف بلادها الى أملاك رومة.

وفي سنة ٣٢ كتب انطوان الى أوكتافيوس يطلب نصيبه من غنائم سكستوس فأجابه بتخطئته على ما ساء من سيرته. وقرأ بعد ذلك لمجلس الشيوخ ما كتبه انطوان في وصيته من أنه يهب قسماً كبيراً من الأملاك الرومانية التي هو مولى عليها لكليوباترا وأولادها فتكدر مجلس الشيوخ وقرر أن تشهر الحرب على مصر.

موقعة اكتيوم (٣١) ووفاة انطوان وانقلاب مصر الى ولاية رومانية (٣٠)

جمع أنطوان مئة ألف من الرجالة واثني عشر ألفاً من الخيالة و٥٠٠ مركب كبير وكان أوكتافيوس يتقدم ثمانين ألف راجل واثني عشر ألف خيال ومئتي مركب صغير. فالتقى الجمعان في اكتيوم على شاطىء أكارنانيا في اغريقية في ثاني ستمبر من سنة ٣١ ففرت كليوباترا في ستين من مراكبها وتبعها انطوان فسلمت بقية العمارة المصرية وقد تركت على هذه الصورة الدنيئة وقاوم الجيش سبعة أيام ثم سلم.

وبعد هذا الانتصار رجع أوكتافيوس لتسكين بعض الفتن التي حدثت في ايطاليا وفي السنة التالية عاد لمتابعة خصمه فتحصن انطوان في الاسكندرية غير أن كليوباترا خانته فانتحر فحاولت أن تستعطف أوكتافيوس المنتصر وتستميله بمحاسنها

فلم تفلح فوضعت ثعباناً على ثديها فأماتها (٣٠) وحول أوكتافيوس مصر وأملاكها الى ولاية وأصبح صاحب الأمر المطلق والسلطة الوحيدة في جميع البلاد الرومانية.

سقوط الجمهورية الرومانية وأسباب ذلك

جاء في حقائق الأخبار عن دول البحار ما ننقله بحرفة.

لو تبصر عاقل في أحوال رومية منذ نشأتها وما وصلت اليه من العظمة لرأى في العناصر التي كونتها أسباب ارتفاعها العظيم السريع وقد أظهر مجلس أعيانها (السناتو) التبصر والمهارة فكان يدير جميع الأعمال ويوجه مجهودات الأمة نحو غاية واحدة وهي توسيع أراضي الجمهورية وانه وإن كان ارتكب مظالم عديدة في بعض الأوقات إلا أنه مع ذلك أفاد الرومانيين إفادة لا تقدر وكان له تحت تصرفه جنود اتصفوا بالإقدام وخوض المعامع وقواد مهرة اشتهروا بالحزم وأصالة الرأي بحيث لم تبلغ أمة من الأمم ما بلغه الرومان في المعارف الحربية بحسب ما وصل الينا وكانت التربية كلها منصرفة في جعل الجندي يتصف بصفتي الشدة والقوة اللتين هما نتيجة نظام قوي وكانوا يعودونه أيضاً على تحمل المشاق والصبر على المؤلمات.

وكانت أمة الرومان التي ولدت أبطالاً دافعوا عن بلادهم بما خلد لهم الذكر الجميل متصفة ببساطة الأخلاق وعلو النفس وعدم المحاباة لدرجة عظيمة ولم يكن لديها شيء أعز عليها من منازلها وحقوقها وكانت متمسكة بأهداب الدين بسيطة المعيشة تمارس جميع فضائل الأبطال نعم وإن كانت الانشقاقات التي ظهرت بينهم في أول الأمر عطلت قوى الأمة مدة من الزمن إلا أنه لما اتحدت طائفة الأعيان مع بقية الأهالي بما أجراه الجانبان من التساهل لم يعطل نهضتها الحربية بعد ذلك معطل أصلاً ولقد كانت فتوحاتهم سبب اضمحلالهم وملاشاتهم فقد تفرقت الأمة بجميع البلدان وسفكت دماء أبطالها في مواقع النزال ولما ضعف أمرها عوضت أولادها في الحروب بجنود أخذتهم من الأرقاء المحررين فلم يكن لهم ما كان لأولئك من الخصال والاحساسات.

وعند ذلك تجددت بين الأعيان وبقية الأهالي الحروبات القديمة وبحصول هذه المنازعات ضعف عامل الوطنية والاخلاص في قلوب الوطنيين وفسدت الأخلاق وعم الاختلال حتى حصل أن حزب الأمة والأعيان تفانوا في مقاتلة بعضهم بعضاً وسقطت الأمة ومجلس أعيانها في هوة الاستعباد وقام الظلم الملوكي فألزمهم بإطاعة أوامره واجتناب نواهيه وكانت الجنود أثناء حروب الأحزاب التي تجتهد القبض على السلطة العليا يخضعون لمن يحسن مكافأتهم ويكثر لهم العطاء من الرؤساء وكان ماريوس هو أول من ارتكب هذا الخطأ الفاحش والكرم المشؤوم لأنه عوضاً عن أن يضم الى أعلامه أهل الوطن الحقيقيين جمع في جيشه كثيراً من مختلفي الأجناس والغايات جذبهم الى محبته بأن تركهم ينهبون ويخربون ما أرادوا ومتى أرادوا وقد كانت جنود سيلا وبومبيوس تقاتل بقصد الحصول على الغنيمة ليس إلا.

أما جيوش قيصر فهي وإن اتصفت بخلاف ذلك إلا أن إخلاصهم لم يكن إلا لنفس رئيسهم فقط وعوضاً عن أن يخدموا البلاد كانوا آلات للمظالم لكل من يريد استعمالهم في فائدة أطماعه وكانت الأمة إذ ذاك تمتهن للغاية الحرف اليدوية فكان العبيد هم المكلفون بالقيام عليها ولم يكن لها من التسلية وتمضية الوقت أثناء الفراغ إلا التردد على أمكنة اللهو واللعب ومحلات الاجتماعات العمومية ولما سلب ظلم القياصرة من المجامع العمومية المذكورة ما كان لها من القوة والتأثير صارت الأمة تتردد على محلات قتال الحيوانات المفترسة وأمكنة المصارعة ولما كان السناتو يوزع على الأمة الحنطة اللازمة لغذائها بلا مقابل صارت لا تتطلع إذ ذاك إلا الى شيئين وهما الخبز والألعاب تاركة ما اتصفت به قديماً من الشرف والكرم.

وكان برومة في عهد قيصر أكثر من ثلاثمائة ألف من المحتاجين الذين لا صناعة لهم وكانوا يعيشون من صدقات السناتو أو من النقود التي يمنحها لهم الناس بالطرقات وكانت جميع الأملاك والثروة محصورة في قبضة بعض الأعيان فكان لهم مزارع واسعة جداً حتى أنهم لا يتمكنون من مشاهدتها إلا وهم ركوب على الخيل وكان لهم برومة من القصور الفاخرة والمنتزهات الجميلة الغنّاء ما لا يحيط به الوصف وكانوا محاطين بالخدم والحشم المستعدين في كل وقت لقضاء مشتهياتهم وكانوا

يصرفون قسماً عظيماً من حياتهم في الولائم الفاخرة وكان لمهرة الطهاة عندهم المنزلة الرفيعة فكانوا يفوقون أمهر الصناع والمصورين اعتباراً.

ومن الأسباب التي ساعدت كثيراً على هذا التعبير الذي حصل للرومانيين دخول التمدن الاغريقي حينما دخل بلادهم عقب الحرب البونيقية الأولى وقد أفاد كثيراً في تقدم الفنون والعلوم والآداب ونبغ برومة عدة من فحول الشعراء مثل اينوس و بلوت وتيرانس ولوكريس وكاتول وغيرهم وقام أيضاً كثير من الخطباء مثل شيشرون وسيلا وغراك وغيرهم ومن المؤرخين مثل قيصر وسالوست وإن كان يعاب عليهم أنهم قلدوا زملاءهم من الاغريق تقليداً حطّ من شهرتهم اه.

—٢٧—

ارتقاء اوكتافيوس الى منصب الامبراطورية وذكر خلفائه من اليوليين[١] (٣١ قبل الميلاد ٦٨ بعده).

تأسيس الدولة الامبراطورية (٣٠— ١٢)

بعد وفاة انطوان واعادة مصر الى رومة ذهب اوكتافيوس الى آسيا لتسوية المسائل الشرقية وحل مشاكلها ثم قفل راجعاً الى رومة ووزع على كل من العساكر بعد أن زف زفاف الانتصار الف سسترس وعلى كل من السكان اربعمئة سسترس. وأقفل هيكل جانوس علامة ان الحروب انتهت.

وبقي اوكتافيوس قنصلاً مدة ست سنين ثم استمنح من مجلس الشيوخ لقب امبراطور أو قائد عام لجميع الجيوش فأصبح القواد والعساكر من ذلك اليوم يقسمون يمين الطاعة والاعانة له. ثم عين قائده الامين اغريبا قنصلاً معه وتوليا

(١) نسبة الى يوليوس قيصر.

المراقبة على الاخلاق وكانا بذلك يبعدان عن المجلس كل عضو موجود فيه أو مترشح له لا يوافق على النظام الجديد وتولى اوكتافيوس امارة مجلس الشيوخ فكان هو يدير مداولاته ويبدي الرأي الأول فيه.

وبعد مدة منحه المجلس البروقنصلية أو منصب الحاكم على جميع الولايات فأبى ذلك واكتفى بأن يكون حاكماً على الولايات ذات الفتن أو المخشي عليها من اعداء مجاورين لها (٢٧) وابقى سائر الولايات تحت ادارة الشيوخ فكبر عمله هذا في عيونهم ومنحوه بعد ثلاث سنين السلطة النيابية ثم القنصلية مدة حياته كلها ومراقبة الاخلاق وعند وفاة لبيدوس جعل في منصب الكاهن الأكبر.

وعلى هذا النمط وضع في يده زمام جميع السلطات من نيابية وقضائية ومالية وادارية وغيرها وكان غير مسؤول وكان تارة يعين الموظفين بامره وطوراً يشير الى من يريد تعيينه فيوافق عليه الشعب في مجتمعاته. وقد اقام الحرس لخفارته وكان مجلس الشيوخ والجنود والشعب وأهل الولايات يقسمون يمين الطاعة والامانة له في غرة شهر يناير من كل سنة.

واستمر ملكه اربعا واربعين سنة قضاها في الحكم العادل وحكمة التدبير والادارة ومما يخلق بالذكر انه زاد اختصاصات مجلس الشيوخ فجعله يفصل في المشكلات السياسية والدعاوى القضائية الكبيرة.

النظامين العسكري والمالي

وجعل اوكتافيوس الجيش دائماً وفرقه على التخوم في المعسكرات المحصنة لصد غارات البرابرة وسن القوانين لتعيين مدة خدمة كل عسكري عاملاً وغير عامل. وبث الاساطيل في فريجوس وميزينا ورافينا لخفارة البحر المتوسط وفي الدانوب والبحر الاسود. وجعل القواد نواباً عنه فلم يزفوا زفاف النصر من ذلك الحين.

وكما أصلح نظام العسكرية أصلح كذلك نظام الادارة والمالية. وكانت في رومة خزينتان احداهما للأمير وهي التي تأتيها ايرادات الولايات التي تولى أوكتافيوس

حكومتها على يد عمال اخصاء له والثانية الخزينة العامة وهي التي تأتيها ايرادات الولايات التي يديرها عمال من قبل مجلس الشيوخ. ولكن كلتا الخزينتين كانتا تحت تصرف الامير. ولما وجد اوكتافيوس ان الايرادات لا تكفي لجميع النفقات مع ما استجد منها أوجد المكس وانشأ ضرائب جديدة.

حسن ادارة اوغسطس في رومة وفي الولايات

كان أغسطس يقضي جميع اوقاته مهتماً بشؤون المملكة كبيرها وصغيرها وينفق من جيبه للتخفيف عن البلاد المنكوبة أو لتجديد بناء التي تدمر منها بحوادث طبيعية كما فعل لاعادة تشييد ترال واللاذقية وبافوس. وفي احدى السنين ادى من ماله ضريبة جميع ولاية اسيا. وحظر في رومة والولايات معاملة القسوة والعنف وعهد الى ثلاثة مهندسين ان يمسحوا اراضي المملكة ويصفوها فقسم الضرائب عليها بالانصاف وفتح الطرق وسير فيها البرد وسهل سبل التجارة والمواصلات.

واقام في رومة الملاعب والملاهي وزينها بما شيده من الابنية العظيمة واوجد فيها الشرطة للخفارة في النهار والحراس الساهرين في الليل وكان يعاشر كبار رجاله كميسين وهوراس وويرجيل واغريبا.

سياسته الخارجية وذكر انكسار فاروس (٩ للميلاد)

بعد موقعة أكتوم واقفال هيكل جانوس لم يحدث ما يخلق بالذكر في الشرق سوى ان رومة طلبت من البارتيين ارجاع رايات كراسوس أو محاربهم فلبوا مطيعين.

واما في اوروبا فاريد توسيع السلطنة الى تخومها الطبيعية لتكون ايطاليا واغريقيا ومقدونيا في مأمن من الغارات فوجب ان يوضع مجرى الدانوب تحت سلطة رومة وابعاد القبائل الجرمانية عن ضفة نهر الرين اليمنى ليمتنع اقلاقهم للرومانيين على الضفة اليسرى.

ولاتمام هذه المقاصد ارسل القائدان دروزوس وطيباريوس الى تلك الجهات فاوصلا تخوم رومة الى أعلى الدانوب (٩) وبعد وفاة دروزوس قضى أخوه

طيباريوس فصل الشتآء في وسط جرمانيا وكان في بوهيميا في هذه الأثناء زعيم يدعى ماركو من ماربود قد اشتدت صولته حتى حول تلك البلاد الى مملكة له وجعل حاميتها سبعين الف راجل و٤٠٠٠ خيال. فتقدم طيباريوس لمحاربته ولكن طوائف البانونيين والدلماتيين ثاروا عليه فعاهد ماربود على الصلح ورجع فعاقب العصاة بعد حروب طويلة.

وبعد ذلك علم في رومة ان القائد فاروس خدعه زعيم شيروسكي يدعى هرمن فجره الى مكمن ذبحه فيه مع ثلاث فرق رومانية ورد بهذا الانتصار تخوم الدولة الرومانية من أقصى جرمانيا الشمالية الى نهر الرين فاشتد الجزع عند الرومانيين ولكن من حسن طالعهم ان ماربود وقعت في نفسه غيرة من هذا البطل فتخلى عنه ولم ينهض لمساعدته فتمكن طيباريوس من تعزيز الحصون الرومانية على الرين دفعا لهجمات ذلك العدو العاتي واما هرمن فاكتفى بانتصاره وانقاذه بلاده فلم يخرج من المقاومة الى المهاجمة. وتوفي اغسطس بعد هذا الفشل بخمس سنين (١٤) للميلاد وقد سمي عصره باسمه لتكاثر المتفردين من أهل الفنون والآداب في عهده فقد التقى ببابه تيت ليف وهوراس وويرجيل وكان قبلهم بزمان يسير لوكريبس وكاتول وسيسرون وسالوست وقيصر.

وممن اشتهروا كثيراً في ذلك العهد الشعراء فاروس ولم يبق اثر من مآسيه «رواياته» وتيبول صاحب القصائد الشجية الرقيقة والمراثي المؤثرة وغاللوس وبروبرس واوفيد والكاتب المتفنن فارون وصاحب التاريخ العام تروغس بمباي وصاحب موسوعات العلوم سلس وصاحب الجغرافية الكبيرة سترابون اليوناني الأصل.

ملك طيباريوس (١٤ — ٣٧)

هو ابن فولفيا ورجل كان متزوجا بها قبل أغسطس. تبناه اغسطس واشركه معه في منصب النيابة وبموته استخلفه على الملك. فلم تقم في وجهه معارضة سوى أن بعض الفرق الرومانية ثارت في بانونيا والرين فسكنها ثم ارسل متبناه وابن أخيه

جرمانيكوس ليقودُها الى ما وراء الرين فوصل بها الى غابة توتبرج التي ذبح فاروس وجنوده فيها ولم يقف امامه الجرمانيون في موقف أثناء سيره . وفي الحرب الثانية قاوموه مقاومة اشد فدحرهم وقتل كثيراً منهم في موقعتين عظيمتين انتقم فيهما لفاروس . ثم رجع الى غاليا فوجد كتابين يستدعيه طيباريوس بهما لاعادة تعيينه قنصلاً ولارساله في مهمة كبيرة الى آسيا .

وكان طيباريوس يحكم باللين ويأبى المبالغة في الحفاوة به وتشييد الهياكل له ويأنف من تملقات مجلس الشيوخ وغيره . ويرسل الحكام المهرة الى الولايات ويتحاشى زيادة الضرائب ويخفف النكبات العظيمة عن المصابين بها . ومن ذلك رفعه الخراج مدة خمس سنين عن اثنتي عشرة مدينة دمرتها الزلازل في آسيا .

ولما أرسل جرمانيكوس الى الشرق اخضع له البارتيين بدون ان يشهر سيفاً عليهم وحول كابادوكيا وكوماجينا الى ولايتين رومانيتين ومنح ملك ارمينيا لأحد انصار السلطنة الرومانية ثم سافر الى مصر وفي أثناء رجوعه منها وقعت نفرة شديدة بينه وبين بيزون حاكم سوريا ثم توفي بعد ذلك بقليل فقيل لشدة سرور بيزون بموته انه هو الذي سقاه السم سنة (٢٠ للميلاد) واستقدم طيباريوس بيزون رغم انفه وحاكمه وقتله بدعوى انه شق عصا الطاعة من حيث لم يمتثل ما أمره به جرمانيكوس من تركه ولايته بل استعد لاقامة حرب أهلية وانقضت السنون التسع الأولى من حكم طيباريوس بالسكينة والراحة ثم قتل ابنه دروزوس في دسيسة فانقلب وتغير .

وكان رجل يدعى سيجان قد عين في وظيفة رئيس للحرس الامبراطوري وتقرب الى طيباريوس لأنه أنقذه من خطر وقع فيه فطمع الرجل في أكثر مما نال وكان هو قاتل دروزوس وكان يشرئب عنقه الى سرير السلطنة . ولما رأى أن طيباريوس كثرت وساوسه ومخاوفه واحزانه على أثر وفاة ولديه الاثنين أخذ كل يوم يريه شكلاً جديداً من أشكال الدسائس المدبرة لقتله فأصبح ظالماً قاسياً سفاكاً للدماء حذراً من جميع الناس . وفي سنة ٢٦ خرج من رومة واعتزل في أحد قصوره الجميلة وكان سيجان الوسيط بينه وبين شعبه ولم يفتأ يوغر صدره حتى حمله على

حبس امرأة جرمانيكوس وولدين له آخرين ماتوا جميعاً ولم ينج أصغر أولاده من شدته الا لحداثة سنه .

ولما تمت لسيجان هذه التمهيدات طلب أن يتزوج بامرأة دروزوس ليكون ذلك وسيلته في الوصول الى الخلافة فأبى طيباريوس فأخذ يدس عليه الدسائس ليقتله ولكنه شعر بالامر وقبض على الرجل في مجلس الشيوخ فمزق الشعب جثته . ولم يبق لقسوة الامبراطور حد بعد هذه المصائب وكان الذين أماتهم عدداً كبيراً .

وقد حدثت في أواخر عهده ثورات في غاليا وأفريقيا و بارتا فأخمدها وملك على ارمينيا رجلاً من صنائع رومة وتوفي (٣٧) في الثامنة والسبعين من عمره .

ذكر كليكولا (٣٧— ٤١)

وخلفه كليكولا بن جرمانيكوس فاستبشرت به رومة وكانت أول أيام حكمه زاهرة محيية للآمال ثم أصابه مرض أحدث اضطراباً في عقله فأخذ يحارب الآلهة والطبيعة و يخالف الشرائع والنواميس ومن غريب أمره أنه أراد أن يبتني قنطرة على بحر فأهلك في تشييدها صفوة الشبان الشرفاء في رومة . وفي أقل من سنتين أنفق ثلاثمئة مليون من النقود التي أبقاها طيباريوس في الخزينة ثم أخذ ينهب الموسرين و يقتلهم ليحصل على المال . وبعد أربع سنين من توليه قتله نائب يدعى شيرياس في ٢٤ يناير من سنة ٤١ .

ذكر كلود (٤١— ٥٤)

وكان شيرياس من حزب الجمهورية فلما قتل الامبراطور توهم الناس أن الجمهورية اعيدت الى رومة ولكن العساكر ابوا ذلك واتوا بكلود أخي جرمانيكوس واجلسوه على السرير وكان أديباً كتب تاريخ بلاد ألاتروسك وقرطاجنة ولم يكن يصلح للحكم لضعف رأيه ولذلك كانت السلطة كلها لامرأته ميسالين الشهيرة بمعاصيها ولمعاتيقه بوليب ونارسيس وبالاس . ومع ذلك فقد عملت في عهده بعض الاعمال النافعة منها ميناء اوستيا وتجفيف بحيرة فوسين . وافتتح قواده موريتانيا ونصف

بريطانيا وكسروا شوكة الجرمانيين وأيدوا سلطة رومة على البسفور وحولوا التراس وليسيا واليهودية الى ولايات رومانية.

وحدث ان كلود اكتشف عشر مؤامرات متتابعة لقتله فأخذ ينتقم انتقاماً شديداً وقتل خمسة وثلاثين من الشيوخ و ٣٠٠ من الاعيان عدا الذين اماتتهم ميسالين. ولم تقف جراءة هذه المرأة وقحتها عند حد بل تزوجت في حياة زوجها ودون أن تكون طالقاً منه برجل يدعى سيليوس من اعضاء مجلس الشيوخ فخاف المعاتيق منها واستصدروا امراً بقتلها (٤٨) وزوجوا الامبراطور باغريبينة ابنة أخيه وكان لها ابن يدعى نيرون ارادت ايصاله الى الملك دون بريتانيكوس بن كلود واستخدمت لمقاصدها رجلاً يدعى بوروس عينته رئيساً للقضاء ورجلاً آخر يدعى سيناك عينته استاذاً لنيرون وبعد حين سمت كلود فاماتته (٥٤).

ذكر نيرون (٥٤ — ٦٨)

وكان كلود عندما وطىء العرش قد وزع على كل من الحرس والعساكر قدراً من المال يساوي اربعة آلاف فرنك فسر ذلك الجنود وجعلوه شبه قانون محتوم على كل ملك جديد وهذا هو السبب في كثرة ما كانوا يثورون على ملوكهم بعد ذلك حتى جعلوا السلطنة كالمتاع المعروض للمشترين بالمزايدة.

اما نيرون فكان في الخمس السنين الأولى من ملكه عادلاً حليماً ممدوح السيرة. وعرض عليه يوماً امر قاض بقتل احد الناس للتوقيع عليه فقال ليتني كنت أمياً .ذلك لكراهته أن يوافق على مثل ذلك الامر.

غير أن أمه كانت تحاول ان تكون صاحبة السلطة الأولى في القصر فحال سيناك وبوروس دون مرادها لئلا يقع نيرون في مثل ما وقع فيه كلود قبله فتحزبت عليهما اغريبينه مع معتوق يدعى بالاس فاستصدرا أمراً بابعاد هذا المعتوق فانذرت اغريبينه ابنها بأنها ستحتال لاعادة بريتانيكوس الى سريره المغتصب فاماته مسموماً (٥٥) ثم تزوج بامرأة رجل يدعى اوتون من صنائعه فوبخته امه على عمله هذا فأمر بتغريقها في احدى السفن فنجت سابحة فارسل اليها جنوداً قتلوها ثم أمات امرأته اكتافيا.

وزعم أنه من أهل الآداب والفنون فأخذ يسوق المركبات في ساحات السباق و ينشد من قصائده في الملاعب وهو يضرب على العود لتوقيع انشاده على اللحن . و يقال انه هو الذي أحدث الحريق الهائل في رومة (٦٤) والارجح أنه ليس المحدث له ولكنه اتخذه وسيلة للايقاع بالمسيحيين. ومن أفظع ما فعله انه البس بعضهم جلود السباع لتمزقهم الكلاب وطلى جلود الآخرين بغراء الاشجار واوقدهم في الليل كالمشاعل في حدائقه على مشهد من الشعب الذي كان مدعواً الى مأدبة في قصره .

وكان نيرون يكثر من النفي والقتل ليحصل على الاموال فلما ضاقت صدور الكبراء وأهل الفضيلة تآمروا عليه فاماتهم ومن جنونه انه ذهب الى اثينا سنة ٦٦ ليحضر العابها و يشترك فيها فاهدوه أكاليل كثيرة ليتملقوه .

واتفق انه وقع في مرماح اولمبيا وصفق له مع ذلك استحساناً فسر سروراً عظيماً ومنح القوم حرية بلادهم غير أن رومة تعبت من حكم ذلك «المغني القبيح» كما قال بعض كبرائها وكان في ذلك الوقت رجل يدعى فيندكس حاكماً على غاليا فعرض على غلبا الامبراطورية فقبلها وقامت الثورة على قدم وساق حتى وصلت الى نفس رومة ففر نيرون ولجأ الى أرض احد معاتيقه واذ كاد يؤخذ فيها طعن نفسه بخنجر وهو يقول سيفقد العالم مني منشداً فريداً . و بوفاته ختمت سلالة القياصرة الذين توارثوا الملك بالتبني (٦٨) .

—٢٨—

دولة الفلافيين (٦٩ — ٩٦)

ذكر غلبا واوتون وفيتالوس (٦٨ — ٦٩)

وكان الحرس قد وعدوا باموال طائلة اذا اوصلوا القائد غلبا الى العرش فلما استوى فيه ابى انجاز الوعد فذبحوه بايعاز من رجل مثقل بالديون يدعى اوتون كان صديق نيرون ولم يقربه غلبا اليه .

ولما شاعت وفاة غلبا نادى جيش الرين في كولونيا بقائده فيتالوس امبراطوراً وتقدموا الى بورياك بقرب كريمون فظفروا فيها ظفراً مبيناً على اوتون فانتحر.

وكان فيتالوس طماعاً شرهاً فانهمك في لذاته وحلل كل محرم للعساكر. وعندما رأى فسبازيان قائد الجيش الروماني في الشرق ان القوة توصل الى الملك حمل عساكره على مبايعته وعهد الى ابنه تيطوس انجاز حصار مدينة القدس واخضاع اليهود الثائرين وذهب فاحتل مصر وأرسل منها قائده موسيان الى ايطاليا فسبقه قائد آخر لفسبازيان يدعى انطونيوس بريموس ودحر جيش فيتالوس بقرب كريمون ودخل رومة. وقتل فيتالوس (في ٢٠ دسمبر سنة ٦٨).

ذكر فسبازيانوس (٦٩ــ ٧٩)

كان هذا الامبراطور ابن احد جباة الاموال وتوصل بجدة وكفاءته الى اسمى المراتب. وكان كارهاً للترف مستقيماً محباً للشغل. ولما علم بمصر ان قواده انتصروا في ايطاليا وان فيتالوس مات جاء رومة وعزل غير اللائقين من مناصبهم واصلح احوال المالية التي تركها نيرون في أشد الارتباك واعاد تشييد الكابيتول وكانت النار قد هدمته وشيد هيكل السلام ومكتبة كبيرة.

وعين أساتذة لتدريس الفصاحة برواتب تدفعها اليهم الحكومة وفي هذه الاثناء كان ابنه تيطوس قد انتصر على اليهود الذين قاوموه اشد المقاومة فهدم القدس واجرى سكة الحراثة على ارضها يمحو اثرها (٦٥ــ ٧٠) وكان قائده سيرياليس قد فاز من جهة أخرى على الزعيم الباتافي سيبيليس الذي ثار لتحرير وطنه ودعا الغاليين للثورة معه. وكان انكساره بسبب انقسام الغاليين وعدم اتفاقهم على رأي غير أنه قاوم الرومانيين وهم محاصرون له في جزيرته ولم يسلم الا على شرط أن تعتبر باتافيا حليفة لروما لا تابعة لها. غير انه قبل بأن تقدم بلاده الجنود لرومة عند مسيس الحاجة. وبعد ان حكم فسبازيانوس عشر سنين اصابه مرض عضال وقبيل ان تدركه منيته وقف بين المحدقين به وقال ان الامبراطور لا ينبغي أن يموت الا واقفاً وقضى نحبه (٢٣ جونيو ٧٩).

ذكر تيطوس (٧٩— ٨١)

وخلفه ابنه تيطوس الذي اشتهر في حروبه بجرمانيا وبريطانيا واليهودية. وكان يخشى أن يكون سكيراً ظالماً فاخلف الظنون فيه واحسن وعدل وعامل الناس بالحسنى فلقبوه بسعادة الجنس البشري وهو الذي كان يقول حين يمضي يوم عليه لا يعمل فيه عملاً حسناً قد اضعت نهاري.

غير ان مصائب كبيرة وقعت على السلطنة في عهده القصير فقد شبت النار في رومة فاحرقت قسماً كبيراً منها مدة ثلاثة أيام. وتفشى الطاعون في ايطاليا فذهب بخلق كثير وفي غرة نوفمبر من سنة ٧٩ انفجر بركان الفيزوف فدفن تحت رماده وجماره مدائن هركالانوم وبومبايه وستابيس ولم يملك تيطوس الا سبعة وعشرين شهراً (٨١).

ذكر دوميسيان (٨١— ٩٦).

وفي ساعة وفاته نودي بأخيه دوميسيان خلفاً له فعدل في أول حكمه وشدد المراقبة على حكام الولايات ولكنه لم يلبث ان استولى عليه الخوف من الدسائس وخصوصاً بعد ثورة عامله على جرمانيا العليا فقتل ابن عمه سابينوس وابن عمه الآخر فلابيوس كليمانس وابنة أخيه دوميسليا وكثيرين من الشيوخ والشرفاء ثم قتله رجال بلاطه في ١٨ ستمبر سنة ٩٩.

وفي عهده تم افتتاح القسم الأعظم من بريطانيا على يد صهره اغريكولا.

—٢٩—

دولة الانطونيين (٩٦— ١٩٢)

ذكر نرفا (٩٦— ٩٨)

ولما انقرضت السلالة الفلافية انتخب مجلس الشيوخ رجلاً طاعناً في السن

يدعى نرفا وبه ابتدأ عهد الانطونيين الذي لقب «بأفضل زمان للانسانية» ولم يأت نرفا عملاً يذكر لشيخوخته ولكنه تبنى رجلاً اسبانياً يدعى تراجان كان أفضل قائد في المملكة.

ذكر تراجان (٩٨— ١١٧)

وعند وفاة نرفا خلفه تراجان وكان في كولونيا فبقي فيها سنة الى أن أتم تأمين التخوم واعادة النظام للجيش ثم دخل رومة مع امرأته ماشياً وطرد من البلاط الوشاة وخفف الضرائب وباع القصور التي أخذها سلفاؤه سلباً من الاغنياء وعمل في رومه الاعمال النافعة لها أو التي تزيد حليتها كتشييده عمود تراجان واعاد لمجلس الشيوخ أكثر سلطته فكان يتناقش في الأمور المهمة واختيار اللائقين للمناصب واعاد انتخابات الشعب أيضاً وكان يحضرها كسائر المرشحين الا أن ارادته كانت فوقها.

وفي جملة مآثره اتمام الطريق التي كانت تصل من البحر الأسود الى بلاد غاليا واحتفار مينائي انكونه وسيفيتا فيكيا على نفقته الخاصة وتشييد اعظم مكتبة في رومة وارسال الطوارىء الرومانية الى مواضع مختلفة تارة لتكون مراكز عسكرية وطوراً لتكون مراكز تجارية ولا يؤاخذ هذا الامبراطور الا على اضطهاده للمسيحيين فهو لم يأذن بالبحث عنهم ولكنه كان يأمر بقتل الذين يعرفون منهم. وهو نفسه حكم بالاعدام على اغناطيوس اسقف انطاكية.

وفي سنة ١٠١ سير تراجان حملة على الداسيين قادها بنفسه فاجتاز الدانوب وتغلب عليهم في ثلاث معارك واخذ عاصمتهم وعقد معهم صلحاً (١٠٣) وفي سنة ١٠٤ ثاروا ثانية فقتل زعيمهم دسيبال ودحرهم وحول بلادهم الى ولاية ووطن فيها الطوارىء وأوجد اسباب العمران فنمت وازهرت ولا يزال الى اليوم على شواطىء الدانوب شعب برمته يتكلم بلغة هي اقرب شيء الى لغة الرومانيين في ذلك الزمان.

وحارب تراجان أيضاً بعض أمم الشرق فحول ارمينيا الى ولاية وادخل ملكي كولشيدا وايبيريا في طاعته وعين أميراً للألبانيين من قواده يدعى كورن وأخضع جزءاً

من بلاد العرب وتقدم الى ما بين النهرين فاستولى على كتازيفون وسلوقه وسوسه. ومنها هبط الى خليج العجم وقال لو كنت شاباً لفتحت الهند غير ان هذه البلاد كلها لم تلبث أن ثارت عليه بعد رجوعه كما ثار اليهود ولم يستطع ان يعود اليها لأن منيته ادركته في سلينونت في سيليسيا (١١ اغسطس سنة ١١٧)

ذكر هادريان (١١٧ - ١٣٨)

وخلفه متبناه هادريان فعدل عن متابعة فتوحاته الشرقية التي لا فائدة لها وذهب الى بريطانيا لصد غارات أهل الجبال فيها واقام فيها السور العظيم الباقية آثاره العظيمة الى الآن من مصب نهر التاين الى خليج سولواي.

ثم حارب اليهود الذين ثاروا عليه دفاعاً عن دينهم تحت قيادة برقوشباس الذي زعم أنه المسيح الموعود فقتل منهم ٦٠٠ الف وباع من بقي وتم من ذلك اليوم تفرق اليهود.

اما ادارة هادريان الداخلية فكانت حسنة. فانه تنازل للولايات عن متأخرات الاموال من ست عشرة سنة ومحا ما كان باقيا من أشكال الدستور الجمهوري وقسم مناصب المملكة الى ثلاثة أقسام للحكومة وللبلاط وللجيش. وأسس أربع وزارات لانجاز الاعمال اليومية وجعل فوقها وزارة سامية مؤلفة من مديري الحرس الذين منحهم السلطتين المدنية والعسكرية. وأمر بجمع القوانين التي سنها سلفاؤه ونشرها وانفذها سنة ١٣١ وسن للبلاط والجيش نظامات شديدة مفيدة ومن اصلاحاته المتعلقة بالجندية اجراء التمرينات وتعيين السن الذي يجوز أن يرقى العسكري فيه.

وزار هادريانوس جميع ولاياته وكان يدخل المدائن ماشياً بلا طنطنة ولا احتفال وابقى في كثير منها ابنية شامخة وآثاراً فاخرة.

على أن حسنات هذا الأمير تنسي فساد اخلاقه وما ظهر من قسوته في بعض الاحوال وخصوصاً في آخر عمره وكانت وفاته في بايس في ١٢ يوليو سنة ١٣٨.

ذكر انطونين (١٣٨ — ١٦١)

ولد انطونين في مدينة نيم وتبناه هادريان على شرط ان يتبنى هو مارك اوريل ولوسيوس فيروس .

تولى الملك مدة ثلاث وعشرين سنة في سلام تام ودعاه الرومانيون ابا الجنس البشري وقد أحسن ادارة المالية وعمل اعمالاً نافعة منها التخفيف عن المدن التي أصيبت بنكبات كرومة وانطاكية وناربونا ورودس . وعقدت مؤامرتان عليه فقتل زعماءهما فقط ولم يضطهد المسيحيين ولم يحارب حرباً تذكر .

ذكر مارك أوريل (١٦١ — ١٨٠)

لقب هذا الامبراطور بالفيلسوف وكان عادلاً حكيماً . شطر لقب اوغسطس بينه وبين لوسيوس فيروس الذي كان صهره واخاه بالتبني وارسله الى الشرق لتسكينه فاقام في انطاكية ينهمك في الملذات وعهد القيادة الى افيدوس كاسيوس ففتح كتازيفون وسلوقه .

وحدث في تلك الأثناء ان الطاعون تفشى في رومه والزلازل اقلقت جميع المملكة واشقتها والشعوب الجرمانية المقيمة على شواطىء الدانوب ثارت يداً واحدة فلم يخف مارك اوريل من مفاجأة تلك الاخطار وقاتل الماركومانيين قتالاً شديداً وكان في اثناء الحرب يكتب حكمه العجيبة التي جمعت في اثني عشر كتاباً .

ثم ثارت عليه شعوب اخرى جرمانية كالروكسولانيين والفندالسيين وغيرهم وتقدموا الى جوار اكيله فزحف عليهم الامبراطوران فارتدوا على الاعقاب بدون قتال وتوفي فيروس في رجوعه من هذه الحملة (دسمبر ١٦٩) . ولم يلبث الجرمانيون أن عادوا الى جوار اكيله فباع مارك اوريل كل رياش ومتاع نفيس في القصر وجند الارقاء والمبارزين والبرابرة (١٧٢) ونكل بالثائرين وعقد الصلح مع تلك الأقوام .

ثم ذهب من الدانوب الى سوريا مسرعاً (١٧٥) لقمع ثورة قتل فيها الجنود قائدهم كاسيوس فثار الماركومانيون والباسترانيون والقوطيون مرة أخرى (١٧٨)

فهرع لملاقاتهم مع ابنه كومود ولكن اجله أدركه قبل أن ينجز هذه الحرب وكانت وفاته في ٧ مارس من سنة ١٨٠ في فندوبونه (ويانه).

ذكر كومود ١٨٠ - ١٩٢

عندما خلف اباه كان في التاسعة عشرة من العمر فعقد صلحاً مع الجرمانيين وأخذ ٢٠٠٠٠ منهم لخدمة المملكة.

ورجع الى رومه فنزل أكثر من سبع مئة مرة في ميدان المبارزة ومسابقة المركبات. وفي سنة ١٨٦ ذبح مدير الحرس فعين مكانه معتوقاً يدعى كلياندر كان يرتشي ويظلم العباد مدة ثلاث سنين ثم قتله الشعب في ثورة قام بها لشدة ما تألم من المجاعة والطاعون. فأصدر كومود امره بقتل كثيرين من أقاربه والشيوخ والمتشرعين فتآمرت عليه قرينته مارسيا وأحد حجابه وقائد حرسه وارسلوا اليه رجلاً ذا شدة فخنقه (دسمبر سنة ١٩٢).

— ٣٠ —

الفوضى العسكرية (١٩٢ — ٢٨٥)

ذكر برتيناكس وديدوس جوليانوس (١٩٢ — ١٩٣)

ونودي بمحافظ المدينة برتيناكس امبراطوراً فاراد اعادة الأمن والنظام فذبح في قصره (٢٨ مارس) وعند ذلك جعلت العساكر تخت القياصرة بالمزايدة فبيع لأحد مشتريين وهو القنصل السابق ديدوس جونيانوس بستة آلاف ومئتين وخمسين درهماً رومانياً يعطيها لكل من الجنود ولكنه وعد بأكثر مما كان يستطيع وكاد يثور العساكر عليه لو لم يشغلهم ما علموه من أن الفرق الرومانية في بريطانيا بايعت زعيمها البينوس وفرق سوريا انتخبت بسينوس نيجر وفرق ايليريا انتخبت سبتيم سيفيروس الأفريقي.

وإذ كان هذا الأقرب الى رومه زحف عليها وعند دنوه منها اعترف به مجلس الشيوخ وأسقط ديدوس وقتله وعاقب قتلة برتيناكس.

ذكر سبتيم سفيروس (١٩٣ — ٢١١)

الغى الحرس البريتوري المؤلف من الشرفاء واستبدله بحرس آخر من العامة أكثر منه عدداً وانتصر على نيجر في آسيا الصغرى فقتل في فراره (١٩٤) ثم على البينوس بقرب ليون (١٩٧) وعند رجوعه الى رومه أهلك اربعين اسرة شريفة وامات غيرها بعد ذلك واضطهد المسيحيين ولكنه انفق بقصد ودبر المال بحكمة وزاد امتيازات العساكر الا أنه اشتد عليهم رغبة في النظام والطاعة وحارب مقاوميه في بريطانيا فانتصر غير أن الثائرين كانوا يناوشونه شراذم وبهذه الطريقة قتلوا نحو خمسين الفا من جنوده فابتنى سوراً ضخماً لصد غاراتهم ثم مرض وزاد اشتداد علته ما علمه من أن ابنه باسيان الملقب بكاراكلا كان قد دبر مكيدة لقتله وتوفي وهو يقول «كنت كل شيء فوجدت الكل لا شيء» وآخر كلمة خرجت من فمه كانت قوله لنشتغل. (٢١١) وترك سبتيم ولدين كاراكلا وجيتا.

ذكر كاراكلا (٢١١)

وكان هذان الاميران كثيراً ما يختصمان فلما تولى كاراكلا ودخل رومة طعن أخاه بخنجر فاماته وقتل عشرين ألفاً من أنصاره. واشتهر هذا الامبراطور بشدته وقسوته وكان حكمه شؤماً في الولايات. ومن عجائب ظلمه أنها ظهرت قصائد طعن عليه في الاسكندرية فأمر بذبح أهلها وهم عزل بلا أسلحة. الا أن رئيس مئة من الضباط قتله انتقاماً منه لاهانة (٢١٧) فأراح الدنيا.

ذكر ماكرين (٢١٧)

فبايع الجيش ماكرين رئيس الحرس. فحارب البارتيين وتغلب عليهم في موقعة عظيمة فيما بين النهرين وأحب أن يضبط العساكر فمقتوه وذبحوه واقاموا مكانه باسيانوس الكاهن الأكبر لاله الجبل احد المعبودات السورية.

ذكر اله الجبل (٢١٨)

هذا الشاب الجميل المنظر كان انثا الى درجة يخجل معها نيرون وقد فرش طرقه في قصره بالتبر وتراب الفضة وكان يستحم في ماء الورد واقام لنفسه مجلساً من النساء فلم يلبث أن قتله العساكر في ١١ مارس من سنة ٢٢٢ وانتخبوا ابن عمه اسكندر وكان في الرابعة عشرة فتولت امه وجدته ادارة الشؤون عنه.

ذكر اسكندر سفيروس (٢٢٢)

فربتاه على الفضائل واستوزرتا له المتشرعين بولس واوليانوس فاقاما لارشاده مجلساً فيه اثنا عشر عضواً من الاعيان. وقضت المملكة في عهده بضع سنين في الأمن والراحة وكان مكتوباً على احد جوانب قصره «افعل بغيرك ما تريد أن يفعله غيرك بك».

وحدث في ذلك الوقت أن رجلاً ساسانياً يدعى ارتكزرسيس دمر مملكة البارتيين وأقام على أثرها مملكة فارسية وزعم أنه سليل ملوك الفرس الأقدمين وطلب ان ترد جميع الولايات القديمة الى مملكته فحاربه اسكندر ولكنه لم يوفق اذ جاءه نبأ غارة من الجرمانيين على غاليا وايليريا فهرع لصدها فقتله جنوده وقد ثاروا عليه (٢٣٥).

ذكر ماكسيمانوس (٢٣٥) وستة أمبراطرة تولوا في تسع سنين

هو قوطي الأصل رعي الانعام في صباه وكان طوله ٧ أقدام ومأكله ٣٠ ليبره من اللحم ومشربه زجاجة كبيرة من الخمر بايعه العساكر وهو في بلاد التراس فعامل السلطنة معاملة بلاد فتحها ولم يجسر على الدخول قط الى رومة وكان ينهب ويقتل بلا حساب ولا قانون فمل الجند منه واهلكوه حين كان يحاصر أكيلة ونودي بغورديان الأول وابنه غورديان الثاني امبراطورين في افريقيا فاعترف بهما مجلس الشيوخ ولما اسقطا عين المجلس بوبيان وباليان وبايع الشعب احد ابناء غورديان فملك تحت اسم غورديان الثالث ولم يلبث أن ذبح مناظريه اللذين بايعهما مجلس

الشيوخ فانفرد بالحكم ولم يكن له من العمر الا ١٣ سنة وكان استاذه ميزيتاي يحكم بالنيابة عنه غير أنه توفاه الله وخلفه العربي فيليب (كذا) في منصبه فقتل الامبراطور وجلس على عرشه (فبرايو ٢٤٤).

ذكر فيليب (٢٤٤) وداسيوس (٢٤٩). والثلاثين (٢٥١ — ٢٦٨)

وبعد مضي خمس سنين استطال العساكر مدته فقامت الثورات عليه من كل جانب. وفي الوقت نفسه تجاوز القوط الدانوب فارسل داسيوس لمحاربتهم فنادى به الجنود فوقعت بين الامبراطورين معركة بقرب فيرونه قتل فيها فيليب (سبتمبر سنة ٢٤٩) ولم يعش داسيوس بعد ذلك الا سنتين ومات في موقف لقي به القوط في موزيا (٢٥١).

فانتخب الجيش واحداً من زعمائه يدعى غاللوس فصالح البرابرة على أن يؤدي لهم الجزية ولكن قائداً آخر يدعى اميليانوس انتصر عليهم ونودي به امبراطوراً ثم ان الرجلين ذبحهما العساكر (٢٥٣).

فبويع فاليريانوس فعين ابنه غاليان قيصراً تحت سلطته وحاول أن يستوقف المملكة على شفا الدمار. وفي سنة ٢٥٨ استرجع من الفرس انطاكية ودخل ما بين النهرين ولكنه غلب بقرب قادس واسر (٢٦٠) وعامله الملك سابور بالاهانة والقسوة الى أن مات. الا أن القائدين باليستا واودنات العربي (كذا) ردا سابور على أعقابه الى ما وراء الفرات ثم أكره اودنات غاليان على أن يبايعه ويقربه ففعل (٢٦٤) فلما انتسق له الملك شاد تدمر فنمت نمواً عجيباً بصلاتها التجارية الكثيرة. وأثارها الفخيمة الى اليوم تدل على عظمتها السابقة غير ان ابن أخيه قتله (٢٦٧) ليخلفه فانتقمت له امرأته وقتلت قاتله وخلفته هي.

اما غاليان فحكم ثماني سنين منذ وقوع ابيه في الأسر لم يسترح فيها دقيقة من الجهاد في دفع المغتصبين والبرابرة والمصائب التي انقضت على السلطنة. وهذا الزمان يعرف بزمان المغتصبين الثلاثين وهم لم يكونوا على الحقيقة الا عشرين قتلوا جميعاً في آخر أمرهم. وفي هذه المدة استقلت غاليا على أثر استقلال تدمر وبقيت كذلك

خمس سنين تولاها فيها خمسة امبراطرة غاليين كان آخرهم تتريكوس الذي استقال بين يدي اوريليان.

وفوق هذه الفتن وقعت بلية البرابرة فان القوط والهيروليين سطوا على اغريقيا واسيا الصغرى واستباحوهما سلباً ونهباً الا أن الاثينيين دحروهم تحت قيادة المؤرخ دكسيب.

ذكر كلود (٢٦٨) واوريليان (٢٧٠) وتاسيت (٢٧٥) وبروبوس (٢٧٥) وكاروس (٢٨٢)

كان غاليان هو الأمبراطور الشرعي بين جميع هؤلاء المغتصبين ولكنه قتل في محاصرته لأحدهم بميلانو وعند وفاته استخلف رجلاً من دلماسيا يدعى كلود كان أحسن قواد رومة فهرع الى مقدونيا وظهر فيها على ثلاثمئة الف مقاتل قوطي بقرب نايسوس ولكن الطاعون ذهب بحياته فخلفه اوريليان (٢٧٠). وكان شعب الآلامانيين قد نفذوا من ريتيا الى مدينة بيزنطة فسحقوا جيشاً رومانياً ووصلوا الى بحر الادرياتيك فخافت رومة غير ان الامبراطور فاز في ضفاف الميتور على الاعداء وأنقذ ايطاليا منهم وابتنى سوراً عظيماً حول رومة.

ولكنه لم يوفق بعد ذلك في محاربته للقوط فترك لهم مقاطعة داسيا ونقل اهلها الى موزيا فوطنهم فيها وأصبح الدانوب كما كان قبلاً من تخوم السلطنة الرومانية. ولما فرغ اوريليان من توطيد الأمن في هذه الجهة سار الى الشرق لمحاربة ملكة تدمر زنوبيا (٢٧٣) وكانت امرأة باسلة تطمع في اقامة مملكة شرقية كبيرة فاسترد منها سوريا ومصر وقسماً من اسيا الصغرى وتغلب عليها بقرب انطاكية ثم حاصرها في تدمر نفسها ففرت منها على الهجن قاصدة الفرات ولكنها ادركت في طريقها ودفعت الى اوريليان فاستبقاها ليصطحبها الى رومة. وكان تتريكوس حاكم غاليا واسبانيا وبريطانيا قد خان جيشه واستسلم لاوريليان فعينه عاملاً له على لوكانيا كما منح زنوبيا قصراً وحديقة واسعة في أرض تيبور لتعيش فيها.

وأخذ بعد ذلك يستعد لارسال حملة تحارب الفرس وكان قصده أن يشغل

العساكر عير ان كاتم سره قتله خوفاً منه لأنه كان متهماً بالرشوة (يناير ٢٧٥) فانتخب مجلس الشيوخ رجلاً طاعناً في السن يدعى تاسيت فتوفي بعد ستة أشهر فنادى العساكر بالقائد بروبوس امبراطوراً فسار الى غاليا لمحاربة الآلاميين الذين دخلوها فاخضع ستين من مدائنهم واجتاز الرين لاحقاً بهم الى ما وراء النيكر. ودفع اليه الجرمانيون ستة عشر الفاً من نخبة شبانهم الباسلين ففرقهم بين جيوشه. ثم دحر السارماتيين في ايليريا والجيتيين في اسيا الصغرى ولصوص ايزوريا و بمفيليا والبلاميين في مصر وخاف ملك الفرس نرسيس من هذه الانتصارات فطلب الصلح. وعند رجوع بروبوس وطن مئة الف باسترانى في التراس كما وطن قبل ذلك كثيرين من الجرمانيين في بريطانيا ومن طوائف الفرنك على سواحل البحر الأسود. وبينما هو يستعد للزحف على بلاد فارس ثار عليه عساكره لشدة ما أتعبهم بالأعمال الشاقة من مثل تجفيق المستنقعات وغرس الكروم فقتلوه ولكنهم في الغد أدركوا عظم جنايتهم فبكوه (٢٨٢) وانتخبوا بعده مدير الحرس كاروس فاعطى لقب القيصر لكل من ابنيه كارين ونومرين وجعل الأول حاكماً على الغرب واصطحب الاخير الى الشرق بعد انتصاره على القوط والسارماتيين. وفتح كاروس سلوقه وكتازيفون ثم وقعت عليه صاعقه فتوفي بها (٢٥ دسمبر سنة ٢٨٣). وخلفه ابنه فعاهد الفرس على الصلح وبينما كان راجعاً نحو البسفور قتله صهره اريوس آبر (٢٨٤) ولم تمض خمسة أيام حتى تعرض قائد يدعى ديوكليسيان الدلماني للأخذ بثار الامبراطور الذي قتل فذبح قاتله على مشهد من الجيش تحت اسوار خلكدونيا ونودي به امبراطوراً. فحاول كارين اسقاطه ولكنه ادركته منيته في موقعة بقرب مارغوس في موزيا (٢٨٥).

— ٣١ —

تولي ديوكليسيان وقسطنطين وانتشار الديانة المسيحية

ذكر ديوكليسيان (٢٨٥) وتقسيم السلطنة الى أربعة أقسام

ورأى ديوكليسيان أن عدد الذين لبسوا الأرجوان الى يومه بلغ الخمسة

والاربعين عدا المغتصبين الثلاثين وأن أحد عشر امبراطوراً من هؤلاء ماتوا حتف أنفهم ففكر في اصلاح الاحوال في الداخل وتوطيد الأمن على التخوم.

وفي هذه الأثناء كان الغاليون قد اثارهم استبداد حكامهم والالامانيون قد تجاوزوا الدانوب وأغاروا على ريثيا وجماعة من الساكسونيين قد شنوا الغارة على شواطىء بريطانيا وغاليا وجماعة من الفرنك قد تقدموا الى صقليا واخذوا سيرقوصة وكاروزياس الذي عهد اليه الامبراطور تطهير البحر من هؤلاء القرصان قد حمل جنوده على مبايعته في بريطانيا فقلق ديوكليسيانوس من تفاقم هذه الخطوب ومنح احد زملائه لقب أغسطس (٢٨٦) وكان اسمه ماكسيميان ثم اتفقا على أن يعينا قيصرين يلحقانهما بهما فوقع اختيارهما على غاليريوس وكونستانس كلور (٢٩٣).

واقتسم الاربعة المملكة فوقع لديوكليسيان الشرق والتراس ولغاليريوس ولايات الدانوب ولماكسيميان ايطاليا وافريقيا واسبانيا وموريتانيا ولكونستانس غاليا وبريطانيا. وكان كل قرار يصدره احد هؤلاء الامراء نافذاً في دائرة حكم زملائه. وبقي ديوكليسيان الرئيس الأعلى للمملكة واستطاع بدهائه ومسالمته أن يحفظ التوازن بين المتناظرين.

وحدث في الشرق أن الفرس خلعوا ملك أرمينيا وكان من صنائع رومة وتهددوا سوريا فزحف عليهم غاليريوس ودحرهم والجأ ملكهم نارسيس الى التنازل له عن بلاد ما بين النهرين وخمس ولايات مما وراء دجلة والسيادة على ارمينيا وايبيريا (٢٩٧) وكان هذا أعظم فتح من عهد الامبراطورية.

اما كونستانس فطرد الفرنك من غاليا وبتافيا ونزل في بريطانيا وتغلب (٢٩٦) على المغتصب الكتوس الذي خلف كاروزيوس.

فلما استتب الأمن حرك ديوكليسيان بعض البرابرة على بعض وسلحهم ليضعفوا بالحروب الأهلية وجدد الحصون والمعاقل ورممها وعندما رجع كان زفاف انتصاره آخر زفاف شهدته رومة.

وفي غرة مايو من سنة ٣٠٥ اعتزل ديوكليسيان منصبه في نيقوميديا وسكن قصراً جميلاً على شواطىء دلماسيا وتوفي سنة ٣١٣.

قيام أمبراطرة آخرين واستئناف الحروب الأهلية (٣٠٥— ٣٢٣)

لقب غاليريوس وكونستانس امبراطورين وعينا ماكسيمينوس قيصراً يتولى حكومة سوريا ومصر وسفيروس قيصراً يتولى حكومة ايطاليا وافريقيا وعندما توفي كونستانس خلفه سفيروس وجعل ابنه قسطنطين قيصراً مكانه.

وكانت رومه قد غضبت من هجر ملوكها لها فاجلست على العرش ماكسانس بن ماكسيميان (٣٠٦) فاتخذ اباه شريكاً له وأصبحت المملكة ذات ستة رؤوس. وكان أول من سقط منهم سفيروس الذي غلبه ماكسيميان. وتلاه هذا بالسقوط لأن ابنه طرده وصهره قسطنطين قتله (٣١٠) وفي السنة التالية توفي غاليريوس مايو (٣١١) ثم ظهر قسطنطين على ماكسانس بقرب جسر ميلفيوس على التبر فقتله وكان قسطنطين قد استعان بالمسيحيين في هذه المعركة ووضع الصليب على راياته (٣١٢) وفي الوقت نفسه تغلب ليسينيوس على ماكسيميان فشرب السم (٣١٣). وانفرد اثنان في تولي السلطنة قسطنطين في الغرب وليسينيوس في الشرق. فلم يلبثا أن تحاربا فانتصر قسطنطين (٣١٤) وعقد الصلح مع رصيفه على شروط ثقيلة وبعد ذلك قضى قسطنطين تسع سنين في إصلاح شؤون مملكته وفاز على القوطيين فوزاً جميلاً رجع منه بأربعين ألف مقاتل قوطي استخدمهم في الجيش تحت اسم المحالفين ثم شهر الحرب على ليسينيوس بدعوى حماية النصارى الذين كان هذا يضطهدهم فظهر عليه في معركتين وأسره ونزع الأرجوان عنه وبعد حين أماته (٣٢٣).

النصرانية

ولد يسوع قبل تاريخ الميلاد بخمس سنين في قرية بيت لحم بين اليهود الذين كانوا رازحين تحت اعباء الشقاء وينتظرون قدوم المسيح الموعود لينقذهم.

وفي السنة الخامسة عشرة من عهد طيباريوس اخذ يطوف باليهودية ويعلم الناس

محبة الله ومحبة الانسان لأخيه ومبادىء الطهارة والعدل وثواب الصالحين وعقاب الاشرار. غير أن الفريسيين توصلوا الى صلبه. وانتشر رسله في الولايات يدعون الناس الى دينه فكانوا يتحولون اليه من يهود ووثنيين.

وفي عهد نيرون كان المسيحيون قد تكاثروا في رومة فاضطهدهم وكذلك اضطهد بعضهم دوميسيان وتراجان من أجل اجتماعاتهم السرية. وكان أشد من اضطهدهم سفيروس وداسيوس وغاليريوس. ولم يمنع ذلك تكاثرهم الى حد ان قسطنطين استعان بهم ليظفر على ماكسانس.

وبعد هذا الانتصار اصدر قسطنطين مرسوماً شهيراً من ميلانو بالتساهل للمسيحيين في امورهم الدينية واستمر يراعي جانب الوثنيين الى أن قتل ليسينيوس فاعطى الكنيسة في سنة ٣٢١ حق قبول الهبات وما يوصى به لها في التركات ومنحها أملاكاً كثيرة وجعل لكهنتها امتيازات الكهنة الوثنيين وخص النصارى باحساناته ليستميل الناس الى دينهم وأقفل كثيراً من المعابد الوثنية دون أن يؤذي باحد من أهل المعتقد القديم وعقد مجمع نيقا الذي وضع قانون الايمان في سنة ٣٢٥.

تغيير صورة الحكومة الادارية في السلطنة.

بعد أن فرغ قسطنطين من عمل الانقلاب الديني الذي اتمه نظر الى تغيير صورة الحكومة الادارية في السلطنة. فشاد القسطنطينية (٣٣٠) مكان بيزنطة القديمة ليجعلها عاصمته معاقبة لرومة على التزامها الوثنية. ونقل اليها احاسن الأشياء والمصنوعات في البلاد الاخرى وشيد فيها قصوراً ومجتمعاً للعلماء على شكل الكابيتول ومجلساً للشيوخ وطرقاً وجسوراً وقناطر وابواباً كبيرة وكنائس وقسمها الى اربعة عشر حياً كرومة وكان يوزع فيها القمح على الفقراء ثم قسم السلطنة الى اربع ولايات الشرق وغاليا وايطاليا وايليريا وكان كل وال فيها كالملك مع جيشه من المستخدمين ولكن لم تكن له سلطة عسكرية وقسم الولايات الى ١٦٠ عمالة ليمتنع طموح انظار العمال الى العرش واوجد مناصب رؤساء للخيالة وللرجالة وجعل تحت امرهم مناصب الكونتية الجهاديين في العمالات. وانشأ في قصره منصباً لحاجب أكبر

وآخر لرئيس للايرادات بمعنى انه يتولى ادارة القصر وادارة نظارة الداخلية وآخر لمستشار في البلاط واخر لمدير للخيرات المقدسة أو ناظر للمالية واخر لمدير للأملاك الخاصة واخر لمدير للخيالة الخاصة واخر لمدير للرجالة الخاصة وهذان كانا رئيسين للحرس الامبراطوري أيضاً ثم ما لا يعد من الوظائف الثانوية الاخرى التي كان يحتجب فوقها وجه الامبراطور. وتناهى قسطنطين في الترف واتخاذ مظاهر الزينة والعظمة.

وأوجد طبقات مختلفة من الشرف والألقاب والرتب وزاد الضرائب ليقوم بهذه النفقات الطائلة على حين كانت اغنى الولايات قد افتقرت فوقع بين الناس والجباة من الجذب والدفع والدسائس والحيل ما قتل كل شعور وطني في القلوب. وكان الجباة طبقة مخصوصة من الناس تتوارث هذه الوظيفة وتضمن التحصيلات باموالها الخصوصية ولا تستطيع الخروج منها الا بترقية يأذن بها الأمبراطور.

أما العساكر فقد أهمل أمرهم وكان معظمهم من البرابرة وخصوصاً الجرمانيين وجعل عدد كل فرقة منهم ١٥٠٠ جندي عوضاً عن ستة آلاف لكي لا يطمع زعماؤها في الوصول الى العرش فيما بعد.

وهذه الحالة الجديدة كانت حالة ترف وذل انحطت معها الأخلاق وسقطت الآداب ولم يقم في خلالها شاعر أو كاتب أو صانع متفنن سوى جماعة من علماء الكنيسة.

آخر سني قسطنطين (٣٢٣ - ٣٣٧)

على أن ثلاثة أعمال عظيمة شغلت حياة قسطنطين. وهي تأييد النصرانية وجعلها الديانة السائدة في السلطنة ثم تشييد القسطنطينية ثم تغيير النظام الاداري.

ولقد ركب هذا الامبراطور فظائع منكرة في قصره منها قتله لابنه كريسبوس وللامبراطورة فوستا ولابن ليسينيوس مع حداثة سنه.

غير أنه شرف سنيه الاخيرة بما عقده من الاتفاقات النافعة مع البلاميين

والاحباش والهنود الذين وفدوا اليه وبمصالحته لسابور الثاني على شرط أن يخفف وطأته عن المسيحيين في بلاد فارس وبانتصار تجريدتيه اللتين ارسلها لمقاتلة القوط والسارماتيين (٣٣٢). وقبل وفاته بأيام اعتمد وتنصر.

— ٣٢ —

تولي كونستانس وجوليان وتيودوسيوس

وغلط قسطنطين قبل أن يدركه أجله فقسم المملكة بين بنيه الثلاثة وبعض اولاد اخيه دون أن يجعل ذلك التقسيم نهائياً فذبح العساكر أولاً ابناء أخيه عدا غاللوس وجوليان. ومات ابنه البكر قسطنطين الثاني في موقعة جرت بينه وبين أحد اخويه (٣٤٠) ولم يلبث هذا أن قتل أيضاً بيد رجل يدعى ماغنانس افرنكي الأصل (٣٥٠). وبقي كونستانس فعين ابن عمه غاللوس قيصراً وعهد إليه إنجاز محاربة سابور وزحف بنفسه الى بانونيا (٣٥١) فانتحر ماغنانس قاتل أخيه خوفاً منه وخضعت له غاليا واسبانيا وبريطانيا التي كانت ثائرة عليه. فرجعت جميع الولايات الى سلطة امبراطور واحد. غير أن القصر كان مشتبكاً بدسائس النساء والخصيان والمتملقين والسلطنة كلها مضطربة بالمنازعات التي نشأت عن مذهب آريوس مقلقة بسبب الغارات البربرية على اطرافها وبلغ كونستانس ان قيصر الشرق كان يستعد للثورة عليه فاستدعاه بالمواعيد الكاذبة وبعثه الى بولا في ايستريا واماته. وابعد أخاه جوليان الى اثينا فتلقى فيها التعاليم الأفلاطونية ثم استدعاه الامبراطور بعد اربعة عشر اشهر وعهد اليه الدفاع عن غاليا من غارة الفرنك والآلاميين. فدحرهم في ستراسبورج (٣٥٧).

وردهم على اعقابهم واسترجع منهم جمهوراً كبيراً من الاسرى الغاليين والرومانيين. وكان كوستانس قد تهيبه فنزع القيادة منه فثار العساكر ونادوا به امبراطوراً فتقدم جوليان بهم الى وسط ايليريا وهناك علم أن كونستانس توفي في ٣ أكتوبر سنة ٣٦١.

ذكر جوليان (٣٦١)

أول ما فعله أنه صبأ عن الدين المسيحي ولذلك لقب بالملحد أي الصابىء وعاد الى الدين القديم ودعا الناسَ اليه ولكنه تحاشى أن يؤيد دعوته بالقوة بل فتح المعابد وعفا عن المبعدين بسبب الوثنية. وكان فيلسوفاً شديد الأخلاق صبوراً على المطاعن.

وقد حارب الفرس وفتح سوريا وانطاكية وكتازيفون واجتاز دجلة واحرق عمارته ليقطع كل أمل للعساكر بالتقهقر ولكن خائناً اضله السبيل فرجع الى غورديانا عقيب موقعة انتصر فيها وفي الموقعة الثانية جرح ومات بعد أن حكم ٢١ شهراً وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة «٣٦٣».

ذكر جوفيان (٣٦٣) وفالانتينيان وفالانس (٣٦٤)

بايع الجنود جوفيان فعقد معاهدة مع سابور ترك له بمقتضاها السيادة على أرمينيا وتخلى له عن الخمس الولايات الواقعة فيما وراء دجلة وكثير من المراكز الحصينة التي كانت حرز المملكة وفي الشهر الثامن من حكمه مات (فبراير سنة ٣٦٤) فانتخب القواد فالانتينيان فأشرك معه أخاه فالانس وولاه حكومة الشرق وذهب فأقام في باريس لمراقبة الجرمانيين. وهناك رأى الشقاق قائماً بين البورغوند والآلامانيين فحاربهم وتغلب على بعض تلك القبائل الصعبة المراس ورمم الحصون على ممار الرين. وكان شديداً في أحكامه الداخلية لا يعاقب إلا بالموت. غير أنه كان ذا تساهل في أمر الأديان. ولنكد طالع السلطنة قتل هذا البطل الحكيم في معركة جرت بينه وبين الكاديين (٣٧٥) وخلفه ابنه غراتيان فولى أخاه الصغير فالانتينا الثاني ولايتي ايطاليا وايليريا.

أما فالانس فلم يحسن التصرف في الشرق لتداخله في الخصومات الدينية ولأمر آخر كان القاضي عليه وهو أن قبائل هونية من الجيل المغولي في شرقي آسيا كانت قد اجتازت جبال أورال واستعبدت الآلانيين وقذفت بالقوط الى جهات الدانوب فاستجار هؤلاء بالامبراطور (٣٧٥) وكان منهم مئتا ألف مقاتل فأجارهم كبراً منه

وجهلاً ولكنهم لم يلبثوا أن ثاروا عليه وكسروه بقرب اندرينوبل فلم ينج إلا الثلث من الجيش الروماني أو أقل واستباحوا تلك البقاع إحراقاً وسلباً ولم ينقذ القسطنطينية منهم إلا جيش من العرب المعروفين بالسراقين عند الفرنجة أتى به من آسيا للدفاع عن تلك العاصمة.

ذكر تيودوسيوس (٣٧٨)

وفي الوقت نفسه انتصر غراتيانوس على الآلانيين بقرب كولمار. وإذ كان الشرق قد أصبح بلا رئيس عين للنيابة عنه فيه قائداً ماهراً يدعى تيودوسيوس فأحسن سياسة الجنود وقيادتهم وناوش القوط بلا فتور الى أن عاهدوه على الصلح (٣٨٢) فوطنهم في التراس وموزيا وجند منهم أربعين ألف مقاتل في الجيش الامبراطوري.

وكان رجل يدعى ماكسيم قد أسقط غراتيان في غاليا وخلفه (٣٨٣) ثم اجتاز الألب وألجأ فالانتينيان الثالث الى الفرار فأرجعه تيودوسيوس الى ايطاليا واستوزر له رجلاً فرنكياً يدعى أبروغاست فملأ الإدارات والدواوين بالأجانب فأراد فالانتينيان التخلص منه فعزله ولم يلبث الامبراطور أن وجد ميتاً في سريره بعد بضعة أيام (٣٩٢). فقلد أبروغاست الأرجوان رجلاً يدعى أوجين كان ذا منصب في القصر ودعا الوثنيين للانضمام اليه فثار المسيحيون وأسروا لوجين بقرب أكيله ثم أماتوه وانتحر أبروغاست (٣٩٤) وكان هذا الفوز لطائفة الأرثوذكس من المسيحيين أي ذوي الرأي الصحيح ومنع تيودوسيوس منعاً شديد العقوبة أن تعبد الأوثان وحظر على الهراطقة أهل البدع كجماعة أريوس أن يوصوا بأموالهم قبل وفاتهم وأكبر سيئة له أنه أمر بقتل سبعة آلاف من أهل تسالونيك لأنهم عصوه فلما حضر بعد ذلك الى كنيسة ميلانو وبّخه الأسقف أمبروسيوس على جريمته ومنعه من دخول الكنيسة فقبل العقوبة وبقي ثمانية أشهر لا يتجاوز عتبتها ويسمع الصلاة من الخارج على أنه كفّر عن سيئاته بفضائله وعدل أحكامه في أيامه الأخيرة وقبل أن يدركه أجله قسم السلطنة نهائياً الى شطرين بين ابنيه ركاديوس وأونوريوس وكانت الضرورة في ذلك

العهد تقضي بهذه القسمة لأن القسطنطينية كانت يونانية آرية وروما لاتينية أرثوذكسية فاختلاف المذهب واللغة قضى بانفصالها.

ما كانت عليه الدولة الرومانية من الضخامة والاتساع سنة (٣٩٥)

قبل وفاة تيودوسيوس الذي يلقبه البعض بالكبير كانت الدولة الرومانية يحدها من الغرب المحيط الأتلانتيكي ومن الشمال السور الذي ابتناه سفيروس بين نهري الفورث والأكليد والبحر الجرماني والرين والدانوب والبحر الأسود ومن الجنوب الأطلس الكبير وليبيا الداخلية والصحارى التي تمتد في جنوبي اصوان وجزيرة انس الوجود «فيله» ومن الشرق خليج العرب وخط وهمي يمتد من ميناء العقبة على البحر الأحمر الى سورا على الفرات الى سيرسازيوم فخابور فتخوم أرمينيا.

ولما قسم الامبراطور المشار اليه الدولة الرومانية الى قسمين عند دنو منيته كان الحد الفاصل بينهما في أفريقيا هيكل يعرف بهيكل الغيلانات بين طرابلس الغرب وسيرينايك وفي ايليريا مجرى نهر درينا المتفرع من نهر ساف ثم نهر بربانا أوبوجانا الذي ينصب في بحيرة لابياتيس أو اسكدار.

وكانت كل من السلطنتين المستجدتين مقسومة الى ولايتين وجملة أبرشيات وعدة عمالات. وكانت سلطنة الشرق مشطورة الى ولاية تعرف بولاية الشرق مشتملة على خمس أبرشيات هي مصر وآسيا والشرق والبنطس والتراس وعلى ثلاث وخمسين عمالة. وولاية أخرى تعرف بولاية ايليريا الشرقية مشتملة على أبرشيتين هما مقدونيا وداسيا وعلى إحدى عشرة عمالة.

أما السلطنة الغربية فكانت مشطورة أيضاً الى ولايتين إحداهما تعرف بولاية ايطاليا مشتملة على أربع أبرشيات هي ايليريا الغربية وايطاليا وروما وأفريقيا وعلى ثمان وعشرين عمالة والثانية تعرف بولاية بلاد الغال مشتملة على ثلاث أبرشيات هي بريطانيا وغاليا واسبانيا بضم مراكش اليها وعلى ثلاثين عمالة.

ما كانت عليه نظاماتها الإدارية

كانت أزمة الإدارة الملكية في الولايات بأيدي طائفة من القساورة المقدمين في الجيش الامبراطوري فكانوا إذن ولاة وقواداً معاً على ما هو مصطلح عليه في بعض البلاد اليوم وكانت هذه السلطة في الأبرشيات بأيدي عمال يعرفون بالمعاونين أو الوكلاء وفي العمالات بأيدي جماعة بعضهم يدعون بالبروقناصل وبعضهم يدعون بالرؤساء وكان مرجع المعاونين والبروقناصل الى الولاة في الأمور التي تشكل عليهم ومرجع الولاة الى الوزراء مباشرة والوزراء أنفسهم يستمدون النقض والإبرام من الامبراطور الذي كان السيد المطلق. أما أزمة الإدارة العسكرية فكانت على ما ذكرناه قبلاً قد قسمت من عهد قسطنطين بين الرئيسين الأعليين للفرسان والمشاة في الولايات والرئيسين اللذين يليانهما رتبة للفرسان والمشاة في الأبرشيات وأصحاب لقب الدوق في العمالات التي يقوم البروقناصل بتدبيرها وأصحاب لقب الكونت في العمالات التي يتولاها الرؤساء فكانت الحكومة الامبراطورية على الجملة قد أصبحت من عهد دقليديانوس وقسطنطين استبدادية محضة لجمعها السلطة كلها في هذا النظام الذي وصفناه.

مجالس البلدية ومظالم الجباية

وقد ظهر مما تقدم أن الحرية فقدت من السلطنة تماماً فلم يبق منها إلا شيء طاهري لسكان المدائن حيث كانت لهم مجالس بلدية وكانت هذه المجالس تتألف من الوطنيين الذين يملكون نحو خمسة آلاف متر من الأرض. وكان يديره رئيس يدعى بلغتهم ديومفير ووكيل مكلف بمراقبة الأبنية العامة وأمين صندوق مكلف بإدارة مالية المجلس وكان أعضاء المجلس مكلفين بتوزيع الضرائب وجبايتها ويكملون من أموالهم ما ينقص منها وكانت الضرائب تزداد سنة بعد سنة بمقدار ازدياد النفقات وتجعل على صور مختلفة فمنها ما هو مفروض على النفوس ومنها ما هو مفروض على العقار وعلى التركات وعلى التجارة والصناعة وما شاكل ذلك مما كان يرزح تحت أثقاله الناس وتكسد معه التجارة وتبور الصناعة ولا سيما في تلك الأزمنة

التي ضعفت بها شوكة الملك وكثرت عليه الغارات والحروب. ولما عيل صبر الناس من اشتداد عمال الحكومة على الجباة واشتداد الجباة عليهم أقيم في كل مدينة موظف سمي بالمدافع ليخفف وطأة الجباة عن الأهالي ويمنع مظالمهم عنهم وكان يغلب تعيين الأساقفة في مناصب المدافعين.

ما كان عليه الجيش والكلام على البرابرة المأجورين

كان الأمبراطرة الرومانيون لانتفاء ثقتهم بالأمم الخاضعة لصولتهم قد نزعوا السلاح منها وأكثروا من استنزاف أموالها واهتضام حقوقها حتى ضعفت وانحطت وفقدت الحب للسلطنة والرغبة في الدفاع عن أنفسها من المتهجمين عليها آمل أن تنضم اليهم وتتخلص من ربقة الظالمين بل كانت قد وصلت الى حالة من الفاقة لا تمكنها من النهوض لصد الغارات التي كان يشنها أقوام البرابرة عليها. وكان الجيش قد ناله تأثير الانحطاط العام فخمدت منه نيران الحماسة الرومانية القديمة وفقد الفضائل التي جعلت أسلافه أبسل جيوش الدنيا غير أن أكثر العساكر في ذلك العهد كانوا من البرابرة المأجورين لا من الرومانيين وكانوا موسومين بعلامات حمراء من الحديد المحمى خوف أن يفروا ويخونوا وإنما كان عدد الجنود الرومانيين قليلاً لأن أهل الطبقة الوسطى من الناس كانوا يؤدون الضرائب وبذلك يعفون من الانتظام في الخدمة العسكرية.

وصف ما كان عليه عالم البرابرة حول السلطنة الرومانية

بينما كانت هذه السلطنة العظيمة تزداد انحطاطاً وتأول الى الزوال كانت على جوانبها أمم ناشئة شديدة الحماسة والبطش تعودت أن لا تتهيب الاسم الروماني ولا تخشى بأس جيوش السلطنة الذين كانوا على ما وصفناه من خور العزائم. وكان من تلك الأقوام البلاميون والنوبيون في جنوبي السلطنة بأفريقيا والعرب في الجنوب الشرقي والفرس في الشرق وكانت مملكتهم تمتد من الفرات الى نهر السند. وفي الشمال الجرمانيون والسرماتيون والسكيثيون وهؤلاء كانوا أشد خطراً على رومة وكانوا يقطنون البلاد الممتدة من نهر الرين الى حدود الصين.

جرمانيا

كانت هذه البقعة ممتدة من نهر الرين في الغرب الى البحر البلطيقي في الشمال ومن نهر الدانوب في الجنوب الى نهر الفستول وجبال الكربات في الشرق وكانت أهم الأقوام الجرمانية في الشمال الغربي من البقعة المذكورة طوائف الافرنك المتحدة بين أنهر الاسكو والوزر والمين وطوائف الفريزون بين نهر امس وبحيرة فليغو على سواحل البحر البلطيقي وطوائف السكسون بين نهري والوزر والألب وطوائف الانكل في شمالي موطن السكسون على ضفة الألب اليمنى الى جنوبي شبه جزيرة سمبريا وطوائف الجوت في شمالي موطن الانكل وطوائف الدان وهم الدنيمركيون والنورمانديون في سكندنافيا. وكانت في الجنوب الشرقي طوائف الألمان المتحدة بين نهر المين في الشمال والرين في الغرب والدانوب في الجنوب وجبال بوهيميا في الشرق. وكانت في الوسط وفي الشرق طوائف السويف التي انضمت الى الألمان واحتلطت بهم بعد شنهم الغارة على السلطنة وطوائف البرغند والفندال والروجيان والهيرول واللمبرديين.

بلاد السرمات

كانت هذه البلاد ممتدة من نهر الفستول وجبال الكربات في غربيها الى الدانوب والبحر الأسود في جنوبيها والمحيط المتجمد في شماليها. وكانت تقطنها أقوام سلافية أكثرها من القوط. والقوط أمة جرمانية الأصل منشأها سواحل البحر البلطيقي وكانت تنقسم الى ثلاثة أقسام كبيرة قسم الأسترقوط أو القوط الشرقيين في شرقي نهر الدينابر وقسم الويزقوط أو القوط الغربيين في الغرب وقسم الجيبيد أو الترينار على نهر الفستول وراء جبال كربات وفي منتصف القرن الخامس أسس هرمنريك ملك الاسترقوط مملكة ممتدة من بحر البلطيق الى البحر الأسود ومن نهر التايس الى نهر الفستول بتنايس وكانت هذه المملكة أول مملكة أغار عليها الهونيون واستولوا عليها سنة ٣٧٦.

وكان الجيل السلافي أو السرماتي ينقسم الى ثلاثة أقوام وهم: الفنديون والأنتيون والسلافيون الحقيقيون.

فأما الفنديون أو سلافيو الغرب فقد فعهم ما حصل من تنقل الأقوام التي كانت تقطن جرمانيا الشرقية حتى أوصلهم الى جنوب نهر الألب وتفرقت عصائبهم بين هذا النهر والفستول فعرفت بطوائف التشك في بوهيميا والبولانيين في بولونيا والليتون في ليتوانيا والمورافيين في بلاد مورافيا والسورابيين في السرب والولتز في بوميرانا الكبرى والأوبوتريت في مكلنبرج وأما الانتيون أو سلافيو الشمال فقد انضموا الى قبائل الفينيين المستوطنين شمال أوربا وآسيا على البحرِ البلطيقي وكان من جمهرتهم أساس الأمة الروسية التي نشأت بعد ذلك.

وأما السلافيون الجنوبيون فإنهم بعد أن تحملوا ربقة القوط ثم ربقة الهون على الولاء اجتازوا نهر الدانوب في خلال القرنين السادس والسابع وتفرقوا على شواطىء البحر الأدرياتيكي وعرفوا بطوائف الاسكلافون والبوسنيين والكروات.

اسكيثيا

وكان الجيل الاسكيثي يقطن البقعة المتسعة الواقعة بين نهر الفولجا غرباً وبحر الصين شرقاً وجبل الطائف جنوباً والمحيط المتجمد شمالاً. وهو يشمل الطوائف الرحالة التي اشتهرت بالالانيين فما بين نهري الدونتز والفولجا وبالبلغار على ضفاف الفولجا وبالمجر أو الهنغار في جنوب موطن الفينيين بقرب تخوم سيبيريا وبالافاريين على جوانب جبل الطائف وبالأتراك في تركستان وبالمغول في شمال الصين وبالهون في صحراء كوبه. وهؤلاء الأقوام الهونية هم الذين أغاروا على أوربا سنة ٣٧٦ فدفعوا القوط الغربيين وسائر الأقوام الجرمانية على السلطنة الرومانية.

ملخص التاريخ الروماني

ألحقنا الفصول السابقة بالتاريخ الروماني لشدة ما ترتبط به حوادث الأقوام المذكورة فيها بالإيجاز على ما رآه القارىء وما سيراه في الأبواب التالية إن شاء الله

ونلخص الآن في سطور قلائل جوهر تاريخ الرومانيين فنقول إن السلطنة الرومانية إنما سقطت لما كان لها في البدء من سوء النظامات السياسية وفي آخر عهدها من فساد النظام العسكري. وكان من نتيجة ثقل الضرائب واشتداد الجباية على الناس وعدم مدافعة الجنود عنهم في أيام الغارات التي كان يشنها البرابرة عليهم انهم كرهوا حكومتهم ومقتوا دولتهم ثم انتحلوا الدين المسيحي فتعلموا منه التجرد لله والنفرة عن شواغل الدنيا والاحتقار لحطامها فذهبت من قلوبهم بقية ما كان فيها من الرغبة في الخدمة العامة. ولذلك لم يكن سقوط السلطنة ناشئا عن صدمة زعزعتها وهدت أركانها بل عن علة أشبه بما يعرف بالانحلال الطبيعي بمعنى أنها كانت كالآلة التي تحانت أجزاؤها فانقطعت حركتها من نفسها أو كالشيخ الذي بلغ المدى من العمر وتجاوزه فإذا هو ذات يوم وقد خارت بقية قواه فأخذه النزع وقضى نحبه.

ولم يزد الشعب الروماني شيئا يذكر على ما ورثه من اليونانيين إلا أنه نبغ في أمور من نوع آخر غير الذي اشتغل به اليونانيون وترك منه للعالم آثارا جليلة وفوائد عظيمة. فمن ذلك لغته التي كانت ولا تزال الصلة بين رجال العلم وقوانينه التي أخذت عنها القوانين المستحدثة والطرق العسكرية التي صنعها والقناطر التي شيدها وأمثال هذه الأعمال التي اقتدت به فيها الدول من بعد وإدارته التي علم بها الحكام كيف يقومون بتدبير الجماهير الكثيرة وحكومته التي كانت مثالا جرى عليه الملوك المستبدون في الأعصر المتأخرة ومجالسه البلدية التي نقلت عنها رسوم مجالسنا المشاكلة لها. والرومانيون أول من حولوا الاسترقاق القديم الى أخف منه وطأة على النفوس وهو ما كان يعرف بالحراثي إذ كان يقضي على الانسان المبتلي به بلزوم أرض يقوم عليها مدة حياته. وهذا النوع من الاسترقاق هو الذي كان عاما في القرون المتوسطة على مسيحيي *.

ولما رأى ملوك البرابرة النور الساطع الذي كان ينبعث من الدولة الرومانية حتى في أواخر أيامها بهرت به عيونهم فأبوا إلا أن يجروا على الخطة التي جرى عليها الرومانيون قبلهم ولذلك بذل كلوفيس ما في وسعه حتى نال لقب بطريق رومة

وافتخر تيودوريك بأنه رصيف امبراطور الشرق وتباهى كارلوس الأكبر وأوتون وفريدريك بربروس بأنهم خلفاء قسطنطين.

وجرى البابوات في ملكهم الروحي مجرى الامبراطورة في ملكهم الزمني يوم سادت الكثلكة وأصبحت رومة عاصمتها وأشار المتشرعون بأن يمنح ملوك القرون المتوسطة من السلطة ما كان ممنوحاً لقيصر فلما انقرضت ممالكهم وقامت ثورة العصر الذي نحن فيه اتخذ نابليون لقباً رومانيا معناه أنه يتولى إدارة مصالح الشعب والدفاع عنها من الذين يعتدون عليها.

وفي الجملة فإن تاريخ رومة سيكون أبداً أستاذ السياسي ودليل المتشرع كما لا يزال تاريخ اغريقيا أستاذ الصانع ومرشد الحكيم والشاعر.

انقراض السلطنة الغربية (٤٧٦)

وأخذ البرابرة منذ انفصال السلطنتين الغربية والشرقية نهائيا يهاجمون المراكز الرومانية بعد أن لزموا الدفاع طويلاً. أما القسطنطينية فنجت لتحصن مركزها وقاومت الغارة عشرة قرون وأما رومة فلم تلبث أن أخذت وسقطت معها سلطنة الغرب بعد أن نزعت نزعاً أليماً استمر ثمانين سنة. وأهم حوادث هذه الأيام ما سيرد وصفه في تاريخ الأريك وأتيلا وجنسريك. وكان امبراطور الغرب منذ سنة ٣٩٥ أنوريوس. توفي في سنة ٤٢٣ واستخلف ابن أخيه فالانتينياتوس الثالث فحكم خاملاً الى أن قتل في سنة ٤٥٥ وخلفه ماجوريان الحكيم العادل فأماته رجل سويفي يدعى ريسيمر وأقام مكانه ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ واحدا بعد الآخر.

وعند ذلك زحف أودواكر زعيم طائفة الهيرول الجرمانية على سلطنة الغرب فخلع امبراطورها الأخير روملوس أوغستول (٤٧٦) ونادى به عساكره ملكا لايطاليا فكافأهم بمنحهم ثلث أراضيها والتمس من القسطنطينية لقب بطريق فأجابته الى طلبه وكان ذلك منه اعترافا بسيادة امبراطور الشرق على المملكة الجديدة وختام سلطنة الغرب.

القرون المتوسطة

— ٣٣ —

البرابرة في القرنين الرابع والخامس

تعريف القرون الوسطى

هي الزمان الذي مرّ بين سقوط السلطنة الرومانية ونشأة الممالك الكبيرة الحديثة منذ غارة الجرمانيين في بدء القرن الخامس للميلاد الى افتتاح الأتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣.

وفيها تقدمت صناعة الهندسة البنائية على طرز جديد وتأخرت الآداب والمعارف وقامت بدل الملكيات والجمهوريات المعروفة حكومات من نوع مخصوص دعيت بحكومات الشرفاء فكان الملوك لا سطوة لهم والحكومات المحلية لا هادي لها ولا مراقب عليها والبلاد لا تخوم مقررة لها. ولم تكن ثم وحدة إلا وحدة الدين ولذلك كانت الحروب الكبرى التي انتشبت في تلك الأزمان دينية محضة كحرب الصليبيين في فلسطين والمغاربة في اسبانيا والهراطقة في البيجوا والوثنيين في البلطيق.

برابرة الشمال وأخلاقهم وديانتهم

بينما كانت تجري في رومة حوادث الفوضى العسكرية كانت أمم كثيرة مختلفة تتقدم نحو تخوم السلطنة من الشمال والجنوب والشرق ففي الشمال كان الجرمانيون

والسلافيون والطوائف التورانية وفي الشرق كان الفرس الذين طالما حاربوا الرومانيين من قبل ولكنهم لم يخطر على بالهم أن يغيروا على سلطتهم. وفي الجنوب كان العرب. وكان فريق منهم في شبه جزيرتهم لا يخشى بأسهم الى ذلك الوقت وفريق آخر في أفريقيا عرفوا بالمغاربة.

ولما توفي تيودوسيوس (٣٩٥) كان الخوف الأعظم على الدولة الغربية من أهل الشمال أي الجرمانيين على اختلاف شعوبهم ومواطنهم ومن السلافيين الذين انضموا اليهم في غارتهم على سلطنة الغرب ولكنهم لم يظهروا بمظهرهم العظيم في الدنيا إلا بعد ذلك بزمان.

وكان الجرمانيون أشداء محبين للحروب والاستقلال الذاتي وكان كل منهم يبلغ سناً معلوماً ويقلد السيف ويصبح جندياً لوطنه ويتخير أحد الزعماء ليلحق به. وكانت حكومتهم مجتمعاً يشاركونه جميعهم بالرأي لتدبير شؤون الإدارة وإصدار الأحكام القضائية وكان لكل مركز قاض وللأمة كلها ملك ينتخب من أعضاء أسرة واحدة وكان الجنود يختارون قائدهم في زمان الحرب وكان شعراؤهم الذين يعرفون بالبرديين يحثونهم في قصائدهم على التفاني في القتال وأحقهم بالفخر من مات ضاحكاً وكانت معبوداتهم تقارب معبودات اليونانيين فلهم جنة أشبه بالأولمبوس وإله كبير كالمشتري يدعى أودين يمنح النصر لمن يشاء ويقضي الليل على صهوة جواده وهو يجريه في الهواء مصطحباً جميع المحاربين الذين هلكوا. وإله يدعى دونار ينسبون اليه ما كان ينسبه اليونانيون الى هرقل وآلهات منها فريا التي هي أشبه بفينوس وهولدا التي هي أشبه بديانا وهما معبودتا السلام والصنائع الجميلة. ومن المعبودات الجرمانية الأرض والشمس وأخوها القمر الذي يلحق به ذئبان ويفر أمامهما.

وكان الجرمانيون يحرثون الأرض بالحصص يقسمها القضاة عليهم ليفلحوها ويستغلوها كل عام. ولم تكن لهم مدائن بل أكواخ من طين متفرقة كل منها في حقل يحرثه ساكنها وكان تقسيم الحصص على الجرمانيين قرية قرية بيتاً بيتاً. وكانت عندهم أخلاق شريفة طاهرة وكان تعدد الزوجات محرماً عليهم دون ملوكهم وكان أقبح خلالهم ومعايبهم السكر والمقامرة.

وصول الهونيين الى أوربا

الهونيون وقد سبق تعريفهم في عرض هذا الكتاب كانوا مجموعة قبائل من جيل واحد ناشئة بجوار بحر قزوين واتفق أنه وقع خلاف بين تلك القبائل فانجلى قسم منها واجتاز نهر الفولكا وجر معه قبائل الآلينيين ودخل الغرب فصدم الامبراطورية القوطية التي كان هرمانريك قد ألفها من الفيزقوط والاسترقوط والقوط الشماليين.

أما الاسترقوط فخضعوا وأما الفيزقوط ففروا الى جهة الدانوب واستجاروا بالامبراطور فالانس على ما قدمناه ثم ثاروا عليه وقتلوه بقرب اندرينوبل غير أن تيودوسيوس غلبهم وأسكن جانباً عظيماً منهم في بلاتراس فردوا عنها غارات الهونيين.

غارة الفيزقوط وذكر الأريك والقول في الغارة الكبرى في سنة ٤٠٦

عندما توفي تيودوسيوس وقسم السلطنة بين ابنيه حاول الفيزقوط أن يقطعوا امبراطورية الشرق فنهبوا التراس ومقدونيا واجتازوا الترموبيل ودخلوا الى المورة. فحصرهم ستيليكون أحد قواد هونوريوس في جبل فولويه فوجدوا مفرا منه وكادوا يفتكون بالقسطنطينية لو لم يخولهم عنها الأمبراطور أركاديوس بما أشار به عليهم من السطو على سلطنة الغرب. فهرعوا اليها فدحرهم ستيليكون (٤٠٣) وأخرجهم من ايطاليا. غير أن هونوريوس أذن لهم بالإقامة في أرض تابعة للسلطنة فكافأوه على هذه المنة أحسن مكافأة على ما سيأتي بيانه. ولم يمض زمن قليل حتى هجم أربعة شعوب وهم السويفيون والفانداليون والألينيون والبرغنديون على السلطنة ودخلوا تخومها من جانبين فسحق ستيليكون احدى فرقهم في فيزول ولكن الأخرى اجتازت الرين (٤٠٦) واستباحت غاليا مدة سنتين وفي سنة ٤٠٩ أقام البرغنديون على ضفاف الرون مملكة لهم مستقلة اعترف بها هونوريوس في سنة ٤١٣ وانقلب الألينيون والفنداليون والسويفيون الى اسبانيا وكان ذلك ابتداء الغارة الكبرى.

استيلاء الاريك على رومة (٤١٠) وفي ممالك الفيزقوط والسويفيين والفنداليين

ولم يلبث الأريك أن أعاد الكرة على سلطنة الغرب وكان هونوريوس قد أمات ستيليكون غيرة منه ففقد بفقده بطلاً باسلاً وقائداً حكيماً كان خير مدافع عنه. واحتل الأريك رومة فأعمل فيها السيف والنار أياماً ثم رجع الى مدينة كوزنزا الكالابرية فتوفي فيها (٤١٠) واتفق صهره آتولف ثم القائد واليا بعده مع هونوريوس على أن يخدماه ففتك الأول بثلاثة من المغتصبين استقلوا في غاليا وردها الى السلطنة وطرد الآخر من اسبانيا الشعوب الثلاثة التي كانت قد احتلتها فكافأه الأمبراطور بإقطاعه عمالة الاكتين الثانية فأنشأ من العمالتين مملكة مستقلة للفيزقوط سنة ٤١٩. وفي السنة نفسها جمع هرمانريك أشتات السويفيين وأقام بهم مملكة في جبال استوريا وعقب ذلك بقليل ظهر جنسريك في مقدمة الفنداليين وكانوا قد نفوا الى جنوبي اسبانيا أو الأندلس فانتقل بهم الى أفريقيا وفتح مدينة هيسبون وأكره الامبراطور فالانتينيان على الاعتراف باستقلال قومه في تلك الأرض (٤٣٥) ثم فتح قرطاجنة (٤٣٩) وأنشأ فيها عمارة كانت تنهب كل شواطىء البحر المتوسط وفي سنة ٤٥٣ أخذ رومة عنوة واستباحها نهباً وسلباً مدة ١٤ يوماً.

ذكر أتيلا

عندما ظهر هذا الطاغية الذي لقب نفسه بنقمة الله على الأرض كانت قد تأسست الممالك البربرية الأربع التي أشرنا اليها آنفاً. وكان أتيلا قد قتل أخاه بليدا وانفرد في السلطنة على أمة الهون التترية وجميع الشعوب التي كانت مقيمة على ضفة الدانوب. وكان يقطن بيتاً من خشب في صحراء بانونيا ومنه يصدر الأوامر الى تيودوسيوس الثاني أمبراطور الشرق ويتقاضى منه الجزية بموجب معاهدة مارغوس التي عقدها معه إلا أن جنسريك لم يلبث أن استدعاه الى الغرب لأمر في نفسه فلباه واجتاز الشمال الشرقي من غاليا هادماً كل شيء في طريقه وحاصر أورليان فأقصاه عنها الفيزقوط والأفرنك والبرغوند والساكسونيون والرومانيون بعد موقعة شالون

الكبيرة الى ما وراء الرين فانقض على إيطاليا ثانية وهدم كثيراً من مدائنها ومنها أكيلة التي رحل عنها سكانها وشيدوا البندقية.

ولما رجع الى بابونيا توفي فيها (٤٥٣) بداء فجائي وتمزقت بعده مملكة الهونيين كل ممزق بسبب تخاصم أبنائه ومنازعاتهم وعلى هذا النمط أصبح ملوك رومة ألاعيب بأيدي زعماء البرابرة الأقوياء الى سنة ٤٧٦ التي استقل فيها وادواكر الهيرولي بملك ايطاليا وهدم سلطنة الغرب.

— ٣٤ —

الممالك البربرية الكبرى

ممالك غاليا واسبانيا وأفريقيا

علمنا مما سبق أن الاريك وخلفاءه أنشأوا مملكة الفيزقوط في غاليا واسبانيا وكانت تمتد من نهر اللوار الى بوغاز جبل طارق وان جنسريك أوجد مملكة أفريقيا وأن اتيلا لم يترك الا الدمار.

وقد تأسست أيضاً مملكة للبرغند في وادي نهري السون والرون في سنة ٤١٣ وكانت عاصمتاها ويانة وجنيفا وتولى الأحكام فيها ثمانية ملوك خاملين ثم فرض الجزية عليها كلوفيس في سنة ٥٠٠ وافتتحها بنوه في سنة ٥٣٤.

وقامت قبيل هذه في سنة ٤٠٩ مملكة لليونيين في غاليسيا من اسبانيا وفي عهد ملكيها ريشيليا (٤٤١) وريشيار (٤٤٨) أوشكت أن تضم اليها جميع اسبانيا لو لم يحاربها القوط ويخضعوها سنة ٥٨٥.

ممالك السكسونيين في انكلترا

كان سكان بريطانيا منقسمين الى ثلاثة اقسام الكاليدونيين في الشمال وهم البيكت والسكوتس سكان ايكوسا وهؤلاء لم يستطع الرومانيون أن يخضعوهم.

واللوغريين في الشرق والجنوب وهؤلاء خضعوا لرومة. والكمبريين في الغرب وكانوا أمنع من العقاب في جبالهم. ولما ترك اللوغريون في سنة ٤٢٨ بدون حامية رومانية واغار عليهم البيكتيون فاستباحوهم استنجدوا (٤٥٥) بالسكسونيين والجوتيين والانكليين من قرصان المانيا فلبوهم بقيادة زعيمين يدعيان هانكيست وهورسا وفتكوا بالبيكتيين وكوفئوا على ذلك بأن وهبوا جزيرة ثنت على ساحل كنت فلم يلبث هانكسيت أن ضم اليها البلاد الممتدة من التاميز الى بحر المانش ولقب نفسه بملك كنت (٤٥٥) فاقتدى به سائر زعماء القرصان وشيدوا في سنة ٤٩١ مملكة سوسكس أو السكسونيين الجنوبيين وفي سنة ٥١٦ مملكة ويسكس أو السكسونيين الغربيين وفي سنة ٥٢٦ مملكة أسكس أو السكسونيين الشرقيين وفي سنة ٥٤٧ حدثت غارة الانكليين وشيدوا مملكة نورثمبرلند ثم مملكة استانكلي (٥٧٧) ثم مملكة مرسي (٥٨٤). فكانت جملة ممالك انكلترا سبعاً توحدت بعد ذلك.

مملكة الاستروقوط في ايطاليا وفي ذكر تيودوريك (٤٨٩ــ ٥٢٦)

عندما توفي اتيلا تحرر الاستروقوط من ربقة الهونيين وجعلوا زعيما عليهم في سنة ٤٧٥ رجلاً يدعى تيودوريك سليل أحد أمرائهم كان قد ارتهن في القسطنطينية وربي فيها. فلما تولى رئاسة قومه أوعز اليه زينون امبراطور الشرق بافتتاح إيطاليا ففعل وأقيم ملكاً عليها وطرد الهيروليين (٤٨٩ــ ٤٩٣) ثم أضاف الى مملكته ايليريا وبانونيا وتوريكا بالمعاهدات السلمية وعمالة مرسيليا بالسيف. وضرب الجزية على البافاريين وأنجد الألامانيين في محاربتهم لكلوفيس. وعند وفاة الاريك الثاني اقامه وصياً على حفيدة الماريك فساس المملكتين القوطيتين احسن سياسة وكان ذا قربى وود مع جميع الملوك البرابرة وذا تساهل في الدين. قرب منه العلماء والكتاب وابقى مجلس الشيوخ والمجلس البلدي في رومة ورمم الابنية والقصور والترع والجسور وأصلح الاراضي للزراعة ووزعها على الناس من قاطنين ووافدين وتوفي سنة ٥٢٦ ولم يدم استقلال شعبه بعده الا قليلاً. وهكذا انقضى اجل الفنداليين والهيروليين والسويفيين والبرغند والقوط الجنوبيين والقوط الشرقيين.

— ٣٥ —

تاريخ السلطنة الشرقية

ذكر اركاديوس (٣٩٥— ٤٠٨)

يلخص مما تقدم أن ثلاث عشرة مملكة قامت مقام السلطنة الغربية اما السلطنة الشرقية فنجت من الغارة مع ما كانت عليه من الخور والخصومات الداخلية والمنازعات الدينية ووقوع احكامها بين أيدي الخصيان والنساء على ما ستراه موجزاً.
وكان اركاديوس أول قياصرة السلطنة الشرقية بعد أن فصلها أبوه هونوريوس عن السلطنة الغربية وكان ضعيف الرأي القى ازمة الاحكام بين ايدي زوجته أودوكسيا ووصيه وأكبر حجابه وهو الذي ابطل عبادة الأصنام في مصر وأيد بدعة اريوس في النصرانية.

ذكر تيودوسيوس الثاني (٤٠٨— ٤٥٠)

وخلف اركاديوس ابنه تيودوسيوس الثاني وكان اشبه بابيه في ضعف الجنان وقد تولت الحكم عنه اخت له تدعى بوليخريا فاحسنت السياسة وادارة شؤون البلاد وغلبت الفرس في سنة ٤٢٣ وكسبت منهم نصف ارمينيا ثم انتصرت على سلطنة الغرب فانتزعت منها ايليريا الغربية. ولما اغار الهون على السلطنة عقدت معهم معاهدة اقرت فيها بتأدية الجزية لهم وبعدم مخالفة اية دولة يكونون اصدقاءها. ومن أهم الحوادث التي جرت في عهد القيصر المشار اليه انعقاد مجمع افسس للفصل في امر البدعة النسطورية (٤٣١) وصدور التيودوسي وكان أول مجموعة رسمية من هذا القبيل.

ذكر مرسيانوس (٤٥٠— ٤٥٧)

وقام بالأمر بعده مرسيانوس وكان دنيء الأصل ترقى باجتهاده الى اعلى المناصب ثم تزوج ببوليخريا على أثر وفاة أخيها وكانت قد بويعت بالامبراطوريه فتولاها معها

وهو الذي زين لاتيلا السطو على السلطنة الغربية للتخلص منه وفي عهده عقد مجمع خلقدونيا.

ذكر ليون الأول والثاني وزينون الأول وباسيليكوس واناستاسيوس ويوستينوس الأول (٤٥٧ــ ٥٢٧).

لم يحدث في السلطنة شيء يذكر لعهد هؤلاء القياصرة الخاملين الذين اشتغلوا بالمنازعات الدينية أكثر مما اشتغلوا بسياسة البلاد. غير أن أحدهم اناستازيوس فعل امرين مشكورين وهما ابطال مصارعة الحيوانات الضارية واقامة سور حول القسطنطينية ليقيها غارة البلغار وغيرهم والآخر يوستينوس احسن بتبنيه يوستينيان ابن اخته ليعهد اليه بالأمر من بعده.

ذكر يوستينيان (٥٢٧ــ ٥٦٥) ونهضة سلطنة الشرق على يده

هو أشهر ملوك السلطنة الشرقية ببسالته وحكمته وحسن ادارته. ولد من بيت حقير وارتقى سلم التقدم الى اسماه وكان سلافي الأصل وفي عهده عادت للسلطنة ابهتها وعلا منارها فانه بعد أن حارب الفرس مدة اربع وثلاثين سنة وضمن سلامة التخوم الشرقية منهم عقد معهم صلحاً سنة ٥٦٢ وفي سنة ٥٩٥ رد غارة البلغار عن القسطنطينية وكان قد حارب مملكة الفندال في الغرب فاسقطها على اثر موقعة تريكامرون سنة ٥٣٤ وكذلك حارب مملكة الاسترقوط فدمرها عقيب موقعة تاجينا التي انتصر فيها خصي له يدعى نرسيس وكان ذلك سنة ٥٥٢. ومن مآثره السلمية نشرة الكتب القانونية التي ابقت للخلف اعظم ما وضعه السلف من مواد التشريع واهمها ما عهد به الى جماعة من العلماء من جمع كل المنشورات والمراسيم التي اصدرها ملوك الروم والرومان قبله وتنقيحها واصدارها مجموعة في كتاب واحد. ومن اعماله المشكورة أيضاً توسيعه نطاق المعارف والآداب وأخذه بناصر الصنائع. الا أنه شقي في حياته بفساد سيرة امرأته وبما وقع على السلطنة من كوارث الطاعون والزلازل فضلاً عن مصائب الحروب التي ادارها.

على أن ارتفاع شأن السلطنة الشرقية لم يكن الا قصير الأمد اذ لم تمض ثلاث سنين على وفاة يوستينيان حتى عادت طائفة اللمبرديين فانتزعت ايطاليا من تلك السلطنة واستولت عليها مدة مئتي سنة الى أن أخذها منها كارلوس الأكبر.

ذكر يوستينوس الثاني (٥٦٥— ٥٧٤) وطيبريوس الثاني (٥٧٤— ٥٧٦).

أهم ما جرى في عهده انسلاخ ايطاليا من السلطنة ونهب طوائف الافار للولايات الواقعة على الطونة ومعاهدة الاتراك النازلين بجهات بحر طبرستان لدولته على الفرس.

وقام بالأمر بعده طيبيريوس الثاني فحارب الفرس ولم يتمكن من عقد صلح معهم ورد طوائف الافار بالرشوة عن ولايات الطونة.

ذكر موريس (٥٧٦— ٥٨٣) وفوكاس (٥٨٣— ٦١٠)

وخلفه موريس فصالح الفرس ثم سار لمحاربة الافار فثار عليه الجنود باغراء من فوكاس وقتلوه واولاده وقام بعده فوكاس فكان خاملاً أنثا ظالماً وفي عهده استولى الفرس على ما بين النهرين وارمينيا وسوريا وجانب من آسيا الصغرى ثم خرج عليه رعاياه فانتصروا عليه في موقعة بحرية هائلة وقتلوه.

ذكر هرقل الأول (٦١٠— ٦٤١) وعدة من القياصرة (٦٤١— ٧٤١)

وقام بالأمر بعده هرقل الأول وكان حكيماً باسلاً حاول أن ينهض بالسلطنة ويعيد اليها ماضي رونقها فلم يجد فيها من بقية القوة ما يساعده على انفاذ عزيمته بل اغارت على مملكته طوائف الافار من جهة فاخذوا املاكها الأوربية وسطا عليها الفرس من جهة أخرى فانتزعوا منها آسيا الصغرى وفلسطين ومصر حتى انحصرت الدولة كلها في القسطنطينية فيئس هرقل وعزم على مفارقة عاصمته ثم اتخذ من الضعف قوة ومن اليأس املاً فجهز جيشاً واستأنف محاربة الفرس فانتصر عليهم في عدة مواقع واسترد بعض املاكه المفقودة وعقد معهم صلحاً جميلاً ثم اعاد الكرة عليهم وتابعهم الى حدود مملكتهم. وكان بعض قواده قد دفعوا غارات شنتها البرابرة

على القسطنطينية. وكانت السلطنة قد اشتد ضعفها على أثر هذه الحروب بحيث اخلد هرقل الى السكون واشتغل بالمنازعات الدينية بينما كان المسلمون في خلافة أبي بكر الصديق يفتتحون دمشق واورشليم وكثيراً من مدن سوريا ويدحرون جيوشه ويستولون على ما بين النهرين وفلسطين ومصر. وفي سنة ٦٤١ توفي هرقل الأول وكانت عدة ممالك للصقالبة قد قامت على جوانب النوبة وخلعت طاعته.

وخلفه ابنه هرقل الثاني فحكم بضعة أشهر ثم خلف هرقل قسطنطين الثالث وكانت مدته قصيرة أيضاً ثم قام بعده هرقليوناس بن مارتين فنفته الرعية واقامت مكانه قسطنطين الثاني فحكم سبعاً وعشرين سنة وفي عهده استتم العرب فتح أكثر ما بقي من أملاكه باسيا واخذوا رودس وقبرس بحراً فتخوف ولجأ الى صقليا وأخذ ينتهب اموال اهلها بدعوى الاستعداد للحرب فقتلوه. وتولى الملك بعده قسطنطين الرابع بوغوناتس وفي مدته حاصر المسلمون القسطنطينية ثم ارتدوا عنها فشلين.

وقام بعده يوستينيان الثاني فخلع ثم اعيد ثم قتل وقام بعده فيليبيكوس باردانيس الارمني الأصل فخلع ونفي وجلس على السرير بعده انتاثيوس الثاني. انتخبه الشعب لصلاحه فاحسن ادارة المالية والحرب وقاوم جيوش العرب وكان له مناظر قوي عليه فاضطره الى التنازل له عن الملك ثم قتله وقام مكانه تحت اسم تيودوسيوس الثالث فلم يملك الا قليلاً ثم تنازل لمناظر له ملك تحت اسم ليون الثالث ورد غارة شنها العرب على القسطنطينية وأيد بدعة محو الصور والتماثيل من الكنائس.

وجهز اسطولاً لمحاربة ايطاليا فدمرته الانواء. وقامت بسبب هذه البدعة فتن كثيرة في العالم المسيحي وجرت من اجلها الدماء.

ذكر عدة قياصرة آخرين (٧٤١— ١٢٠٤)

وخلف ليون الثالث قسطنطين الخامس (٧٤١— ٧٧٥) وكان كساراً للصور محارباً استرد من العرب بعض أملاكه المسلوبة في سوريا وارمينيا ودمر اسطولهم بقرب قبرس وانقلب على البلغار يناوئهم فادركه أجله (٧٧٥) وقام بالأمر بعده ابنه

ليون الرابع (٧٧٥— ٧٨٠) وخلف هذا ابنه قسطنطين السادس (٧٨٠— ٧٩٢) وجلس على السرير بعده اخوه نيقفور لوغوتيت (٧٩٢— ٨١١) فحاربه الخليفة هرون الرشيد وضرب عليه الجزية وقام بالأمر بعده ميخائيل الأول صهره (٨١١— ٨١٣) وكان حسن السيرة حارب البلغار فكسروه ثم حدثت ثورة في القسطنطينية فعاد لتسكينها وعقد لقائد يدعى ليون أولاون على الجيش فقويت بذلك شوكة ليون ونفى الملك وقام مكانه وغلب البلغار ثم قتله الشعب (٨١٣— ٨٢٠) وقام بعده ميخائيل الثاني (٨٢٠— ٨٢٩) وقد انتزع منه العرب جزيرة صقلية وكالابرة والاندلسيون جزيرة اقريطش. وقام بعده ابنه تيوفيلوس (٨٢٩— ٨٤٢) فحاصر حصن زبطره ونكل فيه بالمسلمين لعهد خلافة المعتصم فاستعظم الخليفة ذلك وجاء بروسه أو عمورية في ثلاث فرق ضخمة فاستباح المدينة ودمرها بعد قتال شديد ومات تيوفيل على اثر ذلك غماً وخلفه ميخائيل الثالث (٨٤٢— ٨٦٧) وفي زمانه اغار الروس على القسطنطينية فلم يفتح عليهم. وفيه ايضاً كان انشقاق الكنيسة الاغريقية عن الكنيسة اللاتينية سنة ٨٥٢ وقام بعده باسل الأول المقدوني(٨٦٧— ٨٧٨) فاحسن السياسة واسترد قيسارية من المسلمين وحمى دلماسيا وراغوزه من الاغالبة ونشر القوانين العادلة وكانت وفاته سنة ٨٧٨ وخلفه ابنه ليون اولاون السادس الملقب بالفيلسوف (٨٧٨— ٩١١) فحارب المجر والبلغار والمسلمين ففشل في كل مواقعه ثم استعان بالاتراك فاتخذوا ذلك فرصة وافتتحوا جزيرة ساموس بينما كان اللمبرديون ينتزعون آخر ما بقي للسلطنة من الاملاك بايطاليا ولم يفلح في شيء سوى رده اساطيل الروس عن اجتياز البسفور لفتح القسطنطينية وفي عهده اخذ الاغالبة سلانيك ثم انتزعها البنادقة منهم.

وكان عاقلاً حكيماً مقرباً لأهل الفضل ومن مآثره نشره مجموع القوانين المعروف بالباسيلي. وقام بالأمر بعده اخوه اسكندر فاشرك في الحكم معه اخاه قسطنطين السابع وبوفاته اشرك قسطنطين اخاه رومانوس ثم نفي رومانوس فاشرك قسطنطين معه في الحكم اولاده الثلاثة وفي عهده اغار الروس والمجر على جوانب السلطنة فاستباحوها ولكنه تمكن من احراق الاسطول الروسي فنجا ملكه بذلك وكانت وفاته

سنة ٩٤٨ وقام بعده حفيده رومانوس (٩٥٩ــ ٩٦٣) فاساء السيرة في الداخل ولكن قواده استردوا له اقريطش من المسلمين وقبض على زمام الاحكام بعده نيقفور الثاني فوكاس (٩٦٣ــ ٩٦٩) وكان باسلا استرد من المسلمين بلاد سيليسيا وقبرس وجانيا من سوريا ثم تغلب عليه العرب بحراً وقتله قائده يوحنا ذي مسيس بمؤامرة وجلس على السرير بعده تحت اسم يوحنا الأول (٩٦٩ــ ٩٧٦) فحارب الروس وأخذ منهم بلاد البلغار واسترجع فلسطين ثم قتل في اثناء رجوعه فاستولى عليها العرب ثانية.

وقام بالحكم بعده باسيليوس الثاني (٩٧٦ــ ١٠٢٥) مشتركاً فيه مع أخيه قسطنطين فدامت ولايته خمسين سنة تغلب في خلالها على الروس وضم البلغار الى مملكته وخلفه اخوه قسطنطين التاسع (١٠٢٥ــ ١٠٢٨) ثم خلف قسطنطين المذكور رومانوس الثالث أرجير (١٠٢٨ــ ١٠٣٤) هزم الاتراك جيوشه في عدة مواقع فخبث بعد الجودة وضايق الرعية ثم قتلته امرأته وتزوجت بصيرفي تحبه فملك تحت اسم ميخائيل الرابع (١٠٣٤ــ ١٠٤١) وانتصرت جنوده بعض نصرات على المسلمين والبلغار وخلفه ميخائيل الخامس القلنطي مدة سنة ثم قسطنطين العاشر (١٠٤٢ــ١٠٥٦) وفي عهده تم الانفصال النهائي بين الكنيستين الغربية والشرقية. وخلفه اسحق كومانينوس (١٠٥٧ــ ١٠٥٩) ثم تنازل عن الملك لقسطنطين دوكاس الحادي عشر (١٠٥٩ــ ١٠٦٧) وفي عهده اشتد بأس السلاجقة وضخمت دولتهم بما غنموا من املاك السلطنة واخذ النورمانديون كالابرة وخلفه رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ــ ١٠٦٩) ووقعت بينه وبين السلاجقة حرب افضت الى اسره فعامله الب ارسلان امير السلاجقة بالحلم والاكرام وأخذ عليه ميثاقاً بأنه لا يحارب قومه ولما عاد كان قد تنصب في مكانه ميخائيل السابع دوكاس (١٠٦٩ــ ١٠٧٨) وفي زمانه فتح السلاجقة معظم آسيا الصغرى وقام بعده نيقفور بوتانياس (١٠٧٨ــ ١٠٩٥) فارسل نيقفور برينوس ليخمد ثورة قام بها الجنود في ايليريا ففعل ثم بايعه الجنود فخلفه تحت اسم الكسيس كومينينوس (١٠٩٥ــ ١١١٨) وقد انتصر على السلاجقة في مواقع صغيرة وانتصر عليه البلغار وهو الذي

استنجد بالغربيين على المسلمين فكان من المحركين للحرب الصليبية فلما مر جنود الصليب من بلاده واساؤا السيرة فيها امتنع عن امدادهم بجيش لفتح انطاكية ولكنه افتدى اسراهم فيما بعد. فلما كانت الحملة الثانية تعهد بتقديم جيش امداداً للصليبيين واقطعهم البقاع التي يفتتحونها.

وقد استرد نيقا والجزء الغربي من آسيا الصغرى بمساعدة الفرنسويين. وقام بالأمر بعده الملك الباسل العادل يوحنا الثاني كومينينوس (١١١٨ — ١١٤٣) فلم يهرق قطرة دم في سبيل ارتقائه السرير وهزم الفرس وطردهم من فريجيا واخرج الاسكيثيين من بلاد التراس واسترجع جانباً من آسيا الصغرى واوصل تخومه الى آسيا. وكان مع كثرة مغازيه حليماً حكيماً حسن السيرة.

قام بعده ابنه مانويل كومينينوس (١١٤٣ — ١١٨٠) فحالف السلاجقة على الصليبيين وكان مقدمهم اذ ذاك ملك المانيا سنة ١١٤٧ وحليفهم روجر ملك صقليا فساءهم ذلك منه فهجم روجر بجيوشه على السلطنة وفتك بأهل طيبة وقرنثية انتقاماً من الامبراطور. ثم أن السلاجقة نقضوا عهد مانويل في سنة ١١٧٦ وابادوا جيشه في اسيا الصغرى فحمل عليهم واوقع بهم ايقاعاً بالقرب من نهر مياندرو واستولى على جزيرة قرفو وانتقم بذلك من عدويه السلطان عز الدين السلجوقي وروجر ملك صقليا.

وخلفه ابنه الكسيس الثاني اندرونيكوس (١١٨٠ — ١١٨٤) ولم يجر في عهده ما يذكر ثم خلفه اسحق الملقب بالملك وفي مدته استرجع البلغار استقلالهم واغار الصقالبة على السلطنة فارتدوا عنها فشلين. وخلع هذا الأمبراطور اخوه الكسيس الثاني وجلس على سريره ثم اعاد الصليبيون اسحق ثم خلعه اخوه ثانية واستبد بالحكم ألكسيس الخامس دوكاس فلم يلبث أن خلعه الصليبيون لمناوأته لهم واستولوا على القسطنطينية.

ذكر الفرنسويين الذين جلسوا على سرير القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦١)

ونصب الصليبيون قائدهم الكونت بودوين او بلدوين صاحب بلاد فلندر على

تخت القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٠٦). فقتل الكسيس وقسم الجانب الاوربي من السلطنة الى اربعة اقسام فكان احدها للامبراطور وهو ربع القسطنطينية وبعض القلاع بساحل اسيا والجزائر المجاورة للدردنيل والولايات التي كانت تخص التاج الامبراطوري وكان الثاني يشتمل على مقدونيا وقسم من اغريقيا تحت اسم مملكة سلتيك والثالث يشتمل على سواحل البحر الادرياتيكي والبحر الاسود وقسم من المورة وأكثر جزائر صقلاده واسبوراده واقريطش ونغربنطس وبلاد كليبولي والحق هذا القسم بجمهورية البندقية والرابع عدة امارات ودوقيات اقطعت للقساورة الفرنسويين مثل دوقية اثينا وبيوسيا وامارة اخائية والمورة. بقيت ثلاثة الارباع الاخرى من القسطنطينية فهذه قسمت بين جماعة من رؤساء المحاربين الفرنسويين والبندقيين والشراقيين. اما الجانب الاسيوي من السلطنة فاستقل تحت حكم امبراطور ولاه مجلس الشيوخ يدعى تيودوروس لاسكاريس اتخذ نيقا كرسياً له. وقد قامت أيضاً امبراطورية اخرى من اشتات السلطنة عرفت بامبراطورية طرابزون وكانت على شواطىء البحر الاسود الجنوبية الشرقية وتولاها اميران من بيت الكسيس.

ولما تولى بودوان المتقدم ذكره استعان عليه أهل الاغريق بيوانيس ملك البلغار فاتاه في جيش جرار وهو مشتغل بقمع ثورة في ادرنة وغلبه وقتله على ما يقال (١٢٠٦) فقام على تخت القسطنطينية بعده اخوه هنري دوهينوت (١٢٠٦ — ١٢١٧) فانتصر على البلغار والاغريقيين ثم قتل مسموماً واجلس الجيش الفرنسوي مكانه بطرس دي كورتناي (١٢١٧) فاسره امير ابير وقتله في السنة نفسها ثم خلفه ابنه هنري دي كورتناي الى سنة ١٢٢٨ فاشتغل بملاذه عن تدبير ملكه وفقد اقاليم اسيا الصغرى وادرنه ثم قام بعده بودوان الثاني بن بطرس دي كورتناي (١٢٢٨ — ١٢٦١) فسافر الى اوربا يستمد النجدة ليقوى على البلغار من جهة وامبراطور نيقا من الجهة الاخرى فلم يجب الى سؤاله فعاد الى القسطنطينية ثم لم يلبث أن استولى عليها امبراطور نيقا وطرده منها سنة ١٢٦١ ففر من وجهه الى ايطاليا ومات فيها (١٢٦٣)

في آخر ملوك القسطنطينية من اليونان (١٢٦١ — ١٤٥٣)

وقام هذا الفاتح تحت اسم ميخائيل الثامن باليولوغوس على سرير القسطنطينية (١٢٦١ — ١٢٨٢) فأتم حروبه في بلاد اليونان وبحر الارخبيل ثم أدركته منيته وهو يحارب التراسيين. وخلفه ابنه اندرونيكوس الثاني (١٢٨٢ — ١٣٢٨) فحكم حكم شؤم وضعف وقام بعده اندرونيكوس الثالث باليولوغوس (١٣٢٨ — ١٣٤١) فحالف كثيرين من ملوك اوربا على أمل أن يساعدوه في رد غارة العثمانيين الذين كانوا قد افتتحوا قسماً كبيراً من أملاكه الاسيوية وادركوا سواحل اوربا فلم يستفد من محالفته امراً مذكراً ثم خلفه يوحنا الخامس باليولوغوس (١٣٤١ — ١٣٩١) فاشتغل بخصومات بيتية ومحاربات أهلية تارة بينه وبين ابنه وطوراً بينه وبين بعض المدعين بحق لهم في الملك. وفي هذه الأثناء فتح العثمانيون كاليبولي (١٣٥٧) ثم فتحوا أدرنة التي اتخذها السلطان مراد كرسياً له (١٣٦١) ثم استولوا على مقدونيا وجانب من البانيا فقبل يوحنا بحمل الجزية الى سلطان العثمانيين ولما تولى بايزيد بعد مراد المذكور فتح كثيراً من مدائن اسيا. وفي سنة ١٣٩١ توفي يوحنا وجلس على التخت ابنه مانويل الثاني باليوغولوس (١٣٩١ — ١٤٢٥) وفي عهده حاصر السلطان بايزيد القسطنطينية ثم رفع الحصار وذهب لمحاربة المجر فتغلب عليهم وعاد الى القسطنطينية فعقد صلحاً مع ملكها سنة ١٣٩٧ وفي سنة ١٤٠٠ حاصرها ثانية الا أن غارة تيمورلنك على السلطنة العثمانية اضطرته الى تركها والعودة الى اسيا ولما تولى السلطان مراد الثاني قصد القسطنطينية في جيش جرار ثم اضطرته بعض الحوادث الأهلية للرجوع عنها فعقد صلحاً مع ملكها وقام بعد مانويل الثاني ابنه يوحنا السابع (١٤٢٥ — ١٤٤٨) ورأى الخطر المحدق بدولته فالتمس من البابا الدعوة الى حرب صليبية للدفاع عنه ووعد بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية الا أن اوربا كانت مشتغلة عن تلك الدعوة بمنازعاتها الداخلية وفي سنة ١٤٤٤ حاصر السلطان مراد خان القسطنطينية ثم انصرف عنها لما أكثر يوحنا من الضراعة اليه بذلك وخلف يوحنا هذا اخوه قسطنطين الثالث عشر داركوسيس (١٤٤٨ — ١٤٥٣) وكان لم يبق له من الملك الا القسطنطينية وبقعة صغيرة حولها فاستنجد بملوك اوربا

فلم يجيبوه الى سؤله فحاصره السلطان محمد الثاني الفاتح ولم تكن حامية القسطنطينية الا اثني عشر الف جندي وكانت محصنة بالقلاع التي تقذف النيران وكانت بمدخلها سلسلة ترد السفائن عنها. أما محمد الفاتح فاستصنع طريقاً امر السفن من فوقها حتى انزلها داخل المينا وفتح المدينة بعد ان دام حصارها ثلاثة وخمسين يوماً وجاهد قسطنطين في الدفاع جهاد الابطال حتى قتل وكانت سنة ١٤٥٣. وفي سنة ١٤٦٠ خضعت للأتراك امارة المورة وكان قد استقل بها اثنان من ابناء قسطنطين المذكور آنفاً وفي سنة ١٤٦١ خضعت دولة طرابزون وعلى هذه الصورة انحلت السلطنة الشرقية وقامت في مكانها الدولة العثمانية.

تأثير السلطنة الشرقية على الأمم التي استحدثت

كان من نوابغ الفلاسفة والعلماء والكتاب نفر قلائل في هذه السلطنة اذ اقتصر شغل المشتغلين فيها على التحدي والنقل ولا شك أنهم بذلك افادوا كثيراً لأنهم حفظوا كنوز اللغة اليونانية الأصلية من العلوم والآداب. وكانت للبيزنطيين اليد الطولى والمكانة الأولى في فن البناء والنقش حتى ان القوط أخذوا عنهم ومن أجل مآثر ملوكهم، جمع القوانين واخصها ما تركه يوستينيانوس. وهم الذين جلبوا دود القز واتخذوا الانسجة منه وابتنوا الطواحين التي يديرها الهواء.

وكانوا على الجملة اهل دعة ورخاء لا حزم لهم في السياسة ولا عزم يدفعهم على الاعمال الخطيرة ولم يكن عندهم من حب الوطن مثقال ذرة لمقتهم حكامهم واشتداد وطأة المظالم عليهم ولولا هذه المعايب التي كانت تقرض جسم مجتمعهم لما أسرع اليهم الفناء مع المنعة التي كانت عليها سلطنتهم وعلى الخصوص عاصمتها.

— ٣٦ —

ذكر كلوفيس والميروفنجيين (٤٨١ — ٧٥٢)

الافرنك

في القرن الثالث قبل الميلاد تألف من الجرمانيين على الضفة اليسرى من الرين

اتحادان أحدهما في الغرب وهو اتحاد القبائل السويفية التي دعيت بالالاميين أي الرجال والآخر في الشمال وهو اتحاد الساليين والسيكمبر والبروكتر والشيروسك والكاتيين وطيرهم ودعوا بالافرنك أي الباسلين.

وأول ما جرى من ذكر الافرنك على أقلام الكتاب الرومانيين كان في سنة ٢٤١ حين دحرهم النائب اوريليان بقرب الرين الأدنى. ومن الافرنك اناس بلغوا اسمى المناصب في السلطنة الغربية. منهم ابروغاست الذي كان الوزير الأول لفالانتينيان الثاني ثم تقلد الارجوان واستقل بقومه وبلاده وبعد وفاة هذا الرجل باثنتي عشرة سنة حاول الافرنك صد الغارة الكبرى التي جرت في سنة ٤٠٦ فلم يستطيعوا.

ورأوا أن الامبراطور تخلى عن داخلية البلاد الغالية ففتحوها وأحدثوا أربع ممالك وهي كولونيا وتورناي وكامبراي وتيروان. وكان أحد الملوك الاربعة كلوديون وهو أول ملك ثبت وجوده بالتحقيق وقيل ان رجلاً يدعى فارامون كان مالكاً قبله والأدلة قليلة على صحة هذا القول. وكان من كلوديون المتقدم ذكره أنه فتح تورناي وكمبراي وقتل جميع الرومانيين الذين وجدهم فيهما وتقدم الى مدينة سنس فغلبه القائد الروماني اكتوس (٤٤٨). ولم يعش الا قليلاً بعد انكساره ثم خلفه قريبه ميروفي رأس السلالة الميروفنجية فاتحد مع سائر الشعوب البربرية في غاليا لمحاربة اتيلا بقرب شالون على ما رويناه ويقال انه قتل في هذه الموقعة ثلاثمئة الف محارب.

وفي سنة ٤٥٨ خلفه ابنه شيلدريك وكان سكيراً فاسد الاخلاق فطرده الافرنك وولوا مكانه القائد الروماني اجيدوس وبعد ثمانية اعوام استرجعوه وحكم الى أن أدركه اجله سنة ٤٨١. وخلفه ابنه شلودويك أو كلوفيس مؤسس المملكة الافرنكية.

ذكر كلوفيس (٤٨١)

وفي سنة ٤٨١ كان كلوفيس ملكاً على بعض المراكز من بلجيكا وقائد اربعة أو خمسة آلاف مقاتل من الافرنك الساليين وبعد توليه الحكم بخمس سنين حالف رانياشير ملك كمبراي وتغلب على سياغريوس بن اجيدوس بقرب سواسون وكان

عاملاً لرومة على البلاد الواقعة بين نهري السوم واللوار ففرسياغريوس ولجأ الى بلاد الويزقوط فاكرههم كلوفيس على تسليمه له واعدمه واخضع تلك البلاد ، وفي سنة ٤٩٣ تزوج بكلوتيلدا ابنة ملك البرغند وكانت مسيحية ارثوذكسية فاستبشر الاساقفة بهذا القران وفتحوا للملك ابواب اميان وبوفاي وباريس وروان . والمروي ان الالاميين كانوا قد تجاوزوا الرين فذهب كلوفيس لمقاتلتهم وكاد يتقهقر امامهم فدعا اله كلوتيدا فعادت اليه شجاعته ففاز على اعدائه وردهم منكسرين الى ما وراء النهر حتى بلاد السواب . وفي رجوعه من هذه الحرب تنصر في كنيسة رمس وتنصرت معه اخته (٤٩٦) .

وكان كلوفيس قد حالف أهل بلاد الأرموريك ففتك بالبرغند (٥٠٠) وكسر ملكهم وضرب عليه الجزية وبعد هذا الانتصار حارب الويزيقوط فقتل ملكهم الاريك الثاني بقرب بواتيه (٥٠٧) ففتحت له ابواب فوجله وسنت وبوردو وتولوز وبرجوعه من هذه الحملة الى باريس التي كانت كرسيه وجد سفراء قد اتوه من قبل الامبراطور انسطاس بالارجوان والاعتراف بملكه . وفي اواخر سني حياته قتل ملكي كولونيا وملك كمبراي وملك منس وضم بلادهم الى مملكته وتوفي سنة ٥١١ في الخامسة والاربعين من عمره ودفن في كنيسة الرسل التي كان قد شيدها واستمر حكمه ثلاثين سنة .

ابناء كلوفيس (٥١١ — ٥٦١)

اقتسم ابناء كلوفيس الاربعة ملكه وجنوده الامناء وافتتح احدهم وهو ملك متس تورنجيا واخواه وهما ملك سواسون وملك باريس بورغونيا . وفي سنة ٥٣٣ سار ملك متس بقومه الاسترازيين للفتك بالاستروقوط الايطاليين فاجلوهم عن عدة ولايات ايطالية واجتازوا جبال الألب واستباحوا ايطاليا كلها حتى وصلوا الى بوغاز مسينا . وفي ذلك الوقت استولى ملكا باريس وسواسون على ولاية بمبلونه في اسبانيا . فكانت سلطة الافرنك قد تجاوزت حدود غاليا واعترف لهم الالامانيون والبافاريون بالسيادة وحمل السكسونيون اليهم الجزية .

ذكر فريدغوند وبرونهو ومعاهدة اندلو (٥٨٧)

وفي سنة ٥٥٨ خلف كلوتير ملك سواسون وليموج اخوته الثلاثة فاتحدت المملكة الافرنكية ثانية بين يديه ولما دنا أجله قسمها بين بنيه الاربعة. ومن ذلك العهد وقع الشقاق والتناظر بين الافرنك الشرقيين أو الاسترازيين والافرنك الغربيين او النستريين. وكان سيجبرت ملك اوسترازيا قد تزوج برونهو ابنة اتاناجلد ملك الويزيقوط وتزوج شيلبريك غالسوينت اخت برونهو وكانت للأخير معشوقة تدعى فريدغوند فاحتالت حتى اماتت ضرتها خنقاً وأخذت مكانها (٥٦٧). فحملت برونهو زوجها على محاربة ملك نستريا انتقاماً لاختها ففعل وانتصر عليه وأوشك أن يضم تاج نستريا الى تاجه لو لم يعاجله القضاء المبرم اذ أوعزت فريدغوند الى اثنين من خدمها الامناء بقتله فطعناه في جنبيه بمديتين مسمومتين فمات (٥٨٥) عن ولد قاصر تولى مدير القصر ادارة الشؤون بالنيابة عنه.

ثم قتل شيلبريك في سنة ٥٨٤ واغار بعد ذلك اللمبرديون على بروفنسا وقامت ثورة في غربي غندولند اشترك فيها المحاربون من برغند واسترازيين فاتحد غنتران ملك اورليان وشيلدبرت الثاني ملك استرازيا لاخماد الثورة وعقدا بينهما معاهدة اندلو القاضية على من يموت منهما بلا ذرية بأن يستخلف الآخر. ولكن الملك لم يلبث أن عاد الى برونهو بالوصاية على حفيدين لها قاصرين وكانت ذكية عالمة فحكمت في استرازيا وبرغونيا مؤيدة للعدل منشطة لارباب الفنون مدمرة لعبادة الاوثان معضدة للدين المسيحي كابحة لجماح اللود واللود اسم جماعة العساكر الذين كان يختصهم ملوك ذلك الزمان وقد اشتدت مطامعهم في عهد احفاد كلوفيس حتى كانت كمطامع الحرس من قبلهم في البلاط الروماني. فاتفق هؤلاء سراً مع كلوتير الثاني ملك باريس وابن فريدغوند على أن يولوه استرازيا وبرغونيا وينقذهم من الوصية برونهو فحاربها كلوتير وأضاف مملكتها الى مملكته وذبح حفيديها واماتها معلقة بذيل جواد جموح (٦١٣).

ذكر كلوتير الثاني (٥٨٤) وداغوبرت (٦٢٧)

واتحدت المملكة الافرنكية للمرة الثالثة على يد كلوتير الثاني وعقد فيها مجمع باريس الديني الكبير وبعد وفاة هذا الملك خلفه داغوبرت وكان عهده أجمل عهد للميروفنجيين فإنه أكسب الافرنك النفوذ الأول والسطوة الكبرى في أوربا الغربية. ورد غارات أمم كثيرة وحالف أخرى وأخضع أخرى وأحسن اختيار وزرائه وطاف في جوانب بلاده يفصل المشكلات ويصلح القوانين ويعضد التجارة والصناعة فأحبه الشعب كثيراً ومات سنة ٦٣٨.

ذكر الملوك المتقاعدين ومديري القصور الملكية وأبروين وببين الهريستالي (٦٣٨—٦٧٨)

وخلف داغوبرت ملوك خاملون متقاعدون طمع في خلافتهم مديرو قصورهم. ومن هؤلاء مدير لبلاط نستريا يدعى غريمولد قتله عساكر الحرس المعروفون باللود سنة ٦٥٦. ومنهم آخر يدعى أبروين كان مديراً لبلاط نستريا فاشتد على اللود ليضعفهم وقتل منهم كثيرين ونفى كثيرين فاتفق اللود الاسترازيون مع هؤلاء المنفيين وقتلوا ملكهم الميروفنجي سنة ٦٦٧ ومنحوا سلطته لمديري بلاطه مارتين وببين الهريستالي تحت لقب أميري الافرنك وذهبوا لمحاربة أبروين تحت قيادة ببين فالتقوا جيشه في لاتوفاوه فظهر عليهم ولكنه أدركته منيته بعد ذلك بقليل فانتصر ببين على جنوده في موقعة تستريا بقرب بيرونا وأخذ نستريا فخضعت لاسترازيا وكان ذلك سنة ٦٨٧ وأصبح ببين من ذلك اليوم ملكاً حقيقياً ولكن بدون لقب.

— ٣٧ —

الفتح الاسلامي ودولة الخلفاء الراشدين (٥٧٠—٦٦٠)

ترجمة صاحب الشريعة الاسلامية وقيام دعوته

ولد النبي محمد حين طلوع فجر يوم الاثنين تاسع ربيع الأول من عام الفيل وهو

الموافق لليوم العشرين من شهر نيسان سنة ٥٧١ من أبوين كريمي العنصر عظيمي الجاه وكان مولده بمكان بمكة يسمى الشعب وكان أبوه قد مات قبل مولده بشهور ثم توفيت أمه وعمره ست سنين فكفله جده عبد المطلب ثم مات عنه وعمره ثماني سنوات فكفله عمه أبو طالب. ولما بلغ العشرين من العمر وكلت اليه خديجة بنت خويلد أن يذهب الى الشام في تجارة لها وكانت من شريفات العرب وربات الحصافة والحزم فسافر وربح وعاد ثم تزوجها وكان عمره خمساً وعشرين سنة وهي في أربعين من السن.

وكان يختلي بغار حراء في كل سنة شهراً فيتعبد فيه ليالي معلومة الى أن بلغ الأربعين فأتاه الوحي على رأسها فشرع في نشر دعوته وكان لا يظهرها إلا لمن يثق به فكان أول من تبعه خديجة زوجته وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة مولاه ثم أبو بكر وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن أبي وقاص وكثير غيرهم من سادة العرب ولما اشتد ساعده بأتباعه بدعوته فاستهزأ به كثير من كبار مكة وبصحبه وألحقوا بهم الأذى فأشفق عليهم وأمرهم بالهجرة الى الحبشة وبقي في مكة زماناً فاستعصى عليه أمر أهلها فهاجر الى المدينة وكانت هذه الهجرة مبدأ التاريخ الاسلامي فوصلها في ثامن ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة وآخى فيها بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ثم غزا غزوة بدر الأولى وغزا بعدها بني قينقاع اليهود ثم كانت غزوة السويق ثم غزوة أحد وجرح فيها ثم غزوة بني النضير ثم غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بدر الثانية ثم غزوة الخندق التي انتصر فيها على جماهير أعدائه انتصاراً مبيناً الى سائر ما ذكره المؤرخون من هذه الوقائع ومما يخلق بالذكر منها غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين في السنة الثامنة وقد نال المسلمون النصر فيها على يد خالد بن الوليد ثم فتح مكة ويوم حنين وحصار الطائف.

ولما قويت شوكة النبي كتب الى ملوك العرب والعجم يدعوهم الى دينه فأجابه بعضهم وأبى الأكثرون. وكان الاسلام ينتشر انتشاراً عجيباً بين العرب. وفي تمام السنة العاشرة حج حجة البلاغ وتعرف أيضاً بحجة الوداع وعاد بعدها الى المدينة فأقام بها الى أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة واعتراه مرضه الذي توفي به.

وكانت وفاته لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الأول وله ستون سنة قمرية وثلاثة أيام.

خلافة أبي بكر الصديق (١١ـــ١٣هـ)

كان النبي عند دنو أجله قد أمر أبا بكر بالصلاة بالناس نيابة عنه فلما توفاه الله اجتمعت كلمة المسلمين على مبايعة أبي بكر (١١) وكان صديقاً عادلاً بدّد جيوش المرتدين وجيوش مسيلمة الذي ادعى النبوة ببلاد اليمامة وأمر بجمع القرآن من أفواه الرجال وجريد النخل والجلود وأمر خالداً بن الوليد بالزحف على العراق ففتح الحيرة صلحاً (١٢) وكذلك أمر عبيدة بن الجراح بفتح الشام ثم بعث خالداً من العراق لإنجاده فوقعت بين المسلمين وبين جنود هرقل من الروم مواقع شديدة أشهرها موقعتا أجنادين واليرموك على ما تقدمت الاشارة اليه (١٣) وبعد ذلك فتح المسلمون بصرى على منعتها وفي خلال ذلك توفى الله أبا بكر الصديق.

خلافة عمر بن الخطاب (١٣ـــ٢٣)

بايع المسلمون عمر (١٣) وكان حكيماً صالحاً باسلاً فصيحاً محباً للعدل والإنصاف. من آيات حكمه قوله في أول خطبة خطبها أيها الناس والله ما فيكم أحد أقوى عندي من الضعيف حتى آخذ الحق له ولا أضعف من القوي حتى آخذ الحق منه.

وفي أوائل عهده تم فتح دمشق بعد أن دام حصارها سبعة أشهر ثم فتحت بعلبك وحلب وانطاكية. أما القدس فامتنع أمرها على المسلمين فتولى عمر بن الخطاب بنفسه أمر صلحها وولى عليها علياً بن أبي طالب. وفي سنة ١٦ تم فتح جميع بلاد فلسطين ومرعش. ثم ان عمر استفتح العراق وأجلى من بها من العجم وأرسل عمراً بن وقاص على بلاد الفرس فجرت له فيها وقائع مشهورة واستولى على المدائن والحصون حتى فتح كتازيفون قصبتها وأنزل ملكها وأخذ أملاكها الخارجية وغنم ما يضيق دون استيفائه الوصف من الغنائم الثمينة. وكان قد تفشى طاعون هائل

في جيش المسلمين بالشام ومات به قائدهم أبو عبيدة فخلفه معاذ بن جبل الأنصاري فمات به أيضاً فخلفه عمرو بن العاص. ولما قدم عمر بن الخطاب الشام لتقسيم مواريث الذين أماتهم الوباء من المسلمين زين له ابن العاص فتح مصر فأذن له به بعد عناء وعقد له على أربعة آلاف مقاتل.

فسار بهم حتى بلغ العريش ومنها مدينة تدعى فرما وكانت معقلاً حصيناً على حدود مصر فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى ظهر عليهم بعد شهر واستأنف السير متقدماً نحو بلبيس فلقيه فيها جيش آخر فأبلى فيه بلاء حسناً وفتح هذه المدينة على منعتها وكتب الى عمر بن الخطاب فأمده بأربعة آلاف رجل آخرين فسار بمن معه حتى نزل على حصن بابليون وهو من صنع الفرس أيام كانوا مالكي مصر وكان هذا الحصن بقرب مدينة منفيس وكانت مقراً للمقوقس عامل الروم على مصر فبقي المسلمون سبعة أشهر في حصار الحصن حتى فتحوه فلجأ المقوقس الى جزيرة في النيل وقطع اتصالها بالبر وأرسل الى عمرو بن العاص في طلب الصلح فأجابه اليه على أن يسلم وقومه أو يدفعوا الجزية فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. وكان عمر بن الخطاب قد أمد ابن العاص بأربعة آلاف مقاتل آخرين في مقدمة كل ألف منهم قائد من أكبر قواد المسلمين فلم يجد المقوقس حيلة إلا في القبول بالجزية ففرض على كل قبطي في القطر المصري ديناران قيل فبلغت جملة الجزية السنوية اثني عشر مليوناً.

ثم ان المقوقس كتب بما فعله الى ملك الروم فأجابه بالتأنيب على ذلك وقال له ان عندك نحو مئة ألف من الروم بين من معك ومن في الاسكندرية فكنت جديراً أن تقاتل بهم إن أبى الاقباط أن يفعلوا. ولكن المقوقس كره أن يخرج مما دخل فيه من الصلح ثم أتت جيوش الروم نجدة لمن بمصر من جنودهم وقاتلوا العرب مراراً فانتصر العرب عليهم وما زالوا بهم حتى حصروهم في الاسكندرية فأحدقوا بها وضايقوها أربعة عشر شهراً وكانت في خلال ذلك الميرة والعلوفة تأتي العرب من القبط وتأتي الروم في الاسكندرية من البحر غير أن المسلمين ما برحوا أن فتحوا الثغر المذكور وكان ذلك في ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد وهو يوافق يوم الجمعة من شهر محرم سنة

٢٠ للهجرة. ويقال إن عمراً أحصى سكان الاسكندرية بعد ذلك فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون.

وينسب الى هذا الفاتح إحراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة والمحققون على خلاف ذلك لما ثبت من أن جانباً من الكتب التي كانت فيها قد احترقت في حروب كليوباترا وأن الكثير مما كان باقياً نقل الى رومة والقسطنطينية. ثم أن عمراً بن العاص عاد من الاسكندرية الى المكان الذي كان فيه حصن باب اليون وكان قد حاصره جنوده قبلاً وابتنى هناك مدينة الفسطاط وهي المعروفة الآن بمصر العتيقة وشيد جامعه المعروف باسمه وفتح خليجاً كبيراً يصل النيل بالبحر الأحمر ودعاه خليج أمير المؤمنين وكان الخليفة عمر أول من اتخذ هذا اللقب. وأبطل بدعاً قبيحة للمصريين منها ما كانوا معتاديه من إلقاء فتاة في النيل على رأس كل فيضان.

على أن عمر بن الخطاب أول من اتخذ الديوان وفي خلافته بنيت البصرة (١٤) واختطت الكوفة (١٧) وفي سنة ٢٣ توفي هذا الأمير العظيم بطعنة خنجر طعنه إياها أبو لؤلؤة فيروز عبد المغيرة بن شعبة. وكان قد عرض الخلافة على عبد الرحمن بن عوف فأبى.

خلافة عثمان بن عفان (٣٤ــ٣٥)

بويع عثمان بالخلافة وفي عهده نقضت الاسكندرية الصلح بإيعاز من الروم الذين كانوا يأخذون ميرتهم وأقواتهم منها وأتاها جيش من مقاتلتهم وأسطول ضخم للأخذ بناصرها غير أن النصرة بقيت للمسلمين بعد مواقع شديدة جرت بين الفريقين ثم لحقوا بأعدائهم الى الاسكندرية فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ودمروا أسوار الاسكندرية وغنموا أسطول الروم فوق ما كانوا قد غنموه من سفائنهم في الشام فحصلت من ذلك عندهم عدة كافية للغزو في البحر ففتحوا قبرص وصالحهم أهلها على الجزية (٢٨) ثم حاربوا الروم في السفن فهزموهم في موقعة السواري التي كان قسطنطين يقصد بها افتتاح الاسكندرية. وتم للمسلمين عدا هذه النصرات في عهد عثمان بن عفان فتح أفريقية وكرمان وسجستان وكابل. وفي سنة ٣٥ قامت فتنة بين

العرب على أمير المؤمنين وكان صالحاً يكره الشدة ففقدت من أجل تساهله هيبة الخلافة فرموه وهو على منبر الصلاة بالحصى ثم حاصروه في داره أربعين يوماً ثم تسوروا عليه داره ونزلوا عليه وقتلوه.

خلافة علي بن أبي طالب (٣٥ــ ٤٠)

بويع بالخلافة علي بن أبي طالب وكان أفصح العرب لساناً وأذكاهم جناناً وكان كما قيل فيه بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته. غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب. كان فينا كأحدنا يجيبنا إذا سألناه. ويأتينا إذا دعوناه. ونحن مع تقريبه لا نكاد نكلمه هيبة له. لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله. ومن أدل الأمور على علو نفسه وزهده في عظمة الدنيا قوله المشهور للمهاجرين والأنصار الذين أتوه يبايعونه (أن أكون وزيراً لكم خير من أكون أميراً ومن اخترتم رضيته).

وبعد أن بايعه طلحة والزبير في جملة الناس تمالآ على نقض إمارته بدعوى انه أكرههما على ما فعلا فحاربهما في موقعة الجمل الشهيرة فقتلهما فيها. ثم انقلب يحارب معاوية فالتقت جنودهما بصفين فاقتتلت شديداً ثم تهادنا وافترقا على حزازات واستقل معاوية في الشام. وحدث أن ثلاثة من الخوارج اتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمر ابن العاص بدعوى إراحة البلاد من أئمة الضلالة فلم يقتل من الثلاثة المقصودين الأعلى وكان عمره ثلاثاً وستين سنة.

خلافة الحسن بن علي بن أبي طالب (٤٠ ــ ٤١)

ولما توفي علي بايع الناس ابنه الحسن فخرج من الكوفة الى المدائن لملاقاة جيش معاوية ثم آثر حقن دماء المسلمين على التشبث بالسلطة فبعث الى معاوية بتسليم الأمر اليه على شروط فقبلها وانصرف الحسن وأهل بيته الى المدينة وانتهى به عهد الخلفاء الراشدين.

— ٣٨ —

دولة بني أُمية (٦٠ــ٧٥)

خلافة معاوية (٤١) ٦٠)

لما بويع معاوية اتخذ مدينة دمشق مركزاً للخلافة وكان ذا دهاء و بسالة وسياسة حسنة عدا أنه كان شديداً يعاقب على شبهة ويقتل في ظن واجتمعت في عهده ألف وسبعمئة سفينة للعرب فرمى بها جزائر الروم وافتتحها وغنم المسلمون منها الشيء الكثير ثم جهز جيشاً كثيفاً تحت قيادة سفيان بن عوف لفتح القسطنطينية وأرسل الأساطيل الكثيرة لمحاصرتها من البحر فلم يتمكن منها وأتلفت نيران الروم أكثر سفنه. ولكنه استعاض عن هذا الفشل بفتح بلاد أفريقيا على يد عقبة بن نافع الجهني الذي انتصر على الروم في عدة وقائع هناك وشيّد مدينة القيروان معقلاً ومأمناً لعساكره وأوغل في بلاد البربر فأدخل الكثيرين منهم في دين الاسلام وأدرك طنجة فصالحه حاكمها جوليان على الجزية واستمر في مسيره حتى أدرك بحر الظلمات وبينما كان عائداً منه قتله البرابرة غيلة وفتحوا القيروان وتقلص بذلك ظل المسلمين منها الى أن استعادوها فيما بعد. ومن مآثر معاوية انه اتخذ للخلافة المظاهر النفيسة وسكن المقاصير وأقام عليها الحرس وسير صاحب الشرطة بين يديه ووضع البريد واخترع ديوان الخاتم يمنع التزوير بالتواقيع وكان عمره حين أدركته منيته خمساً وسبعين سنة وكان قد استوثق من الناس ليبايعوا ابنه يزيداً من بعده وكتب له بذلك عهداً.

خلافة يزيد الأول ابن معاوية (٦٠ــ ٦٤)

قضى هذا الخليفة زمان خلافته في مناوأة الذين أبوا مبايعته وكان في مقدمتهم الحسين فقتله قائد يزيد واحتز بعضهم رأسه في موقعة كربلاء وكذلك أرسل جيشاً على المدينة ففتحها واستباح أهلها ثم بعث يحاصر مكة ومات في خلال ذلك وكان بغيضاً الى المسلمين مذموم السيرة وهو من أكابر الشعراء.

خلافة معاوية الثاني ابن يزيد ومروان بن الحكم (٦٤ ـــ ٦٥)

أما معاوية فلم يستقر في الخلافة إلا ثلاثة أشهر ثم تخلى عنها ومات بالطاعون وأما مروان فتولى في الشام ومصر بعد أن طرد عامل ابن الزبير منها وتولى ابن الزبير الخلافة في الحجاز والعراق واليمن. وكانت وفاة مروان مخنوقاً بأمر امرأته أم خالد بن يزيد.

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـــ ٨٦)

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه مروان بن الحكم وانتقم للحسين وأهل البيت من عبد الله بن الزبير وأصحابه وأزال الفتن الداخلية واستقام له الملك على جميع الأمصار الاسلامية ثم وجه عامله على أفريقيا زهيراً بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقة للطلب بدم عقبة بن نافع من كسيله زعيم البربر فحاربه والافرنج والبربر الذين معه بجهة القيروان واشتد القتال الى أن قتل كسيله ووجوه جنوده ثم رجع من القيروان الى برقة فوجد الافرنج محاربيها بأساطيلهم وجمهور كبير من رجالهم فهاجمهم على قلة من معه فقتل أكثرهم ثم صدر أمر عبد الملك الى حسان بن النعمان الغساني بالزحف عليهم فكان أول قصده قرطاجنة فافتتحها ثم أمر بتخريبها لعصيانها عليه ثم هزم الافرنج ببلاد صطفورة وبنزرت وحارب الكاهنة الشهيرة داهية في عدة مواقع الى أن قتلها وكانت قد خربت في وجهه القرى والضياع من طرابلس الى طنجه وعند ذلك استأمن اليه سائر البربر وأسلم معظمهم فاتخذ منهم اثني عشر ألف جندي لا يفارقونه في مواطن الجهاد وعاد الى القيروان ثم ورده أمر عبد الملك بن مروان فشيد دار الصناعة بتونس وابتنى فيها مئات من السفن. وإلى هنا انتهت الأعمال العظيمة التي تمت في زمان الخليفة عبد الملك وتوفاه الله وكان أول من ضرب السكة في الاسلام.

خلافة الوليد عبد الملك بن مروان (٨٦ ـــ ٩٦)

مد الفتوحات الى جبال الأطلس القصيا في داخل أفريقيا وخضعت له القبائل في جنوبها وشمالها وفتح كثيراً من بلاد ما وراء النهرين وبلاد الترك وبلاد الروم

وجزيرة سردينيا وبلاد الهند وبلاد الأندلس التي سيأتي حديث غزوها في باب منفرد وفي الجملة فقد كان حكم الاسلام في زمنه منتشراً الى مسافة مئتي يوم من المشرق الى المغرب ومن بلاد التتار الى بحر الظلمات وأمر بضرب النقود على صورة جديدة وجعل الدواوين والأرقام بالعربية لا باليونانية كما كانت وتوفي بدير مران عقيب تسع سنين من خلافته.

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦—٩٩)

كان فصيحاً وسيماً ميمون الطالع والمختتم في الخلافة حاول غزو القسطنطينية فأرسل اليها ١٨٠٠ سفينة ولكنه لم يفلح.

خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩—١٠١)

ولي الخلافة بعهد من سليمان وكان حكيماً شريف المقاصد راغباً في تعزيز الدولة ومنع زيادة اتساعها مخافة أن تضعف وكانت لجنوده نصرات في شمال الأندلس وجنوبي فرنسا أيام تداعي الدولة الميروفنجية الى السقوط وامتدت فتوحات عماله في بلاد البربر وكانت له هيبة ومحبة عند الملوك ومن أشرف ما يذكر له خطبته الأولى يوم ولايته فقد قال أيها الناس والله ما سألت الله هذا الأمر قط في سر ولا علانية فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن اه. فقال بعض الحضور سبحان الله وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا.

خلافة يزيد الثاني بن عبد الملك (١٠١—١٠٥)

كان محباً للهو والإسراف ولم يحصل في زمنه ما يليق بالتدوين.

خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥—١٢٥)

قاتل الترك في أول عهده فانتصر عليهم ودخلت جنوده بلاد فرغانة وخوقند. وكذلك فتح بلاداً من وراء النهر وكان عامله على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا في فرنسا غزوات كثيرة ووصل في بعضها الى مدينة بوردو ثم رأى أن يفتح هذه البلاد كلها فقطع جبال البرانس (البيريناي) ودخل ولايتي أكيتانيا

وبورغونيا فحشد كارلوس مارتل الجنود من غاليين وجرمانيين لمقاتلته والتقى به في أرض تدعى ببلاط الشهداء فيما بين مدينتي تور وبواتيه وكان العرب قد أضعفهم انقسامهم فظهر عليهم بعد قتال دام سبعة أيام وقتل فيه خلق كثير.

وكان عامل هشام على المغرب عبيد الله بن الحجاب فأصلح أحوال البلاد وأحسن سياستها وجاوز السوس الأقصى غزواً الى السودان وفتح جزيرة صقليا وضرب الجزية على أهلها ثم انتقض عليه البربر فعزله هشام وولى كلثوماً بن عياض ووجهه اليهم في ثمانين ألفاً فهزمهم البرابرة فشق ذلك على الخليفة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبي والياً على المغرب فقاتلهم بظاهر القيروان ثم استلحمهم الى أن هزمهم وكان عدد القتلى في تلك المعركة ١٨٠ ألفاً على ما ذكره مؤرخو العرب.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥—١٢٦) ويزيد الثالث بن الوليد (١٢٦) وابراهيم بن الوليد (١٢٦—١٢٧) ومروان بن محمد (١٢٧—١٣٢)

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك عاكفاً على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب فقام يزيد بن الوليد بن عبد الملك يدعو الى نفسه فاجتمعت عليه اليمانية ثم قاتل الوليد الى أن قتله وتولى مكانه ولم يحدث في عهده ما يذكر في الخارج لشدة اتساع الفتنة على دولة بني أمية وقرب انتقاض أركانها. ولم يستبد بالأمر إلا خمسة أشهر وأياماً ثم توفاه الله وخلفه ابراهيم بن الوليد غير مجمع على مبايعته ثم أتى مروان ابن محمد والي الجزيرة وخلعه واستقر في كرسيه.

وهو آخر خلفاء بني أمية وكان من أحزمهم وأبلغهم إلا أنه تولى والامر مدبر عنهم فلم تفلح مساعيه الجسام في إخماد الثورات المشبوبة. وكان بنو العباس قد قوي حزبهم بخراسان وانتشرت الدعوة لهم في الشام والعراق وغيرهما وكان داعيتهم رجلاً يدعى أبا مسلم من ذوي الدهاء والبأس قاتل أمير خراسان حتى استولى على مدينة مرو ونزل قصر الإمارة وأخرجه منه منهزماً. وكان المدعو له ابراهيم بن محمد فلما قبض عليه مروان أوصى بالخلافة لأخيه السفاح وبقي السفاح مستخفياً في الكوفة زمناً ثم ظهر ودخل دار الإمارة وقام بالأمر فحشد مروان الجيوش لمقاتلته فالتقى

العسكران على نهر الزاب فكان النصر للسفاح وفرّ مروان لا يأوي الى قطر إلا يخرج منه لاجئاً الى آخر حتى نزل مصر فقتله رجل كوفي فيها وكان عمره لما قتل اثنتين وستين سنة وكانت الدولة العربية في عهد الأمويين قد امتدت من بحر الخزر الى المحيط الأتلانتيكي ومن نهر الكنج الى شمالي اسبانيا وكانت دولتهم على الجملة دولة غنم وفتح ودولة بني العباس دولة سعد وعلم على ما ستراه إن شاء الله.

— ٣٩ —

الدولة العباسية (٧٥٠—١٢٥٨)

خلافة السفاح (١٣٢—١٣٦ هـ)

لما انتقل الملك الى آل العباس كان أول من تولى الخلافة منهم أبو العباس السفاح وكان كريماً وقوراً عاقلاً تحول عند ما بويع بالخلافة الى الأنبار ولما استوثق له الأمر ودانت له الجهات تتبع بقايا بني أمية ورجالهم فوضع السيف فيهم فلم يفلت منهم الا الرضيع أو من هرب الى الأندلس واستصفى أموال من صحبهم أو خدمهم ولم تطل مدة السفاح فمات بالأنبار (١٣٦) وفي خلافته استولى قسطنطين ملك الروم على ملاطية.

خلافة المنصور (١٣٦—١٥٨)

استبد بالأمر بعد منازعة طالت بينه وبين عمه عبد الله بن علي وانجلت عن قتل عبد الله المذكور ثم قتل أبا مسلم بمجلس بني عباس على تخت الخلافة بمساعيه ودهائه وذلك لخرقه حرمة الأدب في حضرته. وفي خلافته سار جيش عظيم على ملاطية ليعمر تلك المدينة فلقيه الروم فدحرهم وفي خلافته أيضاً تأسست الدولة الأموية بالأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك فإنه هرب من وجه السفاح وسار من جهات الفرات الى جبال المغرب وكان واليها إذ ذاك عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع وبعد أن هام على وجهه زمنا في قفار أفريقيا

آواه بعض شيعة بني أمية بالمغرب الأقصى وما زال مستخفياً حتى أمكنته الفرصة وسكنت عنه العيون فعبر في نفر قليل الى الأندلس فتلقاه أهلها بالترحاب وأقاموه ملكاً عليهم (١٣٩ هـ) واستقام أمره بالأندلس وبنى بقرطبة المسجد الجامع وغيره من المباني الفاخرة وكان في أول أمره يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالأندلس وأثل بها الملك العظيم لبني مروان ومن ذلك اليوم خرجت الأندلس عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق.

ومن الحوادث المهمة التي حصلت في خلافة المنصور خروج الراوندية عليه وتبديده لهم ثم اتخاذه بغداد كرسياً للخلافة ووفاة الامام أبي حنيفة النعمان بن الثابت مسجوناً في بغداد.

ومن مآثر المنصور تقدم العرب لعهده في علوم الفلك والطب والفلسفة ونقلهم عدة مؤلفات من اللغات الأجنبية فيها ومما يعاب به كثيراً إهانته للإمام مالك صاحب المذهب واعتقاله للامام أبي حنيفة.

خلافة محمد المهدي (١٥٨ — ١٦٩)

بعث تجريدة على الهند ففتحت كثيراً من بلادها ثم أصابها وباء ووفي رجوعها عصفت عليها الريح عند ساحل حران فانكسرت عامة مراكبها ونجا منها قليل وكانت أيام المهدي شبيهة بأيام أبيه في الفتوق والحوادث والخوارج وأراد المهدي الاستيلاء على بلاد الأندلس فأرسل الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري عامل أفريقيا بالذهاب اليها داعية لبني العباس فخرج بعمارة كثيرة فقتل بعد أن غلب وفر.

ثم أن المهدي تجهز لحرب الروم (١٤٥) وجمع عسكراً كثيفاً وخرج من بغداد وتغلغل في بلاد الروم فغنم وفتح ثم جهز لابنه الرشيد لغزو الروم ثانية فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية وكان المتولي على الروم إذ ذاك الملكة أريني فطلبت الصلح من الرشيد فجرى الصلح بينهما على الفدية وإرسال الإدلاء وإقامة الأسواق في طريقه فأجابته الى ذلك وكانت الفدية ٧٠ ألف دينار كل سنة. وهو الذي رتب البريد بين اليمن ومكة والمدينة وبغداد وغيرها.

خلافة موسى الهادي (١٦٩ — ١٧٠)

كان ضعيفاً خاملاً تولت أمه الحكم عنه ويقال إنها أماتته خنقاً ولم يحدث في عهده ما يذكر.

خلافة هارون الرشيد (١٧٠ — ١٩٣)

عن كتاب حقائق الأخبار:

جلس هرون الرشيد بن محمد المهدي على تخت الخلافة وعمره ٢٢ سنة وأشهر واستوزر يحيى ابن خالد وألقى اليه مقاليد الأمور وهو من أعظم ملوك الاسلام همة ونجدة وشهرة فاضت ينابيع العلوم في خلافته وتفجرت أنهر الحضارة في عصره وعمل أعمالاً فاق بها من تقدمه من ذلك أنه أمر بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عمالة واحدة وسماها العواصم واجتهد في ترميم الثغور وإقامة معالم الاسلام وتشييد المعاقل والحصون وفي أوائل حكمه مات بقرطبة عبد الرحمن الأموي المشهور بالداخل بعد أن ملك بالأندلس ٣٣ سنة وخلفه ولده هشام وخرج الرشيد حاجاً (١٧٣ هـ) وقسم في الحرمين أموالاً كثيرة وكان حجه ماشياً على اللبود تفرش له من منزل الى منزل وفي أوائل خلافته (١٧٥ هـ) ظهر يحيى بن عبد الله بن الحسين والتف عليه كثير من الدبلم فجهز عليه الرشيد الفضل بن يحيى وما زال به الفضل يلاطفه ويبذل له الأمان حتى استرضاه وأتى به الى الرشيد فأكرمه ثم حبسه حتى مات وظهرت فتنة في دمشق بين المضرية واليمانية انتهت بالمصالحة بين الفريقين بمساعي عامل الرشيد على دمشق بعد أن قتل من الجانبين جمع كثير وفي سنة ١٨٠ هـ توفي هشام صاحب الأندلس وكانت خلافته سبع سنين وسبعة أشهر وخلفه ولده الحكم ولم يستقر له الملك إلا بعد قتال عنيف حصل بينه وبين عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل وفي تلك الفتنة اغتنم الفرنج فرصة القتال فذهبوا الى الأندلس وفتحوا مدينة برشلونة كما سيأتي بتاريخ الأندلس.

ثم ظهرت عدة اضطرابات في بعض الجهات فتمكن الرشيد بحكمته من قمعها وفي

سنة ١٨١ غزا الروم ففتح وغنم وولى ابراهيم بن أغلب أفريقيا وهو رئيس دولة الأغالبة كما سيأتي الكلام عليهم في تاريخ تونس وفي سنة ١٨٢ خرج الخزر من مدينتهم باب الأنواب (دربند) وأوقعوا بالمسلمين وأهل الذمة وسبوا أكثر من مائة ألف وانتهكوا أمراً عظيماً لم يسمع بمثله وسبب ذلك ابنة خاقان الخزر التي كانت حملت الى الفضل بن يحيى البرمكي وماتت في الطريق بمدينة برذعة وفي تلك السنة غزا المسلمون الصائفة وبلغوا أفسوس مدينة أهل الكهف الشهيرة وقد أراد هرون أن الأمر يستمر في أولاده من بعده بدون أن يحصل بينهم نزاع أو خلاف يؤدي الى ما لا تحمد عقباه فبايع لولده الأمين بولاية العهد وأعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعد الأمين وضم اليه من همذان الى آخر المشرق وسلمه الى جعفر ابن يحيى البرمكي وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه وإثباته للمأمون وجعله في حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم.

ثم في سنة ١٨٦ قصد الرشيد الحج واستصحب معه اولاده الثلاثة وفرق بالمدينة اموالاً طائلة ثم سار الى مكة فأعطى العطايا واحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابي العهد واشهد فيهما بالوفاء على الأمين والمأمون وأخذ عليهما الايمان المغلظة واشهد على ذلك من حضر من ارباب الدولة وعلق الكتابين في الكعبة ليشهد جميع المسلمين على ذلك ومع ذلك فكان الرشيد لا يزال يتفكر في أن تسيل الدماء بعد موته فجدد البيعة للمأمون وارسل الى المأمون فجدد له العهد على الأمين لأنه كان اذ ذاك في طبرستان (١٨٩ هـ).

ومن الحوادث الشهيرة التي الفت فيها المؤلفات وافرد المؤرخون لها الفصول والابواب حادثة الايقاع بالبرامكة وحاصلها ان الرشيد أوقع بالبرامكة لتكبرهم وعظمتهم واتيانهم ما يخل بسياسة الدولة ونظاماتها وكرامتها فقتلهم عن آخرهم واستصفى اموالهم وكانت شيئاً يجل عن الوصف وقد تحامل بعض المؤرخين على الرشيد بسبب هذه الفعلة الشنعاء ولكن لو تدبروا الأمر لوجدوا أن الحق بيده ولا يصح ان يوجه اليه اللوم الا من جهة أنه كان من المروءة وحسن الصنيع أن يخفف

عنهم ما أصابهم من العذاب ولما كانت مسألة الايقاع بالبرامكة من المسائل الطويلة العريضة ضربنا عن أمر التفصيل فيها صفحاً فمن شاء فليراجعها في المطولات.

وكان هرون الرشيد معاصراً لشرلمان الكبير ملك فرانسا وقد ترددت بينهما السفراء وتهاديا وكان من ضمن هدية الخليفة اليه اشياء نفيسة من صنائع المشرق منها ساعة دقاقة يقال ان أهل فرنسا لما رأوها داخلهم الذهول والحيرة حتى ظنوا أن ذلك سحر ومنها شطرنج بديع الصنعة وغير ذلك مما يدل على توفر الصنائع وتقدم الحضارة في الشرق وتأخر الغرب ويقال ان هرون الرشيد كان يقصد من محالفة شارلمان اغراه بالهجوم على بلاد الاندلس لمحو آثار بني أمية اعدائه ثم ضم الاندلس الى عمالات هرون الرشيد.

وكان الروم قد خلعوا ملكتهم أريني (١٨٧ هـ) وملكوا عليهم نيسوفورس المعروف في كتب العرب باسم نيقوفور فكتب الى هرون الرشيد يسترد منه ما أخذه من اموال الروم فغضب وركب من ساعته حتى نزل على هرقله في مائة ألف وخمسة وثلاثين ألفاً من المرتزقة سوى من لا ديوان له من الاتباع والمتطوعة ففتح وغنم وأرسل القواد بالجيوش فعاثوا وغنموا وهزمت جيوش الروم شر هزيمة وأذعن ملكهم لدفع الجزية كما كانت أريني من قبل ولما نقض أهل قبرس العهد استعمل الرشيد حميد بن معيوب قائداً على الأساطيل التي بسواحل الشام ومصر فسارت الى قبرس ونازلتها وهزمت الثوار وخربت وسبت وبلغ سبي أهل قبرس ١٧ ألفاً وكان من بينهم أسقف قبرس.

ولما عقدت الهدنة بين الروم والمسلمين وكان قد أقبل فصل الشتاء وانصرف المسلمون عنهم خرج ملك الروم بجيوشه وعاث في تلك الجهات فركب عليهم الرشيد ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وجرح نيقوفور في هذه المحاربة جروحاً بليغة وظل العرب يخربون ويفتحون ويسلبون ولايات اليونان في البحر الاسود الى قبرس حتى رجع نيقوفور عن العصيان وطلب الصلح فتصالحا على أن تبقى مدينة هرقلة خربة وعلى أن يكون المال المدفوع مسكوكاً عليه اسم نيقوفور واسم اولاده الثلاثة وكان الرشيد يسير

على خطة المنصور في بذل الأموال فلم ير خليفة قبله أبذل منه وكان اذا قعد عن الغزو يغزو بالصائفة كبار أهل بيته وقواده.

ومن الذين خرجوا على هرون الرشيد في خلافته رافع بن الليث فيما وراء النهر وكان من أعظم الثوار وأشدهم بطشاً ومن الليث هذا خرجت الدولة الصفارية ثم في سنة ١٩٣ اشتد المرض على الرشيد بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان عمره ٤٦ سنة وولايته نحو ٢٣ سنة واشهر وكان الرشيد عاقلاً مهيباً عالي الهمة حليماً حسن التدبير ميالاً للعلماء والشعراء حتى قيل انه لم يجتمع منهم على باب ملك بقدر ما اجتمع على باب هرون الرشيد وكانت زوجته زبيدة وهي التي أجرت الماء الى مكة من عين قريبة منها وصرفت في سبيل ذلك أموالاً طائلة ولا تزال تلك العين للآن تدعى بعين زبيدة ومنها شرب أهل مكة وقد تعهدها الملوك والسلاطين بعد ذلك بالاصلاح الى يومنا هذا.

خلافة الامين (١٩٣ — ١٩٨)

كان مولعاً باللهو واللعب كثير التبذير مشتغلاً بملاهيه عن أمور الدولة ثم وقع الشقاق بينه وبين أخيه المأمون فتحاربا الى أن قتل الامين.

خلافة المأمون (١٩٨ — ٢١٨)

اشتدت عليه الفتن وكثر الخروج دعوة بالخلافة لجماعة من آل علي بن أبي طالب وغيرهم الا أنه لم يلبث أن اخمد الثورات وانقطع للاشتغال بالآداب والعلوم والمناقشات الدينية وكان من أفاضل الخلفاء وعلمائهم وحكمائهم وهو أول من قاس الدرجة الأرضية وأمر بترجمة كتاب اقليدس وكان عظيم الحلم حسن السياسة وله غزوات في بلاد الروم لا أهمية له.

وكان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على احوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من اقليم الى آخر فانه جال في بلاد الشام ومصر (٢١٦) وتفقد آثارها فاعجبه ما رأى وهو الذي فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الأكبر وفي خلافته مات الامام

الشافعي وهو محمد بن ادريس بن العباس من أكابر الأئمة ودفن بمقامه المشهور بمصر (٢٠٤).

خلافة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧)

هو أول من استخدم التركمان واتخذ منهم حراساً لنفسه وولاهم محافظة الثغور والحدود فقويت شوكتهم في عهده وعهد خلفائه حتى أصبح الملك بيدهم يتصرفون فيه كما يشاؤون. وكان يقول بخلق القرآن كالمأمون وجرت له مع الروم في عمورية وضواحي الاستانة ما رأيت وصفه من المواقع. وقد أتم بناء مدينة سر من رأي أو سامرا واتخذها داراً للملك واستخدم التتار والاتراك في الدواوين.

خلافة الواثق بأمر الله (٢٢٧ — ٢٣٢)

فتح جزيرة صقلية (٢٢٨) وغنم مراكب كثيرة من الاعداء ويقال ان العرب في ايامه خرجوا من باب المندب الى زنجبار وجنوب افريقيا وجالوا في بحر الظلمات حتى ادركوا جزائر الخالدات وجعلوا احداها المسماة بجزيرة الحديد مبدأ لخطوط الاطوال وفي عهده دخل الفنداليون الاندلس وفتحوا اشبيلية ثم ردوا على اعقابهم وكان شاعراً فصيحاً حازماً يقول بخلق القرآن.

خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ — ٢٤٧)

عقد في أول خلافته البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمؤيد وولى كل واحد منهم قسماً من المملكة وفي سنة ٢٣٧ فتح العباس بن الفضل امير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة وكانت دار الملك بها وكان ملكها يسكن قبل ذلك بسرقوسة فلما اخذها المسلمون انتقل الملك الى قصريانة وتوفي في خلافته الامام احمد بن حنبل.

وفي عهده غزا الروم دمياط وسيروا مراكب في البحر للايقاع بالمسلمين اينما وجدتهم وذلك لشدة ما غاظهم احتلال جالية من الاندلس لجزيرة اقريطش. وفي خلافته افتتح قائده بغا مدينة نفليس وخرجت طوائف البجاة على عماله بأرض مصر

فأرسل اليهم جيشاً مثل بهم فاستأمنوا على اداء الجزية. وجرت لجنوده وقائع كثيرة مع الروم انتصروا فيها وتوفي المتوكل على الله قتيلاً بيد القائد بغا وقد اتفق مع ابنه المنتصر على ذلك واستعان بالجنود الاتراك الذين كانوا قد استفحل امرهم كل الاستفحال في المملكة.

خلافة سائر الخلفاء العباسيين

المنتصر بالله (٢٤٧— ٢٤٨) والمستعين بالله (٢٤٨— ٢٥٢).

لم يجر في خلافة الأول ما يخلق بالذكر واما الثاني فقد خلعه الترك وولوا المعتز مكانه.

المعتز بالله (٢٥٢— ٢٥٥)

تولى وكان المماليك قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة وصار منصب الخلافة العوبة في يدهم والخليفة في يدهم كالأسير ان شاؤا ابقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه. ومن اعماله أنه اقطع المعتز احمد بن طولون بلاد مصر فبقيت له ولأولاده من بعده وكانت لهم بها دولة عظيمة ثم تآمر الاتراك على المعتز وخلعوه.

المهتدي بالله (٢٥٥— ٦٥٦)

قام في عهده صاحب الزنج بجهة البصرة وتقدم غازياً في البلاد واستقل كثيرون من العمال باعمالهم فقل الخراج ولم يلبث ان خلعه الاتراك وقتلوه.

خلافة المعتمد على الله (٢٥٦— ٢٧٩)

بويع والفتن قائمة بطبرستان وجهات بلخ وكابل وبلاد الصين التابعة لدولة بني العباس. ولعهده ظهر القرامطة المشهورون بالسلب والنهب وحاول الروم استرداد بعض املاكهم فردوا مراراً.

المعتضد بالله (٢٧٩ — ٢٨٩)

كان ذا سياسة حسنة ومهابة رد الى الطاعة بعض البلاد التي خرج اهلها واشتد على العساكر وامن الناس.

المكتفي بالله (٢٨٩ — ٢٩٥)

قاتل القرامطة وقد اشتدوا مدة خلافته كلها وفتح له احد قواده مصر وقبض على بني طولون واستصفى اموالهم وحملهم الى بغداد.

المقتدر بالله (٢٩٥ — ٣٢٠)

كان مستسلماً للنساء والخدم وزاد معه ضعف الخلافة وخلع وبويع الراضي بالله مكانه وهو ابنه المعتز بالله كان من اشهر شعراء العرب واعلمهم بالموسيقى وفنون الاداب فلم يول الا يوماً واحداً ثم خلع وقتل في معتقله وتولى المقتدر ثانية ثم خلع وخلفه اخوه القاهر ثم اعيد ودامت خلافته اربعاً وعشرين سنة وفي زمنه ظهرت الدولة العلوية الفاطمية بافريقيا سنة ٢٩٦ وهي التي انتقلت بعد ذلك الى مصر وأسست القاهرة وكان لها شأن عظيم بين دول الاسلام وانقرضت دولة الادارسة العلويين من المغرب سنة ٣٠٧ واستفحل امر القرامطة ففتحوا الكوفة والبصرة ونهبوا السابلة والحجاج.

القاهر بالله (٣٢٠ — ٣٢٢)

ظهرت في خلافته دولة بني بويه وهي فرع من بني العباس ملكت الديلم والاهواز والعراقين وفارس وبعد أن ملك بسنة وستة أشهر سملت عيناه وخلع وكان يستعطي ببغداد بقية حياته.

الراضي بالله (٣٢٢ — ٣٢٩)

كانت في خلافته فارس في يد ابن بويه والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان والشام في يد الاخشيد والاندلس في يد بني أمية والمغرب وافريقية في يد

آلقائم العلوي بن المهدي والبصرة في يد بن رابق وخوزستان في يد البريدي وكرمان في يد أبي علي بن الياس والري واصفهان والجبل يتنازعها ركن الدولة بن بويه واخو مرداويج وخراسان وما وراء النهر في يد ابن سامان وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد القرامطة ولم يكن للراضي سوى بغداد وما والاها فبطلت الدواوين وانحط شأن الخلافة.

المتقي بالله (٣٢٩— ٣٣٢)

هو ابراهيم بن المقتدر. وفي خلافته انتصرت طائفة من الروس على المسلمين باذربيجان ونكلت بهم وفتحت مدينة برذعة.

المستكفي بالله (٣٣٢— ٣٣٤)

استمر لعهده انحطاط الدولة ولم يحدث فيه ما يذكر.

المطيع لله (٣٣٤— ٣٦٣)

قويت في زمنه شوكة الديلم وآل بويه ببغداد وكانوا مغتصبي السلطنة فيها واهمل امر حماية الثغور ففتح الروم وحلب والمصيصة وانطاكية وطرسوس ومدائن اخرى ثم قوي عليهم المسلمون. وكسر المطيع لله من خلافته.

الطائع لله (٣٦٣— ٣٨١).

جرت في مدته فتن بين الاتراك والديلم ببغداد وابتدأت دولة بني مروان بحلب.

القادر بالله أحمد (٣٨١— ٤٢٢)

استعاد بحسن تدبيره وتوفيقه بعض ابهة الدولة العباسية وحرمتها وتوفي لعهده العزيز بالله الفاطمي صاحب مصر وتولى ابنه الحاكم الذي ادعى الألوهية على ما هو معروف من امره. وفي خلافة القادر انقرضت الدولة الاموية من الاندلس.

القائم بامر الله (٤٢٢— ٤٦٧)

تقدم في خلافته الروم وغزوا البلاد وابتدأت الدولة السلجوقية سنة ٤٣٢

وانقرضت دولة بني بويه واسلم من الترك خلق كثير وكثر النهب والسلب بين العرب وقام الب ارسلان الذي حارب الروم ومن معهم من الروس والشركس فرد غاراتهم عن بلاد الاسلام وضرب عليهم الجزية.

المقتدي بامر الله (٤٦٧ — ٤٧٧)

كان صالحاً ذكياً وكانت في عهده الدولة العربية تزداد تشتتاً وضعفاً في الشرق وتوشك أن تنحل في الأندلس لم يؤجل اضمحلالها الا نصرات يوسف بن تاشفين. وفي خلافته توفي ملكشاه احد اكابر امراء المسلمين واعاظم الفاتحين منهم وفتح الافرنج جزائر البحر المتوسط ومنها صقلية بعد ان احتلها المسلمون مئتي سنة.

المستظهر بالله (٤٨٧— ٥١٢)

كان في خلافته ابتداء الحروب الصليبية سنة ٤٩٠ وكانت الممالك الاسلامية متشتتة متعادية تتنازعها خلافتان العباسية ببغداد والعلوية بمصر. وبمدته ابتدأت الدولة الخوارزمية وفتح الافرنج انطاكية وبيت المقدس وهزموا جنود قلنج ارسلان.

المسترشد بالله (٥١٢— ٥٢٩)

أهم حوادث زمانه وفاة بلدوين الأول ملك القدس وقيام بلدوين ديبورغ خلفاً له وابتداء دولة الموحدين بالمغرب وانقراض دولة المرابطين ومقتل الآمر بأحكام الله العلوي بمصر.

الراشد بالله (٥٢٩— ٥٣٠)

لم يجر في عهده ما يستحق الذكر سوى قيام القتال على قدم وساق بين الافرنج والامراء المسلمين.

المقتفي لأمر الله (٥٣٠— ٥٥٥)

سكن فتناً قائمة واستظهر على الافرنج في عدة مواقع واسترد كثيراً من المراكز

المفتوحة وفي خلافته فتح الافرنج طرابلس الغرب والصقالبة جزيرة المهدية وبعد ذلك بقليل استرجع المسلمون هذه البلاد.

المستنجد بالله (٥٥٥ — ٥٦٦)

خرجت لعهده مصر من أيدي الفواطم وتنازعها الافرنج ورجال محمود بن زنكي ثم اتى البطل الشهير صلاح الدين الايوبي لانقاذ مصر من الافرنج وكان به ابتداء الدولة الايوبية.

المستضيء بالله (٥٦٦ — ٥٧٥)

كان حسن السيرة كريماً شديداً على أهل الفساد اعاد صلاح الدين الخطبة لآله في مصر فوقع ذلك وقعاً عظيماً في بغداد وسر به المسلمون وفي ذلك الوقت كثر استعمال حمام الزاجل وهو الذي يحمل الرسائل من بلاد الى اخرى.

الناصر لدين الله (٥٨٥ — ٦٢٢)

كان باسلاً متوقد الذكاء استرد بلاداً كثيرة للدولة ولعهده توفي صلاح الدين بعد ان ابلى اعظم بلاء في محاربة الصليبيين واستتب لآله ملك مصر فخلفه فيها اخوه الملك الكامل وقام أخوه الملك العادل بامر الشام. وفي خلافته دخل الصليبيون دمياط وقاتلوا جيش الملك الكامل ثم صالحوه وانجلوا. وشن التتار غارتهم الكبرى على البلاد الاسلامية ففتحوا أكثرها.

الظاهر بامر الله (٦٢٢ — ٦٢٣)

كان صالحاً محسناً الى الفقراء محباً للرعية

المستنصر بالله (٦٢٣ — ٦٤٠)

كان سمحاً جواداً وكانت ايامه طيبة ساكنة وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية ببغداد. ولعهده اشتد امر التتار وهدت دعائم الاسلام بالاندلس على أثر الموقعة الشهيرة بقرب طليطلة.

المستعصم بالله (٦٤٠— ٦٥٦)

تولى وكان خاملاً ضعيف الرأي شديد الغفلة وكان وزيره المنافق ابن العلقمي قد أذن للجنود بالتفرق عن بغداد ثم استحث هلاكو خان ملك التتار على قصد بغداد فدخل العراق في جيش جرار وتقدم نحو العاصمة فدرى به المستعصم وخرج لقتاله في اربعين الفاً فدحرهم التتار دحراً وقتلوا بضع عشرات الوف من المسلمين ورموا كتب المدارس بدجلة واستولوا على خزائن دار الخلافة وقبضوا على المستعصم وبنيه وذويه واستباحوا المدينة اربعين يوماً ثم نودي بالأمان وانقطعت الخلافة ثلاث سنين ونصف سنة الى أن ذهب الى مصر بعض الذين نجوا من بني العباس ونزلوا على الملك الظاهر فيها فانتقلت الخلافة اليها.

— ٤٠ —

الاندلس والدولة الاموية فيها (٧٥٦— ١٠٣١م)

فتح الاندلس

جاء في كتاب حقائق الاخبار ما ننقله بتصرف قليل :

لما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب للوليد يعلمه بذلك فورد عليه جوابا يأمره فيه بغزو الاندلس وفتحها فكتب الى طارق وهو بطنجة يأمره بذلك (٩٠ هـ) بعد أن يخضها بالسرايا ويعلم عوراتها وثغورها وشواطئها حسب امر الخليفة فجهز طارق الجيوش والأساطيل وعبر الى الاندلس في اثني عشر الفاً من البربر وخلق يسير من العرب من سبته الى الجزيرة الخضراء وصيرهم جيشين احدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح فسمي جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وادارو الأسوار على أنفسهم لتتحصن (٩٢) فلما علم ملك الغوط باسبانيا المدعو لذريق (رودريك) امر احد قواده المدعو اريكوس فالتقى مع العرب وحاربهم فهزم فعرض الأمر على الأهالي القريبين الى دار الملك فجمع

رودريك حكام الولايات والدساكر والأساقفة والاشراف ونحوهم وقر رأي الجميع على محاربة العرب بقوة لطردهم من البلاد وكانت عساكر رودريك نحو مائة الف أما أصحاب طارق فكانوا زهاء اثني عشر الفاً كما تقدم ومعهم بعض الجنود الذين أرسلهم بصحبته يليان حاكم طنجة وسبته لأن يليان كما روى بعض المؤرخين كان ينقم على رودريك ملك الغوط فعلة فعلها بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات بطارقتهم وذلك أنه كان من عادة أكابر العجم بالاندلس أن يبعثوا أولادهم الذين يريدون التنويه بهم الى دار الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا زوج بعضهم بعضاً وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم استئلافاً لآبائهم فاتفق ان فعل ذلك يليان فبعث بابنة له جميلة تكرم عليه الى دار رودريك فوقعت عليها عينه فاعجبته واحبها ولم يتمالك أن استكرهها فاحتالت حتى اعلمت اباها سراً فاحفظه ذلك.

ولما رأى طارق كثرة جيوش الاعداء وانتظامهم وحسن ملابسهم واختلاف أزيائهم وهم بالعدة الكاملة والسلاح الجيد وما عليهم من الخوذ والحديد الساغ هاله الامر وخاف على جيشه القليل فأمر باحراق السفن التي كانت تقلهم ليقطع عن قومه كل أمل في العودة ثم قام فيهم خطيباً مشجعاً منشطاً وقال ان العدو امامنا والبحر وراءنا فاختاروا ايهما شئتم ثم التقى مع جيوش الغوط ودارت رحى الحرب ساعة انقضت في اثنائها ابطال العرب وصناديد البربر على جيوش الغوط وامرائها المترفين فبددوا شملهم وجندلوا امراءهم فولوا الادبار وقتل منهم عدد عظيم وترك رودريك مركبته وكانت من العاج الناصع يجرها بغلان أبيضان وهرب ولم يعلم اين ذهب وقد وجدوا جواده وتاجه ورداءه ويظن انه مات غريقاً في نهر قريب من هناك واتصلت الحرب بين الفريقين ثمانية أيام وكانت بفحص شريش (كسيريس) ويقال أنه بعد هذا النصر المبين اشار يليان على قائد العرب بأن يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلاً أن الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبددوا والشعب في وجل عظيم فأرسل رجالك تستولي على ما قرب من المدائن واذهب انت الى طليطلة دار الملك ولا تفسح لهم في الوقت فيختاروا ملكاً وكتب طارق الى موسى بن نصير يعلمه

بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده أن توغل بغير اذنه ويأمره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج في عسكر ضخم (٩٣) من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافى خليج الزقاق (مضيق جبل طارق) ما بين طنجة والجزيرة الخضراء فأجاز الى الأندلس.

اما طارق فرأى من حسن تدبيره اتباع نصيحة يليان وتقدم بجيوشه نحو الشمال وافتتح احد قواده قرطبة (كوردو) بعد ان حاصرها ثلاثة أشهر وسار هو نحو طيطلة تخت الملك فوجدها مغلقة الابواب حصينة الاسوار والابراج فحاصرها زمناً وقطع القوت عن سكانها حتى اضطروا الى طلب الصلح فعقد معهم صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن اراده من السكان وترك للنصارى سبع كنائس وحرية الدين والشرائع وابقى لهم قضاتهم وكذلك فعل مع اليهود ثم تقدم نحو الشمال وفتح ما مر به من المدن بجهات قسطيلة (كاستيل) وغيرها وغنم اموالاً جزيلة ثم عاد طارق الى طليطلة بطلب من موسى بن نصير لأنه حسده وخاف ان لا يترك له بلاداً يفتتحها ولا يشاطره الشهرة ورفعة الصيت وتقدم موسى فافتتح جهات وادي يانه وغيرها ولما تلاقى مع طارق بطليطلة وبخه على ما كان منه من عدم اطاعته ولم يسمع منه قولاً ويقال انه ضربه وسجنه ثم اطلقه بناء على ما ورد له من الخليفة ولما خرج من السجن سار بجيش فافتتح بلاد طركونة وسرقسطة وبرشلونة وغيرها وأخذت بعد ذلك سفن الاسلام تتردد بكثرة على هذه الثغور ولم يزل العرب يطاردون الغوط الى أن اجازوهم جبال البرانس أو البرنات وكان في تلك الأثناء عبد العزيز بن موسى يحاصر مدناً بحرية في جهة الجنوب.

ثم قفل موسى عن الأندلس بعد أن انزل الرابطة والحامية بثغورها واستعمل ابنه عبد العزيز عليها وولاه جهاد عدوها وانزله بقرطبة فاتخذها دار امارة وولى على طنجه ابنه عبد الملك ورجع الى القيروان (٩٥) ثم ارتحل الى المشرق (٩٦) تاركاً ابنه عبد الملك على افريقيا وبذلك صارت الاندلس والمغرب بين اولاده واندرجت ولاية الأندلس يومئذ في ولاية المغرب فكان صاحب القيروان ناظراً في الجميع وقدم موسى على الوليد بن عبد الملك قبل وفاته بثلاثة أيام بما كان معه من الغنائم والذخائر

والاموال على العجل والظهر ودفعها اليه فغاظ ذلك سليمان واساء مكافأته حتى أفضى الأمر اليه فنكبه ونكب اهل بيته اجمع وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمداً بن يزيد مولى قريش وامره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك وكان سبب غضب سليمان علي موسى انه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على القدوم ووافاه كتاب آخر من أخيه سليمان يثبطه اسرع موسى للحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته كما قلنا فلما تولى سليمان الخلافة غضب عليه لما كان منه ونفاه الى المدينة المنورة وبها كانت وفاته (٩٨) ثم ثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته ويقال ان الجنود ثاروا به من تلقاء انفسهم لما تزوج اجيلونة زوجة الملك رودريك وانه كان يحدث نفسه بلبس تاج ملوك الغوط.

وكان عبد العزيز خيراً فاضلاً افتتح في ولايته مدائن كثيرة وارسل سليمان على الاندلس من قبله محمداً بن يزيد الحر وكان عادلاً حسن السيرة اما طارق فانهم وان لم يهينوه لم يكافؤه على ما قام به من الفتوحات العظيمة واعلاء شأن الاسلام وهذه وصمة في تاريخ سليمان بن عبد الملك لا تنسى ابداً.

ولاة العرب بالأندلس (٩٢—١٣٨)

لما نكب موسى بن نصير ومولاه طارق صار خلفاء بني أمية يولون عمالاً على الأندلس الى أن انقرضت دولتهم بظهور بني العباس وكان الولاة الذين تولوا الأندلس من غير موارثة أفراداً عددهم عشرون ولم يبتعدوا في أنسمة لفظ الأمير الى أن تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة. وهو يوم عيد الأضحى سنة ١٣٨ ثم كانت دولة بني أمية.

ذكر عبد الرحمن رأس الدولة الأموية الأندلسية (٩٢—١٧١)

وكان عبد الرحمن المشار إليه يلقب بالداخل وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك هرب من وجه بني العباس الى مصر ومنها الى برقة ثم الى مكناسة ثم الى مليلة

وأرسل بدراً مولاه الى جماعة من موالي المروانيين بالأندلس وأشياعهم فاجتمع بهم وبنوا له في الأندلس دعوة ونشروا له ذكراً ووافق ذلك قيام فتنة بين المضرية واليمانية فاجتمعت اليمانية الى أمره ورجع اليه مولاه بدر بالخبر فسار الى الأندلس فبايعه قوم من اشبيلية وشذونة وقرطبة ثم حاربه يوسف بن عبد الرحمن الفهري أمير الأندلس وعامل الخليفة أبي جعفر المنصور فهزمه عبد الرحمن الأموي وبايعه أهل مالقه وشريش وسائر الجهات واستقام له الأمر تماماً سنة ١٤١ فاستقر بقرطبة وقطع الخطبة عن العباسيين وأقام المباني الفخيمة بقرطبة وغيرها ودون الدواوين واستلحم الثوار وأخذ المسلمين بالآداب وجنّد منهم فأكسبهم المروءة وعزة النفس وهاب جانبه الملوك.

هشام بن عبد الرحمن (١٧١ — ١٨٠)

كان سمحاً باراً غازياً استفتح مدينة أربونة الشهيرة ووطئت جنوده أرض بريتانيا الصغرى ببلاد الغالة وحلت عرى مقاوميه من أهل بيته الذين خرجوا عليه وله أبنية ضخمة أهمها تجديد قنطرة قرطبة المعروفة.

الحكم بن هشام (١٨٠ — ٢٠٦)

هو أول من جند الجنود بالأندلس وعظم شأن الدولة وكان في بدء حكمه على شيء من الخلاعة فثار به قوم وبايعوا بعض أقاربه فتغلب عليهم ولحق بهم الى فاس ثم الى الاسكندرية. وكان الافرنج قد فتحوا لعهده برشلونة فطاردهم وكانت له نصرات باهرة عليهم. أما الثائرون الذين نجوا من الاسكندرية فهم الذين خرجوا منها بعد ذلك على سفن واحتلوا جزيرة أقريطيش وبنوا فيها كنديا وغيرها وبقوا فيها الى أن أخرجهم منها أرمانوس بن قسطنطين بأسطول ضخم.

عبد الرحمن الأوسط أو الثاني ابن الحكم (٢٠٦ — ٢٣٨)

بعث جنوده للفتوح فأوغلوا حتى انتهوا الى أرض بريتانيا الصغرى وفتحوا بنبلونه وكان صاحبها من أكبر ملوك تلك الجهات ثم أغار النورمنديون على الأندلس

فهزمهم المسلمون بعد مقام صعب ثم تعقبوهم بالأسطول الى أن أخرجوهم وأراحوا البلاد منهم وعلى أثر ذلك حاصروا مدينة ليون واستولوا عليها . وكان عبد الرحمن قد جهز لمحاربة بني العباس ثم أدرك انه يخدم بذلك ملك القسطنطينية فعدل عنه وصادق الخليفة وكان طروباً مولعاً بالبناء الجميل وترك الآثار الجليلة .

محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ــ٢٧٣) والمنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ــ٢٧٥) وعبد الله بن محمد (٢٧٥ــ٣٠٠)

كان محمد أميراً باسلاً لقي الثائرين من أهل طليطلة ومنجديهم من أهل جليقية وعصائب البسك في وادي سليطة فأوقع بهم إيقاعاً وغزا الافرنج غزوات كثيرة وقاتل النورمنديين وقد عادوا الى شواطىء الأندلس فأبعدهم عقيب ما قتلوا وأسروا جمهوراً من المسلمين وغنموا غنائم جمة . وخلف محمداً هذا ابنه المنذر فلم يكن له شأن يذكر وحكم سنتين ثم خلفه ابنه عبد الله وقامت لعهده الثورات على قدم وساق في أكثر بلاد الأندلس ودام ملكه خمساً وعشرين سنة .

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ــ٣٥٠)

استمر عشرين سنة يسكن الثورات حتى أتى عليها واتخذ لقب أمير المؤمنين وأكثر من الغزو حتى أوطأ جنوده ما لم يطأوه من بلاد الافرنج الى أن هزمه رودمير ملك الجلالقة فلزم دائرة ملكه وكان يبعث الطوائف تقاتل النورمنديين في أطراف الأندلس الجنوبية وسالمه الملوك والأمرآء وكاتبوه وهادوه وأطاعه بنو ادريس أمرآء العدوة وملوك بربر وزنانة .

وكان الناصر حكيماً عادلاً محباً لرعيته خفض عنها الضرائب وقرب العلماء واجتمع بداره جمهور عظيم من أهل كل فن ومعرفة وصناعة وشيد الأبنية العظيمة التي تفوق الوصف بحليتها وزخارفها وإتقانها واستكثر من السفن وكانت أيامه على الجملة أيام رخاء وصفو وعدل وأمان .

الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠—٣٦٦)

جرى على خطة أبيه وفتح مدينة سان سباستيان بشمالي اسبانيا ومدينة كوبمبريا أو قلمرية وكانت دار علوم البرتغال ونالت جنوده وأساطيله من النورمنديين في كل جهة ظهروا فيها ثانية. وخلع بني ادريس عن ملكهم بالعدوة وضم الى ملكه الغرب الأقصى والأوسط ودان له ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة.

وكان كأبيه مقرباً للعلماء جمع من الكتب ما لم يجمعه ملك قبله ثم بيع أكثرها لنكد الطالع في حصار البربر أيام حكم المنصور بن أبي عامر ونهب البربر ما بقي منها عندما أخذوا قرطبة.

هشام بن الحكم (٣٩٦—٣٩٩)

تولى هشام وهو صغير السن وكان وزيره محمد بن أبي عامر فحجر على الخليفة مع التظاهر بالتكريم الأسمى له ومنع الوزراء عنه إلا في أوقات يسلمون فيها وينصرفون وضرب كبار المملكة بعضهم ببعض الى أن انفرد فاتخذ الزاهرة مقراً ولقب نفسه بالملك وتسمى بالمنصور وسك النقود باسمه وجعل الخطبة له بعد الخليفة وجند البرابرة والمماليك ويقال إن جنوده لم تغلب في ست وخمسين غزوة غزتها واستوثق له ملك المغرب وخضعت ملوك زناتة وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم بالأندلس وهو عائد من بعض غزواته ودامت وزارته سبعاً وعشرين سنة ومن أعظم فتوحاته فتح مدينة سانتياغو بالبرتغال على منعتها.

وقام بالوزارة بعده ابنه عبد الملك الظافر أبو مروان فاستمر حاجراً على الخليفة وحكم سبع سنين كانت سنين خير وهناء ثم خلفه أخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله فأخذ من المؤيد ولاية العهد ولما ذهب الى غزوة ببلاد الجلالقة ثار زعماء القرشيين والأمويين الذين ساءهم اغتصابه فخلعوا المؤيد ثم بلغ ذلك جيش الوزير فانصرف عنه وقبض على الناصر وقتل.

محمد بن هشام المهدي (٣٩٩—٤٠٠)

وبويع محمد فنقم على رؤساء البربر وزناته لأنهم كانوا أعواناً للناصر واستفز عليهم الناس فاضطهدهم فتواطأوا على مبايعة هشام بن سليمان بن الناصر فعوجلوا عن أمرهم واستدعى المهدي سليمان المذكور وأخاه أبا بكر فضرب عنقهما فلحق ابن أخيهما الحكم بجنود البربر واجتمعوا بظاهر قرطبة وبايعوه ولقبوه بالمستعين بالله.

ثم جرت بين المهدي والمستعين وقائع انجلت عن انخذال المهدي فدخل قرطبة وتنازل عن الخلافة لهشام المخلوع ثم قتل الاثنان واحداً بعد الآخر ودخل المستعين قرطبة عنوة وتواثب البرابرة والعبيد على الأعمال فاتخذوا ممالك وإمارات مستقلة واستتب الأمر لسليمان إلا أن بعض الأمراء لم يرضوا بخلافته فبايعوا عليا بن حمود صاحب سبته على طاعة المؤيد إذ ظهر خبره وكانوا يظنونه مستخفياً لا ميتاً فتقدم ابن حمود في جيش جرار وفتح قرطبة وقتل سليمان ثم بويع ولقب بالمتوكل على الله. وكان في جملة الذين أخذوا بناصر ابن حمود أمير يدعى خيران وكان يريد مبايعة واحد من بني أمية فلما رأى المتوكل على الله قد اختلس البيعة له خرج عن طاعته وظفر بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر بمدينة جيان فبايعه ولقب بالمرتضي واتفق على توليته أكثر أهل الأندلس وقتل المتوكل غلمان له وهو في حمامه. وكانت الحوادث المتقدم ذكرها أعظم تمهيد لاستيلاء الافرنج بعد ذلك.

خلافة عبد الرحمن المرتضي (٤٠٨—٤١٢) وعبد الرحمن المستظهر بالله (٤١٤) ومحمد بن عبد الرحمن المستكفي (٤١٤—٤١٦) وهشام بن عبد الرحمن الناصر المعتمد على الله (٤١٨—٤٢٢) وأمية بن عبد الرحمن (٤٢٢)

كل هؤلاء تداولوا الملك وخلعوا عنه بعد حروب طويلة وقتل بعضهم واختفى البعض وكان أحدهم المستكفي أبا ولادة الأديبة الشهيرة وكان أمية آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس وهو السادس عشر منهم.

ما كان للدولة الأموية من الشأن

كانت هذه الدولة من أعظم الدول مكاناً وأشرفها خدمة للحضارة والمدنية عامة

وللأمة العربية خاصة فقد ظهر فيها من الملوك الحكماء والقواد الأبطال والعلماء والفلاسفة والحسبة والكتاب والشعراء والمصنفين والصناع المهرة المبرزين في فن البناء والنقش جمهور لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم الأمم الغربية التي أخذت عنهم واقتدت بهم. وفضلاً عن ذلك فقد كان الأندلسيون في نعمة ورخاء والعدل سائداً والزراعة متقنة والصناعة رائجة إلا في المدة الأخيرة التي كثر فيها الانقسام واحتدمت الحروب وعم البلاء حتى آل الى انقراض الدولة الأموية الباهرة وبدأ انحطاط الأمة العربية بالأندلس.

— ٤١ —

دولة العلويين (٤٠٧ — ٤٦٠) وقيام ملوك الطوائف وذكر دولة بني الأحمر الى انقراض الدولة العربية الأندلسية.

الخلفاء العلويون

أولهم علي بن حمود الادريسي وقد تقدم الكلام عليه. تولى نحو سنة واختصم بعده على الخلافة يحيى المعتلي وعمه القاسم فخلع الاثنان واحداً بعد الآخر ثم بويع ادريس أخو يحيى المعتلي ولقب بالمتأيد وحكم الى أن مات (٤٣١) وبويع بعده الأمير يحيى وخلع ثم حسن المستنصر العالي وخلع ثم محمد بن ادريس المهدي وخلع ثم محمد المستعلي وخلعه ادريس بن حبوس وملك الى وفاته فلما انحط شأن الخلافة الى هذه الدرجة قامت ملوك الطوائف وكانوا كثيرين وكان جمهور منهم يلقبون بأمراء المؤمنين في وقت معاً وعند ذلك استرد الافرنج طليطلة من يد صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى مدة ألفونس السادس بعد أن حاصروها سبع سنين ثم بلنسية صلحا (٦٣٢) ثم المرية عنوة من يد ابن الأحمر (٦٢٦) ثم شرقي الأندلس (٦٤٥) ثم قرطبة (٦٢٥) ثم اشبيلية فتحها فردينند (٦٤٥) بعد حصار سنة وخمسة أشهر وانحاز بعد ذلك المسلمون الى غرناطة والمرية ومالقة.

دولة بني الأحمر (٦٢٩—٨٩٧)

كانت دولتهم من أكبر دول ملوك الطوائف وقامت بعدها وهي التي انتزع منها الاسبانيون ما بقي من الأندلس بيد المسلمين وملوكها منسوبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج.

ذكر الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر (٦٢٩—٦٧١)

لما بويع بالخلافة الأمير زكريا الحفصي صاحب أفريقيا بويع الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر على الدعاء له وإطاعته جيان وشريش ووقعت بينه وبين ابن هود وقائع كان الربح فيها للاسبانيين فإنهم انتهزوا فرصة تلك المعارك واستولوا على النواحي ثم على قرطبة ثم على أشبيلية ثم على طليطلة وشلب وطلبيرة (٦٥٩) ثم على مرسيه الى أن حصروا المسلمين في سيف البحر بين رندة غرباً والبيره شرقاً ولما رأى ذلك ابن الأحمر استجار بيعقوب بن عبد الحق سلطان الغرب فأمده بالرجال فاسترد بهم بعض القلاع والمراكز.

ذكر محمد الفقيه (٦٧١—٧٠١)

هو ابن الشيخ محمد بعد أن تولى الملك بسنة استصرخ السلطان يعقوب فأجاز اليه جيوشاً ثم جاء بنفسه ففتح الجزيرة الخضراء ومد سلطة بني الأحمر على ما كان باقياً بيد الثائرين والمستقلين من مسلمي الأندلس.

ذكر محمد الملقب بالمخلوع وأخيه أبي الجيوش وأبي الوليد ومحمد بن الأحمر (٧٠١—٧٣٣)

كان محمد ضعيف الجنان قليل الحزم فلم يلبث أن اعتقله أخوه أبو الجيوش وملك مكانه ثم أن أبا الوليد اعتقل أبا الجيوش وأثل له ملكاً بغرناطة وانتصر على الاسبانيين. وقام بعده محمد ابن الأحمر وكانت بمملكة غرناطة فتنة فحاول قمعها ودفع الاسبان فقتله بعض الثوار.

ذكر أبي الحجاج يوسف (٧٣٣–٧٥٥)

لما تولى هذا الملك كان سلطان المغرب مشتغلاً بفتح تلمسان فاعتز لذلك الاسبان وغزوا في بلاد المسلمين بالأندلس وضربوا الجزية على أبي الحجاج فقبلها ولما فرغ سلطان المغرب من فتح تلمسان أرسل ابنه أبا مالك وعقد له على كثير من زناتة والمتطوعة فحارب الاسبان وتوغل في بلادهم وعند عودته دهموه بجنود كثيرة فقتلوه وقتلوا كثيراً من قومه واحتووا على معسكره فشرع السلطان أبو الحسن في إجازة العساكر للجهاد وتجهيز الأساطيل حتى إذا اجتمعت في سبته أقلعت نحو أسطول الفرنج ببحر الزقاق فهزمته واستلحم المسلمون جنوده وقتلوا قائدهم واستاقوا أساطيلهم الى سبته ثم لما استكملت إجازة العساكر أجاز السلطان بنفسه مع حاشيته ونزل على مدينة طريف وكانت بيد الاسبانيول فأحاط بها عساكره وعساكر ابن الأحمر ولما انتشب القتال كان للعدو جيش كمين من وراء فعمد الى محلة السلطان فانتهبها بعد أن قتل من بها من الحراس والخدم والنساء ثم أضرم النار بالمحلة فظن المسلمون أنهم أحيط بهم فارتدوا على أعقابهم.

ثم استأنف السلطان أبو الحسن الحرب وكانت بحرية فدارت الدائرة على أسطوله ونزلت الجزيرة الخضراء على حكم الإسبان بعد أن أمنوها.

محمد الغني بالله (٧٥٥–٧٩٣)

كان في أول أمره ضعيفاً فخلع وقام مكانه أخوه اسمعيل ثم قتله وزيره أبو يحيى واستبد بالملك وغلب الاسبانيين ومنع تأدية الجزية لهم وكان محمد الذي خلع قد سار الى السلطان أبي سالم المريني ولحق به كذلك رئيس الغزاة يحيى بن عمر فأكرمهما أبو سالم ثم تمكن المخلوع من مدينة زبدة وزحف منها الى مالقة (٧٦٥) فافتتحها وفرّ الرئيس أبو يحيى من غرناطة فدخلها محمد على أثره وامتد نفوذه وسادت كلمته حتى دخل بنو مرين في طاعته وصار هو الذي يوليهم واسترجع من يد الاسبانيول كثيراً من البلاد والمعاقل ودخل قرطبة فعاث في نواحيها وخربها ورجع ظافراً غانماً وفتح الجزيرة الخضراء ثم هدمها خشية استيلاء الاسبان عليها.

آخر ملوك بني الأحمر واستيلاء الاسبان على غرناطة (٨٩٧)

وبعد وفاة هذا الملك أخذت دولة بني الأحمر في الانحطاط السريع وقامت الثورات والفتن الى أن كانت سنة ٨٩٢ فاستولى الاسبان على وادي آش وأعماله صلحاً ودخل في طاعتهم صاحبه أبو عبد الله بن سعد.

قال صاحب حقائق الأخبار ثم أن ملك الاسبانيول وهو فردينند الكاثوليكي راسل أبا عبد الله بن أبي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على أموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه وله الخيار في أي بلاد الأندلس شاء ولما شاور رعيته اتفق الناس على الامتناع ومحاربة العدو بكل الممكنات ولما علم الاسبانيول بذلك ضاعفوا استعداداتهم وقووا جيوشهم وعزموا على منازلة غرناطة بعد أن استولوا أثناء هذه الفتن على حصون كثيرة بحيث لم يبق لبني الأحمر الا غرناطة وأعمالها وفي (٨٩٦) أقبل العدو الى خارج غرناطة بالعدد والعدد وكان جيشه يتألف من جيوش قشتالة وأراغون غير المدد الكثير الذي أمدّته به أوربا فأفسد الزرع وقطع الأشجار وهدم القرى.

وكان الناس في أول الأمر يظنون انه عازم على الانصراف فإذا به قد صرف عزمه الى الحصار والإقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة أشهر واشتد الحصار بالمسلمين ومع ذلك كان الاسبانيول على بعد من المدينة والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام يأتي من ناحية جبل شلير الى أن تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال (٨٩٧) ثم طمع العدو في غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال وفر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الأمر وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع الناس مع من يشار إليه من أهل العلم والوجاهة وتكلموا مع السلطان أبي عبد الله وأن العدو يزداد كل يوم وهم لا مدد لهم ولا طعام يأتيهم وكانوا يظنون انه ينصرف عنهم فخاب ظنهم.

فاتفق الرأي بعد أخذ ورد على ارتكاب أخف الضررين وشاع أن الكلام في الصلح وقع بين رؤساء الجندين فاتفقوا على شروط عقدت بها بين الطرفين الوثائق ثم قرئت على أهل غرناطة فانقادوا لها ووافقوا عليها وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة أبو عبد الله عن الحمراء وذهب بعد ذلك الى مراكش فأقام بمدينة فاس في سلطنة السلطان محمد الشيخ الوطاسي ولما دخل الاسبانيول المدينة عينوا لها حكاماً ومقدمين ثم دخل أهل البشرات أيضاً في هذا الصلح وبقي الاسبانيول يراعون الشروط التي اشترطوها على أنفسهم مدة قليلة الى أن تمكن قومهم وعلموا أن لا ناصر للمسلمين فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط وأذاقوا من بقي من المسلمين في تلك البلاد أنواع الاضطهادات. وسيمر بك الكلام في هذا الباب في تاريخ اسبانيا الذي تراه في المجلد الثاني إن شاء الله.

— ٤٢ —

سائر الدول الاسلامية العربية الكبيرة

دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى (١٦٩ـ٢١٣)

رأسهم ادريس وأشهرهم يحيى بن يحيى خطب له بجميع المغرب ولم يجر في عهدهم من الحوادث الكبيرة ما يخلق بالتدوين في هذا المختصر.

دولة العبيديين أو العلويين أو الفاطميين بأفريقيا (٢٩٦ـ٤٢٧)

قامت هذه الدولة بتونس على أثر دولة الأغالبة الذين كانوا قد توارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ الى ٢٩٦ ورأسها المهدي، وقد دام حكمها في تونس الى سنة ٣٦١ فخلفتها فيها دولة بني زيري الصنهاجيين، ودامت الى سنة ٥٤٢ وفي سنة ٣٠٥ بعث المهدي جيشاً يفتح له المغرب الأقصى فتم له ذلك ودامت دولة العبيديين فيه الى سنة ٤٢٧.

ولما جلس المعز لدين الله على تخت العلويين (٣٤١—٣٦٥) حارب الناصر لدين الله الأموي الأندلسي طويلاً. ثم علم باضطراب الدولة الأخشيدية في مصر ولا سيما بعد وفاة كافور، فأرسل اليها جيشاً جراراً عليه جوهر الشهير (٣٥٥) ففتح البلاد بلا حرب واختط القاهرة ثم جاءها المعز بحراً بأهله وخزأبنة وقامت فيها دولتهم الفاطمية واستعمل المعز على أفريقيا يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو رأس الدولة المعروفة بهذا الاسم، وعلى بلاد صقلية أبا القاسم علي بن الحسن بن علي. وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتامي.

وقام بالأمر بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥— ٣٨٦) فضم فلسطين والشام الى مملكته وخلفه الحاكم (٣٨٦— ٤١١) فادعى الربوبية وأوجد طائفة الدروز وخلفه القاهر (٤١١— ٤٢٦) ثم المستنصر (٤٢٦— ٤٨٤) وفي عهده انضمت الخلافة العباسية موقتاً الى الدولة الفاطمية. ثم انحصرت هذه الدولة في القطر المصري بين دولة بني زيري من جهة أفريقيا. ودولة ملك شاه السلجوقي من جهة آسيا. حيث فتح الشام وفلسطين. وفي أثناء الحروب الصليبية استرد الفاطميون فلسطين. غير أنهم لم يلبثوا أن انقرضوا وخلفتهم الدولة الأيوبية التي رأسها صلاح الدين الشهير (٥٤٩) ثم قامت دولة المماليك بعد الأيوبيين (٦٢٨).

دولة الملثمين أو المرابطين بالمغرب الأقصى (٤٦٢— ٥٤٢)

أشهرهم يوسف بن تاشفين الملقب بأمير المسلمين، دوّخ بلاد المغرب واستنزل ثوارها ثم قصد الأندلس إمداداً لأمير اشبيلية، المعتمد بن عباد فوقعت بينه وبين الفونس السادس. واقعة الزلاقة التي هي أكبر وقائع المسلمين بالأندلس فتغلب عليه وقتل خلقاً جماً من جنوده وجمع بين حكم المغرب والأندلس. وخلفه ابنه علي فكان كأبيه غازياً مقداماً.

دولة الموحدين بالمغرب الأقصى وتونس (٥١٤—٦٦٨)

رأسهم المهدي، ثم خلفه ابنه عبد المؤمن وتلقب بأمير المؤمنين. ملك المغربين

وأفريقيا والأندلس ، ومنهم الناصر الذي دحر الفونس جيوشه الجرارة في موقعة لورقة ، فذهبت بها قوة المسلمين بالمغرب والأندلس . ولم تنصر لهم بعدها راية مع الافرنج ، إلى أن قام السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني . واستولت دولة الموحدين على تونس من سنة ٥٥٥ الى سنة ٦٠٣ ثم خلفتها بتونس دولة بني حفص من سنة ٦٠٣ الى سنة ٩٨٢ .

دولة بني مرين بالمغرب الأقصى (٦١٤ــ٨٩٠)

رأسهم الأمير عبد الحق وقد قتل في منازعته للموحدين . ثم استتب الملك لأعقابه ، وكان أعظمهم يعقوب بن عبد الحق المتقدم ذكره فإنه فتح أمصار المغرب وأخذ مدينة سلا من الاسبانيين وأجهز على بقية الموحدين وانتزع الملك منهم واستولى على مراكش ثم على سلجماسة ودان له المغرب كله .

ثم جاز البحر الى الأندلس أربع مرار ، اجابة لاستصراخ ابن الأحمر وانتصر على الافرنج نصرات باهرة وغنم أموالاً لا تحصى ، وكانت الأندلس تحت حكمه وكان قصره الذي توفي فيه بالجزيرة الخضراء ومن مآثره الجليلة البيمارستانات ، والمستشفيات ، التي شيّدها وأجرى عليها المرتبات الكثيرة للمجانين والمجذوبين والعمي والفقراء والمدارس التي أقامها ووقف لها الأوقاف .

ومن أكابر ملوكهم السلطان المنصور بالله أبو الحسن علي ، استرد من الاسبانيين جبل الفتح ، وثغر طريف ، وجرت بينه وبينهم وقائع برية وبحرية عظيمة ثم دحروه واستولوا على الجزيرة الخضراء .

وفي سنة ٧٤٨ استولى على تونس وأعمالها ثم طرد منها . وفي أواخر عهد هذه الدولة استولى البرتغاليون على كثير من ثغور المغرب الأقصى واستولى الاسبانيون في سنة ٨١٨ على سبتة ثم على قصر المجاز وقصر مصمودة (٨٦٢) ثم على طنجة (٨٦٩) ثم على أصيلا (٨٧٦) ثم على بعض جهات السوس . وقامت بعد بني مرين دولة بني

وطاس (٨٧٦— ٩٦١) ثم دولة الأشراف السعديين (٩١٥— ١٠٦٩) ثم دولة الاشراف السلجاسيين وهي المستولية الى الآن.

فيما كان للعلوم والصنائع من الشأن في الدولة العربية الاسلامية عامة

اشتغل العرب بجميع العلوم والصنائع التي عرفت في أيامهم ونبغوا فيها وزاحموا بها أهل المنزلة الأولى من كل قوم. ولم يكونوا الواضعين لشيء مما تركوه، ولكنهم باروا به واضعيه وفاقوهم. أحياناً وقد قام منهم الشعراء والكتاب الذين لا يشق لهم غبار. والمؤرخون المشاهير والحكماء والأطباء والفلاسفة الذين ملأ ذكرهم الأرض ونقلت مصنفاتهم الى جميع اللغات.

وكذلك قام منهم النقاشون. والبناؤون والنحاتون الذين صنعوا ما يبهر العيون ويسحر الألباب. ومما يذكر لأهل الأندلس خاصة أنهم أول من احتفروا الترع وأحكموا ترتيبها للري وقطروا الأزهار وبلغوا الشأو المستطاع لعهدهم في علم الطب. وللعرب المدارس والمستشفيات والمعالم التي تنطق آثارها أبداً بفضلهم وأجمل ما امتازت بها ممالكهم على كثرتها وتشعبها ما كان بينها من الرابطة المعنوية التي جعلتها كلها تنتفع بالمعارف والفنون والمصنوعات التي كان يأتي بها بعض الأفراد من البلاد الأجنبية بحيث كانت من هذا القبيل كأنها دولة واحدة وعلى هذه الصورة تمّ بين رعاياها شيوع المنقولات عن اليونان من كتب الفلسفة وأصول البناء والمأخوذات عن الهند من فني الأرثماطيقي والجبر والمكتشفات الصينية العظيمة الأهمية من مثل بيت الابرة وبارود المدافع والورق المستخرج من الخرق الى ما يضارع ذلك. ولسنا نسمي أحداً من مشاهير العرب في الأمور التي ذكرناها لأن أسماءهم موعية في الصدور ولا نزيد قراء هذا الكتاب بها علماً. وعلى الجملة فإن الدولة الغربية في قيامها كان لها أعظم شأن في الدنيا وبعد سقوطها وزوالها بقي لها أنفع أثر وأجل ذكر.

من منشأ الدولة العلية العثمانية الى وفاة السلطان الفاتح محمد الثاني (١٢٩٩ — ١٤٨٤)

الدولة السلجوقية (١٠٣٧ — ١٢٩٤)

السلاجقة فرع من أمة تتارية عظيمة كانت في سنة ٦٠٦ م نازلة في جنوبي بحيرة بيقال وكان اسمها هوي هو ويقال إن الهون خرجوا منها. وكانت خاضعة للصينيين ثم خرجت عن حكمهم في القرن التاسع وضربت في البلاد حتى أدركت بحر قزبين فاستقرت في البلاد الواقعة على الجانب الشمالي منه. وكان رأسها سلجوق وكان قائداً لبيغوخان ملك الترك ثم فرّ منه راحلاً بقومه الى دار الاسلام فنزلوا في نواحي جند وراء بخاري في القرن العاشر وهناك أسلم ومن معه وتوفي بعد ذلك. وفي سنة ١٠٣٧ تمكن حفيده طغرل بك من الإمارة وتلقب سلطاناً وفتح خراسان ومحا دولة بني بويه ودخل بغداد في خلافة القائم بأمر الله وتولى الأمر فيها وجعل الخليفة اسماً بلا فعل (١٠٥٥) ولما توفي طغرل بك في سنة ١٠٦٣ كانت مملكته ممتدة من السند الى الفرات. وفي سنة ١٠٤١ كان ابن أخيه قد فتح له بلوخستان. وبعد أن قبض هذا الملك العظيم أضاف خلفاؤه بلاداً كثيرة الى ما ورثوه من ملكه وقسموا السلطنة بينهم الى خمسة أقسام أكبرها وأولها سلطنة ايران أو الفرس وكان لها السيادة على سائر الأقسام وكان أميرها ألب أرسلان بن طغرل بك (١٠٦٣ — ١٠٨٢) وخلفه فيها ملك شاه (١٠٧٢ — ١٠٩٢) وكان مقداماً غازياً كبير الهمة فتح أرمينيا وكورجتان (١٠٧١) وديار بكر (١٠٨٥) وامتدت تخوم إمارته من القوقاف الى بحر قزبين الى بحر آرال الى جبال بولور الى السند الأعلى.

وثانيها إمارة قرمان في جنوب المتقدم ذكرها على خليج العجم وبحر عمان بطولها.

وثالثها امارة بلاد الروم اوقونية اسسها سليمان علي وضم اليها اسيا الصغرى من سنة ١٠٧٤ الى سنة ١٠٨٤.

ورابعها امارة حلب اسسها توتوش بن ملك شاه

وخامسها امارة الشام اسسها بن تتوتوش المذكور

وعلى هذا الشكل كانت آسيا الغربية والممالك الاسلامية يوم حدوث الحرب الصليبية الأولى التي قام بها نصارى المغرب على مسلمي المشرق.

وقد دامت الدولة السلجوقية الى سنة ١٢٩٤ وزالت وكان آخر ملوكها بقونية السلطان علاّء الدين على ارجح الاقوال وهو الذي اتصل به ارطغرل والد عثمان الغازي رأس الدولة العثمانية وارطغرل هذا أحد اربعة ابناء لسليمان شاه بن قيا الب من سبط قايي خان. وكان سليمان قد نزل زماناً بمن معه من قومه في جهات اذربيجان حتى اذا هاجم السلاجقة خراسان وخوارزم قفل راجعاً الى وطنه في اواسط آسيا بصحراء ماهان وكان قد هجره فراراً من وجه غارة جنكيزخان سلطان المغول. وبينما هم عائدون توفي سليمان فرأى ارطغرل أن يقصد بلاد الأناضول وانفصل بمن تبعه عن الذين اصروا على العودة الى وطنهم وسار في ٤٠٠ بيت فضربوا خيامهم في جهات سرمه لووباسين ثم اقطعهم السلطان علاء الدين قروجه طاغ بقرب انقره فانتقلوا اليها. وكان لارطغرل زهاء ٤٤٠ فارساً انجد بهم جنود علاء الدين في بعض وقائعهم مع جيش لهولاكو خان من اعقاب جنكيزخان ملك المغول فسر ذلك السلطان وأقطع ارطغرل جهة سكود واراضي غيرها واسعة منها صيراجق من ولاية قونية وفوض اليه امر الدفاع عن جانب من جوانب سلطنته. وكانت هذه البقعة مهد الدولة العثمانية.

تأسيس الدولة العلية وذكر السلطان الغازي عثمان (٦٩٩ — ٧٢٦)

هو ابن ارطغرل المتقدم ذكره لما توفي ابوه جزع علاء الدين واستدعاه وعهد اليه حماية قلعة كوتاهية ونصبه مكان والده ومنحه الاستقلال واهدى اليه شارات السلاجقة وأمر بالخطبة له من بعده. وكان الفساد قد استشرى في جسم المملكة السلجوقية واستبد كل عامل بولايته. واتفق ان أولئك الولاة تآمروا على قتل عثمان لما

نالهم من الحسد له فحذره من مكيدتهم احدهم وكان يدعى كوسه ميخال فنجا منهم . ولما اغار غازان خان في سنة ١٢٩٩ على مدينة قونية ازال السلطنة السلجوقية فتم الاستقلال المطلق للولاة كل في اقليمه وكان من هذا العهد مبدأ التاريخ الحقيقي للدولة العثمانية . ولجأ جمهور من امراء السلاجقة وعلمائهم واعيانهم الى كنف الامير عثمان فحماهم واستمر سبع سنين يغزو حتى فتح أكثر مملكة الروم السلجوقية ثم أغزى ابنه الغازي أورخان مدينة بروسه ففتحها واتخذها داراً للملك عوضاً عن يكيشهر.

السلطان اورخان الغازي (٧٢٦ــ ٧٦١)

ولما توفي عثمان خلفه ابنه اورخان وكانت شبه جزيرة الأناضول منقسمة بين جملة من ملوك الطوائف الذين قاموا على اثر انقراض الدولة السلجوقية كما أشرنا الى ذلك فأول ما صرف همه اليه وضع القوانين والنظامات وتقرير احوال المملكة فرتب العساكر النظامية واجرى لها الوظائف والبسها الأكسية التي تمتاز بها وأسس فرقة الانكشارية وأقام علاء الدين باشا وزيراً له وقسم الاراضي المفتوحة الى قسم خاص بالخزينة السلطانية والاسرة المالكة ونفقات الديوان وقسم خاص برجال الحرب. ثم شرع في الغزو ففتح قلعة قبون حصار ثم مدينة ازميد (نيقوميديا).

وفي سنة ٧٣١ فتح مدينة ازنيك واتخذها عاصمة ثم عقد هدنة صلح لعشرين سنة مع قيصر القسطنطينية واستزاد بمقتضاها سائر أملاك القياصرة بالاناضول عدا مدينة الاشهر وقلعة بيغا وضم مملكة قره سي الصغيرة الأناضولية. ثم نقض قيصر الروم عهد الصلح بعد تجديده فأمر السلطان اورخان ولده الغازي سليمان باشا بالزحف على بلاد الروملي انتقاماً منه فعبر الدردنيل ليلاً في جيشه الى ساحل تلك البلاد فاتفق الروم والمجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان على محاربته فانقض على جيوشهم من جبال البلقان وبددها وغزا في البلغار وسبا وسكن الثورات ثم انقلب الى القسطنطينية اغاثة لقيصرها الذي استجار به لخروج جماعة من قومه عليه فوصل الى اسوار العاصمة ثم عاد منها وفتح قلعة كاليبولي الحصينة وجملة مراكز بعدها ثم ادركته منيته ذات يوم وهو خارج للقنص فحزن عليه والده حتى لم يلبث ان مات على أثره.

السلطان مراد الأول الغازي (٧٦١— ٧٩١)

هو ابن السلطان اورخان فتح قلعة انقرة في سنة ٧٦٢ ثم انتصر جنوده في الروملي على جيش مؤلف من البنادقة والأهالي حاول اخراجهم من تلك البلاد فاستزاد مراد عدد مراكبه وعبر في كتائب جرارة الى الروملي وفتح كثيراً من المراكز والقلاع واستولى على مدينة ادرنه العظيمة واغزى قواده كوملنجة وسائر البلاد الروملية الجنوبية وفتح قلبه (٧٦٥) وزغره ومناستر وبهشتنه. وكذلك صوفية بعد حصار ٣ سنين (١٣٨٣) ومناستر دخلها الصدر الأعظم خير الدين باشا (١٣٨٦) واتخذ السلطان مراد مدينة ادرنة عاصمة له وبلغه قيام علآء الدين ملك القرمان على العثمانيين فأمه الى بلاده وغزاه واستولى على ولاية كرميان وسواها من البلاد التي كانت لا تزال مستقلة وفي خلال ذلك تواطأ لازار ملك الصرب وملوك الافلاق وامراء دلماسيا وملك المجر وملك البلغار على محاربة العثمانيين فلقيهم جيشهم في سهل قوصوه فانتصر عليهم انتصاراً باهراً وأيد بذلك تابعية البلغار والروملي واسيا الصغرى للدولة العلية وادخل الصرب في ولايتها. وعند انتهاء الحرب كان احد جنود الاعداء قد تماوت فلما مر به السلطان وهو يقلب نظره في الجرحى والقتلى والغنائم المتروكة طعنه بخنجر فقتله لساعته.

السلطان يلديرم بايزيد الأول (٧٩١— ٨٠٥)

حذا حذو أبيه في الغزو والفتوح ومعنى يلديرم الصاعقة لقب بذلك لما كان من شدة بأسه وبسالته. ومن عظيم اعماله ادخاله ملك الصرب في طاعته وفتحه قلعة الأشهر «فيلادلفيا» واخضاعه جميع ممالك الأناضول المستقلة واستيلاؤه على سلانيك ورده جيوش البنادقة والفرنسويين والجنويين والاسبانيين مدحورين اذ حاولوا اخراجه منها ومحاصرته للقسطنطينية ثم رجوعه عنها لمحاربة المجر وردهم عن صوفيا وغزوه لاطراف البلغار ومقدونيا وشبه جزيرة المورة واثينا واستعداده ثانية لفتح القسطنطينية بعد أن عاهد قيصرها على الصلح والجزية ثم محاربته لتيمورلنك الذي جاء يريد تمزيق الدولة العثمانية وانكسار جيوشه بقرب انقرة لانحياز خمسين

الفاً منهم الى قواد تيمورلنك. وحدث على اثر هذه الهزيمة ان اشتد الخطب على بايزيد لوقوعه في الاسر فمات عن سبعة اولاد. فاخذوا يختصمون ويتنازعون على ما بقي للدولة من البلاد وكان الطاغية يضرب بعضهم ببعض ويؤيد فريقاً منهم على الآخر لإضعافهم ثم بدا له غزو الصين فارتحل ومات في طريقه ولم يلبث محمد أحد أولاد السلطان بايزيد أن أعاد وحدة السلطنة وجعل زمامها في يده وقتل منازعيه.

السلطان محمد الأول بن بايزيد (٨١٦— ٨٢٤)

كان يلقب بجلبي. ولما استتب له الأمر عقد الصلح مع الدول الاوربية وصرف عنايته الى اصلاح داخل السلطنة بعد الفساد الذي عم فيه ثم انتقض عليه ملك الافلاخ وسجسمند صاحب المجر فسار السلطان لمحاربتهما فاذلها وصالحهما ثم اشتغل بتسكين الفتن العظيمة التي قامت في الدولة واهمها فتنة بدر الدين الاشتراكي الذي كان يذهب الى وجوب المساواة بين الناس في الاحوال وسائر المقتنيات بلا فرق بين مسلم وغيره. ولما دنت منية محمد الأول اوصى بالملك لابنه مراد من بعده.

السلطان مراد الثاني الغازي (٨٢٤— ٨٥٥)

كان هذا السلطان حكيماً باسلاً وأول ما شرع فيه عقد الصلح مع أمير القرمان ومهادنة ملك المجر ليتفرغ للاصلاح في داخلية السلطنة فلم يمهل في ذلك طويلاً لأن ملك القسطنطينية شرط عليه شروطاً لم يكن ليقبلها فأطلق الامير مصطفى اخا السلطان بايزيد وكان قد اختفى من وجه أخيه ولجأ الى سلانيك وبقي فيها الى ذلك العهد فجهز له ملك الروم اسطولاً وجيشاً وبعثه يحارب ابن اخيه ليتولى الحكم مكانه غير أنه لم يلبث ان قبض عليه وقتل مشنوقاً ثم حاصر السلطان مراد القسطنطينية ارادة أن يعاقب قيصرها على عمله فاضطر ان يرجع عنها لتسكين ثورة أحدثها احد اخوته في بلاد الأناضول فدحره وقتله واخضع جميع الامارات المستقلة التي ساعدت اخاه عليه ثم جرد على ملك المجر فنكل بجيشه وعقد الصلح معه على الاقرار بأن نهر الدانوب الفاصل الطبيعي للأملاك العثمانية عن الاملاك المجرية واضطر ملك الصرب أن يحمل الجزية اليه ويمده بفرقة من جنوده في الحرب ويقطع

الصلة بينه وبين ملك المجر ويتنازل عن مدينة آلاجه حصار في وسط بلاده لتكون مركزاً لحامية عثمانية وفي سنة ١٤٢٥ ركب يوحنا باليولوغوس تخت القسطنطينية فلم يقر به السلطان الا على جزية يؤديها والتنازل له عن جميع ما بقي للروم من القلاع والحصون على شواطىء البحر الاسود وسواحل الروملي ففعل. ثم جرد السلطان على سلانيك يريد حصارها وكان قد احتلها البنادقة واستبدوا بأهلها فانتصر اسطوله بحراً بقرب كاليبولي على اسطولهم وشدد جيشه الحصار على المدينة الى أن فتحها عنوة (١٤٢٩) ثم استولى على اخائية وابيره ويانية وجميع البلاد والمدن التي بقرب برزخ قورنثية وعاث في الموره.

وفي سنة ١٤٣٦ فتح السلطان قونيه التي ثار صاحبها ابن قرمان بايعاز من المجر فانتزع الامارة منه ثم ردها اليه على أن يكون تابعاً للدولة. وبعد ذلك انقلب لمحاربة ملك المجر وامير الصرب وارسل جيشاً جراراً الى بلادهما فعاث فيها ثم عاد لهدنة عقدت ولكن الحرب لم تلبث ان انتشبت ثانية ودخل فيها يوحنا هونياد المجري الشهير امير الاردل يقود جيش لادسلاس ملك المجر وبولونيا وجمهوراً معهم من الفرنسويين والألمانيين فدارت الدائرة على العثمانيين بقرب هرمانشتار أولاً وبقرب بلغراد ثانياً. ثم عقدت هدنة لعشر سنين قبل فيها السلطان باستقلال الافلاق ورد قلعة سمندره للصرب واعتزل مراد الملك وولى ابنه محمداً الثاني فلما أحس بذلك لادسلاس استأنف الحرب غير مراع للهدنة فعاد مراد الى تولي الأمر وعبر بجيشه من مضيق البحر الأسود والتقى بجيش الاعداء الجرار امام مدينة وارنه فاشتد العراك وقتل لادسلاس وخاصة جنوده فتفرق الباقون منهزمين لا يلوون على شيء (١٤٤٤) ثم اعتزل السلطان ثانية فغضب الانكشارية فعاد الى الملك وارسلهم يفتحون بلاد اليونان فدخلوا قورنثيه عنوة على شدة تحصن برزخها وضربوا الجزية عليها.

ثم استرجعوا من فورهم لقيام اسكندر بك الشهير. وكان هذا الرجل احد اولاد أربعة لأمير على البانيا يدعى جان كاسترو استرهنهم السلطان لديه ليستمر والدهم في الطاعة له واداء الجزية. فلما شب اسكندر المذكور تظاهر بالاسلام وتولى مناصب سامية ثم اصطنع كتاباً سلطانياً بتوليته امارة أبيه وخرج في جيش عثماني

بدعوى مقاتلة يوحنا هونياد فاوقع الهزيمة على جنوده وذهب الى البانيا واستقل فيها ونكل بالحامية العثمانية في جميع قلاعها وبقي يحارب الدولة خمساً وعشرين سنة مظفراً على ما سيجيء وصفه في المجلد الثاني ان شاء الله وفي سنة ١٤٤٨ استأنف يوحنا هونياد محاربة العثمانيين على رأس جيش تحالفي جرار فقابلته جنود السلطان في وادي قوصوه فدامت المواقع ثلاثة أيام بقي النصر بعدها للعثمانيين. وبعد ذلك بسنة زوج مراد ابنة لاسكندر بك من ابنه محمد ثم توفاه الله وقد منح الوطن منتهى جهده وجميع ساعات عمره فايده ووسع جوانبه وجعله آمناً في الداخل مهيباً في الخارج.

السلطان الفاتح محمد الثاني (٨٥٥ — ٨٨٦)

كان هذا السلطان من اعظم ملوك الأرض وأكثرهم مزايا فانه كان من جهة بطلاً صنديداً وقائداً فريداً ومن جهة أخرى صالحاً عادلاً عالماً يحسن العربية والفارسية واللاتينية وغيرها من اللغات ويميل الى الصنائع الجميلة ويقرب اهلها وأهل العلوم والآداب على اختلاف اجناسهم وهو أبو العظمة العثمانية ومنشىء بحرية الدولة العلية.

عندما تولى الملك ثار عليه كثير من امراء الأناضول بدعوى استرداد بلادهم فتمكن من الغلبة علهم واخضاعهم جميعاً.

ثم أخذ يجهز الجنود والأساطيل لمحاصرة القسطنطينية ولما اعدت برح ادرنة في مئتي الف مقاتل و٣٠٠ بارجة عدا سفائن النقل وحاصر القسطنطينية براً وبحراً ودخلها عنوة كما وصفنا ذلك من قبل بالايجاز وكان هذا الفتح من اعظم ما ورد ذكره في التواريخ وابدى فيه السلطان من المهارة والقيادة والدهاء في الفنون الحربية ما لم يسبقه الى بعضه الا أكابر الفاتحين ومن مآثره انه ابقى للنصارى عدة كنائس وحرية الدين وكان بذلك مفتتح اشرف خطة جرى عليها ملوك آل عثمان مع ذوي المذاهب المختلفة من رعاياهم. ولما استتب للسلطان الأمن في القسطنطينية واحكم تحصينها غزا بوسنة ثم ضرب الجزية على الموره وكان قد ارسل قبل ذلك اسطولاً تحت قيادة الرئيس يونس ففتح قلعة اينوز وجزيرتي سماديرك وطاشيوز وكانتا للبنادقة.

ولما كان فتح القسطنطينية قد أثار عوامل الغضب والحقد عند ممالك اوربا سعى البابا في تأليف حملة صليبية فتم له ذلك واغار جيش جرار على حدود المملكة العثمانية باوربا سنة (٨٦٠هـ) (١٤٥٦م) فحاصر السلطان مدينة بلغراد براً وبحراً فقاومه هونياد فيها واضطره الى النكوص عنها وجرح هونياد في هذه الحرب جرحاً بليغاً مات به بعد عشرين يوماً من رفع الحصار ولما علم السلطان بموته ارسل محمود باشا الصدر الأعظم فأتم فتح بلاد الصرب (٨٦٠هـ) وبذلك فقدت هذه البلاد استقلالها تماماً ثم ضرب الجزية ثانية على الموره ثم فتحها ثم جهز على بلاد الصرب ففتحها جميعها عدا بلغراد عاصمتها ثم فتح امارات اماصرة وسينوب وطرابزون.

وحدث بعد ذلك ان أولاد أمير الأفلاق استبد برعيته استبداداً شديداً فاستجاروا منه بالسلطان محمد الثاني فحاربه وكسر جيوشه ونصب اخاه على تخته وبعد ذلك فتح جزيرة مدللي تأميناً لبوغاز الدردنيل (٨٦٦).

وكان ملك البوسنة قد امتنع عن دفع الجزية السنوية المضروبة عليه فاتاه الصدر الأعظم محمود باشا سنة ٨٦٧هـ وأخذ في مطاردته من نقطة الى أخرى الى أن حاصره ببلدة كلوجي فسلم وخضع أيضاً جميع من بالقلاع والمدن من الحكام وكانوا في أول الأمر تمردوا شديداً ومع ذلك فان السلطان أمر بقتلهم جميعاً ولما تم للعثمانيين الاستيلاء على بلاد بوسنة وعاد السلطان اغار متياس كورفين بن هونياد بقوة عظيمة على بلاد بوسنة قصد استردادها فسارت اليها الجيوش العثمانية ثانية سنة ٨٧٠هـ تحت قيادة الوزير الاعظم محمود باشا وما زالوا ينازلون المجر حتى طردوهم من تلك البلاد بعد أن قتلوا منهم عدداً عظيماً واستردوها تماماً ومن هذا الوقت دخلت بلاد بوسنة في عداد الممالك العثمانية ونزع امتيازها تماماً.

ثم ان اساطيل السلطان انتصرت على اساطيل البنادقة بعد حرب دامت ١٦ سنة وفتحت جزيرة اغريبوز أو نغربنطس وكانت مركز مستعمرات الاعداء وبعد ذلك ضمت امارة قرمان الى السلطنة.

ولم يكتف السلطان بكل ما تقدم ذكره من المغازي بل وجه نظره الى روسيا

وكانت لا تزال في أيدي التتار من عهد تيمورلنك إلا ثغور آزاق وكفه ومنكوب وغيرها منها فقد كان الجنويزيون استولوا عليها فأمر محمد الثاني بفتحها وطردهم منها. ففتحت بلاد القريم برضى من أهلها لشدة ما كان واقعاً من الشقاق بين أمرائها الاثني عشر أبناء الحاج كراي آخر ملوك القبجاق. ثم استولت على ثغر آق كرمان. واتجهت منه نحو الطونة قاصدة بلاد البغدان بينما كان السلطان قد سار اليها براً في جيش كثيف ولكن ملكها اسطفان الرابع تمكن من ردّ العثمانيين على أعقابهم ولقبه البابا من أجل ذلك بحامي النصرانية.

أما السلطان محمد فإنه استعاض عن هذا الفشل بفتح أكثر أملاك البنادقة وفرض الجزية عليهم في عاصمتهم وعقد معهم صلحاً (٨٨٤) وكان من أهم ما استولى عليه مدينة اشقودره وقد حاول في آخر عهده فتح جزيرة قبرص فلم يتسن له ذلك وأدركته منيته وهو يسير جيشاً بقيادته لغزو بلاد العجم.

— ٤٤ —

اتساع دولة الافرنك والكلام على مشروع التأليف بين الكنيسة والحكومة

المجتمع الكهنوتي

عندما خرجت الكنيسة ظافرة من الاضطهادات وسودها قسطنطين على سلطنته الواسعة فقررت قانون إيمانها ووضعت تعاليمها ونظامها جعلت الدرجات العليا للكهنوت انتخابية والدرجات التي دونها منوطة بإرادة الأسقف ومن فوقه. وكان الأسقف رئيس الكهنة في مركز يدعى بالأبرشية والمتروبوليت رئيس الأساقفة في عدة مراكز تدعى جملتها بالولاية الكنسية والبطريق أسقف إحدى العواصم الكبرى وفوقه أسقف رومة الذي خول الرئاسة على جميع طبقات الكهنوت في المجمع القسطنطيني سنة ٣٨١.

وكان البابا ذا أملاك واسعة وسطوة مادية فضلاً عن السلطة الدينية. وقد زاد نفوذه على أثر سقوط سلطنة الغرب ومملكة تيودوريك إلا أنه بقي مع ذلك تابعاً لامبراطور الشرق ولنائبه الأكزرخوس المقيم في مدينة رافينا عاصمة المملكة الايطالية الجديدة. غير أن هذه التابعية كانت خفيفة الوطأة على البابا لبعد مقر الأمبراطور عن رومة ولاشتغال أكزرخوس رافينا بما كان يخشاه من سطو اللمبرديين على تلك المدينة.

ولما تولى البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤) بذل جهده في سبيل زيادة قوة البابوية وكان أول ما فعله أن أنقذ رومة من غارة اللمبرديين ثم أخذ يجتهد في تحويل الهراطقة والوثنيين الى الدين الكاثوليكي فأدخل فيه الوزير يقوط وأهل انكلترا وهلفيسا وبافاريا وضاعف عدد الأديرة.

ثم اقتدى به خلفاؤه فاكتسبوا هولندا وفريزا ثم جرمانيا على يد القديس بونيفاس الذي عين أسقفاً لها في سنة ٧٢٣.

على أن تابعية البابا لامبراطور الشرق بعد اتساع نفوذه وعلو كلمته الى هذا الحد كان لا بدّ من انقطاعها ولذلك حدث أن يوستينيان الثاني أراد عزل البابا سرجيوس فلم يطعه الجنود. وحدث أيضاً أن عامل القسطنطينية على رومة أمر بتكسير الصور في الكنائس فطرده الشعب وأثاروا ايطاليا عليه (٧٢٦) فانتهز اللمبرديون هذه الفرصة واستولوا على أكزرخية رافينا وأزمعوا وضع يدهم على رومة فاستجار البابا غريغوريوس الثالث بزعماء الافرنك الاسترازيين لإنقاذ المدينة منهم.

ذكر كارلوس مارتل وبيبن القصير (٧١٥—٧٦٨)

لما توفي بيبن الهريستالي (٧١٥) تولى ابنه برضى من جماعة اللود منصب أبيه في بلاط استرازيا ودحر النوستريين الذين حاربوه متحدين مع السكسونيين والأكيتانيين وفي سنة ٧٣٢ صد غارة العرب وردهم الى ما وراء جبال البرانس ثم فتك بالسكسونيين والبافاريين معاً في شرق البلاد وسار في غربها لإخضاع أكيتانيا التي لم تطق تسلط استرازيا عليها. وفي سنة ٧٤١ أتاه رسولان من قبل غريغوريوس الثالث

بهدايا فاخرة منها مفاتيح مدفن القديس بطرس وبلقبي قنصل وشريف ورسالة من البابا يشكو فيها إليه لويتبرند ملك اللمبرديين لأنه كان عازماً على ضم ايطاليا كلها الى مملكته ويسأله فيها أن يدفع ذلك الملك عن رومة ويكون حامي الكنيسة الرومانية.

وكان ملك اللمبرديين كاثوليكياً إلا أن سياسة البابا قضت عليه بأن لا يحتمي به لقربه منه وأن يمنح حمايته لملك بعيد عنه وعلى هذه الخطة جرى سائر البابوات بعده فكانت خطة مشؤومة لأنها جرت أعظم المصائب على إيطاليا.

على أن كارلوس توفاه الله في تلك السنة (٧٤١) وخلفه ابناه كارلومان وبين فكان أحدهما مدير البلاط استرازيا والآخر لقصر نستريا واشتغلا بادىء بدء بتوطيد الأمن على التخوم. ثم اعتزل كارلومان سنة ٧٤٧ في دير جبل كاسين وانفرد ببين بالسلطة فعزم على تتويج نفسه بالتاج الذي أصبح سخرية على رؤوس الملوك الخاملين من الميروفنجيين فاستشار البابا زخريا في ذلك فأجابه أن الحق بلقب الملك لمن في يده السلطة وفي سنة ٧٥٢ مسحه القديس بونيفاس الزيت تثبيتاً له وحبس آخر الميروفنجيين في دير. وبعد هذه الحادثة بسنتين أتى البابا أتيان الثاني الى فرنسا وثبت الملك ثانية بالمسحة الدينية فكافأه ببين على ذلك بأن وهبه بانتابوليا وأكزرخية رافينا اللتين انتزعهما من اللمبرديين. ثم أدار ببين رحى الحرب على السكسونيين فدحرهم وعلى العربان الذين يسميهم الافرنج بالسراقين فأخذ منهم سبتمانيا وعلى الأكيتانيين فتسنى له إخضاعهم بعد أن قاتلهم واستباحهم ثماني سنوات.

ذكر شرلمان أو كارلوس الكبير وتوليه ملك اللمبرديين وتلقيبه ببطريق[1] رومة (٧٧٤)

ورث كارلوس الكبير ملك أبيه مع أخيه كارلومان (٧٦٨) ولكن كارلومان المذكور توفي بعد ثلاث سنين فضم كارلوس الكبير استرازيا الى مملكته وفر أبناء أخيه من وجهه واحتموا بديديه ملك لمبرديا.

---

(١) هذه اللفظة تعريب لفظة بتريس الرومانية ويعنى بها الشريف.

وأول ما شرع فيه كارلوس تقرير الأمن على التخوم وتسكين الثورات وبلغت جملة التجريدات التي جهزها لمحاربة السكسونيين والدنيمركيين والسلافيين والبافاريين والعرب النازلين في اسبانيا والعرب النازلين في ايطاليا واليونانيين والتورنجيين والأكيتانيين والبريتونيين ثلاثاً وخمسين تجريدة تولى القيادة في أكثرها بنفسه .

وبعد أن أتم أول حملة له على السكسونيين استنجد به البابا على اللمبرديين لأخذهم أكزرخية رافينا عنوة فاجتاز جبال الألب ودحرهم وأودع أولاد أخيه كارلومان في دير ودخل رومة ظافراً وأخذ فيها لقب ملك اللمبرديين وبطريق رومة . وأصبح بمقتضى سيادته على رومة صاحب السيادة على أملاك الكرسي المقدس أيضاً (٧٧٤) .

فتح جرمانيا (٧٧١—٨٠٤) وحملة اسبانيا

بدأ شرلمان في سنة ٧٧١ بمحاربة السكسونيين ولم يفرغ منها إلا في سنة ٨٠٤ أي بعد ٣٣ سنة . وكان هذا الشعب البربري يعبد الأوثان وخصوصاً تمثال ايرمنسول الممثل به هرمن غالب فاروس القائد الروماني . فلما حاول القديس ليبوين أن يهديهم ذبحوه ورفاقه فتقدم شرلمان لمعاقبتهم وفتح اهرسبرج وكسر تمثال ايرمنسول فثارت ثائرة التعصب في رأس زعيم ساكسوني يدعى ويتيكند وقاوم شرلمان وجيوشه الجرارة وتجريداته المتتابعة أشد مقاومة حتى إذا اندحر مواطنوه وأكرهوا على حلف يمين الطاعة للظافر في بادربورن (٧٧٧) فرّ الى أقصى جرمانيا ورجع منه بجيش جديد فانتصر عليه شرلمان ثانية في موقعة بوكهولس ونقل عشرة آلاف أسرة سكسونية الى بلجيكا وهلفيسيا وأخضع الذين بقوا في بلادهم لكونتية افرنك وقسم أرضهم على الكهنة ليرشدوهم الى النصرانية .

ولم يلبث ويتيكند أن رجع بجيش آخر وانتصر على جملة قواد افرنك فذبح رجال كارلوس أربعة آلاف أسير سكسوني لشدة غيظهم فشبت في البلاد نار ثورة عامة هائلة لم تخمد إلا بعد انتصار كارلوس في موقعتي دتمولد واسنابروك وإمضائه

شتاء كاملاً فوق ثلوج مقاطعة ساكس للمراقبة والمعاقبة. وعند ذلك قبل ويتيكند بأن يتنصر ولكن بعد أن غرقت مقاطعة ساكسن في الدماء واضطرت الى التسليم بما قضى به عليها الغالب من الشروط المذلة (٨٠٤).

وأما بافاريا فخضعت قبل ساكس وقسمت ولايتها الى كونتيات. وكذلك خضعت بانونيا القديمة التي كان يقطنها بقايا الهونيين على يد أحد أبناء كارلوس. ولم توفق عساكر الافرنك في الغرب مثلما وفقت في المواقع الآنف ذكرها بل انكسرت في رونسفو وقاومها الغاسكونيون ومسلمو اسبانيا مقاومة شديدة لم تستطع أن تحتل معها إلا بعض المراكز الأمامية فيما وراء جبال البرانس وفي وادي نهر الابر. وفي سنة ٨١٢ استطاع ملك أكيتانيا وهو أكبر أبناء كارلوس أن يصل بجنوده الى غربي البرانس ووقف عند ذلك منتهى جهده.

وعلى أثر هذه الحرب الجسيمة انضم الجبل الجرماني الى أمة واحدة عدا الانكلوسكسونيين المقيمين في بريطانيا العظمى والنورثمان المقيمين في سكاندينافيا.

ووصلت تخوم مملكة شرلمان في الشمال والجنوب الى الأوقيانوس وفي الغرب الى جبال البرانس وقسم من مجرى الابر في اسبانيا وكاريكليانو وبسكارا في ايطاليا وستينا في ايليريا وفي الشرق الى البوسنة وملتقى نهر الساف بنهر الدانوب وجبال بوهيميا وأنهر السال والألب والايدر. وكانت الشعوب فيما خرج عن هذه الدائرة الواسعة تحمل الجزية الى شرلمان ويراقبها كونتية الحدود من الافرنك. أما بريطانيا وبوهيميا فقد نهبهما جند كارلوس ولم يستطيعوا استفتاحها.

تلقيب شرلمان امبراطوراً (٨٠٠)

وكان شرلمان قد ذهب الى رومة في سنة ٨٠٠ ودعاه فيها البابا ليون الثالث امبراطوراً ووضع على رأسه تاج القياصرة فتم بذلك تحالف رئيس الأمة الجرمانية ورئيس الكنيسة ولكنه تحالف لم يكن ليدوم بل تلاه الشقاق والحروب وانحطاط ايطاليا بلا ذنب مدة عشرة قرون.

حكومة شرلمان

كان شرلمان يؤثر الاقامة في مدينة اكس لاشبيل ويتكلم لغة الاستزازيين ويلبس زيهم وكان ذا حكمة ودهاء يجمع المجلس الوطني في كل سنة فيأتيه الأساقفة واللود والرجال الأحرار وعمال السلطنة من جميع أطراف البلاد ليطلعوه على ما يجري في الولايات. وكان الكبراء يجتمعون منفردين عن عامة الأحرار ليضعوا القوانين المدنية والكهنوتية. وكان الامبراطور ينفذ مندوبين أربع مرار في كل سنة الى جميع المراكز لكشف الظلامات والنظر في حاجات الرعية ثم يرفعون التقارير اليه بما يرونه وكان كل وفد من المندوبين يؤلف من كونت وأسقف يراقب أحدهما الآخر. وكانت الولايات لا تزال تحت أحكام دوقيتها وكونتيها وكل من يملك مقداراً معلوماً من الأرض ملزماً بتأدية الخدمة العسكرية على نفقته الخاصة. وقد وضعت محاكم في الولايات تتألف إحداها من سبعة رجال أحرار على الأقل تحت رئاسة الكونت للفصل في الدعاوى. وكان الامبراطور يعيش من أملاكه وهدايا الأغنياء ولا تجبى له ضرائب عامة.

وأشرف أعمال شرلمان تشييده المدارس الكثيرة وحمله ضباطه وكبراء بلاطه على إرسال أبنائهم إليها ليقتدي بهم الناس وتأسيسه جمعية علمية في قصره كان هو أحد أعضائها. ولما حضرته منيته علم أن ملكه الواسع لا يستقل به واحد إلا إذا كان من أفراد الرجال فقسمه بين بنيه.

— ٤٥ —

آخر الملوك الكارلوفنجيين وأمة النورثمان

انحطاط السلطنة الكارلوفنجية وذكر لويس الملقب بالمستسلم

إن شرلمان جمع أزمة الممالك المختلفة في يده ولكنه لم يوحدها فتحركت بعد وفاته

وأخذت تحاول أن تنفصل بعضها عن بعض وكذلك استعد النورثمان والسلافيون والبريتونيون لإعادة غارتهم على بلاد السلطنة.

وخلف شرلمان في تولي السلطنة ابنه لويس المنعوت بالحليم أو المستسلم لضعف إرادته وقلة حزمه وفي سنة ٨١٧ قسم مملكته فعين أحد أولاده ملكاً على أكيتانيا والآخر على بافاريا وأشرك ابنه الأكبر لوثير معه في الامبراطورية وكان ابناه ببين ولويس لا يستطيعان أن يشهرا حرباً أو يعقدا معاهدة إلا بإذنه فثار ملك ايطاليا ابن أخي الأمبراطور بسبب هذه القسمة فحورب وكسر وفقئت عيناه ومات وجلس لوثير على عرشه.

وكان لويس قد تزوج ثانية بامرأة ذكية جميلة تدعى جوديت وهي ابنة أحد زعماء البافاريين فسادت على عقله سيادة مطلقة وحملته في سنة ٨٢٩ على إعطاء قسم من ملكه لابنها فأعطاه الامانيا وريتيا وقسماً من بورغونيا وبروفنسا وبلاد القوط. فغضب لوثير وببين ولويس ملك بافاريا وحاربوا أباهم واعتقلوه وأعادوا حالة السلطنة الى ما كانت عليه سنة ٨١٧. ولكن المنتصرين لم يتفقوا فيما بينهم فأعيد لويس الى عرشه وفي سنة ٨٣٣ ثار أبناؤه عليه مرة ثانية لمثل السبب المذكور آنفاً وجاء البابا الى فرنسا للأخذ بناصرهم فخذل الامبراطور عساكره ونفي الى دير وأعلن الأساقفة سقوطه عن أريكته وألبسوه ملابس التائبين غير أنه أعيد له ملكه في السنة التالية وفي سنة ٨٣٨ منح قسماً كبيراً من مملكته لأصغر أبنائه كارلوس الأصلع فاستعد أبناؤه الآخرون لمقاتلته مرة ثالثة ولكنه أدركه أجله سنة ٨٤٠.

معاهدة فردون (٨٤٣)

ولما خلف لوثير أباه على أريكة الامبراطورية أراد أن يحلف له الرجال الأحرار في مملكتي أخويه يمين الطاعة فعارضه في ذلك كارلوس الأصلع ولويس الجرماني وغلباه بقرب أوكسير (٨٤١) وقتلا أربعين ألفاً من عساكره ومع ذلك لبث مصرّاً على ما أراده فلم يفز به فعقد مع أخويه معاهدة فردون (٨٤٣) وبمقتضاها اقتسم الثلاثة السلطنة الكارلوفنجية فكان نصيب لوثير ايطاليا مع لقب الامبراطور وبقعة من

الألب الى بحر الشمال وبقعة أخرى مستطيلة فاصلة بين مملكتي أخويه وبقي كل ما كان جنوبي هذه البقعة نصيب كارلوس الأصلع وكل ما كان شرقيها نصيب لويس الجرماني .

كارلوس الاصلع (٨٤٠—٨٧٧)

وفي سنة ٨٥٥ توفي لوثير الأول قاسماً مملكته بين أولاده الثلاثة ولم يلبثوا أن أدركتهم المنية بعده فورث كارلوس الأصلع تيجانهم واقتسمها مع لويس الجرماني إلا أن لويس توفي بعد قليل أيضاً فاجتمعت أزمة مملكة شرلمان كلها في يد الأصلع وشتان بين ذاك الهمام الذي ضبط الملك بساعد قوي وفكر ثاقب وبين هذا الخامل المتقاعد الذي لم يستطع مع فخامة ملكه أن يصدّ غارة للنورثمان أو يحسن الدفاع عن سلطنته من مطامع الكبراء .

فوز الأشراف

واعظم الغلطات التي ارتكبها كارلوس هذا انه اصدر قانوناً منح بموجبه حق توريت المناصب والاعمال للدوقية والكونتية وسائر الموظفين من قبل البلاط وذوي الاقطاعات الذين منحوا اراضي لاستغلالها مدة طويلة ولكن دون أن يمتلكوها . وزاد الطين بلة بأن اعفى عدداً كبيراً منهم من تأدية الضرائب والخضوع لسلطة القضاء . فانتمى اليهم للاحتماء بهم أكثر الرجال الاحرار وضعفت بذلك شوكة الملك عند اولئك السادة ومسوديهم .

وفي هذه الاثناء انتهز النورثمان فرصة اضطرابات وفتن كانت قائمة على ساق وقدم فنزلوا على شواطىء فرنسا واستباحوا مدائنها ونهبوا كنائسها على الخصوص فأخذ كارلوس يبذل لهم المال ليرجعوا ولكن رجلاً يدعى روبرت الباسل صاحب دوقية فرنسا الواقعة بين نهري السين واللوار قاومهم اشد المقاومة ودحرهم مراراً الى أن قتل وهو يحاربهم (٨٦٦) وكانت دوقيته هبة له من كارلوس الأصلع وهو رأس الأسرة الكابيتية .

عزل كارلوس السمين (٨٨٧) وقيام سبع ممالك

وقام بالملك بعد كارلوس الأصلع لويس الثاني فكان حاله كحال أبيه وخلفه ابناه لويس الثالث وكارلومان (٨٧٩) فتوفيا بلا عقب. وكان كارلوس الملقب بالسمين قد ضم اشتات المانيا وتلقب بالأمبراطور عليها فأضاف مملكتيها الى سلطنته (٨٨٤) ولكنه مع اتساع صولته لم يقدر على مقاومة النورثمان حين حاصروا باريس فانقذها منهم اود الذي يظن أنه ابن روبرت المعروف بالباسل. وحنق الجرمانيون على امبراطورهم الكارلوفنجي لما اظهره من الجبن فعزلوه في مجتمع تريبور (٨٨٧) وقامت سبع ممالك على اطلال سلطنته وهي ايطاليا وجرمانيا ولورينه وفرنسا ونافاريا وبروفنسا وبورغونيا واذا أضفت الى هذا العدد اكيتانيا وبريطانيا اللتين كانتا مستقلتين فعلاً وتابعتين اسماً كانت الممالك التي مسخت اليها سلطنة كارلوس الكبير تسعاً. أما التاج الامبراطوري فبقي لصاحب ايطاليا وكان بعض صغار الملوك يختصمون عليه.

ذكر اود وكارلوس الساذج ولويس الرابع ولوثير ولويس الخامس (٨٨٧ — ٩٨٧)

ووقع تاج فرنسا لاود القائد الباسل غير ان أكثر الشرفاء لم يقروا له بالسلطة وكان له فضلاً عن ذلك مناظر هو كارلوس الثالث الملقب بالساذج ابن لويس الثاني وكان قد ولد بعد وفاة ابيه فانتصر الشرفاء المعارضون واهل الكهنوت لهذا الوارث وتوج ملكاً في ريمس ولكن اود فازعليه وكاد يخلعه عن عرشه لو لم يدركه أجله سنة ٨٩٨ فانفرد الساذج بالملك. وزوج الأكبر زعماء النورثمان من ابنته ومنحه لقب الدوق والأرض الواقعة بين انديل والأوقيانوس على شرط أن يتنصر ويعترف بسلطة الملك فاجابه الى ذلك (٩١١). ودعيت نوستريا من ذلك العهد نورمنديا ونمت نمواً باهراً تحت حكم هذا الأمير النشيط. أما كارلوس فعزله الشرفاء سنة ٩٢٢ واقاموا مقامه روبرت دوق فرنسا ثم صهره راول دوق بورغونيا (٩٢٣) وتوفي الساذج معتقلاً في برج بيرونا. وفي سنة ٩٣٦ أجلس هوغوس الكبير دوق فرنسا لويس الرابع الكارلوفنجي على أريكة فرنسا ثم عزله ثم ارجعه ثم عزله وخلف لويس ابنه

لوثير (٩٥٤) فلم يبق له الكبراء الا مدينة ليون ملكاً . فحالف هوغوس كابت وكان قد تولى دوقية فرنسا ليحتمي به من المعتدين عليه . واذ حضرته منيته اوصاه بحماية ابنه لويس الخامس فتركه هوغوس يقوم بالأمر سنة واحدة ثم خلعه وتتوج ملكاً مكانه في محفل من كبار الأساقفة وشرفاء شمالي فرنسا وكان ذلك في سنة ٩٨٧ .

— ٤٦ —

الغارة الثالثة في القرنين التاسع والعاشر

الغارة الجديدة

ان من أكبر الأسباب التي نشأ عنها إنحلال السلطنة الغربية الثانية بعد انحلال الأولى باربعة قرون غارة هائلة شنت عليها وكان مبدأها من الشمال والغرب والشرق ثم امتدت الى الجنوب فشملت الأمبراطورية الكارلوفنجية كلها وقضت عليها . وأول شعب قام بهذه الغارة كان شعب النورثمان .

غارة النورثمان على فرنسا

النورثمان أو الشماليون جيل من البرابرة انقضوا على الولايات الرومانية في اواخر عهد السلطنة وحاولوا افتتاح تورنجيا وألامانيا وبافاريا وساكس ولكن الافرنك بوصولهم الى تخوم غاليا الجنوبية طردوهم من الغرب الى الشرق فلجأ سواد عظيم منهم الى شبه جزيرة سمبريا وشبه جزيرة سكاندينافيا واقاموا فيهما ولم يجدوا امامهم مجالاً للامتداد الا البحر فالفوا اخطاره ولما ضعفت السلطنة الغربية الثانية احتلوا جزائر والشرن بقرب مصاب نهر الاسكو وجزائر بيتو بين الرين والواهل والليش وجزائر اوسيل في السين وجزائر نوارموتيه امام اللوار . وفي سنة ٨٤٠ احرقوا مدينة روان وفي سنة ٨٤٣ نهبوا مدائن نانت وسانت وبوردو ودخلوا البحر المتوسط . وحاصروا باريس حصاراً شهيراً (٨٨٥) ثم تور واورليان وتولوز . وفي سنة ٨٥١ صدر امر بترميم جميع القصور الحصينة القديمة فامتلأت بها البلاد واصبح النورثمان

يستوقفون عند كل خطوة يخطونها فعزموا على السكنى في أرض خصبة يستقرون فيها واستمنحوا استريا سنة ٩١١ ودامت غارتهم هذه ثلاثة ارباع القرن وكانت من اعظم الممهدات لاستقلال الشرفاء بالاحكام.

غارة النورثمان الدانمركيين على انكلترا.

كانت الممالك السبع في انكلترا قد انضمت الى واحدة في عهد اجبرت الكبير سنة ٨٢٧. وفي ذلك الوقت نزل الدانمركيون على شواطىء انكلترا فدحرهم الملك ولكنهم بعد وفاته احتلوا نورثمبرلند واستانجليا ومرسيه ولما تولى الفريد الكبير (٨٧١) الزمهم حدهم وانشأ لمملكته نظاماً لا تزال اركانه الكبرى باقية فقسم البلاد الى كونتيات وجعل فصل الدعاوى في يد جمعية تتألف من اثني عشر مندوباً وتقرير المسائل العامة من اختصاصات جمعية تتألف من الحكماء وتستعين على امضاء احكامها بالسلطة الملكية. اما الملك فجعله بين وراثي وانتخابي. ثم حدث ان أحد خلفاء هذا الملك واسمه اثلستان انتصر على الدانمركيين انتصاراً مبيناً في اليوم الشهير بيوم الموقعة الكبيرة فانقذ منهم انكلترا (٩٣٧) غير انهم لم يلبثوا ان عادوا اليها تحت قيادة اولف ملك نروج وسوينون ملك الدانمرك فدس اثلريد ملك انكلترا دسيسة بين رعيته حملتهم على ذبح جميع الدنمركيين المقيمين بانكلترا في عيد القديسة بريس (١٠٠٢) فانتقم منه سوينون لقومه وخلعه وأخذ لقب ملك انكلترا (١٠١٣) وخلف سوينون كانوت (١٠١٧) الذي لقب بالكبير فحاربه ادموند الثاني الملقب بجنب الحديد محاربة الأبطال فلم يستطع إنقاذ بلاده من حكمه فاعترفت انكلترا له بالملك.

وكان كانوت قاسياً فلان بعد استتباب الأمن وتزوج بارملة اثلريد ليكون قدوة المصالحة بين الغالبين والمغلوبين وسن قوانين عادلة واعاد النظام الواضع له الفريد الكبير ومنع استبداد الدنمركيين بالانكليز وفي سنة ١٠٢٧ حج الى رومه والغريب في امر النورثمان انهم كانوا ذوي قابلية عظيمة للتمدين وكانوا يتحولون سريعاً من وثنيين شرسين الى مسيحيين ذوي فضائل.

النورثمان في الجهات القطبية وفي روسيا

وكان الفريق الأكبر من هؤلاء الاقوام قد نزل الى جهات الجنوب ولكن قسماً منهم ذهبوا الى ما وراء الراس الشمالي لا لشيء الا لمشاهدة ما لم يشاهده الرحالون قبلهم ووصلوا قبل كولومبوس باربعة أو خمسة قرون الى العالم الجديد فادركوا جزائر فيرويه في سنة ٨٦١ وايسلاندا في نحو سنة ٨٧٠ ثم بلاد اللابرادور وفينلاندا أو بلاد الكرم بعد ذلك بنصف قرن وكان جمهور من النورثمان قد نفاهم اخوانهم فدخلوا من البلطيك الى ما بين السلافيين فاستخدمهم حكام مدينة نوفوكورود بالاجرة ولكن زعيمهم روريك لم يلبث أن اخضعها (٨٦٢) ولقب بالأمير الكبير عليها وبه كان ابتداء الامارة التي تحولت فيما بعد الى السلطنة الروسية.

السراقين والمجر

يدعو الافرنج بالسراقين فريقاً من عرب افريقيا اتخذوا البحر ملكاً لهم وأخذوا ينهبون جميع شواطىء الجانب الغربي من البحر المتوسط. وكان خروجهم من ولاية تونس التي كانت تعرف بولاية قرطاجنة قبلها. وفي سنة ٨٣١ اخذوا صقليا ودخلوا ايطاليا واستولوا على مدائن كثيرة فيها وتقدموا الى ضواحي رومه ثم امتلكوا مالطه وسردينيا وكورسكا وجزائر باليار. واتخذوا لهم مقراً في فراكسينه من عمل بروفنسا وداموا فيها الى القرن العاشر واقاموا مراكز لهم في مضايق جبال الألب ليتقاضوا عوائد مالية كانوا يضربونها على المارة من تجار وحجاج ومن هناك كانت تمتد سطواتهم وغزواتهم الى وادي الرون ووادي البو.

أما الهنغاريون أو المجر فكان مجيئهم من وادي الدانوب. وكانت الشعوب بعد الهونيين تمر في هذا الوادي تباعاً كموج البحر وتوالي الغارة بعد الغارة على البلاد الغربية فمنها السلافيون ولا يزالون في وادي الدانوب والبلغاريون الذين لقبوا بالملاعين من الله والافاريون الذين محاهم شرلمان والخزر والبشانق الذين انقرضوا والقبائل الهونية الاوغرية التي دعاها اللاتين والاروام بالهنغارية وكانت تدعو نفسها بالمجرية.

وهذه القبائل دعاها ارنولف ملك جرمانيا ليقاوم بها القوم السلاف بمورافيا فافتتحت صحاري التايس وبانونيا وفي سنة ٨٩٩ اخذت كارنتيه وفريول وفي السنة التي بعدها اطلقت خيالتها البسلة على جانبي الألب في وادي البو والدانوب الأعلى الى ما وراء الرين ففتحوا الزاس ولورين وبورغونيا وادركوا وسط فرنسا وتركوا فيه بين الاهالي من الرعب ما لم يتركه الشماليون والعرب. على أن المانيا لم تلبث أن جاهدت جهاداً جميلاً للتخلص منهم فقاتلهم ملكها هنري الأول وانتصر عليهم في مارسبرج (٩٣٤) وقتل منهم ابنه اوتون مئة ألف على ما يقال بقرب اوجسبرج (٩٥٥) فارجعهم عن المانيا الى البلاد التي استوطنوها ولم يبرحوها بعد ذلك.

وكان من نتيجة غارة المجر أن مدائن ايطاليا تحصنت بالأسوار وسهول فرنسا بالقصور المنيعة التي كان لكل منها حرس خاص به. وهذا ما كان المساعد الأكبر على استقلال المدائن وانحلال السلطة المركزية سلطة الملوك.

ولم تكن النمسا في أول أمرها الا ولاية مرغرافية نظمتها المانيا تنظيماً حربياً حصيناً كما نظمت مرغرافية برندبورج التي نشأت منها بروسيا بعد ذلك وكان غرضها رد غارات الأمم الشرقية عن الغرب فانقطعت تلك الغارات التي توالت منذ نشأة العالم الى ذلك اليوم. ولما هجم المغول في القرن الثالث عشر والاتراك في القرن الخامس عشر على الغرب صدتهم الولايتان المشار اليهما على تخوم الجيل الجرماني ولم يقابلوا الا الجنس السلافي.

— ٤٧ —

العهد الاقطاعي

تمهيد

رأينا السلطنة فيما سبق تنقسم الى ممالك وسنرى الممالك تنقسم الى أعمال مستقلة يستبد بها الذين يتولونها لتساهل الملوك الكارلوفنجيين المتأخرين وتخويلهم عمالهم حق توارث مناصبهم والاقطاعات المتعلقة بها. فلم تلبث كل أرض أن أصبحت ملكاً لسيد شريف كما أصبح كل سيد تابعاً لأعظم منه ينتمي اليه ويشدّ أزره به. وعلى هذا النمط تم استقلال الأعمال المذكورة لازدياد صولة أربابها ونمو شكوتهم بقدر ما ضعفت قوة الملوك وقلت أموالهم وجنودهم. وكان من أعظم الممهدات لقيام الدول الاقطاعية الصغيرة ما منحه الملوك لأكثر أصحاب الاقطاعات من حق جباية الضرائب لأنفسهم وتولي القضاة بين تابعيهم فضلاً عن حق الايراث.

وكان كل رجل ينتمي الى سيدبان يقسم له يمين الأمانة فيقطعه مولاه أرضاً ويتطلب منه مقابلة لذلك واجبات معنوية منها احترامه وإكرامه ومساعدته بنصائحه وواجبات حسية أولها تجنيد فلاحيه للخدمة العسكرية مدة معلومة في كل سنة وعند الاقتضاء وثانيها إمداد السيد بالرأي عند جلوسه للقضآء وثالثها تأدية مال لافتدآء السيد إن كان معتقلاً وإهداء النقود اليه حين يقلد ابنه سيف الفارس ويزوج ابنته البكر. وكان التابع يقدر على استتباع آخرين.

أما السيد فكان من واجباته أن لا يحرم التابع الأرض التي أقطعه إياها بلا موجب وأن يدافع عنه إذا سطا عليه عدو وأن يقضي له أو عليه بالعدل. وكان التابع يستأنف حكم السيد الى من هو أعلى منه إذا لم يرض به وكان له فضلاً عن ذلك حق المبارزة أو التقاضي مع خصمه بالسيف وقد كثر استعمال التقاضي بالمبارزة حتى أن الكنيسة عيّنت أياماً من الأسبوع سمتها هدنة الله أمرت أن لا يكون فيها براز تخفيفاً لويلات هذه العادة الوحشية (١٠٤١). وكان القضاء على أنواع: أعلى ومتوسط وأدنى. وكان الأعلى يتناول الحكم بالاعدام أو لم يكن ممنوحاً إلا لذوي الإقطاعات الكبرى. وكان من الحقوق السيادية ضرب النقود وسن القوانين. وكان الأساقفة ينالون أحياناً ألقاب الكونتية ويكونون السادة على المدينة وجميع الشرفاء التابعين لأبرشياتهم. وقد ملكت الكنيسة في ذلك العهد نحو خمس الأراضي في فرنسا وانكلترا وثلثها في ألمانيا.

وكان تحت طبقة الشرفاء والمحاربين الفلاحون والشركاء أما الفلاحون فكانوا يحرثون الأرض للسيد ولا يحق لهم امتلاك شيء وإن امتلكوه فللسيد أن يسلبهم إياه حين يشاء وأما الشركاء فكانوا يلزمون الأرض التي يحرثونها للسيّد ويقدّمون له إيراداً معيناً في السنة ولو زاد إيراد تلك الأرض عن القدر المتفق عليه وكان لهم حق الامتلاك وكانوا يعاملون باللين قليلاً من معاملة الفلاحين.

الإقطاعات الكبرى بفرنسا وألمانيا وايطاليا

لم يتم النظام الذي نسميه اصطلاحاً بالاقطاعي إلا في آخر القرن الحادي عشر وقد ساد في جميع ولايات السلطنة الكارلوفنجية غير أن أسماء ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا بقيت محفوظة وإنما كانت أسماء رنانة كبيرة بلا مسميات.

ومن هذه الممالك الثلاث واحدة لم تلبث أن زالت سنة ٩٢٤ وهي ايطاليا وأخرى انحطت انحطاطاً شديداً وهي فرنسا وأما الثالثة وهي المانيا فقد ازدهرت ونمت وعزت حتى جعلها ملكها أوتون الأول بما أضافه اليها من الأملاك الواسعة سلطنة أشبه بسلطنة كارلوس الكبير.

وكانت لملك فرنسا دوقية فرنسا وحواليها أملاك متسعة لجملة من السادة الذين كانوا يضارعونه صولة وثروة. ثم كانت بين اللوار والبيريناي أربع عمالات كبيرة كالمتقدم ذكرها وكان أصحاب هذه الأملاك يدعون بأنداد الملك وكان لستة من الأساقفة هذا اللقب أيضاً.

أما مملكة جرمانيا فكانت منقسمة الى تسعة أقسام كدوقية ساكس ونظيراتها وأما مملكة آرل فإلى ثلاثة وأما إيطاليا فإلى جملة أعمال مستقلة منها لومبارديا وتوسكانا والأقسام الكنسية والأقسام الأربعة النورماندية.

وكانت في الجانب المسيحي من اسبانيا مملكة قشتالة وليون وكونتية البورتغال التابعة لها ومملكتا نافاريا وأراغون. وفي بريطانيا العظمى مملكتا انكلترا وغاليا. وبين بحر الشمال والبلطيك الثلاث الايالات السكاندينافية وهي أسوج ونروج والدانيمرك وللسلافيين مملكتا سلافونيا وبولونيا وغراندوقية روسيا التي كانت مقسومة إلى إمارات كثيرة وغراندوقية ليتوانيا. وفي سنة ألف أهدى البابا تاج ملك المجر الى القديس أتيان الذي نصّر أهلها.

حالة الحضارة من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر

لم تقم قائمة للمعارف بعد كارلوس الكبير الذي عمل على إنهاضها. وفي القرن العاشر اشتدت المصائب على الناس حتى ظنوا أنهم في نهاية العالم فامتنعوا عن البناء ولم يعملوا عملاً يذكر فلما انقضت سنة ألف ورأوا أن الدنيا باقية عادت إليهم حركة الحياة وابتنوا كنائس كثيرة ثم استنهضتهم دعوة سيلفستروس الثاني الى الحرب الصليبية. وفي أواخر القرن الحادي عشر أقبل الناس قليلاً على الآداب والعلوم وتساجلوا في الآراء والأفكار. وأحسن ما برع فيه الصناع في هذه الأزمان صناعة الهندسة البنائية.

الامبراطورية الجرمانية وما جرى من التنازع بينها وبين الكهنوت

ذكر المانيا من سنة ٨٨٧ الى سنة ١٠٥٦)

عندما خلعت المانيا ملكها كارلوس السمين (٨٨٧) جلس على عرشها أرنولف من نسل شارلمان وأهم أعماله أن ملك ايطاليا استنجد به لمقاومة أحد المطالبين بسريره فسير اليه جيشاً ثم غدر به فخلعه ووضع في رأسه تاج إيطاليا ولقب نفسه بالامبراطور (٨٩٦) وبعد ذلك خلفه ابنه لويس الملقب بالطفل وبوفاته انقرضت سلالة شارلمان الألمانية. ومن ذلك الوقت أخذ الألمانيون ينتخبون ملكهم انتخاباً. وفي سنة ٩١١ انتخب كونراد الأول سيد فرنكونيا فأخذ يناويء الشرفاء الكبار لينتزع منهم أملاكهم ويضمها الى أملاكه فانتصر عليه أحدهم وهو هنري دوق ساكس في أهرسبورغ فعدل عن محاربته وجرد على دوق لورينا فسلبه الألزاس وقتل مديري مقاطعة النواب واستولى عليها.

وقبل وفاته أوصى بانتخاب دوق ساكس المنتصر عليه ملكاً فحصن بلاده من كل جانب وفي سنة ٩٢٦ وضع القانون القاضي بالخدمة العسكرية على كل شاب تجاوز السادسة عشرة من العمر وأنشأ القلاع والمعاقل وظهر على المجر في مرسبورج (٩٣٤) فكان ذلك أكبر ممهد لإراحة بلاده منهم. ولما خلفه ابنه أوتون الأول الملقب بالكبير حاربهم وفاز عليهم في موقعة أوجسبرج (٩٥٥ — وحملهم على السكنى في الأرض التي هم فيها الى الآن.

وكان دوق بافاريا ودوق فرنكونيا قد ثارا عليه بمساعدة لويس الرابع ملك فرنسا فدحرهما ودخل الى باريس. وأعظم عمل قام به أنه أعاد السلطنة الألمانية فإن تاج إيطاليا الذي تتوج به أرنولف كان قد وقع لبيرنجه الأول واستقل به في ايطاليا زمناً ثم قتل غيلة في خلال فتنة عظيمة ولم يفكر أحد من الشرفاء المتحاربين في تقلد التاج مدة الاضطراب. ولكن رجلاً يدعى المركيز ديغراي أراد أن يكره أرملة بيرنجه

على التزوج بابنه ليجلس على العرش فأبت واستجارت بأوتون فأجارها وتزوج بها هو نفسه وتتوج ملكاً على ايطاليا في ميلانو وأمبراطوراً في رومة (٩٦٢) وتعهد للبابوية بأن يبقي لها ما وهبها إياه شارلمان من الأملاك فتعهد له شعب رومة بأن لا ينتخب أحداً للبابوية إلا بحضور رسول من قبله. وبعد ذلك زوج ابنه من ابنة قيصر القسطنطينية واستمنحه جنوبي ايطاليا وكان باقياً للروم. فكبر شأنه في أوروبا ولكن خلفاءه أوتون الثاني والثالث وهنري الثاني (٩٧٣ — ١٠٢٤). لم يحتفظوا بإرثه.

وفي سنة ١٠٢٤ عاد التاج الأمبراطوري الى آل فرانكونيا وتقلده كونراد الثاني فضرب الجزية على اللاتيزيين ونصَّرهم وأكره ملك بولونيا على الاعتراف بسيادته وأسر ملك بوهيميا وضم ولايتي بورغونيا الى سلطنته بموجب اتفاق عقده مع ملك آرل. ثم أضعف شوكة الشرفاء في ايطاليا حيث أصدر أمراً بجعل كل صاحب إقطاع تابعاً مباشرة له فانقطعت وساطة الأكابر منهم بينه وبين الأصاغر. وفي سنة ١٠٢٩ خلفه ابنه هنري الثالث فضرب الجزية على ملك بوهيميا. وأرجع ملك المجر الى البروايال وكان قد طرد منها فاعترف بسيادته وأعاد السطوة الدوقية الى بافاريا وسواب وكارنتيا ليصلح بها شؤونها التي فسدت ومد سيادته على البابوية نفسها في ايطاليا.

القسيس هيلدبرند

كان هذا الراهب مستشاراً لجملة من البابوات راغباً في إنقاذ ايطاليا من الحكم الألماني وفي سنة ١٠٥٩ حمل نيقولا الثاني على إصدار أمر يقضي بأن الكرادلة المقيمين في الأراضي الرومانية هم الذين ينتخبون البابا وان سائر الكهنة والشعب الروماني يوافقون موافقة على الانتخاب. وان الامبراطور يكون له حق التثبيت وانه يفضل اختيار البابا من الكهنة الرومانيين. ثم استصدر أمراً آخر يحظر على الكهنة قبول إقطاع كنسي من غير أهل الكهنوت. وبهذين الأمرين تحرر البابا من التابعية الفعلية للأمبراطور وجعل في يده زمام الإدارة الزمنية للكنيسة.

غريغوريوس السابع وهنري الرابع (١٠٧٣–١٠٨٥)

انتخب هيلدبرند لكرسي البابوية تحت اسم غريغوريوس السابع (١٠٧٣) فأراد إتمام مقاصده وكانت أربعة: تحرير البابوية من السيادة الألمانية. إصلاح الكنيسة في نظامها وأخلاقها. تحريرها في كل مكان من السلطة الزمنية الحاكمة. تسويدها على الملوك والشعوب بدعوى تخليص نفوسهم من عقاب الآخرة.

أما الأول فقد تم بموجب الأمر المصدر له البابا نقولا الثاني على ما رأيناه آنفاً وأما الثاني فأتمه غريغوريوس بنفسه. وأما الثالث فكان عقدة الأشكال وعليه قام الخلاف الشهير المتعلق بالاقطاعات. وبيانه أن الكهنوت الألماني فسد وحدث فيه تشويش كبير حين كان هنري الرابع قاصراً فنسب غريغوريوس ذلك الفساد الى هنري المذكور وكتب اليه يمنعه في المستقبل عن منح الأساقفة إقطاعات كنسية ويدعوه الى رومة للإجابة عن سوء تصرفه فغضب الأمبراطور وعقد مجمع ورمس مؤلفاً من ٢٤ أسقفاً (١٠٧٦) واستصدر منه حكماً بتنزيل البابا فأصدر البابا أمراً بعزل الأمبراطور وحرمانه الديني ولما كان السكسونيون والسوابيون ذوي عداوة قديمة لآل فرانكونيا عقدوا مجتمع تريبور فقرر كفّ الامبراطور عن تأدية وظيفته وتهديده بالعزل إن لم يصالح البابا. فانصاع هنري وذهب الى رومة وانتظر حافياً مع شدة البرد ثلاثة أيام حتى أذن له البابا بمقابلته وعفا عنه فرجع متميزاً غيظاً وشهر الحرب على السوابيين فقتل رودولف سيدهم الأكبر وكسر جنوده واستتبت له الشوكة في جميع المانيا (١٠٨٠) فعاد الى ايطاليا وأخذ رومة وعين أسقف رافينا خليفة لبطرس الرسول تحت اسم اكليماندوس الثالث وكاد يقبض على غريغوريوس لو لم ينقذه النورمانديون الذين كانوا قد افتتحوا ايطاليا الجنوبية. وتوفي هذا البابا في منفاه سنة ١٠٨٥.

اتفاق ورمس (١١٢٢)

بعد هذا الفوز العظيم لهنري الرابع حرشت الكنيسة عليه ابنه فقتله ولقب نفسه بهنري الخامس وأنهى خصومة الاقطاعات الكنسية بما عقده من اتفاق ورمس

(١١٢٢) القاضي بأن يمنح الأمبراطور الاقطاع من وجهه الدنيوي ويمنحه البابا من وجهه الديني.

وكانت في إيطاليا خاتون نبيلة ذات أملاك واسعة وثروة فاحشة تدعى الكونتة ماتيلدا فتوفيت في عهد هنري الخامس فورثها بحق القربى والسلطة الأمبراطورية ثم أدركه أجله وانقرض بموته آل فرانكونيا (١١٢٥).

آل هوهنستوفن

وقع التاج لكونراد الثالث (١١٣٨) من آل سواب فانتصر على خصمه هنري الملقب بالمتعاظم دوق ساكس وبافاريا ثم سافر للحرب الصليبية وتوفي على أثر عودته فخلفه ابنه فريدريك الأول باربروس (١١٥٢) فأيد سلطته في ايطاليا وقسم اقطاعاتها الكبرى الى اقطاعات صغيرة ومدائن ذات نظامات جمهورية. فقام في رومة رجل يدعى أرنالدو دي بريسيا وطرد البابا منها ليحررها فأحرقه فريدريك وأعاد البابا ثم استبد فثارت عليه ميلانو فدمرها (١١٦٢) ووزع أرضها على جاراتها ثم عاد الى المانيا فتألفت على الأثر العصابة اللومباردية لمحاربته بتعضيد البابا فرجع لينكل بالقائمين بها فظهروا عليه في ليغنانو (١١٧٦) وبعد ذلك بسبع سنين حسمت معاهدة كونستانس خصومة ايطاليا والسلطنة وعادت ايطاليا الى نظاماتها الأولى ولم تبق للامبراطور فيها إلا بعض الحقوق القليلة.

على أن باربروس لم يصبه من الفشل في خارج ايطاليا ما أصابه فيها بل أكره ملكي الدانمرك وبولونيا على الاعتراف بسيادته واغتصب أملاك هنري الملقب بالأسد دوق ساكس وبافاريا وكان يزوره السفرآء الأجانب لحضور المجتمعات الشوروية الحافلة التي كان يعقدها وأشهرها مجتمع مايانس الذي احتشد فيه أربعون ألف فارس نسيب (شفالية) في سنة ١١٨٤.

ثم غرق باربروس في نهر الشالوف بالشام مدة الحرب الصلبية الثالثة فخلفه ابنه هنري السادس (١١٩٠) وكان متزوجاً بكونستانس ابنة ملك صقليا ووارثته. ولما كان آل سواب قد فقدوا ما بقي لهم من السلطة في شمال ايطاليا منحهم أملاكاً واسعة

في جنوبيها وحصر أملاك الكرسي المقدس بين أملاكه فخاف البابا اينوسان الثالث من هذا الجواب وعزم على الانتقام (١١٩٨—١٢١٦). ولما أمكنته الفرصة أخذ بنصرة أوتون من آل برونسويك على فيليب السوابي وارث هنري السادس فكان حينئذ بدء الحرب الشهيرة بين الكلفيين أعوان الكنيسة والجبليين أعوان الأمبراطورية.

غير أن أوتون لم يتخلص من مناظره حتى أخذ يؤيد سلطته على ايطاليا فغضب البابا وكان يظن انه يتنازل عنها ورجع الى آل سواب فأقام على الامبراطورية فريدريك الثاني ابن هنري السادس على شرط أن يتخلى عن جزيرتي صقليا فأخلف وعده وعبأ جيشاً من العرب ليؤيد بهم عرشه فيما لو حرمه البابا وخذله الجنود المسيحيون ولكن البابا دعاه للحرب الصلبية فتردد عن الإجابة فأنذره بالحرمان فسافر وعقد معاهدة مع السودان فتحت له أبواب القدس فدخلها وتتوج ملكاً عليها وعاد بدون قتال (١٢٢٨) وكان البابا غريغوريوس في غيابه قد عصب عليه العصابة اللومباردية وحرض عليه ابنه ورمى مملكة نابولي بجيش لأحد صنائعه. ففاز فريدريك على الجميع فحرمه البابا ومنح تاجه لروبرت دارتوا أخي ملك فرنسا فأبى لويس التاسع أن يأذن بذلك وأجاب البابا على ما كتبه اليه في هذا المعنى «إنك ستدوس جميع الملوك بقدميك إذا فزت على الامبراطور» فدعا غريغوريوس رؤساء الدين لعقد مؤتمر في سنة ١٢٤١ فالتقت سفائن فريدريك بأسطول جينوا وكان آتياً بالمدعوين للمؤتمر وكسرته وأسرت نفراً منهم. فمات غريغوريوس حنقاً وخلفه أينوسان الرابع سنة ١٢٤٢ ففر الى ليون وعقد فيها مؤتمراً أوقع به الحرمان على فريدريك ودعا المؤمنين لمحاربته (١٢٤٤) فكتب فريدريك الى ملوك أوروبا «إني إذا هلكت هلكتم جميعاً» وأطلق العرب على وسط ايطاليا وحليفه حاكم بادو على شمالها فأسال أنهاراً من الدماء ولكن الكلفيين تسلحوا في كل جهات ايطاليا وهبوا إجابة لدعوة القسوس فعرض فريدريك على البابا انه يستقيل ويحقن الدماء على أن يخلفه أولاده فأبى واستمر القتال الى أن قضي نحب فريدريك بعارض فجائي (١٢٥٠) وكانت وفاته مبدأ تحرر ايطاليا من التابعية لألمانيا.

— ٤٩ —

الحروب الصلبية في الشرق والغرب

الحرب الصلبية الأولى في الشرق (١٠٩٦ــ١٠٩٩)

كان عالم القرون المتوسطة منقسماً الى فريقين أهل الانجيل وأهل القرآن ففي آخر القرن الحادي عشر اصطدما واقتتلا ودعيت تلك الحروب بالصلبية. وقبل الدخول في وصف المواقع التي جرت نقول على سبيل التمهيد إن الأتراك كانوا في عهد الب أرسلان (١٠٩٣) ومالك شاه (١٠٧٥) قد فتحوا الشام وفلسطين وآسيا الصغرى كما رأينا بسط ذلك وان مالك شاه عندما دنت منيته قسم مملكته الى خمس ذكرناها وكانت إحداها جزءاً من سلطنة الروم ويظهر من هذا التقسيم أن امبراطورية الشرق في القسطنطينية كانت قد ضعفت الى حد انها لم تقو على صد غارة الأتراك عن إحدى عمالاتها ففتحوها واستبدوا بها وجعلوها إحدى تلك الممالك الخمس. لا جرم أنه قام في القسطنطينية لذلك العهد ملوك حكماء باسلون من السلالة المقدونية كنيسافور فوكاس وجان ذيميسيس وبازيل الثاني وانتصروا على البلغاريين والروس والعرب غير أن أحد خلفائهم وهو رومان ديو جوين وقع في أيدي الأتراك بعد أن ظهر عليهم ثلاث مرار ظهوراً باهراً فأقر خلفه القيصر اليكسيس بضعفه وعجزه عن مقاومتهم والتمس النجدة من الغرب.

وكان البابا سيلفستر الثاني قد خاطب الشعوب الغربية منذ بدء القرن الحادي عشر بضرورة إنقاذ القبر المقدس (١٠٠٢) فكثر عدد الذاهبين الى حج القدس وكانوا يرجعون ويشكون ظلم الأتراك وقسوتهم في تلك الأرض. ثم قام غريغوريوس السابع يدعو الناس الى الجهاد كدعوة سيلفستر ولكن المسيحيين لم ينهضوا نهضة حقيقية إلا في عهد أوربان الثاني فعقد مجمعين حضر أولهما سفراء من قبل اليكسيس كومنين أمبراطور الشرق وازدحم ثانيهما بالوافدين من كل جانب فأثرت فيهم فصاحة البابا وخطابة بطرس الناسك وكان عائداً حديثاً من حج القدس فما افترقوا إلا وقد نادوا «كذا أراد الله» ووضعوا الصلبان الحمراء على ملابسهم

علامة الجهاد الصَليبي (١٠٩٥) فانطلقت التجريدة الأولى تحت قيادة بطرس الناسك وكانت مؤلفة من العامة والفقراء والأطفال والشيوخ والنساء فتوفي معظمها في بلاد المجر ولم يجتز سائرها القسطنطينية حتى توفاهم الله في آسيا الصغرى.

وفي السنة التالية (١٠٩٦) اجتمعت أربعة جيوش كبيرة للشرفاء يقود أحدها غودفروا دي بويون وأوستاش دي بورغوني وبودوين دي بورج وثانيها هو غوس الكبير كونت فرماندوا واتيان دي بلوا وروبرت بن غليوم الفاتح وثالثها ريموند دي سنجيل كونت تولوز ورابعها بوهيموند أمير تارنتا وسارت هذه الجيوش في ثلاث طرق مختلفة متواعدة على اللقاء في القسطنطينية ومنها تقدمت بحراً وحاصرت نيقا بمدخل آسيا الصغرى ثم التقت عساكر قليج أرسلان صاحب مملكة الروم فقهرته وتوغلت في صحراء فريجيا فأصابها فيها الجوع والظمأ فأهلكا السواد الأعظم منها وأماتا الخيول كلها ومع ذلك أخذ بودوين قادس (أورفه) على الفرات الأعلى وتقدم معظم الجيش الى طرسوس ففتحها ثم حاصروا أنطاكية (١٠٩٨) حصاراً طويلاً ذاقوا فيه كل ضروب الآلام ولم تفتح أبوابها لهم إلا بعد أن استنفد بوهيموند جميع الحيل والدسائس فلقبه أخوانه أميراً عليها ولم يلبثوا أن حاصرهم فيها مئتا ألف مقاتل أرسلهم الخليفة من بغداد فانتصروا عليهم وساروا الى القدس وكان غير باق منهم الا خمسون ألفاً فدخلوها في ١٥ يوليوز من سنة ١٠٩٩ بعد حصار شاق كحصار أنطاكية. وانتخب غودفروا ملكاً عليها فأبى أن يضع التابع على رأسه في المكان الذي «كلل فيه ملك الملوك بالشوك» وبعد ذلك بقليل ظفر في عسقلان على جيش مصري أتى لمحاربته. ولما رجع حصن القدس ونظمها على الطريقة الأقطاعية وأسس إمارتي قادس وانطاكية وكونتية طرابلس وماركيزية صور الخ.

وفي سنة ١١٠٠ تأسست رهبنة القديس يوحنا الأورشليمي لتمريض العساكر وفي سنة ١١١٨ رهبنة الهيكليين (تامبليه) وكلف رجال هاتين الرهبنتين بالدفاع عن البلاد. وعند وفاة غودفروا خلفه بودوين الأول (١١٠٠ — ١١١٨) ثم بودوين الثاني دي بورج (١١١٨ — ١١٣١) واستوليا على القيصرية واللاذقية وصور

وصيدا وعكا وبيروت وغيرها إلّا أن الشقاق لم يلبث أن وقع بين الصليبيين فشغلهم فزحف نور الدين سلطان سوريا الأتيكي على قادس وذبح سكانها (١١٤٤).

التجريدتين الثانية والثالثة (١١٤٧ — ١١٨٩)

وحملت هذه المذبحة أوروبا على تجديد الحرب الصليبية فنهض لها لويس السابع ملك فرنسا تكفيراً عما جناه من قتل ١٣٠٠ نفس إحراقاً بالنار في كنيسة فيتري. وقامت معه مرأته ايليونورا دي غويانه وجمهور من الشرفاء الفرنسويين وكونراد الثالث امبراطور المانيا. أما كونراد فتوغل بجيشه في آسيا الصغرى وفقده كله في مضايق جبل طورس وعاد في نفر عدّ الأصابع الى القسطنطينية وكان ملك فرنسا قد وصلها فلما علم بما جرى لزميله لزم الشاطىء ولكن الأتراك قتلوا برمي السهام عدداً كبيراً من جيشه في سيليسيا ومع ذلك أدرك انطاكية وزحف منها على دمشق وحاصرها فلم يحل بطائل ثم عاد الى مملكته ولم يجن من عنائه كله إلا طلاق امرأته.

وفي سنة ١١٨٧ فتح صلاح الدين الأيوبي القدس بعد جعل مصر والشام مملكة له. فاهتزت أوروبا لهذا النبأ وفرض البابا على جميع الأراضي حتى الكنسية منها ضريبة عشرية لمقاومة صلاح الدين وأعدت تجريدة جسيمة يتقدمها أقوى ملوك الغرب وهم فيليب أوغسطس وريكادروس قلب الأسد وفريدريك باربروس (١١٨٩) أما فريدريك أمبراطور المانيا فدخل آسيا عن طريق المجر والقسطنطينية وغرق في الشالوف وسحق جيشه. وأما فيليب ملك فرنسا وريكاردوس ملك انكلترا فركب البحر أحدهما من جينوا والآخر من مرسيليا والتقيا في صقليا وأخذا يختصمان فيها ثم قصد ريكاردوس جزيرة قبرس لإخضاع رجل اغتصب سرير الملك فيها ولحق بفيليب الى عكا فحاصراها .مدة سنتين ثم غضب ملك فرنسا لما كان بين الصليبيين من التخاذل والشقاق فرجع الى مملكته وبقي ريكاردوس في فلسطين فلم يستطع أن يسترجع القدس وبينما هو راجع الى بلاده هبت عاصفة طرحته على شواطىء دلماسيا فمر من المانيا فاعتقله فيها ليوبولد دوق النمسا لأنه كان قد ألقى رايته في أحد خنادق عكاء ولم يطلقه إلا بفدية فاحشة.

التجريدة الرابعة (١٢٠٢) وتولي اللاتين سلطنة الشرق

هذه التجريدة دعا اليها أينوسان الثالث وفولك كاهن نويلي فلما استعدت للسفر طلبت سفائن من البندقية فأعطتها إياها على شرط أن تفتح لها بها حصن زارا الذي كان في قبضة المجر فأجيبت الى ما سألته. ثم أن رجلاً يدعى الكسيس وهو ابن أمبراطور رومي معزول أوهم قواد التجريدة أن القسطنطينية مفتاح القدس وانه إذا أعيد الى سرير أبيه بلغهم إربهم فقصدوها وإذ رأوا ما هي عليه من الفوضى دخلوها عنوة واقتسموا السلطنة ممالك ودوقيات وماركيزيات ولقب المتقدم في الحملة بودوين كونت دي فلاندر بأمبراطور رومانيا. واستمرت هذه السلطنة في أيدي اللاتين سبعاً وخمسين سنة (١٢٠٤—١٢٦١) على ما سبق لنا تفصيله.

التجريدات الأخيرة (١٢٢٩— ١٢٧٠) وذكر القديس لويس

نتج من العبث الذي تقدم ذكره ان القدس لم تخلص وان بارونية الأرض المقدسة استمروا يوالون الاستغاثة والاستنجاد فارسل اندراوس ملك هنغاريا تجريدة خامسة على مصر فلم تفلح فاتى فريدريك الثاني امبراطور المانيا في مقدمة التجريدة السادسة وعقد هدنة عشر سنين مع الملك الكامل على أن يسلم له القدس وبيت لحم والناصرة وصيدا وانما فعل ملك مصر ذلك بدون قتال لتخوفه من قرب اغارة القبائل الخوارزمية عليه. وذهب فريدريك الى القدس فوضع تاجها على رأسه (١٢٢٩). ثم لم يكد يقفل راجعاً حتى سار التركمان في فرارهم من وجه المغول وجانكيزخان الى الشام فسحقوا جيشاً صليبياً لقوه بغزة وأخذوا المدينة المقدسة فلما علم البابا اينوسان بما حلّ من البلاء الجديد دعا اوروبا فلم يجبه الا القديس لويس وكان قد نذر في مرض اشتدّ عليه ان ينقذ القدس اذا شفي. فركب البحر في مقدمة جيش عظيم (١٢٤٨) وقضى الشتاء في قبرس. وادرك فيها أن اولياء امر القدس في مصر فقصدهم واستولى على دمياط ولكن حركته البطيئة اولدت الشقاق والعصيان بين العساكر كما دفعتهم الى الفاحشة والعربدة فتفشت بينهم الامراض بسببها ونشأ عن ذلك كله انهم قهروا بقرب المنصورة وعادوا على أعقابهم يفترسهم الطاعون

ويوقع بهم المسلمون حتى استأسروا الملك فافتدى نفسه بمليون دينار قسطنطيني ذهباً وسار الى فلسطين فقضى فيها ثلاث سنين ينفق ماله على تحصين المدائن ويبذل نفوذه في التوفيق بين المتناظرين. وبعد هذه الحملة بست عشرة سنة جرد حملة ثانية فاقنعه اخوه كارلوس دانجو ملك صقليا في سنة ١٢٧٠ بوجوب محاربة مسلمي تونس لأنهم كانوا يهددون مملكته الحديثة العهد فحاصر تونس واصاب جيشه الجوع والطاعون تحت اسوارها ومات لويس نفسه بهذا الوباء فباع امراؤه الصلح للمسلمين وكان أكثرهم ربحاً في هذا السوق ملك صقليا وكانت هذه التجريدة خاتمة الحروب الصليبية في الشرق.

على أن هذه الحروب مع ما جرته من البلايا العظيمة جاءت بنتائج حسنة منها حصول الاتصال بين اوروبا وآسيا ومنها ضعف شوكة الشرفاء ونهضة العامة من فلاحين وشركاء للخروج من الرقّ الذي كانوا فيه ومنها اتساع نطاق التجارة واجتلاب انواع جديدة من المزروعات والسلع الى اوربا.

الحروب الصليبية التي وقعت في الغرب

تبينا مما تقدم أن الحروب الصلبية التي جرت في الشرق لم يفلح فيها القائمون بها بخلاف ما وقع من مثلها في الغرب فقد نشأت عنها مملكتان جديدتان هما بروسيا واسبانيا وتمت بها وحدة فرنسا. ولقد عرفنا فيما سبق قيام رهبنة الممرضين المتجندين في القدس فانها سميت برهبنة التوتونيين ولم تلبث أن أثرت ونمت نمواً عجيباً فجعل فريدريك الثاني أميراً من أهل بيته رئيساً لها. وفي سنة ١٢٣٠ حرض وصي ملك بولونيا هؤلاء الرهبان على تنصير البروسيين فيما بين نهري النيامن والفيستول فاعملوا فيهم السيف وادخلوا من بقي منهم في دينهم. وفي ذلك الوقت كان الرهبان المسمون بحملة السيف آخذين في تنصير أهل البلاد المجاورة للبروسيين فوقع الاتفاق بينهم وبين التوتونيين على أن ينضم الفريقان وتتألف منهما رهبنة واحدة وادخلوا بروسيا واستونيا وليفونيا وكورلاندا في سلسلة البلاد الاوروبية المسيحية المتمدنة وبقيت لهم السطوة الكبرى في الشمال الى القرن الخامس عشر.

وكان سكان غرب فرنسا قد ذهبوا في الدين مذاهب أبعدتهم كثيراً عن الاورثوذكسية وسموا بالالبيجو نسبة الى مدينة الب التي كانت محور رحاهم فتخوف اينوسان الثالث من سريان عدوى هذه الافكار وأنفذ رسولاً الى ريموند السادس كونت دي تولوز ليأمره بأن «يدوس برجله ذلك العش الذي يخرج منه الفساد» فأبى وذهب احد اتباعه بدون علم منه فقتل رسول البابا (١٢٠٨) فقام عند ذلك جمهور من الرهبان يعظون بوجوب اقامة حرب دينية «صليبية» على أولئك الاشرار وافنائهم فهب كثيرون من نبلاء الشمال وأتوا غربي فرنسا في سبيل الله والانعامات الروحية التي منحهم اياها البابا كما منحها للمجاهدين في حروب الشرق الصليبية فذبح خلق كثير في المعارك التي حدثت ونزعت أملاك كثيرين من الشرفاء الغربيين وآل الى لويس بن فيليب اغسطس ملك فرنسا مع أنه لم يشترك في هذه الحرب الا في أواخرها وكانت هذه النتيجة خطوة عظيمة في طريق وحدة فرنسا.

ومن الحروب الصليبية التي كان لها الشأن الكبير في الغرب حرب اسبانيا التي مر بك ذكرها في تاريخ الاندلس. فان كارلوس مارتل وبيبن القصير لما طردا العرب من فرنسا اكتفيا باقصائهم الى ما وراء البرانس الى شبه جزيرة ايبيريا أو اسبانيا فانحصر فيها المسلمون وأهلها المسيحيون كأنهم في ميدان مسور واستمرت بينهم الحروب ستة قرون. وكانت موقعة شريش التي انتصر فيها طارق على رودريك ملك الويزيقوط سنة ٧١١ أول ما وطد السيادة العربية على اسبانيا توطيداً مكينا فاضطر يلاج ملك استوريا ورفاقه ان يلجأوا الى ما وراء كانتابر وهي فرع من جبال البرانس باسبانيا وشيدوا جيهون قاعدة لمملكتهم وفي سنة ٧٦٠ تقدموا خطوة الى الجنوب فاتخذوا مدينة اوفيدايو عاصمة أخرى لهم ثم مدينة ليون وسميت المملكة التي قامت فيها باسمها.

ولما عظمت شوكة شارلمان حمى هذه البلاد من أعدائها وكان قد أسس عمالات شمالي نهر الابر فنشأت منها في سنة ٨٣١ بلدان مسيحية مستقلة كمملكة نافاريا وكونتية برشلونة ثم نشأت فيها بين هذين البلدين بلدان أخرى ذات صولة فكان مجموع هذه الممالك والولايات المستقلة المسيحية نظير سلسلة مستندة الى الجبل معززة

به . وفي آخر القرن التاسع وصل الفونس الكبير ملك اوفيدايو الى نهر الدورو وتجاوزه . الا أن خلافة قرطبة استرجعت صولتها في القرن العاشر بسيف عبد الرحمن الثالث الذي غلب المسيحيين وردهم على أعقابهم ثم بسيف المنصور الذي أخذ مراكزهم على نهري الابر والدورو وظهر عليهم في خمسين موقعة ولكنه انكسر في موقعة كبيرة بعد سنة ٩٩٨ وزالت بزواله عظمة الخلافة وفي القرن الحادي عشر انقسمت خلافة قرطبة وتقدم النصارى. وكانوا قد تحالفوا وعادوا الى الجهاد فاستولى الفونس السادس على طليطلة (١٠٨٥) وأعادها كرسياً للملك كما كانت في عهد الويزيقوط .

وبعد ذلك بخمس سنين زحف هنري دي بورغوني شقيق روبرت ملك فرنسا فاستولى على مصابّ الدورو فأقطعه الفونس إياها كونتية وفي الوقت نفسه كان رودريك دي بيفار المشهور بالسيد يتقدم غانماً منصوراً على ساحل البحر المتوسط حتى أخذ فالانس (١٠٩٤) وفي سنة ١١١٨ فتح الفونس الأول ملك ارغوان مدينة سر غسطة . فاستنجد العرب بالمغاربة الافريقيين سنة ١٠٨٦ فاتوا بقيادة يوسف صاحب مراكش وفرقوا الجيش النصراني في موقعة الزلقة وأخذ الخلافة يوسف ثم استرجع فالانس بعد وفاة السيد (١٠٩٩) وفتح جزائر باليار وانتصر على الفونس السادس انتصاراً عظيماً في اوكاس سنة ١١٠٨ ولما حاصر طليطلة ردت جنوده على أعقابهم مراراً وظفر عليهم الفونس بن هنري دي بورغوني ظفراً مبيناً في أوريك (١١٣٩) فأضاف ضفاف نهر التاغوس وبعض المراكز مما وراءه الى البورتغال وكان قد لقب نفسه ملكاً عليها قبل منازلته للمغاربة .

وفي القرن التالي (١٢١٠) دخل اسبانيا ٤٠٠٠٠٠ من المراكشيين الموحدين فتحالف الملوك الأسبانيون عليهم واوقعوا بهم في معركة لاس نافاس دي تولوزو . ولم يلبثوا أن أخذوا منهم قرطبة (١٢٤٦) واشبيليا (١٢٤٨) ومرسيه (١٢٦٦) بعد أن فتحوا جزائر باليار (١٢٤٤) وهكذا حصروهم في مملكة غرناطة الصغيرة فتركوهم فيها قرنين كاملين لاشتغالهم بمسائل خارجية طرأت عليهم ولم يعودوا الى محاربتهم الا في سنة ١٤٩٢ وقد أعدنا وصف هذه الحوادث بالايجاز ليعلم وجه قيام الافرنج بها .

— ٥٠ —

الحالة الاجتماعية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر

تقدم سكان المدن

نتج من استقلال الشرفاء باقطاعاتهم والنزاع الذي قام بين البابا والأمبراطور والحروب الصليبية المختلفة ان عامة سكان المدن التي كانت مسترقّة كما كان الفلاحون والشركاء مسترقين في القرى تنبهت ونهضت وأخذت تثور تارة وتجامل اخرى لتستمنح من الامتيازات ما يؤمنها على أرواحها وأموالها وأعراضها فنالت مطالبها شيئاً بعد شيء ونشأت طبقة جديدة من الناس هي طبقة الرجال الأحرار على مثل ما كانوا في رومه فجدوا في طلب العلم والمكاسب بالتجارة والصناعة والزراعة. وتألفت منهم شركات ذات اموال طائلة وبأس مرهوب وأصبح لهم شأن في الممالك ففي فرنسا تألف منهم فريق في مجلس النيابة عن الأمة وكان يعرف بالفريق الثالث لمجيئه في الترتيب بعد الكهنة والشرفاء وفي انكلترا انتدب منهم نواب للبرلمان منذ سنة ١٢٦٤ وفي ايطاليا الفوا الجمهوريات والعصابة اللمبردية التي انتصرت على بار بروس.

وفي القرن الثاني عشر أفادت هذه النهضة المسترقين من فلاحين وشركاء في المزارع فأخذ السادات يعتقونهم وتسرعت المحاكم تقبل شهادتهم وأصبحت لهم حقوق كما كانت عليهم واجبات.

التقدم العقلي

لما زادت الثروة وانتشرت كثرت الحاجات النفسانية ففتحت المدارس والكليات الكبرى نظير كليات باريس (١٢٠٠) ومونبليه واورليان وكمبردج واوكسفورد وسالامنك ونبغ جماعة من أكابر العلماء في اللاهوت كتوما الأكويني وبوناونتورا وفي الفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها كالبرت الكبير الألماني وروجر باكون الانكلزي ودنس سكوت الانكليزي وفنسان بوفي صاحب موسوعات العلوم في ذلك العصر

وكان باكون قد اكتشف البارود والزجاج المجسم للمرئيات وهذا جل ما بلغه أهل زمانه من التقدم في المعارف الطبيعية.

وكذلك وجدت جماعة من كبار الأدباء والكتاب والشعراء في فرنسا والمانيا وانكلترا وأيطاليا.

أما الهندسة البنائية وتزويقها وزخارفها فبلغت الكمال في القرن الثالث عشر تشهد بذلك أكثر الكنائس والقصور الباقية في اوروبا الى هذا اليوم.

— ٥١ —

انضمام اشتات مملكة فرنسا (٩٨٧ — ١٣٢٨)

المتقدمين من آل كابت (٩٨٧ — ١١٠٨)

كانت أسرة كابت على ضعف شديد في أول أمرها وقد قضى هوغوس كابت تسع سني ملكه (٩٨٧ — ٩٩٦) في منازعة آخر سليل للكارلوفنجيين والسعي لاخضاع أهل الجنوب. وقبل وفاته توج ابنه روبرت ليتحقق وراثته له. وقد عرض بعد ذلك على روبرت تاج ايطاليا فرفضه ليتفرغ لشؤون مملكته واستولى بالارث على دوقية بورغينيون (١٠٠٢).

وخلف روبرت هذا هنري الأول (١٠٣١) ثم فيليب الأول (١٠٦٠) فلم يفعلا فعلاً يذكر ولكن اتباع فيليب من الاقطاعيين حاربوا الصليبيين وافتتحوا انكلترا بغير أن يشترك معهم. وبقيت الملكية من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر اسماً بلا مسمى ثم بدأت الثورة التي توحدت معها السلطة في البلاد بيد فيليب أوغسطس ومعلوم أن الوحدة الحقيقية لم تتم الا في عهد لويس الرابع عشر.

لويس السمين (١١٠٨ — ١١٣٧)

ان عهد لويس السادس كان بدء النهضة الملكية في فرنسا بعد تولي آل كابت وقد حارب هذا الملك الباسل أكثر الشركاء الصغاير الذين كانوا يقطعون الطريق على التجار فقهرهم وأيد نهضة الشعب لطلب استقلال المدائن في غير أملاكه وحارب ملك انكلترا هنري الأول ليحمله على اقطاع نورمانديا لابن أخيه غليوم كليتون فلم يفلح (١١١٩) وفي سنة ١١٢٤ حارب هنري الخامس امبراطور المانيا ففاز عليه وأكره الفلمنك على قبول كلفتين كونتاً عليهم (١١٢٦) وجعل غليوم التاسع دوق اكيتانيا تحت سيادته. وزوّج ابنه لويس من ابنة هذا الدوق التي كانت وارثته الوحيدة.

لويس السابع (١١٣٧ — ١١٨٠)

ولما تم هذا الزواج للويس السابع أضاف الى أملاك أبيه اكيتانيا وبواتو وليموزين وبوردليز واجانسيس ودوقية غسقونية وأصبحت له السيادة على بويغور وأوفرنيه ومارشه وسنتونج وانغوموا وغيرها. وحدث أنه في محاربته لكونت شامبانيا أحرق ١٣٠ نفس في كنيسة فتري فندم على ما فعل وسافر الى الحرب الصليبية للتكفير عن جنايته غير أنه لما رجع طلق امرأته ورد لها أملاكها الواسعة فأخر بذلك تمام توحيد السلطة في فرنسا الى ثلاثة قرون. وتزوجت الملكة الطالق بهنري بلانتجنه كونت دانجو ودوق نورمانديا ووارث تاج انكلترا فانحصرت املاك لويس السابع بين هذه الاملاك الواسعة ولكنه كان له حق السيادة عليها ولم يكتف بذلك بل حالف الكهنة ليكونوا أعواناً له على خصمه عند مسيس الحاجة.

فيليب أوغسطس — ١١٨٠

هذا الملك آخر من توج من آل كابت قبل جلوسه على العرش. وأول ما فعله انه طرد اليهود وسلبهم اموالهم وسلم الهراطقة للكنيسة ليستميلها اليه وأخذ يشهر حروباً صغيرة على الشرفاء الصغار فاكتسب بها عمالات فرماندوا وفالوا واميانوا ثم ذهب

للحرب الصليبية ورجع منها بعد قليل وأتفق مع يوحنا سان تير شقيق ريكاردوس ملك انكلترا على خلعه ولكن ريكاردوس عندما خرج من الحبس رجع الى انكلترا مغضباً ثم أتى فرنسا وأثار الحرب في جنوبيها فتداخل البابا اينوسان الثالث وجعل الملكين يتهادنان خمس سنين وبعد الهدنة بشهرين أصاب ريكاردوس وهو يحاصر أحد حصون ليموزين سهم قتله (١١٩٩)

وكان الحق بتاج انكلترا لابن أخ ليوحنا سان تير فاغتصبه يوحنا وقتل ابن أخيه (١٢٠٣) فكلف فيليب اوغسطس القاتل ان يمثل لدى محكمته للاجابة عما جناه فأبى فعاقبه فيليب بأن أخذ كل مراكزه في نورمانديا والحق بريتونيا باملاكه (١٢٠٤) وعلى أثر ذلك احتلّ البواتو وتورينو وأنجو فتحالف عليه سان تير وصهره اوتون دي برونسويك امبراطور المانيا وشرفاء هولانده فالتقاهم فيليب بجيش جرار وانتصر عليهم في بوفخن انتصاراً دوى في أطراف البلاد دوياً عظيماً (١٢١٤) وقبل وفاته (١٢٢٣) اعترف له بالسيادة أموري دي مونغور فامتدت بذلك أملاك تاج فرنسا من البيريناي الى البحر المتوسط . وفي عهد فيليب تحولت مدرسة باريس الى كلية ووضعت المملكة تحت نظام وقيود قانونية وسورت مدينة باريس وحليت في داخلها .

وكان فيليب قد تزوج (١١٩٣) باينجبورج من آل دنبمرك ثم هجرها وأحل محلها معشوقة له فغضب البابا وأنذره طويلاً ثم حرمه فعاد الى زوجته المحللة بمقتضى قرار مجمع سواسون (١٢٠١) وفي آخر حرب البيجوا الصليبية التي تقدم ذكرها أرسل فيليب ابنه ليشترك فيها واما هو بنفسه فلم يدخل فيها .

لوي الثامن (١٢٢٣) والقديس لويس (١٢٢٦)

قبل أن يركب هذا الملك تخت فرنسا حارب يوحنا ملك انكلترا انتصاراً لجماعة البارونية الذين كانوا ثائرين عليه ثم أرسله ابوه للاشتراك في حرب الجنوب (البيجو) فافتتح افينيون ونيم والبى وكاركاسون وعند رجوعه توفي باصابة وبائية

(١٢٢٦) وكان ابنه لويس طفلاً فاراد البارونية أن ينزعوا الوصاية من يد امه بلانش دي كاستيليا واعتصبوا عليها ثم انتهت المشكلة بفوز الملكة (١٢٣١).

وكان ريموند السابع في سنة ١٢٢٩ قد وقع على معاهدة باريس وترك بمقتضاها كل ولاية لنجدوك السفلى لفرنسا. وجعل الولاية العليا مهراً لابنته الوحيدة التي كانت خطيبة الفونس شقيق الملك كونت دي بواتو واوفرنيا. ومنح قسماً من بروفنسا العليا للبابا. وكان روبرت الشقيق الآخر للملك لويس صاحب كونتية ارتوا في سنة ١٢٣٧ ثم استزاد عليها انجو ومانه. وفي سنة ١٢٤٦ استزاد بروفنسا بتزوجه من ابنة صاحبها وفي سنة ١٢٦٨ جلس على سرير مملكة نابولي بعد انتصاره على آل سواب فازدادت بهذه الأملاك الجديدة عظمة آل فرنسا.

موقعة تايلبرج (١٢٤٢)

وفي سنة ١٢٢٤ أخمد القديس لويس ثورة قام بها الشرفاء وعضدهم فيها هنري الثالث ملك انكلترا وعلى أثرها عقد مع هذا الملك معاهدة رد له بمقتضاها ليموزين وبريغور وكيرسي واجينوا بشرط أن تكون له السلطة العليا عليها واستبقى لنفسه نورمنديا وتورينو وانجوا وبواتو ومانه. وعلى هذا المثال عامل ملك أراغون فانه ترك له كونتية برشلونة مقابل تنازله عن جميع حقوقه في املاكه الموجودة في فرنسا (١٢٥٨)

وان فضائل لويس جعلته المتقدم بين ملوك أوروبا وقد تولى الوساطة بين اينوسان الرابع وفريدريك الثاني ثم بين ملك انكلترا وبارونيته الذين ثاروا عليه عندما وضع دستور أوكسفورد.

وقد ذكرنا ما كان من شأن هذا الملك في تجريدتيه الصليبيتين. أما في داخليته فقد صرف همه لدفع المظالم وصدّ فتن الشرفاء وأمر بكف البراز القضائي في أملاكه وسن القوانين ونشط الأدبآء وأرباب الفنون وكان أول من دعا المتقدمين من الشعب الى مجلس استشارته.

فيليب الثالث (١٢٧٠) وفيليب الرابع (١٢٨٥)

لما رجع فيليب الثالث من تونس الى فرنسا بجثة أبيه كان عمه الفونس قد مات فورث املاكه الواسعة وضمها الى أملاك التاج ثم زوّج كبير أبنائه من وارثة نافاريا وشامبانيا تمهيداً لضمها الى التاج أيضاً.

وفي عهد هذا الملك ذبح الفرنسويون في صقليا وكانت علامة هذه المذبحة قرع الاجراس للدعوة الى صلاة المساء (١٢٨٢) واذ كان ملك اراغون احد المحركين لهذه الثورة أقام عليه فيليب حرباً لم تنته الا في سنة ١٢٩١ بعقد معاهدة للصلح.

وفي سنة ١٢٨٥ توفي ملك فرنسا. وخلفه ابنه فيليب الرابع الملقب ليبل وعزز المملكة في داخلها. ووقعت خصومة بين فلاحين فرنسويين وانكليز فجرت حرباً بين الدولتين غنم فيليب فيها مقاطعة فلاندر وحبس حاكمها في قلعة اللوفر.

الخصومة بين الملك والبابا

واحتاج فيليب الى النقود لمتابعة هذه الحرب وللقيام بنفقات حكومته التي زادت حاجاتها بمقدار ما اتسع نطاقها فاستباح أموال اليهود. وجعل يخفض قيمة النقود ويرفعها وفرض عوائد على الكهنة فاحتج عليه البابا بونيفاس الثامن وحرم كل كاهن يؤدي ما عليه من الضريبة بدون اذنه كما حرم من يضع ضريبة كهذه «أيا كان» (١٢٩٦). فعاقبه فيليب على هذه المقاومة بان حظر على جميع الناس اخراج النقود من المملكة بدون اذنه وبهذه الوسيلة قطع عن البابا دخله فارسل اليه في سنة ١٢٠٠ اسقفاً يدعى برنارساسه ليخاطبه في هذا الشأن فشمخ بانفه امام الملك وأهانه فالقى القبض عليه فحرمه البابا (١٣٠١) فعقد فيليب أول جمعية للنواب (١٣٠٢) وكانوا ثلاثة أقسام الشرفاء والكهنة ومندوبي الشعب فوافقته على ما فعل وما أراد فاصدر منشوراً يقضي بخضوع السلطة الروحية للسلطة الزمنية وتهدد البابا بأنه يعطي تاج فرنسا لامبراطور المانيا وفي سنة ١٣٠٣ قام رجل متشرع يدعى غليوم نوغاره واتهم البابا بالخروج عن المذهب الصحيح ثم متشرع آخر وعرض على الملك أن يعقد مجمعاً يدعو اليه بونيفاس الثامن لمحاكمته.

ولكن الملك أرسل غليوم نوغاره الى البابا ليناقشه في الدين بشدة ويخيفه وكان هذا الرسول مصطحباً رجلاً ايطالياً فلما اشتدت المحاورة بين البابا وغليوم ضرب الايطالي البابا بقفازه الحديدي على وجهه فلم يلبث ان مات من حنقه (١٣٠٣) وتوصل الملك الى استخلافه بأحد صنائعه وهوبنوا الحادي عشر ثم بآخر وهو اكليمندوس الخامس الذي نقل الكرسي المقدس من رومه الى افينيون (١٣٠٩) وكانت مدة اقامته واقامة خلفائه فيها سبعين سنة دعوها باسر بابل لشدة ما احتملوا فيها من مضايقات فرنسا.

اهلاك الرهبان الهيكليين (تامبليه)

عندما جلس اكليمندوس الخامس على الكرسي البابوي استصدر منه فيليب حكماً قاضياً بتقبيح ذكر البابا بونيفاس المتوفي وحكماً آخر قاضياً بتذنيب الرهبان الهيكليين وفي ١٣ أكتوبر من سنة ١٣٠٧ قبض عليهم في جميع انحاء فرنسا وحوكموا وعذبوا حتى اذا أخذت منهم الاقرارات بالجرائم المنسوبة اليهم عقد الملك جمعية النواب في مدينة تور (١٣٠٨) فقضت عليهم بأنهم يستحقون القتل فاحرق منهم ٥٤ في سنة ١٣٠٩ وأهل رئيسهم جاك موله في سنة ١٣١٤ واستولى على ما كان لهذه الرهبنة من الاملاك الواسعة والاموال الطائلة.

ثورة أهل فلاندر

كان فيليب قد استعمل على أهل هذه المقاطعة رجلاً قاسياً ظالماً فثاروا وفي مقدمتهم جاك دي شاتيليون على النبلاء وكسروهم في كورتراي (١٣٠٢) غير أن الملك فيليب انتقم منهم باستظهاره عليهم في موقعة أخرى (١٣٠٤) ولكنه مع ذلك لم يبق له من فلاندر الا مدائن ليل ودواي واورشيه.

آخر الكابتيين من السلسلة الأصلية (١٣١٤ — ١٣٢٨)

لما رأت العامة في عهد لويس العاشر ان الملوك أصبحوا يميلون عنها الى الشرفاء تحركت وقتلت وزراء فيليب الرابع انتقاماً وانذاراً. وفي سنة ١٣١٦ توفي لويس

وخلفه اخوه فيليب اغتصاباً اذ كان الحق بالتاج لابنة أخيه ولكنه استصدر قراراً من النواب بأن لا تجلس انثى على عرش فرنسا. وكان هذا القرار من القواعد الأساسية التي جرت عليها فرنسا وسمي بالقانون السالي، ثم ان فيليب هذا توفي عن ابنة له فخلفه دونها اخوه كارلوس الرابع ليبل (١٣٢٢) وهذا توفي عن ابنة أيضاً فانتقل التاج الى ابن أخ لفيليب الرابع وكان رأس الفرع الكابيتي من آل فالوا (١٣٢٨) غير أن ادوارد الثالث ملك انكلترا حفيد ليبل ادعى أنه الوارث الشرعي وكان ذلك سبب الحرب الجسيمة التي عرفت بحرب المئة السنة.

— ٥٢ —

نشأة الدستور الانكليزي

الغارة النورمندية

رأينا فيما سبق تنازع السكسونيين والدنيمركيين في انكلترا. وبعد وفاة كانوت الكبير (١٣٣٦). دخل في هذا النزاع عنصر ثالث وهو عنصر النورمانديين. وذلك أن الأمراء ذوي الأصل السكسوني كانوا قد لجأوا الى نورمنديا بفرنسا بعدما انتزعت منهم سلطتهم وأموالهم فلما جلس ادوارد الملقب بالمعترف على عرش انكلترا استدعى كثيرين من النورمنديين وقربهم اليه ووزع عليهم الأبرشيات الكبرى فغار السكسونيون منهم وتوصلوا الى طردهم بصولة زعيمهم غودوين. ولما مات غودوين خلفه ابنه هارلد وسافر الى نورمنديا فاعتقله غليوم الى أن وعده بأنه يساعده على ركوب سرير انكلترا بعد ادوارد. غير أن الانتخاب وقع على هارالد (١٠٦٦) فتناسى وعده وذهب الى الشمال لرد غارة للنروجيين فاستعدّ غليوم في هذه الأثناء لفتح انكلترا وأذن له بذلك البابا لأنه كان مستاء من عدم تأدية الانكليز للضريبة المسماة بضريبة القديس بطرس فانتصر على هارلد وقتله في موقعة هاستنس (١٠٦٦) واستولى على البلاد فاستمر السكسونيون يقاومونه مستعينين تارة بأهل غاليا

البريطانيين (١٠٦٧) وطوراً بالنروجيين (١٠٦٩) الى أن خابت آمالهم فلجأ كثيرون منهم الى الغابات كراهة أن يتحملوا ربقة النورمنديين.

صولة الملوك النورمنديين في انكلترا

قسم غليوم انكلترا بين رفاقه على اختلاف أقدارهم ومهمهم وأمر بمسح الأراضي فتم ذلك من سنة ١٠٨٠ الى سنة ١٠٨٦ لتتميز به الأملاك بعضها من بعض وكان عدد الذين وزعت عليهم ست مئة بارون يليهم ستون ألفاً من الفرسان (شفاليه) وفوق الجميع الملك الذي استبقى لنفسه ١٤٦٢ قصراً بتوابعها وجميع المدائن الكبيرة. وكان هؤلاء الملاك المستحدثون من كبار وصغار تابعين مباشرة للملك يقسمون له يمين الطاعة والأمانة. وسنرى أن هذا التقسيم المحكم والنظام الذي لم يوجد مثله في أوروبا هو الذي قامت به قوة انكلترا.

غليوم الثاني (١٠٨٧) وهنري الأول (١١٠٠) واتيان (١١٣٥)

توفي غليوم الفتح سنة ١٠٨٧ في حملة له على ملك فرنسا فيليب الأول لأنه كان قد فتح القسم الفرنسوي من مقاطعة فكسين فخلفه ابنه غليوم الثاني على انكلترا وابنه روبرت «ذو الفخذ القصير» على نورمنديا. وقد حاول روبرت أن ينتزع من أخيه تاج انكلترا فلم يفلح فسافر للاشتراك في الحرب الصليبية وفي أثناء غيابه مات أخوه غليوم الثاني فجلس أخوه الأصغر هنري الأول على عرشه فلما طالبه روبرت بحقه الذي اختلسه ظهر عليه هنري في موقعة تينشيري (١١٠٦) وضم نورمنديا الى انكلترا ثم حارب لويس السمين وقد حاول أن يستخلف ابن روبرت غليوم كليتن على دوقية نورمنديا كما سبق الالماع الى ذلك فنكل بجيشه (١٠١٩) ولما انتقل هنري الأول الى الدار الأخرى كان الحق بخلافته يؤول الى ابنته ماتيلده أرملة الأمبراطور هنري الخامس وامرأة جوفروا بلانتجنه كونت انجو غير أن أتيان دي بلوا ابن أخي الملك المتوفي اغتصب تخت الملك فحاربته الأميرة مستعينة عليه بحلفائها أهل اسكتلنده فاستظهر على جيشهم ولكنه لما لقي جيش الأميرة غلب وأسر ومع ذلك

وقع الاتفاق بين الفريقين على أن اتيان يستمر متقلدا زمام الملك ثم يخلفه هنري دانجوا ابن الأميرة المشار اليها.

هنري الثاني — ١١٥٤

وكانت أم هنري بلانتجنه قد تنازلت له عن نورمنديا ومانه سنة ١١٥١ بعد أن ورث من أبيه انجو وتورينو فلما تزوج في السنة التالية ايليونورا مطلّقة لويس ملك فرنسا ضم أملاكها الواسعة الى أملاكه وكانت مقاطعات بوانيه وبوردو وأجن وليموج عقاراً لها ومقاطعات أوفرنيا وأونيس وسانتونج وانجوموا ومارشه و بريفور تحت سيادتها وكل ذلك أخذه هنري مهراً من قرينته. وفي سنة ١١٥٤ جلس على أريكة انكلترا في الواحدة والعشرين من عمره ولما شبّ أحد أبنائه زوّجه من وارثة لمقاطعة بريتونيا. فأصبح بذلك ذا قوة هائلة ولكنه أضاعها في محارباته للكهنة ولأبنائه الذين عصوه.

وكان غليوم الفاتح قد أعفى القسوس من المحاكمة في غير المحاكم الكنسية فنتجت عن ذلك منكرات كثيرة أراد هنري الثاني أن يضع لها حداً فعين أحد مقربيه توماس بيكت رئيساً للأساقفة في كانتوربري. ثم عقد جمعية في كلادندون قررت أن يحاكم أهل الكهنوت أمام المحاكم الأهلية كسائر الناس وانه لا يجوز لكاهن أن يخرج من انكلترا بدون إذن الملك وان الملك يكون صاحب السلطة على كل أبرشية أو إقطاع كنسي بموت متوليها وانه يستغل إيرادهما مدة خلوهما من خلف للمتوفي. فلم يوافق بيكت على هذا القرار وفرّ الى فرنسا من وجه الملك ثم أصلحهما ملك فرنسا فعاد رئيس أساقفة كانتوربري الى انكلترا مصرّاً على رأيه فعيل صبر هنري وهدده بمسمع من بعض الفرسان فظنوا التهديد إرادة حقيقية للملك وقتلوا بيكت في داخل الكنيسة (١١٧٠) ولما رأى هنري ما كان من الكدر العام الذي أحدثته هذه الجناية عدل عن قرار كلارندون وتاب وصلى على قبر «الشهيد».

على أنه كان ولا ريب يأبى أن يتذلل الى هذا الحد لو لم يخف أن يقع عليه حرم رومة بينما هو مستغرق الوقت في محاربته لأبنائه. أما أبناؤه فهم هنري كورت مانتل

دوق مانه وانجو وريكاردوس قلب الأسد دوق أكيتانيا وجوفروا دوق بريتونيا وفي المدة الأخيرة من عصيانهم لوالدهم انضم اليهم أخوهم يوحنا سان تي ر. وتوفي ذلك الملك الشقي في أثناء هذه الحرب التي أقامها على بنيه وعلى ملك فرنسا الذي كان آخذاً بنصرتهم. وكان في سنة ١١٧١ قد فتح شرقي ارلندا وجنوبيها.

ريكاردوس (١١٨٩) ويوحنا سان تير (١١٩٩)

خلف ريكاردوس أباه وعرفنا ما كان منه في الحرب الصليبية وفي عوده منها وحين أدركه أجله خلفه أخوه يوحنا سان تير وكان خلواً عن كل فضيلة حتى الشجاعة. وقد فقد تورينو وانجو ومانه ونورمنديا وبواتو (١٢٠٣ — ١٢٠٥) لجناية ركبها وعاقبه عليها فيليب اغسطس كما رأيناه ثم شرع في تجديد منازعات أبيه للكنيسة بدون تعقل فحرمه البابا وأذن لأغسطس أن يفتح انكلترا. فتذلل يوحنا له ووعده بحمل الجزية إليه واعترف بأنه تحت سيادته (١٠١٣) ثم أراد الانتقام من فرنسا فحاربها مع الحلفاء الذين استنصر بهم عليها فكسروا في موقعة بوفين على ما علمناه ولما رجع يوحنا الى جزيرته وجد البارونية ثائرين عليه واضطروه الى التوقيع على ما سمي بالتعهد الكبير (١٢١٥) وهو تعهد كان أساس النظام الدستوري الانكليزي ضمن به الملك بقاء امتيازات الكنيسة على ما كانت عليه ووعد بأنه لا يتجاوز ما وضعه هنري الأول من الرسوم على الزواج والحماية وغيرهما وأن لا يفرض ضريبة بدون موافقة المجلس العام عليها وأن يمنح الحرية الشخصية والاستقلال للقضاة والمحلفين بما يكفل للمتهمين العدل في الأحكام. ومن مقتضى هذا التعهد أيضاً أن تتألف لجنة من ٢٥ بارونا تناط بها مراقبة تنفيذ الدستور الجديد واستخدام جميع الوسائل لحمل الملك على تلافي كل خلل.

ولما انقضى الخطر أراد الملك أن يمزق التعهد وأذن له بذلك البابا فاستعان البارونية عليه بابن فيليب اغسطس وكادوا يملكونه على بلادهم لو لم يمت يوحنا (١٢١٦) فآثروا عند ذلك استخلافه بابنه وكان طفلاً قاصراً على ولي عهد فرنسا مع ما هو عليه من السطوة وما له من ضخامة الملك.

هنري الثالث (١٢١٦)

كان هذا الملك بعد خروجه من الوصاية كثير البدوات وتقلب الأفكار مستبداً بإرادته لا يلوي على نظام أو دستور في أعماله. وقد غلبه القديس لويس تايلبرج وفي سانت كما عرفنا ولما انتخب أخوه ريكاردوس دوق كورنوايل أمبراطوراً لألمانيا حمّل انكلترا من النفقات ما لا يطاق فنتج من كل ذلك أن ضاقت الصدور، وحنق الناس عليه.

أول برلمان انكليزي ١٢٥٨

وفي اليوم الحادي عشر من شهر يونيه سنة ١٢٥٨ انعقد الاجتماع الوطني الكبير في أوكسفورد للمرة الأولى وسمي فيها بالبرلمان رسمياً فأقنع البارونية الملك بأن يعهد في إصلاح شؤون المملكة الى ٢٤ منهم اثني عشر يعينهم هو واثني عشر ينتخبونهم هم. ثم نشر هؤلاء المندوبون الأربعة والعشرون دستور أوكسفورد ومن مقتضاه أن يثبت الملك التعهد الكبير الأول وأن المندوبين يعينون في كل سنة الوزير الأكبر ووزير المالية والقضاة وسائر الموظفين المنوطة بهم شؤون عامة وحكام القصور الخ. وأن المخالفة لقراراتهم تكون جريمة من الجرائم الكبرى وأن البرلمان يدعى للاجتماع كل ثلاث سنين. فاحتج هنري على هذا الدستور وحكم في الأمر القديس لويس فحكم له فأبى البارونية قبول هذا الحكم وثاروا عليه مسلحين تحت قيادة كونت لايسستر سيمون دي منفور فأسروه بعد موقعة ليوس (١٢٦٤) وقام سيمون بالنيابة عن الملك فأصدر منشور سنة ١٢٦٥ القاضي بأن ينتخب للبرلمان اثنان من الفرسان في كل كونتية واثنان من العامة في كل مدينة أو قرية من الكونتية المذكورة. وكان ذلك أول نظام انتخابي في انكلترا.

ولما تولى ادوارد الأول (١٢٧٢) احترم هذا الدستور وافتتح بلاد الغال (١٢٧٤ — ١٢٨٤).

ثم حارب زعماء أنصار الاستقلال الاسكتلندي في اسكتلنده فاستظهر على أولهم (١٢٩٧) وعلى ثانيهم (١٢٩٨) وعلى ثالثهم في السنة نفسها ولكن هذا الزعيم

الثالث عاد فثار في عهد ادوارد الثاني الضعيف (١٣٠٧) وعلت كلمته وانتصر على جيوش الملك في موقعة بانوك بورن (١٣١٤) ففاز باستقلال بلاده.

وكان المتملقون والمقربون هم الذين يحتكمون في بلاط ادوارد الثاني بدلاً منه فنفاهم النبلاء وأماتوا بعضهم شنقاً ثم قتلت ادوارد امرأته (١٣١٧) على أن القلاقل التي جرت في السنين الأخيرة جاءت مؤيدة للدستور الجديد الذي تأسس وتشيّد وتوطّد في أقل من قرن وكان الفضل في ذلك لاتحاد الخاصة مع العامة وتناصر الفريقين.

— ٥٣ —

القسم الأول من حرب المئة السنة (١٣٠٨—١٣٨٠)

أسباب هذه الحرب وذكر فيليب دي فالوا (١٣٢٨) وادوارد الثالث (١٣٢٧)

كان ادوارد الثالث على ما قدمناه حفيداً من أمه لفيليب ليبل يتجاهل القانون السالي ويدّعي أن له الحق بالملك على فرنسا. غير أنه لما جلس فيليب دي فالوا على عرش تلك البلاد تظاهر بالإقلاع عن دعواه وكظم غيظه الى أن ثار الفلمنك بقيادة خمار يدعى جاك آرتفلت وخلعوا كونتهم الذي كان صديقاً لفرنسا وجعلوا ادوارد ملكاً شرعياً عليهم.

المواقع التي جرت في فلمنك وبريتانيا[1] ١٣٣٧

ابتدأت الحرب سنة ١٣٣٧ واستمرت ثماني سنين لم يحدث فيها حادث ذو شأن سوى انكسار الأساطيل الفرنسوية في موقعة بقرب مدينة أكلوس الهولندية (١٣٤٠).

(١) هو اسم مقاطعة فرنسوية نكتبه بهذا الرسم تمييزاً له عن لفظة بريطانيا التي هي اسم آخر لانكلترا.

وجرت أيضاً منازعة في بريتانيا بين كارلوس دي بلوا زعيم الحزب الفرنسوي وجان دي مونفور صديق الانكليز فدارت الدائرة على الأول مع أن جاك ارتفلت رئيس الثورة كان قد مات وبقيت الصولة لانكلترا في بريتانيا وفلمنك.

موقعة كريسي (١٣٤٦)

وفي سنة ١٣٤٦ اشتد القتال فدخل ادوارد فرنسا ماراً بشبه جزيرة كوتانتيا ووصل الى وسط نورمنديا وعزم أن يزحف منها على باريس غير أنه أعوزته الميرة فرجع نحو الشمال ليدنو من فلمنك وكان فيليب دي فالوا في مقدمة ٦٠.٠٠٠ مقاتل فلم يقطع الطريق عليه لجهله ثم قاتله بقرب كريسي فانتصر الانكليز مع قلة عددهم وقتلوا كثيرين من الفرنسويين واستخدموا المدافع في هذه المعركة وكان ظهورها في ميادين القتال لأول مرة. ثم تراجع هنري متقهقراً الى مدينة كاله ففتحها بعد حصار استمر سنة (١٣٤٧) وحفظها الانكليز قرنين كاملين. ومن توفيقات هنري أنه فاز فوزاً ثانياً في اسكتلندة وبريتانيا وسجن رئيس حزب الاستقلال في الأولى ورئيس الحزب الفرنسوي في الثانية.

يوحنا الصالح (١٣٥٠) وموقعة بولتيه (١٣٥٦)

ولما استوى يوحنا الصالح على العرش (١٣٥٠) كانت فرنسا في حالة سيئة ناشئة عن الفشل السابق وفقد كاله ودعوى ملك نافاريا انه ذو حق بتاج فرنسا ورثه من أمه. وجاءت فوق ذلك مطالبة جمعية النواب التي عقدت في سنة **١٣٥٥** بإصلاحات جمة أشبه بما تضمنه التعهد الكبير الانكليزي منها ولكن إنفاذها كان يستحيل في ذلك الوقت بالنظر الى حرج موقف فرنسا أمام انكلترا.

وكان في جملة الاصلاحات المطلوبة مالاً يرضي الشرفاء فتآمروا تحت رئاسة ملك نافاريا كارلوس الملقب بالرديء فقبض الملك يوحنا على كثيرين منهم كانوا مدعوين الى مأدبة في قصر ابنه كارلوس وقتلهم فانتهز الانكليز فرصة هذه الحركة الداخلية وأرسلوا دوق لانكاستر الى نورمنديا والأمير المعروف بالأسود الى غويانه

فتقدم الأسود الى اللوار فقطع عليه الملك الطريق بخمسين ألف مقاتل ولكنه استعمل من الحكمة والدهاء ما جعله يفوز مع قلة رجاله فوزاً تاماً على الفرنسويين وذلك بقرب بواتيه سنة ١٣٥٦ وأسر ملك فرنسا في هذه الموقعة.

نهضة الشعب

وأحدث توالي الفشل وأسر الملك والسواد العظيم من النبلاء هرجاً بين الأمة فحوّلت إدارة الشؤون العامة لنوابها تحت رئاسة وليّ العهد كارلوس. وكانوا قبل ذلك قد أبوا أن يأذنوا بفرض ضريبة جديدة وجمع إعانة للحرب حتى يطرد جمهور من كبار عمال المالية ورجال القضاء ويحاكموا على سوء سيرهم. ويؤلف مجلس منتخب من نواب الطبقات الثلاث الشرفاء والكهنة والعامة لإدارة حركة الحكومة. ثم ان النواب عقدوا جمعيتهم في سنة ١٣٥٧ فزادت جرأتهم فألفوا لجنة أعضاؤها ستة وثلاثون لمراقبة كل عمل يجري في الحكومة وحملوا ولي العهد على إصدار ما سمي بلائحة الإصلاح الكبرى التي تعهد فيها بأن لا يضرب ضريبة إلا بإذن النواب وأن يعهد في جباية الضرائب وإنفاق دخلها الى المندوبين لذلك من قبلهم وأن يهذب القضاء ويمتنع عن التلاعب بالنقود وما شاكل ذلك. ثم أن ولي العهد لم ينفذ تعهده فثار أهل باريس لحمله على إنفاذه ولكن أهل المدن الفرنسوية الأخرى لم يشتركوا معهم في ذلك لأن الوقت الذي اختير لتلك الاصلاحات كان غير مناسب فيئس اتيان مارسل لسان نواب الأمة لإصرار ولي العهد على إبائه وذبح اثنين من وزرائه تحت عينيه لإرهابه فكان فعله هذا والجنايات التي ارتكبها الفلاحون حين ثاروا بسبب المجاعة التي عضتهم بأنيابها في أثناء الحرب مما أضعف سطوة حزب العامة ثم حدث أن مارسل المتقدم ذكره اتفق سراً مع ملك نافاريا على أن يسلم له باريس فكشفت دسيسته وقتل وبسقوطه سقط حزبه (١٣٥٨).

معاهدة بيتيني — ١٣٦٠

وإذ تخلص ولي العهد من مارسل عقد معاهدة مع كارلوس الرديء ضمن بها ابتعاده وحياده ثم اتفق مع النواب على إلغاء معاهدة وخيمة العواقب كان الملك قد

وقع عليها للنجاة من أسره غير أنه وقع على معاهدة أسوأ منها تعرف بمعاهدة بيتيني (١٣٦٠) وكان من مقتضاها أن يتخلى ادوارد عن المطالبة بتاج فرنسا وفي مقابلة ذلك يمنح ملكية أربع عشرة مقاطعة ومدينة بفرنسا. ومن متممات النحوس في عهد الملك يوحنا أن دوقية بورغونيا آلت الى التاج بانقراض أصحابها (١٣٦١) فأقطعها ابنه الرابع فيليب الجسور وتوفي سنة ١٣٦٤.

كارلوس الخامس (١٣٦٤) ودوكيكلين

فخلفه ولي العهد وسمي كارلوس الخامس ولقب بالحكيم (١٣٦٤ — ١٣٨٠) فأخرج فرنسا من وهدة الشقاء التي كانت فيها إذ أنه بعد أن ترك الأعداء في حالة النار تأكل نفسها وتحصن واستعدّ بحزم وتروٍّ حارب ملك نافاريا فقهره في كوشريل (١٣٦٤) وكان الفضل في هذا الانتصار لضابط بريتاني يدعى دوكيكلين رقاه الملك بعد ذلك الى رتبة كونيتابل وهي من أعلى رتب المملكة ثم أرسله الى بريتانيا ليضمها الى أملاك التاج فلم يوفق فيها بل أسر واضطر الملك أن يعترف بيوحنا مونفور دوقاً عليها.

وفي سنة ١٣٦٩ تكدر الغسقونيون من مظالم الأمير الأسود فاستغاثوا بكارلوس الخامس فاستصدر حكماً بانتزاع هذه المقاطعة منه وكان ذلك إعلان حرب. وكان ادوارد غير مستعد لها وكارلوس على تمام الأهبة ومع ذلك أرسل ادوارد جيشاً انكليزياً جراراً الى كاله في سنة ١٣٧٣ فاجتاز فرنسا الى بوردو ولكن لم يسلم منه الا ستة آلاف جندي ثم أن الانكليز لم يبق لهم من فتوحاتهم في فرنسا إلا بايونة وبوردو وكاله عندما توفي ادوارد الثالث (١٣٧٧).

وقد وفق كارلوس الخامس هذا التوفيق لدهائه وحكمته ومن مزاياه أنه كان محباً للعدل منشطاً لأهل الآداب والمعارف وهو الذي شيد المكتبة الملكية فكان فيها ٩٠٠ مجلد عندما أدركه أجله سنة ١٣٨٠.

— ٥٤ —

فرنسا وانكلترا بعد ادوارد الثالث وكارلوس الخامس وذكر القسم الثاني من حرب المئة السنة ١٣٨٠ — ١٤٥٣

كارلوس السادس (١٣٨٠) وهبّة سكان المدائن

حالت الفتن والاضطرابات الداخلية دون استئناف الحرب مدة ٣٥ سنة (١٣٨٠ — ١٤١٥) بين فرنسا وانكلترا. وعندما ملك كارلوس السادس كان قاصراً فناب عنه في تولي الحكم أعامه الأربعة وكانوا يظلمون ويقتسمون دخل المملكة حتى إذا ثقلت وطأة ما وضعوه من الضرائب الجديدة على العامة ثارت في باريس وفي مدائن أخرى كثيرة فقاتلها الأوصياء وعاقبوا بعض الثائرين عقوبات هائلة أخمدت أنفاس الباقين. ثم رجعوا الى باريس واستمروا يعوّدون الملك على عيشة الرخاء والدعة والانهماك في الشهوات حتى أصابه جنون فاختصم دوق بورغونيا عمه ودوق أورليان أخوه على خلافته الى أن أمات الأول الثاني بدسيسة (١٤٠٧). وعلى أثر هذه المنازعة وقعت حرب أهلية بين حزب من الشرفاء سموا بالأرمنياك انتساباً الى زعيمهم كونت أرمانياك وحزب من الدوقة سموا بالبورغونيين انتساباً الى دوق بورغونيا ففاز هذا الفريق أولاً وذبح كثيرين من الأعيان ثم فاز الأرمانياك سنة ١٤١٣ من حين أعادهم حزب المعتدلين الى باريس وبعد ذلك بسنتين استؤنفت حرب المئة السنة.

حدوث ثورة في انكلترا وذكر ويكلف

بينما كانت فرنسا مشتعلة بحربها الأهلية كانت انكلترا مبتلاة بمثل ذلك لأن العامة فيها أصبحت لا تطيق أعباء سادتها ولأن ذوي المتاجر أخذوا يفكرون في تأمين أموالهم من الأعيان الذين كانوا يسلبون كل شيء حتى أموال الكنيسة. وفي سنة ١٣٦٦ طالب البابا أوربانوس الخامس انكلترا بمتأخر له عليها من الجزية التي وعده

يوحنا سان تير بتأديتها للكرسي المقدس فأبى البرلمان ذلك عليه وانتهز هذه الفرصة راهب يدعى ويكلف فجعل يطعن على ترتيب الكهنوت وتعاليم الكنيسة الخارجة عما ورد في الأناجيل وترجم التوراة الى الانكليزية وبث أفكاره في الأمة بثاً معجلاً وهو مع ذلك آمن على نفسه مما أصاب العالم لولار قبله حيث أحرق حياً في كولونيا لإبدائه مثل هذه الآراء (١٣٢٢) ثم قام رجل يدعى جوهن بول من أتباع ويكلف وأخذ يعلم الناس «انه لم يكن في الدنيا شريف حين كان آدم يحرث وحواء تغزل» فأثر ذلك في العقول تأثيراً عظيماً وكان تمهيداً لما أحدثه لوثير من الثورة المذهبية في القرن السادس عشر وديكارت من الثورة المعتقدية في القرن السابع عشر ورجال الفلسفة من الثورة السياسية في القرن الثامن عشر.

ريكاردوس الثاني (١٣٨٠) وذكر خلعه (١٣٩٩)

بعد أن جلس ريكاردوس الثاني ابن الأمير الأسود على عرش انكلترا بسنة وصل ستون ألف ثائر الى أبواب لندرة (١٣٨١) وطلبوا إلغاء الاسترقاق وحرية البيع والشراء في الأسواق الخاصة والعامة وما شاكل ذلك من المطالب العظيمة فمنحوا وعوداً شاتقة ولما تفرّق جمعهم أهلك منهم ١٥٠٠. وكان للملك أعمام ثلاثة أشره من أعمام لويس السادس فتولوا رئاسة حزب المعارضة له فقتل أحدهم بدسيسة وأهلك عدداً كبيراً من النبلاء فساد الخوف. غير أن أحد المنفيين هنري دي لانكاستر دبّر مكيدة عظيمة للملك فلم يشعر ريكاردوس إلا وهو مخذول من الأمة على اختلاف طبقاتها وعزله البرلمان «لأنه خرق قوانين الأمة ولم يراع امتيازاتها» (١٣٩٩) وبعد ذلك قتل الملك في سجنه.

هنري الرابع ومعركة آزنكور (١٤١٥) ومعاهدة تروي (١٤٢٠)

قضى هنري الرابع سني ملكه الأربع عشرة يشتغل بتأييد التاج لأهل بيته وعندما حضرت منيته أوصى ابنه باستئناف محاربة فرنسا ليشغل بها بارونيته عن الفتن فلم تكن سنة ١٤١٥ حتى انتصر الانكليز على الفرنسويين انتصاراً مبيناً فسقطت من أجل ذلك حكومة الأرمانياك ودخل البورغونيون باريس فأسالوا فيها أنهاراً

(١٤١٨) ثم شرع الانكليز ينهبون نورمنديا ويأخذون مدنها واحدة بعد الأخرى. وفي سنة ١٤١٩ استولوا على روان. وفي هذه الأثناء قتل دوق بورغونيا ملك فرنسا وكان يدعى يوحنا الذي لا يخاف فتحول دوق بورغونيا الجديد المسمى فيليب الصالح الى الانكليز وحالفهم فأصبحت باريس وملكها في قبضتهم فعقد هنري الخامس مع فرنسا معاهدة تروي وقضى بها أنه يكون هو الذي يخلف ملك فرنسا. ولذلك تزوج ابنته (١٤٢٠).

كارلوس السابع (١٤٢٢) وقيام جان دارك (١٤٢٩)

وتوفي هنري وكارلوس في السنة الواحدة (١٤٢٢) فقام على فرنسا ملكان: هنري السادس الانكليزي في باريس وكارلوس دي فالوا السابع في جنوبي نهر اللوار. وكان كارلوس السابع وحاشيته لا يفكرون إلا في الملاهي فنتج عن ذلك أن انتصر الانكليز على جيوش هذا الملك في موقعتين إحداهما في سنة ١٤٢٣ والأخرى في سنة ١٤٢٤ ثم طردوا عساكره من بورغونيا ونورمنديا وفي سنة ١٤٢٨ حاصروا أورليان وفتحوها (١٤٢٩) فظهرت عند ذلك جان دارك. وكانت هذه الفتاة من قرية دومريمي على تخوم اللورين فأتت بلاط كارلوس السابع زاعمة أنها مرسلة من الله لإنقاذ أورليان وتتويج الملك وأعجب الناس بفضائلها وإيمانها وعواطفها الوطنية فتبعها جمهور كبير من الضباط الباسلين فأخذت أورليان من الانكليز في عشرة أيام (١٤٢٩) ثم انتصرت عليهم في باتاي وأسرت قائدهم وذهبت بالملك الى مدينة رمس فتوج فيها. وعندها أرادت أن تعتزل فحملت على مداومة القتال فوقعت في أيدي الانكليز في أثناء دفاعها عن كومبياني وأحرقوها في مدينة روان بدعوى أنها ساحرة (٣٠ مايو ١٤٣١).

الاصلاحات وانتصارات كارلوس السابع

لما جرت هذه الحوادث تذكر دوق بورغونيا انه فرنسوي فغدر بالانكليز وعقد مع كارلوس معاهدة آراس (١٤٣٥) التي نال بمقتضاها مدائن مقاطعة السوم وكونتيني أوكسير وماكون ملكاً له لا سيادة لأحد عليهما. وفي السنة التالية فتحت

باريس أبوابها لكارلوس السابع وكانت رذائله قد تحوّلت الى فضائل فقرّب أهل الذكاء والدهاء والشجاعة وفي سنة ١٤٤٤ عقد مع الانكليز هدنة سنتين. وأخمد ثورة قام بها الشرفاء عليه تخوفاً من تعاظم سلطته.

وكانت ولايات أورليان في سنة ١٤٣٩ قد رأت وجوب تأسيس جيش مستديم وقررت لذلك مليوناً ومئتي ألف دينار فاشتد ساعد كارلوس بهذه القوة الجديدة وطهر بها فرنسا من قطاع الطرق وأرسل جانباً منها الى ولي عهده وكان يقاتل السويس ثم حالفهم لإعجابه بما رآه من بسالتهم. وعندما أتم كارلوس هذه الإصلاحات نوى أن يتخلص من الانكليز بضربة تكون قاضية عليهم فنازلهم في فورميني (١٤٥٠) ودحرهم وطردهم من غويانة فلم تبق لهم إلا كاله. وكانت هاتان المعركتان نهاية حرب المئة السنة التي نتج منها تأييد السلطة الدستورية في انكلترا والملكية المطلقة في فرنسا.

— ٥٥ —

اسبانيا وايطاليا من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٤٥٣ وذكر إهمال ملوك اسبانيا للحرب الصليبية وخصوماتهم الداخلية

لما قوي ملوك اسبانيا على المغاربة لم يتابعوا محاربتهم ليرجعوهم الى البحر ويجلوهم عن بلادهم بل أغراهم الطمع فالتفتوا الى التداخل في مسائل أوروبا. فنظر ملك نافاريا الى الشمال وزوّج ابنته لفيليب ليبل فانضمت نافاريا الى أملاك تاج فرنسا. وأراد الفونس العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢) أن ينتخب أمبراطوراً لألمانيا فأنفق مالاً كثيراً بلا جدوى وفي أثناء اشتغاله بهذا المنصب تآمر عليه جماعة من أعيان مملكته وخصومه وأقلقوا المملكة واستنجدوا بالمغاربة فاستنجد هو بهم أيضاً لقمع الثورة فخلعته الأمة وإذ كان ابنه البكر قد توفي أقامت ابنه الثاني دون سانش ملكاً

عليها (١٢٨٢) خلافاً لما كان قد قرر من كون ميراث التاج يقع الى أكبر أبنائه ثم الى أكبر أبناء وارثه وهكذا بالتسلسل واستمرت قشتالة على ما هي عليه من الاضطراب ولم يظهر بين ملوكها رجل يذكر إلا ألفونس الحادي عشر الذي غلب المغاربة في ريو سالادو وردّ بذلك الغارة الثالثة لهم على اسبانيا ولم يرتفع شأن لهذه المملكة بعد ذلك إلا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر حين تولي اليصابات وفرديناند الملقب بالكاثوليكي.

أما مملكة أراغون فإنها في هذه الأثناء ضمت اليها روسيليون وسردانيا ومونبليه وتداخلت (١٢١٣) في مسألة الألبيجوا التي قتل فيها ملكها بطرس الثاني وقبلت دخول صقليا في ولايتها بعد أن ذبح الفرنسيون فيها وفي سنة ١٤١٠ انقرضت سلالة ملوك برشلونة وانتقلت تيجانها الى أمير من كاستيليا توفي عن ولدين أحدهما ألفونس الخامس الذي تبنته يوحنة ملكة نابولي وجعلته ملكاً على جزيرتي صقليا والآخر يوحنا الثاني الذي جرّع صهره السمّ وضم نافاريا الى الأراغون تحت سلطته ثم خلفه فرديناند الكاثوليكي الذي تزوج باليصابات سنة ١٤٦٩ فتمت باقترانهما وحدة اسبانيا وعظمتها.

ولقد وجد النظام الاقطاعي في اسبانيا لذلك العهد كما وجد في سائر أوروبا ولكنه كان يختلف في قشتالة عما كان عليه في غيرها من حيث لم يكن بين الأهالي أرقاء ولم يكن بين الشرفاء والعامة انفصال تام وتباعد عظيم ولذلك قبل في مجلس نواب قشتالة مندوبون عن أهل المدائن في سنة ١١٦٩ على أن الحالة الإقطاعية كانت أشدّ استحكاماً في أراغون وأكثر انطباقاً على ما كان جارياً في سائر الأمصار الغربية.

أما البرتغال فخرجت من التابعية لقشتالة في عهد يوحنا الأول رأس آل آفيس وكان بطلاً مقداماً تولى الملك في سنة ١٣٨٣ مكان آخر سليل من آل بورغونيا الذين انقرضوا وانتصر في البوجاروتا (١٣٨٥) على القشتاليين فاستقل ببلاده ثم وجه نظر شعبه الى أفريقيا وفي سنة ١٤١٥ فتح مدينة سبتة في شمالي مراكش. وخلفه أصغر أبنائه فأقام في قرية ساغرس بقرب رأس القديس فنسان واستدعى اليها الملاحين

ورجال البحر وشيّد جمعية علمية ملاحية جغرافية ثم أطلق بحريته في المحيط فاكتشفوا بورتو سانتو وهي إحدى جزائر ماديرا سنة ١٤١٧ وغرسوا فيها الكرم وقصب السكر ثم منح البابا غفراناً عاماً لجميع الذين يسافرون في سبيل الاكتشاف من البرتغاليين وأعلن أن كل أرض جديدة تكتشف من جزائر كاناري الى الهند تكون ملكاً للبرتغال فتضاعف نشاط الملاحين وفي سنة ١٤٣٣ اجتازوا رأس بوجادور ثم الرأس الأبيض ثم الرأس الأزرق (١٤٥٠) ثم جزائر أسور. وبعد ذلك بنصف قرن اجتاز فاسكو دي غاما رأس الرجاء الصالح.

تولية كارلوس دانجو على مملكة نابولي (١٢٦٥)

عندما انفصلت ايطاليا عن السلطنة الجرمانية انقسمت الى جمهوريات كثيرة متناظرة وبقي أخو أمبراطور المانيا فريدريك الثاني ملكاً على نابولي وكان يدعى منفرد وقد قاوم البابا فاستعان عليه بكارلوس دانجو ومنحه ملك نابولي مكانه على أن يعترف بالسيادة للكرسي المقدس ويؤدي له الجزية سنوياً ويتنازل له عن مقاطعة بنيفنت (١٢٦٥). فحارب كارلوس منفرد وقتله فجاء حفيد لفريدريك الثاني من المانيا ليطالب بإرث أبيه فغلب وقتل أيضاً وبه انقرضت سلالة آل سواب (١٢٦٨) ولما استتب الأمر للمنتصر استولى على أكثر أقسام ايطاليا خلافاً لما وعد به وكان يتوهم أنه يعيد سلطنة الغرب غير أن الحرب الصليبية التونسية (١٢٧٠) التي اشترك فيها ومعارضة البابا له كفّتاه عن مقصده موقتاً فلما استأنف المسعى لإنفاذه حدثت مذبحة الفرنسويين في صقليا (١٢٨٢) وانضمت هذه الجزيرة الى بطرس الثالث ملك أراغون الذي كان من أنصار المؤامرة التي جرت فيها ثم أحرقت أساطيل كارلوس وأسر ابنه كارلوس الأعرج في معركة بحرية أخرى ثم عقدت معاهدة ١٢٨٨ وبموجبها منحت صقليا لأحد أبناء ملك أراغون ولكن البابا أعاض آل انجو عن فقد صقليا بمنحه أحدهم في سنة ١٣١٠ تاج المجر.

الجمهوريات الايطالية . وذكر الكلفيين والجيبليين

بينما كان هذا النزاع قائماً في الجنوب تخلصت الولايات الشمالية من ربقة صقليا

بعد تخلصها من الربقة الألمانية وأخذت تخبط في داخليتها وتحوّلت على أثر ذلك لمبرديا الى إمارة استبدادية وتوسكانا الى حكومة ديمقراطية والبندقية الى جمهورية أرستقراطية وهي التي السلطة العليا فيها للشرفآء ورومانيا الى حكومة امتزجت فيها الأنواع الثلاثة المتقدم ذكرها فلم تكن ذات شكل يعرف. وفي سنة ١٢٩٧ حصرت البندقية الذين يجوز انتخابهم لإدارة أحكامها في عدد معلوم من البيوتات. وبعد ذلك بمدة وضعت سجلاً سمي بالكتاب الذهبي دونت فيه أسماء أعيانها وكان ذلك منشأ ما آلت اليه هيئة حكومتها يوم مسخت بمجلس سمي مجلس العشرة وكان أعضاؤه لا يعينون إلا من أهل البيوتات المذكورة في السجل الذهبي.

وفي سنة ١٢٨٢ تأصل الروح الديمقراطي في فلورنسا الى حدّ أنها جعلت الحرف الدنيئة في مصف الفنون الجميلة ومنحت المشتغلين بهذه وتلك حقوقاً متساوية وقررت أن لا يقبل شريف في منصب إلا إذا تخلى عن نسبه ولقبه قبل ذلك ثم قسمت سكانها الى عشرين فرقة لكل منها رئيس ولجميع رؤسائها رئيس أعلى.

وهذا النظام الجديد أعجب أكثر المدائن كتوسكانا ولوك وبيزا وجنوا وغيرها فأخذته عنها إلا أنه لم ينتج فيها إلا التنافر والتخاذل وكانت جنوا تنازع بيزا على كورسيكا وسردينيا فحاربتها وهدمت بحريتها (١٢٨٤) فزحف أهل توسكانا على أملاك بيزا يقتسمونها وأما العاصمة فقاومت الحصار أشد المقاومة تحت قيادة رئيسها الشهير أوغولين ثم سلمت وهدمت. وعلى أثر هذه الحرب سادت فلورنسا على توسكانا ولكنها لم تلبث أن عدلت عن مقاتلتها وحوّلت سلاحها عنها لتتنازع في داخليتها وكان فيها حزبان الكلفيون والجيبليون يقتتلون اقتتالاً شديدا. وكان دانتي الشهير أبو اللغة الايطالية وأمير شعرائها يبكي في منفاه أسفاً للشقاق الفاشي في وطنه.

وفي سنة ١٣٤٧ قام خطيب من النواب في رومة يدعى ريانزي وحاول إعادة الجمهورية الصالحة اليها وجعل رومة الكافلة لاستقلال ايطاليا فصفق الشعب لمشروعه أولا ثم قتله ذلك الشعب نفسه بإيعاز من معتمد البابا.

رجوع البابوية الى رومة (١٣٨٧) وقيام الإمارات

رأى البابا من ثورة ١٣٤٧ دليل عدم الرضى عن انتقال الكرسي الرسولي من رومة فرجع اليها سنة ١٣٧٨ ولم يستطع مع ما كان عليه من ضعف السطوة أن يعيد السلام الى إيطاليا.

وكانت في تلك الأثناء فلورنسا مبتلاة بشقاق مستمر بين أهلها وفي سنة ١٣٧٨ عظم فيها شأن رجل يدعى ميشيل لاندو من أهل الحرف الدنيئة فجعل الحكومة بين أيدي زملائه وأمثاله.

وكانت البندقية وجنوا تتنازعان السيادة في التجارة البحرية وتتحاربان (١٣٧٨) ففازت الأولى على الثانية وهدمت عمارتها بحراً واستعبدت مدائنها براً ولكنها لم تهدمها من أساساتها كما هدم الفلورنتيون بيزا.

وفي هذه الأثناء ظهر في لمبرديا رجال مشاهير من زعماء الأحزاب انتهزوا فرصة الشقاق الواقع وأخذوا يحولون الجمهوريات الى إمارات فاستولى أحدهم وهو ماتيوفيسكونتي على ميلانو والآخر وهو كاني دي لاسكالا على فيرونه والثالث وهو كاستراكاني على لوك. وفي سنة ١٣٩٦ اشترى جان غالياس فيسكونتي من أمبراطور المانيا لقبَي دوق ميلانو وكونت بافي والسيادة على ست وعشرين مدينة لمباردية. وكان في ايطاليا لذلك العهد جماعة من الجنود المأجورين الذين لا وطنية لهم يقاتلون تحت راية كل ذي ثروة مطماع يكتريهم وكان من زعمائهم رجل أصله حراث يدعى سفورزا أتوندولو استخدمه فيليب ماري فيسكونتي في مآربه ثم زوجه ابنته ولما مات استولى سفورزا على ميلانو (١٥٤٠) وفي الوقت نفسه قام بالأمر في شمالي ايطاليا أحد المأجورين من أمثال أتوندولو. وتولى الحكم في فلورنسا تاجر غني يدعى كوسم دي مبديسيس بعد أن خلع آل البيزي.

وفي سنة ١٤٥٣ قام رجل روماني يدعى بوركارو ودعا ايطاليا الى الحرية والاستقلال فلم يرنّ لندائه صدى في جوانبها.

تبعية نابولي للأراغون

أما نابولي فكان المطالبون بسريرها كثيرين ولذلك لم تستقر هنيهة من زلازل الحروب وفي عهد البابا أوربان السادس كانت الملكة يوحنة صاحبة نابولي وكان البابا غير راضٍ عنها فاستدعى كارلوس دي دوراس ابن ملك المجر ليخلعها عن سرير نابولي وصقليا ويجلس مكانها. أما هي فقررت أن يخلفها الدوق لويس من الفرع الثاني من آل انجو فوقعت حرب بين المتناظرين انتصر فيها كارلوس سنة ١٣٨١ وأمات الملكة خنقاً تحت أفرشة وأصبح ذا شأن في ايطاليا. ولكنه قتل في بلاد المجر فعادت الفوضى الى نابولي لكثرة من تنازعها من الأمراء غير أن الفائز منهم في آخر الأمر كان ألفونس الخامس الأراغوني (١٤٤٢) وهو الذي كانت يوحنة الثانية قد تبنته.

حالة العلوم والفنون والتجارة

من العجيب أن العلوم والفنون والتجارة تقدمت تقدماً عظيماً في إيطاليا مع سوء الحالة التي كانت عليها فقد ظهر فيها جمهور من العلماء والأدباء والكتاب والشعراء. وكانت وفاة دانتي أعظم شعرائها سنة ١٣٢١ ووفاة بوكاتشيو سنة ١٣٧٥. وقصدها كثيرون من العلماء اليونانيين منهم بيزارك وخربولوراس فأكرمت وفادتهم ونشروا تآليفهم فيها. وفي ذلك الوقت شيد البابا نقولا الخامس مكتبة الفاتيكان وبنيت كنائس وأبراج وقباب وصروح كلها عجيبة الصنع في كثير من مدائن إيطاليا.

وكان للبندقية ٣٥٠٠٠ ملّاح ومعظم تجارتها مع مصر وكانت جنوا ذات تجارة واسعة في آسيا الصغرى وعلى شواطىء الدردنيل والبحر الأسود. وكانت ميلانو وفلورنسا وفيرونه مدائن صناعية ولمبردية مقاطعة زراعية ذات ترع كثيرة تروي تربتها. ومن أهم مبتكرات تلك الأيام المصارف أو البنوكة لتسهيل نقل النقود ودورانها. وفي الجملة لم يكن قطر من أقطار أوروبا يداني إيطاليا من حيث المعارف والمدنية والثروة الأهلية كما لم تكن بلاد في الغرب على مثل ما هي عليه من الانقسام والشقاق.

المانيا والدول السكندينافية والسلافية والتركية من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٢٥٣

الفترة الكبرى وذكر آل هبسبرج (١٢٧٣)

كانت أمبراطورية المانيا قد أفنت صولتها في ايطاليا ولم تستخدم شيئاً من قوتها لتأييد النظام في المانيا فلما توفي فريدريك الثاني لبثت مملكته ثلاثاً وعشرين سنة في حالة فوضى (١٢٥٥—١٢٧٣) وأبى جميع أمرائها أن يلبسوا تاجها الذي كان يلتمسه أمراء أجانب. وفي هذه المدة خلع ملوك بولونيا والمجر ودنيمرك وسادة بورغونيا طاعة الأمبراطورية وجنحت بعض المدائن الى الاستقلال وابتنى جماعة من الأشراف معاقل كانت مأوى للصوص. وتحالف صغار الأشراف ليأمنوا على أرواحهم وأملاكهم وقامت جمعية الاتحاد التجاري (هانس توتونيك سنة ١٤٢١) وكانت أعظم مراكزها في لوبك وكولوني و برونسويك ودفتسيك وأعاظم فروعها في لندرة و بورج و برجن ونوفوغورود. وكثر تحرر الأرقاء في داخلية البلاد وتجمهرهم في ضواحي المدائن. وفي سنة ١٢٧٣ انتهت هذه الحالة الفوضوية التي سميت بالفترة الكبرى وانتخب رودولف دي هبسبرج أمبراطوراً. آثره الشرفاء على سواه لفقره وضعفه فترك ايطاليا وانقطع لإصلاح شؤون المانيا فقهر ملك بوهيميا (١٢٧٨) في واكفلد لأنه أبى الاعتراف له بالسيادة واستعاد بعض ما أخلاه الأعيان من الأملاك ومنع الحروب الخصوصية بين الشرفاء واستحلف أهل الولايات الكثيرة التحرك بلزوم السكينة والسلام وأعطى ابنيه ألبيرت ورودولف ولاية دوقيات النمسا وستيريا وكارنثيا وكارنيولا.

السويسريون (١٣١٥)

وكان لآل هبسبرج أملاك في سويسرا فظلم عمالهم عليها الأهالي فاتحدت عمالات شيويتز واوري وانتروالدن في سنة ١٣٠٧ لتضع حداً لتلك المظالم فذهب البيرت

لمعاقبتها فقتل في الطريق ثم ذهب ليوبولد دوق النمسا لمثل ذلك فغلبه السويسريون في موقعة مورغارتن (١٣١٥) ومن ذلك اليوم عظمت شهرتهم العسكرية. ثم انضمت الى العمالات العاصية لوسرن وزوريخ وغلاريس وزوج وبرن (١٣٣٢—١٣٥٣).

وانتصر السويسريون بعد ذلك في معركتي ١٣٨٦ و١٣٨٨ فأيدوا بهما استقلالهم وحريتهم.

انحطاط الأمبراطورة

وتتالى بعد رودلف أمبراطرة كان الشرفاء ينتخبونهم من الفقراء الذين لا يخشى بأسهم فكانوا لا حول ولا طول لهم وكان بعضهم يتاجر تحت رايته وبعضهم خلع العذار ودنس العرش فعزل سنة ١٤٠٠ وكان اسمه ونسسلاس وخلفه سجيسمند وفي عهده عقد مجمع كونستانس لإصلاح الكنيسة وقتل البدعة التي نشأت من انتخاب بابوين في وقت معاً أحدهما في أفينيون والآخر في رومة. وعلى أثره قامت حرب الهوسيين. والهوسيون أتباع لأستاذ شهير يدعى حنا هوس كان مدرّساً في كلية براغ فقال بوجوب إصلاح درجات الكهنوت وندد في الاعتراف أن يكون من رجل لآخر وقبح عبادة الصور الخ... فأحرق سنة ١٤١٥ معاقبة له على بدعته فقام قائد متعصب له يدعى يوحنا زيسكا وجنّد أتباعاً له كثيرين وأضرم نار الفتنة في بوهيميا فاستمر القوم فيها خمس عشرة سنة يذبح بعضهم بعضاً من أجل المذاهب. وإذ توفي سيجسمند (١٤٣٨) عاد آل هبسبرج الى تولي الملك فاستقرّ لهم الى سنة ١٨٠٦ ولكن في بوهيميا والنمسا أما المانيا فانفصلت في سنة ١٤٣٩ على أثر مقتل الأمبراطور أليبرت الثاني في حرب مع الأتراك. وقام على عرش المانيا فريدريك من فرع ستيريا وهو آخر أمبراطور ألماني توّج في رومة (١٤٥٢) وكان هذا المنصب في ذلك الوقت اسماً مجرداً ليس لصاحبه دخل ولا جنود ولا سلطة قضائية ولا سطوة لدى مجلس النواب. وكان أعضاء هذا المجلس ثلاث فرق وهي: فرقة المنتخبين للامبراطور وفرقة الأمراء وفرقة المندوبين عن المدن. وكان الحكم الحقيقي لهذا المجلس غير أنه كان بذاته كالعدم لانقسام المملكة الى أربعمائة ولاية وعمالة.

وكانت النمسا لذلك العهد حصن أوروبا الدافع عنها غارات المسلمين وفي حكم سيجيسمند انضمت الى المانيا ثم انفصلت عنها في حكم واديسلاس الذي استظهر العثمانيون عليه في وارنة (١٤٤٤).

اتحاد كلمار (١٣٩٧)

كانت في اسكندنافيا ثلاث ممالك: الدنيمرك وأسوج ونروج ومنها خرج النورثمان الوثنيون وتنصر أهلها في القرنين العاشر والحادي عشر. أما الدانيمرك فعظمت صولتها في عهد كانوت الكبير الذي ملك عليها وعلى انكلترا ثم في عهد أخويه كانوت السادس ووالديمير المنتصر (١١٨٢ — ١٢٤١) اللذين فتحا هولستين ونوردالنجيه. وكانت لوالديمير أموال كثيرة وبحرية عظيمة وجيش جرار. وأما أسوج فلم يكبر شأنها إلا في عهد آل فولنج الذين شيدوا ستوكهولم قاعدة لها (١٢٥٤) وأما نروج فأقامت في اضطراب وفتن الى أن أصبحت ملكيتها وراثية سنة ١٢٦٣ بعد أن كانت انتخابية.

وفي سنة ١٤٩٧ عقد بين هذه الممالك الثلاث في عهد مرغريته بنت ملك الدنيمارك اتحاد كلمار وتقرر فيه أن تتحد جميعاً على الدوام تحت ملك واحد وأن تكون مع ذلك كل منها ذات استقلال ذاتي أساسه احتفاظها بدستورها ونظامها القضائي ومجلس شيوخها ولكنّ هذا الإرتباط الجليل الفوائد لم يلبث أن انفكّ فإنه ضعف بعد وفاة الملكة المعروفة بسميراميس الشمالية (١٤٢٢) بسبب عصيان أهل سلسفيج وهولستين ثم خرج معه الأسوجيون سنة ١٤٤٨ وأقاموا ملكاً عليهم.

بولونيا

إن الأقطار السلافية بين البلطيق والبحر الأسود لا يعرف شيء مذكور من تاريخها قبل القرن التاسع. وغاية ما هو معلوم أن جماعة البولونيين القاطنين على ضفاف نهر الفيستول قام منهم رجل يدعى بياست دوقاً عليهم وكان على رأس سلالة توارثت منصبه تحت سيادة المانيا الى أن ظهر منها رجل يدعى بولسلاس الأول الملقب بالشجاع (٩٢٩) فأخرج بلاده من كنف السيادة الألمانية ولقب نفسه

ملكاً عليها ثم جاء بعده بولسلاس الثالث (١١٠٢ — ١١٣٨) فأخضع البوميرانيين وعقيب وفاته انفصلت سيلازيا عن المملكة ودعي الهيكليون لمحاربة البروسيين الوثنيين وتنصيرهم على ما رأيناه قبلاً فأنشأوا بين نهري الفيستول والنيامن دولة جديدة لم تلبث أن أصبحت عدوة لبولونيا وسلبتها بوميرللي ودانتزك (١٣٤٣) فلما جلس كازيمير الكبير على سرير بولونيا أعاضها عما فقدته بافتتاحه لها روسيا الحمراء ووالهينيا وبادوليا الى نهر الدنيابر. وفي سنة ١٣٨٦ انتخب جاجلون غرندون ليتوانيا ملكاً على بولونيا فجعلها ذات الصولة العظمى في أوروبا الشرقية واستولى (١٤١٠) على كثير من البلاد التي كانت للهيكليين الى أن حصر هؤلاء الكهنة المحاربين في بروسيا الشرقية بموجب معاهدة تورن سنة ١٤٦٦.

المغول ببلاد الروس

ولم تكن روسيا في ذلك الوقت شيئاً ذا بال فقد رأينا أن قرصاناً من النورثمان ذهبوا الى مدينة نوفوغورود الحصينة بقيادة زعيمهم رودريك وتجندوا لخدمتها في أول الأمر ثم سادوا عليها (٨٦٢). ومن ذلك الحين أخذوا يتقدمون قليلاً قليلاً الى أن اجتازوا الدنيابر قاصدين القسطنطينية طلباً للخدمة والمكاسب فيها وفي طريقهم أخذوا كييف وفي القرن الحادي عشر أصبحت غرندوقية كييف دولة مخشياً بأسها ثم في القرن الثاني عشر انتقلت السيادة منها الى غرندوقية والديمير وفي القرن الذي تلاه أغار مغول جانكيزخان على روسيا وقتلوا في موقعة واحدة ستة من أمرائها (١٢٢٣). وفي سنة ١٢٣٧ فتح باتو مدينة موسكو وتقدم الى نوفوغورود وكانت غرندوقية كييف قد زالت وغرندوقية والديمير تؤدي الجزية. ولما استتم المغول فتح روسيا أغاروا على بولونيا وسيلازيا ومورافيا والمجر فقهروا الجيوش ودمروا البلاد ثم اجتازوا الدانوب ووقع رعبهم في قلب أوروبا كلها غير أنهم لم يلبثوا أن وقفوا أمام جبال بوهيميا والنمسا وبقيت روسيا تحت نيرهم مدة قرنين.

فتح الأتراك للقسطنطينية (١٤٥٣)

رأينا فيما سبق أن الأتراك في خلال المدة التي أوردنا حوادثها قد هبطوا من جبال

الذهب وأغاروا على الهند والفرس وسوريا وآسيا الصغرى وان السلطان عثمان زعيم احدى قبائلهم الصغيرة فتح بورصه (١٣٢٥) وأسس الدولة العلية وان أورخان فتح نيوسيديا ونيقا وغاليبولي ومراداً الأول أحدث جيش الانكشارية فجعلهم كالرهبان المجندين واستولى على أدرنة تمهيداً لفتح القسطنطينية وانتصر على السرب والبوسنة والألبان وقتل في موقعة قوصرة (١٣٨٩) وان بايزيد الأول أخضع مقدونيا والبلغار وضرب الجزية على الافلاخ ونكل بتجريدة صليبية في موقعة نيكوبوليس (١٣٩٦) ثم نازل تيمورلنك فدارت الدائرة على بايزيد في معركة عين صيره وأسر (١٤٠٢) وأن مراداً الثاني حاصر القسطنطينية فردّ عنها مغلوباً وحارب اسكندر بك في ألبانيا فتولاه الفشل ثم ظهر على أعدائه في موقعة وارنه فقتل فيها فلاديسلاس ملك المجر (١٤٤٤) وأن محمداً الثاني لما رأى المجر والهون والأقوام المجاورة لهم يحولون دون نفوذ الترك الى أوربا عزم على فتح القسطنطينية ليسقط هذا الحاجز بينه وبين الغرب فحاصرها ودخلها عنوة وأزال بزوالها آخر أثر حي للسلطنة الرومانية سنة ٤٥٣ وبهذه الحادثة العظيمة كان ختام القرون المتوسطة وافتتاح الزمن الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بالاعصار الحديثة.

تاريخ الأمصار الحديثة

— ٥٧ —

اتساع سلطة الملوك بفرنسا (١٤٥٣—١٤٩٤)

إن أهم أقسام التاريخ الحديث (١٤٥٣—١٧٨٩) هي الآتية :

انضمام السلطة بعد انشعابها وانحصارها في الملوك والحكومات عقيب تفرعها أجزاء شبيهة بالمستقلة على الاقطاعات الكبيرة والمراكز القائمة بذاتها.

الانقلاب السياسي الذي نشأت عنه حروب ايطاليا والمناظرة المستمرة بين فرنسا والنمسا.

بعثة الفنون والصنائع والعلوم والآداب.

الانقلاب الاقتصادي الناجم عن اكتشاف العالم الجديد وممر الهند وهو الذي انتقلت الثروة معه الى أهل الحرف والمتاجر.

الانقلاب الديني المحدث له اصلاح لوثير والحروب التي أثارتها الرفضية.

الانقلاب الفلسفي الناشىء عن تعاليم باكون وديكارت وعلماء القرن الثامن عشر مما تولدت منه الثورة السياسية العظمى في أوائل هذه الأزمان.

لويس الحادي عشر (١٤٦١—١٤٨٣) وذكر عصابة الخير العام (١٤٥٦)

كان كارلوس السابع عندما أنقذ البلاد من احتلال الانكليز قد أنقذها أيضاً من سطوة بعض الشرفاء المفسدين المارقين ونفى ولي عهده لدخوله في مؤامرات أريد بها إسقاطه فلجأ الى دوق بورغونيا وأقام عنده الى أن خلف أباه في سنة ١٤٦١ .

وظن الشرفاء أن أحسن أيامهم تعود في عهد هذا الملك وسرعان ما أخلف ظنهم فإنه منذ تولى عزل أكثر أرباب المناصب التي وضعهم أبوه فيها ورفع الضريبة الدائمة من مليون و ٨٠٠ ألف دينار الى ثلاثة ملايين وحظر على كلية باريس أن تتداخل في شؤون الملك والمدينة ووضع برلماناً لمدينة بوردو ومنحه اختصاصات كثيرة انتزعها من برلماني باريس وتولوز واسترجع بعض المقاطعات بالشراء وغيره من الطرائق وأغضب الاكليروس والشرفاء بشدته فتآمر عليه نحو ٥٠٠ من الأعيان تحت رئاسة كارلوس الملقب بالجسور وسموا جمعيتهم بعصابة الخير العام فرأى أن الأمر جلل ولم يكن على ما يجب من البسالة لمقاومة القوة بالقوة فاستعمل الدهاء وبه سلم. وأول ما فعله انه دفع عن باريس هجمة أحد النبلاء ثم عقد معاهدتي كونغلان وسانمور (١٤٦٥) وبموجبها أعطى المعتصبين كل ما سألوه .

ملتقى بيرونة (١٤٦٨)

ولما رجع المتحالفون الى منازلهم أخذ لويس يفكر في استرجاع ما منحهم وعلى الخصوص نورمنديا ثم لم يلبث أن استولى على هذه المقاطعة ولم يعارضه كبار الشرفاء لأنه شغل كارلوس الجسور بحروب داخلية في دوقية بورغونيا ورشا الآخرين بعضهم بالمال وبعضهم بالمناصب .

وكان أخو الملك من نصراء كارلوس فاستصدر لويس قراراً من النواب في مدينة تور (١٤٦٨) بأن أخا الملك يكفيه اثنا عشر ألف دينار دخلاً سنوياً وبهذه الوسيلة حرم أخاه ولايته فهب كارلوس لمعارضة هذا القرار ودعا الشرفاء ثانية الى الثورة واستنجد بملك انكلترا . أما لويس فالتقى بجيش لدوق بريتانيا فنكل به ثم علم باستعداد ملك انكلترا للهجوم على فرنسا فذهب الى بيرونة لمصالحة كارلوس فاعتقله

الجسور في برجها ولم يخرجه منه الا وقد منح أخاه (أي أخا الملك) ولاية شمبانيا ووعد كارلوس بأن يسير معه لمحاصرة مدينة لياج التي كانت قد ثارت عليه عملاً بإيعاز لويس نفسه.

وكانت هذه المعاهدة آخر غلطات لويس فإنه بعد ذلك أقطع أخاه غويانة عوضاً عن شمبانيا ثم عقد اجتماعاً آخر للنواب في تور واستصدر منهم قراراً بنسخ معاهدة بيرونه وكان قد أعدّ مئة ألف مقاتل وعدداً كبيرا من المدافع لمقابلة كارلوس بها (١٤٧١) ولكن أخا الملك دوق غويانة توفي في السنة التالية ففقد به الجسور أشد أعوانه ولذلك اتهم الملك علناً بأنه سمّ أخاه وأقام الحرب عليه غير انه انكسر أمام مدينة بوفاي وارتد على أعقابه فوقع على هدنة سنليس. ثم صرف همه لفتح ألمانيا واللورين وسويسرا لجعلها مملكة واحدة فانتصر في المواقع الأولى ثم دارت عليه الدائرة أمام مدينة نوس في بروسيا الرينية. وفي تلك الأثناء كان ملك انكلترا قد أنزل جنوده على شواطىء فرنسا وإذ لم يجد ما وعده به كارلوس من النجدات عقد مع لويس الحادي عشر معاهدة بكيني ورجع الى جزيرته بمال كثير أخذه رشوة (١٤٧٥). أما كارلوس فعقد هدنة ثانية مع لويس ليتم في أثنائها مقصده الكبير غير أن السويسريين غلبوه أمام غرانسوم (١٤٧٦) فرجع الى اللورين وكانت قد ثارت عليه فقتل تحت أسوار نانسي (١٤٧٧).

انضمام الولايات الاقطاعية الكبرى الى أملاك التاج

لما تخلص الملك من هذا العدو اللدود الشديد أخذ يسعى في ضم الولايات الاقطاعية الكبرى الى أملاك التاج فحارب لذلك بعض الشرفاء وحاكم وقتل الآخرين. غير أنه لم يصبه إلا قسم من تركة كارلوس الجسور لأن وارثة بورغونيا تزوجت خوفاً منه بالأرشيدوق مكسيميليان فحاربه لويس وأخذ منه بورغونيا وبيكارديا وارتوا وفرانش كونته (١٤٨٢) وكان قبيل ذلك قد ورث أملاك آل انجو وبلغت جملة ما استولى عليه نحو ١٤ ولاية وعملا.

إدارة لويس الحادي عشر

هو الذي جعل القضاة غير قابلين للعزل وسير البريد وأحدث برلمانات غرينوبل وبوردو وديجون وأمن الطرق وضاعف عدد الأسواق العامة وشيد أول المعامل الحريرية وأيد صناعة تعدين المعادن وفكر في توحيد الموازين والمكاييل بفرنسا وقرب العلماء وأسس كليتي كاين وبزانسون وأدخل الطباعة في البلاد وفي الجملة كان في الحقيقة ملكاً.

كارلوس الثامن (١٤٨٣)

ولما قبض الى ربه خلفه كارلوس الثامن في الثالثة عشرة من عمره وكان ضعيف الجسم والعقل فتولت الوصاية عليه أخته البكر حنة دي بوجو وأحسنت السياسة بما عندها من الحزم والدهاء. وفي مدة وصايتها ثار الكبراء واضطروها أن تعقد جمعية النواب ظناً منهم أن هذه الجمعية تعيد اليهم ما فقدوه وتضعف السلطة الملكية فخاب ظنهم لأن النواب قرروا إصلاح بعض الخلل الواقع وأعلنوا أن الملك راشد وخولوا أخته مساعدته على إدارة الشؤون. فتواطأ دوق أورليان ودوق بريتانيا والأرشيدوق مكسيميليان على إسقاط الملك فدحرتهم جنود حنة (١٤٨٨) وأسرت دوق أورليان. ثم وقع نزاع على تركة دوق بريتانيا فزوجت حنة كارلوس من وارثة هذه التركة تمهيداً لإضافتها الى أملاك التاج (١٤٩١) غير أن نكد الطالع أراد أن يخطر لهذا الملك خاطر الغزوات البعيدة فخرج من وصاية أخته وعقد ثلاث محالفات أفقد بها فرنسا ثلاثة من تخومها ليستتب بذلك الأمن في داخلها ويتمكن هو من الجري وراء وهم عظيم الخطر خامر فكره الضعيف.

— ٥٨ —

اتساع سلطة الملوك بانكلترا

ذكر حرب الوردتين

هنري الرابع (١٤٢٢) وريكاردوس ديورك (١٤٥٤)

كان هنري الرابع من آل لانكاستر سلالة الأمير الثالث من ابناء ادوارد الثالث وقد اغتصب الملك اغتصاباً مع أن الأحقية به من حيث النسب لآل يورك. ومن أجل ذلك وقعت حرب بين الاسرتين دعيت بحرب الوردتين نسبة الى الوردة البيضاء التي كانت رمز آل يورك والوردة الحمراء التي كانت علامة آل لانكاستر ولما انقضى أجل هذا الملك خلفه هنري الخامس الذي شرف ذكره بفتوحاته في فرنسا ثم خلفه هنري السادس وفي عهده انجلى الانكليز عنها فحنق الانكليز عليه من أجل ذلك ولا سيما عندما عقد هدنة سنة ١٤٤٤ وتزوّج بمرغريته دانجو. فظن دوق يورك أن تلك فرصة ينتهزها لخلعه وأخذ يدس له الدسائس فمنها أنه حمل مجلس النواب على اتهام الوزير سونوك المقرب الى الملك ببعض الجرائم ففرّ بحراً فسير في أثره مركباً وقبض عليه بحارته وقتلوه. ومنها أنه حمل أحد الايرلنديين وهو جوهن كاد على حشد ستين ألف مقاتل من كونتية كنت فنهب بهم لندره عدة أيام ولكنه لم يلبث أن أخذ أيضاً وقتل (١٤٥٩).

واتفق أن أصابت الملك نوبة شديدة من مرض به فاحتال دوق يورك وتقلد منصب الحافظ للملك (١٤٥٤) فلما شفي هذا أراد عزله فحمل عليه السلاح واستعان بأكابر الشرفاء ومنهم واروبك الشهير باسم «صانع الملوك» وكان لعظم ثروته يستطيع أن يعول في أملاكه ثلاثين ألف مقاتل فانتصر ريكاردوس ديورك على الملك في موقعة سنت البان (١٤٥٥) وأسره وتقلد ثانية منصب الحافظ ثم دحر جنود

الملك في موقعة أخرى بنورثمبتون (١٤٦٠) وتلقب بولي العهد الشرعي للمملكة ، فاحتجت مرغريته على هذا القرار الذاهب بحقوق ابنها ومنحت الاسكتلنديين حصن برويك فأنجدوها بالرجال فقاتلت بهم ريكاردوس ديورك في معركة واكفلد فقتل ثم عرض رأسه على الأسوار وجعل عليه تاج من ورق (١٤٦٠) وعلى أثر هذه الحادثة قتل أصغر أبنائه ومن ذلك الوقت أخذ كل منتصر من الحزبين يقتل الأسرى ويستبيح المغلوبين نهباً وموتاً .

ادوارد الرابع (١٤٦٠)

فانتقم لريكاردوس ابنه الأكبر بأن حمل أهل لندرة على المناداة به ملكاً وسمي ادوارد الرابع . وكان اللانكاستريون قد انتصروا ثانية في سنت البان غير أنهم لم يلبثوا أن انكسروا في السنة نفسها (١٤٦١) فلجأت مرغريته الى فرنسا فانجدها لويس الحادي عشر بألفي عسكري على أن ترد له كاله إذا فازت غير أنها غلبت أيضاً في موقعة اكسهام (١٤٦٣) فعادت الى فرنسا وبقي زوجها هنري السادس أسيراً في برج لندره سبع سنين بعد أن اعتقل فيه وأخرج منه مرتين.

على أن ادوارد الرابع أغضب ببعض أعماله وارويك فحمل عليه وكسره في نوتنجهام (١٤٧٠) واعاد هنري السادس ففر ادوارد الى هولنده. ولكن هنري اساء التصرف وجار جوراً ثقيلاً على الناس فاغضبهم ثم لم يدر الا وقد عاد ادوارد بجيش صغير اعانه على جمعه كارلوس الجسور فتغلب على وارويك وقتله بقرب بارنت (١٤٧١) وكسر جيش مرغريته في فيوكسبري فاسرها وذبح البرنس دي غال وكان هنري السادس قد مات فخلا العرش له من كل منازع وساد حزبه على حزب اللانكاستريين الذين ضعفوا لكثرة من قتلوا ونهبوا منهم ولم يفعل أدوارد بعد هذه الحرب شيئاً يذكر سوى أنه حمل على فرنسا حملة انتهت بعقد معاهدة بيكيني (١٤٧٥) وفي سنة ١٨٧٤ حاكم أخاه دوق كلارنس واماته ثم توفي على أثر انهماكه في الشهوات وكانت وفاته سنة ١٤٨٣ .

ريكاردوس الثالث (١٤٨٣)

وترك أدوارد أولاداً قصرا فاحتبسهم أخوه دوق غلوسستر في برج لندره ثم أماتهم واغتصب السرير فوقع من جرآء ذلك الجزع في قلوب اليوركيين فثار بوكنجهام على الملك ودعا لامتطاء السرير هنري تيدور الغالي كونت ريشموند وآخر سليل من الأمومة لآل لانكاستر فنزل في بلاد الغال وتغلب في بوسورث على ريكاردوس الثالث الذي قتل في اثناء المعركة (١٤٨٥).

هنري السابع (١٤٨٥)

وخلفه على الملك هنري السابع فألف بين الوردتين اذ تزوج بوارثة آل يورك ابنة أدوارد الرابع وهو رأس آل تودور الذين توارثوا الملك مئة وست سنين الى أن خلفهم آل ستيوارت.

وفي عهد هذا الملك وعلى يده تم الاستبداد الملكي بالسلطة في انكلترا فانه عندما ولي كان قد قتل نحو ثمانين أميراً من ذوي النسب الى الأسرة المالكة وادخل خمس اراضي المملكة في املاك التاج. وقد حذر هنري السابع كل الحذر من جمع مجلس النواب فلم يدعه الاّ في النادر وكان للاستغناء عنه يستورد الأموال التي يحتاج اليها تارة بطريق القرض الاكراهي وأخرى بنفي جماعة من الموسرين ومصادرة ثروتهم. وهو الذي حظر على الشرفاء استخدام عدد كبير من الاجراء والحشم لتمتنع بذلك أسباب الفتن والثورات وحظر عليهم بيع الاراضي «الشريفة» وتقسيمها. ومن مآثره أنه رقى التجارة والصناعة بما عقد من المعاهدات وزاد عدد السفن وبذل كثيراً من المال للاسفار الاكتشافية. وقد زوج ابنته مرغريته بملك اسكتلنده جاك السادس تمهيداً لضم هذه المملكة الى انكلترا. ومن هذا الاقتران نشأت حقوق آل ستيوارت بتاج انكلترا الذي تتوجوا به سنة ١٦٠٣. ثم أنه زوج ابنه الأكبر وبعده ابنه الثاني بكاترينه داراغون ابنة فردينند، ملك اسبانيا.

— ٥٩ —

نجاح الملكية باسبانيا

«تزويج فرديننـد الاراغوني من اليصابات القشتالية (١٤٦٩)»

رأينا فيما تقدم من تاريخ اسبانيا انكفاف ملوكها المسيحيين عن محاربة المغاربة واشتغالهم بالمسائل الاوروبية التي خرجوا منها مستضعفين.

وكان في الزمن الذي وصلنا اليه من تاريخهم يوحنا الثاني ملك أراغون قد قتل ابنه كارلوس بالسم (١٤٦١) لمنازعته له في ملك نافاريا فثار عليه الكاتاليون ولم يعودوا الى طاعته إلا بعد إحدى عشرة سنة (١٤٧٢). وكذلك كان هنري السادس ملك قشتالة قد أثار قومه باستسلامه لرجل دنيء من مقربيه يدعى برتران فأعلنوا خلعه في سهل أفيلا (١٤٦٥) وأقاموا مكانه أخاه دون ألفونس فتوفي سنة ١٤٦٧ فأعادوا هنري السادس على أن يولي عهده لشقيقته اليصابات لا لابنته (١٤٦٨) وكانت اليصابات مع كثرة خاطبيها قد اختارت فردينند ولي عهد أراغون وتزوجت به سراً (١٤٦٩) وعقدت معه اتفاقاً على أنها تستقل عنه في إدارة شؤون قشتالة. ولما توفي الملك هنري جلست على عرشه وتغلبت على ملك البورتغال الذي نازعها الملك (١٤٧٦).

وبعد ذلك بثلاث سنين استوى زوجها فردينند على سرير أراغون.

فتح مملكة غرناطة (١٤٩٢)

ومن هذا العهد وجدت اسبانيا وجوداً حقيقياً وصرف فردينند همه ودهاءه واليصابات ذكاءها وحكمتها الى تأسيس الوحدة الوطنية وتعزيز الملكية وأعظم ما فعلاه أنهما فتحا غرناطة (١٤٩٢) وأذنا لسكانها وكانوا ينيفون على ٢٠٠.٠٠٠ نفس بالاقامة في البلاد محتفظين بشرائعهم وأملاكهم ودينهم.

محكمة التفتيش

وعلى أثر هذا الفتح وجد في أسبانيا اختلاط عجيب من المسلمين واليهود والمسيحيين فرأى الملك والملكة أن يوحدا دين هؤلاء الأقوام فأسسا المحكمة الفظيعة الملقبة بالمقدسة وبثا الجواسيس أو «المفتشين» في أطراف البلاد فبعث المفتشون الى التعذيب في اشبيلية وحدها من يناير الى نوفمبر سنة ١٤٨١ مئتين و٩٨ مسيحياً مستجداً اتهموا بأنهم يدينون بدين اليهود سراً وأصاب مثل ذلك ألفين في بلاد قادس واشبيلية.

وفي سنة ١٤٩٩ استصدر المفتشون أمراً بنفي اليهود وسلبوا المغاربة الحرية الدينية التي منحوها بمقتضى معاهدة غرناطة. واشتهر عن رئيس المفتشين انه أمر وحده بإحراق ثمانية آلاف وثماني مئة نفس بالنار وكفى بهذا دليلاً على شدة المنكرات التي ارتكبت.

وكان الملك رئيس هذه المحكمة الشنعاء وإليه تؤول أملاك المحكوم عليهم وأموالهم. فهو بهذه الوسيلة أصبح صاحب صولتين عظيمتين حسية ومعنوية. وزاد على ذلك أنه جعل نفسه رئيساً لثلاث رهبنات قوية وحامياً لجمعية الإخاء المقدس التي أعانته على فتح غرناطة وكانت قد تألفت منذ سنة ١٢٦٠ لإضعاف شوكة الشرفاء. وفي سنة واحدة دمر فردينند ستة وأربعين من حصون غاليسيا ومعاقلها وأرسل مندوبين الى جميع الولايات لسماع شكايات الشعوب وإرهاب الكبراء فتم له بذلك الاستبداد المطلق.

وعند وفاة اليصابات (١٥٠٤) أصبح فردينند وكيلاً على قشتالة وكان صاحب أراغون وصقليا ونابولي ونافاريا وروسيليون وأمريكا التي اكتشفها له خريستوف كولومبوس سنة ١٤٩٣ وقد أضاف ولي عهده كارلوس الكبير بلاد النمسا وهولندة وفرانش كونته الى هذه الأملاك الواسعة حين ورثها في سنة ١٥١٦.

وعند جلوس هذا الملك على السرير تألفت عصابة من الشعب سميت بالعصابة المقدسة فطلبت مطالب كثيرة لإصلاح حال العامة وفي جملتها إلغاء ما أعفي منه

الشرفاء من العوائد والضرائب فغضب الشرفاء لهذا الطلب ولم ينضموا الى العصابة لمقاومة نفوذ الملكية بل تألبوا حول الملك وكسروا شوكة العصابة وقتلوا زعيمها شنقاً (١٥٢١) فنتج من ذلك أن الملك فاز على الشعب كفوزه على الشرفاء من قبل ولم يبق في البلاد حائل يحول دون إرادة له.

نجاح الملكية بالبرتغال

حدث في البرتغال مثل الانقلاب الذي حدث في أسبانيا فإن ملكها يوحنا الثاني (١٤٨١) ألغى كثيراً من امتيازات الشرفاء وأمات دوق براغانس شنقاً (١٤٨٣) وقتل بيده دوق فيزو ثم ترك لابنه عمنويل الملقب بالسعد (١٤٩٥) سلطاناً مطلقاً على البلاد والعباد. وحكم هذا الملك عشرين سنة لم يعقد في خلالها مجلس النواب مرة واحدة. وفي عهده اكتشف رأس الرجاء الصالح وطريق الهند. وفي الجملة فقد سادت الملكية المطلقة في جميع أوروبا الغربية وكان ذلك إنذاراً بحروب أقامتها مطامع الملوك بعد ذلك على أوروبا الوسطى لاستمرارها على ما كانت عليه من الانقسام والضعف.

— ٦٠ —

المانيا وايطاليا من سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٤٩٤ وذكر فريدريك الثالث (١٤٤٠) ومكسيميليان (١٤٩٣)

تزوج مكسيميليان من ماري دي بورغونيا

عرفنا فيما سبق أن تاج المانيا وقع لآل هبسبرج ثانية (١٤٣٨) ولكن السلطة الامبراطورية كانت قد أصبحت وهماً من الأوهام ولم يكن الأمبراطور فريدريك الثالث ممن يرجى أو يخشى منهم الخروج من مثل هذه الحالة فأقام في السرير ثلاثاً وخمسين سنة لم يقم فيها بعمل يذكر سوى أنه حارب المجر حرباً عادت عليه بالفشل وزوج ابنه مكسيميليان بماري دي بورغونيا ابنة كارلوس الجسور ووارثة هولندة فلما

خلفه ابنه هذا (١٤٩٣) رأى أن يعيد الأمن العام الى المانيا فاستصدر من النواب أمراً يحظر على الأمراء أن يتحاربوا ومن خالف عوقب بالإسقاط من إمارته وقسم البلاد الى عشر دوائر ونصب في كل دائرة حاكماً عسكرياً لحفظ الأمن. فاجتمع المنتخبون السبعة (١٥٠٢) وعقدوا فيما بينهم تحالفاً على أن يجتمعوا في كل سنة للنظر فيما يؤيد استقلالهم ويدفع عنهم مطامع الأمبراطور. وفي هذه الأثناء اتحدت بعض المدائن وألفت شركة الهانس العظيمة ولكن لغاية تجارية محضة فكبر شأنها واتسع نطاق أعمالها حتى شمل جميع المدائن القائمة على ضفاف الرين وفي سواحل المانيا وأكثر مدائن هولندة وفرنسا وانكلترا وروسيا.

ولم يكن لمكسيميليان في خارج بلاده عمل يذكر سوى أنه استزاد على هولندة التي أخذها مهراً من امرأته مقاطعتي أرتوا وفرانش كونته بمقتضى معاهدة سانليس (١٤٩٣) التي عقدها معه كارلوس الثامن ملك فرنسا ليتفرغ لمحاربة ايطاليا ثم انه تداخل عن حمق وجهل في حروب ايطاليا وأهم ما جرى في عهده انه زوج ابنه فيليب الجميل دوق النمسا بجنة الملقبة بالمجنونة ابنة إليصابات وفردينند فكان مهرها ملك اسبانيا ونابولي وأمريكا.

وتوفي مكسيميليان (١٥١٩) في أثناء حصول الفتن الأولى الناشئة عن الإصلاح المذهبي.

ايطاليا في نحو سنة ١٤٥٣
وذكر قيام الإمارات مكان الجمهوريات فيها

بعد أن تحولت أكثر جمهوريات ايطاليا الى إمارات وقعت في أيدي ظلمة مستبدين فكان في ميلانو فرنسوا سفورزا الذي خلف آل فيسكونتي سنة ١٤٥٠ ثم خلفه ابنه فقتله الكبراء (١٤٧٦) فخلفه حفيده يوحنا غالياس القاصر وأقيم عليه وصياً عمه لودوفيك ليمور فطمع في الإمارة لنفسه واستعان بالفرنسويين على ذلك فانتشبت بسببه حروب ايطاليا التي جاءت وبالاً عليها وكانت جنوا تابعة لدوق ميلانو وذلك أن أهلها عندما سئموا من كثرة التحزب والشقاق فيما بينهم عرضوا على

لويس الحادي عشر أن يكون صاحب الأمر عليهم فأبى وأتبعهم للدوقية المشار اليها. على أنهم كانوا من أغنى سكان أوروبا وكان لهم وكلاء وعملاء في جميع مراكز العالم التجارية.

وكانت البندقية ذات الصولة الأولى في شمال ايطاليا. وكانت أقرب الى الملكية منها الى الجمهورية إذ كان يحكمها منذ سنة ١٤٥٤ ثلاثة مفتشين يراقب بعضهم لبعض ويحاكمون الناس بناء على وشايات الواشين وبلاغات الجواسيس.

ولما سلبها الأتراك ما كان لها من الأملاك في الشرق رضيت بحمل الجزية اليهم. لتعيش بسلام وتسلم تجارتها وافتتحت أربع ولايات جديدة لتستعيض بها عما فقدته فهالت عظمة ثروتها واتساع أملاكها الأمراء المجاورين لها فتحالفوا عليها فكسرتهم وخرقت تحريم البابا لها بسبب موادعتها الأتراك.

وكانت فلورنسا تحت حكم آل مديسيس الذين خلعوا آل البيزي عن الإمارة وتولوها. وأولهم كوم دي مديسيس. كان تاجراً صاحب ثروة جسيمة وأكثر أهل المدينة مدينون له. فلما حكم في فلورنسا بقي الى سنة ١٤٦٤ لم يتخذ لقباً وأنفق من ماله ٣٢ مليوناً على تشييد القصور والمكاتب والمستشفيات وتعزيز التجارة والصناعة والفنون فدعي بأبي الوطن. غير أن الشرفاء لم يلبثوا أن ثاروا على خلفه جوليان بدعوى أنه استبد بالبلاد (١٤٧٨) فقتلوه في الكنيسة وأماتوا ذويه. إلا أن أخاه لوران دي مديسيس فرّ من يد معتقليه وقبض على أزمة الحكم فانتقم من أعدائه انتقاماً شديداً وشنق أحد الأساقفة وهو في ملابس الصلاة على إحدى نوافذ القصر.

وكان لوران هذا أشهر أمراء مديسيس فإنه أكرم العلماء والأدباء وأرباب الصنائع وشيّد الأبنية الجميلة وفي سنة ١٤٩٠ أشرف على الافلاس لكثرة ما أنفقه من المال فوفت الجمهورية ديونه وأفلست لأجله. وخلفه بطرس الثاني فقام في عهده حزب عظيم من الشعب يطلب الحرية الدستورية وكان زعيم هذا الحزب يدعو الى تطهير أخلاق الاكليروس والرجوع الى النظامات القديمة وكان يقول «يا ايطاليا. يا رومة. توبي الى الله فإن الأجانب سيهبطون عليك ويفترسونك كالأسود الضارية»

ولكن من كان يستطيع دفع مصيبة الحروب ودخول الأجانب للبلاد في حين كان البابوات عاراً على الكرسي والكنيسة. منهم سكستوس الرابع الذي اشترك في مؤامرة بازي ليجلس ابن أخيه جيروم ريارو على تخت إمارة ومنهم اسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢) الذي انتخب بطريقة غير شرعية وركب في حكمه أنواع المحارم والفاحشة والمظالم والخيانات وسفك الدماء وقتل الأبرياء بالسم والخنجر. وتوفي عن ابن له يدعى قيصر بورجيا وصل الى درجة الكردينال وكان جامعاً لرذائل أبيه. أما نابولي فقد حكم فيها ألفونس الملقب بالعزيز النفس الى سنة ١٤٥٨ ثم خلفه فردينند فظلم واستبد فثار عليه بارونيته فجاملهم وأغراهم بالمواعيد ثم دعاهم الى مأدبة فذبحهم. وكان نصيب الشعب من معاملته كنصيب الشرفاء فإنه كان يحملهم من المغارم والضرائب والمظالم ما لا يطيقون. وفي عهده أخذ الأتراك أوترنته والبنادقة غاليبولي وبوليكاستر فلم يحرك ساكناً ولذلك كله كان بغيضاً على الشعب حتى أنه عندما فتح كارلوس الثامن هذه المملكة لم يقاومه أحد فيها.

— ٦١ —

الدولة العلية من سنة ١٤٨١ الى سنة ١٧٩٢

السلطان بايزيد الثاني (٤٨١—١٥١٢)

خلف هذا السلطان أباه محمداً الثاني وكان أديباً محباً للسلم لم يحارب أحياناً إلا لقمع ثورة أو دفع عدو أو سد مطمع للانكشارية وقد ثار عليه أخوه الأمير جم فوفق في أول أمره واستقل بجانب من السلطنة وجعل عاصمته بروسه ثم دارت الدائرة عليه فلجأ الى مصر ثم استأنف الكرة مستعيناً بقاسم بك أمير قرمان فدحر ثانية وفرّ من وجه أخيه الى رودس فمنعه فرسانها من الخروج منها إجابة لطلب السلطان ثم أرسلوه الى بلاط البابا فبقي فيه وجعله المسيحيون فزاعة لأخيه الى أن مات.

واستمر قاسم بك القرماني في تشغيبه على الدولة الى أن انضمّ إليه أمير بلاد ذي القدرية وحاربا الجيوش العثمانية واشتد الخطب حتى كاد يكون فتنة بين الأمتين التركية والعربية فتوسط في الصلح حاكم تونس المولى عثمان الحفصي حتى وفق بين الفريقين.

وفي سنة ١٤٨٨ جهز السلطان أسطولاً لمناوأة البنادقة وكانوا قد أغاروا على بعض الموانيء العثمانية في خلال الحوادث المارّ ذكرها فانتصر العثمانيون عليهم وفتحوا ميناء ليبنتس ثم قلعتي مدون وكورون ثم كسروا أسطولاً للبنادقة والاسبانيين فعقدوا مع الدولة صلحاً وقد أغزى السلطان بايزيد الانكشارية بوسنة وكرواسيا ومولدافيا المعروفة ببلاد البغدان على الضفة اليسرى من الطونة بجانب صقع الأفلاك. غير أن هذه الحروب الصغيرة لم تكف الانكشارية فما زالوا بالسلطان حتى خلعوه وولوا سليماً رابع أبنائه لما كانوا يرونه عنده من الحماسة والبسالة وذهب السلطان المخلوع الى ديمتوفة ليقضي فيها بقية أيامه فبعث إليه ابنه من أماته مسموماً (١٥١٢) والسلطان بايزيد الثاني أول من وزع الهبات على الانكشارية وضباطهم عند توليه الملك فأحدث بذلك عادة ساءت مغبتها على خلفه.

السلطان سليم الأول (١٥١٢—١٥٢٠) (٩١٨—٩١٦)

تولى في السادسة والأربعين من العمر وله منازع في السرير هو السلطان أحمد. ذلك لأنه أكبر سناً ولأن والده انتخبه قبل تنازله عن السلطنة بموافقة كبراء الدولة. فلما خشي السلطان سليم أن يستفحل أمره عمد الى الحيلة فقتل جميع اخوته وأقاربه الذين أذن لهم بالإقامة في بروسه فخاف أحمد ولجأ الى مرحمة أخيه فلم يبق عليه وغدر به. وكان لأحمد ولدان أحدهما الأمير مراد فرّ الى بلاد العجم الى الشاه اسمعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية. والثاني الأمير علاء الدين فزع الى الملك الأشرف قانصوه الغوري ملك مصر فحمياهما.

وكان الشاه اسمعيل الصفوي يبث الفتن في داخل الدولة وعلى أطرافها خصوصاً فسار اليه السلطان سليم (٩٢٠ هـ) في ١٤٠ ألف مقاتل ولما وصل طراخان همّ

الجنود بالعصيان فخرج اليهم وقال يرجع من شاء وأنا أتقدم وحدي فانقادوا وبعد ذلك تلاقى الجيشان في صحراء جالدبران فتغلب العثمانيون وقتل من الفريقين كثيرون وأفل نجم الشاه اسمعيل وتقدم السلطان سليم الى تبريز فدخلها ظافراً ثم عاد الى الآستانة العلية ومعه غنائم لا تقوم بأثمان وعلى أثر عودته استفتح بلاد مرعش وقتل أمراءها أبناء ذي القدرية وضمها الى الدولة ومن سنة ٩٢١ الى سنة ٩٢٣ هـ أخضع بلاد كردستان وانتصر على جيش الأكراد والجنود التي أمدهم بها الشاه اسمعيل وفي العودة استولى فريق من رجاله على خربوط وفريق آخر على ديار بكر.

ولما ضمّ السلطان سليم بلاد ذي القدرية ساء موقع ذلك من الملك الأشرف قانصوه الغوري فسأل السلطان ترضية بأن تستمر الخطبة باسم قانصوه في تلك البلاد فرد عليه بإرسال رأس علاء الدين ذي القدرية اليه فأخذ الأشرف يحشد الجيوش ليحارب السلطان سليماً واستعان بالشاه اسمعيل فأمدّه بالمال والعدد والرجال. أما السلطان سليم فأرسل أسطولاً ضخماً الى الاسكندرية وسار بجيش كبير براً قاصداً بلاد الشام فالتقى جيشه بجيش قانصوه في صحراء حلب فدحره ودخل السلطان حلب منصوراً ثم سار منها الى دمشق فالقدس فغزه ثم كاتب طومان بك بالتسليم فأبى فلقي جنوده في الخانقاه بمكان يدعى الريدانية وهزمهم شر هزيمة وتبعهم الى مصر العتيقة ثم استأسر طومان بك وأمر بصلبه وانقضت بموته دولة الجراكسة أو المماليك البرجية بعد أن ملكوا مصر قرناً وعشرات من السنين.

وفي خلال إقامة السلطان سليم في مصر جاء ابن أبي البركات شريف مكة المكرمة وقدم له بيده مفاتيح الحرمين طائعاً مختاراً وصارت الخطب تتلى في المساجد أيام الجمع باسم السلطان بعنوان خادم الحرمين الشريفين وكذلك قدم له الطاعة باربروس خير الدين رئيس بلاد البربر. ولما عاد السلطان الى القسطنطينية استصحب آخر الخلفاء العباسيين بمصر وهو المتوكل على الله فتنازل له عن الخلافة الاسلامية فانضمت من ذلك الحين الى السلطنة العثمانية وقد ترك السلطان في مصر والياً يتولى الأحكام وثلاثة وجاقات متناظرة يؤلف من كبراء ضباطها وموظفيها ديوان

للوالي. وكان يود بعد ذلك الاجهاز على الصفويين فصرف وزراؤه نظره عنهم وفي سنة ١٥٢٠ أدركه أجله وهو ذاهب لفتح أدرنة.

السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦)

أول ما شرع فيه هذا السلطان الحكيم سن القوانين ووضع النظامات الكافلة تمكين بنيان الدولة وتقوية أساطيل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط وإصلاح شؤون الجيوش البرية.

ولما علم والي الشام خانبرد الغزالي بموت السلطان سليم ظن أن ذلك فرصة مناسبة لتحقيق أمانيه فأثار فتنة واستولى على قلعة دمشق وغيرها فعين السلطان الوزير فرهاد باشا بجيش وحاربه حتى تمكن من ردعه ثم قبض عليه وقتله ثم أمر السلطان فرهاد باشا بالذهاب الى الحدود الشرقية لمقابلة جيوش الشاه اسمعيل وصدهم عن شن الغارات وفي تلك الأثناء أرسل السلطان مأموراً مخصوصاً لمقابلة ملك المجر لتسوية بعض المسائل الموقوفة بين المملكتين ولإخباره بارتقاء السلطان على كرسي السلطنة فقتله ملك المجر فخرج السلطان بجيش جرار من مدينة أدرنة وغزا بلاد كرواسيا أو الحزوات وسار حتى ألقى بنفسه الحصار على بلغراد وبعد أن حاصرها نحو شهرين ونصف شهر وخرب أسوارها بالألغام استولى عليها عنوة (١٥٢١) وقد كانت هذه المدينة أقوى حصن للمجر مانع لتقدم العثمانيين الى ما وراء نهر الدانوب وقد ألحقت بسنجقية سمندرة وصارت فيما بعد تابعة لولاية بوسنة ثم عاد السلطان الى دار الخلافة غانماً ظافراً. وفي السنة التالية أمضيت بين الدولة العثمانية وجمهورية البنادقة معاهدة تجارية تؤيد المعاهدات السابقة على يد سفيرها المدعو ماركوممون وزيد عليها أن قنصل الجمهورية أي وكيلها باستانبول يغير كل ثلاث سنوات وأن يكون له الحق في نظر أمر تركات رعيته وأن يرسل من طرفه ترجماناً لحضور المرافعة التي تقام ضد رعايا حكومته أمام المحاكم العثمانية وأن يكون المبلغ الذي تدفعه الى الدولة نظير احتلالها جزيرتي قبرس وزنطة عشرة آلاف دوكا عن الأولى وخمسمائة عن الثانية ولهذه المعاهدة أهمية عظيمة لأنها أس الامتيازات الأجنبية ببلاد الدولة العثمانية وفي السنة

المذكورة عزم السلطان على فتح رودس فقاومه فرسانها المشاهير بالبسالة أشد المقاومة ثم سلموا على أن يبرحوا الجزيرة بأسلحتهم وأموالهم (١٥٢٢م) وانتقلوا الى جزيرة مالطة.

ولما كان السلطان مشتغلاً بفتح رودس اعتدى لويس الثاني ملك المجر على حدود الدولة بالروملي فلما عاد السلطان وبلغه هذا الخبر عزم على محاربة المجر فأرسل جيشاً مركباً من ٣٠٠ ألف مقاتل تحت قيادة الصدر الأعظم ابراهيم باشا (٩٣٢هـ — ١٥٢٦م) وأسطولاً مركباً من ٨٠٠ سفينة بالذخائر والعدد الى نهر الطونة ثم خرج السلطان بنفسه حتى وصل الى جهة سرم بعد أن عبر نهر صاوه على جسر ودخل الصدر بجيشه بلاد المجر فقابل جيشاً مؤلفاً من ١٥٠ ألف مقاتل يقوده لويس الثاني ملك المجر بنفسه في صحراء مهاج وانتشب بينهما القتال وفي أثنائه وصل السلطان الغازي مع جموعه فأخذ قيادة الجيش بنفسه فانهزم المجريون مع من انضم اليهم من جيوش الكرواسيين مساعديهم وبعد قليل استولى السلطان على مدينة بودين (بوده) تخت مملكة المجر وبلاد أخرى بلا حرب.

ولما مات لويس الثاني نصب السلطان على مملكة المجر ملكاً آخر يدعى جان زابولي إلا أن فردیننـد ملك النمسا لما كان يرى أن مملكة المجر تؤول اليه بحق الوراثة ولا سيما وأن أخاه شارلكان أمبراطور المانيا كان المتفرد بالنفوذ في ذلك العصر لدى ممالك أوروبا أبى المجر قبول جان زابولي المذكور ودعوا فردیننـد ملك النمسا ليكون ملكاً عليهم فاستعد فردیننـد عند ذلك ثم سار يقود جيشاً عظيماً واستولى على مدينة بودين ففر جان زابولي وطلب مساعدة السلطان وحمايته فأمر في الحال بسوق العساكر على مملكة أوستريا وجهز جيشاً عظيماً.

ولما وصلت الجنود العثمانية ومعها السلطان الغازي الى صحراء مهاج قابلها جان زابولي ومن معه من فرسان المجر الذين انضموا اليه وساروا تحت رايته ثم تقدم السلطان وضرب الحصار على بودين فسلمت عساكر أوستريا بشرط حفظ أرواحهم إلا أنه وقت خروجهم من المدينة تطاول بعضهم على بعض الجنود العثمانية فاتخذ

العثمانيون ذلك نقضاً للعهد المعطى وانقضوا عليهم فقتلوهم عن آخرهم ثم أجلس السلطان جان زابولي على تخت المجر بالقوة واشترط عليه دفع جزية سنوية مقررة وصارت بذلك بلاد المجر من أملاك الدولة وأبقى السلطان ٣٠٠٠ جندي للمحافظة على تلك المدينة.

ولم يكتف السلطان باسترداد بودين وإقعاد جان زابولي على تختها بل تقدم لمحاصرة مدينة ويانة فلما بلغها لم يكن بتلك المدينة للنمساويين سوى ٢٠ ألف جندي معهم ٧٢ مدفعاً. أما جيش العثمانيين فكان يتألف من ١٢٠ ألف مقاتل معهم ٤٠٠ مدفع ثم حصل بين العثمانيين والنمساويين نحو عشر وقائع كان النصر فيها جميعها للعثمانيين ولما رأى السلطان أن العدوّ كفّ عن القتال وأن فصل الشتاء قد أقبل وانه لم يجلب معه مدافع الحصار العظيمة عاد الى استانبول وصالح دولة النمسا على أن تمتنع عن التداخل في أحوال المجر (١٥٣٠).

وفي السنة التالية جاء مندوبون من قبل النمسا لمحالفة الدولة العلية فأبت فتقدم فردينند وحاصر قلعة بودين ثانياً فأمر السلطان بالاستعدادات الحربية ثم أرسل جيشاً مركباً من ٢٠٠ ألف مقاتل لمحاربة المجر وأرسل أسطولاً ضخماً ثم سافر السلطان حتى وصل بلاد النمسا ظافراً فطلبت النمسا الصلح فأجيب طلبها ثم عاد السلطان بالغنائم والأسرى.

وفي عصر هذا السلطان الشهير كان ظهور عائلة بارباروس بسواحل الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وكان وجودها واسطة أخرى لإعلاء اسم البحرية العثمانية واشتهار شأنها.

وفي خلال سنة ١٥٣٤ توسل أهالي تونس بالسلطان سليم القانوني ليخلصهم من مظالم ملوك بني حفص أصحاب تونس في ذلك الوقت فأصدر أمره لخير الدين باشا باربروس بالتوجه بالعمارة الى تلك الديار وكانت الحكومة الاسبانيولية قد انتهزت فرصة اشتغال السلطان بحرب العجم وأرسلت عمارتها مع جيش عظيم يبلغ عشرين ألف مقاتل (١٥٣٥) لتعضيد المولى حسن الذي كان قد التجأ اليها طالباً مساعدتها

لرجوعه حاكماً على بلاد تونس كما كان وقد تمكنت الحكومة الاسبانيولية من إعادته الى سلطنته واستولت على قلعة حلق الودى بعد حروب طويلة كان أمبراطور اسبانيا شارل الخامس يقود التجريدة فيها بنفسه ثم عادت عمارة الاسبانيول بعد أن تركت قوة من الجند في قلعة حلق الودى. فقدم خير الدين باشا تونس ثم سار بالأساطيل الى سواحل الجزائر ثم عاد الى الآستانة (١٥٣٦) بعد أن ترك بمدينة بجاية فرقة من أساطيله مؤلفة من خمس عشرة سفينة. وبلغ ظابط هذه الفرقة وصول شارل الخامس بأساطيله وأساطيل من اتحد معه من دول أوروبا الى تونس فأغرق تلك السفائن بمصب نهر أدوس الواقع بجوار بجاية بناء على ما أوصاه به خير الدين باشا وشيد عند مصب النهر المذكور استحكامات قوية وبعد عودة خير الدين باشا أخرج تلك السفائن وضم اليها ما كان موجوداً منها بمدينة الجزائر وغيرها من سفن قرصان الجزائر وبذلك صار لديه دونما مؤلفة من ٣٢ سفينة ثم أقلع بها حتى وصل الى جزيرة مينورقة وقبض في ثغورها على خمس سفائن كانت آتية من حرب تونس ثم أخرج جنوده الى تلك الجزيرة ففتحت وغنمت ثم عاد الى الآستانة وجهز له السلطان عمارة مركبة من ٢٨٠ سفينة وجعل ما بها من الجنود تحت قيادة السردار لطفي باشا وقصدت ألونية من ثغور ألبانيا ثم سافر السلطان براً بجيوش أخرى والتقى مع الأساطيل بألونية وهناك أمر بشن الغارات في فرقة من الأساطيل على سواحل وثغور ايطاليا وكانت حكومتا اسبانيا وايطاليا قد جمعتا عمارتهما الجسيمة وسيرتاها الى جزيرة كورفو تحت قيادة الأميرال الشهير اندربا دوريا فالتقت هذه الأساطيل الأسطول العثماني الذي كان ذاهباً الى ألونية فحملت عليه عمارات الدول المتحدة المذكورة ولما دارت رحى الحرب بين الفريقين لم ينظر العثمانيون لقلتهم بل نظروا لشأنهم ومع ذلك تحطمت أكثر سفنهم وقتل منهم عدد عظيم وكانت خسائر المتحدين عظيمة أيضاً وجرح قائدهم اندربا دوريا ولما بلغ هذا الخبر السلطان أمر في الحال بإعلان الحرب على تلك الدول.

وبعد أن استعدت الدولة خرج خير الدين باشا بالعمارة العثمانية وكانت تؤلف من ٤٠ سفينة قاصداً مياه الأرخبيل للانتقام من البنادقة الذين اعتدوا على الأسطول

الآنف ذكره وقد تمكن من الاستيلاء على عدة جزائر ثم رتب إدارة تلك الجزائر ونصب عليها حكاماً من أهلها وخصص على كل جزيرة قدراً من المال تدفعه سنوياً وعاد الى استانبول لتمضية فصل الشتاء بمينائها.

ولما أتى فصل الربيع خرج بما معه من السفن المستعدة وصدرت أوامر السلطان بأن يضاف الى عمارته أربعون سفينة أخرى لتقويتها وأن يجعل فيها العدد الكافي من أمراء البحر المجريين الماهرين وأن يجعل فيها ثلاثة آلاف من اليكجرية وأقلعت الى بحر سفيد (١٥٣٨) ولما وصلت الى جزائر اشكتوز تلاقت مع سفن قرصان الأعداء وشتت شملهم بعد أن أسرت منهم ٣٨٠٠ أسير ضمتهم الى عملة السفن العثمانية وفي تلك الأثناء حضرت عمارة عثمانية أخرى مركبة من تسعين سفينة وحضرت أيضاً أساطيل أخرى مركبة من عشرين سفينة فصارت العمارة السلطانية بذلك قوية جداً ثم خرج خير الدين من اشكتوز ولما قرب من جزيرة أشكوبولوزا التحق بأساطيله نحو السبعين من زوارق قرصان الأرخبيل ثم ألقى مراسيه بثغر الجزيرة المذكورة فقدمت أهاليها الطاعة واستأمنوا فأمنهم وضرب عليهم جزية سنوية وأقرّ عليهم حكامهم الذين انتخبوهم ثم أبقى هناك بعض السفن ألف منها أسطولاً مخصوصاً للمحافظة على جزائر الأرخبيل ثم أقلع وفتح جزائر انديرة واستنديل وميقونوز وشيره وطرد منها البنادقة وضمها الى التابعية العثمانية ثم قصد جزيرة كريد إلا أنه رأى متانة مدن جانبه ورسمو وقنديه وعلم أن فتحها يقتضي زمناً طويلاً اكتفى بشن الغارة عليها.

وفي غرة جمادى الأولى من سنة ٩٤٥ هـ (١٥٣٨م) أقبلت أساطيل الأعداء تحت قيادة اندريا دوريا تجاه برد ويزه وألقت مراسيها على أربعة أميال من عمارة العثمانيين وكانت مركبة من ٥٢ سفينة للامبراطور شارلكان و٧٠ سفينة للبنادقة و٣٠ سفينة للبابا و١٠ سفن لقرصان مالطه و٨٠ سفينة لاسبانيا وبعض سفن أخرى للحكومات الأخرى البحرية أما الدونما العثمانية فكانت مركبة من ١٤٠ سفينة ما بين صغيرة وكبيرة فقط لكن خير الدين باشا تغلب عليها وفي اليوم التالي صباحاً دارت الدونما العثمانية خلف جزيرة أياما ورو وقابلت سفن العدو ثانية بمينا اينجر فهاجمتها

وكسرتها وأبدى خير الدين باشا من المهارة في حرب البحر ما لا يزال عجباً للمؤرخين.

ولما ارتدت باقي الأساطيل المتحدة بالخيبة أراد قوادها أن لا يرجعوا الى بلادهم إلا باكتساب نصر يحط عنهم بعض ما لصق بهم من أدران العار فعرجوا على قلعة نوه في ساحل ولاية هرسك وحاصروها براً وبحراً فسلمت عنوة ثم استردها العثمانيون.

وفي سنة ١٥٤١ اتفقت حكومتا ايتاليا واسبانيا بإيعاز شارل الخامس وأرسلتا دونيا مركبة من مائة سفينة حربية ونحو مائة سفينة نقلية وجيشاً برياً كبيراً لفتح بلاد الجزائر في شمال أفريقية فلقي الجيش المذكور مقاومة عظيمة من باي الجزائر وثارت على العمارة المذكورة زوبعة عظيمة تلاعبت أمواجها بمراكبها حتى أغرقت منها نيفاً على ١٥٠ سفينة وألقت بعضها على البر. ولما وصل خبر قدوم خير الدين باشا بالدونيا العثمانية الى الجزائر هرب العدو.

ولما كانت انتصارات العثمانيين قد أضرت كثيراً بالبنادقة وحطت من شأنهم وعطلت متاجرهم أرسلوا الى الآستانة سفراء لطلب الصلح تحت شروط منها أن يتركوا جميع الجزائر التي استولت عليها الدولة ونيكشة وأنابولي والبلاد التي لهم في مورة ودالماسيا وأن يدفعوا ثلثمائة ألف بندقي فقبل السلطان منهم ذلك وأمضيت الشروط المذكورة.

وقبل وفاة جان زابولي ملك المجر كان قد جعل ولده ستيفان ولي عهده إلا أن فردينند ملك بوهيميا طلب من الملكة ايزابيلة تسليم المملكة اليه حسب المعاهدة التي اتفق عليها مع زوجها فلم تقبل وأرسلت رسولاً الى السلطان سليمان تلتمس منه المساعدة والإمداد فأرسل لها جيشاً فدخل الجيش بودين وضم السلطان دولة المجر للأملاك العثمانية وأقطع ستيفان ووالدته إقليماً من بلاد الأردل.

وفي سنة ١٥٤٣ استعان فرنسيس الأول ملك فرنسا بالسلطة العثمانية على شرلكان فأرسل له السلطان دونيا مشكلة من مائة سفينة حربية تحت قيادة خير

الدين باشا لمساعدة العمارة الفرنساوية التي كانت تحت قيادة دوق انجيان وكانت مركبة من أربعين سفينة حربية في محارات نيس وسواحل اسبانيا ففتحت جملة حصون.

وبينما كانت الدولة العثمانية مشتغلة بالمحاربات البحرية والبرية المستمرة مع البنادقة واسبانيا والدول المتفقة معها في البحر الأبيض المتوسط كان البرتغاليون يمدون فتوحاتهم بسواحل الهند ذاهبين اليها من طريق رأس رجاء الخير بجنوبي أفريقية وبعد أن كانت التجارة الهندية والصينية تنقل من هاته البلاد الى ثغر السويس ومنه الى الاسكندرية ومنها الى أوروبا في البحر المتوسط الأبيض بواسطة السفن التجارية العثمانية وغيرها من سفن الدول المتحابة كانت أعمال البرتغاليين التي ذكرناها سبباً لتعطيل المنافع والتجارة العثمانية فأصدر السلطان الأوامر المشددة ألى وزيره سليمان باشا الخادم والي مصر بتجهيز الأساطيل اللازمة في البحر الأحمر لإرسال حملة لمحاربة البرتغال بجهات الهند وتأمين طرق التجارة وأرسل لذلك من الآستانة سليمان رئيس وكان أشهر رجال عصره معرفة بالملاحة والبحرية لمساعدة سليمان باشا في هذه المأمورية فتمكن الاثنان بما بذلاه من النشاط من تجهيز وتشييد جملة سفائن في فرضة السويس (١٥٣٧).

وفي خلال ذلك قام همليون شاه ملك الهند يقصد محو ملوك الطوائف الذين بأطراف بلاده ولما هدد بها درشاه ملك كجرات أرسل هذا سفيراً الى السلطان سليمان يطلب نجدته فكانت هذه المسألة وسيلة أخرى اقلع أسطول من السويس مؤلف من ثمانين سفينة فيه عشرون الف جندي ولما وصلت هذه السفن الى عدن استدعى سليمان باشا أميرها المدعو عامر بن داود فقبض عليه وصلبه بعد أن كان وعده بالأمان وبذلك استولى على امارة عدن بلا حرب وأبقى فيها بعض الجنود ونصب عليها بهرام بك أحد أمراء الجنود العثمانية محافظاً ثم أقلع منها قاصداً سواحل الهند فوصلها بعد أيام ولما أرسى على ساحل كجرات بلغه أن بهادرشاه صالح خصمه بعد أن تحاربا مراراً وكانت الاساطيل البرتغالية تسلطت على ثغور كجرات واستولت على فرضة ديو وما جاورها من البلاد ومات في الحرب بهادرشاه وخلفه الملك محمود

في مملكته هادن البرتغاليين فأخرج سليمان الخادم الجيوش الى البر بعد أن اتحد مع الملك محمود وأخذ يقاتل البرتغاليين حتى استولى منهم على قلعتي كوله وكات وقتل منهم أكثر من الف محارب ثم شرع يحاصر فرضة ديوا براً وبحراً وتمكن بعد زمن من الاستيلاء على قلاعها الأمامية الا أن مقاومة محافظها البرتغالي المدعو انطوان وما أظهر من البسالة والأقدام في المدافعة عن القلاع الداخلية اراه ان الاستيلاء عليها لا يمكن بسهولة لاسيا وأنه لما رأى أن ذخيرة العساكر قاربت الفراغ طلب من الملك محمود امداده بالذخيرة فلم يلتفت اليه فعاد الى السويس وبعد عودة الأساطيل والجيوش الى عدن حضر أمير بلاد الشحر وقدم خضوعه للسلطنة فدخلت تلك الجهات ضمن الأملاك العثمانية وأخضع سليمان الخادم سواحل اليمن.

وفي سنة ١٥٥١ انتقض العدنيون على الحاكم العثماني وساعدهم البرتغال فجاءت الأساطيل العثمانية المصرية وحاربت البرتغال في مياه هرمز فتغلبت على أساطيلهم التي كانت تفوقها عدداً ولكن الزوابع ثارت بشدة فاضطرت العثمانيين للرجوع الى مصر بعد أن اضعفت شوكة البرتغال في تلك الجهات.

وقبل هذه الوقائع بنحو خمس سنين كان طهماسب أخو شاه العجم قد استجار بالسلطان على أخيه وكان السلطان يتمنى مسوغاً لقتال العجم فجهز الجيش وخرج قاصداً تلك البلاد وما زال سائراً منصوراً حتى وصل الى مدينة تبريز وعند عودته استرد مدينة وان التي كان الاعجام قد استولوا عليها ولما كان أهل الكرج يظهرون الخصومة للدولة العثمانية أخضع بلادهم وأدخلها ضمن الأملاك العثمانية وبعد خروج العثمانيين من بلاد العجم تقدم ملكهم بشن الغارة على جهات موش وعاد لجواز وأخلاط وغيرها فجرد السلطان لذلك جيشاً كثيفاً وافتتح عدة مدائن وحصون ونهبت جنوده وخربت كل ما صادفته من قصور الملك ومنتزهاته بالبلاد التي استولت عليها ثم فتح مدينة تبريز ونهبها بعد أن قتل عدداً وافراً من العجم ثم أغار على مدينة مراغة فاحرق وقتل وانتصر بجوارها على جيوش العجم انتصاراً مبيناً فطلب الشاه الصلح فأجابه السلطان الى ذلك وعقد مع العجم مشارطة أباح فيها للعجم

الحج لبيت الله الحرام ومزاولة مذهبهم بلا تعرض وكانت هذه أول معاهدة عقدت بين الدولة والعجم.

وفي سنة ١٥٥٣ استنجد فرنسيس الأول ثانية بالسلطان فارسل اليه أسطولاً فحارب الاسطولان الاسبانيول وانتصرا على كثير من سفنهم وفتحا عدة قلاع ومدن ساحلية أضيفت الى أملاك فرنسا.

وفي سنة ١٥٥٤ استنجد فرنسيس ثالثة بالسلطان فامدّه باسطول أخذ جملة قلاع من يد الاسبانيول وسلمها للفرنساويين منها مسيني وريو ثم حاصر قلعة فالبه من أيطاليا وفي أثناء الحصار حدث بين العساكر الفرنساوية والعساكر العثمانية اختلاف فعاد الأسطول العثماني الى الأستانة (١٥٥٦).

وفي سنة ١٥٦٠ ابحرت الاساطيل العثمانية لمقاتلة اساطيل الدول التي اتحدت عليها وجاءت الى جزيرة جربه لتفتح طرابلس الغرب ففازت عليها فوزاً عظيماً وأسرت وغنمت كثيراً.

وفي شتاء سنة ١٥٦٥ أرسلت الأساطيل العثمانية لفتح مالطة فأخفقت سعياً. وكان مكسيميليان الثاني ملك المانيا قد خلف فردينند الأول على تخت امبراطورية المغرب فضم بلاد المجر الى الأمبراطورية كابيه وعند ذلك استنجد استفان زابولي بالدولة العثمانية فارسل له السلطان ثمانين ألف مقاتل فاستولوا على قلعة سكدوار بعد حصارها وكانت من أمنع الحصون وفي تلك المدة كان قد أعترى السلطان الضعف والهزال لتقدمه في السن حتى أنه أوصى بالسلطنة من بعده لابنه سليم وكانت وفاته بداء النقرس وله من العمر ٧٦ سنة فاخفى الوزير الأعظم وفاته اشفاقاً على الجيوش ان يفشلوا وأمر رئيس الاطباء بتحنيط جثته وبعد تمام الفتح اخذت العساكر في ترميم القلعة واصلاحها وبعث الوزير المذكور الى السلطان سليم يدعوه الى سكدوار وكان يومئذ على امارة كوتاهيه فلما وصله الخبر قدم مسرعاً الى دار الخلافة على حين غفلة من أهلها وجلس على سرير الملك وبعد أن تمت له البيعة واطمأن الناس قصد سكدوار.

وكان سليمان سلطاناً رفيع القدر حازماً موصوفاً بالحكمة والاقدام سنّ قوانين جديدة نظم بها السلطنة فقوى شأنها وسياستها فلهذا لقب بالقانوني وقسم الدولة الى ايالات جعل في كل ايالة منها فرقة من الجنود للمحافظة عليها وضبط العسكرية ووضح منوالاً جديداً لايراد الدولة وخرجها فتحسنت أحوالها حتى بلغت درجة لم تنلها وكان محباً للعمارة والمباني جدد المساجد وشيد المدارس والقلاع. وكان بالاجماع أجلّ سلاطين آل عثمان.

السلطان سليم الثاني ١٥٦٦ــ ١٥٧٤

قام بالامر بعد ابيه السلطان سليمان وفي سنة ١٥٦٧ عقد معاهدة مع النمسا مضمونها استمرار هذه الدولة على تأدية الجزية واعترافها أمراء ترنسلفانيا والافلاق للدولة العلية بالسيادة وبقاء الروابط القديمة على حالها. وفي السنة المذكورة أخضع السلطان بلاد اليمن واخرج منها البرتغال وفي سنة ١٥٦٩ جدد معاهدة الامتيازات القنصلية لفرنسا وقبل باضافة مواد ذات شأن اليها. وفي سنة ١٥٧٠ فتح جزيرة قبرس باسطول كان متقدمه علي باشا مؤذن. وفيها أيضاً وقعت موقعة ميناء ليبنتو الذي يسميه الأتراك اينه بختي وكانت فيها أساطيل اسبانيا والبابا وصقلية والبندقية ونابولي ومالطه وفرنسا بقيادة دون جوان الأسباني فلقيها الأسطول العثماني وأبلى بلاء حسناً غير أنه دارت عليه الدائرة لسوء تدبير رئيسه فكان عدد الذين قتلوا من العثمانيين عشرين ألفاً بين جنود وضباط ومن الاعداء ثمانية آلاف.

ولما كان هذا الانكسار أول ما أصاب الدولة العلية في البحر كبر عليها فوسعت دار الصناعة بالاستانة وابتنت اسطولاً ضخماً في وقت وجيز وبذلك تسنى لها في سنة أن تبث مراكبها الجديدة في البحر المتوسط وتستعيد نافارين من البنادقة. وفي سنة ١٥٧٣ غزت سواحل ايتاليا ودمرت كثيراً من حصون بلاد البنادقة فصالحوا الدولة على الجزية يؤدونها وغرامة حربية جسيمة نقدوها إياها على أثر إمضاء المعاهدة.

وفي سنة ١٥٧٤ عصى حاكم البغدان فحورب وضرب عنقه وفيها رأى

السلطان تمرداً من أصحاب تونس لتعويلهم على الاسبانيول فارسل الاسطول لفتح بلادهم فدخلت في سلك الولايات العثمانية دخول الجزائر وطرابلس الغرب. وتوفي هذا السلطان في الثانية والخمسين من عمره وكان باسلاً صالحاً وكان أفضل رجاله الصدر الأعظم صوقللي باشا صاحب اليد البيضاء في حلّ ما تعقد من أمور الدولة ورفع منارها بين الدول العظمى.

السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥

هو ابن السلطان سليم الثاني. بعد توليه بسنتين أمر عامله على الجزائر باعانة أمير فاس على عمه الثائر عليه والبرتغاليين الذين أتوا لنصرة عمه فظهر عليهم في موقعة وادي السبيل وانتمى صاحب مراكش الى الدولة العلية اعترافاً بفضلها. وفي سنة ١٥٧٥ انتخب اتيان باتوري أمير ترنسلفانيا ملكاً على بولونيا فأصبحت هذه الدولة تحت ظل السلطنة العثمانية.

وفي سنة ١٥٧٩ وقعت فتنة في بلاد العجم فارسل السلطان اليها جيشاً ليفتحها وقامت الحرب على ساق وقدم ثم انجلت عن معاهدة ترك بمقتضاها الشاه عباس للدولة العلية اذربيجان وشروان ولورستان وتبريز (١٥٨٠)

وحدث أن قام جيش الانكشارية بفتنة فشق ملك بولونيا عصا الطاعة على الدولة وحارب المجر والافلاق جيوشها وردهم أمير الافلاق الى ما وراء الطونه واستولى على مدينة نيكوبولي فرأى السلطان أن يشغل الانكشارية بمحاربة النمسا ليعاقبها على أخذها بنصرة الأقوام التي انتقضت عليها.

السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ — ١٦٠٣)

بعد جلوسه على السرير تقدم ميخائيل أمير الافلاق وفتح قلعتي بخارست (بكرش) وترغوشته ثم هزم أحد جيوشه جيشاً للعثمانيين وقد خرج عليه من مكمن واستولى النمسويون على قلعة استرغون فعظمت هذه الخطوب على السلطان فخرج بنفسه الى دار الحرب فوقعت موقعة هائلة بين جنوده و بين جنود ملك النمسا وملك

الاردل في مكان يدعى كرسنس ولما كادت تدور الدائرة على العثمانيين ويؤخذ السلطان أمكنهم الاعداء من انفسهم بتهورهم في اللحاق بهم فانضمت أشتات الجنود العثمانية وانقلبت من الادبار الى الاقبال وكانت قد حصرتهم بينها فاعملت فيهم السيف والنار حتى أوشكت أن تبيدهم (١٥٩٦). وفي سنة ١٦٠٠ فتح العثمانيون قلعة كانيشا الحصينة بالنمسا ونكلوا بجنود أمير الافلاق تنكيلاً وفي سنة ١٦٠٤ نقض الشاه عباس عهده مع الدولة العلية واسترد الولايات التي اعترف لها بها وفي خلال ذلك توفي السلطان.

السلطان أحمد الأول ١٦٠٣ — ١٦١٧

هو واضع القانون الأول لوراثة السلطنة تولى حديث السن وكان باسلاً نجيباً وقد أتم حرب النمسا اذ فتح قلعة استرغون التي كان الاعداء قد استردوها ثم نزلت امارات الاردل والافلاق وبغدان على حكمه دفعا للمزيد من الدمار الذي لحق بها ففاتحته النمسا في عقد الصلح فتم في قرية سيتافوروك (١٦٠٦) واستزادت به الدولة بلاداً.

ثم أرسل السلطان جيشاً لمحاربة العجم فدارت الدائرة عليه فعقد صلح بين الفريقين على أن ترد الدولة العلية للشاه عباس ثلاث ولايات وتأخذ منه جزية سنوية (١٦١٧) ثم نقض الشاه ما تعهد به فاستؤنفت الحرب وقام بها السلطان عثمان الثاني وهو خلف السلطان مصطفى الأول الذي لم يدم له الأمر الا ثلاثة أشهر وبضعة أيام.

السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ — ١٦٢٢)

حارب الأعجام فدحرهم في أول مرة واسترد منهم الولايات التي كانوا قد نتزعوها من الدولة ثم أعان ملك الاردل على محاربة النمسا فأفسد الانكشارية عليه نتائج الحرب فاوعدهم فهاجوا وخلعوه ثم قتل معتقلاً وخلفه السلطان مصطفى.

وفي خلال هذه الفتن تمكن الاعجام من استرجاع الولايات التي وقع النزاع طويلاً عليها بينهم وبين الدولة ثم فتحوا بغداد (١٦٢٤) ولما علم أباظه باشا والي أرضروم ما حل بالسلطان عثمان نهض مطالباً بثأره وانضم اليه الألوف واتسع الخرق فتنازل السلطان مصطفى (١٦٢٤) وبويع السلطان مراد الرابع.

السلطان مراد الرابع (١٦١٠ — ١٦٤٠)

كان باسلاً مقداماً على حداثة سنه وقد قمع ثورة اباظه باشا وأعاد له ولايته بعد أن خضع ثم حارب الاعجام وكسرهم وفتح مدينة روان وبعد ذلك حاصر بغداد حصاراً طويلاً ففتحها وقمع ثورات كثيرة حدثت في عهده القصير وصالح الاعجام فرد لهم روان واستبقى بغداد وتوفاه الله شاباً وكان من اعاظم السلاطين.

السلطان ابرهيم (١٦٤٠ — ١٦٤٨)

أهم ما جرى في عهده فتح بعض المواني بجزيرة كريد (١٦٤٥) وظهور أساطيله على أساطيل البنادقة. وكان كلفا بالنساء فتداخلن في شؤون السلطنة فثارت بسبب ذلك فتن أقضت الى خلعه ثم قتله.

السلطان محمد الرابع (١٦٤٩ — ١٦٨٧)

أتم هذا السلطان فتح جزيرة كريد بعد مواقع بحرية كثيرة اضطرته الى تجديد اسطوله مراراً ولكن البنادقة استبقوا منها لهم ثغور سودا وكرابوسه واسبينالونغه (١٦٦٩) وحارب النمسا لتداخلها في أمر نصب ملك للاردل ففتح نوهنسل وانتصر على جيوش جرارة لهذه الدولة وحلفائها من فرنسويين وغيرهم واستولى على نويغراد وبعد وقائع أخرى هائلة طلبت النمسا الصلح (١٦٦٩) فاجيبت اليه. وبعد ذلك حارب السلطان ملك بولونيا انتصاراً لطائفة القوزاق المعروفة بصاري قامش التي دخلت في حماية الدولة ففتح ولاية بودوليا ثم قبل الصلح على أن يستبقى الولاية المذكورة ويحمل اليه ملك بولونيا الجزية ويعطي القوزاق المذكورين ولاية او قرين

التي كانت سبب هذه الحرب. وفي سنة ١٦٨١ حاربت فرنسا قرصان ولايات الغرب فتهددها السلطان بقطع العلائق وطرد الفرنسويين من مملكته فانكرت ما أتاه رئيس اسطولها. ثم أنقلب زعيم قبائل صاري قامش على الدولة واستسلم لروسيا ومنحها مدينة جهرين قاعدة بلاده فحاربه السلطان وحلفاءه من روس وتتار وفتح جهرين ثم صالحته روسيا على أن تبقى الحالة كما كانت قبل المعاهدة (١٦٨١).

وفي سنة ١٦٨٣ استأنف السلطان محاربة النمسا اجابة لملتمس أعيان المجر الذين كانوا ثائرين على تلك الدولة وفي مقدمتهم الكونت توكلي وذلك لأنها بعد حرب الثلاثين سنة ضمت بلادهم اليها وانزلتهم على حكمها مرغمين واستبدت بهم استبداداً. فسارت الجيوش العثمانية تقصد النمسا وأعانها أمير الاردل والكونت توكلي فتغلبت على النمسويين ثم تقدم الصدر الأعظم قره مصطفى باشا الى ويانه وحاصرها (١٦٨٣) حتى كاد يفتحها غير أن ملك بولونيا يوحنا سوبيسكي وجماعة من منتخبي المانيا اتوا بجيوشهم لمدافعة العثمانيين عن أسوار تلك المدينة التي كانت مفتاح الغرب اجابة لاستصراخ البابا فأجلوا الصدر الأعظم بعد أن كسروا جيشه وغنموا عدته ثم تتبعوا خطاه الى أن فتحوا قلعة استرغون. وفي سنة ١٦٨٦ عقد تحالف سمي بالمقدس بين النمسا والبندقية وبولونيا ورهبنة مالطه وروسيا والقوزاق وتوسكانه لمحاربة الدولة العثمانية فقاومت اعداءها بما استطاعت ثم انجلت هذه الحرب عن فقد السلطنة لمملكة الاردل (١٩٨٨)

وفي سنة ١٦٨٨ كره السلطان البقاء في منصبه السامي فاعتزله على أثر فتنة شديدة قامت بها الجيوش ويقال انه خلع.

السلطان سليمان الثاني (١٦٨٨ — ١٦٩١)

أخمد الفتنة الداخلية على ضخامتها ثم استرد من النمسويين ما كانوا قد فتحوه في خلالها من بلاد نيش وودين وسمندره وبلغراد وقذف بهم الى الضفة الاخرى من الطونه وهزم جيش النمسا من بلاد الاردل وانتصر عامله خان القريم على الروس الذين حاولوا فتح بلاده.

السلطان أحمد الثاني (١٦٩١ — ١٦٩٥)

استأنف محاربة النمسا فكان جيشه منتصراً تارة ومنكسراً طوراً ثم استعان بخان القريم فاعانه على طرد النمسويين من الاردل. وحاول البنادقة استرجاع كريد فطردوا منها مدحورين وغنمت الدولة منهم ثغر قرابوسه غير أنهم استنجدوا بأساطيل للبابا ولأهالي مالطه واحتلوا جزيرة ساقز.

السلطان مصطفى الثاني (١٦٩٥ — ١٧٠٣)

كان ذا عزم ماض وحزم في الأمور. استرد جزيرة ساقز بعد نصرة باهرة على البنادقة ثم قاد بنفسه الجنود لمحاربة النمسا فظهر على جيوشها في أول الأمر ثم دارت الدائرة عليه في موقعة زنتاكما دارت على عامله خان القريم الذي غلبه بطرس الأكبر وانتزع منه ثغر آزاق أو أزوف على البحر الأسود. وانتهت الحرب بين الدولة العلية والنمسا وروسيا وبولونيا والبنادقة بمعاهدة كارلوفتس (١٦٩٩) وبعد ذلك باربع سنين قامت فتنة أريد بها خلع السلطان فتنازل عن الملك لأخيه.

السلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠)

شهر الحرب على الروس انتصاراً لكارلوس الثاني عشر ملك اسوج واحدق جيشه بجيش الروس وملكهم بطرس الأكبر في موقعة بروت وكاد يأخذهم جميعاً أسرى لو لم يفرج عنهم الصدر الأعظم لرشوة أخذها ومع ذلك فقد عقد مع روسيا معاهدة أدرنه وانتزع منها بمقتضاها جميع ما كان لها من الأملاك على البحر الأسود (١٧١٣).

وبعد ذلك استرد السلطان شبه جزيرة الموره من البنادقة وفتح سائر ثغور كريد فنزلت الجزيرة كلها على حكمه ولما كان استرجاع الموره مناقضاً لمعاهدة كارلوفتس استجار البنادقة بالنمسا فوقعت حرب بينها وبين الدولة العلية انتهت بمعاهدة بساروفتس (١٧١٨) وكان من مقتضاها أن تترك بلاد طمشوار وبلغراد وقسم من

بلاد الصرب للنمسا وموره وجميع جزائر الارخبيل للعثمانيين وتبقى للبنادقة قلاعهم ببلاد الألبان .

وكانت قد وقعت فتنة في بلاد العجم لعهد الشاه حسين الصفوي فانتقض عليه الايرانيون وأسروه وتنازع بعده الشاه واشرف الأفغاني والشاه طهماسب الساساني سرير الدولة الإيرانية فأنفذ السلطان جيشاً ففتح جانباً من بلاد ايران وفتح الروس جانباً آخر ثم انفرد طهماسب بملك ايران بعد وفاة منازعه فاسترد عنوة بعض الولايات التي فتحتها الدولة العلية (١٧٣٠) وعلى أثر هذه الحادثة ثار الانكشارية في الاستانة فخلعوا السلطان عن الملك وأجلسوا ابن أخيه .

السلطان محمود الأول (١٧٣٠ — ١٧٥٤)

كان محباً للسلم ناشراً للمعارف. اتم حرب العجم بما أعاد الحدود القديمة بين الدولتين (١٧٣٦) ثم حارب الروسيا والنمسا فانتصر على جيوشها وعقد معها معاهدة بلغراد (١٧٣٩) التي ردت للدولة العلية جهات اورسوه والافلاق النمسوية وقضت على امبراطورة روسيا بهدم قلعة آزوف وبعدم تسيير مراكب حربية وتجارية في البحر الأسود وبحر آزوف وبأن ترد للدولة ما فتحته من بلادها .

ثم تمتعت الدولة في عهد هذا السلطان المجيد بالراحة والسلم مدة تسع سنين كانت أيامها مسعودة ودقائقها مباركة .

السلطان عثمان الثالث ١٧٥٤ — ١٧٥٧ والسلطان مصطفى الثالث ١٧٥٧ — ١٧٧٤

تقضى عهد السلطان عثمان في سكينة وسلام وأما عهد السلطان مصطفى فقد تقضى في محاربة الامبراطورة كاترينا صاحبة روسيا ودارت دائرة أكثر المواقع في هذه الحرب على العثمانيين وأفقدتهم بلاد القريم حيناً لانتقاض الأهالي عليهم ثم استردوها برضى من الأهالي. وكان السلطان مصطفى ذا جد ودهاء وبسالة الا أنه وجد

الدولة شديدة الضعف والخور والحاجة الى المال بعد حروبها الماضية فلم يستطع فعل أكثر مما فعل.

السلطان عبد الحميد الأول ١٧٧٤ — ١٧٨٩

بعد جلوس هذا السلطان على الأريكة العثمانية أرسل جيشاً لاتمام محاربة روسيا فأصابه الفشل واشتد جزع الأمة فعقد صلح قينارجه مع الروس (١٧٧٤) ومن شروطها استقلال بلاد القريم وان تمنح روسيا عدة بقاع وتنجلي عن الجزائر والأمكنة الاخرى التي احتلتها ويكون نهر آف الفاصل بين الدولتين وتكون روسيا حامية النصارى الارثوذكس في الممالك العثمانية.

وفي سنة ١٧٧٥ هجم الأعجام على العراق العربي فردتهم الجنود العثمانية على أعقابهم وفي نحو سنة ١٧٨٢ استولت روسيا على القريم ثم اقتسمت بولونيا وحالفت النمسا فشهر السلطان الحرب (١٧٨٧) عليها وعلى حليفتها وكانت أول المواقع التي جرت موقعة اوزي البحرية انتصر فيها الروس ثم تلتها موقعة جزيرة بيلان انتصر فيها اسطول العثمانيين ثم موقعة بوغاز مهاديه ظهرت فيها جيوش الدولة على النمسويين.

وفي سنة ١٧٨٩ قام السلطان سليم الثالث واستأنف الحرب فدارت الدائرة على أساطيله في موقعتين حربيتين وكذلك دحرت جنوده مع كون النمسا صالحت الدولة وخرجت من القتال واستولت الروس على قلعة اسمعيل وعند ذلك توسطت انكلترا وبروسيا وهولنده وأكرهت روسيا على عقد مصالحة ياش وكان من مقتضاها أن ترد للدولة العثمانية كل الأماكن التي فتحتها ما خلا أوزي وما بين نهري بوغ ودونياستر وان تستولي على القريم وشبه جزيرة طمان وبلاد قوبان وبسارابيا وانْ يجعل الدنيابر حداً فاصلاً بين السلطنتين (١٧٩٢).

— ٦٢ —

حروب إيطاليا وذكر كارلوس الثامن ولويس الثاني عشر

حملة كارلوس الثامن على إيطاليا (١٤٩٤)

ثبت لدى القارىء من مطالعة ما سبق بيانه أن الملوك اغتصبوا جميع السلطة التي كانت موزعة بين الشرفاء على اختلاف درجاتهم فكان من نتائج هذا الانقلاب أن الحروب التي كانت تجري بين مقاطعة ومقاطعة وولاية وأخرى أصبحت تجري بين دولة ودولة. وأول أمة كانت على استعداد وأهبة للحرب فرنسا فهي لذلك كانت أول عازمة على السطو على غيرها والخروج من تخومها. ولقد قال لويس الحادي عشر عندما عرض عليه أهل جنوا أن يكون صاحب الأمر عليهم «إنهم يهبونني بلادهم وأنا أهبها للشيطان» وكانت في هذا الامتناع حكمة بالغة. وكذلك أبى هذا الملك لمثل هذه الحكمة أن يطالب بما أورثه آل انجو من الحق بمملكة نابولي. أما ابنه كارلوس الثامن فقد استرد هذا الحق المتروك ومن أجل أن يتفرغ للفتوح حيث كان يظن أنه يزحف من نابولي على الآستانة ومن الآستانة على القدس ركب غلطاً فاحشاً فترك سردينيا وروسيليون لفرديناند الكاثوليكي وفرانش كونته وشاروله وأرتوا لمكسيمليان توهماً منه أنه بذلك يوطد الأمن على تخوم فرنسا.

ثم اجتاز الألب ودخل بلا قتال الى تورينو ثم الى ميلانو وكان مغتصبها لودوفيك لمور يحتاج الى مساعدته لمقاومة أهل نابولي الى فلورنسا ثم الى رومة ثم الى نابولي وكان ملكها فرديناند الثاني قد خانه جنوده وتركوه (١٤٩٥) فتتوج في تلك العاصمة ملكاً على نابولي وأمبراطوراً للشرق وملكاً للقدس. وبينما كان مستغرقاً في الملاهي والمسرات تآمر عليه زعماء البندقية ولودوفيك لمور والبابا اسكندر السادس ومكسيميليان وفرديناند الكاثوليكي وهنري السابع. وكان أربعون ألف مقاتل ينتظرونه على سفح جبال الابنين فلما بلغه هذا النبأ ترك في الجنوب أحد عشرة ألف

مقاتل وسار مسرعاً الى الشمال فدحر أعداءه في فورنو (١٤٩٥) واجتاز الألب راجعاً غير انه فقد ثمرة هذه الحملة الجميلة.

ولما نجت ايطاليا من الفرنسيس عادت الى خصوماتها الداخلية.

لويس الثاني عشر (١٤٩٨) وذكر فتح ميلانو ونابولي

خلف هذا الملك كارلوس الثامن (١٤٩٨) وهو ابن عمه وتزوج بأرملته خوفاً من أن تتزوج بأمير أجنبي يستولي على مقاطعة بريتانيا التي كانت لها.

ثم أخذ يطالب بما كان لسالفه من الحق بملك نابولي وبما ورثه عن جدته سليلة آل فيسكونتي من الحق بإمارة ميلانو. ولبلوغ أمنيته هذه أغرى أهل البندقية وفلورنسا وقيصر بورجيا بالمواعيد ثم أرسل قائداً له إيطالي الأصل يدعى تريفولس ففتح ميلانو وفرّ أميرها ليمور من وجهه الى تيرول (١٤٩٩) ثم عاد فقاتله تريفولس بقرب نوفاره وغلبه أيضاً (١٥٠٠) فسلمه جنوده للفرنسويين فأرسلوه الى فرنسا واعتقل في قصر لوش.

ثم اتفق لويس الثاني عشر مع الفلورنتيين فساعدهم على إخماد ثورة بيزا وأعان قيصر بورجيا ابن البابا اسكندر السادس على نيل إمارة رومانيا واقتسم نابولي بينه وبين فرديناند الكاثوليكي (١٥٠٠) فأعطاه بويل وكالابر وأخذ الباقي مع لقب ملك نابولي. أما ملكها السابق فاستسلم للويس فأسكنه على ضفة نهر اللوار وأجرى له راتباً (١٥٠١). ولم يلبث أن وقع النزاع بين الاسبانيين والفرنسويين فانتشبت على أثره حرب دارت دائرتها على الفرنسويين فانجلوا ثانية عن تلك المملكة (١٥٠٤) فقنع لويس الثاني عشر أن يحتفظ بميلانو واضطر من أجل ذلك أن يوقع على معاهدة بلوا (١٥٠٤) التي تنازل فيها عن حقوقه بنابولي لشارلكان على أن تترك له ميلانو.

وكان شرلكان ملك هولنده وولي عهد النمسا واسبانيا فلما استزاد ملك نابولي طلب أن يتزوج بابنة لويس ويأخذ بورغونيا وبريتانيا مهراً لها فعقد الملك لذلك

جمعية النواب فقررت أن المقاطعتين المشار اليهما لا تسلخان عن أملاك فرنسا وأشارت عليه برفض طلب شرلكان وبتزويج ابنته لولي عهده فرنسوا دوق انجوليم.

عصابة كمبراي (١٥٠٨) والعصابة المقدسة (١٥١١)

وكان البابا جول الثاني قد خلف اسكندر السادس وعزم على إجلاء الأجانب عن إيطاليا وإذلال البندقية وجعل الكرسي المقدس أعظم دولة إيطالية فأول ما فعله أن حمل لويس الثاني عشر وفرديناند الكاثوليكي والامبراطور مكسيميليان على عقد محالفة كمبراي سنة ١٥٠٨ وفي نفس كل منهم شيء يأخذه أو يسترده من البندقية فنازل لويس الثاني عشر البنادقة وانتصر عليهم بقرب أغاندل وأغنى بذلك حليفيه عن الاشتراك معه عن القتال وأخذ ما شاء وأعطاهما ما طلباه فلم يكن من البابا بعد ذلك إلّا أن حول محالفة كمبراي على الفرنسويين أنفسهم وأخذ يحاربهم بنفسه ليخرجهم من ايطاليا فعقد لويس مجمعاً في بيزا استصدر منه قراراً بخلع البابا فعقد البابا مجمعاً آخر في لاتران حرم به ملك فرنسا وحزب عليه جميع الدول الكاثوليكية حتى أهل سويسرا الذين كانوا مغمورين بنعمه.

دخول المتحالفين فرنسا (١٥١٣) وذكر الهدنة (١٥١٤)

في أول الأمر فازت فرنسا على يد قائدها غاستون دي فوا فإنه أرجع السويسريين الى جبالهم وأخذ بريسيا من البنادقة ورافينا من المتحالفين (١٥١٢) إلّا أنه قتل في موقعة ونصب مكانه لاباليس فردّه الأعداء الى الألب ودخل مكسيميليان سفورزا ابن لودوفيك يمور الى ميلانو عنوة ثم سطا الأعداء على فرنسا من ثلاثة جوانب وانتصروا على الفرنسويين وتقدم السويسريون الى ديجون فردوا عنها بالرشوة وكان لملك فرنسا حليف واحد هو ملك اسكتلنده جاك الرابع فقتل في إحدى المواقع فلما رأى لويس انهيال المصائب عليه عقد هدنة وأنكر ما قرره مجمع بيزا وتعهد بتأدية ١٠٠.٠٠٠ ريال سنوياً لملك انكلترا الى عشر سنين (١٥١٤). فنتج من ثم أن فرنسا بعد ما سفكته من الدماء وفقدته من الرجال مدة خمس عشرة سنة رجعت الى مثل ما كانت عليه في آخر عهد كارلوس الثامن. وتوفي لويس في أول شهر يناير سنة

١٥١٥ . وكانت إدارته الداخلية أفضل من سياسته فإنه أسس برلماني بروفانسا ونورمنديا وجعل التحقيق الجنائي باللغة الفرنسوية لا اللاتينية وحظر السطو الذي كان مباحاً لرجال الحرب وأنجح التجارة والصناعة بحيث لقب بأبي الشعب.

— ٦٣ —

البعثة الاقتصادية

اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٧)

كان النورمنديون أول من ركبوا البحر وساروا فيه للاكتشاف ثم تبعهم البرتغاليون وسبقوهم وفي سنة ١٤٧٢ اجتازوا الخط الاستوائي وفي سنة ١٤٨٦عرف بارتلمي دياز رأس الأنواء الذي سماه الملك يوحنا الثاني برأس الرجاء الصالح تفاؤلاً واجتازه فاسكو دي غاما سنة ١٤٩٧ ووصل منه الى كاليكوت على ساحل مالابار وقد أسس الفارس كابرال أول مركز أوربي في كاليكوت بالهند وكان في طريقه قد قذفته العاصفة الى بعض شواطىء البرازيل.

مملكة البرتغاليين الاستعمارية

أعظم الفضل في تأسيس هذه المملكة وتشييدها يرجع الى الملاح الشهير البوكرك فإنه باستيلائه على سوكوتورا وأرموز أقفل على البنادقة وغيرهم طريق التجارة الهندية ثم فتح جاوا (١٥١٠) وجعلها عاصمة الهند البرتغالية وحالف ملكي سيام وباغو وامتلك جزائر مولوك ثم بينما هو يستعد لمحاربة مصر وشبه جزيرة العرب عزله الملك (١٥١٥) ومنح منصبه لجان كاستر وفتح كمباي ثم اكتشف اليابان سنة ١٥٤٢ وأسس مصرفاً إزآء كانتون في جزيرة سانسيام. وفي الجملة كانت المراكز التي احتلها البرتغاليون بعد جاوا موزامبيق وسوفالا وماليند على شاطىء أفريقيا ومسقط وارموز على خليج العجم وديو على شاطىء مالابار ونيغاباتام على شاطىء كوروماندل ومدينة ملقه في شبه الجزيرة المعروفة بهذا الاسم وجزائر مولوك التي احتلوا

منها ترنات وتيمور ثم الكونغو وغيرها على الساحل الغربي من أفريقيا وهذه كانت قليلة الفائدة في أول الأمر الى أن دارت فيها سوق النخاسة. ثم البرازيل. وبقي البرتغاليون زماناً طويلاً لا يرسلون لاستعمارها إلا المحكوم عليهم أو اليهود المبعدين.

خريستوف كولمبوس (١٤٩٢) ومملكة الاسبانيول الاستعمارية

اكتشفت أمريكا في سنة ١٤٩٢ ومكتشفها خريستوف كولومبس الشهير الجنوي الأصل. وكان قد لاح لهذا الرجل العظيم أن الهند لا بدّ أن تكون ممتدة كثيراً الى الشمال لتوازن القارة الأوروبية ومن أجل ذلك اعتقد أنه إذا أبحر في المحيط الأتلانتيكي مغرّباً وصل الى أقصى شاطىء للهند غير أن مجلس الشيوخ في جنوا وملك البرتغال وملك اسبانيا لم يجيبوه الى ما طلبه من السفائن للاكتشاف استخفافاً «بأوهامه» وبعد اللتيا والتي منحته الملكة اليصابات ثلاثة مراكب صغيرة فظل في البحر شهرين. وفي ١١ اكتوبر من سنة ١٤٩٢ نزل في غوانهاني وهي إحدى جزائر لوكاي ودعاها سان سلفادور. وفي رحلته الثالثة أدرك العالم الجديد ولم يفطن لذلك (١٤٩٨) وفي رحلته الرابعة اكتشف شواطىء كولومبيا معتقداً أنها الهند ولذلك سماها الهند الغربية وبقي لها هذا الاسم الى أن دعيت أمريكا باسم أمريغو فسبوتشي الذي لا فضل له إلا أنه ألقى مراسيه ودخل البر قبل كولمبوس.

ومن ذلك الوقت توالت الاكتشافات ففي سنة ١٥١٣ قطع بالبوا برزخ بناما وأبصر المحيط الكبير وفي سنة ١٥١٨ وجد غريجالفا المكسيك ثم افتتحها فرناند كورتس (١٥١٩ — ١٥٢١) وفي سنة ١٥٢٠ وجد ماجلان المفرق المائي الذي سمي باسمه بين أمريكا الجنوبية والأرض النارية واجتاز المحيط الباسيفيكي وتوفي أثناء رحلته ثم عاد رفاقه الى اسبانيا مارين من جزائر المولوك ورأس الرجاء الصالح وكانوا أول رجال طافوا حول الأرض. وبعد ذلك اكتشف الماغوا وبيزاري بلاد بيرو وشيلي فأضيفت الى أملاك اسبانيا وأسس آخرون مدينة بوينوس ايرس على مصب البلاتا وفي سنة ١٥٣٤ اكتشف كارتنه بلاد كندا لفرنسا على أن المستعمرات البرتغالية لم تلبث أن نزعت من يد البرتغال سريعاً لأنها لم تقم فيها إلا مصارف تجارية

بخلاف المستعمرات الاسبانية التي قصدها العدد الكبير من الاسبانيين لاستخراج الذهب من مناجمها فإنها كانت أثبت لكثرة مستعمريها وكانت منقسمة الى حكومتين كبيرتين حكومة المكسيك وحكومة ليما . ولا يزال الجيل الاسباني هو السائد في المكسيك وأمريكا الجنوبية الى هذا اليوم كما لا يزال الجيل البرتغالي سائداً في البرازيل .

النتائج

نتج من هذه الاكتشافات انها فتحت أبواباً للمكاسب الطائلة من القسم الشرقي الذي كان مجهولاً ومن القارة الجديدة وحولت الثروة من دول البحر المتوسط كإيطاليا الى دول المحيط الاتلانتيكي كإسبانيا والبرتغال أولاً ثم هولندا وانكلترا بعدهما وأوجدت المقادير الكبيرة من الأموال بين أيدي أهل أوروبا فأصلحوا من أراضيها وحسنوا من أحوال صنائعها وزراعتها أضعاف ما فعلوا الى ذلك العهد وإذا أضفنا الى ما تقدم إنشاء البريد في فرنسا والهويسات والترع في البندقية والمصارف المالية التي أسسها اللومبارديون وشركة الهانس ومحلات التأمين التي وجدت في برشلونة وفلورنسا ثم في بورج وجدنا أن كل ذلك كان أساس البعثة الاقتصادية العظيمة التي نقلت الدنيا من الحال الأول التي علمناها الى الحال التي هي عليها الآن .

— ٦٤ —

بعثة الآداب والفنون والصنائع

اكتشاف المطبعة

عندما خرجت الناس من القرون المتوسطة المظلمة اشتدت رغبتهم في المباحث العلمية والآداب والمطالعات وكانوا مع ذلك لا يعثرون على كتاب قديم إلا كأنهم ظفروا ظفراً مبيناً لشدة غلاء الكتب وعزة وجودها فلما اخترع غوتنبرج المطبعة ذات الحروف المتنقلة في سنة ١٤٥٤ وظهر أول كتاب مطبوع وهو التوراة انتشرت هذه

الصناعة بأعظم سرعة ورخصت الكتب وأخذ الطباعون ينشرون للناس أعز الكتب القديمة بالثمن الزهيد فأقبلوا عليها إقبالاً عظيماً.

بعثة الآداب

وعند أول ظهور هذا الاختراع الجليل تناولته إيطاليا فأقيمت المطابع في رومة والبندقية وميلانو قبل سنة ١٤٧٠ وكذلك المكاتب والمدارس الكلية وغيرها وأخذ أهل المعارف يترجمون الكتب القديمة ويصنفون الجديدة. وكان البابا جول الثاني يدني منه العلماء وأهل الفنون والكتاب كإدنائه القواد والسياسيين وهو الذي أعلى برعايته شأن رافائيل وميكالنج الشهيرين بالتصوير وهندسة البناء وتزويقه. وفي ذلك العهد كانت المرتبة الأولى بكثرة عدد الأدباء وأهل العلم لإيطاليا ثم لفرنسا ثم لألمانيا.

بعثة الصنائع

وكانت القدم الأولى في الصنائع لإيطاليا أيضاً فقد وجد فيها برامانت باني كنيسة القديس بطرس وميكالنج واضع قبتها الشهيرة ووجد فيها النحاتون الذين ضارعوا بمنقوشاتهم الأقدمين والمصورون الذين لم يماثلهم أحد قبلهم ولا بعدهم كميكالنج ورافائيل وليونارد دي فنشي وتيسيان. وتلت فرنسا تلو إيطاليا في هذا الباب فشيدت عدداً كبيراً من القصور والصروح منها اللوفر والتويلري وفونتنبلو وبلوا وشامبور وقام فيها النحاتون المشاهير كجان جوجدن وجرمان بيلون. أما المانيا فوجد فيها مصوران هما دورر وهولبن. ومما يجمل ذكره أن فن الرسم بالحفر اخترع في ذلك الزمان وكانت تنقل به صور أجمل المصنوعات وأكمل الأبنية الى كل مكان كما كانت الطباعة تنشر التآليف. ومن مشاهير ذلك العهد أيضاً باليسترينا مبدع الموسيقى الكبرى.

بعثة العلوم

أما العلوم فلم تخط خطوة كبيرة وإنما امتاز بين المشتغلين بها بعض المهندسين في ايطاليا وكوبرنيك الشهير في بولونيا وهو الذي اكتشف حقيقة النظام الشمسي سنة ١٥٠٧.

الثورة المذهبية أو الاصلاح

الاكليروس خلال القرن السادس عشر

كانت الكنيسة قد تحولت من حالتها الفقرية الأولى الى حالة العظمة والثروة وأصبح البابا كالملك والأساقفة كالأمراء بالغنى والجيوش فنادى الكثيرون بضرورة الإصلاح والإقلاع عن هذه الحالة وكان الإصلاح لا بد حاصلاً.

لوثير (١٥١٧)

هو ابن معدّن سكسوني من أسلبن كان من رهبنة القديس اغسطينوس وترقى بعلمه حتى أصبح الأستاذ الأكبر في كلية ويتنبرج. واتفق انه زار رومة فاستغرب ما وجد فيها من سوء حالة الكنيسة وخصوصاً من بيع البابا للغفرانات توسلاً بذلك لإتمام بناء كنيسة القديس بطرس. فراجع أصل التعاليم المتعلقة بالغفرانات فوجد عمل البابا مخالفاً لها فعزم على مقاومته في ذلك ولما رجع نشر على أبواب كنيسة ويتنبرج ٧٥ اقتراحاً في ما يختص بالغفرانات فردّ عليه الراهب تتزل الدومينيكاني وكان سمساراً لمبيع الغفرانات في النانيا بمئة وعشرة اقتراحات مناقضة لاقتراحاته وبذلك كان ابتداء الحرب. وظن البابا أن المسألة ليست إلا مناقشة رهبان فبعث رسولاً من قبله لتأديب لوثير وكفه عن نشر آرائه فاحتج على الرسول ثم على البابا ثم على المجامع الكنسية وعلّم أن التقاليد لا صحة لها ولا ينبغي اتباعها وان الكتاب المقدس هو كل الدين وان لا وسيط بين الله والناس وان لا قوام لكل عمل تعمله الكنيسة وهو لا ينطبق على ما جاء في الكتاب وان كلاً يفسر الآيات على ما يلهمه الله.

فأصدر البابا حرماً على صاحب البدعة فأحرق لوثير أمر البابا جهاراً وكان مشدوداً إزره بفريدريك دوق سكس الملقب بالحكيم. ورأى الامبراطور شرلكان أن ينتصر للكاثوليك ليستميلهم اليه فدعا لوثير ليحاكم أمام مجلس ورمس فأتى غير

خائف وكان محفوفاً بجمهور من أنصاره فلم يستطع أحد أن يلحق به أذى ثم رجع وأخفاه دوق سكس في قصر وارتبورج حماية له فكان لوثير يكتب الرسائل تترى من ذلك المأمن وينشرها في جميع المانيا. فعظمت شوكته وكبر حزبه وكان على مذهبه بعض الأمراء كمنتخب سكس وحاكم قصر هس ودوقية مكلنبرج وزل وبوميرانيا لأنه قال بضرورة خضوع الكنيسة للحكام.

وحدث أن بعض أتباع لوثير في سواب وتورنجيا ثاروا وركبوا منكرات كثيرة طالبين المساواة بين الناس في كل شيء فأنكرهم لوثير وقال بوجوب محاربتهم فأهلكوا ألوفاً (١٥٢٥). وداخل البلاد الخوف من تجدد مثل هذه الفظائع فانعقد مجلس النواب في مدينة سبيرا البافارية وأصدروا أمراً بمنع نشر تعاليم الشيعة الجديدة (١٥٢٩) فاحتج أهل هذه الشيعة على هذا الأمر ومن أجل ذلك دعوا بالبروتستان أو المحتجين. وفي السنة التالية نشروا في أوجسبرج قانون إيمانهم الذي بقي بعد ذلك الرابطة بين أتباع لوثير (١٥٣٠).

ولم يتفرغ شرلكان لمعاندة هذه الشيعة لاشتغاله بمحاربة سليمان الأول وفرنسيس الأول فلما عقد معاهدة كرسبي وتوفي ملك فرنسا حمل على الامراء اللوثيريين وكسرهم في موهلبرج (١٥٤٧) وظن أن المانيا كلها ركعت على قدميه بعد هذا الانتصار غير أن أمراءها حالفوا ملك فرنسا هنري الثاني (١٥٥١) وأوشك موريس دي سكس أن يقبض على الامبراطور نفسه في موقعة اينسبروك (١٥٥١) فعقد معهم الصلح في أوجسبرج ومنح الاصلاحيين الحرية المذهبية التامة (١٥٥٥).

الاصلاح اللوثري في الممالك السكندينافية

عندما أنقذ غوستاف فازا بلاد أسوج من السيادة الدنيمركية واستقل بها قرّب المصلحين فيها وأحسن اليهم ليتخذهم عوناً له على إسقاط سطوة الاكليروس وللتوصل الى الملك وأما الدنيمرك فقد استخدمتهم لتسويد الشرفاء على الاكليروس

فلما استفحل أمرهم ألفوا مجلس النواب وجعلوا الملوك تحت وصايتهم والشعب تحت نيرهم مدة عشرين سنة.

الاصلاح في سويسرا وذكر زوينكل (١٥١٧) وكلفينوس (١٥٣٦)

انتشر الاصلاح في سويسرا على أثر انتشاره في المانيا وكان الاستاذ زوينكل قد صرح منذ سنة ١٥١٧ بأنه لا مرجع في الإيمان الا الى الانجيل. وعرف مذهبه بالانجيلي وامتد في جميع سويسرا عدا لوسرن وأوري وشويتز وانترلند. وفي سنة ١٥٣١ انتشبت حرب بين الانجيليين والكاثوليك قتل فيها زوينكل وفاز خصومه ومع ذلك تقرر أن كل مركز يلبث حافظاً لمذهبه غير أن مدينة جنيفا كانت حانقة على أسقفها لسوء سيرته وكان متولياً أحكامها الدنيوية والدينية فتحولت الى المذهب الجديد فحاربتها من أجل ذلك مقاطعة سافوا فاستعانت جنيفا بمركر برن على عدوتها ونجت بذلك من فتكها (١٥٣٦) وعلى أثر هذه الحرب أتى كلفينوس جنيفا وهو فرنسوي الأصل ولد في نويون وذهب الى تحريم كل ما لم ينص عليه الانجيل نصاً مبيناً وحصل في المدينة على سلطة مطلقة فكان يحكم بالقتل على من يرتكب هفوة. وبهذه السياسة الشديدة جعل جنيفا عاصمة المذهب الاصلاحي.

الإصلاح في هولندة وفرنسا واسكتلندة وانكلترا

عندما اتصل مذهب لوثير من المانيا بهولندة كانت مقسومة الى ١٧ ولاية متحالفة تحت حكم الامبراطور شرلكان فأقام فيها تفتيشاً شديداً على أهل المذهب الجديد وقتل منهم ٣٠ ألفاً فعادت الى الكاثوليكية الى أن دخلها مذهب كلفينوس بطريق الألزاس من سويسرا فاعتنقته.

أما فرنسا فلم يدخلها المذهب اللوثيري بل الكلفيني وقلّ انتشاره فيها. وكان ملكُها فرنسيس الأول يؤيد البروتستان في المانيا ويضطهدهم في مملكته وكذلك هنري الثاني فإنه أصدر أمراً بإعدام كل مخالف للمذهب الكاثوليكي.

أما اسكتلنده فساد فيها المذهب الكلفيني أيضاً وكان قد شمل جميع أطرافها

حين توفي الملك جاك الخامس وعهدت أرملته في إدارة شؤون المملكة الى الكردينال بيتون فمنع المذهب الكاثوليكي منعاً باتاً وقتل من أجل ذلك (١٥٤٦).

أما دخول الاصلاح الى انكلترا فكان على يد ملكها هنري الثامن وذلك أنه تعشق امرأة تدعى حنة بولين فأحب أن يقترن بها والتمس من البابا اكليماندوس السابع حلّ زواجه بامرأته كاترينا داراغون فلم يجبه الى ما أراد فاستصدر قراراً بالطلاق من برلمانه فحرمه البابا فجعل نفسه رئيس الكنيسة الانكليكانية (١٥٣٤) وألغى الرهبنات وأخذ أموال الأديرة (١٥٣٩) وأصدر ٧٢ ألف أمر بالإعدام لمخالفي مذهبه ونشر التوراة الانكليزية ليطالعها الشعب. ثم خلفه ادوارد السادس فانتصر للكاثوليكية (١٥٤٧) وأيدها وحين توفي (١٥٥٣) أجلس وارويك على العرش حنة غراي لتعضد البروتستانية ولكنها لم تملك عشرة أيام حتى قتلت بدسيسة من ماري ابنة هنري الثامن وخلفتها هذه الأميرة فتزوجت بفيليب الثاني ملك اسبانيا وصالحت الكرسي المقدس وأماتت كثيرين من البروتستان ولذلك لقبت بسفاكة الدماء. وقد حملها زوجها على محاربة فرنسا ففقدت مدينة كاله واستمرت حزينة عليها الى وفاتها (١٥٥٨) فخلفتها اليصابات وفي سنة ١٥٦٢ جعلت الكنيسة الانكليكانية على ما هي عليه الى الآن في انكلترا.

— ٦٦ —

نهضة المذهب الكاثوليكي

الإصلاحات التي جرت في البلاط البابوي والكنيسة وذكر اليسوعيين

إن هذه الصدمة التي لقيتها الكنيسة أفقدتها نصف سلطتها فتنبه البابوات من غفلتهم وشرعوا في إصلاح داخليتهم وأقاموا محكمة تفتيشية سفاكة دماء (١٥٤٢) لمعاقبة كل من يحيد عن المذهب الأرثوذكسي في ايطاليا وجمعية أخرى لمراقبة الكتب وتنقيحها قبل تمثيلها بالطبع فأزالوا بذلك حرية الضمير وقتلوا الآداب والصنائع

الجميلة. ثم أصلحوا الرهبنات الموجودة وأسسوا رهبنات أخرى جديدة منها رهبنة اليسوعيين التي وجدت في سنة ١٥٤٠ وكان نظامها من أقوى وأحكم النظامات السياسية التي وضعت الى ذلك العهد. وانتشر رجال هذه الرهبنة بين الناس يعظون وينشئون المدارس ليستولوا على عقول الأحداث ويصبغوا أفكارهم بالصبغة التي يريدونها. ولما توفي اغناطيوس لويولا مؤسس هذه الرهبنة (١٥٥٦) كان أعضاؤها ألفاً ومدارسها مئة وكان جماعة من رجالها قد انبثوا في اسبانيا وايطاليا والنمسا وبافاريا وفرنسا وجماعة آخرون في البرازيل والهند واليابان والحبشة

المجمع الترنتي أو التريدنتي (١٥٤٥—١٥٦٣)

هذا المجمع الكنسي عقده البابا بولس الثالث في سنة ١٤٥٤ في مدينة ترنتا إرادة أن يقرر أن التعاليم الكاثوليكية لا تعديل ولا تسامح فيها. ثم طرأ من الحوادث ما أوجب انتقال هذا المجمع الى مدينة بولونيا (١٥٤٦) ولكنه أعيد الى ترنتا سنة ١٥٥١ فبقي سنة وتفرق مدة عشرة سنين قبل الفراغ من أعماله. وفي أثناء تفرقه استعان البابا بالفرنسويين على إجلاء الاسبان عن المواضع التي كانوا محتليها من إيطاليا فبقي النصر للإسبان واضطر البابا أن يقلع عن نية الاستقلال بإيطاليا ثم كان من نتيجة ما أقر عليه المجمع أن المجامع تكون خاضعة للبابا وأنه هو صاحب السلطة المطلقة في إدارة الاكليروس وتقليب نظاماته وصاحب الرأي النافذ في تفسير القوانين الدينية وأنه لا يقبل الخطأ في مسائل الإيمان.

وأشهر البابوات الذين ملكوا رومة بعد هذا المجمع غريغوريوس الثامن صاحب التقويم السنوي المعروف باسمه ثم سكست كنت (١٥٨٥ — ١٥٩٠) وهو الذي أصلح شؤون المالية وأنقذ مملكته من قطاع الطرق ووسع رومة وبالغ في تحليتها وابتنى مكتبة الفاتيكان وأضاف اليها مطبعة لنشر الكتب الدينية.

حروب أخرى جرت بإيطاليا وذكر فرنسيس الأول وشرلكان وسليمان الأول القانوني

فرنسيس الأول وانتصاره بمارينيان (١٥١٥)

عندما خلف فرنسيس الأول لويس الثاني عشر قصد افتتاح ميلانو فاجتاز الألب والتقى في مارينيان بثلاثين ألف سويسري دحرهم فعقدوا معه صلحاً دائماً ولم يحاربوا الفرنسويين بعد ذلك الى زمن الثورة وسميت هذه الموقعة بموقعة الأبطال (١٥١٥). وعلى أثرها أسرع البابا فعقد الصلح مع الفاتح الجديد في سنة ١٥١٦ فاتفقا على أن تلغى الانتخابات الاكليريكية ويعين الملك مباشرة الأساقفة ويعطي البابا إيراد سنة من كل كرسي أسقفي يخلو.

عظمة شرلكان

في سنة ١٥١٦ توفي فردينند الكاثوليكي فخلفه كارلوس دوتريش الذي سمي بعد ذلك بشرلكان وأصبح صاحب اسبانيا والنمسا وهولندة وفرانش كونته ونابولي وصقليا وأمريكا. وكانت هذه الدولة الناشئة مما يوجب تهيب الدول وحذر فرنسا غير أن فرنسيس الأول لم يكترث لها لكثرة انقسامها وتشتتها وعقد مع شرلكان معاهدة نويون (١٥١٦) فسهل له وضع تلك التيجان على رأسه بدون معارضة. غير أن صداقة الملكين لم تستمر إلا ثلاث سنين الى أن توفي الأمبراطور مكسيميليان فتناظرا في السعي لخلافته ثم فاز شرلكان ولقب بالأمبراطور وحالف انكلترا والبابا استعداداً لمحاربة خصمه. وكان فرنسيس الأول هو البادىء بالمعاداة من حيث وبخ شرلكان على عدم إرجاعه له مقاطعة نافاريا الفرنسوية طبقاً لما جاء في معاهدة نويون فلما لم يجبه أرسل ٦٠٠٠ مقاتل فاحتلوا تلك المقاطعة بقيادة الدوق دي بويون ثم هاجموا الكسمبورج. ولكن الفرنسويين انكسروا في قشتالة وكاد عساكر الأمبراطور يأخذون بلدة مازيار لو لم يدخلها بايار ويحميها منهم (١٥٢١) وكذلك

انكسر لوترك القائد الفرنسوي في موقعة بيكوك (١٥٢١) لأن جنوده السويسريين خذلوه وانجلى عن ميلانو فجرأ ذلك أهل البندقية وجنوا على خلع النير الفرنسوي. وفي هذه السنة نفسها رقي شرلكان الى كرسي البابوية أدريان السادس الذي كان أستاذه وأصبح صنيعته.

موقعة بافي (١٥٢٥) ومعاهدتي مدريد (١٥٢٦) وكامبراي (١٥٢٩)

ولم تلبث فرنسا أن أصبحت مهددة الجوانب لأن الكونيتابل دي بوربون خانها انتقاماً من الملك الذي أساء معاملته وحارب مع عساكر شرلكان فانتصر على بونيفيه في بياغراسو التي قتل فيها بايار (١٥٢٤) ودخل بروفنسا غير أن ثورة أهلها ألجأته الى الخروج منها فتبعهم الجيش الفرنسوي وفي مقدمته الملك والتقوا بهم في بافي وكانت مدافع فرنسيس الأول تمزق الأعداء تمزيقاً غير أنه أخذته هزة نزق فهجم بخيالته عليهم أمام نيران مدافعه وخسر الموقعة وأسر (١٥٢٥) فاضطر للتخلص من أسره أن يوقع على معاهدة مدريد (١٥٢٦) التي تنازل بمقتضاها لكارلوس عن بورغونيا ونابولي وميلانو وجنوا وفلاندر وأرتوا ورد أملاك دوق بوربون له ووعد بأن يتزوج بشقيقة الأمبراطور ملكة البرتغال ولما رجع الى مملكته استصدر قراراً من نواب بورغونيا بأنه لا يجوز التصرف بولاية من ولايات فرنسا فتشاتم من أجل ذلك الملكان وتداعيا الى البراز ثم أديرت رحى الحرب ثانية.

وكان البابا وملك انكلترا قد انفكا عن محالفة شرلكان ذاك لخوفه على استقلال ايطاليا وهذا لأن الامبراطور لم يفه ما وعده به فنزلت أول نوازل الحرب الثانية على ايطاليا وذلك ان بوربون دخلها بجيش من اللوتيريين وحاصر رومه فقتل وراء اسوارها ولكن جيشه دخلها عنوة واستباحها قتلاً ونهباً وتدميراً (١٥٢٧). وكان لوترك قد فتح ميلانو ثانية وتقدم الى نابولي غير ان العمارة الجنوية غدرت به فاضاعت ثمرة الحملة وتوفي لوترك مصاباً بالطاعون وأجلى الفرنسويون ثانية عن ايطاليا. وعند ذلك ظهر فيها شرلكان فاكره دوقية فراري وميلانو ومانتو على الانتماء اليه ومقاطعتي سافوا ومونفرات على ترك محالفة فرنسا والبابا اكليمندوس السابع على

تتويجه ملكاً لايطاليا وامبراطوراً (١٥٢٩) وعند ذلك وقع ملك فرنسا على معاهدة كامبراي التي لم يدخل فيها التنازل عن بورغونيا ولكن تعهد بموجبها أن يتخلى عن حلفائه في ايطاليا وعن حقوقه بنابولي وان يعترف بسفورزا دوقا لميلانو (١٥٢٩).

محالفات فرنسيس الأول وانتصارات سليمان

وعاد فرنسيس الأول يستعد للانتقام فحالف البروتستان في المانيا وفي اسوج ودنيمرك وحالف كذلك السلطان سليمان الأول. وكان سليمان على ما علمناه بطلاً باسلاً نصيراً للأداب والصنائع والعدل وهو واضع القانون العثماني ولذلك لقب بالفاتح والقانوني والجواد.

وبينما كان هذا السلطان في عودته الى النمسا يحاصر ستيريا اتته سفارة من فرنسيس الأول بطلب محالفته وكان ينوي الزحف على المانيا غير أنه علم أن أسطولاً اسبانيولياً وصل الى الدردنيل فرجع لوقاية عاصمته (١٥٣٢).

وكان فريدريك باربروس امير بحر الأساطيل العثمانية كما رأينا ذلك وفي سنة ١٥٤٠ ثار أهل مركز غاند على الأمبراطور فاذن له فرنسيس الأول بامرار جنوده من فرنسا لاخضاع الثائرين على أن يرجع اليه ميلانو فوعده بذلك ثم أخلف وقتل رسولين كان فرنسيس الأول منفذهما الى سليمان الأول فضم ملك فرنسا عمارته الى عمارة بابروس وفتح نيقا وانتصر قائده دوق انجيان انتصاراً مبيناً في سريزول (١٥٤٤) ولكن شرلكان دخل من الشمال الى شاتوتياري على ١٥ ميلاً من باريس وكان ملك انكلترا حليفه يفتح بولونيا الا أن المجاعة والامراض اضعفت جيش الامبراطور فكف عن القتال وعقد معاهدة كرسبي (١٥٤٤) على تساهل منه ومن فرنسيس الأول. وبعد ذلك اعطى ملك فرنسا ملك انكلترا مليوني دينار فانجلى عن بولونيا بموجب معاهدة آردر (١٥٤٦) وفي السنة التالية توفي فرنسيس الأول.

اعتزال شرلكان (١٥٥٦)

فظن شرلكان ان الجوّ خلا له لوفاة عدوه الألد واشتغال سليمان بحروب أسيا غير

أنه لم يلبث ان قامت في وجهه مشكلة جديدة وهي ثورة البروتستان عليه حين تكاثر عددهم في المانيا فكسرهم في موقعة موهلبرج (١٥٤٧) بسبب خيانة موريس دي ساكس ونشر منشور اوجسبرج الذي لم يرض الكاثوليك ولا البروتستان فانتهز ملك فرنسا هنري الثاني هذه الفرصة واعلن انه حامي بروتستان المانيا ودخل اللورين ففتح اسقفيات متس وتول وفردين (١٥٥١) وكان البروتستان من جهتهم قد باغتوا الامبراطور في مكان ففرّ منهم الى ايطاليا وعقد معهم مصالحة باسو التي منحهم بموجبها حرية المذهب (١٥٥١) ثم انصرف لمحاربة فرنسا فلم يستطع أن يسترجع متس وكان قد تعب من الحروب وزهد في الدنيا فمنح ابنه فيليب الثاني اسبانيا وايطاليا وهولنده (١٥٥٦) ومنح أخاه فردينند الامبراطورية الألمانية. ومن ذلك العهد انقسم آل النمسا الى فرعين واعتزل شرلكان في دير (١٥٥٦).

استمرار الحرب بين آل فرنسا وآل النمسا (١٥٥٨ — ١٥٥٩)

لما تولى البابوية بولس الرابع كان الاسبانيون محتلين نابولي وميلانو فاراد طردهم منها فاستعان بفرنسا فارسلت جيشاً الى هولندة وآخر الى ايطاليا ارادة ان تحصر ملك فيليب الثاني في اسبانيا. وكان الدوق دي كيز قد فتح ميلانو وزحف على نابولي اذ ورد اليه أمر بالرجوع الى فرنسا لمقاومة الاسبانيين فعاد وحاصر مدينة كاله فجأة في منتصف الشتاء ودخلها عنوة في ثمانية أيام (١٥٥٨) وكان الاسبانيون قد وصلوا الى سان كانتين وانتصروا على الفرنسويين فيها قبل رجوع دي كيز ثم كسروا المارشال دي ترم بعد فتح كاله فعقد هنري الثاني معهم معاهدة كاتو كامبريزيس ورد بمقتضاها الى دوق سافوا أملاكه عدا بعض المدائن ورد كورسكا الى جنوا واستبقى الأسقفيات الجرمانية الثلاث ومدينة كاله. على أن هذه الحروب لم تفد أحداً كما أفادت البروتستان فانهم تكاثروا في اثنائها حتى أصبحوا نصف سكان اوربا عدداً.

— ٦٨ —

الحروب الدينية التي جرت في غربي أوروبا ١٥٥٩ — ١٥٩٨

فيليب الثاني

كانت الشمس لا تغيب عن املاك هذا الملك العظيم على ما قاله هو نفسه اذ كانت له في ايطاليا صقليا وسردينيا ونابولي وميلانو وفي فرنسا فلمنك وارتوا وفرنش كونته وروسيليون وكانت له هولنده كلها وتونس واوران والرأس الاخضر وجزائر كاناريا في افريقيا ومكسيك وبيرو وشيلي وجزائر الانتيل في أمريكا وجزائر فيلبين في الاوقيانية. وكانت له أساطيل عظيمة وايرادات طائلة وقد انفق كل ماله وقوة ذكائه في محاربة البروتستان بالسيف والدسائس.

مبدأ الحروب الدينية المشار اليها

عندما وقع ملكا فرنسا واسبانيا على معاهدة كاتو كامبريزيس (١٥٥٩) تعاهدا على أن يقاتلا البدعة البروتستانية الى أن يمحوها من اوربا. غير أن هنري الثاني قبض الى ربه وخلفه ابنه فرنسيس فحكم سنة ونصف سنة (١٥٥٩ — ١٥٦٠) ثم خلفه ابنه الثاني كارلوس التاسع فتوفي قبل ان يدرك الرابعة والعشرين من عمره (١٥٧٤) ثم خلفه ابنه الثالث (١٥٧٤ — ١٥٨١) فبلغ سن الرجال ولكنه كان أحمق خاملاً قاصر العقل فالذي لم يستطع أن يقوم به هؤلاء الابناء قامت به امهم كاترينه دي مديسيس وذلك أنها استعانت بآل جيز اعمام ملكة ايكوسا وماري ستيوارت وجمعت الكاثوليك الى حزب واحد ضد حزب البروتستان.

الحرب الأولى (١٥٦٢ — ١٥٦٣)

كان اعلان الحرب منذ رجوع الملكين الى عاصمتيهما بعد معاهدة كامبريزيس فان كلاً منهما أصدر لمملكته منشوراً ينذر فيه البروتستان بالموت ان اصروا على

بدعتهم. فاجاب برلمان انكلترا على ذلك بأن جعل الملكة اليصابات رئيسة الكنيسة الأنكليكانية والغى الرهبنات وأيد البروتستانية من بحر ارلنده الى أقصى البلطيك. وأحدثت اليصابات بايعازها مؤامرة امبواز البروتستانية في فرنسا فاكتشفها دي جيز وأراقَ دماء القائمين بها (١٥٦٠) ثم حدثت مذبحة فاسي (١٥٦٢) فكانت فاتحة هذه الحرب التي لم تنته الا في سنة ١٥٨٩. ولما علم فيليب الثاني ان السيف خرج من قرابه أرسل نجدة كبيرة لاعانة الكاثوليك في فرنسا وأرسل بروتستان المانيا ٧٠٠٠ جندي لمساعدة كونده زعيم البروتستان فيها وكانت اليصابات أيضاً تمده بالمال والنجدات ثم انكسر جيش هذا الأمير في دراي وقتل الدوق دي جيز أمام اورليان ففاز فريق المسالمين على هذين الحزبين الرفضيين وأصدرت كاترين دي مديسيس منشور امبواز (١٥٦٣) فمنحت به حرية المذاهب.

فوز الكاثوليك في هولنده وفرنسا (١٥٦٤ — ١٥٦٨) وذكر محكمة الدم (١٥٦٧)

كان الاسبانيون قد كثر عددهم في هولنده واتوا بالمظالم والاستبداد الى تلك البلاد المعودة على الدستور والحرية فكان أهلها من شرفاء وعامة في حالة كدر وانتظار فلما صدر الامر بمضمون ما تقرر في مجمع تريدنته تحالف الشرفاء فيما بينهم (١٤٦٦) على أن يتعاونوا حتى يرفع عنهم ما لم يطب لهم من قرارات المجمع. وأما الشعب فانه هب هبة واحدة لأن البروتستانية كانت قد انتشرت بينه انتشاراً عظيماً وأخذ ينهب الكنائس ويسقط الصور والتماثيل ويحرق المنابر فلم يشترك النبلاء معه في هذه المعمعة ولذلك انطفأت نيرانها سريعاً ثم أرسل فيليب الدوق دلب الى هولنده للتنكيل بالثائرين فانشأ محكمة الدم التي قضت باعدام ١٨ ألف نفس شنقاً وبنزع املاك ٣٠ ألفاً فوقع الرعب في القلوب ونزح مئة ألف من السكان عن بلادهم ووضعت على الباقين فيها ضريبة من أثقل الضرائب حملاً.

على أن هذه الحوادث رنّ لها صدى في فرنسا ونشأت منها حربان أهليتان جديدتان اولاهما (١٥٦٧) انتهت بموقعة سان دنيس والثانية (١٥٦٨) بموقعة جارناك التي قتل فيها كونده وموقعة مونكور التي قهر فيها كويني زعيم الحزب

البروتستاني وبقي الفوز للكاثوليك اما اسبانيا فكان الرعب سائداً فيها وفي جميع أملاكها لشدة المراقبة وكثرة ما سفك من الدماء من أجل المعتقد وفي سنة ١٥٦٨ بلغت القسوة الوحشية من فيليب الثاني الى أنه حمل امرأته وابنه على الانتحار واثار عليه المغاربة في الألب الاسبانية وأسس محكمة التفتيش في مستعمراته. ولم يخسر الكاثوليك خسارة تذكر في هذه المدة الا بسقوط الملكة ماري ستيوارت (١٥٦٨) وتغلب البروتستان عليهم في اسكتلنده.

تفرق قوى اسبانيا وانتصار ليبانته (١٥٧١)

كان فيليب الثاني قد اضطر بسبب حروبه ورفضيته ان يفرق قوى اسبانيا كل مفرق. فكان جانب كبير من ماله ورجاله مستخدماً لاخضاع مغاربة الاندلس الذين ثاروا عليه بايعاز انكلترا وقاوموه بمساعدتها الى سنة ١٥٧١ وجانب آخر مستخدماً في البحر المتوسط لمقاومة الاتراك الذين فتحوا قبرس (١٥٧٠) وفي هولنده لمقاومة ثائريها الذين كانوا يسطون على المراكب الاسبانية ليمنعوها من ايصال الميرة والزاد الى الحصون وفي نابولي وميلانو وساحل افريقيا ومكسيك وبيرو.

وفي سنة ١٥٥٨ عاد فيليب لمحاربة الاندلس ففقد اسطولاً وجيشاً كاملين امام تلمسان وفي السنة التالية فقد أمام طرابلس اسطولاً آخر عليه ١٥ ألف عسكري.

وبعد ذلك بأربع سنين حطمت عاصفة أسطوله في نابولي وفي سنة ١٥٦٥ سطا سليمان على مالطه بعد أخذه قبرس اضطر فيليب أن يرسل قسماً كبيراً من قوته الى البحر المتوسط ليحميه من الأتراك. وكان فيليب أيضاً قد جهز عمارة مؤلفة من ٣٠٠ سفينة عليها ٨٠ ألف عسكري تحت قيادة أخيه دون جوان دوتريش لمقاتلة الأتراك بعد فتحهم لقبرس فانتصر عليهم أخوه في موقعة قرنثية (١٥٧١) ولكن لم يجن من ذلك ثمرة.

المؤامرات الكاثوليكية بانكلترا وفرنسا

كان الكونت بوثويل قد قتل دارنلي زوج ماري ستيوارت ملكة اسكتلنده

(١٥٦٧) ثم أرادت هي أن تتزوج به فثارت عليها الأمة باجمعها ففرت ولجأت الى اليصابات ملكة انكلترا فاعتقلتها بدون وجه حق (١٥٦٨) فأخذ الكاثوليك يتآمرون على اليصابات بايعاز فيليب الثاني ودسائسه ولا يفلحون. وفي سنة ١٥٦٩ أصدر البابا حرماً لاليصابات فاجتمع كثيرون من اللوردية وانشأوا لهم راية عليها رسم المسيح مجروحاً خمسة جروح يسيل منها الدم وثاروا ثلاث مرار كانت الثالثة منها في سنة ١٥٧٢ برئاسة دوق نورفولك الذي وعدته ماري ستيوارت انها تتزوج به فاماتته اليصابات شنقاً.

وفي هذا الوقت نفسه حدثت في فرنسا مذبحة يوم عيد القديس برتلماوس وذلك ان دوق كوليني زعيم البروتستان كان قد تقرب من الملك كارلوس التاسع وعرض عليه ان يحول الحرب الأهلية الدينية الى حرب خارجية فيفتح هولنده ويكسب فرنسا مجداً في الخارج وراحة في الداخل فرضي الملك بهذا الرأي وقبيل الشروع في انقاذه طعن رجل من مأجوري آل جيز دوق كوليني بخنجر فخر جريحاً فأقنع زعماء الكاثوليك الملك أن يرسل إليه من يقتله ففعل ووقعت في ذلك اليوم المذبحة الشهيرة بمذبحة سان برتلماوس ونكل فيها الكاثوليك بالبروتستان تنكيلاً قبيحاً ثم أرسل البابا وفيليب الثاني يهنئان الملك أحسن تهنئة بعد ذلك على جنايته الهائلة وظن أن البروتستان لا تقوم لهم قائمة في فرنسا بعد ذلك.

نجاح البروتستان ١٥٧٣ — ١٥٨٧

غير أن الأمور وقعت على العكس مما ظن فان البروتستان نهضوا بعد ذبح اخوانهم أشد وأقوى مما كانوا وحملوا السلاح الى أن منحوا حرية المذهب في معاهدة روشيل. ولما خلف هنري الثالث كارلوس التاسع في سنة ١٥٧٤ وجد نفسه ازاء ثلاثة احزاب كبيرة السياسيين تحت رئاسة فرنسوا دالنسون أصغر أخوة الملك والكلفينين تحت رئاسة هنري البيارني ملك نافاريا والكاثوليك المتعصبين تحت رئاسة هنري دي جيز. وكان مقصد هذا الحزب الأخير الايقاع بالملك والبروتستان معاً. وفي سنة ١٥٨٤ توفي هنري دالنسون فأصبح هنري البيارني ولي عهد فرنسا وأيد حقه

هذا بانتصاره المبين في موقعة كوتراس (١٥٨٧). فتوهم البابا أن صعود بروتستاني على أريكة فرنسا سيكون ثمرة الحرب الدينية التي غرقتها في الدماء.

على أن البروتستان نالوا في هولنده فوزاً أكبر من فوزهم في فرنسا وذلك ان الثائرين الهولنديين بعد ان حاربوا محاربة القرصان مدة طويلة ولم يخلوا منها بطائل نزلوا الى البر في سنة ١٥٧٢ وأخذوا مركز بريال فثارت معهم هولنده وزيلنده وكان المدد يأتيهم من البروتستان في المانيا وانكلترا وفرنسا فدافعوا عن انفسهم دفاع الابطال تحت قيادة غيليوم دي ناسو برنس دورانج صهر كوليني. واذ لم يفلح فيليب معهم بالعنف أخذهم باللين واستبدل عامله عليهم الدوق دلب بعامل ارأف منه فهدأوا حيناً غير أن الجيش الاسباني اعوزته الميرة فأخذ يفتك بأهل المدائن الكبيرة فنشأ عن ذلك تحالف غاند (١٥٧٦) الذي اشتركت فيه جميع ولايات هولنده لمقاومة الاسبانيين غير ان الهولنديين لم يلبثوا أن انقسموا الى فريقين الوالونيين (أهل بلجكا) والباتافيين (أهل هولندة) نفسها فاعترف الأولون في سنة ١٥٧٩ بفيليب ملكاً عليهم وانكره الآخرون والفوا جمهورية وأقاموا البرنس دورانج حاكماً عاماً عليهم. وبعد ذلك بسنتين انضمت لاهاي الى الولايات الباتافية المتحدة. وكان فيليب الثاني قد وعد اياً يقتل البرنس دورانج بمال كثير فقتل في سنة ١٥٨٤ ولكن الهولنديين دافعوا عن استقلالهم بعد وفاته بمساعدة انكلترا وفرنسا وفازوا على فارنيز دوق بارمه الى أن قتل. وهكذا وجدت امة جديدة بين الأمم الغربية.

اما انكلترا واسبانيا فكانتا تتحاربان بالدسائس والمعارضات قبل ان تعتركا. وكانت اليصابات ترسل سفائنها للسطو على سفائن اسبانيا اينما ظفرت بها ولنهب سواحل مستعمراتها. وفي سنة ١٥٧٧ اغار دراك على سواحل شيلي وبيرو وغنم منها غنائم كثيرة وأسر عدة مراكب اسبانية وعاد بها الى انكلترا بعد أن طاف حول الأرض. وفي سنة ١٥٨٥ سطا كافنديش ثانية على المراكز الاستعمارية الاسبانية وكان الهولنديون في اثناء ذلك يسطون على المستعمرات البرتغالية التي دخلت في أملاك اسبانيا منذ تحولت البرتغال الى ولاية من ولاياتها. ولم يكن فيليب يستطيع الانتقام من هذين الشعبين اذ لم تكن لهما املاك خارج بلادهما فأخذ يثير الفتن في قلب

انكلترا على الملكة حتى اذا اشتد قلق افكارها اماتت ماري ستيوارت شنقاً (١٥٨٧) وبسقوط رأسها سقطت آمال جميع الذين كانوا يتوهمون ان المذهب الكاثوليكي يحتمل رجوعه الى انكلترا.

فشل اسبانيا والرفضيين من الكاثوليك (١٥٨٨ — ١٥٩٨)

بعد اذ أصاب حزب الكاثوليك ما أصابهم من الفشل في هولنده وانكلترا أخذ آل جيز يسعون في احياء العصابة الكاثوليكية في فرنسا سنة ١٥٨٤. وأما فيليب الثاني فانه أعد عمارة نعتها بالتي لا تغلب وفي ٣ يونيه من سنة ١٥٨٨ أخرجها من نهر التاغوس قاصداً بها انكلترا وكان عليها ٥٠٠٠٠ مقاتل فهبت عليها عاصفة شديدة حطتها وأجهزت عليها المراكب الانكليزية والهولندية فسقط بذلك ما كان ينويه فيليب من تسويد الكاثوليكية والنفوذ الاسباني على انكلترا فهولنده ففرنسا مما استعد له ثماني عشرة سنة وذهب ادراج الرياح في بضعة أيام.

وبينما كان فيليب ذاهباً لمحاربة انكلترا كان أصدق حلفائه الدوق دي جيز قد فاز في الموقعة المشهورة بموقعة المتاريس (١٥٨٨) ودخل باريس ففرّ منها الملك ثم علم بما أصاب العمارة الاسبانية فعاد اليه الأمل واحتال على دي جيز حتى أخرجه من باريس الى بلوا فغلبه فيها وأماته وجاء يحاصر باريس مع ملك نافاريا حليفه فقتله راهب في معسكره (١٥٨٩) ونودي بهنري البيارني ملكاً على فرنسا تحت اسم هنري الرابع فخذله كثيرون من الكاثوليك ولكنه أتته نجدات عظيمة من انكلترا وهولندا والمانيا فقاومَ الاسبانيين والايطاليين الذين أتوا لانجاد عصابة الكاثوليك وكسرهم في ايفراي وارك (١٥٩٠) الا أن قائدهم فارنيز صده مرتين عن باريس وروان (١٥٩١) ولكن حزب السياسيين لم يلبث أن انضم الى الملك وأنضمت اليه بعده أكثرية الفرنسويين لأنه ترك البروتستانية وتمذهب بالكاثوليكية قائلاً: «ان باريس تسوى قداساً» (١٥٩٣) ولما دخل باريس أجلى عنها الحامية الاسبانية (١٥٩٤) ثم جاءه تحليل من البابا فاعترف به رؤساء جميع الاحزاب وبعد ذلك انتشبت بينه وبين اسبانيا حرب قصيرة فاز فيها وعقد معها معاهدة فرفين التي ردت تخوم فرنسا

الى ما كانت عليه بعد معاهدة كامبريزيس (١٥٩٨) وكان قبيل هذه المعاهدة بثلاثة أسابيع قد أصدر منشور فانت الذي منح به البروتستان حرية الضمير وحرية القيام بشعائر مذهبهم في داخل القصور وفي عدد كبير من المدائن وامنهم واذن لهم أن ينتدبوا نواباً عنهم كل ثلاث سنين ليعرضوا للحكومة ظلاماتهم ومطالبهم.

— ٦٩ —

نتائج الحروب الدينية في غربي أوروبا

انحطاط اسبانيا وافلاسها

هتان المصيبتان وقعتا على اسبانيا باسباب طرد اليهود والمغاربة واكثار الحكومة من الاحتكارات وافنائها الرعايا بالحروب المستمرة فبارت التجارة ووقفت الصناعة وكان الذهب الذي يرد من المستعمرات بالقناطير المقنطرة يمر من اسبانيا مروراً ليذهب الى البلاد التي كانت تبعث اغلالها ومصنوعاتها اليها. ومن أجل ذلك عجزت خزينة اسبانيا مرتين عن وفاء ديونها التي بلغت نحو المليار في آخر عهد فيليب الثاني. وفي سنة ١٥٩٨ توفي هذا الملك بعد صدور منشور نانت وعقد معاهدة فرفين باربعة أشهر وترك اسبانيا خائرة بائرة.

تقدم انكلترا وهولنده

عندما تم الفوز لأليصابات في الداخل والخارج استبدت بالملك استبداداً لا مثيل له وقتلت كثيرين ممن لم ينتموا لسلطتها الدينية غير انها فيما خلا ذلك ساعدت أهل بلادها على الاثراء والتقدم فعززت البحرية والتجارة والصناعة التي أتاها بها الفلمنك حين لجأوا اليها من جور فيليب قبل استقلالهم. وأنشئت في عهدها بورصة لندرة واستعمرت فرجينيا وكان يستورد منها التبغ والقلقاس. وفي عهدها أيضا وجد شكسبير أحد أكابر مؤلفي الروايات التمثيلية في الدنيا وباكون فيلسوف زمانه صاحب الطريقة الاختيارية.

أما الهولنديون فألفوا البحر وتجارته وكانوا يحملون براميل السمك المجفف الى البلاد الكاثوليكية فيعودون بها مملوءة ذهباً.

ولما أقفل فيليب الثاني عليهم ميناء لشبونة تحولوا الى الشرق يأتون بالمتاجر منه وفتحوا جزائر المولوك فكانت أساس سلطتهم الاستعمارية التي تولتها بعد ذلك شركة البلاد الهندية الكبرى في سنة ١٦٠٢.

وكان لولايتي هولندة وزيلندة وحدهما ٧٠.٠٠٠ ملاح. وهم الذين انتقلت الى يدهم بعد حين جميع تجارة اسبانيا والبرتغال.

تجديد هنري الرابع لنظام فرنسا (١٥٩٨ — ١٦١٠)

هذا الملك ردّ الى فرنسا الأمن والراحة في الداخل والخارج وأخذ يصلح شؤونها الداخلية ويضمّد جراحها مستعيناً بوزيره الأمين سُلّي فتوصل في أقل من ١٢ سنة الى وفاء مئة و٤٧ مليوناً من دين فرنسا الذي كان يبلغ ألفاً وثلاثمائة مليون. واسترجع أملاكاً للتاج بثمانين مليوناً وادخر للحاجة عشرين مليوناً في حصن الباستيل. ومما فعله سلي تجفيف المستنقعات وتكثير المراعي ومنع الجباة عن بيع المواشي وأدوات الزراعة. وفي ذلك الوقت ظهر العالم الزراعي الكبير أوليفيه سرّ فنشر المبادىء الصحيحة للزراعة والاقتصاد الزراعي. ثم أن الملك لم يكتف بما فعله وزيره بل أمر بغرس خمسين ألف غرسة توت وأعاد معامل ليون ونيم وتور التي أسسها فرنسيس الأول وشيد معامل الزجاج والخزف الصيني في باريس ونيفر وعقد معاهدات تجارية مع هولندة وانكلترا ورد الى فرنسا احتكار تجارة الشرق وأمر ببناء مدينة كويبك في كندا (١٦٠٨).

وكان هنري ينوي أن يعيد السكينة والسلام الى سائر أوروبا كما أعادهما الى فرنسا فعبأ جيشا مؤلفا من أربعين ألف جندي ليقاتل النمسا ويتوصل الى تحقيق نيته غير أن أجله أدركه قبل الدخول في هذه الحرب بطعنة من رجل يدعى رافالياك (١٦١٠).

— ٧٠ —

الحروب الدينية التي جرت في وسط أوروبا وعرفت بحرب الثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨)

مسببات حرب الثلاثين سنة (١٥٥٥ —١٦١٨)

إن الحرب الدينية الأولى التي ذكرنا وقائعها دامت ستاً وثلاثين سنة (١٥٦٢ — ١٥٩٨) وأخربت البلاد من جبال البرانس الى بحر الشمال أما الثانية فقد دامت ثلاثين سنة (١٦١٨ — ١٦٤٨) وجرت ويلاتها من الدانوب الى الاسكو ومن ضفاف البو الى البلطيك. وهكذا قضت أوروبا ثلثي قرن تقتل وتسفك الدماء كالأنهار في سبيل إله السلام والمحبة.

وخليف بالذكر هنا أن البروتستان مع اضطهاد الكاثوليك لهم لم يكونوا على شيء من الاتحاد فيما بينهم لكثرة البدع والشيع في مذهبهم حتى أن أهل كل شيعة كانوا يحرمون شيعة الآخرين وينكرونها عليهم. وأعظم ما كان الانقسام بين اللوتيريين والكلفيين وخصوصاً في المانيا وذلك ما جعل الكاثوليك ينضمون فيها ويقيمون على البروتستان حرب دسائس كادوا يفوزون بها عليهم لو لم يتنبهوا ويعقدوا فيما بينهم محالفة دعيت بالانجيلية (١٦٠٨) فألف الكاثوليك عند ذلك محالفة لمقاومتها تحت رئاسة ماكسيميليان دوق بافاريا.

وحدث في السنة التالية أن وقع خلاف على من يرث دوقيات مقاطعات كليفس وبرج وجوليرس بين دوق نوبورج ومنتخب براندبورج فحجز الأمبراطور الدوقيات المذكورة فاعترض البروتستان واستعد هنري الرابع لمساعدتهم فحال دون ذلك مقتله كما قدمناه (١٦١٠) فطال النضال والجدال وتحول دوق نوبرج الى الكاثوليكية ودوق براندبورج الى الكلفينية وعند ذلك دخل البلاد الأسبانيون من أحد جوانبها والهولنديون من الآخر ولكن سياسة النمسا كانت قد تغيرت بانتقال الأمبراطورية الى فرديناند الثاني فإنه منذ تولى نسف كنائس البروتستان نسفاً وأحرق في دفعة واحدة

١٠.٠٠٠ نسخة من التوراة. وكان على أثر ذلك ابتداء الحرب الدينية الثانية التي تقسم الى أربعة أقسام:

القسم الأول المعروف بالبالاتيي (١٦١٨—١٦٢٥)

عندما فعل فرديناند الثاني ما ذكرناه آنفاً ثار البوهيميون عليه وأقاموا فريدريك الثاني منتخب بالاتين صهر ملك انكلترا ملكاً عليهم (١٦١٨) غير أن اللوتيريين خذلوه لأنه كان كلفينياً. أما فرديناند فأنجده حلفاؤه الاسبانيون وأصحاب المحالفة الكاثوليكية فانتصر على الثائرين في موقعة الجبل الأبيض فدخلت بوهيميا ثانية في ولايته ولكنه نكل بها تنكيلاً أضعفها الى قرنين.

القسم الدانمركي (١٦٢٥ — ١٦٢٠)

واستمر الكونت دي مانسفلد وخريستيان دي برونسويك الزعيمان للبروتستان يحاربان فرديناند وقائده تيلي الشهير وأنصاره الاسبان النازلين بهولندة الى أن فطن أمراء الشمال البروتستانيون لما كان يقصده فرديناند من إخضاعهم للكثلكة بعد أن يفوز على بروتستان المانيا فدخل خريستيان الرابع ملك الدانمرك في الحرب (١٦٢٥) واحتل البقعة الواقعة بين نهر الألب والويزر وبينما كان يرد من ورائه جنود المحالفة الكاثوليكية عن الوصول الى فرديناند الذي لم يكن له جيش سواهم ليدفعه به ظهر رجل يدعى والدشتين كان رئيس عصابة كبيرة يعيشون من السلب والنهب وقدم للأمبراطور جيشين واحداً بعد الآخر أولها مؤلف من ٥٠.٠٠٠ مقاتل والثاني من مئة ألف واستبقى لنفسه قيادتهم المطلقة. فرأى ملك الدانمرك أن تيلّي قائد الكاثوليك انتصر عليه من ورائه في لوتر وان والدشتين قد يقطع عليهم المرجع من هولشتين فعاد الى بلاده ووقع على معاهدة لوبك (١٦٢٩) واحتل مئة ألف من جنود الأمبراطور شمالي المانيا فجعلوا أهله مطيعين له طاعة الصغار والذل فأوشك بذلك فرديناند أن يلحق المانيا بالنمسا كما ألحقت اليوم ببروسيا لو لم يحل دون مقصده ريشليو وزير فرنسا بدسائسه التي دسها عليه فإنه أرسل رسلاً يستحثون الأمراء الألمانيين للمدافعة عن إماراتهم المهددة ويحرضهم على طلب عزل والدشتين ومهد الصلح بين ملكي

بولونيا وأسوج فلما هدأ بال صاحب أسوج أدرك جسامة الخطر الذي يصيب البروتستانية فيما لو فاز فرديناند الثاني واستعد للدخول في الحرب.

القسم الأسوجي (١٦٣٠ — ١٦٣٥)

اشتهر ملك أسوج باسم غوستاف أدولف وأول ما فعله أنه أنزل جيوشه في بوميرانيا (١٦٣٠) وكانوا ستة عشر ألفاً على غاية من البسالة والطاعة. وكانت فرنسا تعينه بأربعمائة ألف ريال سنوياً على نفقات القتال. فلما فتح بوميرانيا دخل ساكس وقهر تيلي في ليبزيك (١٦٣١) وطرد جميع الحاميات الكاثوليكية والاسبانية من فرانكونيا وسواب والرين الأعلى والبالاتين. ودخل حليفه دوق ساكس لوزاس وبوهيميا. فلما أتم على هذه الصورة انفصال الألمانيين عن الاسبانيين دخل غوستاف بافاريا وقتل تيلي في ممر ليك فاسترجع الأمبراطور والدشتين فجمع جيشاً للحال وزحف به على ساكس فهرع الملك راجعاً للدفاع عنها وانتصر في لوتزن وتوفي سنة (١٦٣٢) فخلفه قواده المدربون على يده واستمروا فائزين ولا سيما بعد أن قتل فرديناند والدشتين خوفاً من مطامعه (١٦٣٤) غير أنهم لم يلبثوا أن انكسروا في نوردلنجن فخذلهم جميع حلفائهم الألمانيين عدا دوق هس كاسل فرأى ريشليو عند ذلك ضرورة دخول فرنسا بذاتها في هذه الحرب.

القسم الفرنسوي (١٦٣٥ - ١٦٤٨)

كان ابتداء هذه الحرب سيء الطالع على فرنسا فإن الاسبانيين دخلوها وفتحوا كوربيه فخافت باريس ولكنّ ريشليو أوعد قواده بالقتل إن لم يخرجوهم منها ففعلوا. ثم أجلوهم أيضاً عن آرّاس (١٦٤٠) وكان برنار دي ساكس ويمر حليف ريشليو قد فتح الألزاس وحين دنت منيته أوصى بماله وجيشه لفرنسا (١٦٣٩). وفي الوقت نفسه انتصر القائد داركور في ثلاث معارك على جنود البيامون حليفة اسبانيا وأخذ الملك بنفسه بربينيان فبقيت لفرنسا الى هذا اليوم وشغل ريشليو الأسبانيين في نفس بلادهم بتعزيزه ثورتي كولونيا والبرتغال. وكان القائدان الأسوجيان بانر وتورستنسون قد فازا فوزاً جميلاً في برندبرج وسيلازيا وساكس

والقائد غابريان الفرنسوي في ولفنبوتل وكمين (١٦٤١ — ١٦٤٢) وأصبح على وشك أن يلتقي بالأسوجيين وينقضوا جميعاً على النمسا إذ توفي ريشليو (١٦٤٣) فتشجع الاسبانيون ودخلوا فرنسا فدحرهم كونده في روكروا (١٦٤٣) وفريبورج (١٦٤٤) ونوردلنج (١٦٤٥) ولنس (١٦٤٨) فلم يبق للأعداء محيص من التوقيع على معاهدة وستفالي.

— ٧١ —

نتائج الحروب الدينية التي جرت في وسط أوروبا

مصالحة وستفالي (١٦٤٨)

كان بدء المفاوضات لعقد الصلح منذ سنة ١٦٤١ غير أنها لم تجر في مجرى جدّي إلا سنة ١٦٤٤ في مدينتين من مدائن وستفالي وهما أوسنابروك التي التقى فيها مندوبو البروتستان والأمبراطور ومونستر التي التقى فيها الوكلاء السياسيون والأمراء الكاثوليك. لكن اسبانيا رأت ما حدث في فرنسا من فتن الفروند فتوهمت أنها تنتهز هذه الفرصة لاسترجاع سردينيا وروسيليون وأرتوا فامتنعت عن التوقيع على المعاهدة ووقعت عليها سائر الحكومات في ٢٤ أكتوبر سنة ١٦٤٨.

تقدم البروتستان وحصول الولايات الألمانية على الاستقلال الديني

مما قضت به المعاهدة المشار اليها أن يمنح الأمراء حرية الضمير التامة من حيث الدين وأن يكون مثل ذلك للشعب ولكن مع احترازات كثيرة لأن كل ولاية كانت لها ديانة سائدة على ما سواها وللدائنين بها امتياز على غيرهم من قبيل الحرية المذهبية. وكانت المذاهب المعروفة رسمياً ثلاثة الكاثوليكية واللوتيرية والكلفينية. أما ما يتعلق بالأملاك الكنسية وإقامة الشعائر الدينية فقد أرجع الى ما كان عليه في المانيا سنة ١٦٢٤ فيما عدا البالاتين.

على أن هذه المعاهدة المجحفة بمصلحة الكنيسة الكاثوليكية أنشأها كردينال وهو ريشليو ووقع عليها كردينال آخر وهو مازارين فجاء ذلك دليلاً على أن السلطة الكنسية كانت لذلك العهد في اعتبار الجميع حتى كبار أهل الدين قد فصلت عن السلطة الدنيوية.

الاستقلال السياسي في الولايات الألمانية

من مقتضيات المعاهدة الوستفالية أنه يكون لجميع الأمراء والولايات في المانيا حق الاشتراك في تقرير المحالفات والحرب والمصالحات والمعاهدات وسن القوانين وأنه يكون للأمراء السلطان المطلق في ولاياتهم ويحق لكل منهم أن يحالف الدول الأجنبية على انفراد بشرط أن لا يكون ذلك ضد المملكة أو الأمبراطور. وتقرر في المعاهدة نهائياً أن تعتبر سويسرا وهولندة أجنبيتين عن الأمبراطورية.

مكاسب أسوج وفرنسا

أعطيت أسوج بموجب المعاهدة المذكورة أملاكاً جعلت في قبضة يدها مصابّ الأنهار الألمانية الثلاثة الأودير والألب والويزر فنشأت عن ذلك أسباب انحطاطها في المستقبل. أما فرنسا فأخذت بينيرول من أعمال البيامون والألزاس وفيوبريساك وفيليبسبورج.

وفضلاً عن ذلك فقد أبقت لها باباً مفتوحاً لترشو به الفقراء من أمراء ألمانيا وتحالفهم وتستعين بهم.

وفي الجملة فإن هذه المعاهدة كانت مضعفة للنمسا قاتلة لألمانيا من حيث جعلتها بسبب كثرة إماراتها وتعدد المذاهب فيها ميداناً للغارات والحروب كما كانت إيطاليا من قبل.

— ٧٢ —

ريشليو ومازارين وبلوغ الملكية الفرنسوية منتهى استبدادها وعظمتها (١٦١٠—١٦١٧)

لويس الثالث عشر أيام حداثة سنه (١٦٠٠—١٦١٧)

ورث الملك حديث السن قاصراً فنابت عنه أمه ماري دي مديسيس في إدارة شؤون المملكة فتركت سياسة هنري الرابع واتخذت لها مرشداً رجلاً يدعى كونسيني من صناعها فأضاع المال الذي اقتصده سلي وأفقر الخزينة. وقام الكبراء بثورتين يطلبون المناصب والرواتب فنحوها في معاهدتي ١٦١٤ و١٦١٦ ثم اشترك الملك في ثورة أثارها ألبيرت دي لوين على كونسيني صنيعة أمه فأماته وأمات امرأته (١٦١٧) وتولى الحكم بعد ذلك بنفسه مسترشداً بنصائح الدوق دي لوين فساءت سياسته. وحدث أن الملك أصدر أمراً بأن تسترجع من البروتستان البيارنيين جميع الأملاك الكنسية التي غنموها فثاروا ونووا أن يستقلوا في أراضي أونيس كاستقلال أهل هولندة وتكون مدينتا روشل ومونتوبان قاعدتين لبلادهم فحاربهم الملك وتغلب عليهم وعقد معهم صلحاً يؤيد منشور نانت ويمنحهم فوق ذلك روشل ومونتوبان ليمتنعوا فيهما من غدر غادر بهم ولكنه حظر عليهم أن يعقدوا فيها اجتماعات سياسية بدون إذنه (١٦٢٢).

استيزار ريشليو وسقوط أمر البروتستان والشرفاء

استوزر الملك هذا الكردينال (١٦٢٤) بناء على إرادة أمه وكان سياسياً عظيماً حازماً شديد البأس أدار سياسته على محورين هما تقوية سلطة الملك في الداخل وتعظيم فرنسا في الخارج بكسر شوكة النمسا. وقد أفلح في الأمرين جميعاً فإننا رأينا فوزه العظيم بما أراده في الخارج. وأما في الداخل فكان أول ما شرع فيه أن عقد معاهدتين إحداهما مع البروتستان والأخرى مع اسبانيا ليتفرغ لإنفاذ مقصده ووجه

اليه جميع ما في يده من القوة. ثم أخذ يسجن ويقتل الكثيرين من الكبراء بأعذار ودعاوى مختلفة وعزل بعضهم من مناصبهم ليضعف بذلك سطوتهم. فلما أمن جانب الكبراء قليلاً بما أوقعه من الرعب في قلوبهم زوج هانرييت دي فرنسا بملك انكلترا كارلوس الأول ليمنعه من محالفة البروتستان الفرنسويين ومع ذلك أقام في البحر سداً جسيماً ليحول دون وصول مدد انكليزي الى البروتستان في روشل وحاصرهم فيها (١٦٢٨) فلم تفتح له أبوابها إلا بعد أن أصبح عدد ساكنيها ٥٠٠٠ من ٣٠.٠٠٠.

وعند ذلك عقد مع البروتستان صلحاً فمنحهم الضمانات المدنية والحرية الدينية ولكنه هدم مراكزهم الحصينة التي كانوا يمتنعون فيها فتمت بذلك وحدة الأمة الفرنسوية.

ولما فرغ من التنكيل بالبروتستان حول ناظريه الى الشرفاء ثانية وكان يكتشف مؤامرتهم عليه ويقتل منهم وينفي ويسجن حتى لم تقم بعد ذلك قائمة وفي جملة ما فعله أنه قتل المارشال ماريلياك وكانت ماري دي مديسيس قد تواطأت معه على عزل ريشليو فاضطرت الملكة أن تنفي نفسها الى بروكسل. وآخر الكبراء الذين أماتهم ريشليو كان سان مارس (١٦٤٢) المقرب الى لويس الثالث عشر.

وبعد ذلك بسنة توفي هذا الكردينال الجليل وقد عزز فرنسا في الداخل والخارج وخفف مشاكلها المالية قليلاً ونزع أكثر السلطة التي كانت تعطى لحكام الولايات بحيث لا يخشى على الملك من تعاظم سطوتهم.

ذكر مازارين وفتنة الفروند

ولم يلبث لويس الثالث عشر أن أدركه أجله فتوفي عن خلف قاصر هو لويس الرابع عشر فنابت أم الملك عنه واتخذت الكردينال مازارين الإيطالي الأصل وزيراً لها وكان من دهاة عصره رقي الى الكردينالية بطلب من ريشليو الذي عرفه حين كان قاصدا من قبل البابا في فرنسا وقدره حق قدره.

ولم يتربع مازارين في دست الوزارة حتى قام الذين نجوا من الكبراء يستمنحون المناصب والرواتب من الملكة وعقدوا فيما بينهم «محالفة ذوي المقامات» فاكتشف

الوزير دسيستهم واعتقل اثنين من أكابرهم في حصن الباستيل وفرق الآخرين كل مفرق.

وإذ كان هذا الرجل من الشرهين المسرفين لم يحسن إدارة المالية فاستصدر أمراً لابتزاز الأموال بطرائق مختلفة كدرت الشعب فعصاه مجلس النواب وأراد أن يجعل لنفسه من الشأن ما لبرلمان انكلترا فوضع لائحة تشتمل على ٢٧ بنداً وطلب إنفاذها وكان من محتويات اللائحة أن لا تجبى الضرائب قبل أن يراجع المجلس حسابها ويسجله وأن لا يعتقل متهم قبل التحقيق أكثر من أربع وعشرين ساعة الخ. وفي ذاك الوقت جاءت البشرى بانتصار كوندة في لانس فتشجع مازارين وقبض على ثلاثة من النواب في الكنيسة (١٦٤٨) فثار الشعب والشرفاء وأقاموا مئتي متراس ليقاتلوا جنود الملكة فأجابهم الوزير الى ما طلبوه خدعة ومطاولة وكان في تلك الأيام يوقع على معاهدة وستفالي. ثم استدعى كوندة واستعان به على الثائرين الذين كانوا يدعون بالفرونديين فتغلب عليهم وعقد معهم الوزير صلح رويل (١٦٤٩).

ثم نفّر كونده الملكة منه بتعاظمه وخيلائه فقبض عليه مازارين وعلى آخرين من الأمراء فثار شرفآء فرنسا انتصاراً لهم ودخل القائد الشهير تورين بين العصاة فدحرتهم جنود الملكة غير أنهم عادوا فنهضوا ثانية بإيعاز بول دي غوندي رئيس أساقفة باريس ففر مازارين الى لياج (١٦٥١) غير أن تورين لم يلبث أن رجع الى حزب الملكة وكسر العصاة ففر كونده وتجند لخدمة الأسبانيين وعلى هذه الصورة أخمدت فتنة الفروند (١٦٥٣) وبعدها بسنتين أصدر الملك أوامر الى مجلس النواب فأبى أن يسجلها فعلم بذلك وهو راجع من الصيد فذهب الى غرفة الاجتماع وسوطه بيده وطرد النواب منها وحظر عليهم أن يجتمعوا بعد ذلك.

معاهدة البرانس (١٦٥٩)

وعندما استتب الأمن في الداخل أديرت رحى الحرب على اسبانيا في الخارج فانتصر تورين على الاسبانيين في موقعة آرّاس (١٦٥٤) ثم في الموقعة التي اشتهرت باسم موقعة الآكام وكان كونده قائد الاسبانيين فيها وعلى أثرها فتح الفرنسيون مركزاً

كان بمثابة منفذ لهم الى هولنده حينما يشاؤون)١٦٥٨) وبعد ذلك ببضعة أشهر وقع مازارين على معاهدة البرانس (١٦٥٩) التي شرط فيها أن تتخلى اسبانيا عن روسيليون وسردينيا وأرتوا وأن تتزوج ابنة ملك اسبانيا بلويس الرابع عشر وتعدل عن حقها بخلافة أبيها غير أن مازارين احتال لجعل عدول الأميرة عن حقها ملغى غير نافذ وفي السنة التالية عقد مع جماعة من الأمراء الألمانيين محالفة الرين التي جددها بعده نابوليون. وكلاهما لم يظفر منها بطائل.

وفي سنة ١٦٦١ توفي مازارين عن ثروة واسعة وأقارب أغناهم بالأموال الطائلة وقد خدم فرنسا خدماً جليلة من حيث أتم إسقاط الشرفاء وأحسن السياسة في الداخل والخارج ولكنه أضعف المالية كثيراً. وفي عهده ظهر كورنايل وديكارت وباسكال وبوسين وكانوا في مقدمة أهل العلم والأدب في العصر الذهبي الذي عرف بعصر لويس الرابع عشر.

— ٧٣ —

انكلترا من سنة ١٦٠٣ الى سنة ١٦٧٤

حالة أوروبا سنة ١٦٦١

في هذه السنة استوى لويس الرابع عشر على أريكة فرنسا وكانت هذه الدولة قد بلغت منتهى عظمتها في عهد ملوكها فتحولت أنظار أوروبا اليها لإضعافها ولكن النمسا واسبانيا كانتا مشتغلتين عنها بتضميد جراحهما وكان الأسوجيون يقاومون الدنيمركيين والروسيون ينازعون البولونيين والأتراك يشنون على أوروبا غاراتهم الأخيرة. أما انكلترا فكان لها مع فرنسا شأن سنرجع اليه بعد أن نصف ما جرى فيها من الحوادث الداخلية مدة حرب الثلاثين.

ففي سنة ١٦٠٣ كان جاك السادس ملك اسكتلندة نجل ماري ستيوارت حفيد هنري السابع قد خلف اليصابات وجمع على رأسه تاجي انكلترا واسكتلنده لكن بدون أن يمزج الدولتين إحداهما بالأخرى فترك السياسة البروتستانتية التي عظمت بها صولة سالفته وسعى لمحالفة اسبانيا فتآمر الكاثوليك لاسترجاع المقام الديني الأول لهم في انكلترا وسمي تواطؤهم هذا بمؤامرة البارود (١٦٠٥) فقاومهم الملك نفسه كما قاوم البروتستان فانكسرت بذلك شوكته حتى أن البرلمان الذي كان أطوع لإليصابات من بنانها عصاه ولم يحفل بوعيده ولم يرهبه منه قبضه على خمسة من النواب طرحهم في برج لندره مسجونين (١٦١٤) بل رفض ما كان يطلبه من الأموال لسد نفقاته الفاحشة فأخذ الملك يبيع وظائف البلاط والقضاء وأنشأ ألقاب شرف لبيعها أيضاً ولما انتشبت حرب الثلاثين سنة عقد برلماناً آخر على أمل أن يكون أطوع له من الأول فخاب ظنه ففض المجلس (١٦٢٢) وأراد أن يزوج ابنه من أميرة اسبانية طمعاً في مهرها الجسيم فلم يفلح بذلك فزوجه أخت لويس الرابع عشر هنرييت دي فرانس فلم يستحسن الشعب هذا القران بأميرة كاثوليكية. وفي سنة ١٦٢٥ توفي جاك الأول ومما يذكر له من الأعمال نشره قانوناً شهيراً سماه بالقانون الحقيقي للملكيات الحرة أثبت فيه أن سلطة الملوك ممنوحة لهم من الله لا من غيره وأسس نظام الاكليروس الأنكليكاني. وكان مستوزراً رجلاً يدعى بوكنهام لا خلاقَ له ولا فضيلةَ ولا حسن سياسة.

كارلوس الأول (١٦٢٥ ١٦٤٩)

استوى على العرش مكانه كارلوس الأول وكان تقياً عنيفاً مشرباً مبادىء الاستبداد من نعومة أظفاره. وقد ساء الأمة منه أنه استوزر رجل أبيه بيكنهام ومن امرأته تقريبها للكاثوليك وإحسانها اليهم. فلم يلبث النزاع أن عاد الى ما كان عليه بين الملك والبرلمان وكان البرلمان مؤلفاً من مجلسين: الأعلى والأدنى وأعضاء الأعلى من الكبراء وأعضاء الأدنى من أهل الطبقة الوسطى ومن أبناء البيوتات الذين لا يرثون آباءهم. إذ الورثة كانوا الأبكار دون سائر اخوتهم ولا يزال الشأن كذلك في انكلترا

الى هذا اليوم. وكان المألوف أن يقرر البرلمان عوائد المكس التي يجوز تقاضيها مدة ولاية كل ملك جديد غير أن المجلس الأدنى أو مجلس العامة أبى أن يسمح هذه المرة بتقاضي عوائد المكس إلا الى سنة واحدة فغضب كارلوس الأول وفضّ المجلس ثم عقد آخر في سنة ١٦٢٦ فطلب محاكمة بوكنهام ففضه أيضا. وظن بوكنهام أنه يسير بأسطول لإنجاد بروتستان فرنسا في ثغر روشل فيسترضي الأمة عنه ولكنه عاد فشلا (١٦٢٧) فازدادت جرأة النواب وأكرهوا الملك على القبول بلائحة دستورية وضعوها ثم أرسلوا اليه إنذارين أحدهما لأنه كان يتقاضى المكس بدون موافقتهم عليه والآخر لأنه كان مبقياً بوكنهام في منصبه على الرغم من الشعب ففض المجلس مرة أخرى. ولكن أحد المتعصبين قتل بوكنهام (١٦٢٨) فاستوزر كارلوس رئيس أساقفة لود ورجلاً من الكبراء يدعى سترافورد وأخذ يدير معهما شؤون حكومته مستغنياً عن البرلمان غير أنه بدونه كان لا يستطيع أن يجمع مالاً فأخذ ينهب الأغنياء بأعذار وحيل مختلفة. واتفق أن لود طعن على التعاليم الدينية في اسكتلندة فثارت (١٦٢٧) فأرسل سترافورد لتسكينها فأبى جنوده أن يقاتلوا الثائرين (١٦٤٠) فرأى الملك أنه في اضطرار الى عقد برلمان خامس بعد أن حكم بالاستبداد إحدى عشرة سنة (١٦٤٠) فقرر هذا البرلمان أن تكون الجباية على يده والسلطة القضائية بيده وأن تلغى المحاكم الاستثنائية وأن يكون انعقاد جلساته في مواقيت معينة وأن ستافورد جان يستحق العقوبة بالاعدام فأعدم شنقاً (١٦٤١) وفي هذا الوقت ثار الإيرلنديون ثورة هائلة ذبحوا فيها ٤٠.٠٠٠ بروتستانتي فطلب الملك ما يجب من المال والعدة لقمع الثورة فأجابه البرلمان بالتعنيف والوعيد وقرر أن يكون الجيش تحت إدارته فحاول الملك أن يقبض على زعماء المعارضين في محل الاجتماع نفسه فلم يفلح فبرح لندره ليشرع في الحرب الأهلية (١٦٤٢).

الحرب الأهلية (١٦٤٢ــ١٦٤٧)

وكانت للبرلمان العاصمة والمدائن الكبرى والموانىء والأساطيل وللملك القسم الأكبر من الشرفاء. وكان حزب الملك منتشراً في الشمال والجنوب وحزب البرلمان

منتشراً في الشرق والوسط والجنوب الشرقي. فتقدم الملك من نوتنهام زاحفا على لندرة وكسر أعداءه في أدج هيل وورستر غير أن البرلمانيين لم يلبثوا أن أسسوا فرقاً جديدة تحت قيادة أوليفيه كروموبل وغيره فقهروا الملك في مارستون مور (١٦٤٤) ثم في نيوبري. وعند ذلك حالفوا الاسكتلنديين ثم استمروا يحاربون بلا مهادنة الى أن سحق الجيش الاسكتلندي آخر جيش للملك في نازبي (١٦٤٥) فيئس ودخل معسكر الاسكتلنديين تسليماً فباعوه للبرلمان بأربعمئة ألف دينار استرليني (١٦٤٧).

وكان كروموبل المتقدم ذكره أعظم رؤساء الأحزاب المختلفة في البرلمان دهاء وبسالة وأشدهم رغبة في الجمهورية.

مقتل كارلوس الأول (١٦٤٩)

فلما قدم الملك الى لندره مأسوراً مال فريق البريسبيتاريين في البرلمان للمفاوضة معه ومسالمته فطردهم كروموبل من المجلس فبقي حزب الاستقلاليين هو السائد فيه فحكم على الملك بأن يرفع أمره الى محكمة جنائية وهذه قضت عليه بأن يقتل شنقا ونفذ حكمها في ٩ فبراير من سنة ١٦٤٩. فنتج عن هذا القضاء الظالم أن انكلترا مالت الى الملكية.

جمهورية انكلترا (١٦٤٩ — ١٦٦٠) وكروموبل

ونودي بالجمهورية في انكلترا فثارت ايرلنده واسكتلنده إحداهما لأنها كاثوليكية والأخرى لأنها تذكرت أن الملك اسكتلندي الأصل وانه قتل ظلماً فأخضع كروموبل الأولى بحرب من أعظم الحروب شراً وأخضع الثانية بعد أن انتصر عليها في موقعتي رومبار وورسستر (١٦٥١). وكان أول عمل سياسي للبرلمان الجديد أن نشر لائحة الملاحة التي حظرت دخول الموانيء الانكليزية على جميع السفائن التي تأتيها ببضاعة ليست من مصنوعات نفس البلدان التي تخصها تلك السفائن وقد بقي هذا القانون معمولاً به في انكلترا الى سنة ١٨٥٠.

وكان هذا القانون كما يظهر بالبداهة يقتضي انكلترا من توسيع نطاق صناعتها

وبحريتها ويقضي على بحرية هولنده بالضعف والانحطاط لأن معظم إيرادها كان من الموانى الانكليزية. ولذلك شهرت الحرب على بريطانيا العظمى. وحدث أن كرومويل تكدر يوماً من البرلمان فجاء غرفة الاجتماع مصطحباً جنوده وطرد النواب منها زاعماً «أن الله لم يكن معهم» فلما خرج أقفل جنوده الباب وكتبوا عليه «منزل للكراء» (٢٠ أبريل ١٦٥٣) ثم عاد فعقد برلماناً جديداً ثم عاد ففضه ولقب نفسه باللورد الحامي للبلاد وكان ملكاً بغير لقب الملك. وقد أحسن السياسة مدة استبداده بالأمر فإنه وطد الأمن وأنمى التجارة والصناعة في الداخل وكسر الهولنديين ثلاث مرار في الخارج وعاقب القرصان الأفريقيين وأخذ من الاسبانيين جزيرتي جامايك ودنكرك وأخذ بنصرة البروتستان في كل مكان واستمال لويس الرابع عشر الى محالفته. وبعد أن حكم خمس سنين على هذه الصورة توفي (١٦٥٨) وخلفه ابنه ريكاردوس ثم ناء بالحمل فاعتزل ووقعت انكلترا في الفوضى فأخذ القائد مونك يمهد السبيل لإرجاع الملكية وفضّ البرلمان الحاضر واستبدله بآخر أطوع له من بنانه اتفق فيه المحافظون والأحرار على إعادة آل ستيوارت بلا اشتراط شيء عليهم.

كارلوس الثاني (١٦٦٠ــ١٦٨٥)

ولي كارلوس الثاني وأحسن السير في بادىء الأمر لإقامته على المذهب الانكليكاني وتركه للبرلمان امتيازاته القديمة. ثم احتاج الى المال لكثرة ما كان ينفقه على الفواحش فحالف لويس الرابع عشر من أجل راتب عينه له مردريك ودنكرك وكلتاهما من فتوحات كرومويل (١٦٦٢) ثم ألجأه شعبه أن يدخل في محالفة لاهاي الثلاثية لصد غارة الفرنسويين عن هولندة (١٦٦٦) غير انه لم يلبث أن خرج منها وباع نفسه للويس الرابع عشر فأجرى عليه راتباً سنوياً يبلغ مليوني فرنك الى أن توفاه الله.

على أن هذه السيئات لم تلبث أن أحدثت كدراً عند الأمة فقام حزب في البرلمان في سنة ١٦٧٤ معارض للملك وكان ذلك عنوان ثورة جديدة مزمع حصولها وسنأتي عليها وعلى ما كان من بقية تاريخ كارلوس الثاني في فصل آخر. ويكفينا الآن أننا

تبينا الى هنا أن انكلترا كانت كإسبانيا والأمبراطورية النمسوية في شغل عن لويس الرابع عشر وفي عجز عن مقاومة سلطته المتسعة.

—٧٤—

لويس الرابع عشر من ١٦٦١ الى ١٠٨٥

كولبير

صرح هذا الملك حين وفاة مازارين انه سيحكم غير مستعين بكبير وزراء له واستمر على ذلك طول حياته. ولم يكن من ذوي العقول السامية والذكاء الفائق ولكنه كان ملكاً عظيماً من حيث احسن اختيار رجاله وعرف أن يسيرهم بما كان عنده من المزايا الجليلة.

ومن أعاظم رجاله وزيره كولبير الذي انجح التجارة والزراعة والصناعة والبحرية انجاحاً عظيماً. وقد وجد المالية مثقلة بالديون والايرادات مستوفاة عن سنتين آتيتين فأصلح هذه الحالة واستزاد الايراد ووضع الميزانية التقديرية ومنح الجوائز السنية لأرباب الصنائع ووسع نطاق البحرية وفتح الطرق والترع وابتنى الموانئ وأسس خمس شركات كبيرة للتجارة في الهند والشرق والسنغال وغيرها. وفي سنة ١٦٦٢ جهز ثلاث مئة سفينة مختلفات الحجم وأوجد لها ٨٧ ألف بحار. ومن مآثره بناء ميناء روشفور وتوسيع مينائي برست وطولون ومشترى. دنكرك واستعمار جزائر الانتيل وأمريكا الشمالية.

لوفوا

وفي الوقت نفسه كان لوفوا وزير الحربية فوضع الكساء الرسمي العسكري وجدد فرقاً مختلفة وأسس مدارس لتعليم المدفعية وأجرى تحسينات عسكرية من كل وجه وكان فوبان المهندس الكبير يحصن تخوم فرنسا تحت ادارته.

حرب الفلمنك (١٦٦٧)

عندما توفي فيليب الرابع ادعى لويس الرابع عشر انه حقيق بأن يرث القسم الاسباني من هولنده فرشا انكلترا وهولنده لتلزما الحياد وفتحت جنوده مراكز الفلمنك الجنوبية في ثلاثة أشهر والفرانش كونته كلها في ١٧ يوماً (١٦٦٨) فوقع الرعب في قلب الدول فعقدت هولنده وانكلترا وأسوج محالفة لاهاي وحملت الملك على التوقيع على معاهدة اكس لاشابل وتركت له بمقتضاها اثنتي عشرة مدينة (١٦٦٨).

وبعد ذلك باربع سنين نوى الملك فتح هولنده كلها فرشا انكلترا واسوج لتعتزلا وارسل على تلك البلاد مئة ألف مقاتل (١٦٧٢) تحت قيادة كونده وتورين فاجتازوا الرين وفتحوا كل المراكز حتى أصبحوا على مقربة من امستردام وعند ذلك وقع تباطوء من الفاتحين فثار أهل البلاد وقتلوا حاكمهم جان ويت واقاموا مكانه غليوم دورانج ففتح الهويسات فهجم البحر على قسم كبير من البلاد وغرقه فاضطر الفرنسيون ان يتراجعوا. ثم عقد غليوم محالفة مع اسبانيا والامبراطور وكثيرين من الامراء الألمانيين وانكلترا فقاومت فرنسا الحلفاء في كل جهة واخضع الملك بذاته الفرانش كونته (١٦٧٤) وطرد تورين عساكر الامبراطور من الالزاس ثم قتل في العام التالي وانتصر كونده على الاعداء في موقعة سنيف الهائلة ثم اعتزل القيادة. وكان الاسبانيون قد دخلوا فرنسا من الشمال والنمسويون من الشرق فردهم الفرنسيون على أعقابهم وكان دوكين وستراي في الوقت نفسه يهدم عمارة الهولنديين وينهب مستعمراتهم. ولما رأى لويس أن انكلترا دخلت في المحالفة على رغم إرادة ملكها وقع على معاهدة نيماج التي أخذ بمقتضاها فرانش كونته و١٤ مركزاً فلمنكياً وأكره الدانمرك وبراندبورج على ما فتحتاه من أملاك أسوج وخرجت فرنسا من هذه الحرب منتصرة على أوروبا كلها بعيدة الأطراف والتخوم من الشمال والشرق بما كسبته من الأملاك الجديدة.

نقض منشور نانت ١٦٨٥

وسكر لويس بخمرة نصره وعظمته فوجه نظره الى توحيد الدين في مملكته لأنه كان لا يطيق ان تدين بدينين كما كان لا يطيق ان تكون فيها ارادة نافذة غير ارادته. فأرسل الواعظين والمبشرين يتحولون البروتستان عن مذهبهم تارة بالملاينة وطوراً بالمجافاة وفي سنة ١٦٨٥ أصدر أمراً نقض به منشور نانت وحظر حرية الضمير والمعتقد على غير الكاثوليك فأخذ البروتستان بالهجرة من فرنسا الى اوربا فبرحها نحو ثلاثمئة ألف نفس منهم ٩٠٠ بحار و١٢٠٠٠ جندي و٦٠٠ ضابط وسائرهم من أرباب الصناعات وأبرع المشتغلين بها حملوا الى خارج فرنسا أسرار فنونها التي كانت تستدر لها الأموال من جميع الأقطار وكان هذا الخطأ أكبر خطأ ركبه ذلك الملك الكبير.

—٧٥—

ثورة انكلترا (١٦٨٨)

بعثة الأفكار الحرة في انكلترا (١٦٧٣ — ١٦٧١)

أحدث نقض منشور نانت ثورة في انكلترا اسقطت عن العرش جاك الثاني ملكها الكاثوليكي وأقامت مقامه غليوم الثالث الكلفيني.

ولقد علمنا أن كارلوس الثاني كان قد جعل نفسه مأجوراً للويس الرابع عشر براتب سنوي غير أن انكلترا لم توافق على سياسة ملكها ففي سنة ١٦٦٨ حملته على محالفة الاسوجيين والهولنديين لانقاذ هولنده الاسبانية وفي سنة ١٦٧٤ حملته على ترك محالفة فرنسا والانقلاب عليها فنتج من ذلك عقد مصالحة تيماج وهذا الفشل الذي أصاب ملك انكلترا في سياسته أصابه أيضاً في المسألة الدينية فانه كان يظن به الميل الى الكاثوليك ولذلك قرر البرلمان «لائحة القسم» قاضية باجبار كل موظف ان يقسم عند توليه منصبه انه لا يعتقد «بالاستحالة» واستمرّ هذا القرار نافذاً في انكلترا

الى سنة ١٨٢٩. وجرت على أثر هذه الخطة الجديدة اضطهادات فظيعة للكاثوليك. وفي سنة ١٦٨٥ خلف جاك الثاني أباه على أثر ثورة اراد بها حزب الاحرار أن يمنعوه من وراثة الملك بدعوى أنه كاثوليكي ففاز فيها عليهم وقتل كثيرين من زعمائهم ونفى كثيرين آخرين. ثم ثار عليه ابن أخيه والدوق دارجيل فانتصر عليهما وقتلهما ونكل بحزبهما وأرسل سفيراً رسمياً الى الڤاتيكان لمصالحة انكلترا مع الكنيسة الكاثوليكية فاحتج على ذلك رئيس اساقفة كانتوربري فسجن في البرج وستة من أشياعه.

سقوط جاك الثاني (١٦٨٨) وتولي غليوم الثالث (١٦٨٩)

هذه الخطة التي جرى عليها الملك حملت حزب الاحرار على التآمر عليه خصوصاً وقد ولدت له امرأته الايطالية الكاثوليكية وليّ عهد في سنة ١٦٨٨ كان لا بد أن يربى كاثوليكياً. فواطأوا غليوم دورانج حاكم هولنده صهر جاك الثاني على أن يقيموه ملكاً على انكلترا. فلما رأى جاك انه متخلي عنه من الجميع فرّ الى فرنسا واقام البرلمان مقامه غليوم الثالث بعد أن جعله يوقع على لائحة عرفت بلائحة الحقوق مؤداها ان تاج الملك هبة من الأمة وان البرلمان يعقد في مواعيد مسماة وأنه يفرض الضرائب ويشارك الملك في سنّ القوانين وهلمّ جراً. وبعد ذلك بأشهر وضع لوك أحد الذين كان يضطهدهم جاك الثاني القاعدة الأساسية التي استقرّت عليها الحكومة الانكليزية وهي ان سيادة الأمة والحرية هما المبدآن الشرعيان اللذان تقوم بهما كل حكومة وتدوم.

— ٧٦ —

تحالف الدول على فرنسا (١٦٨٨ — ١٧١٤)

عصابة اوجسبرج (١٦٨١)

لما رأت الدول ما كان من كثرة مطامع لويس الرابع عشر بحيث أصبح لا يحسب حساباً لها وأخذ تارة يستولي على بعض المدائن في حالة السلم بدعوى أنها من

ملحقات فتوحاته ومن ذلك أخذه عشرين مدينة احداها ستراسبرج (١٦٨١) وتارة يسيء معاملة البابا لأنه أهان سفيره وطوراً يطالب بقسم من ولاية البالاتين الألمانية وآناً يسعى لامتداد نفوذه على وادي البو في ايطاليا تحالفت عليه تحت اسم عصابة أوجسبرج في سنة ١٦٨٦ أما انكلترا فلم تدخل في المحالفة الا في سنة ١٦٨٩.

حرب عصابة أوجسبرج (١٦٨٩ — ١٦٩٧)

فوجّه لويس أوّل ضرباته الى غليوم ذلك أنه أحسن وفادة جاك الثاني وأعطاه اسطولاً وجيشاً احتلّ بهما ايرلنده غير أنه انهزم في موقعة بوين فرجع. ثم ان الملك أمر تورفيل أن يهجم بسفائنه الاربع والاربعين على تسع وتسعين سفينة انكليزية فانكسر الاسطول الفرنسوي بقرب هوغ (١٦٩٢) ومن ذلك اليوم أصبحت السيادة البحرية لانكلترا غير ان فرنسا وفقت في البر فتغلب لوكسنبرج على جنود الحلفاء في فلوروس (١٦٩٢) وفي ستينكرك (١٦٩٢) وفي نيروندن (١٦٩٣). ثم استمال لويس دوق سافوي اليه بما رده اليه من أملاكه المنتزعة منه ففصله عن الدول المتحالفة فاضطرت الى القبول بمعاهدة ديسويك (١٦٩٧) وبها اعترف لويس بغليوم الثالث ملكاً على انكلترا وأرجع لألمانيا الأملاك التي انتزعها منها في مدة السلم واستبقى له سان دومنج ولاندو وسان لويس.

حرب الخلافة الاسبانية (١٧٠١ — ١٠١٤)

كان كارلوس الثاني ملك اسبانيا آخر سليل من الأسرة النمسوية التي توارثت سرير هذه الدولة. وكانت ثلاث دول تستعد للتنازع على خلافته وهي فرنسا والنمسا وبافاريا. فاما لويس الرابع عشر فكان يطالب بما لأمرأته ماري تيريزا من الحق وأما ليوبولد الأول فكان يطالب بمثل ذلك لامرأته مرغريته الشقيقة الثانية لماري تيريزا وأما منتخب بافاريا فكان يطالب بمثل ذلك لحفيده القاصر الذي كان أيضاً حفيد مرغريته المتقدم ذكرها. وكان كارلوس الثاني اميل الى استخلاف هذا الصبي فمات الصبي فانصرف ميله الى استخلاف دوق انجو حفيد لويس الرابع عشر فلم يكن من هذا الملك عندما لبس حفيده تاج اسبانيا تحت اسم فيليب الخامس الا أنه أعلن ان

حقوق حفيده بوراثة عرش فرنسا محفوظة له فخافت اوربا من أن تتجدد سلطنة شرلكان ذات يوم على يد آل فرنسا كما ساءها اعتراف لويس بجاك الثالث ملكاً على انكلترا بعد وفاة أبيه جاك الثاني وعدت ذلك خروجاً عن حدود معاهدة ريسويك (١٧٠١) فتحالفت ثانية في لاهاي وكانت المتحالفات انكلترا والولايات الهولندية المتحدة والامبراطورية الألمانية والبرتغال منضماً اليها نفس دوق سوافوي صهر فيليب الخامس. وعهدت ادارة المحالفة الى ثلاثة قواد عظام هم هينسيوس الهولندي ومارلبوروك زعيم حزب الاحرار في انكلترا والبرنس أوجين الفرنسوي الأصل احد الذين هاجروا الى النمسا. فلما انتشب القتال فاز دوق فاندوم (١٧٠٢) على البرنس أوجين في لوازارا وفاز فيلارس على جيش آخر امبراطوري في فريدلنجن وفي هوشستد وفي الوقت نفسه نزل مارلبوروك في هولنده الاسبانية والارشيدوق كارلوس في البرتغال وثار الكاميزار وهم طائفة من البروتستان في سيفين من أعمال فرنسا وأحدق الخطر بهذه الدولة من الداخل والخارج.. وفي سنة ١٧٠٤ انكسر الفرنسويون في موقعة ثانية في هوشستد فاخرجوا من المانيا ثم في موقعة راميلي فاخرجوا من هولنده الاسبانية ثم في تورين فاخرجوا من ميلانو ومملكة نابولي (١٧٠٦) وفي سنة ١٧٠٧ دنا العدو من طولون فجمع لويس الرابع عشر جيشا جديداً جراراً ليستوقف به الاعداء في هولنده الاسبانية فانكسر في اودنارد ثم حوصرت مدينة ليل فسلمت بعد شهرين (١٧٠٨) فطلب لويس عقد الصلح فاشترط عليه انه يطرد بنفسه حفيده من اسبانيا فأبى وعبأ جيشاً آخر تحت قيادة فيلارس فانكسر في مالبلاكه بعد أن قتل منه ثمانية آلاف وقتل من الاعداء ٢٠ ألفاً. غير ان فاندوم انتصر على المتحالفين في فيلافيسيوزا (١٧١٠) فكان هذا الانتصار تأييداً لفيليب الخامس على عرش اسبانيا وفي سنة ١٧١١ توفي امبراطور المانيا فخلفه أخوه الارشيدوق كارلوس فخافت الدول ان يجتمع على رأسه تاج اسبانيا وتاجا الامبراطورية ونابولي وفضلت أن يبقى فيليب الخامس ملكاً على اسبانيا فأخذت انكلترا تفاوض فرنسا في شأن الصلح وبعد ذلك بأشهر انتصر فيلارس على الجيش الامبراطوري في دينان انتصاراً باهراً عجل عقد الصلح فوقعت عليه انكلترا والبرتغال وسافوي وبروسيا وهولنده في اوترخت (١٧١٣).

معاهدتا أوترخت وراستاد (١٧١٣ — ١١٧٤)

يؤخذ من معاهدة اوترخت ان لويس الرابع عشر صدق على النظام الوراثي الجديد للملك انكلترا على اثر ثورة ١٦٨٣ وترك للانكليز الأرض الجديدة وقبل بهدم حصون دنكرك وبأن لا يجتمع تاجا اسبانيا وفرنسا على رأس ملك واحد. وبأن يأذن لهولنده بوضع الحاميات في أكثر مراكز الولايات الاسبانية منها لتحميها من الوقوع في أيدي الفرنسويين. وأعطى دوق سافوي صقليا ولقب الملك. ومنح منتخب براندبرج لقب الملك على بروسيا. أما امبراطور المانيا فانفرد عن الباقين ارادة اتمام الحرب الى أن يملك على اسبانيا فانتصر الفرنسويون على جيوشه في لاندو وفريبورج فوقع على معاهدة راستاد (١٧١٤) وبمقتضاها كسب جانباً من املاك اسبانيا الخارجية والولايات المتحدة الهولندية الاسبانية ونابولي وسردينيا وميلانو وتوسكانا. على أن فرنسا خسرت خسارة كبيرة في هذه الحرب ولكن اسبانيا بفقدها أملاكها الهولندية اصبحت حليفة طبعية لها فأمنت بذلك على تخومها الجنوبية وتعززت تخومها في الشمال الشرقي.

وبعد هذه الحوادث بقليل توفي لويس الرابع عشر (١٧١٥) وكان قد حكم مدة ٧٢ سنة حكماً مطلقاً الى حد أنه كان يقول «انني أنا مملكتي».

— ٧٧ —
الصنائع والآداب والعلوم في القرن السابع عشر

الاداب والصنائع في فرنسا

هذه جريدة اسماء المشاهير من الفرنسويين في ذلك العصر الذهبي. كورنايل وموليار وبوالو ولافونتين وبوسويه ومدام دي سفينيه وراسين ولابرويار وفنلون وسن سيمون وبوردالو من الشعراء والكتاب والواعظين. وكازوبون وسكاليجر وسوماز

ودوكانج وبالوز وبايل والرهبان البندكتيون من الباحثين في العلوم والتاريخ. وباسكال من الكتاب والحكماء وديكارت صاحب فلسفة الطريقة وهي أساس النجاح والمدنية وقاعدة الحاضر والمستقبل في الدنيا لصدق مبادئها وصحة مقدماتها ونتائجها وبوسين ولسيور وكلود لورين ولبرون من أمهر الرسامين وبوجه من أبرع النحاتين ومانسار وبيرولت من أشهر المهندسين البنائين ولولي من كبار الموسيقيين.

الآداب والصنائع في الأمصار الاخرى

كانت ايطاليا والمانيا واسبانيا في انحطاط وقد ظهر في اسبانيا لوب دي فيجا وكالديرون وسرفانتس من الكتاب.

وأما انكلترا فقد كان ذلك العصر عصرها الذهبي أيضاً اذ نبغ فيه شكسبير وملتن ودريدن وأديسون من أعظم الشعراء والأدباء، وهوبس ولوك من المتفلسفين الكبار، وظهر في امستردام الفيلسوف اليهودي الشهير سبينوزا وفي ليبزيك من المانيا العلامة ليبنتس.

أما الصنائع فكان السبق فيها لهولنده والفلمنك فقد ظهر فيهما روبنس وفان ديك ورامبرند وتنيه وأخوه وظهر في اسبانيا فيلاسكس وموريليو وريبرا وفي ايطاليا لوجيبد ولوبرنين واما انكلترا والمانيا فلم يكن فيهما صانع يخلق بالذكر.

العلوم في القرن السابع عشر

علمنا أن القرون القديمة والمتوسطة ذهبت كل مذهب في ميادين الفكر والنظر والتصور ولكن كانت على جهل من حيث العلم التحقيقي الوضعي.

ودامت الحال كذلك الى ظهور كوبرنيك في القرن السادس عشر فكان الأول والآخر في زمانه ولكنه ظهر في القرن السابع عشر كبلر الورتنبرجي الذي أثبت صحة ما علمه كوبرنيك من أن السيارات تدور حول نفسها وحول الشمس. ثم غاليله البيزي الذي قال بدوران الأرض فعاقبه التفتيش الاستبدادي الكاثوليكي بالسجن والتعذيب على اكتشافه (١٦٣٣) ثم نيوتن الانكليزي الذي اكتشف النواميس

الأولى للنور وللجاذبية العامة. ثم ليبنتس مكتشف حساب الفروق ثم باسكال مكتشف حساب الخطأين ثم ديكارت الشهير ثم بابين مكتشف قوة البخار المحركة ثم رومر مكتشف سرعة النور ثم هارفي مكتشف دورة الدم ثم كاسيني وبيكار اللذين أسسا هاجرة باريس ثم توريشلي صاحب مقياس الحرارة على وضع يختلف عن مقياس غاليله ثم هو يجنس مخترع الساعة ذات الرقاص.

ومما تقدم يظهر أن السبق في هذا القرن كان لفرنسا ثم لانكلترا وتليها سائر الدول من بعيد.

—٧٨—

نشأة روسيا وانحطاط أسوج

دول الشمال في أول القرن السابع عشر

بينما كان أهل وسط أوروبا وغربها يتقدمون ذلك التقدم السريع الذي وصفناه كان السلافيون والسكندينافيون في ظلمات من الخمول والجهل والهمجية استمروا فيها الى ما بعد فتح المغول لروسيا ففي ذلك العهد تعززت بولونيا بانتصارها المتوالي على المغول ثم اسوج بظهورها في مدة غوستاف ادولف على الألمانيين والبولونيين والروسيين. وفي منتصف القرن الثامن عشر كان البلطيك لا يزال بحيرة أسوجية محاطة بمراكز حصينة غير أن السيادة الاسوجية عليه كانت سريعة العطب والزوال لما كان حواليه من الاعداء المتهيئين لاقتسامه. وكانت اذ ذاك بولونيا لا تزال ممتدة من جبال كربات الى البلطيك ومن الاودير الى منابع الدنيابر والفولكاغير ان حكومتها الفوضوية وملكيتها الانتخابية كانتا مضعفتيها وفاتحتي أبوابها لكل طارق من الاعداء. وفي الزمن الذي نحن في صدده كان منتخب ساكس هو الملك عليها. أما الروسيون فكان الاسوجيون والبولونيون ودوق قورلنده يحولون دون وصولهم الى البلطيك الجنوبي وجمهورية القوقافيين الباسلين التابعين بالاسم لبولونيا تفصلهم عن البحر

الأسود كما تفصلهم عنه أيضا جماعة من القبائل التترية. ولما سقطت جمهورية نوفوغورود في سنة ١٤٧٦ انفتحت لهم مسالك المحيط المتجمد وشمالي البلطيك. ثم أفنوا تتراستراكان ووصلوا الى بحر قزبين. وفي سنة ١٦٥٦ عقدوا مع البولونيين معاهدة ويلنيا التي خطوا بها أول خطوة نحو اوروبا حيث أدخلوا في أملاكهم سمولنسك ونشيرينكوف واوركين. وحين تولى ايوان الثالث منع تقسيم أملاك التاج بين أعضاء عائلته وترك تلك العادة جارية في بيوتات الشرفاء ليضعفوا بها. ثم خلفه ايوان الرابع الملقب بالشديد فنكل بالشرفاء تنكيلاً وأصدر في سنة ١٥٩٣ أمراً بجعل جميع الفلاحين ارقاء لازمين للأرض التي يوجدون عليها لا يستطيعون أن ينتقلوا من تبعية سيد الى تبعية آخر.

بطرس الكبير (١٦٨٢)

وفي سنة ١٦٨٢ لقب بطرس بالقيصر وكان في العاشرة من عمره. فلما شب تاقت نفسه لزيارة اوربا واقتباس فنونها فزار ساردام بهولنده ليتعلم كيف يبني مركباً ثم انكلترا ليستطلع احوال الصناعة فيها ثم المانيا لمشاهدة نظاماتها الحربية وبينما هو في ويانه علم بثورة قام بها جيش الحرس القيصري فهرع الى موسكو وقتل منهم ٥٠٠ وسجن الفين. ثم أسس الفرق المنظمة وحمل أولاد الكبراء على الخدمة فيها جنوداً قبل أن يصيروا ضباطاً وشيد المدارس للحساب والفلك والبحرية وشرع في حفر ترعة من الدون الى الفولكا غير أن احدى الحوادث العظيمة كفّته عن هذا العمل العظيم. وذلك ان ملك اسوج كارلوس الحادي عشر توفي فظنت روسيا والدانمرك وبولونيا أن تلك فرصة لاقتسام البلطيك (١٧٠٠) ولكن كارلوس الثاني عشر مع حداثة سنه وكان لا يتجاوز الثامنة عشرة أراهم تحقيق ما قيل فيه من أنه «ان لم يكن الاسكندر بذاته فهو أول جندي بين جنود الاسكندر» فانه هجم على الدانمرك ليغزوها ثم زحف بثمانية آلاف اسوجي على ثمانين الف روسي فردهم على أعقابهم وطرد السكسونيين من ليفونيا ولحق بهم الى ساكس فخلع أغسطس الثاني وأجلس مكانه على العرش ستانيسلاس لكزينسكي (١٧٠١ — ١٧٠٦). وفي هذه الأثناء

الف بطرس جيشاً كبيراً على مثال الجيوش التي رآها في اوربا وفتح انيجربا وكاريليا وأسس بطرسبرج (١٧٠٣) ليستولي بها على خليج فنلانده ولما فرغ كارلوس الثاني عشر من أعماله التي ذكرناها قصد بطرس لمحاربته غير أنه ضلّ سبيلاً في مستنقعات بنسك عن القائد القوقافي مازيبا الذي كان قد وعده بانجاده بمئة الف مقاتل فانتهز بطرس هذه الفرصة وأوقع بمازيبا على انفراد ثم بنجدة اسوجية كانت آتية لامداده. وحدث ان شتاء سنة ١٧٠٩ كان شديداً فأتم شقاء كارلوس الثاني عشر حيث أدركه الروسيون في بولتاوا (١٧٠٩) فألجأوه الى الفرار مع خمسمئة من خيالته فذهب الى بندر وحرض الاتراك على الروسيين فأرسلوا مئة وخمسين ألف مقاتل فاجتازوا الطونه وحصروا بطرس في معسكره ببروث وكادوا يقبضون عليه لو لم يكفهم عنه الصدر الأعظم لرشوة أخذها منه. فتعهد القيصر بتسليم ازوف واجلاء عساكره عن بولونيا. وكانت هذه المعاهدة أشبه بانكسار جديد لكارلوس الثاني عشر غير أنه استمر مع ذلك ثلاث سنين في بلاد الاتراك وفي سنة ١٧١٤ عاد قاصداً اسوج وكانت الدول قد اقتسمت اسلابها فاشترى جورج الأول ملك انكلترا بريم وفردين وأخذ ملك بروسيا بريم وستاتين وشرع في حصار ستراسلند وعند ذلك دخلها كارلوس الثاني عشر ودافع عنها شهراً ثم ذهب منها الى اسوج فقتل غدراً في حصار فريدريكشال (١٧١٨) وترك بلاده معيبة منهوكة ضعيفة. أما بطرس فلم يمنح الصلح في نيستاد (١٧٢١) للأسوجيين الا وقد تنازلوا له عن ليفونيا واستونيا واينجريا وقسم من كاريليا وقسم من بلاد فيبورج وفنلانده وهكذا انحطت اسوج وارتفعت روسيا.

وفي سنة ١٧١٦ سافر القيصر ثانية الى الغرب فزار فرنسا وعرض عليها أن يحالفها فأبى الكردينال دوبوا ان يجيبه الى ذلك بايعاز من انكلترا. ولما عاد بطرس الى مملكته افادتها رحلته الثانية بقدر ما أفادتها الأولى فانه أتاها بالصناع في كل فن وبالمهندسين وأقام فيها المعامل ومصاب المعادن. ووحد الموازين والمقاييس وأسس محكمة تجارية وفتح مناجم سيبيريا للمعدنين ومهد الطرق لاجتلاب الغلال من الصين وايران والهند وأسس المجمع المقدَّس وخوله السلطة الدينية العليا بعد أن كانت للبطريرك على انفراده. واذ رأى أن ابنه الكسيس مخالف لهذه الاصلاحات

استصدر عليه حكماً بالاعدام وقتله وأهلك جمهوراً من أنصاره وأدب الامبراطورة اودوكسيا ضرباً بالسوط. وفي سنة ١٧٢٥ توفي على أثر ما ركبه من الفواحش.

—٧٩—

نشأة بروسيا وانحطاط فرنسا والنمسا

نيابة دوق اورليان عن الملك ووزارات دوبوا ودوق بوربون وفلوري (١٧١٥ — ١٧٤٣)

عندما قبض لويس الرابع عشر الى ربه كان خلفه في الخامسة من عمره فأقام البرلمان دوق اورليان وصياً على الملك فاستوزر استاذه الكردينال دوبوا فأخذ يحالف انكلترا ويعادي اسبانيا فنوى عند ذلك الكردينال البيروني وزير فيليب الخامس ان يحرض الاتراك على النمسا ليحتلوها ويثير مؤامرة في فرنسا لاسقاط الوصي ووزيره ويرجع آل ستيوارت الى انكلترا بسيف كارلوس الثاني عشر غير أن البرنس اوجين غلب الاتراك في بلغراد (١٧٧١) ومؤامرة سلامار في فرنسا لم تفلح وكارلوس الثاني عشر هلك في نروج. ثم هدم الانكليز الأساطيل الاسبانية بقرب مشينا ودخل الفرنسويون نافاريا وخرجت اسبانيا مستضعفة من هذه الحرب. ومن أهم ما أتاه الوصي مدة حكمه انه استعان برجل مالي شهير يدعى لاو لسد العجز الفاحش الذي تركه لويس الرابع عشر في الميزانية فأنشأ شركة الهند فنجحت نجاحاً تاماً في أول أمرها ثم سقطت فضمها الى بنك فرنسا لتستمر في مركزها ويمتنع الخراب والافلاس فسقطت هي والبنك جميعاً وفر لاو تلعنه عامة الناس لما أضاع عليهم من أموالهم باحتياله وغشه.

وفي سنة ١٧٢٣ توفي الوصي ودوبوا فتولى الوزارة بوربون وأهم عمل قامَ به انه زوج لويس الخامس عشر من ابنة ستانيسلاس لكزنسكي (١٧٢٥) الذي أقامه كارلوس الثاني عشر ملكاً على بولونيا ثم لم يلبث أن خلع ، وخلف بوربون في الوزارة فلوري أسقف فريجوس أستاذ الملك فبذل قصارى جهده في اصلاح حال المالية وتوطيد السلام في أوروبا ولكنه أضعف بحرية بلاده باجابته انكلترا الى كل المطالب المضرة التي كانت تعرضها عليه. ولما توفي أغسطس الثاني ملك بولونيا انتخبت أكثرية أهلها ستانيسلاس لكزنسكي وكان الروسيون يريدون تعيين منتخب ساكس (١٧٣٣) فاضطر ملك فرنسا أن ينجد صهره ولكنه بعث اليه عدداً قليلاً من الجنود فغلبوا جميعاً وأتى لكزنسكي الى فرنسا (١٧٣٤) فأراد فلوري أن يمحو هذا العار وحالف سافوي واسبانيا لاخراج النمسا من ايطاليا فانتصرت جنود الحلفاء في بارمه وغواستالا وأكرهت الامبراطور على التوقيع على معاهدة ويانه (١٧٣٣) التي أعطيت بمقتضاها دوقية لورينه لستانيسلاس على أن تأول بالارث عنه الى تاج فرنسا وأعطي دوق لورينا توسكانا وأعطي دون كارلوس ولي عهد اسبانيا صقليا ومملكة نابولي. ثم ان فرنسا انتصرت لتركيا في معاهدة بلغراد (١٧٣٩) فمنحتها الصرب بموجبها وبعد هذا الفوز على النمسا عادت ذات النفوذ الأول في أوربا.

نشأة بروسيا

في سنة ١٤١٧ اشترى فريدريك هوهنزولرن صاحب نورمبرج من الامبراطور مارغرافية برندبورج وأصبح بذلك أحد المنتخبين في المانيا. ثم قام من بعده ابنه البرت (١٤٦٩) فأصدر أمراً بأن كل ما يستزيده ذووه في المستقبل من الاملاك يضم الى الانتخابية وان الانتخابية لا تقبل التقسيم. وفي سنة ١٦١٨ استزاد هذا البيت دوقية بروسيا وفي سنة ١٦٢٤ دوقية كليف وكونتيني مارك ورافنسبرج وقد رأينا في معاهدة وستفالي ان صاحب هذه الانتخابية الكبرى احتل مجدبرج وقسماً من بوميرانيا (١٦٤٨). ولما تولى فريدريك غليوم انتصر لهولنده على لويس الرابع عشر وكسر الاسوجيين في نهر بلين فكان ذلك أساس شهرة الجيش البروسي. وهو الذي شيد برلين ووطن فيها وفي البقاع غير المأهولة من أملاكه عدداً عظيماً من

الهولنديين والفرنسويين الذين أخرجهم من بلادهم نقض منشور نانت. ثم خلفه ابنه فريدريك الثالث فاشترى من الامبراطور لقب الملك وتوج نفسه في كنيفسبرج (١٧٠١) وكان لا يزال معدوداً كسائر المنتخبين بالنظر الى المانيا. ثم خلفه فريدريك غليوم الأول (١٧١٣) فأسس الجيش البروسي وكان يبلغ ٨٠ ألف مقاتل وقضى عمره في ترويض عساكره وتمرينهم ولم يقم بعمل يذكر سوى أنه فتح بقية بوميرانيا.

ماري تريزا وفريدريك الثاني وحرب السبع السنين ١٧٤١ — ١٧٤٨.

رأينا ما كان من انحطاط النمسا على أثر الصدمات التي لقيتها من بروتستان المانيا بمساعدة الاسوجيين ومن الاتراك ومن الفرنسويين الا أن البرنس اوجين الفرنسوي الأصل انقذها بانتصاره على الاتراك في زانتا (١٦٩٧) وفي بتروارادين (١٧١٦) وفي بلغراد (١٧١٧) كما أن حرب خلافة اسبانيا وسعت نطاق أملاكها بضم هولنده الاسبانية وبليزانس وبارمه اليها. وفي سنة ١٧٤٠ توفي الامبراطور كارلوس السادس فانقرضت به سلالة هبسبورج من الذكور فقام الخلاف على وراثته بين ملك اسبانيا ومنتخبي بافاريا وساكس وملك سردينيا وفريدريك الثاني ملك بروسيا. فقاومتهم ابنته ماري تريزا وانضمت فرنسا الى ملك بروسيا وانكلترا الى الامبراطورة.

وكان فريدريك الثاني منقطعاً للاشتغال بالاديبات الى أن انتشبت تلك الحرب فظهر لاوربا بمظهر أعظم قواد عصره من أول حملة حملها فانه انتصر انتصاراً باهراً على ابطال البرنس أوجين في مولويتس وفتح سيلازيا. وكان الفرنسويون في تلك الأثناء قد دخلوا بوهيميا ودوق بافاريا قد توج نفسه امبراطوراً. غير أن ماري تيريزا لم تلبث أن جهزت جيشاً جديداً كانت تنفق عليه من مال انكلترا وأرسلته الى براغ فحصر الفرنسويين فيها فتراجعوا وانجلوا عن بوهيميا فاسترجعها النمسويون وهجموا على بافاريا فحمل فريدريك السلاح ثانية ودخل بوهيميا منتصراً وعقد معاهدة درسد التي أبقت له سيلازيا. وتمكن في هذه الأثناء كارلوس السابع من الرجوع الى مونيخ وأرسل ابنه يفاوض ماري تيريزا في أمر الصلح (١٧٤٥) فعند ذلك لم تبق

لفرنسا مصلحة في مداومة الحرب الا لتصل الى المسالمة بطريقة تشرفها فانتصر قائدها المارشال دي ساكس على أعدائه في روكو ولوفلد وما يستريخت ثم أرسلت روسيا ١٠٠٠٠ جندي روسي لتأييد الفرنسويين فانتهت هذه الحرب بمصالحة اكس لاشابل (١٨٤٨) وفيها تعهد الفرنسويون والانكليز بأن يرد بعضهم للبعض ما فتحه كل فريق من أملاك الآخر. وكانت فرنسا فائزة في البر الا أنها خسرت بحريتها وأضاعت فرصة استعمار الهند التي كان دوبلكس قد مهد لها طريق الاستيلاء عليها.

حرب السبع السنين الثانية ١٧٥٦ — ١٧٦٣

فبادرت فرنسا الى تجديد عمارتها وتوسيع نطاق تجارتها فخافت انكلترا من سرعة نهضتها وأسرت سفائنها بدون اعلان حرب (١٧٥٥) ثم جبنت عن مداومة الحرب البحرية مع فرنسا فبذلت المال لأية دولة تشاء محاربة عدوتها براً فقبلت ذلك بروسيا فتحالفت فرنسا وروسيا والنمسا عليها فأسرع فريدريك وفتح ساكس ثم بوهيميا فأرسلت فرنسا جيشين الى المانيا احدهما انتصر والآخر انكسر (١٧٥٧) ودارت رحى الحرب من كل جانب فبقي فريدريك بضع سنين مقاوماً لفرنسا والنمسا وروسيا واسوج والتقى جيشه بجيوشها في ثماني مواقع الى أن خارت قواه في سنة ١٧٦١ وكاد ملكه يقتسم فاتفق ان توفيت في تلك السنة اليصابات القيصرة وخلفها بطرس الثالث وكان معجباً ببسالة ملك بروسيا فاستعاد جنوده فاستأنف فريدريك الحرب وفاز على أعدائه واستبقى سيلازيا. أما فرنسا فلم تمس براً ولكنها فقدت بونديشيري وكويبك من مستعمراتها وخسرت بحريتها وقبلت بمعاهدة باريس (١٧٦٣) فكانت النتيجة من هذه الحرب الثانية ارتفاع بروسيا براً وانكلترا بحراً واذلال النمسا وانحطاط فرنسا. أما بروسيا ففقدت فيها مليون نفس والتهمت النار ١٤٥٠٠ من منازلها. وبعد أن أسس فريدريك مملكته على حدود السيوف أخذ يصلح شؤونها الداخلية فجفف المستنقعات وابتنى الجسور والسدود والمعامل واحتفر الترع وأقام بنكاً عقارياً وعمم المعارف ورقى نظامات القضاء والادارة. وفي سنة ١٧٧٢ اتم تقسيم بولونيا كما سنرى ذلك بعد قليل وفي سنة ١٧٧٧ أكره النمسا على ترك بافايا مع انها اشترتها بمالها

عقيب وفاة آخر منتخبيها وبذلك نصب نفسه منصب الحامي للامبراطورية الألمانية عوضاً عن النمسا ومهد لخلفه طريق ضمها الى مملكته من بعده.

—٨٠—

قوتا انكلترا البحرية والاستعمارية

انكلترا من سنة ١٦٨٨ الى سنة ١٧٦٣

ان ثورة ١٦٨٨ أحيت الحرية الوطنية والدينية في داخل انكلترا وسودت بحريتها في الخارج على بحريتي فرنسا وهولنده ولما حدثت حرب عصابة اوجسبرج ثم حرب خلافة اسبانيا انتشرت سفائن الانكليز في المحيط كله. وفي سنة ١٧٠٢ توفي غليوم الثالث فخلفته الملكة حنة ثانية بنات جاك الثاني فألفت برلمان ادمبرج وضمت من ذلك اليوم اسكتلنده الى انكلترا ضماً تاماً واستمرّت الى سنة ١٧١٠ تحكم على يد الاحرار وتقاوم سياسة لويس الرابع عشر وقد رأينا انتصار قائدها مارلبروك على الفرنسويين في هوشستد واودنارد ورامبلي ومالبلاكه. وفي سنة ١٧١٠ سقطت وزارة الاحرار وخلفتها وزارة المحافظين فعقدت مع فرنسا صلح اوترخت (١٧١٣) ثم توفيت الملكة فمنح البرلمان التاج لجورج دي برنسويك منتخب هانوفر (١٧١٤) وكان لا يعرف كلمة من الانكليزية ولا بنداً من بنود الدستور الانكليزي فأخذ يحكم على يد وزيره روبرت والبول رئيس الاحرار وكانوا قد أسقطوا المحافظين وقاموا مقامهم الى سنة ١٧٤٢ ثم سقطوا عند بدء الحرب لخلافة النمسا وقام بعدهم المحافظون وفي أثناء هذه الحرب نهض كارلوس ستيوارت يطالب بسرير آبائه (١٧٤٥) فأحدث دماراً كثيراً في انكلترا ثم دارت عليه الدائرة وفي ذلك الزمن ظهر النائب الشهير ويليم بيت الد عدو لفرنسا ثم لم يلبث أن أصبح وزيراً أول فأدار حرب السبع السنين على فرنسا بمهارة وثبات عجيبين. وفي خلالها افقد فرنسا بحريتها

ومستعمراتها. وعند وفاة جورج الأول سنة ١٧٢٧ خلفه جورج الثاني وتوفي سنة ١٧٦٠ وكلاهما ملكا ولم يحكما بل كان الأمر للنواب يستمده الوزراء الاحرار أو المحافظون منهم والملك يوقع على ما يعرضه عليه وزراؤه وذلك ما جعل انكلترا ثابتة في سياستها قوية عزيزة الجانب مدة قرنين كاملين وحدث أن ملكها جورج الثالث أصيب بمسّ في عقله جملة مرار في خلال عهده الطويل الذي طال ٦٠ سنة (١٧٦٠ — ١٨٢٠) فلم يتأثر من ذلك سير الحكومة في انكلترا أقل تأثّر.

الشركة الانكليزية للهند الشرقية

هذه الشركة تألفت في عهد الملكة اليصابات وحصلت من المغولي الكبير (١٦٥٠) على الاذن بالاتجار في بنغال وفي سنة ١٦٩٠ شيدت مدينة قلقوطه. غير أن المراكب الحربية الفرنسوية لم تلبث أن أضعفت تلك الشركة بمساعدة الامبراطور المغولي وحمّلت التجارة الانكليزية خسارة ٦٧٥ مليوناً في أثناء حرب عصابة أوجسبرج.

وفي سنة ١٧٠٧ توفي الامبراطور أورنج زيب فظن الانكليز أنهم ينتهزون الفرصة لتأييد سلطتهم في الهند غير أن كولبير أنشأ في سنة ١٧٢٣ شركة مناظرة لشركتهم وكان يديرها دوبلكس الذي حولها الى حكومة قوية ذات حصون ومعامل أسلحة وجيوش وأرض مساحتها ٩٠٠ كيلومتر تمتد من رأس كامورين الى كريشنه. واستمر دوبلكس ثلاثين سنة مطلق الحكم على ثلاثين مليوناً من الهنود غير أن لويس الخامس عشر لم يلبث أن استرجعه الى فرنسا. فمات فيها فقيراً وأخذ الانكليز مكانه واحتذوا على مثاله فنجحوا نجاحاً تاماً ولم يبقوا لفرنسا في الهند الا بونديشيري.

وحدث بعد وفاة أورنج زيب أن السوبابيين أو الامراء والنابابيين أو الولاة انقسموا وحاول كل منهم أن يستقل فأخذت شركة البنغال الانكليزي تنتشر بسهولة ولم تصادف معارضة الا في دقهان فإن الأمير حيدر علي المسلم صاحب ميسور وابنه تيبو سايب حارباها من سنة ١٧٦١ الى ١٧٩٩ ثم بقي الفوز للشركة وأخذت من سنة ١٧٩٩ الى ١٨١٨ تحارب المهرانيين حتى أخضعتهم. وفي سنة ١٨٤٦ فتحت

البنجاب أو بقعة الانهار الخمسة ثم فتحت البقاع الواقعة وراء الكانج في الشمال الشرقي ليكون لها منها سبيل الى الصين وفي سنة ١٨٤١ حاولت ان تستولي على الشمال الشرقي من جبال افغانستان لتقابل الروس فيه فلم تفلح. وفي سنة ١٨٥٨ تنازلت الشركة للمملكة الانكليزية عن فتوحاتها في الهند وهي لا تقل مساحة عن أوربا الغربية كلها عدا روسيا فالانكليز اليوم يحكمون على مثتي مليون هندي.

—٨١—

تأسيس الولايات المتحدة الأميركية (١٧٨٣)

أصل الجاليات الانكليزية التي قطنت امريكا

كانت الجماعات والافراد من الذين يضطهدون في انكلترا بسبب الدين يفرون الى امريكا الشمالية ويعيشون فيها بحرية الضمير والمعتقد وكان كل فريق من المهاجرين يستوطن بقعة فالكاثوليك اختاروا ماريلاند والبروتستان أهل البدع المختلفة عن المذهب السائد في بريطانيا العظمى اختاروا البقعة التي سميت بانكلترا الجديدة وهلمّ جرّاً وكانت كل مستعمرة ذات جمعية شوروية تدير شؤونها.

حرب امريكا (١٧٧٥ — ١٧٨٣)

عندما انتهت حرب السبع السنين أرادت الوزارة الانكليزية ان تحمل المستعمرات قسماً من ضرائب المملكة ففرضت على أمريكا رسم استعمال الطوابع وعوائد على الزجاج والورق والشاي (١٧٦٧) فأبى سكانها ذلك بناء على البند الدستوري الانكليزي القاضي بأن لا تؤخذ أموال من بلدة الا ما يقرره نوابها. وهم لم يكن لهم نواب في البرلمان البريطاني ثم تعاهد سكان ٩٦ مدينة منهم على أن لا يشتروا بضاعة انكليزية ما دامت الحكومة لا تجيبهم الا ما طلبوه في احتجاجهم من

تعيين نواب لهم وفي سنة ١٧٧٤ القى بعض المعتصبين محمول ثلاث سفائن انكليزية في البحر وبعد ذلك بأشهر كان ابتداء الثورة ثم انعقد مجتمع فيلادلفيا في ١٤ يوليو من سنة ١٧٧٦ وأعلن استقلال المستعمرات الثلاث عشرة واتحادها مع بقاء كل منها على حريتها السياسية والدينية .

واشنطن واشتراك فرنسا في الحرب وعصابة أهل الحياد

ونصب واشنطن احد كبار مزارعي ويرجينيا قائداً عاماً للثائرين وكان الرَجل الذي يحتاج الى مثله في مثل هذه العظائم لما كان عليه من البسالة وعدم الاستخفاف لدى النصر والجبن لدى الانكسار فأرسل الانكليز ١٧٠٠٠ مقاتل أكثرهم من الأمراء الألمانيين لمحاربته فأفقدوه نيويورك وفيلادلفيا غير أنه احتفظ بمدينة هو في الشرق واستطاع بها أن يرد هجمة بورغوين عليه مع جيش أتى به من كندا لإنجاد الانكليز ثم حصره في ساراتوغه (١٧٧٧) ودحره وكانت فرنسا قد أرسلت أسطولاً لمساعدة أمريكا فقاتل الاسطول الانكليزي في آخر الحرب دون أن يفوز أو يفاز عليه وكذلك أرسلت فرنسا جيشاً بقيادة روشامبو ولافايت فاضطر اكورنواليس أن يسلم لهما مدينة يورك تون. وبعد قليل انضمت أساطيل اسبانيا وسائر الأساطيل الثانوية الى أسطول فرنسا وتألفت من جميعها «عصابة أهل الحياد» بحجة أن تؤمن طريق السفن التي لا تهرب أدوات للحرب فضاقت انكلترا ذرعاً عن اتمام القتال ووقعت على معاهدة فرسايل التي ردت الى فرنسا بعض مراكزها الاستعمارية المسلوبة عدا كندا وأثبتت استقلال الولايات المتحدة (١٧٨٣)

ولم يمض نصف قرن على استقلال الولايات المتحدة حتى أخذت تناظر انكلترا في تجارتها البحرية . أما واشنطن فبعد أن انتهت الحرب فرق جنوده وكانوا لا يريدون الانفكاك عنه وعاد الى بلدته ليعيش كسائر الناس الى أن دعاه قومه في سنة ١٧٨٩ لتولي الرئاسة عليهم وانقاذهم بحسن سياسته من ورطة وقعوا فيها كما أنقذهم قبلها بسيفه وبسالته فاستلم أزمة الحكم مرتين ثم رجع الى عزلته وفي سنة ١٧٩٩ أدركه أجله وقد ترك في الدنيا أطهر ذكر وأشرف اسم بين أسماء المشاهير من أهل الازمان الحديثة .

— ٨٢ —

اقتسام بولونيا وانحطاط تركيا وارتفاع روسيا

كاترينه الثانية (١٧٦١) وفريدريك الثاني وتجزئة بولونيا للمرة الأولى (١٧٧٣)

كانت بولونيا بما هي عليه من تولي ملوكها بالانتخاب وفوضوية الشرفاء والمنازعات الدينية مقضياً عليها اما بالفناء أو باصلاح هذه الحالة. ولكن جيرانها حالوا دون اصلاحها وتآمرت روسيا وبروسيا سراً على اقتسامها. غير ان القيصرة كاترينه الثانية التي كانت أفضل خلف لبطرس الأكبر بدهائها وحسن سياستها طاولت في الأمر على أمل أن تغنم الغنيمة وحدها بعد حين. وكانت كاترينه هذه قرينة بطرس الثالث حفيد بطرس الكبير وقد أماتت زوجها خنقاً لتملك مكانه. فلما رأت ان مجلس نواب بولونيا قرر اضطهاد «المنشقين» ويعني بهم الروم غير الكاثوليك جعلتهم تحت حمايتها فتحالف الكاثوليك ليقاتلوا المنشقين وقتل الفلاحون سادتهم وغرقت بولونيا بدماء أهلها فدخلها الروسيون وانتشروا في كل جوانبها وأتاها البروسيون من الغرب والنمسويون من الجنوب واذ كانت فرنسا لا تستطيع انجاد بولونيا حركت الاتراك على كاترينه فدمرت اسطولهم واحرقته في جشمه وأخذت جانباً من ولاياتهم فهال فريدريك الثاني ذلك الفوز العظيم ودعا كاترينه الى استئناف الكرة على بولونيا منذرا لها بأن يحالف النمسا لمحاربتها ان لم تفعل فلبته على الرغم منها وتم ذلك الاثم في ١٩ ابريل من سنة ١٧٧٣ فأخذت ماري تريزا غاليسيا وفريدريك كل البقعة التي كان يحتاج اليها لضم الأرض البروسية برمتها الى ما كان يمتلكه من البلاد الألمانية. وكاترينه بعض الولايات الشرقية.

معاهدتا فينارجه (١٧٧٤) وياش (١٧٩٢)

ولما فرغت كاترينه من أمر هذه التجزئة رجعت الى مناوأة الاتراك وكان ختام هذه الحرب بمعاهدة فينارجه (١٧٧٤) التي تقدم ذكرها.

وفي السنة التالية استولى الروس على جمهورية القوقاف الأوكرانيين الذين كانوا يحولون دون تقدمهم نحو البحر الأسود.

وفي سنة ١٧٧٧ اشتروا من خان القرم امارته على ما أشرنا اليه قبلاً وفي سنة ١٧٨٧ شهرت تركيا عليهم الحرب فامتدت أربع سنين وانتهت بمعاهدة ياش (١٧٩٢).

اقتسام بولونيا ثانية وثالثة ١٧٩٣ — ١٧٩٥

وكان البولونيون قد تنبهوا من غفلتهم على أثر ما جزىء من مملكتهم فأخذوا يصلحون شؤونهم اثناء ما كانت النمسا وبروسيا مشتغلتين باخماد الثورة الفرنسوية غير أن هاتين الدولتين كرهتا أن تقوم لتلك المملكة قائمة فاقتسمتاها مع روسيا ثانية وثالثة في خلال سنتين ومحيت هذه الأمة من صحيفة الأمم المستقلة وكان ذلك أكبر عار وأعظم أثم جنته الدول التي جزأتها.

محاولة اقتسام أسوج

ثم اتفقت روسيا وبروسيا سراً على اقتسام اسوج وأخذتا تدسان الدسائس لدوام المؤامرات والشقاق الذين كانا يمزقان أحشاء تلك المملكة في داخلها غير أن دهاء غستاف الثالث ملكها (١٧٧٢) والنظام الدستوري الذي وضع لها سنة ١٧٨٩ انقذاها من الخطر المحدق بها. ثم لم يلبث الكبراء أن قتلوا ذلك الملك المحب للاصلاح الكاره للروسيين (١٧٩٢) وكادوا يقضون على وطنهم بالدمار لو لم تكن كاترينه في ذلك الوقت مشتغلة بمشاكلها في الشرق وبروسيا بمشاكلها في الغرب.

ممهدات الثورة الكبرى

الاكتشافات العلمية والجغرافية

ان القرن الثامن عشر كان عصر تجديد في العلوم كما كان القرن السابع عشر عصر تجديد في الأداب والقرن السادس عشر عصر تجديد في المعتقدات. وقد تكاملت به العلوم الطبيعية على يد فرانكلين مخترع الشاري وهو القضيب الدافع للصاعقة وفولتا وكالفاني مخترعي البطارية الكهربائية ولابلاس ولاغرانج مخترعي التحليل الكيماوي ولينه ودي جوسيو مكتشفي علم النبات وبرفون مكتشف علم الحيوان وعلم طبقات الأرض ولافوازيه مكتشف النواميس الأساسية لعلم الكيمياء. وفي سنة ١٧٧٥ اكتشف اللقاح البشري وفي سنة ١٧٨٣ اجتازت أول باخرة نهر السون واطلق أول منطاد في الجو.

وكذلك قام رحالون مشاهير في مقدمتهم كوك وبوكنفيل وبيروز فطافوا حول الأرض يطالعون أحوال الأمم والبلاد ويرسمون ما يرونه لتقرير الحقائق وفي الجملة يطلبون الافادة العلمية لا الاستفادة المالية.

الاداب في القرن الثامن عشر

أما الآداب فانتقلت من طور الى آخر فقد نزلت من عالم الوهم والخيال والمناقشات الدينية الى عالم المادة والتحقيق والبحث عن أمراض المجتمع البشري لمداواتها وكان في مقدمة أهل هذه المباحث من مشاهير الادباء العظام فولتير الذي جاهد كل حياته في سبيل اطلاق حرية الفكر ومونتسكيو الذي بحث عن أصل وضع الشرائع وقابل بين الموجودة منها ليرشد الناس الى أفضلها وهي شريعة الدستور الانكليزي وروسو الذي قرر في كتاباته حق السيادة في الحكم للأمة لا للملوك وأشار بضرورة الانتخابات العامة ثم أصحاب كتاب موسوعات العلوم وقد نقلوا في

تأليفهم جميع المعارف البشرية على شكل مناف للدين داع الى اصلاح الهيئة التي كان عليها المجتمع الانساني ثم كنساي واضع علم الاقتصاد السياسي القاضي أيضاً بتعديل الشكل الاجتماعي واصلاحه.

اختلاف الافكار ونظامات الحكومات

ان عدم التلاؤم بين هذه الأفكار التي انتشرت وبين حال الحكومات في ذلك الوقت كانت ولا بد داعية الى تغيير الملوك لنظامات بلادهم فان لم يفعلوا ثار الشعب عليهم وتولى ذلك بنفسه وهذا ما حصل على ما سنراه غير أن أكثر ملوك اوربا شعروا بالحاجة الى الاصلاح فأجروه وكان قليلاً بطيء السير وخصوصاً من حيث تعميم المعارف فان القيصرة كاترينه كانت تنشيء المدارس ولا تقبل فيها أحدا وذلك لكراهتها ان يتنبه الشعب فيكون بذلك سقوط سلطتها وكان سائر الملوك يرون مثل رأيها ومع ذلك فقد أصلحوا ما أصلحوه من حال رعيتهم بحكم الاضطرار وكان أرشدهم في ذلك وأعظمهم عملاً فريدريك الثاني ملك بروسيا.

اواخر سي لويس الخامس عشر ١٧٦٣ — ١٧٧٤

عرفنا ما كان من انحطاط فرنسا على أثر حرب السبع السنين فهي بعدما خسرته من السطوة والاملاك والأساطيل لم تستزد الا ولاية اللورين التي كانت محتلتها بعساكرها من زمان قديم (١٧٦٦) وجزيرة كورسكا التي اشترتها من جنوا بأربعين مليوناً (١٧٦٩).

هذا ما كان من عمل لويس الخامس عشر في الخارج وأما في الداخل فانه استبد وأساء التصرف فأغضب الأمة اغضاباً عيل معه صبرها لأنه حكم عشيقاته في رقابها وكان يسلب أموال الأغنياء ويسجن من يريده أو يعدمه بلا محاكمة ومما زاد النفار منه حله البرلمان ونفيه الجزويت. وقد شعر في أخيرات أيامه بخرق سياسته فقال «ان هذه الحالة تدوم ما دمت وعلى من يخلفني أن يخرج منها كما يمكنه الخروج».

لويس السادس عشر الى ابتداء الثورة

خلف هذا الملك لويس الخامس عشر وكان مستقيما عفيفاً محباً لبلاده ضعيف الرأي قلق الجنان. فالغى السخرة والتعذيب وأخرج البروتستان من اعتبارهم سفهاء بمقتضى القانون. ومن مآثره انه استوزر تورغو فشرع في الاصلاحات التي كانت تقضي بها الظروف فعاداه الحاشية وأهل البلاط واستمروا يقاومونه حتى عزله الملك وهو يقول «لا يحب الشعب أحد كما نحبه أنا وتورغو» ثم استوزر نيكر أحد الصيارفة فلم يستطع أن يخرج فرنسا من الافلاس الذي وقعت فيه ولا سيما على أثر حرب امريكا. وبعده استوزر كالون فزاد دين المملكة ٥٠٠ مليون في ثلاث سنين فعقد الملك جمعية من الاعيان للنظر في دواء يزال به ذلك الداء (١٧٨٧) فلم تفلح في قرارها فأخذ الشعب يطلب عقد مجلس النواب بكل لسان فوعدته بذلك الحكومة واستعادت نيكر المحب للاصلاح الى الوزارة فاستصدر قراراً بعقد مجلس النواب وان يكون فيه عدد المنتدبين عن قسم العامة من الأمة مساوياً لعدد المندوبين عن الشرفاء والاكليروس.

وكان ذلك مفتتح الحوادث التي جرت بعد الاجتماع الذي تم على هذا الشكل مما سيأتي بيانه في القسم الرابع من هذا الكتاب ان شاء الله.

— ٨٤ —

الثورة الفرنسية ١٧٨٩ — ١٧٩٢

الجمعية الواضعة للدستور وسقوط البستيل

رأينا مما تقدم ان الملك الاستبدادي في فرنسا كان ولا بد زائلاً لما كثر من نفقات الملوك الفاحشة التي ضاقت الأمة ذرعاً عن تحملها ولما ركبوه من الاغلاط السياسية والادارية التي كانت تقضي قضاء محتماً بتغيير الشكل الذي كان عليه نظام الحكومة

في ذلك الوقت ولما تغير من أفكار الأمة ومشاربها بعد انتشار أفكار الفلاسفة والعلماء الاصلاحيين المتقدم ذكرهم بينها فلما اجتمع النواب في اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٧٨٩ في فرسايل كان المندوبون عن العامة منهم وجماعة من المندوبين عن الشرفاء والكهنة يرون ضرورة التسوية بين جميع الافراد لدى القانون للتوصل بذلك الى الوحدة السياسية والاجتماعية في فرنسا. فنشأ عن التوافق في هذا الفكر ان انضم فريق من الشرفاء والاكليروس الى نواب العامة وقرروا في اجتماعهم أن تلقب جمعيتهم بالجمعية الواضعة للدستور. وفي السابع والعشرين من الشهر تم انضمام أهل الطبقات الثلاث من النواب بعضهم الى بعض ولم يزدهم ما حاوله الملك من تشتيت شملهم بالقوة وما القاه من الخطاب التهديدي عليهم الا ثباتاً في عزيمتهم فاعلنوا على أثر ذلك انهم فوق العقوبة لنيابتهم عن الشعب. فجمع الملك ٣٠٠٠ مقاتل من جنوده الأجانب حول باريس وفرسايل لارهاب الجمعية ونفي نيكر الوزير الذي كان الشعب يميل اليه فجدد النواب تحالفهم على أن لا يفترقوا قبل ان يضعوا دستوراً لفرنسا. فهجم المقاتلون على باريس لالقاء الرعب في القلوب فحمل السكان السلاح وهجم فريق منهم على الجنود فتقهقرت الى فرسايل وذهب فريق آخر الى سجن البستيل فأخذوه عنوة وقتلوا قومندانه وكان ممن قتلوه الوزير فولون والمستشار برتيه (١٤ يوليو)

واقعة أكتوبر والهجرة ودستور سنة ١٧٩١

فلما علم الملك بما حدث قال «اذن فذلك عصيان» فأجابه الدوق لاروشفوكو «لا يا مولاي وانما هو ثورة وانقلاب».

وفي ٤ أغسطس الغت الجمعية الحقوق الاقطاعية ومبيع المناصب ثم قررت لائحة «حقوق الانسان» الشهيرة ووضعت المجلس التشريعي وابت على الملك أن يكون له حق رفض القرارات النيابية ما شاء فاستدعى لويس جيشاً جديداً لتأمينه على نفسه وارهاب الثائرين فلم يفلح بهذه الحيلة. وكانت في تلك الاثناء المجاعة عامة في فرنسا ففي خامس اكتوبر تألف جيش جرار من نساء باريس وذهبن الى فرسايل لارجاع

الملك منها اعتقاد ان رجوعه يعيد الخصب والسعة الى باريس . وكان جماعة من الحرس الوطني الذي أوجده القائد الشهير لافايت يسيرون لخفارتهن فلما وصلن الى فرسايل دافعهن حرّاس الملك فقتلن رهطاً منهم وأهانوا الملكة وانتهكن احترام القصر وبعد يومين عدن بالملك وسائر أهل البلاط الى باريس .

وحدثت أيضاً في داخلية البلاد حركات ثورية كثيرة فان الفلاحين كانوا يوقعون بالشرفاء ويهدمون استحكامات قصورهم فيفرون الى الخارج وكذلك جماعة من الامراء والكبراء من حاشية الملك تركوه منفرداً في هذه الشدة ولجأوا الى الدول الأجنبية يواطئونها على دخول فرنسا لاعادة الأمن وسلطة الملك اليها .

أما الجمعية فكانت توالي أعمالها وكان مما قررته حرية المعتقدات واقامة الشعائر الدينية وحرية الصحافة والصناعة وأن يرث جميع الأولاد أباهم المتوفي على السواء وأن تلغى القاب الشرفاء وأن يقبل جميع الفرنسويين في المناصب بلا تمييز من حيث الكفاءة وأن تقسم فرنسا الى ٨٣ مقاطعة عوضاً عن تقسيمها القديم . وأن تستبدل البرلمانات في المدائن بمحاكم وأن تصادر أملاك الاكليروس وتصدر قراطيس مالية بقيمة اربعمئة مليون مضمونة برهن تلك الاملاك وذلك لسد ما اشتد من حاجة الحكومة الجديدة الى المال وأن لا تكون في القانون مزية للرهبنات على غيرها من الشركات . وأن تكون ارادة الأمة هي السائدة وتصدر عنها كل سلطة ومن أجل ذلك عمم الانتخاب في كل مكان وجعل في كل مقاطعة وفي كل مركز وفي كل مدينة مجلس انفاذي . وفي شهر نوفمبر من سنة ١٧٨٩ أخذ أهل فرنسا يتآخون وهم شاكو السلاح ويهنيء بعضهم بعضاً في القرى والمدائن بنجاة الوطن واستمروا على هذه الحال بضعة أشهر مطمئنين ثم أعدت باريس ساحة الشان دي مارس للاحتفال بعيد للمؤاخاة فوفد اليها مندوبون من قبل الجيش ومئة الف مندوب عن الولايات وفي ١٤ يوليو من سنة ١٧٩٠ اقسم الملك بمشهد ومسمع من ذلك الجمهور يمين الطاعة للدستور . وظن ان الأمن يبيت موطد الاركان غير أنه لم يلبث أن تكدر صفوه بما وقع من النزاع الجديد بين الملك والجمعية وذلك انها عرضت عليه لائحة لاصلاح الاكليروس على الشكل الدستوري المدني فأبى الموافقة عليها

وحظر البابا على رجاله أن يقبلوها فوقع من جراء ذلك شقاق في كنيسة فرنسا نتجت عنه اضطهادات وحروب فظيعة . وكذلك ساء لويس السادس عشر ما كان يعرض عليه من القوانين الشديدة لمعاقبة اعزائه واعوانه الذين كانوا يهجرون فرنسا ويلجأون الى الدول الأجنبية فرأى أن الأفضل له الفرار الى متس والاستنجاد بالنمسا وبروسيا على قومه ففر (١٧٩١) ولكنه قبض عليه في فارين فقررت الجمعية معاقبته بكفه عن أداء وظيفته السامية وفي ١٧ يوليو طلب الشعب في ساحة الشان دي مارس أن يستقيل الملك فنشر القائد بابي الراية الحمراء وأطلق البنادق على الجموع ففرقها. وبقي الملك سجيناً في قصر التويلري الى ١٤ ستمبر ثم قبل بدستور سنة ١٧٩١ القاضي باقامة مجلس واحد للتشريع لا يجوز للملك أن يمنع انفاذ أحد قراراته أكثر من أربع سنين وعندما أنجزت الجمعية أعمالها أصدرت عفواً عاماً وأوصت بالمسالمة وأعادت حرية السفر والجواز والغت كل القوانين الاستثنائية لتسترجع بذلك المهاجرين الى وطنهم . ثم أرفضت على أن لا يدخل في الجمعية التي تخلفها أحد من أعضائها . وكان أشهر رجالها مونيه ومالواي وبرناف وسيايس وخصوصاً ميرابو احد اعاظم خطباء الدنيا .

— ٨٥ —

تحالف الملوك على فرنسا وانخذالهم وذكر الثورة من سنة ١٧٩٢ — ١٨٠٢

الجمعية التشريعية (١٧٩١ — ١٧٩٢)

كان اول اجتماع لهذه الجمعية في غرة اكتوبر سنة ١٧٩١ وآخر اجتماع لها في ٢١ ستمبر من السنة التالية وكان زعماؤها من الحزب الذي عرف بحزب الجيروندبين

واشهرهم بريسو وبتيون وفرنيود وجانسونه وديكو وفالازي وجل ما فعلوه انهم سعوا لاسقاط الملك واقامة الجمهورية .

تأثير الثورة خارج فرنسا والتحالف الأول ١٧٩١

ان الثورة لم ينحصر تأثيرها في فرنسا بل تجاوزها الى بلجكا وهولنده وامارات الرين والمانيا وانكلترا حتى وروسيا فاغضب ذلك الامراء والملوك وأخذوا يستعدون لمقاومة هذا الروح الجديد ومعاقبة الذين احدثوه وبثوه فاتفق على ذلك ملوك النمسا وبروسيا والبيامون واسبانيا وحكومات سويسرا ولما انتهت اسوج من محاربة روسيا وبروسيا من محاربة تركيا وتركيا من محاربة النمسا التقى ملك بروسيا وامبراطور النمسا في بلينتس ورسما خطة دخول المتحالفين لفرنسا ورد سلطة ملكها اليه (١٧٩١) فاجابت الجمعية التشريعية على ما بلغها من هذا الاستعداد بأنها تنصح لاولئك الملوك بالعدول عنه والا دخل الفرنساويون بلادهم واعملوا فيها السيف والنار وأدخلوا اليها الحرية فليحذروا مما يقدمون عليه . وعلى أثر هذا الجواب انتشبت حرب هائلة دامت ٢٣ سنة كان الفوز في ختامها للفرنسويين وجرى فيها من الدماء مقدار ما كسبته فرنسا من الفخر والمجد .

كومون باريس وواقعتي ٢٠ يونيو و١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ ومذابح ستمبر

وأول ما فعلته الجمعية بعد قرار بيلنتس انها سنت قوانين شديدة الوطأة على المهاجرين والقسس الذين ابوا أن يحلفوا اليمين المدني بدعوى انهم هم سبب العصيان الذي قام في مقاطعتي فاندي وبريتانيا على قدم وساق . فتردد الملك في التوقيع على هذه الاوامر ثم امضاها وشهر الحرب على النمسا في ٢٠ ابريل سنة ١٧٩٢ غير ان كبار الثائرين كانوا يشعرون بأن للملك تواطؤاً سرياً مع الدول المعادية لفرنسا ولذلك سعوا في اضعاف حزبه الذي كان صاحب الأغلبية في الجمعية التشريعية ثم حالوا دون اقامة لافايت رئيس هذا الحزب محافظاً لباريس فعين بتيون احد الجيرونديين في ذلك المنصب . وفي ٢٠ يونيو دخل الشعب قصر التويلري وأهان الملك وأكرهه على لبس القبعة الحمراء علامة الرضى بالثورة فاحتج لافايت على محدثي هذه الاهانة فنقم

الجمهور عليه واضطر أن يخرج من فرنسا بعد ذلك بشهرين وسقط بخروجه حزب الملكية الدستورية وفاز حزب الجمهورية . وفي ١٠ أغسطس كان غضب الشعب قد بلغ منتهاه لما رآه من شدة لهجة الدول المعادية وخصوصاً منشور الدوق دي برونسويك فكانت كل فرنسا مستعدة لحمل السلاح .

وفي ١٠ أغسطس قتل بعض رعاع الجمهوريين والجنود حرس القصر ودخلوه فلجأ الملك الى منتدى الجمعية التشريعية فارسلته الى سجن يعرف باسم سجن الهيكل والحقت أسرته به وأعلنت انه مكفوف عن أداء وظيفته . وفي أثناء هذه الحادثة قتل نحو أربعة آلاف نفس . ثم أريد استبدال الدستور الحاضر بآخر فانتخبت جمعية الاتفاق الوطني (لا كونفانسيون) وخلفت الجمعية التشريعية التي لطخت اواخر أيامها بلطخة سوداء قبيحة وهي ان حزب الكومون في باريس رشا جماعة من السفاحين فأخذوا يستفتحون السجون من ٢ الى ٥ سبتمبر ويذبحون المعتقلين فيها حتى بلغ عدد القتلى ٩٠٠ وستاً وستين نفساً .

التحالف الأول وانكسار البروسيين في فالمي (٢٠ ستمبر سنة ١٧٩٢)

عندما ابتدأت الحرب زحف النمسويون على فرنسا من الشمال والبروسيون من جهة نهر الموزيل وملك سردينيا من جهة الألب . فانتصر الفرنسويون على أعدائهم في الشمال وأخذوا سافوا ونيقا . والتقى ديموريز القائد الفرنسوي بجيش البروسيين في فالمي من مقاطعة شمبانيا فتغلب عليهم وردهم على أعقابهم الى الرين وهناك تولى القائد كوستين الهجوم ففتح سبيراوورس ومايانس . ثم سطا ديموريز على النمسويين بعد رفعهم الحصار عن مدينة ليل لعجزهم عن أخذها عنوة فظهر عليهم في موقعة جاماب وفتحت له بذلك أبواب هولنده .

جمعية الاتفاق الوطني ١٧٩٢ — ١٧٩٥ وتأسيس «الجمهورية الفرنسوية (٢٠ ستمبر ١٧٩٢) ومقتل لويس السادس عشر»

كان أول ما قررته هذه الجمعية الغاء الملكية والمناداة بالجمهورية وفي ٣ دسمبر

قررت محاكمة لويس السادس عشر امامها خلافاً للدستور القاضي بأن يكون الملك فوق سلطة القضاء ولا يعاقب الا بالخلع . فحكمت عليه بقطع رأسه وتم ذلك في ٢١ يناير سنة ١٧٩٣ قال دانتون «ولنرم رأس هذا الملك لاعدائنا المتحالفين فيكون لهم عبرة وانذاراً» .

حكومة الارهاب

ولما انتشر نعي لويس السادس عشر دخلت الدول التي كانت لازمة الحياد في معاداة فرنسا وأطبقت جيوشها بها من كل جانب وفضلاً عن ذلك فقد شبت الحرب الأهلية في فاندي وبريتانيا وترك ديموريز جيشه وانضم الى النمسويين فقاومت الجمعية أعداءها الداخليين والخارجيين جميعاً ولكنها ركبت فظائع لا توصف وذلك انها وضعت المحكمة الشوروية الشهيرة لتقضي بالقتل على كل منهم بكلمة قالها أو بحركة مشتبهة أبداها (١٠ مارس ١٧٩٣) ثم قررت أن أعضاءها خاضعون لتلك المحكمة وانتخبت من بينهم لجنة سميت بلجنة النجاة جعلت في يدها السلطة الانفاذية . وهذه الحكومة لقبت بحكومة الارهاب وكان أعضاء الجمعية فريقين الجيرونديين برئاسة دانتون والجبليين برئاسة روبسبيير الشهير بقوته ومارا الشهير بنفثات قلمه التي كانت تنشر في جريدته ودانتون الشهير بفصاحته . وقد احتال هؤلاء حتى استصدروا حكماً باعدام ٣٢ عضواً من الجيرونديين (٢ يونيو) فنفذ الحكم على بعضهم وفر بعضهم الى المقاطعات يستثيرون الناس على الجمعية فثارت بايعازهم أكثر مدائن الجنوب وفتحت طولون أبوابها للانكليز وسلمتهم أسطول البحر المتوسط ووقعت كونده وفالانسين ومايانس في أيدي الاعداء فدخلوا فرنسا من الشمال والجنوب . وفي تلك الأثناء كان الفانديون منتصرين على جنود الجمهورية وكانت فرنسا كلها مبتلاة بمجاعة هائلة فقد معها كل أمن واختل كل نظام . ولما رأت الجمعية انه لم يبق لها الا ثلاثون مقاطعة تعتمد عليها قررت لائحة «المشتبهين» التي عرضها عليها مرلين فاعتقل بسببها ٣٠٠٠٠٠ نفس في الحبوس . ثم قررت ما عرضه عليها باريز نيابة عن لجنة النجاة وهو أن تعتبر الجمهورية كلها كمدينة محاصرة . وان تحول فرنسا الى معسكر ويدعى الرجال على اختلاف أعمارهم

الى الدفاع عن الوطن والحرية فالشبان يقاتلون والمتزوجون يصنعون الأسلحة والنساء تهيء الملابس والخيام للجنود والأولاد يقتطعون من الاكسية البالية اربطة للجراح والشيوخ ينتقلون الى الساحات العامة لايقاد الحماسة في الصدور » وعلى اثر ذلك جهز مليون ومئتا ألف رجل للحرب وعادت ليون وبوردو إلى الطاعة واسترجع بونابرت مدينة طولون وكان اذ ذاك يوزباشياً في المدفعية وطرد الفانديون عن أبواب نانت وجعل جوردان قائداً عاماً للجيش فكف غارة المتحالفين. وكانت دماء الشرفاء والكهنة والمشتبهين على اختلافهم تجري انهاراً في جميع انحاء فرنسا. واتفق أن امرأة تدعى شارلوت كورداي قتلت ماراً ظناً منها أنها تسقط بقتله حكومة الارهاب ولكن النتيجة وقعت على العكس وكان ممن قتلوا على أثر هذه الحادثة ماري انطوانت امرأة الملك واليصابات شقيقته وبايلي وزعماء الجيرونديين ودوق أورليان والقائد كوستين ومدام رولان الكاتبة الشهيرة ولافوازيه العالم ومالزرب وكاميل ديمولين ودانتون والفوضويون حزب هيبير والشاعر اندره شنيه وكان في شرخ شبابه.

تاسع ترميدور أو ٢٧ يوليو

وبعد هذه المنكرات أراد روبسبيير ان يصل الى الانفراد بالسلطة فتنبه لمقاصده زمرة من الزعماء منهم فوشه وتاليان وكاريه وبيود فارين وكولودربوا وفاديه وآمار وغيرهم فاحدثوا ثورة تاسع ترميدور[١]، وأوقعوا في التهمة روبسبيير وكوتون وسنجوست وابن روبسبيير وليبا ومئة من أنصارهم فقتلوا جميعاً. وعند ذلك استراحت فرنسا من هذه المجزرة ومالت الحكومة الى الاعتدال بحكم الضرورة وكان عدد الاحكام التي أصدرتها المحكمة الثورية بالاعدام يبلغ ٢٦٦٩ عدا الاحكام التي

(١) هو اسم أحد الشهور من التاريخ الجديد الذي جُعلت الثورة مبدأه. وكان الثورويون قد غيروا أسماء الشهور والأسابيع والأيام غير أن التاريخ القديم لم يلبث أن عاد الى ما كان عليه.

أصدرت بمثل ذلك في ليون واراس ونانت وتولوز ومرسيليا وبوردو مما يكاد لا يقع تحت حصر.

المواقع التي جرت من ١٧٩٣ - ١٧٩٥

عرفنا ان جميع الدول تحالفت على فرنسا بعد مقتل لويس السادس عشر ولم يسالمها الا الدانمرك وأسوج. ففي شهر أغسطس من سنة ١٧٩٣ كان الاعداء قد دخلوا فرنسا من جميع تخومها.

وفي آخر دسمبر كانت فرنسا منتصرة عليهم في جميع الجهات فان هوشار دحر الانكليز في هندشوت. وجوردان كسر النمسويين في واتيني وبونابرت فاز في طولون وهوش في ويسمبرج وحزب الجمهوريين تغلب على الفانديين وأنهى هذه الحرب الداخلية التي طال امرها واشتد على فرنسا كثيرا. وبعد ذلك باشهر تغلب الفرنسويون على أعدائهم في فلوروس فاستفتحوا أبواب هولنده وردوا الاسبانيين الى ما وراء البرانس والبيامونتيين الى ما وراء الألب والألمانيين والبروسيين الى ما وراء الرين ثم دخل بيشغرو هولنده في فصل الشتاء وان هذا الفشل المتتابع حمل دولتين على الخروج من المحالفة وهما اسبانيا التي كان يحكمها رجال متقاعدون وبروسيا التي كانت تحتاج الى الراحة لاهتضام بولونيا وتجزئتها للمرة الثانية ثم الثالثة. غير ان انكلترا والنمسا وسردينيا والدول الجنوبية والمانيا استمرت مستعدة للنزول واشتركت معها روسيا فارسلت مراكبها تعين انكلترا على محو الاساطيل الفرنسوية وأخذ مستعمرات فرنسا وهولنده حليفتها. ومن نكد طالع فرنسا أن ابطال بحريتها كانوا قد هجروها بسبب الثورة ولذلك لم تستطع سفائنها الظهور على السفائن الانكليزية مع ما كان عند رجالها من البسالة وحدث في غرة يونيو من سنة ١٧٩٤ ان الاميرال فيلاده جوايوز «وأصله قبطان صغير» هاجم ستا وثلاثين سفينة انكليزية بست وعشرين ليحمي من سطوها مراكب كانت مشحونة قمحاً وآتية به الى فرنسا لدفع المجاعة عن بعض مقاطعاتها ففاز بما أراده ولكنه فقد سبعة من مراكبه وكان أحدها يسمى

المنتقم فغرقه بحارته بأنفسهم وهم ينشدون النشيد الثوري لئلا ينكسوا علمه وماتوا عن آخرهم .

دستور السنة الثوروية الثالثة ويوم ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٥

عندما خرجت جمعية الاتفاق الوطني ظافرة من الفتن التي قامت عليها بعد واقعة ٩ ترميدور الغت الدستور الموضوع في سنة ١٧٩٣ وكان لم ينفذ بعد وجعلت السلطة التشريعية في يد مجلسين مجلس الخمسمئة ومجلس القدماء والسلطة الانفاذية في يد لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء غير أن الشعب لم يرض عن هذا المشروع فانتهز الملكيون فرصة كدره واستثاروا بعض شراذم من الحرس الوطني وهاجموا الجمعية فعهدت الى باراس القائد العام في قمع هذا العصيان فكلف به بونابارت الذي أظهر في يوم ١٥ أكتوبر براعة حربية لا مزيد عليها فانه نظم جنوده مع قلتهم بحيث يستظهرون على الثائرين مهما بلغ عددهم من الكثرة وفي اليوم السادس والعشرين من ذلك الشهر عينه أعلنت الجمعية انها انحلت . وقد ذكرنا ما كان من بعض سياستها الداخلية ونزيد الآن على ذلك تتمته فانها بينما كانت البلاد مجاهدة في الخارج ممزقة في الداخل كانت تواصل أعمالها الاصلاحية فأسست وحدة فرنسا وشيدت معالم لنشر المعارف من مدارس ابتدائية وتجهيزية وهندسية وطبية وحقوقية وبيطرية وأقامت نادي الفنون والصنائع ومدارس اللغات المتكلم بها الى ذلك الوقت ومكتب المقاييس الجغرافية ونادي تدريس الموسيقى ومجمع العلماء ومتحف المواليد الثلاثة ووحدت الموازين والمكاييل بالحساب المتري ووضعت السجل الأكبر للدين العام فاستعادت به الثقة بمالية الحكومة واستخدمت التلغراف وجعلت كفالة ذوي العاهات والأمراض المزمنة على نفقة الحكومة وختمت اعمالها بالغاء الحكم بالاعدام بعد أن يسكن الهياج العام .

اللجنة الانفاذية أو الديركتوار ١٧٩٥ — ١٧٩٩

كان ثلثا مجلس الخمسمئة ومجلس الاقدمين من أعضاء الجمعية التي انحلت ولذلك انتخبوا الاعضاء الخمسة للجنة الانفاذية أو الديركتوار من الذين قضوا بقتل

الملك وهم لبو وكارنو وروبل ولتورنو وباراس . على أن هذا النظام الجديد لم يأت بثمرة مفيدة لأن المجالس الانتخابية الفرعية في المقاطعات وأقسامها كانت تسيء التصرف أو تتمادى في الاهمال والسلطة العليا كانت مقسمة بحيث لا تستطيع أن تديرها على ما يجب فنشأ عن ذلك ان اعتلت مصالح العباد والبلاد وخلت الخزينة من المال وسقطت القراطيس المضمونة باملاك الاكليروس الى آخر دركة من انحطاط القيمة ووقفت حركة التجارة والصناعة وقوفاً تاماً وأصبحت الجنود بلا ملابس ولا ميرة ولا ذخر للحرب .

وفي هذه الاثناء كان مورو قائد جيش الرين وجوردان قائد جيش سامبروموز وهوش يراقب شواطىء المحيط لتسكين بريتانيا وفاندي ودفع غارات الانكليز . وأما بونابرت فعهد اليه في قيادة جيش الداخلية غير أنه لم يلبث ان استبدلها بقيادة جيش ايطاليا .

مواقع بونابرت في ايطاليا ١٧٩٦ — ١٧٩٧

وكان جيش ايطاليا معسكراً في جبال الألب يناوش جنود سردينيا ولا ينال منهم مأرباً مع كثرة ما يعانيه من المشاق وكان النمسويون يهددون جنوا ويزحفون على مقاطعة الفار فلما استلم بونابرت القيادة ورأى أنه لا يستطيع اجتياز الألب الى ايطاليا دار اليها من جوانب تلك الجبال وجعل جيشه في مركز يفصل النمسويين عن البيامنتيين فحارب كلا من الفريقين المتحالفين على انفراد وغلبه ثم نكل بالسردينيين حتى ألقوا السلاح وسلموا فعاد الى النمسويين فتقهقر قائدهم بوليو لما وقع في قلبه من رعب بونابرت على أثر ما رآه من عجائب بلائه في مواقع مونتفوتي (١١ ابريل) وميلازيمو (١٤) وداغو (١٥) وموندوفي (٢٢) فلحق به بونابرت وأدركه وسحق جيشه وأراد النمسويون أن يصادموا هذا البطل على قنطرة لودي فأطلقوا عليه قنابل مدافعهم كالمطر فاستظهر عليهم (١٠ مايو) فأرسلت النمسا ورمسر أحسن قوادها ليخلف بوليو وأمدته بجيشين ضخمين أحدهما بعد فتغلب عليهما بونابرت في لوناتو وكاستيليوني (بين ٣.٥) أغسطس وفي باسانو (٨ ستمبر) فخلف الفنزي ورمسر

فقهر في اركول (نوفمبر ١٧٩٦) وفي ريفولي (يناير ٩٧) فأرسل الأرشيدوق كارلوس فأصابه نصيب سابقيه . وهكذا تحطم كل قواد النمسا وكل جيوشها في ملاقاتهم لجيش ايطاليا الذي كان مؤلفاً من ٤٠ ألف مقاتل يقوده شاب لم يتجاوز الثامنة والعشرين من عمره . ولذلك أهدى الديركتوار الى ذلك الجيش الباسل راية مكتوباً عليها ما يأتي « انه أي الجيش » أسر مئة وخمسين الفاً من الاعداء وأخذ ٧٠ راية ومئة وخمسين مدفعاً للحصار و٦٠٠ مدفع للميدان وخمس شراذم من عمال القناطر وتسعة مراكب و٣٨ بارجة وأعطى الحرية لشعوب شمال ايطاليا وأرسل الى باريس أحاسن مصنوعات ميكيلانج وغرشين ودي تيسيان وبول فيرونيز وكوريج ولالبان وكاراش ورافائيل وغيرهم وظفر في ١٨ موقعة وصادم الاعداء ٦٧ مرة » .

وفي أثناء هذه الحرب العجيبة كان الارشيدوق كارلوس قد انتصر على جوردان في ويرتزبرج فخلا بذلك مورو من السند فرجع القهقرى ولكنها رجعة كانت أجل من الفوز لأنه قضى أربعين يوماً حتى اجتاز مسافة مئة ميل بدون أن يتمكن الاعداء من ملاقاته . وفي ١٧ اكتوبر سنة ١٧٩٧ وقع بونابرت على معاهدة كامبو فورميو فارجعت الرين حدّا لفرنسا وأعطت فرنسا حليفة جديدة هي جمهورية ما وراء الألب التي قامت حديثاً في لمبرديا .

حملة مصر (١٧٩٨ - ١٧٩٩) والتحالف الثاني (١٧٠٨) « وموقعة زوريخ »

عندما عقدت المعاهدة المتقدم ذكرها القت النمسا السلاح أما انكلترا فلا وذلك لتحصنها في جزيرتها فأراد الديركتواران يعاقبها بقطع الطريق على تجارتها فعهد الى بونابرت في تسيير حملة على مصر . وكان هذا القائد العظيم يأمل أن يدرك انكلترا في الهند ويخلع سيادتها عنها . فانتصر بادىء بدء في موقعتي الاهرام (٢١ لوليو ١٧٩٨) وجبل الطور (١٦ ابريل ١٧٩٩) غير ان فوز الانكليز على اسطوله في أبي قير (٢١ أغسطس ١٧٩٨) كان قد أفقده مدافع الحصار فلذلك لم يفتح عكاء (٢٠ مايو ١٧٩٩) وانحصر في مصر فوجد أنه لا يستطيع فيها كبير أمر فرجع الى فرنسا بعد أن تغلب على جيش عثماني في أبي قير (٢٥ يوليو ١٧٩٩) .

وكان الوزير الانكليزي بيت قد انتهز فرصة غياب بونابرت وجيشه ليفقد فرنسا ثمار معاهدة كامبو فورميو فشرع من شهر مايو سنة ١٧٩٨ في عقد تحالف ثان على فرنسا فدخل فيه بولس الأول قيصر روسيا وبعض أمراء المانيا الخاضعين للنفوذ النمسوي وامبراطور النمسا واشتركت فيه أيضاً نابولي وبيامونتي وتركيا فعظم الخطر على فرنسا لأنها كانت بلا مال ولا تجارة ولا حكومة محكمة النظام ولا حماسة كالحماسة الأولى التي بثها فيها رجال سنة ٩٣ ومع ذلك فان جوبير طرد ملك سردينيا من نابولي وشامبيونه حوّل نابولي الى جمهورية. غير أن المتحالفين كان لهم ثلاثمئة وستون ألف مقاتل وكان لفرنسا سبعون ألفاً فقط. فاحتل جيش مؤلف من الانكليز والروسيين هولنده وقهر الارشيدوق كارلوس جوردان في ستوكاخ وحاصر كهل تجاه ستراسبورج ودخل مئة ألف روسي ونمسوي الى ايطاليا بعد أن تغلبوا على شرر في ماغناتو (١٥ ابريل ١٧٩٩) وماكدونالد في تريبيا (١٧ — ١٩ يونيو) وجوبير في نوفي (١٥ أغسطس) الا أن ماسينه انتصر في زوريخ (٢٥ ستمبر ١٧٩٩) وبرون في برجن (١٩ ستمبر) فأنقذا فرنسا من غارة الاعداء عليها.

الفوضى الداخلية وثامن عشر بروميير (أو ٩ نوفمبر)

ولم يلبث تنازع الاحزاب أن عاد الى داخلية فرنسا فقد جاء حين ظن فيه الملكيون انهم يفوزون بارجاع الملك الى فرنسا وأخذ المهاجرون منهم يرجعون ومنحت لهم الأغلبية في الانتخابات للمجالس غير ان الديركتوار قتل هذا الأمل حيث طرد كارنو وبارتلمي من اعضائه بدعوى انهما يميلان الى الملكية ونفى ٥٠ من النواب لمثل هذا السبب (٤ ستمبر ١٧٩٧) وبعد ذلك بقليل كسر الديركتوار أنتخاب جماعة من النواب الملقبين بالوطنيين فأجاب المجلس التشريعي على هذا القرار الذي ساءه بقرار قضى فيه على أعضاء الديركتوار بالاستقالة من مناصبهم. وكان الناس قد ملوا هذه الحكومة التي لا حول لها ولا قوة فمالوا الى جعل أزمة الأمر في يد بونابرت وقد زاد نفوذه على أثر عودته من الشرق وارادوا منحه الرئاسة على حكومة جديدة تتولى ادارة شؤونهم فثاروا وأسقطوا الديركتوار بمساعدته (١٨ بروميير أو ٩ نوفمبر ١٧٩٩).

دستور السنة الثامنة والقنصلية

أما القنصلية فتألفت من ثلاثة أعضاء أولهم بونابرت وثانيهم سياياس وثالثهم روجه ديكوس. غير أن بونابرت لم يمهل زميليه أن اسقطهما واختار كامباسريس ولبرون مكانهما واستمنح لقب القنصل الأول وسن دستوراً دعي بدستور السنة الثامنة جعل في يده عامة الاحكام.

وبمقتضى هذا الدستور انشىء «مجلس حكومة» يعد القوانين التي يوعز بها اليه القناصل ثم مجلس شورى يُبدي رأياً في استحسان المشروع المعروض أو استهجانه دون أن تكون الحكومة مقيدة بذلك الرأي ثم مجلس تشريع يرفع اليه المشروع بعد عرضه على الشورى ويتناقش فيه ثلاثة من أعضاء هذا المجلس وثلاثة من نواب الحكومة ومتى انتهى الجدال فيه قبله الأعضاء أو طرحوه.

وأنشىء فوق هذه المجالس مجلس للشيوخ مؤلف من ثمانين عضواً غير قابلين للعزل مكلفين بمراقبة إنفاذ الدستور وبمحاكمة كل من يخالف شيئاً من القانون الأساسي وبانتخاب أعضاء مجلسي الشورى والتشريع. وكان كل فرنسوي في الواحدة والعشرين من عمره منتخبا وكان المنتخبون من كل مركز ينتخبون العشر منهم ليعينوا في وظائف المركز وأصحاب هذه الوظائف ينتخبون العشر منهم لينتخب منهم مجلس الشيوخ الأعضاء لمجلسي الشورى والتشريع. على أن بونابرت أظهر من المهارة في الإدارة مثل ما أظهر من البراعة العجيبة في الحروب فإنه وضع وظائف المديرين وجعل كلا منهم تحت سلطة وزير الداخلية مباشرة وفي يده جميع السلطة الانفاذية وجعل بجانبيه مجلسين أحدهما مجلس المقاطعة على مثال مجلس الحكومة العالي والآخر المجلس العام على مثال المجلس التشريعي. ثم جعل وكيل المدير مرتبطاً بمجلس المركز والعمدة مرتبطا بمجلس القرية وجعل في كل مركز محكمة مدنية وجابيا للمالية. وشيد سبعا وعشرين محكمة للاستئناف ومحكمة للنقض والإبرام وألف لجنة من بورتاليس وترونشة وبيغو وبريامنو ومالفيل لوضع القانون المدني المشهور بكود نابليون وكان في الغالب يرئس تلك اللجنة فلما فرغت من عملها عرضته على مجلسي الحكومة والتشريع فتناقشا فيه بعد أن نقحه كبار رجال القضاء وأعضاء

مجلس الشورى. وفي سنة ١٨٠٤ أمضي. ومن مآثر بونابرت تشييد بنك فرنسا فإنه خدم البلاد أجل الخدم في أوقات إعسارها.

موقعة مارنغو وصلح لونيفيل وصلح أميان

عندما رأى الملكيون خيبة آمالهم رفعوا راية الثورة في غرب البلاد فقمعها بونابرت بالوسائل الشديدة ثم وجد أن فرنسا في خطر عظيم من جهة إيطاليا فسار اليها واجتاز الألب اجتيازاً وهبط على مؤخر جيش ملاس النمسوي الذي فتح جنوا وكان مزمعاً الفتك بالغار فسحقه سحقة قاضية في مارنغو أرجعت إيطاليا لفرنسا (١٤ جونيو ١٨٠٠) وكان مورو قد فتك بالنمسويين أيضاً في هوهلندن فاضطرت النمسا أن توقع على صلح لونيفيل (٩ فبراير سنة ١٨٠١).

أما انكلترا فأصرت على عدائها. وأدركت الدول أنها هي وحدها التي ربحت من تلك الحرب الهائلة دونهن فاجتمع قيصر روسيا وملوك بروسيا والدانمرك وأسوج وجددوا عصابة أهل الحياد لتقرير حرية البحار (دسمبر ١٨٠٠) فصادرت انكلترا مراكب الدول المتحالفة التي كانت في موانيها وأرسلت نلسون فمرّ من السوند وتهدد كوبنهاغن. واتفق أن توفي القيصر بولس الأول فانحلت العصابة على أثر وفاته لما أظهرته انكلترا من البسالة والقوة البحرية وبقيت فرنسا منفردة في الدفاع عن حرية البحار وكانت انكلترا مع ما نالته بعد ذلك من جلاء الفرنسويين عن مصر ومن وقوع مالطه في أيديها عقيب حصار دام ٢٦ شهراً قد أثقلتها ديونها التي بلغت اثني عشر ملياراً وأضعفتها فاقة أهل الطبقة الدنيا من سكانها وثوراتهم المستمرة من أجل ذلك وهالها ما رأته من تجدد قوة فرنسا البحرية والاستعدادات التي كانت تجريها في بولونيا لمحاربتها وانتصار ثلاث سفائن فرنسوية في الجزيراس على ست سفائن بريطانية وتغريقها اثنتين منها فأسقطت وزيرها بيت قبيل عقد معاهدة لونيفيل ثم وقعت على صلح أميان في ٢٥ مارس من سنة ١٨٠٢ وبموجبها اعترفت بالجمهوريات التي أنشأتها فرنسا وردت إليها جميع مستعمراتها وتعهدت بردّ مالطة

الى فرسانها والرأس الى هولندة واحتفظت بجزيرة الثالوث الاسبانية وجزيرة سيلان المتممة لمستعمرتها الهندية.

وعند ذلك استتب السلم في البر والبحر وخرجت فرنسا من الحرب ظافرة على الملوك المتحالفين.

— ٨٦ —

عظمة فرنسا (١٨٠٢—١٨١١)

ما تقرر من منح بونابرت القنصلية مدة حياته

إن صلح لونيفيل زاد رفعة شأن بونابرت الى منتهى ما يطمع فيه إنسان وكان مع ذلك قد أعاد الأمن وبرأ الطرق من اللصوص والسلابين وشيد ثلاث قناطر على نهر السين في باريس واحتفر ترعة سنكانتين وأقام مستشفيات جمة منها ما شيد على قمة جبال الألب وفتح طريق سمبلون الجميلة بين فرنسا وايطاليا ونظم المالية ونشط التجارة وأخذ بنصرة الصناعة والآداب والفنون وأنشأ وسام جوقة الشرف (اللجيون دونور) وأحسن وفادة الراجعين من الهجرة واسترجع الكهنة وعقد اتفاق الكونكورداتو الشهير مع البابا بيوس السابع وحاول أن يوحد الأحزاب ويزيل الضغائن وكان يحضر بنفسه جلسات اللجنة الواضعة للقانون وينظر في كل أمر ويستدرك كل خلل ولا يفوته أمر صغير أو كبير مما هو جارٍ أو ينبغي إجراؤه. غير أنه اشتد على أعدائه كثيراً وقتل ونفى منهم وبعد مضي أربعة أشهر من صلح لونيفيل استصدر قراراً بمنحه القنصلية مدة حياته. وعند ذلك عدل دستور السنة الثامنة من حيث الانتخابات وزاد نفوذ مجلس الشيوخ وسلطته.

ارتقاء بونابرت أريكة الأمبراطورية (١٨ مايو ١٨٠٤)

وفي اليوم الثامن عشر من شهر مايو سنة ١٨٠٤ التمس مجلس الشيوخ من القنصل الأول أن يحكم الجمهورية الفرنسوية حكماً وراثياً بلقب أمبراطور ويدعى نابوليون الأول فقبل وكان قد عارض في هذا المشروع جماعة من أبدال الأحرار كدونو وكارنو وشنيه ولانجويناي وبنجامان كونستان ومدام دي ستال وشاتوبريان فلم يفلحوا في إنقاذ فرنسا من سيد يقبض على أعنّتها بيده بل وافق الشعب على تأسيس الأمبراطورية بثلاثة ملايين ونصف مليون صوت وأتى البابا بيوس السابع بنفسه الى باريس لحضور تتويج نابليون (٢ دسمبر ١٨٠٤) وكان محفوفاً بحاشيته من الكونتية والدوقية والفرقاء والقرناء والمشيريرين والأمراء وسائر موظفي البلاط الذين منحهم الألقاب والمناصب والأملاك. وفي ١٨ مارس سنة ١٨٠٥ استبدل نابليون لقب رئيس جمهورية ايطاليا بلقب الملك عليها. وكان زعيماً لسويسرا تحت لقب الوسيط فضم الى عمالاتها المتحدة ستاً أخرى ووحّد النظام لجميعها وألغى امتيازات بعضها على البعض ولما أصبح أمبراطوراً لم يغير نظامها بل اتخذ منها جيشاً لخدمة فرنسا.

التحالف الثالث وموقعة أوسترلتس ومعاهدة برسبورج ١٨٠٥

في ١٥ مايو من سنة ١٨٠٤ رجع بيت الى الوزارة في انكلترا فساد معه الحزب المائل الى الحرب وكانت انكلترا قد نكثت بوعدها ولم تنجل عن مالطة وصادرت ١٢٠٠ مركب فرنسوي وهولندي بدون إعلان حرب فعاقبها نابليون على ذلك بشن الغارة على مقاطعة هانوفر التي كانت لها ثم جمع جيوشه في بولونيا استعداداً لاجتياز المانش ومحاربة بريطانيا العظمى براً فخافت من ذلك الخطر العظيم وبذلت المال لتعقد محالفة ثالثة فاشتركت فيها أسوج وروسيا والنمسا ونابولي فلما علم نابليون أن ١٦٠ ألف نمسوي زاحفون بعضهم على الأديج تحت قيادة الأرشيدوق كارلوس وبعضهم على الرين تحت قيادة القائد ماك وان وراءهم جيشا روسيا لإنجادهم أرجأ فكر الانتقاض على انكلترا وخرج بجيشه من بولونيا واستقدم «الجيش الكبير» الى الرين وبينما كان ماسينه واقفاً إزاء الأرشيدوق كارلوس دار نابليون حول ماك

وحصره في أولم (١٩ أكتوبر) وأخذه فيها. وبعد ذلك بيومين بلغه خبر انتصار ويلسون على أسطوله في ترافلغار (الطرف الأغر) فعدل عن محاربة الانكليز في نفس بلادهم وعزم على هدم تجارتهم. وفي ١٩ نوفمبر دخل ويانة وفي ٢ دسمبر انتصر على أمبراطوري النمسا وروسيا في موقعة أوسترلتس وهي إحدى المواقع الكبرى التي ورد ذكرها في التاريخ. فتراجعت بقايا الجيش الروسي مسرعة الى بلادها وتعهد أمبراطور النمسا في معاهدة برسبورج بترك ولايات البندقية ودلماسيا لتضم الى إيطاليا وبترك التيرول وسواب لتضما الى أملاك دوق ورتمبرج ودوق بافاريا ودوق بادن. وجعل نابليون الأولين ملكين والأخير أرشيدوقاً (٢٦ دسمبر).

محالفة الرين والحكومات التابعة للأمبراطورية

وكان نابليون يطمع في تغيير الشكل الذي كانت أوروبا عليه فلما فاز في أوسترلتس شرع في إنشاء محالفة الرين فأكره فرنسيس الثاني على ترك سرير المانيا فاستبدله بسرير النمسا وانحلت باستقالته أمبراطورية المانيا بعد أن دامت عشرة قرون ثم أخذ نابليون يضم بعض الولايات الألمانية الى بعض حتى أنشأ منها ٣٠ أو ٤٠ مملكة وإمارة وولاية كبيرة وكانت في الأصل ٣٧٠ وجعل كلاً منها مستقلة عن الأخرى بداخليتها مرتبطة معها في إدارة الشؤون الخارجية بما يقرره النواب في اجتماعاتهم بفرانكفورت. وإنما فعل ذلك ليفصل النمسا وبروسيا وفرنسا بعضها عن بعض بتلك الحكومات فيؤيد السلام. ثم أنه بعد موقعة تيلست التي سيأتي ذكرها تمادى في مقاصده فجعل نصف أوروبا حكومات تابعة لفرنسا وجمع على رؤوس ذويه من التيجان ما لم يجتمع على رؤوس أسرة قديمة العهد بالملك كأسرة بوربون وآل النمسا. فقد منح أخوته الثلاثة لويس وجيروم ويوسف ممالك هولندة ووستفاليا ونابولي ونسيبه أوجين بوهارني وكالة مملكة ايطاليا إذ كان هو ملكها وصهره مرات غراندوقية برج ثم مملكة نابولي ونقل أخاه يوسف من نابولي فجعله ملكاً على اسبانيا. ووهب شقيقته اليزا إمارة لوك بيومبينو ثم غراندوقية توسكانا وشقيقته الأخرى بولينا دوقية غواستالا وكان هو لا يزال وسيط سويسرا على ما قدمنا بيانه.

ولم يكتف بذلك كله بل أقطع كثيرين من كبار حاشيته وضباطه إمارات وعمالات.

موقعة يانا (١٨٠٦) ومعاهدة تيلست (١٨٠٧)

إن انتصار نابليون على المتحالفين في أوسترلتس أسقط وزارة ويليم بيت العدو الألدّ لفرنسا فخلفتها وزارة فوكس وكان أقل حماسة وأميل الى السلام فأراد الأمبراطور أن يعقد معه صلحاً ثابت الأركان وألمع الى أنه يرد مقاطعة هانوفر لانكلترا أو إذا كانت بروسيا تطمع في هذه المقاطعة غضبت واستعدت للقتال.

واتفق أن توفي فوكس وعاد حزب محبي الحرب الى إدارة سياسة انكلترا فأنجد بروسيا فنازلت جيوش فرنسا فدحرها الأمبراطور في يانا واورستاد (١٤ أكتوبر ١٨٠٦) وأسقط ملكها ثم التقى بالبرروسيين فكسرهم في ايلو (٨ فبراير ١٨٠٧) وفي فريلند (١٤ يونيو) وختمت هذه الحرب بمعاهدة تيلست التي وقع عليها القيصر وكان من مقتضاها أن جعلت بروسيا أقل من نصف ما كانت وأصبح سكانها خمسة ملايين نفس وأعطيت فنلاندة لروسيا.

الحصار البري

وبعد موقعة يانا أصدر نابليون أمراً من برلين قضى باعتبار انكلترا في حالة حصار وحظر كل تجارة معها.

فتح اسبانيا (١٨٠٧—١٨٠٨)

ولما كانت البرتغال قد أبت أن توافق على هذه السياسة الحصارية عبأ نابليون جيشاً لطرد الانكليز منها. وكان في تلك الأثناء ولي عهد ملك اسبانيا كارلوس الرابع ثائراً على أبيه يريد خلعه فاستعان الملك على ابنه بالأمبراطور فوجد الفرصة على مرامه فقدم اسبانيا وأقنع الملك باعتزال سريره بعد أن أبعد ابنيه فأجابه الى طلبه (٩ مايو ١٨٠٨) فاستقدم الأمبراطور أخاه يوسف لينصبه على عرش تلك المملكة ولكن أهلها قاوموه أشد المقاومة غير أنه أنزلهم على حكمه بعد مواقع كثيرة وأدخل جنوده

مدريد وقبل أن يتم إخضاع تلك البلاد كانت انكلترا قد دعت الدول الى محالفة خامسة على فرنسا فأجابتها اليها خلافاً لما تعهد به ملوكها للأمبراطور في مقابلة أرفورث.

موقعة واغرام (١٨٠٩)

برح نابليون اسبانيا قاصداً المانيا وفي ٢ مايو من سنة ١٨٠٩ دخل ويانه ثانية وفي ٦ يوليو التالي فاز في معركة واغرام الهائلة التي عقدت على أثرها معاهدة ويانة. وقد فقدت النمسا في هذه الحرب أرضاً يقطنها ٣.٤٠٠.٠٠٠ نفس قسمت بين فرنسا وروسيا. وبافاريا وساكس وغراندوقية فرسوفيا. وبهذه المعاهدة بلغ نابليون منتهى مجده الحربي وامتدت سلطته من مصابّ الألب الى مصابّ التبر. ثم طلق امرأته جوزيفين على تراضٍ بينهما وتزوج ماري لويز سليلة آل النمسا أقدم بيت ملكي في أوروبا وفي ٢٠ مارس من سنة ١٨١١ رزق منها غلاماً لقب منذ ميلاده بملك رومة وكان ذلك منتهى سعادة هذا الرجل وتوفيقاته.

— ٨٧ —

فوز تحالف الشعوب والملوك على نابليون (١٨١١ — ١٨١٥)

«تنبه الشعوب واستعداد المانيا للثورة»

إن الشعوب التي لم تتأثر باديء بدء لما أبدله نابليون من ملوكها وأمرائها لم تلبث أن شعرت بأنها أخطأت وعرضت كرامتها للانحطاط إذ أن ربقة الأجنبي لا تطاق ولو كان الإحسان مثقلها فنهضت من غفلتها وأبغضت فرنسا بعد الحب لها وسنرى ملوكها يقوون على نابليون بمعونتها بعد أن كانوا يعجزون عنه بدونها.

ولما انتصر نابليون في واغرام وهدم المحالفة الخامسة كان قائداه جونو وماسينا في اسبانيا لم يستطيعا فتح البرتغال التي كانت انكلترا تمدها بالمال والقواد وسلم القائد

دوبون مدينة بايلن بصورة مخجلة فاشتدت عزائم انكلترا ونوت الحرب الى أن تفوز إذ رأت أن هذا الفشل دليل على أن جيش الأمبراطور مع كل ما سبق له من الانتصارات صار الى حالة يجوز معها التغلب عليه.

أما بروسيا فإنها بعد أن سلمت جيوشها وحصونها على أثر موقعة يانا أخذت تصلح شؤونها على يد وزراء أجانب أحيوها وعززوها وهم البارون شتين دي ناسو وشارنهورست الألمانيان وهارندبرج الهانوفري. وكان شروع أولهم في إصلاحها عقيب مصالحة تيلست فألغى رق الفلاحين ومنحهم حق الامتلاك وجعلهم يشعرون بوجودهم السياسي وجعل رتب الضباط في الجيش مشروعة للشريف والوضيع بلا فرق إلا في الكفاءة والبسالة واستطاع أن يعد في سنين قليلة ١٥٠ ألف مقاتل مع انه كان محظوراً على بروسيا أن يكون لها أكثر من ٤٢ ألف جندي عامل. وفي ذلك الوقت ألف بعض الأساتذة جمعية سرية تحت اسم جمعية الفضيلة انتشرت انتشاراً عظيماً في جميع المانيا وفي سنة ١٨٠٩ حاول أحد أعضائها قتل نابليون في شن برن فاضطهدها من أجل ذلك فظلت تعمل في الخفاء الى أن ظهرت نتائج مساعيها في نهضة ١٨١٣.

تقدم الأفكار الحرة في أوروبا

عندما كانت ترد أخبار مقاومة الاسبانيين لجنود نابليون كان الوزير شتين يهول بها ويجسمها لاستنهاض همة الشعب فعزله نابليون فاستخلفه ملك بروسيا فريدريك غليوم بهلندوف فجرى على خطته ولكن باعتدال ومن مآثره تأسيسه كلية برلين التي كان يصدر منها الاستاذ فشت خطبه المهيجة للشعب الألماني. وكان كذلك جماعة من الشعراء يكتبون القصائد الحماسية ينشدون بها الوطن المفقود.

أما اسبانيا فلما عجزت عن مقاومة الأمبراطور بالسلاح حاربته بطلبها الحرية على مثال ما سنتها فرنسا في ثورتها وكان القائم بهذا الاقتراح مجلس نواب قادس وجرى ملك نابولي المعزول الذي لجأ الى صقليا على هذا المجرى في تلك الجزيرة فإنه منح،

شعبها دستوراً كدستور انكلترا. وعلى هذا النمط انتشرت روح الحرية بين الشعوب فكان لا بدّ أن يسقط استبداد فرنسا بها مهما عظم الرجال القائمون به.

موقعتا موسكو (١٨١٢) وليبزيك (١٨١٣) والغارة على فرنسا (١٨١٤)

وبينما كان نابليون مستخدماً ٢٧٠ ألف مقاتل من أفضل جنوده في محاربة قادس والجيش الانكليزي الذي أرسل لإنجادها بقيادة ولنجتون الشهير أراد إكراه روسيا على الاشتراك في الحصار البري وفي ٢٤ يونيو ١٨١٢ اجتاز نهر النيامن في ٤٥٠ ألف مقاتل وكسر الروسيين في ويتبسك وسوملنسك وفالوتينا وموسكو ثم دخل مدينة موسكو وقد أحرقها أهلها قبل مغادرتها فاضطر أن يتقهقر بعد زمان قليل خوف قضاء الشتاء في بقعة خربة ففقد في الطريق بين الثلوج وخصوصاً في ممر البرسينا قسماً كبيراً من الجيش وجميع الركائب ومعظم الأثقال.

وكان الشاعر أرند في أسوج والوزير السابق شتين في روسيا يملآن بروسيا قصائد ورسائل يدعوان بها الشعب الى الثورة على نابليون ويحثون الجنود البروسيين المقاتلين معه على الغدر فنتج من ذلك أن جيشاً بروسياً بقيادة يورك ترك نابليون وانضم الى الروس وان ولايات المقاطعة البروسية ثارت وجهزت ٦٠ ألف مقاتل عملاً بإيعاز شتين الذي قدم اليها وهذا قصده فاضطر الملك فريدريك غليوم بعد تردد طويل أن يحالف روسيا بمعاهدة كاليش (٢٨ فبراير ١٨١٣) على أن تضمن له الاستيلاء على مملكة ساكس الألمانية. ثم أصدر أمراً يدعو به شعبه الى السلاح والتفاني في سبيل الوطن وأخذت الخطباء تخطب والكتاب تكتب في هذا المعنى وكان ذلك ابتداء ما سمي «بحرب الأمم».

أما نابليون فبعد أن اجتاز البرسينا ذهب مسرعاً الى باريس وجهز جيشاً. وكانت الدول حليفاته قد خذلته عدا الدانمرك. وكانت أسوج أول الدول التي حملت السلاح عليه بقيادة برنادوت أحد قواد فرنسا السابقين وكانت النمسا مع ما بين أمبراطورها ونابليون من النسب تنتظر الفرصة للانضمام الى الروسيين وكانت المانيا تحركها الجمعيات السرية لقلب ظهر المجن للفاتح. غير أن انتصارات نابليون الباهرة

في لوتزن و بوتزن وورشن سنة ١٨١٣ منعت النمسا من الخروج عليه الى حين. ولكنها لم تلبث أن ضمت جيوشها الى جيوش الأعداء وكانوا ثلاثمئة ألف يوم التقوا في ليبزك بجيش نابليون المؤلف من ١٣٠ ألف مقاتل فاعترك الفريقان ثلاثة أيام كاملة اعتراكاً هائلاً ثم انفصل الساكسونيون عن جيش نابليون ليحاربوه مع أعدائه فدارت الدائرة عليه للمرة الأولى وعاد راجعاً الى الرين. على أن نابليون لو امتنع عن محاربة روسيا وأعان أمريكا في الحرب التي شهرتها على انكلترا قبل سفره الى موسكو لما أصابه هذا الفشل ولقضى لبانته من إذلال بريطانيا العظمى.

وفي السنة التالية كان ابتداء حرب فرنسا التي أظهر فيها الأمبراطور من عجائب ذكائه و بسالته ودهائه ما لا يحيط به الوصف. فقد قاتل جيوش أوروبا كلها ببضعة آلاف من الجنود وانتصر عليها في شامبوبير وموفيرايل وموتترو غير انها كانت مع ذلك تتقدم لأن طلاب الحرية ودعاة الملكية كانوا يقابلونها مقابلة المنقذين والأعوان و يخذلون نابليون لينضموا اليها. وكان ولنجتن قد دخل من الجنوب بجيش انكليزي وقوبل بالترحيب غير أن المارشال سولت صادمه في طولوز فصده عن التقدم حيناً ولم يستطع إرجاعه. ولما وصل الأعداء الى أبواب باريس كان في وسع الأمبراطور أن يهاجم الأعداء من خلفهم و يرجعهم عنها غير أنها سلمت في اثنتي عشرة ساعة (٣ مارس) وقرر مجلس الشيوخ خلع الأمبراطور. وفي ١١ أبريل وقع نابليون على كتاب استقالته.

العود الأول والأيام المئة وموقعة واترلو (١٨١٤ — ١٨١٥)

اتفق الفاتحون على تعيين لويس الثامن عشر ملكاً لفرنسا فخلفت الراية البيضاء الراية المثلثة الألوان وأعيدت فرنسا الى تخومها التي كانت لها قبل الثورة ورد الملك الى الأعداء بمقتضى معاهدة باريس ٥٨ من المعاقل والحصون التي أجلى الفرنسويين عنها و ١٢٠٠٠ مدفع و ٣٠ سفينة عادية و ١٢ بارجة (٣٠ مايو ١٨١٤) ثم حاول أن يسترضي الأمة بعد هذا الذل بما منحها إياه من الامتياز الدستوري الذي عدل به نظام الملكية القديم وأهم موادّه أن يكون لفرنسا مجلسان عاليان تعرض عليهما المسائل

العظمى . وبهذا لم يرض الملك حزبه ولا غيره فعلم ذلك نابليون وهو في جزيرة ألب فقدم فرنسا في ثماني مئة جندي ونزل على أحد شواطىء بروفانس فأرسلت جنود لمقاتلته والقبض عليه فانضمت اليه ثم دخل باريس بدون إطلاق زناد واحد وكان البوربونيون قد برحوها قبيل وصوله. فأول ما فعله أنه أصدر الدستور الإضافي وجعل فيه أكثر مواد الدستور الواضع له لويس الثامن عشر وذلك ليستميل به حزب الأحرار ثم وطد الأمن توطيداً في أطراف البلاد. وكان الأمراء المتحالفون لم يصرفوا عساكرهم ولم يزالوا مجتمعين في ويانة لعقد مؤتمرها وحل مشاكل أوروبا فلما علموا بعودة نابليون أرسلوا ٨٠٠ ألف مقاتل على فرنسا فقهر نابليون البروسيين في ليني (١٦ يونيو ١٨١٥) ثم تقدم في ٦٥ ألف مقاتل فالتقى بخمسة وتسعين ألفاً من الانكليز والبلجيكيين والهانوفريين في واترلو فقاومهم نصف نهار ظاهراً عليهم ثم أخذ ولنجتن يتقهقر برجاله وإذا بجيش للبروسيين تحت قيادة بلوشر قد وصل وكان فارّاً من وجه القائد الفرنسوي غروشي فحمل على عساكر نابليون وهي متفرقة منهوكة من التعب فكسرها (١٨ يونيو) فاستقال نابليون ثانية على أن يخلفه ابنه (٢٢ يونيو) ولكن المتحالفين عادوا فدخلوا باريس وردوا لويس الثامن عشر اليها. أما نابليون فلجأ الى انكلترا فغدرت به وعدته أسير حرب ونفته الى جزيرة القديسة هيلانة في وسط المحيط الأتلانتيكي فقضى فيها ست سنين وفي اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢١ توفي ذلك الرجل العظيم الذي فاق أبسل أبطال الدنيا وأمهر مديري سياستها.

—٨٨—

مؤتمر ويانة والمحالفة المقدسة

مؤتمر ويانه ٨٠٥

لما دخل المتحالفون باريس ثانية عقدوا فيها معاهدة غير الأولى (٢٠ نوفمبر

١٨١٥) أهم مقتضياتها أن تؤدي فرنسا غرامة حرب تبلغ ٧٠٠ مليون وغرامات لأرباب ظلامات مختلفة من الافراد تبلغ ٣٧٠ مليوناً وان يحتلها المتحالفون احتلالاً عسكرياً مدة خمس سنين وأن تخرج من حدودها شامبري وفيليبفيل ومارنبرج وسارلويس ولاندو ودوقية بويون وان تدمر الحصون والمعاقل في ثلاثة مراكز من خطها الدفاعي تسهيلاً لعود المتحالفين اليها اذا مست الحاجة الى ذلك وان تستولي انكلترا على تاباغو وسنتلوسي وجزيرة فرنسا وجزائر سيشل من المستعمرات الفرنسوية وان تمنع فرنسا من تحصين مستعمراتها في الهند.

أما مؤتمر ويانه الذي عقد في ستمبر سنة ١٨١٤ لتسوية مشاكل اوربا فقد كان أشبه بسوق بيعت فيه الرجال البيض اذ كان اقتسام الدول المنتصرة للبلاد المطموع فيها بحسب عدد النفوس وأصناف السكان فان أحد سكان الضفة اليسرى من الرين مثلاً كان يسوى أكثر من أحد سكان الضفة اليمنى من الاودير وهكذا على أن هذه المعاهدة كادت تنقض قبل عقدها لاتفاق فرنسا وانكلترا والنمسا على ذلك بسبب ما اتفقت عليه روسيا وبروسيا من أن الأولى تضم اليها مملكة ساكس وكانت الدول التي عارضت هذا الاتفاق تود بقاء ساكس على استقلالها ففازت بما تريده وأعطت بروسيا ولايات الرين بدلاً منها وكان من هذا البدل منشأ مصائب فرنسا فيما بعد. أما روسيا فأخذت أفضل قسم من غراندوقية فرسوفيا الى أبواب بوزن وكراكوفيا وأخذت غاليسيا الغربية ودائرة زاموسك. وأما النمسا فأعطيت ولايات البندقية وراغوز وأودية فالتلين وبورميو وشيافينا وسالزبورج وتيرول وفورارلبرج واما بروسيا فمنحت دوقية بوزن وبوميرانيا الاسوجية و٧٠٠ الف نفس في ساكس ووستفاليا وبروسيا الرينية واما انكلترا فلم تكن لها مطامع في القارة الأوربية بل اكتفت باسترجاع هانوفر التي كانت من أملاك تاج ملوكها وبقيت له بعد ذلك الى سنة ١٨٣٧ واحتفظت بما غنمته من المستعمرات في جميع البحار من حروب الثورة والامبراطورية وهي هلبوغولند امام مصابّ الألب والويزر والجزائر اليونية بمستقبل البحر الادرياتيكي ومالطه بين صقليا وافريقيا وسنت لوسي وتاباغو في جزائر الانتيل

وجزائر سيشل وجزيرة ايل دي فرانس في بحر الهند والاملاك الهولندية في رأس الرجاء الصالح وفي سيلان.

ولم تكتف الدول المتحالفة بكل ما استزادته من هذه الاملاك التي كانت لفرنسا بل ضمت بلجكا وهولنده الى مملكة واحدة تحت صولجان البرنس دورانج لتكون بمثابة مركز امامي لها في شمال فرنسا وأعطت القسم الأكبر من البلاد الرينية لبروسيا وقسماً صغيراً منها لهس درامستاد وبافاريا بحيث تضبط بذلك فرنسا من الشمال الشرقي وردت سافوا للملك بياموتني بحيث جعلت مدينة ليون على مسيرة يومين من الجيوش التحالفية. أما المانيا فقد طال الجدال في أمرها. ثم تقرر ان لا تعاد الامبراطورية اليها وأن تبقى حكوماتها الكثيرة المختلفة على استقلالها الداخلي التام ويكون لحكامها مجلسان ينظران في الشؤون الخارجية احدهما عادي وهو الذي يجتمع فيه ١٧ من الامراء الكبار والآخر عام وهو الذي يجتمع فيه جميع الحكام ويكون المجلسان أبداً تحت رئاسة النمسا. وعلى هذه الصورة جعلت المحالفة الألمانية عدوة لفرنسا.

ثم ان سويسرا منحت قسماً من جكس وآخر من سافوا فتم بذلك الاتحاد الهلفيشي (السويسري) الذي جعل المؤتمر استقلاله تحت ضمانة الدول على الدوام.

وأعيدت للبابا وللملك صقليا أملاكها المفقودة في ايطاليا واسترجعت النمسا نفوذها الأول فيها بأخذها ميلانو والبندقية وتوابعها ووضعها الحاميات على الضفة اليمنى من البو ونصبها أحد صنائعها على عرش توسكانا واشتراطها ورجوع ملكية بارمه وبليزانس وغواستالا اليها بطريق الارث عن الامبراطورة ماري لويزه التي منحت ريع تلك الدوقيات من حياتها. وفي الختام ضم المؤتمر نروج الى اسوج تعويضاً لأسوج عن فقد فنلانده التي سلبتها روسيا اياها وأعطى الدانمرك لوينبورج عوضا عن نروج فأصبح ملك الدانمرك بامتلاكه هذه الدوقية عضواً في الاتحاد الجرماني وبالتالي عدواً لفرنسا بعد ان كانت دولته حليفة لها في حالتي السراء والضراء زماناً طويلاً.

التحالف المقدس ١٨١٥

على أن هذا المؤتمر الذي تمت أعماله في ٩ يونيو سنة ١٨١٥ كان أعظم عمل سياسي قامت به اوربا بعد معاهدة وستفالي ثم اراد امبراطور روسيا والنمسا وملك بروسيا أن يلونوه بصبغة دينية فعقدوا في ١٤ ستمبر سنة ١٨١٦ معاهدة التحالف المقدس في باريس «ليظهروا بها للدنيا صحة عزمهم على جعل أساس سياستهم في الداخل والخارج «الديني المسيحي دين العدل والمحبة والسلام» و«أنهم مندوبون من لدن الله ليحكموا النمسا وبروسيا وروسيا باعتبار أنها فروع لأسرة واحدة» وهكذا مسحت جنايات مؤتمر ويانه على كثير من الاقوام الضعيفة بصبغة التقديس وجعلت المطامع والمحارم التي ارتكبها تحت راية «دين العدل والمحبة والسلام».

—٨٩—

التحالف المقدس والجمعيات السرية والثورات
١٨١٥ — ١٨٢٤

الروح الحديث والروح القديم من سنة ١٨١٥ الى ١٨٣٠

ان الثورة أحدثت فكرين عظيمين وهما المساواة بين الافراد امام القانون والحرية السياسية للأمم وقد فاز الأول وانتشر في اوربا بقانون نابليون وسيفه واما الآخر فانكره الذين انتصروا في ليبزيك وواترلو وحاربوه من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠.

محاولة ارجاع النظام القديم

رأينا فيما سلف ان ثورة ١٧٨٩ انشئت لتمنح الانسان كل ما يستطاع منحه اياه من الحرية ولكن الحروب التي استمرت على أثر الثورة ثلاثاً وعشرين سنة نقضت هذا المبدأ من حيث أبدلت الجنود المتطوعين بالدوريين ووحدت السلطة الادارية

التي كانت متفرقة وعودت الرعية على القيام بأكثر مما كانت تقوم به من ضريبة المال وضريبة الدم أو التجند ولذلك أصبح الملوك بعد واترلو ذوي سطوة أعظم واستبداد أشد وسعوا الى تعزيز الروح القديم وقتل الروح الجديد.

ففي بالرمة ومدريد الغي دستور ١٨١٢ وأعيد الاستبداد وفي ميلانو أبدل القانون الفرنسوي بالقانون النمسوي. ورجعت الحالة العامة في بيامونتي وفي بلاد الكنيسة الى ما كانت عليه سنة ١٧٩٠ وتعهد ملك صقلية لامبراطور النمسا انه لا يخالف رأيه في المبادىء التي يجب أن تدور الحكومة عليها فنتج من ذلك ان أعيد التفتيش الديني في جنوب الألب والبيريناي وردت امتيازات الكهنة اليهم ونفي الاحرار وسجنوا وقتلوا.

أما في المانيا فتناسى الامراء ما وعدوا به شعوبهم سنة ١٨١٣ من الاصلاح الدستوري الا في بافاريا وبعض الولايات الصغيرة. وأما النمسا وبروسيا فاستمرتا على حالها لكثرة ضغطها على الشعب بالألوف المسلحة من الجنود حتى كأنه لم يحدث أمر جديد في أوربا منذ ربع قرن. وأما في انكلترا فكانت سياسة المحافظين موجهة الى تأييد مصالح الشرفاء اذ كادت تغلب على ثروتهم ثروة أرباب الصنائع التي زادها اكتشاف اركرايت لمغازل القطن ووات للآلة البخارية وفلتون للباخرة وستفانسون للسكة الحديدية (١٨٢٤) ودافي للمصباح المأمون ولذلك وضعوا لائحة تسهل مبيع القمح في السوق الانكليزية لمحاصيل أراضي اللوردية ولو نجم عن ذلك عسر دائم للأهالي وعرضوا من أجله للمجاعة أحياناً.

وأما في فرنسا فقد تحولت الحال حتى أصبح أعضاء مجلس النواب يصرحون علناً برغبتهم في الرجوع الى النظام القديم وقد استصدروا من الملك احكاماً رسمية وغير رسمية بفظائع ومنكرات كان يمضيها مرغماً منها نفي ٥٧ بريئاً وقتل المارشال ناي وجماعة من القواد ومنها الايعاز بقتل المارشال برون والقائدين رامل وليغرد ومنها احداث مذابح كمذابح أيام الارهاب واقامة محكمة شديدة كمحكمة الارهاب. وقد ارتكب فرديناند السابع مثل هذه الجرائم في مدريد. وكذلك حكومة نابولي سلحت

عصابة الكالدراري (المرجليين) لينهبوا ويسلبوا عصابة الكاربوناري (الفحامين) من الجمعيات السرية.

أما لويس الثامن عشر فقد ساءه ما رآه من تمادي الملكيين في غيهم وفي مبادئهم القديمة المناقضة للروح الجديد ففض مجلس النواب الذي كانت أغلبية أعضائه منهم (٦ ستمبر ١٨١٦) وبعد ذلك كثر الاحرار في مجلس النواب وكانوا حزب الشمال برئاسة لافايت وبنجامين كونستان وغيرهما وكان من ذلك العهد ابتداء سير الحكومة الفرنسوية في سبيل النيابة عن الشعب بطريقة منتظمة وساعدها الملك على هذا السير بحكمته واعتداله.

تعاهد الكنيسة والحكومة وذكر الاخوية

روينا فيما سبق رجوع بعض الدول الى الأفكار الدينية لتصبغ بها أعمالها السياسية وقد انتهزت الكنيسة هذه الفرصة لتأييد تعاليمها ومحاربة المذاهب الحرة التي كانت تخشاها أكثر من شذوذ لوثير وكلفينوس عنها وما زالت تزيد في مطالبها بقدر ما يتسع نطاق الحرية الفكرية حتى أتمت عملها في هذه الأيام بما قررته من عدم قابلية البابا للخطأ.

وفي سنة ١٨١٤ أصدر البابا بيوس السابع أمراً مناقضاً للأمر الذي أصدره البابا اكليمندوس الرابع عشر في سنة ١٧٧٢ بالغاء رهبنة اليسوعيين فتجددت [illegible] وانبثوا في اطراف الأرض ودخل بينهم امراء ذهبوا الى أقاصي الدنيا لارشاد الناس وتولوا ادارة المدارس في أكثر بلاد أوربا الا فرنسا فان المدارس عهدت ادارتها فيها للأساقفة.

وفي ذلك الوقت قام جماعة من كبار الكتاب خصوصاً في فرنسا يدعون الناس الى التدين وأشهرهم شاتوبريان وبونالد ودي مستر والكاهن لامناي الذي خرج عن الكنيسة فيما بعد ثم هيكو ولامارتين وغيرهم. وكل ذلك اعان الكنيسة على استرجاع سطوتها. ولا عجب بهذا الانقلاب السريع الذي حدث فانما هو نزاع بين المبادىء الحرة والمبادىء التقليدية كان لا بد من حصوله لتتمحص منه الحقيقة.

وقد حدث في المانيا أن فريدريك غليوم الثالث انتدب لحماية البروتستانية في المانيا وأراد أن يوحد هذا المذهب ليقاوم به وحدة الكثلكة فادخل عليه شعائر دينية منافية للمبدأ الذي وضع لأجله ففسد مقصده عليه. غير ان غليوم الأول امبراطور المانيا عاد الى تحقيق هذه الامنية في هذا العهد ولكن على شكل آخر وذلك بأنه جعل الكنيسة أية كانت صورتها خاضعة لصاحب المملكة وما يتعلق بالكنيسة تحت سيادة الحكومة.

وعلى هذا النمط تمّ رد الفعل الذي أحدثته الثورة غير أنه لم يكن ليدوم ولم يلبث أهل الروح الجديد وأعوان الحرية ان أخذوا يقاومونه بطرائق كثيرة مختلفة سيرد ذكرها.

حرية الصحف والجمعيات السرية

فالروح الجديد روح الدستور الموضوع في سنة ١٧٨٩ أو الموضوع في سنة ١٨٠٤ كان ذا ملايين من الأنصار في البلاد على اختلافها فهم في بلجيكا وايطاليا وبولونيا دعاة وطنية لا يطيقون غير الاجنبي وفي سائر الدول زمر من الفرانماسون أو الجمهوريين المستحدثين وجميعهم يدافعون عن الافكار الحرة هذا بخطبه في مجلس نواب لم تقفله يد الاستبداد وذاك بمقالاته في الجرائد التي لا تضيق عليها المراقبة والآخر بتآليفه من شعرية ونثرية الى ما شاكل هذه الوسائل. وهؤلاء كانوا يريدون التقدم السلمي وهو الأصح والأفيد غير أن فريقاً كبيراً من ذوي المغالاة في مبادئهم لغايات أو منافع ذاتية كانوا يريدون الثورات والقتل وهم أعضاء الجمعيات السرية التي منها «فتية الشمس» واشياع الدبوس الاسود «والوطنيون اشياع سنة ١٨١٦» وعقبان بونابرت» وهذه الجمعيات وما شاكلها كانت محلية. وكانت بازائها جمعيات أخرى عامة ممتدة في البلاد على اختلاف شعوبها كجمعية «الوطنيين الاوربيين المصلحين» وأنصار البعثة العامة» وغيرهما. وهذه كانت تستثير الشعوب على الملوك ثم أخذ ختلف رجالها الأولين يسعون في توحيد الأمم بدون تمييز وطن عن آخر لاعانة الفقراء على الأغنياء والفعلة على أصحاب المعامل. ومن أشهر هذه

الجمعيات جمعية الكاربوناري وسموا بالفحامين لأنهم كانوا يجتمعون في أقصى الغابات في أكواخ الفحامين وكان أكثر انتشارهم في ايطاليا وفرنسا واسبانيا. وكانت في اليونانية جمعية الهتيري وفي بولونيا جمعية «الدواوية» و«الحصادين». وكل هذه الجمعيات كانت تقاوم الحكومات في الخفاء ولذلك اتخذت الحكومات شركات تماثلها لتقاومها بها فكانت لها جمعية «السانفديست» في ايطاليا «وجنود الايمان» في اسبانيا و«إلادلسكت» في بروسيا و«الفردينياندية» في النمسا و«الأخوية» في جميع البلدان.

وقد رأينا فيما سبق نشأة جمعية «الفضيلة» في المانيا فلما ردت بمساعيها التيجان وأسرة الملك الى الأمراء الذين فقدوها كافأوها على ذلك بأن حلوها وشتتوها فنشأت على أثرها جمعيتان سريتان احداهما «الارمينيا» والاخرى «تعاون الرفاق» وكبر حزبهما وانتشرت دعوتهما لاتحاد المانيا واستقلالها بين الشعب حتى ان جمهوراً من العامة قاموا في يوم ذكرى انتصار ليبزيك ونشأة البروتستانية بمظاهرة عظيمة نشروا فيها راية الاتحاد الألماني وأحرقوا فيها الكتب المنافية لمبادئهم فكان من الامراء الجرمانيين ان عاقبوا الشعب على هذه المظاهرة بالغاء كثير من المدارس الكلية منها اربع اقفلت في البلاد البروسية وحدها.

المؤامرات (١٨٠٦ — ١٨٢٢) والثورات (١٨٢٠ — ١٨٢١)

وقد رأى الملوك والامراء أن يزيدوا الضغط على أرباب الأفكار الجديدة أملاً منهم انهم يمنعون بذلك هبوب ريح الحرية التي كانت تعصف في كل مكان غير أنه لم ينتج من شدتهم سوى التجاء الشعوب الى التآمر والتواطؤ وذلك من سنة ١٨١٦ الى ١٨٢٢ ثم الى قتل بعض الامراء والوزراء وبعض المنتصرين لهم من الكتاب وذلك من سنة ١٨١٩ الى ١٨٢٠ ثم الى الثورات وذلك من سنة ١٨٢٠ الى ١٨٢١ . وكان أشد التآمر في حكومات التحالف المقدس وأعظمه انتشاراً في فرنسا واسبانيا ونابولي وتورين والامارات الجرمانية واسوج واضعة في روسيا التي كان لا يدخلها النور ولا الهواء المتجدد لتلبد طبقات شعبها بعضها فوق بعض الا بولونيا فانها

اضطرت القيصر بعد الملاينة لها أن يضع المراقبة الشديدة على جرائدها ويلغي دار ندوتها ثم يعلن أن لا وجود للأمة البولونية وانها فصيلة ملحقة بالشعب الروسي. أما انكلترا فسلمت من المؤامرات لأن شعبها كان غير مضغوط عليه وكان يقترح ما يريده بالمظاهرات العلنية. وكان أول ما حدث من الثورات في اسبانيا فان الشعب عندما رد لفرديناند السابع تاجه انفذ اليه نوابه فقابلوه على التخوم وعرضوا عليه دستور سنة ١٨١٢ فوافق عليه ثم قالوا له «لا تنس انك يوم تخل بهذا القانون فالعقد الذي جعلك ملكاً علينا يكون محلولاً» ولكن الملك نسي وبالغ في الاستبداد فاعاد التعذيب وأكثر من اصدار الاحكام بالاعدام فجعل الشعب يتآمر عليه سراً ثم يتظاهر الى أن ثار الجيش كله وأعلن القائد رياغوفي قادس (٥ يناير ١٨٢٠) والقائد مينا في البرانس عود البلاد الى دستور ١٨١٢ ففشل الملك وأقسم يمين الطاعة للدستور «بناء على إرادة الشعب» (٩ مارس ١٨٢٠) وفي اليوم نفسه طرد الجزويت الذين كانوا مستشاريه في استبداده والغى ديوان التفتيش وباع أملاكه لاستهلاك قسم من الدين العام بثمنها ورد الحرية للجرائد.

وكان ما جرى في اسبانيا عنوان الفوز النهائي للروح الجديد على الروح القديم. وقد رنّ لهذه الثورة صدى في لشبونه (اغسطس) وآخر في صقليا ومملكة نابولي (لوليو) وآخر في بنفانتي وبونتي كورنو من عمالات الكنيسة وآخر في بيامونتي التي استقال ملكها (مارس ١٨٢١) وأخذ جماعة من ذوي المقامات يفكرون في تأليف اتحاد بين امارات ايطاليا وممالكها وآخرون في ضم اشتاتها الى مملكة واحدة.

وعليه فان كل جنوب اوربا عاد الى الدستور وانطلقت ريح الحرية الى ما وراء البحر الاتلانتيكي فحملت مستعمرات اسبانيا على الاستقلال ومن جهة أخرى هبت على تركيا فأثارت الرومانيين واليونانيين عليها (مارس وابريل ١٨٢١) أما بولونيا فبعد فقدها حرية الجرائد (١٨١٩) ومجلس النواب (١٨٢٠) شكلت جمعيتي الدواوين والحصادين للتهييج واستعدت للثورة.

علو كلمة التحالف المقدس في أوربا وحملتي ايطاليا (١٨٢١) واسبانيا (١٨٢٣)

عندما أحست دول التحالف المقدس بوهي عملها وقرب وهنه أخذ ملوكها يجتمعون مراراً متوالية ويدير مناقشاتهم السياسي الشهير البرنس مترنيخ حاكم النمسا. وكانت خطة هذا السياسي الاحتفاظ بالحالة الحاضرة في كل مكان. ولما كثرت حوادث التآمر والقتل والهياج العام واشتبكت دسائس الجمعيات السرية اتفق مترنيخ والقيصر وملك بروسيا على تجديد الاتفاق بين الدول الثلاث فتم ذلك في اكس لاشابل (نوفمبر ١٨١٨) وتقرر أن يجتمع رؤساء تلك الدول أو وزراؤها ليقرروا المسائل التي يقتضيها السلم. وفي فبراير ١٨٢١ عقدوا اجتماعاً في ليباخ فقرروا «ان التغييرات التي تجري في الحكومات لا ينبغي أن تصدر الا عن ارادة «الذين ألقى الله عليهم مسؤولية السلطة» أي الملوك وكان معنى هذه العبارة ان كل ملك يكرهه شعبه على سن دستور لهم يحق له أن يستعين عليهم برصفائه الاجانب وكان أكثر الملكيين في فرنسا راضين عن هذه السياسة أما انكلترا فأبت الاشتراك فيها وانفردت عن القائمين بها. وفي سنة ١٨١٩ انعقد مؤتمر كارلسباد في بوهيميا على أثر مقتل كوتزيبو وكان الحضور فيه من الامراء الألمانيين فقرروا وضع الكليات والمطبوعات عامة تحت المراقبة الشديدة وان تشكل لجنة في مايانس لتبحث عن أعداء النظام الجاري وتعاقبهم. ثم عقد مؤتمر في ويانه استمر ستة أشهر (نوفمبر ١٨١٩) واستصدر منشوراً من البابا شاجباً للجمعيات السرية وقرر اتخاذ جملة وسائل أخرى لمحاربة حرية الفكر وأنهى أعماله بنقض جميع الامتيازات التي كان ملوك الدول الثلاث قد وعدوا بها الشعوب الخاضعة لهم. ثم أخذ الذين في أيديهم أزمة سياسية لمحالفة المقدسة ينفون ويسجنون العلماء والكتاب والفلاسفة وسائر المجاهرين بافكارهم الحرة ويلغون الجرائد والمجلات.

أما فرنسا فلما قتل فيها الشقي لوفل الدوق دي باري لتنقرض به سلالة بوربون الأول تسلط حزب الملكيين المتطرفين على عقل لويس الثامن عشر وحملوه على مصادرة الحرية الشخصية واعادة المراقبة على الجرائد ثم فاز هذا الحزب في الانتخاب ولم يدخل مجلس النواب الا عشرة من الاحرار وذلك لما أثر في القلوب

هذا الاعتداء. ولما اتفق حدوثه في ذلك الوقت من وضع أرملة الدوق دي باري غلاما (٢٩ ستمبر ١٨٢٠) ووفاة نابليون الأول (٥ مايو ١٨٢١).

أما دول التحالف المقدس فقد قررت في مؤتمرات تروبو (١٨٢٠) وليباخ (١٨٢١) وفيرونه (١٨٢٢) أن تقتل حرية الفكر في اسبانيا وايطاليا فدخل جيش عظيم من النمسويين نابولي وتورينو ومسينا وكانت تنصب وراءه المشانق وتملأ السجون بالمتهمين في البندقية وليباخ وسبيابلر وقد وجد في سجون صقليا ونابولي ستة عشر الف نفس واعتقل ٤٠٠ نفس في الولايات التابعة للكنيسة مع أنها لم تحدث فيها حركة. وارجع ملك سردينيا السخرة (١٨٢٤) ومنع عامة الشعب الفقراء من التعلم (١٨٢٥) وأعاد البابا القضاء المدني لمحاكم الأساقفة ورد حق الايواء والاغاثة للكنائس وصادر كل جمعية تشتغل بعلم أو أدب كرها لتنور أذهان الناس. ولما خلف البابا ليون الثاني عشر البابا بيوس السابع (١٨٢٣) أصدر منشوراً مانعاً للزواج المدني محمسا للملوك على عدم التساهل في أمر ديني وأعاد التفتيش فملأ بمتهميه السجون. وفي سنة ١٨٢٣ ظن أن هذه السياسة افلحت حيث امتنع التآمر والقتل والثورات ولكنه كان امتناعا موقتا. أما اسبانيا فارسل اليها لويس الثامن عشر جيشاً بقيادة دوق انجوليم لاخماد الثورة فيها وانما فعل ذلك لاسترضاء دول التحالف المقدس وليستعيد بعمل عسكري بعض مجد أجداده فدخل الجيش اسبانيا في ١٧ ابريل سنة ١٨٢٣ ولم يقاتل في طريقه قتالاً يذكر الا قادس فانه حاصرها وفي ٣١ أغسطس أخذ مركز التروكاديرو فسلمت المدينة ودخلها الجنود ففتحوا السجون وأخرجوا منها المظلومين المطروحين فيها. ثم اصدر الدوق دانجوليم منشور اندجوار وأراد به أن يمنع استبداد أي من الفريقين الملكي أو الحر بالآخر غير ان الملك فرديناند لم يقبل بهذا الشرط وأمر فسيق رياغو زعيم الاحرار الى المشنقة على حمار وقتل في ذلك المكان ٥٢ من أشياعه وساد الاستبداد وقد جرى في لشبونه مثل ردّ الفعل الذي جرى في مدريد وانفرد ملكها بالسلطة. على أن الحملة الفرنسوية لم تكسب الملك فخراً يذكر في أعين مواطنيه ولم ينجم عنها في فرنسا سوى أن الوزارة

« الاخوية » التي قررت ارسالها فازت في الانتخابات التي جرت في ذلك الوقت بحيث لم يدخل مجلس النواب الا تسعة عشر من الأحرار.

كارلوس العاشر (١٨٢٤) والوزارة الاخوية

عندما توفي لويس الثامن عشر المعروف باعتداله فاز المتطرفون من الملكيين كل الفوز ووضعوا التاج على رأس الكونت دارتوا (١٦ ستمبر ١٨٢٤) وكان هذا الملك لم يستفد أدنى فائدة من العبر التي مضت مع أنه كان أول المهاجرين في سنة ١٧٨٩. ولذلك لم يكد يستقر على السرير حتى أرسل وزيره فيلال الى مجلس النواب يطلب منه منح مليار تعويضاً للمهاجرين واعادة اديرة النساء وحق البكورية في الميراث وسن قانونين في نهاية الشدة على الجرائد. فوافق المجلس على جميع هذه الاقتراحات ولكن مجلس الشيوخ قاومها فاستمال الشعب اليه أياماً معدودات. وفي شهر مايو سنة ١٨٢٥ جدد الملك حفلة التتويج على الشكل القديم فاقام الشعب مظاهرة عدائية ضد ذلك وكان القائد فوا من زعماء الاحرار قد توفي فشيع مشهده مئة الف نفس وفتح اكتتاب وطني جمع به مال كثير لدفع الفاقة عن أولاده.

— ٩٠ —

اتساع نطاق الأفكار الحرة

فرنسا ونشأة المعارضة القانونية فيها وحالة الآداب والعلوم

وفي ذلك العهد توهم الناس أن فولتير بعث حياً لكثرة ما كانت تآليفه تنشر وأخذ الشعب يطالع كل قول حرّ بارتياح وإقبال عظيم وحدث أن النفس الكتابي انقلب من الشكل القديم الى شكل جديد وسمي أربابه بأهل المذهب الروائي في

الكلام (١٨٢٥ — ١٨٣٠) وقد كان الممهدون لهذا المذهب جوتي وشيلر الألمانيان وشكسبير وبيرون الانكليزيان ثم مؤسسوه ورافعوه الى أسمى درجاته تياري وكيزو ودي بارانت ومينيه وميشله في التاريخ وكوزين وجوفروا في الفلسفة وهوغو ولامارتين ودي فيني ودوماس وموسه وبالزاك في الشعر والروايات التمثيلية والقصص الموضوع وفيلمان ومنت بوف في الانتقاد البياني الأدبي. ووجد مثل ذلك المذهب في التصوير وامتاز به جاربكو ودي لاكروا واري شفر واينكر ودي لاروش وليوبولد روبرت وكذلك في النحت وامتاز به دافيد ورود. ثم أن العلوم التحقيقية أخذت تتقدم فاكتشف شامبوليون المكتوبات المصرية القديمة وكشف ساسي وريموزات الستار عن المشرقيات وكتب جنيو تاريخ الأديان القديمة وأوضح ما خفي من أمرها على الناس. وكل هذا زاد ترقية الأفكار واستمالتها الى الروح الجديد أيا كان شكله سياسياً أو غير سياسي. وكان لتقدم العلوم الطبيعية مثل هذا التأثير وهذه أسماء أشهر علماء فرنسا وبالتالي علماء الدنيا في ذلك الوقت. بواسون وأمبير وفرسنل وكوشي شازل وأراغوبيو ودولون في الفلسفة الطبيعية والحسابية وجاي لوساك وتينار وشفرول ودوماس في الكيمياء وكونيه وجوفروا وسنتيلار وبرونيار دي جوسيو وايلي بومون في العلوم الطبيعية. والى سنة ١٨٣٠ كان قد تكامل اختراع البواخر والقطر ووضعت أساسات التلغراف الكهربائي.

نشأة المعارضة القانونية في فرنسا

وكان في مجلس نواب فرنسا رجال عظام منهم شاتوبريان ورويه كولار ودي بروجلي وباسكيه ودي برانت وموله وبنجامين كونستان يخدمون الحرية خدما جليلة. ولمثل ذلك قامت جرائد عظيمة الشأن منها الكلوب والمراقب والدبيا والكونستيتوسيونيل ورائد فرنسا فكانت كالحكومة الجديدة في داخل الحكومة تراقبها وترشدها. وكانت جمعية العلماء (الأكاديمي) تحتج على ما يوضع لمصادرة الحرية في نشر بعض الصحف والمحاكم تبرىء ساحة بعض كتاب الجرائد الذين كانت الحكومة تعتدي عليهم. وفي الجملة كانت الأمة الفرنسوية تخطو خطوة عظيمة في

طريق الفلاح لا في الآداب والعلوم والأفكار وحدها بل في التجارة والصناعة أيضاً حتى أنها استعادت في عشر سنين كل ما خسرته في حروبها السابقة.

وفي ذلك الوقت نشأ المبدأ الاشتراكي من قطرات قلم سان سيمون (١٨٢٦) ثم انتشر انتشاراً ضعيفاً في بدئه كان يضحك منه ولا يحسب له حساب. وكان في فرنسا حزبان الملكي والحر. وكان الملكيون المتطرفون المعروفون برجال الأخوية هم السائدون. ولما توفي نابليون انقطع الرجاء من عود الأمبراطورية لأن ابن الأمبراطور كان أسيراً في ويانه وابن أخيه لويس كان لا يؤمل منه أمر ولذلك عوّل الأحرار على القبول بالملكية على شرط أن تقوم بالدستور حقيقة لا كذباً وعملوا على إسقاط وزارة «الأخوية» التي كانت إذ ذاك تتولى الشؤون. وفي شهر أبريل من سنة ١٨٢٧ استعرض الملك جيش الحامية الوطنية فنادوا صفّاً بعد آخر وهم تحت السلاح لتسقط الوزارة. فحل الملك هذا الجيش في اليوم نفسه خوفاً من الروح المبثوث فيه وأبقى الوزارة ثمانية أشهر بعد ذلك وكان رئيسها لا يزال فلال ثم طرد ٧٦ عضواً من مجلس الشيوخ وأمر بتجديد الانتخابات العامة فاختار الشعب أكثر نوابه من الأحرار فسقطت الوزارة وخلفتها وزارة حرة رئيسها دي مارتينياك وكان ذلك منشأ أول معارضة قانونية في فرنسا فألغت الحكومة الجديدة مراقبة الجرائد وحظرت الاحتيال الذي كان يستعمل قبلها في الانتخابات وأيدت حرية الفكر وعادت الى كلية السوربون بعض الفروع التي منع تدريسها فيها. وكان الروح الجديد في أكثر الدول الأخرى آخذاً بالسيادة على الروح القديم.

انكلترا وذكر هسكيسون وكاننج (١٨٢٢) والكلام على ما وضع من الخطة الجديدة في السياسة الخارجية وتقرير مبدأ عدم التداخل

في سنة ١٨٢٢ سقطت وزارة المحافظين في انكلترا وخلفتها وزارة أحرار وكان كاننج تلميذ بيت الشهير قد انتقل الى هذا الحزب فتولى إدارة الحكومة وحوّل سياستها من خطتها القديمة الى خطة المقاومة لدول الشمال في تداخلها بما لا يعنيها من شؤون القارّة الأوروبية. وفي سنة ١٨٢٣ عين كاننج هسكيسون وزيراً للتجارة

فأجرى من الإصلاحات العامة النفع ولا سيما في تعاريف المكس (الجمرك) ما فرج كربة العامة الانكليزية الفقيرة ووسع رزقها وأضعف امتيازات الشرفاء. وكان الإيرلنديون في شقاء لا يضارعه شقاء ولم يكن لهم من ينوب عنهم في مجلس النواب إذ كان الكاثوليك منهم وهم الأكثرون يعتبرون قصراً في نظر القانون فحاول كاننج إخراجهم من هذا الانحطاط فرفض اقتراحه اللوردات بعد أن قبله النواب (١٨٢٧) ولكن روبرت بيل الذي كان أول معارض لهذا الاقتراح اضطر بعد ذلك بسنتين أن يعرضه على المجلسين ويستصدر أمراً به (١٨٢٩) ومن مآثر كاننج انه وضع اللوائح الممهدة لتحرير الأرقاء وكان البرلمان الانكليزي قد حظر النخاسة سنة ١٨٠٧ اقتداء بما قررته جمعية الكونفانسيون الفرنسوية في أوائل الثورة ولم يتقرر إلغاء الرق إلا في سنة ١٨٣٣.

هذا وقد كانت طريقة اختيار النواب مختلة في انكلترا بحيث أن اثني عشر من البيوتات ذوات الأملاك الواسعة كانت تنتخب عن أملاكها بمجرد إرادتها نحو مئة نائب. وكانت مدائن كبيرة كمنشستر وغيرها لا نائب لها. فلذلك تألفت جمعية بيرمنهام من جمهور عظيم وطلبت الاصلاح البرلماني وشفعته بطلب تخفيض الرسوم على الحنوب لتسهل وسائل الاقتيات بالقوت الضروري فلم يقبل الاقتراح الأول إلا في سنة ١٨٣٢ والثاني في سنة ١٨٤٦ ومما تقدم يتبين القارىء ان انكلترا كانت تتقدم في داخليتها بلا زعازع ولا ثورات والفضل في ذلك للحرية التي كانت ممنوحة لأهلها. على أن كاننج في سنة ١٨٢٤ قد خفض الضرائب بإسقاطه نحو ٥٠ مليوناً من إيرادها وأسس صندوقاً للاستهلاك العام وخفض عوائد الفحم والحرائر والأصواف فزاد بذلك الثقة في مالية الحكومة ووسع نطاق الصناعة والتجارة. وقد علمنا من إشارة سبقت أن كاننج كان غير راضٍ عن سياسة تداخل البعض من الدول في شؤون البعض الآخر ولذلك نظر الى حملة فرنسا على اسبانيا لإرجاع ملكها اليها بعين الكدر ثم حدث أن ثارت مستعمرات اسبانيا عليها فحملت دول التحالف المقدس سفير فرنسا على مفاتحة كاننج في الوسائل التي يجب اتخاذها لإخماد أنفاس

تلك المستعمرات فأجابه انه ينبغي على كل دولة أن تلم شعثها بنفسها. وكان ذلك إعلاناً لانفراد انكلترا عن تلك الدول في هذه الخطة.

استقلال المستعمرات الاسبانية (١٨٢٤) ونشأة أمبراطورية البرازيل الدستورية (١٨٢٢) وثورة الأحرار في البرتغال (١٨٢٦)

كانت اسبانيا تحظر الزراعات المفيدة على مستعمراتها في العالم الجديد وتستخدم أهاليها لاستخراج الذهب والفضة منها فتستوردهما الى مدريد وترسل الى المستعمرات بدلاً منها مصنوعاتها من حديد وخشب وكل شيء حاجي فلم يلبث هذا الاستبداد الذي لا يطاق أن أثار الخواطر فحملت المكسيك أول علم للانتقاض على اسبانيا في سنة ١٨١٠ إذ كان فتح نابليون لاسبانيا يمنعها عن إنجاد حكامها في المستعمرات. ثم استقلت البلاتا (١٨١٦) ثم شيلي (١٨٢١) ثم بيرو وكولومبيا وأمريكا الوسطى ولم تبق لاسبانيا إلا بعض مراكز وجزيرتا كوبا الأمريكية اليوم وبورتو ريكو. وكانت أكثر الشعوب في أوروبا تميل كل الميل الى الثائرين وتسر بتحريرهم دليل سعة ما انتشرت الآراء الحرة.

وقد بادر مجلس نواب واشنطن للاعتراف باستقلال تلك البلدان أما انكلترا فامتنعت عنه أولا وحظرت بيع الذخيرة للثائرين ثم عدلت عن هذه الخطة عندما أرسلت حملة فرنسوية للتداخل في تسكين ثورة اسبانيا جريا على مبادىء التحالف المقدس وأرسلت وكلاء سياسيين من قبلها الى تلك الحكومات الجديدة وطلبت عقد معاهدات تجارية معها.

وفي سنتي ١٨٢٦ جرت انكلترا على هذه السيرة الجديدة في سياستها مع البرتغال. وتاريخ ذلك أن نابليون عندما فتح مدريد ولشبونة حرر المستعمرات الاسبانية وهو لا يدري.

وقد عرفنا ما كان من ثورة هذه المستعمرات انتهازاً لفرصة ضعف اسبانيا ونيلها الاستقلال. وكذلك حرر نابليون البرازيل على غير قصد منه فإن قائده جونو عندما طرد من لشبونة آل براغنس وهم الأسرة المالكة في البرتغال لجأوا الى البرازيل

(١٨١٥) فجعل الملك يوحنا السادس تخت ملكه فيها وأخذ يدير منها شؤون البرتغال (١٨١٥) وقد اضطر أن يمنح البرازيليين دستوراً يقيهم بوائق الاستبداد التي كانوا يتحملونها قبلاً ولما عاد الى البرتغال طلبت البرازيل الانفصال عنها والاستقلال فعين لها ابنه دون بدرو أمبراطوراً مقيداً بدستور جديد (١٨٢٢). وكانت البرتغال قد التمست من ملكها في سنة ١٨٢٠ أن يمنحها دستوراً أسوة بالمستعمرة البرازيلية فوضعه لها ولكن دسائس دون ميجل ابنه الثاني وانكسار الأحرار الاسبانيين (١٨٢٣) حالا دون إنفاذه. ولما توفي يوحنا السادس (١٨٢٦) رجع الحق في خلافته الى ابنه دون بدرو فأبى تقلد تاج البرتغال ووضعه على رأس ابنته دونا ماريا ومنح الشعب دستوراً جديداً. وكان قد اعتزل أيضاً أمبراطورية البرازيل وتركها لابن صغير له أقام حواليه الأوصياء لإدارة الشؤون. غير أن حزب الاستبداد والتأخر في البرتغال أنكروا عليه دستوره واستخلاف ابنته. وكانت انكلترا ذات مصالح كثيرة في هذه البلاد لأنها كانت تستورد منها خمورها وتحمل اليها مصنوعاتها على اختلافها ولأن كثيرين من الانكليز كانوا ذوي أملاك واسعة فيها فعزم كاننج على الأخذ بنصرة الملكة دونا ماريا وأوصيائها ثم لم يلبث أن توفي (٨ أغسطس ١٨٢٧) فقامت وزارة محافظين على أثر وزارته. وسنرى في الفصول الآتية ما كان من تأثير حل هذه المشكلة البرتغالية على السياسة العامة في الغرب.

تحرير بلاد اليونان (١٨٢٧)

كان بدء هذه الثورة في سنة ١٨٢٠ وسببها الدسائس الخفية التي كانت تدسها روسيا واشتداد الحكومة العثمانية على اليونانيين غير أن الحكومات الأوربية وفي مقدمتها الروسية أنكرت هذه الثورة في أول أمرها وحسبتها عصياناً ينبغي قمعه ثم لم تلبث أن انقلبت الى نقيض هذا الرأي بحكم الاضطرار وذلك لأن الأحرار في جميع الدول أبدوا ميلاً عظيماً الى اليونانيين ثم وافقهم على ذلك المحافظون من قبيل الاكرام لليونانية القديمة أم الحضارة. وأخذ الشعراء ينشدون القصائد المؤثرة في هذا المعنى ويصفون الحمية والجرأة والمهارة التي اتصف بها الثائرون ولا سيما زعماؤهم نيكيتاس وبوتزاريس وكاناريس وأمثالهم فإنهم كانوا يخرقون بالقليل من جنودهم أكثف

صفوف الانكشارية ويمرون بمراكبهم الصغيرة بين الأساطيل العثمانية فيحرقون كثيراً من سفائنها. وأشهر أولئك الشعراء اللورد بيرون فإنه جاد على هذا الشعب بثروته وحياته. فلما عظم اندفاع الرأي العام في هذا المجرى لم تستطع الحكومات مقاومته فطلبت انكلترا أن تكون الوسيطة في إنهاء هذه المشكلة ورفع غوائل الحرب التي ربما تنجم عنها فأجيبت الى ذلك ولكنها لم تفلح لأن السلطان أبى ما عرضته عليه اعتماداً على أخذ الجيش المصري لميسولونجي واستيلائه على أكثر بلاد الموره فاضطرت انكلترا أن تتفق سراً مع روسيا وفرنسا (٦ يوليو ١٨٢٧) على وضع حد لوقائع ابراهيم باشا بن محمد علي باشا والي مصر في شبه الجزيرة التي احتلتها عساكره الفاتحة أما النمسا فلزمت الحياد خوفاً من ثورة أحزابها الداخلية الكثيرة عليها فيما إذا تداخلت في عمل حربي ولبثت تنتظر الفرص وأما روسيا فكان لا يهمها أمر هذه المسألة في شيء. ثم أن أساطيل الدول الثلاث المتفقة أحرقت الأسطول العثماني في ميناء نافارين (٢٠ أكتوبر ١٨٢٧) أصرّ الباب العالي لكن على عدم التسليم بما اقترح عليه فشهر عليه الروس الحرب (٢٦ أبريل ١٨٢٨) وكانوا قد فتحوا القسم الايراني من أرمينيا. ثم دخل الموره ١٥٠٠٠ فرنسوي بدعوى التعجيل في إنهاء هذه المشكلة اليونانية التي كادت تصبح ذات عواقب وخيمة على العالم بأسره.

حل جيش الانكشارية (١٨٢٦) وفوز الروس (١٨٢٨ — ١٨٢٩)

وكانت الدولة العلية في ذلك الوقت لا قبل لها بعدوها الروسي لأن السلطان محموداً كان قد حل جيش الانكشارية الشهير ونكل به تنكيلاً هائلاً حيث أعدم ١٠.٠٠٠ من رجاله في ٦ أيام في الآستانة وحدها (١٨٢٦) ولكنه لم يستعض عنه بقوة أخرى تقيه هجمات الأعداء ولذلك كان فوز الروس عليه سريعاً سرعة غريبة فإنهم أخذوا سيليستريا (يونيو ١٨٢٩) ثم أرضروم (يوليو) ثم أدرنة (أغسطس) فهال هذا التقدم النمسا فاتفقت مع فرنسا وانكلترا على إلزام القيصر نقولا ذلك الحد فاستعان ببروسيا فلم تجبه الى طلبه فرضي بالتوقيع على معاهدة أدرنة (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) التي قضت عليه برد فتوحاته ومنحته بدلاً منها مصاب الدانوب وحق

الملاحة في البحر الأسود وحماية مولدافيا والافلاق والصرب. وعلى هذه الصورة تم استقلال اليونانية التي أقيم عليها ملك في سنة ١٨٣١.

أما الروح الحر فكان يزداد انتشاراً بوقوع هذه الحوادث واتساع نطاق الثروة العامة وإباحة القول للجرائد.

— ٩١ —

خيبة المساعي التي بذلت لاعادة الفوز للنظام الاستبدادي القديم على النظام الدستوري الجديد

دون ميجل في البرتغال (١٨٢٦) ودون كارلوس في اسبانيا (١٨٢٧)

كان دون ميجل قد لجأ الى ويانة وأخذ يستثير البرتغال بدسائسه لإسقاط دونا ماريا ابنة أخيه فزوجه دون بدرو بها وجعله وصياً عليها لينقذها من شره فحلف يمين الطاعة للدستور ولم تمض عليه أربعة أشهر حتى اغتصب الملك وأيده المحافظون الانكليز فثبتت قدمه واستبد. ويعدّ الذين قتلهم ونفاهم بالألوف ومع ذلك فقد وجده حزب التأخر على أقل مما يرومون من الاستبداد فنادوا بأخيه دون كارلوس ملكا عليهم فلم يفلحوا.

وزارة ولنتن (١٨٢٨) ومجلس اتحاد فرانكفورت

عندما تولى المحافظون الوزارة على أثر وفاة كاننج (٢٥ يناير ١٨٢٨) أخذوا يحولون السياسة الانكليزية الى وجهة جديدة وذلك أنهم مالوا عن الأخذ بنصرة اليونانيين واستردوا أسطولهم من نهر التاغوس وعضدوا الاستبداديين في البرتغال واعترفوا بحكم دون ميجل (١٨٢٩). أما في الداخل فإنهم حالوا دون استجلاب الغلال من الخارج وأبوا الموافقة على اللائحة القاضية بإخراج الإيرلنديين من

اعتبارهم قصراً في نظر القانون غير أنهم اضطروا بعد ذلك بسنة مراعاة للأحرار الذين عادت اليهم سطوتهم وتكاثر حزبهم أن يمضوا هذه اللائحة وأن يلغوا القانون القاضي على كل موظف قبل تولي وظيفته بأن يحلف انه تناول السر المقدس على مقتضى الشعائر التي تجري عليها الكنيسة الانكليزية الرسمية.

أما إيطاليا فكانت لا تتحرك في قبضة النمسا الحديدية وكذلك كانت المانيا بين أيدي أمرائها فإنهم شددوا المراقبة على الجرائد والتعليم لتكون أفكار الناس كلها على ما تريده سياسة التحالف المقدس وجعلوا محاضر جلسات مجلس فرانكفورت سرية يمتنع تأثيرها على الناس. ومع ذلك فقد جرى في ذلك العهد إصلاح كثير الفوائد المالية وهو إلغاء المكوس فيما بين الإمارات الألمانية وفرض ١٠ في المئة على ما يرد اليها من مصنوعات الخارج. ولقد جرى القيصر على خطة مجلس فرانكفورت في بولونيا فانه جعل مداولات نوابها سرية (١٨٢٥).

القيصر نقولا

قبل أن توفي القيصر اسكندر في تاغانروك (دسمبر ١٨٢٥) اكتشف مؤامرة كان هو المقصود بها وكان الجيش داخلاً فيها فأخمدها ولكنها جاءت دليلاً على أن الأفكار الحرة نفذت حتى الى قلب بلاده مع منعه المطبوعات السياسية عن دخولها إلا ما وافق منها خطة التحالف المقدس.

وخلف هذا القيصر نقولا الثالث أنجال بولس الأول وكان عنيفاً شديدا يعتقد انه منتدب من الله لتسويد الأمة السلافية على سائر الأمم الغربية وحدث أن المؤامرة التي جرت في أواخر عهد سالفه تجددت في أيامه وتقرر فيها خلعه وإنشاء جمهورية اتحادية سلافية فسحقها سحقاً واستبد بحكمه مدة ربع قرن.

وزارة بولينياك (١٨٢٩)

كان كارلوس العاشر يحتمل وزراءه ولا يميل الى سياستهم لكثرة ما شوش ذهنه جماعة «الأخوية» ولما انقضت عشرة شهور استبدل الوزارة الحرة بوزارة بولينياك

المحافظة المتطرفة فصرح النواب أنهم لا يثقون بها فحل الملك المجلس فتجدد انتخاب جميع الأحرار من أعضائه.

فتح الجزائر (١٨٣٠)

إن الذي حمل فرنسا على فتح هذه البلاد ما أصاب قنصلها فيها من الإهانة فأرسلت في ٣١ يونيو سنة ١٨٣٠ جيشاً مؤلفاً من ٣٧.٠٠٠ مقاتل بقيادة الكونت دي بومون فظهر على الجزائريين وفرّقهم في الجبال وفي ٤ يوليو استولى على قصر الأمير فامتلك به العاصمة وكان في خزائنها من الأموال ما أعاض فرنسا عن جميع نفقات حملتها.

ثورة ١٨٣٠

وفي السادس والعشرين من ذلك الشهر أصدر الملك أمرين قاضيين بمصادرة حرية الجرائد وبإيجاد نظام انتخابي جديد فقرر القضاء أن ذينك الأمرين غير قانونيين وثارت باريس في ٢٧ و٢٨ و٢٩ يوليو فقهرت جنود الملك فاستقال على أن يخلفه حفيده الدوق دي بوردو ولكن الشعب اختار الدوق أورليان رئيس الفرع الثاني من آل بوربون ونادى به ملكا عليه (٩ أغسطس) بناء على نصيحة لافايت. وبلغ عدد القتلى في هذه الثورة ٦٠٠٠ نفس.

— ٩٢ —

نتائج ثورة يوليو في فرنسا وتنازع المحافظين والأحرار والجمهوريين (١٨٣٠ — ١٨٤٠)

الملك لويس فيليب

قبل أن يجلس هذا الملك على سرير فرنسا أقسم أنه يجري على ما يقضي به الدستور الملكي وما أدخل فيه من التنقيح وأهمه كان إعادة حرية الجرائد وأن يمنع

توارث عضوية مجلس الشيوخ وأن لا يكون الدين الكاثوليكي دين الحكومة الرسمي الخ.

وزارة لافيت (١٨٣٠)

قوي حزب الجمهوريين على أثر ثورة يوليو في فرنسا فاضطر الملك أن يسترضيه بشيء فعين زعيميه لافايت قائداً عاماً للحامية الوطنية ولافيت وزير أول. وكان الملك يرى وجوب السكينة في الداخل وتأييد السلام في الخارج فلما تحركت ايطاليا للتحرر من ربقة النمسويين مال الوزير الى تعضيدها فخالفه الملك في هذا الرأي واستخلفه بكازيمير بريه.

وزارة كازيمير بريه (١٨٣١)

صرح هذا الوزير أنه يريد شيئين: السير القانوني في الداخل. وتأييد السلام في الخارج. إلا إذا مسّ شرف فرنسا وقد أفلح في الأمرين. فإنه أدخل أسطولا الى لشبونة انتقاماً لفرنسويَّين أهانهما دون ميجل فاعتذر وزراؤه وأدّوا الغرامة للمهانين. ورد الهولنديين عن بلجيكا بخمسين ألف فرنسوي وأعاد النمسويين الى حدودهم التي تعدوها في إيطاليا. وأخمد ثورة في غربي فرنسا وأخرى في ليون وأخرى في باريس وكان سائدا على أفكار الملك والمجلسين والوزراء وتوفي في ١٦ مايو سنة ١٨٣٢ بإصابة وبائية.

وزارة ١١ أكتوبر سنة ١٨٣٢

في عهد هذه الوزارة ثار الجمهوريون وتحصنوا وراء متاريس بسماري وقاتلوا جنود الملك يومين كاملين في ٥ و٦ يونيو فانكسروا وضعف حزبهم وتعزز حزب المحافظين الأحرار وبعد ذلك بشهر توفي الدوق دي ريشتاد ابن نابليون الأول (٢٢ يوليو ١٨٣٢) فتخلصت أسرة أورليان من أشد مزاحم لها ثم حدث أن أم الدوق دي باري جاءت من منفاها متنكرة وأخذت تستنفر لها أهل غرب فرنسا فأخمدت الوزارة هذه الثورة ثم قبضت على الدوقة واعتقلتها وأخذت إقراراً منها بأنها فقدت حقها في ولاية العرش لتزوجها سراً بأحد عامة الناس.

سياسة فرنسا الخارجية

سنرى في الفصول الآتية ما كانت الخطة التي جرت عليها فرنسا بين الدول من سنة ١٨٣٠ الى ١٨٤٠ ولكننا نقول انها بانتصار جنودها في انفرس وردها هذه المدينة الى بلجيكا أنهت مشكلة كان يخشى أن يستمر النزاع فيها ويوقد الحرب في أوروبا. وكذلك فازت في الشرق بتوسطها فيما بين السلطان وتابعه المنتصر عليه محمد علي باشا من حيث أبقت مصر وسوريا تحت ولاية هذا الوالي فجعلته حامي طريقي التجارة الأوروبية في البحر الأحمر وخليج العجم الذي كان يطمع الانكليز فيه.

ثم أن فرنسا عقدت مع انكلترا واسبانيا والبرتغال محالفة رباعية (٢٢ أبريل ١٨٣٤) تعهدت بها الدولتان الأوليان للدولتين الأخريين بحمايتهما من تسلط التحالف المقدس عليهما. وذلك لأن البرتغال أسقطت دون ميجل وردت المدء الى دونا ماريا فأعادت لها الدستور الملغى (١٨٣٤) ثم لأن فرديناند السابع ملك اسبانيا عندما حضرته منيته أمر أن لا يخلفه أخوه دون كارلوس رئيس حزب الاستبداديين.

فتنة باريس وليون (١٨٣٤) وجناية فياشي (١٨٣٥)

حدثت في باريس وليون حركتان ثوريتان قام بهما الجمهوريون في سنة ١٨٣٤ فأخمدتا وحكم على ١٦٤ من الزعماء بعقوبات شديدة فانحلت بذلك عرى هذا الحزب الى حين وكان الجيش لازماً الطاعة للملك والقضاء شديداً على الجمهوريين. غير أن أحد المتطرفين من هؤلاء ويدعى فياشي أعد آلة محشوة بالقذائف القاتلة وفي ٢٨ يوليو ١٨٣٥ بينما كان الملك يستعرض الجيش أطلق فياشي عليه قذائف تلك الآلة فقتلت ١٨ نفساً حوالى الملك وجرحت ٢٢ وكان بينهم خمسة قواد أكبرهم مورتيه الذي اشتهر في مواقع نابليون وقد خرّ قتيلاً لساعته فانتهزت الوزارة فرصة الكدر الذي أحدثته هذه الجناية واقترحت إصدار قوانين جديدة يراد بها التعجيل في سير القضايا الجنائية لدى المحاكم والإقلال من عدد الجرائد برفع التأمين المطلوب للترخيص بها من ٤٨ ألف فرنك الى مئة ألف. ومن مآثر هذه الوزارة انها وضعت أساس النظام التدريسي في فرنسا.

وزارة تيير س (١٨٣٦)

تقلد هذا السياسي الوزارة في ٢٢ فبراير ١٨٣٦ وبعد أن أتمّ توطيد الأمن في الداخل أراد الجري على سياسة كزيمير بريه في الخارج فأول ما صرف إليه عزمه إعانة حزب الأحرار في اسبانيا على ثوار الكارليين ثم رأى أن التقدم في فتح داخلية الجزائر بطيء فكلف المارشال كلوزل أن يتولى فتح أحصن مركز فيها وهو مركز قسطنطين. أما الملك فوافقه على حملة الجزائر وأبى عليه إرسال نجدة لاسبانيا فاستقال وخلفه موله في رئاسة الوزارة (٦ ستمبر ١٨٣٦).

وزارة موله (١٨٣٦ — ١٨٣٩)

افتتح عهد هذه الوزارة بمشكلات ومصائب فإن المارشال كلوزيل لم يفلح في حملة قسطنطين لأنه ترك بلا نجدة ثم أن البرنس لويس ابن أخي نابليون حاول أن يثير حامية ستراسبرج فقبض عليه ونفي من المملكة (٣٠ أكتوبر ١٨٣٦) ولكن شركاءه في الذنب حوكموا فأطلق القضاء سراحهم من حيث لم يكن بينهم المحرك الأول لهم فغضب الملك وعرض مشروع أمر عال يقضي بقسمة القضاء الى عسكري وملكي ليحاكم لدى إحدهما الجنود ولدى الآخر الملكيون فلم يوافق المجلس عليه وكان ذلك فشلاً للحكومة غير أن الأحوال تحسنت في السنة التالية حيث عقدت معاهدة تافنة وسكن الهياج في مقاطعة أوران وفتحت قسطنطين (١٨٣٧). وأرسلت حملة الى المكسيك لإنهاء مشكلة طالت مع حكومة هذه البلاد فانتصرت على جنودها وأدت المكسيك غرامة حربية. وفي ٢٤ أغسطس ١٨٣٨ رزق الملك غلاماً فدعاه كونت باريس وظن أن به تثبيت قدم الأسرة المالكة في فرنسا. وكان الوزير موله قد استرجع الجنود الفرنسوية المحتلة انكون في ايطاليا فأفسح بذلك مجال الامتداد للنمسويين ولم يفلح في التسوية النهائية للمشكلة الواقعة بين بلجيكا وهولندة فاتفق كيزو وتييرس وأرديلون بارو من رؤساء الأحزاب في مجلس النواب على إسقاط وزارته فاستقالت في ٢٢ يناير ١٨٣٨ فاستبقاها الملك وفضّ المجلس فكان الفوز في الانتخاب للمعارضين فسقطت الوزارة ثم وقع النزاع بين الأحزاب المنفقة فاستمرت من أجل ذلك الأزمة الوزارية ستة أشهر.

وزارة المارشال سولت (١٨٣٩)

حدث أن بعض زعماء الجمهوريين حاولوا إثارة الشعب في هذه الأثناء فألفت وزارة برئاسة المارشال سولت ولم يكن أحد الرؤساء المتنازعين من أعضائها فلذلك لم تقم إلا ستة أشهر من ١٢ مايو ١٨٣٩ الى غرة مارس ١٨٤٠ وفي هذه المدة نقض عبد القادر أمير الجزائر معاهدة تافنة ودعا قومه للجهاد فاجتاز المارشال فاله والدوق دورليان الممر الصعب المسمى بممر الأبواب الحديدية وبعد ذلك بشهرين غلبا جيش الأمير المنظم في موقعة شيفا.

وقد وقعت على عاتق هذه الوزارة مسألة ضخمة كثيرة الاشكال هي المسألة الشرقية ولكننا سنعود الى البحث فيها في فصول منفردة بعد أن نبين ما كان لثورة يوليو الفرنسوية من الصدى في أوروبا.

— ٩٣ —

نتائج ثورة يوليو في أوروبا (١٨٣٠—١٨٤٠)

حالة أوروبا سنة ١٨٣٠

كانت انكلترا في استعداد لإسقاط وزارة المحافظين. وبلجيكا وايطاليا وبولونيا للقيام بثورة وطنية. وكانت في اسبانيا والبرتغال وبلاد الاتحاد الجرماني حركة لتأييد المطالب الدستورية وكان كل ذلك وقوداً ينتظر شرارة لتشب ناره فبعثت الشرارة من ثورة يوليو في باريس.

انكلترا وقيام الوزارة الحرة فيها (١٨٣٠) ولائحة الاصلاح (١٨٣١— ١٨٣٢)

أول برلمان اجتمع في انكلترا بعد ثورة باريس أسقط وزارة المحافظين (٢ نوفمبر

١٨٣٠) واستبدلها بوزارة حرة فعرض أعضاؤها لائحة اصلاح للانتخابات قضوا فيها بالغاء النواب عن ٦٠ من القرى وبانتخاب آخرين عن كثير من المدن التي لم يكن لها نواب وبتسويغ الانتخاب لكل من يبلغ ايراده أو الاجرة التي يدفعها عشرة جنيهات وبذلك ضوعف عدد المنتخبين.

غير أن اللوردية لم يوافقوا على هذه اللائحة الا بعد أن انذروا بعزل فريق من أكثريتهم واستعاضته بآخرين. ثم عرض الاحرار لائحتين جديدتين قضت احداهما بتحرير ٦٠٠٠٠٠ رقيق زنجي فانفقت انكلترا على ذلك ١٦ مليوناً ونصف مليون جنيه استرليني والاخرى قضت بوضع رسم لاعانة الفقراء. وأهم عمل لهذه الوزارة الحرة في خارج انكلترا مصافاتها لفرنسا وتعزز كل من الدولتين بالاخرى لمقاومة دول الشمال وانهاء المشكلة البلجكية.

الثورة البلجكية (اغسطس وستمبر ١٨٣٠)

كانت بلجكا التي ضمت الى هولندة في سنة ١٨١٥ لا تطيق نيرها وذلك لاختلاف المذاهب والمشارب والجنس بين الأمتين ولما استبد به الملك من أمور البلجكيين الدينية والكهنوتية والقلمية والفكرية فزاد النفرة في قلوبهم فثاروا في بروكسل بعد ثورة باريس بشهر وردوا الجيش الهولندي الى انفرس فخافت الوزارة المحافظة في لندره أن يحمل ذلك الفرنسويين على احتلال هذه المدينة الواقعة على مصاب الابر والاسكو ولامت الثوار على ثورتهم غير ان الوزارة الحرة التي خلفتها عقدت اجتماعاً سياسياً في لندره (٤ نوفمبر ١٨٣٠) قررت فيه دول الشمال نفسها أن لا يصلح ضم هتين الامتين وانتخبوا البرنس دي ساكس كوبورج ليجلس على عرش بلجيكا بعد أن رفضه الدوق دي نيمور ثاني انجال لويس فيليب وصرحوا لفرنسا أن ترسل ٥٠٠٠٠ جندي لاخضاع انفرس عنوة فتم ذلك ثم عرضت على المملكتين معاهدة للتوقيع عليها واعترفت جميع الدول باستقلال بلجكا.

ادخال تعديلات على النظامات الدستورية في سويسرا (١٨٣١) والدانمرك (١٨٣١) واسوج.

كانت حكومة سويسرا استبدادية بأيدي الشرفاء منذ سنة ١٨١٥ وكان أكثر ايراد أهلها من تجندهم لدى الدول الاجنبية وكانت لذلك حكومتهم مطيعة لاشارات دول التحالف المقدس الى أن تمت ثورة باريس فقام أهل جميع العمالات يطلبون القوانين الدستورية فنهت التمسا حكومتهم عن اجابتهم الى ذلك وجمعت جيشاً جراراً في فورالربرج والتيرول لارهاب أحرارهم فقررت جمعية نواب الاتحاد تجنيد ٦٠٠٠٠ مقاتل للدفاع عن البلاد فبلغ عدد الذين تجندوا مئة الف فهال أمرهم دول الشمال وأرسلت الى سويسرا تأكيداً بأنها لا تنوي لهم شراً ولا تضمر عداء فأتموا انقلابهم السياسي بدون سفك قطرة من الدم الا في مقاطعة بال وكان فيها بعض أغنياء أبو التنازل عن الامتيازات الممنوحة لهم. أما الدانمرك فقد منحها ملكها دستوراً ومجلس نواب بمجرد ارادته (١٨٤٩) وكذلك اسوج فقد منحت في سنة ١٨٤٠ مجلسين انتخابيين وتقرر أن يكون وزراؤها هم المسؤولون وان تلغى حقوق الشرفاء الوراثية مع بقاء التمييز بينهم وبين العامة. أما الجنوب فقد تمت فيه أمثال هذه الانقلابات ولكن بثورات وسفك دماء لحدة طباع أهله.

ثورات اسبانيا (١٨٣٣) والبرتغال (١٨٣٤) و«معاهدة التحالف الرباعي (١٨٣٤)»

علمنا أن فرديننـد السابع ملك اسبانيا كان مستبداً ولذلك أبى في أول الأمر أن يعترف بملك فرنسا الجديد. وكان قد تزوج في دسمبر سنة ١٨٢٩ بالملكة ماري خرستين وأراد أن يوليها الملك من بعده فاستخرج لذلك من الاوراق القديمة أمراً سرياً كان قد أصدره أحد أسلافه فيليب الخامس بأن الاناث يحق لها أن ترث الملك كالذكور. وانما أبعد بهذه الوسيلة أخاه دون كارلوس عن خلافته لأنه ثار عليه مرتين لاسقاطه وعندما توفي فرديننـد كانت امرأته قد ولدت له الاميرة اليصابات فكانت ملكة اسبانيا من مهدها وتولت امها الاحكام بالوصاية عنها (ستمبر ١٨٣٣)

فتحزب الملكيون لدون كارلوس خلافاً لمبدئهم وتسلحوا لتمليكه فاستعانت الملكة على هذا الحزب بالاحرار واضطر دون كارلوس أن يلجأ الى لشبونه لدى دون ميجل مغتصب عرش البرتغال وكانت بين هذا الملك وشقيقه دون بدرو الوصي على الملكة الحقيقية دونا ماريا منازعة وحرب وكان حزب الأول الاستبداديين وحزب الثاني الاحرار الذين كانت فرنسا وانكلترا تعضدانهم سراً. ففي ثامن يوليو من سنة ١٨٣٢ استولى الاحرار على اوبورتو وفي السنة التالية انتصروا في فنسنت ولشبونه فوقعت العاصمة في ايديهم فعند ذلك عقدت معاهدة التحالف الرباعي بين فرنسا وانكلترا ودون بدرو بالنيابة عن ابنة الملكة دونا ماريا وخرستين بالنيابة عن ابنتها الملكة اليصابات. واكره دون ميجل على الخروج من المملكة (مايو ١٨٣٤) أما دون كارلوس فاثار أهل الشمال من اسبانيا وتجند له جمهور من الاستبداديين البرتغاليين والفرنسويين والانكليز وكادت بعض عصائبه تصل الى مدريد ثم ردت عنها. واستمرت هذه الحرب الأهلية في اسبانيا الى سنة ١٨٤٠ وجرت فيها الدماء أنهاراً وكانت دول التحالف الرباعي تعضد الاحرار سراً ودول التحالف المقدس تعضد الاستبداديين كذلك. ولما أنهى الوزير اسبادترو هذه الحرب الفظيعة لقبته الوصية بدوق النصر فاشتدت سطوته ثم تطاول الى عزل الوصية وأخذ مكانها (اكتوبر ١٨٤٠) ثم طرده من ذلك المنصب القائد الباسل نافارس (يوليو ١٨٤٣) وتولى الوصاية وكان حكمه دستورياً ولكن غير خلو عن كثير من آثار المحافظة.

عدم فوز الاحرار في المانيا وايطاليا (١٨٣١) و« اخماد الثورة البولونية (١٨٣١)».

لم يحدث لثورة باريس صدى يذكر في النمسا وبروسيا لتعاون الكنيسة والحكومة فيهما ولعموم الفاقة بين العامة في المملكتين ومع ذلك فان فردريك غليوم الثالث اضطر ان يخفف وطأة المراقبة على الجرائد. أما في الامارات الألمانية فقد حدثت ثورات سقط بها بعض الامراء والدوقية واضطر البعض الآخر الى الموافقة على الاصلاحات المطلوبة. فتخوفت دول التحالف المقدس من انتشار هذا الروح وحملت النمسا مجلس الاتحاد الألماني في فرنكفورت على تعيين مراقبين للمجالس

النيابية التي تأسست في بعض الامارات وجعل مداولاتها قاصرة على بعض الشؤون. وبعد ذلك بأشهر اتفقت النمسا وبروسيا وروسيا فشكلت لجنة معهوداً اليها في القبض على المهيجين ومنع حدوث الثورات فعاد القتل والسجن والنفي الى جميع البلاد الألمانية بلا حساب. وكانت النمسا تظن أنها تستمر على اضعاف مجلس الاتحاد والامراء الى أن تعم الفوضى فتحتاج تلك البلاد الى رأس يديرها فتكون هي الرأس ولكنها ساء فالها وتعبت نصف قرن لتقع المانيا بعد ذلك في يد بروسيا كما حصل.

ذلك ما جرى في الامارات الألمانية وأما في ايطاليا فان نابولي لزمت السكينة مدة حياة ملكها فردينند الثاني وأما بولونيا ورومانيا واومبريا فثارت في ٤ فبراير ١٨٣١ وبعد شهر من نهوضها لم تبق للبابا من ولاياته الا صحراء رومه وسابينا. وكان الأميران كارلوس ولويس نابليون قد تجندا لخدمة زعماء الثائرين فقتل الأول منهما. ثم ثارت بارمة ومودينه فطردتا أميريهما فانتهز النمسويون الفرصة واجتازوا البو وأخمدوا ثورة رومانيا التي كانت تنتظر مدداً من فرنسا فلم ترسله لها وصرحت أنها على مذهب «عدم التداخل» في السياسة ولكن عندما احتل النمسويون فرّار وبولونيا أرسل لويس فيليب على سبيل الاحتجاج جنوداً احتلت انكونا ثانية وطال احتلالهم لها سبع سنين (١٨٣٢ — ١٨٣٨) على أن البابا اقتدى بملك نابولي فجند قوماً من السويسريين واستخدمهم لحماية روما وكان الفرنسويون يحمون له أنكونا والنمسويون بولونيا ورجاله مع ذلك ينفون ويسجنون ويعذبون الناس الى درجة لا تطاق ولذلك كتبت الدول الخمس الكبرى رسالة الى البابا تصف له هذه الحالة وتسأله اصلاحها (مايو ١٨٣١) فوعد بافتتاح «عهد جديد» ثم عادت المظالم الى مجاريها وامتد التضييق على الافكار والكليات والمدارس الى جميع جهات ايطاليا ومنع دخول المطبوعات الاجنبية وكان الانسان يحاكم ويعاقب بأشد العقوبات على لفظة أو حركة. وحدث أن فردينند الثاني أمر بقتل ٥٢ نفسا على أثر مناوشة ثورية حدثت في سير قوصه.

وفي ذلك الوقت جرى في شرقي اوربا عمل من أفظع الاعمال التي يذكرها

التاريخ وهو محو الوطنية البولونية من الوجود. وذلك أن شعب بولونيا ثار في ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ يطلب الاستقلال الوطني والحرية السياسية وكانت ثماني ولايات مشتركة في النهضة. فزحف مئة ألف روسي عليهم لمقاتلتهم وفتح فرسوفيا وانتظر ستون الف مقاتل بروسي في دوقية بوزن ومثلهم من النمسويين في غاليسيا ليقطعوا كل صلة بين البولونيين والخارج. ولما رأى المارشال باسكويتش بعد اربع مواقع هائلة أنه لا يستطيع دخول فرسوفيا عنوة من الامام عزم على مهاجمة المدينة من ضفة الفستول اليسرى غير أنه كان يحتاج الى مؤونة اذ كان انفاذ مقصده يقضي عليه بالابتعاد عن معسكره ففتح له ملك بروسيا كنجسبرج ودنتزك ليستورد منهما ما يحتاج اليه ودرت بذلك الدول وكانت تعلم أنه مخالف للقانون الدولي ولم تحتج احتجاجاً يذكر. على أن حكومتي لندره وباريس كانتا علناً متفقتين على عدم التداخل ولكن الامتين كانتا تميلان الى البولونيين المظلومين وكان الفرنسويون يرسلون لهم المدد سراً وفي ٨ ستمبر ١٨٣١ سقطت فرسوفيا في أيدي الروس بعد مقاومة تذكر في جنب أعظم جهاد رواه التاريخ ومحا القيصر نقولا من معاهدات سنة ١٨١٥ البنود المانحة لبولونيا وجوداً مستقلاً ونظاماً أهلياً وقسمها الى ولايات ألحقت بروسيا الحاقاً ودعيت بولايات الفستول وملأ سيبير بالمنفيين من أهلها وجعل اللغة الزوسية هي اللغة الرسمية في الادارة والقضاء والتعليم وانتزع كنائس جمة من أهل الدين الكاثوليكي فمنحها لأهل الدين الارثوذكسي.

وهكذا محيت هذه الأمة من الوجود.

— ٩٤ —

مسائل الشرق الثلاث

مصالح الدول الاوربية في اسيا

ان المسألة الشرقية تنقسم الى ثلاث إحداها تتعلق بالاستانة والثانية بوسط آسيا

والثالثة بالصين واليابان وسنرى ان التنازع في هذه المسألة الجسيمة غير مبني على الأفكار والحقوق بل على الجشع الكسبي التجاري ومع ذلك فقد نتجت فوائد كبيرة على كونها لم تكن مقصودة بالذات من ذلك الخلاف والفتوحات التي تمت في اثنائه.

المسألة الشرقية الأولى وهي مسألة الاستانة

ذكرنا فيما سبق أن خيلاء القيصر نقولا أوهمته أنه منتدب من لدن الله لتسويد الجيل السلافي على سائر الأجيال التي استوفت حظها الى ذلك الوقت من العظمة. وكان لهذا الأمبراطور نصف اوربا وثلث آسيا ملكاً لا نزاع فيه غير أنه كان يطمع في استزادته كثيراً وجعل قاعدته القسطنطينية التي يسود مالكها اذا كان قوياً على الدنيا. على أن جنود القيصر وصلت في سنة ١٨٢٩ مدة الثورة اليونانية الى أدرنة ودنت من قرن الذهب غير أن الدول أرجعتها على أعقابها بمقتضى المعاهدة التي تقدمت الاشارة اليها واضطر نقولا أن يصبر وينتظر حدوث مشاكل جديدة ليعود الى انفاذ مأربه خصوصاً وان انكلترا كانت مقفلة في وجهه طريق البحر والنمسا مع محالفتها له واقفة بالمرصاد لجنوده في طريق البر.

انحطاط تركيا وتعاظم شأن والي مصر

كان انحطاط هذه الدولة سريعاً بحيث لا يسهل تداركه. فانها فقدت القريم ومصاب الدنيابر (١٧٧٤) وضفة الدنياستر اليسرى (١٧٩٢) ومقاطعة بسارابيا الى بروت (١٨١٢) ومصاب الدانوب وقسماً من ارمينيا وكل هذه كانت معاقل للسلطنة وكذلك فقدت في داخلها اليونانية التي استقلت والصرب والروم ايلي والجبل الاسود التي انفصلت عن الدولة على أن تدفع لها جزية صغيرة. وقد أخمد السلطان محمود ثورة عالي باشا في جانينا (١٨٢٠) فأيد بذلك سلطته قليلاً غير أن فرمان الاصلاح الذي أصدره زاد في وهن السلطنة من حيث كدّر المسلمين والعلماء ولذلك اضطرت اوربا أن تحمي الدولة العلية في معاهدة ادرنة اذ كانت في ذلك الوقت لا تقوى على صيانة نفسها بنفسها. وبينما كان القسم الشمالي من الممالك

المحروسة يميل ويسقط انتهز البطل الشهير الروملي الأصل محمد علي فرصة خروج الفرنسويين من مصر وعموم الفوضى فيها بعد جلائهم وتولى ادارة أحكامها وفي سنة ١٨٠٦ أيد سلطته فيها بظهوره على الانكليز الذين دخلوا الاسكندرية ووصلوا الى رشيد واخراجهم من القطر ثم ذبح المماليك في خدعة شهيرة (١٨١١) وحارب الوهابيين مدة سنين وكانوا مستولين على مكة والمدينة ودمشق الشام فكسرهم وكاد يفنيهم وفتح للمسلمين السنيين طريق الحج وامنه (١٨١٨) ثم فتح السودان (دنقلة وكوردفان وسنار) فجعل مصر بمثابة مملكة ضخمة. ولما حارب ابنه ابراهيم باشا اليونانيين في الموره وأخذ ميسولونجي (١٨٢٦) وكاد يخمد الثورة اليونانية بدون تداخل الدول أتم بفتوحاته مجد أبيه فكانت لمحمد علي في الشرق شهرة حامي بيضة الدين والقاهر الذي لا يقهر وفي الغرب سمعة البطل وكرامة رجل الاصلاح والتقدم وكان محبوباً كثيراً في فرنسا التي أمدته برجالها من مهندسين ومدرسين وعسكريين وصناع فشيد بهم المعاقل والمعالم والمدارس والترسانات ونظم الجيش وأسس البحرية.

فتح في ابراهيم باشا للشام (١٨٣٢) ومعاهدة انكيار اسكله سي (١٨٣٣)

لم يفتح مصر فاتح في زمان الا طمع في الشام. وقد وجدت هذه الرغبة عند محمد علي كما وجدت عند أمثاله من قبله فلم يكفه من الدولة ان منحته حكومة كريد بل ظن أنه لا بد له من اصلاح الدولة كلها وسلخ الشام عنها ليضمها الى قطره. فانتهز فرصة وقوع نفرة بينه وبين عبد الله باشا والي عكا وتمحل منها عذرا للشروع في الفتح فقصد ابنه ابراهيم ثغر عكآء وحاصره سنة ١٨٣١ وفتحه في مايو سنة ١٨٣٢ ثم اخضع الشام كلها وكسر جيشاً للسلطان في عدة مواقع ثم آخر أكبر منه في موقعة قونية العظيمة شمالي طوروس (ديسمبر ١٨٣٢) فخلت له طريق الاستانة فزحف عليها فتخوف منه السلطان محمود واستنجد بروسيا فاحلت ١٥٠٠٠ مقاتل في اسكدار وبعثت ٤٥٠٠٠ جندي آخر فاجتازوا الدانوب بدعوى حماية السلطان. غير ان فرنسا وانكلترا حالتا دون وقوع المصيبة المخشية واكرهتا السلطان وتابعه على

القبول باتفاق كوتايه (مايو ١٨٣٣) وكان يقضي بمنح سوريا لمحمد علي. أما الروس فرجعوا على أعقابهم ولكن بعد أن نالوا توقيع السلطان على معاهدة انكيار اسكله سي (يونيو ١٨٣٣) القاضية بتحالف السلطان والقيصر في حالتي الهجوم والدفاع. وقد شرط في بند سري ان يقفل بوغاز الدردنيل على جميع المراكب الاجنبية وانما كان ذلك عقاباً لفرنسا وانكلترا على ارجاعها العساكر الروسية من حيث أتت. وبهذه المعاهدة ختم الفصل الثاني من المسألة الشرقية وكان ختام الفصل الأول بمعاهدة أدرنة.

معاهدة لندره (١٨٤٠) ومعاهدة البواغيز

ثم مضت ست سنين كان السلطان محمود في خلالها يعزز جيشه فلما ظنه قادراً على استرداد ما سلبه ابرهيم باشا أرسله لمحاربته فالتقى البطل المصري جنود السلطان في نزيب ونكل بهم واستفتح طريق دار الخلافة ثانية (يونيو ١٨٣٨) فتداخلت فرنسا وصدت ابرهيم باشا عن قصد الاستانة خوف أن يسبقه اليها الروس وغلطت بعدم اشتراطها شيئاً يعزز مركز والي مصر ويمنع الاعتداء عليه مرة أخرى فان انكلترا عندما أمنت دخول الروس الى القسطنطينية رأت من مصلحتها فصل سوريا عن مصر فانضمت الى روسيا والنمسا وبروسيا وعقدت معها معاهدة لندره السالخة للشام عن مصر (١٥ يوليو) بدون اشتراك فرنسا وكانت هذه النتيجة والعزلة التي وجدت فيها فرنسا بعد تقرير المعاهدة المتقدم ذكرها أشد عقوبة لها على خطإها. على أنها تأثرت جداً من العداء الذي أبدته اوربا لها فسورت باريس بالمعاقل وسلحت مراكزها الحصينة كلها وزادت جيشها وانتظرت في وحدتها مطمئنة الى أن تأتي الظروف الموافقة لها فتتخير حليفاتها بين الدول. كذلك كانت سياسة تييرس ولكن الملك خاف من اخطارها فاستبدل كبير وزرائه بكيزو (٢٩ اكتوبر ١٨٤٠) فبادر هذا الرجل ومديده الالتماس الى الدول التي صفعت بلاده تلك الصفعة المهينة وفي ١٣ يوليو ١٨٤١ وقع على المعاهدة التي كانت تقضي باقفال جميع البواغيز على السفن الحربية وبقي الفوز في هذا الفصل الثالث من فصول المسألة الشرقية لانكلترا وسيكون الفوز في الرابع لفرنسا على ما سيأتي بيانه.

المسألة الشرقية الثانية واسيا الوسطى

في القرن السابق كانت انكلترا قد احتلت الهند وروسيا سيبيريا وكان لا يظن أن تخوم هاتين المملكتين المستعمرتين تتقارب ذات يوم فتولد احدى المشكلات الكبر. وهذا ما حصل بعد نصف قرن حتى تكاد اليوم الدولتان تتماسان على تلك التخوم.

تقدم الروس في اسيا

ان ملك بلاد جورجيا الواقعة على المنحدر الجنوبي للقوقاف التمس في سنة ١٧٩٦ من القيصرة كاترينه تقويته على الايرانيين فاجابته الى ذلك ولانفاذ وعدها أخذت دربنت على بحر قزبين وداغستان ومعظم تلك البلاد الى نهر كور ثم جعلت المملكة الصغيرة التي استعانت بها تحت وصايتها ولم تلبث أن حولتها الى ولاية روسية (١٨٠١) وبعد ذلك أخذ الروس من الترك مصاب نهر فاز (١٨٠٩) ومن الاعجام شيروان (١٨١٣) وأرمينيا الواقعة فيما وراء نهر كور الى نهر آراس الذي هو ينصب فيه والى جبل ارارط (١٨٢٨). وكان الروس في هذا المركز حول القوقاف يملكون الوصول الى تركيا الاسيوية والضغط على ايران. أما سكان جبال القوقاف فاستمروا معتصمين بجبالهم ٣٥ سنة يقاتلون ويدافعون عن استقلالهم بقيادة زعيمهم شاميل الى أن حصر الجيش الروسي رئيسهم وأخذه (١٨٥٩) واخضع قبائله بعد أن هلكت عشرة جيوش قبله في محاربته وأضاف هذا الفتح الى السلطنة الروسية ثماني بقاع خصيبة متسعة واقعة جنوبي القوقاف فجمعت الى حكومة عسكرية واحدة قاعدتها تفليس واصبحت لروسيا مركزاً امامياً حصيناً لا يؤخذ وفضلاً عن ذلك فان لها عن اليمين طريقاً يتسنى ارسال الجنود الروسية منها الى اسكدار بجوار الاستانة وعن اليسار طريقاً الى طهران عاصمة ايران ومن العجائب سرعة ما ضخم هذا الملك فان روسيا كانت من جهة مالكة البحر الاسود بمراكبها التجارية في مينائي اودسا وتاغا نروك تحت حماية اسطولها الحربي الراسي في ميناء سباستول الذي كان حديث النشأة. ومن جهة أخرى مالكة بحر قزبين الذي قررت معاهدة تومانتشاي تسويغ الملاحة فيه للروسيين وان لهم وحدهم جواز تسيير مراكب مسلحة فيه. فهم

بذلك كانوا يستطيعون اذا قصدوا البر العجمي بحملة عسكرية ان يقربوا من طهران وان قصدوا البر الشرقي ان يدانوا خيوا وتركستان. ومع ذلك فقد كانوا يتقدمون في صحراء كيرجس كازاك وبحيرة آرال التي كان لهم فيها اسطول حربي نحو البلدين المتقدم ذكرهما وكانوا يقيمون القلاع في الصحراء تدريجاً ليصلوا متعززين بها الى أن يتسنى لهم ادراك البقاع الخصيبة التي كانت تدعى باكتريانا في الزمان القديم.

تقدم الانكليز في اسيا

بينما كانت اوربا مشتغلة بحروب الجمهورية الفرنسوية ثم بحروب نابليون كانت انكلترا توسع نطاق استعمارها في الهند فانها اخضعت في سنة ١٨١٦ نابول الواقعة شمالي الهند ومهرات في دقهان بعد ذلك بسنتين. وكان بجانب كل أمير هندي عامل من قبل الشركة يسيطر عليه وحامية انكليزية ينفق عليها ايراد احدى عمالاته فبهذه الطريقة أوجد الانكليز لهم جيشاً جراراً يملكون به دقهان ووادي الكنج ولا ينفقون عليه درهماً. وفي سنتي ١٨٢٤ — ١٨٢٦ زحفوا الى ما وراء الهند الكنجية وأخذوا مئتي ميل من شواطىء بيرمانيا وضربوا الجزية على مملكة اسام وفتحوا سنجابور وملقه وجعلوا خليج بنغال بحراً انكليزياً وامتلكوا به طريقاً من أكبر الطرق التجارية الى الهند الصينية. وكان مطمعهم في هذه الجهة توسيع نطاق مكاسبهم أما في الشمال الشرقي فكانوا يطمعون في الأمن على ما امتلكوه.

وقوع النزاع مباشرة بين الانكليز والروس في آسيا الوسطى

منذ عقدت معاهدة تورمانتشاي (١٨٢٨) عظمت السطوة الروسية في طهران. ولكن الشعب ساءته شدة الشروط التي بنى عليها الصلح بين الروس وحكومته فثار وذبح السفير الروسي وأسرته وأتباعه فأرسل الملك وكان فتح علي رأس سلالة الخاجار حفيده الى روسيا يعتذر بكل تذلل عما أصاب السفير وذلك لما ثبت لديه بعد أن جاهد في سبيل إنقاذ مملكته من سنة ١٧٩٧ الى سنة ١٨٢٨ من أن أيام فوز الأعجام على جارتهم الضخمة روسيا مضت ولن تعود وأن ندير شاه (١٧٤٧) صاحب المقاومة المشهورة للأتراك والروس والمغول بجيشه الفارسي لا يخلفه أحد في

ايران. على أن بين ايران والهند مدينتين عظيمتين تملكان طرق اتصال البلادين وهما هرات وكابول. وكان بونابرت ينوي بعد فتح عكا أن يزحف عليهما فلما فشل أرجأ إنفاذ نيته وبعد موقعة تيلست كاشف القيصر بتلك النية ليتفق معه على إخراجها الى حيز الفعل وأرسل جواسيس الى ما بين النهرين وايران لتمهيد الطرق له فيهما. ولما تولى القيصر نقولا عزم أن يجري على هذا التخطيط الذي ورثه عن سلفه وإذ كانت ايران في قبضة يده أمدها وحملها على مهاجمة هرات ثلاث مرات (١٨٣٣ و١٨٣٧ و١٨٣٨) فارتدت جيوشها عنها وكان الفشل الثالث ناشئاً عن مساعدة الانكليز للأمير الأفغاني صاحب هرات وعن تهديد الأسطول الانكليزي للولايات الايرانية الجنوبية في خليج العجم. فرأى القيصر بعد حبوط مساعيه أن يرسل أحد جيوشه لفتح خيوا القائمة على الطريق الثانية الى الهند من أم داريا وبخارى غير أن الصحراء القاحلة التي تفصل هذه المدينة عن بحر قزوين أهلكت الجيش كله. وقبل أن يظهر عدم نجاح هذه الحملة عزم الانكليز على التقدم لملاقاة الروس فإن لم يتسن ذلك لهم فعلى احتلال الجبال العالية الأفغانية فيما ورآء السند ليجعلوها حاجزاً لإيجاز الى الهند وفي بدء سنة ١٨٣٩ اجتاز جيش بنغال نهر بولان وفتح كندهار وقلعة كيزني وكابول وأعاد الى هذه المدينة ملكها شاه سودجاه الذي كان مطروداً منها منذ ٣٠ سنة. غير أن قبائل هذه البلاد التي أضعفتها في أول الأمر مباغتة الانكليز لم تلبث أن ثارت ثورة عامة وحصرت الانكليز وكانوا ١٥.٠٠٠ فقتلتهم ولم يسلم منهم إلا واحد اجتاز السند راجعاً (١٨٤٢) فأرسلت الشركة جيشاً آخر دخل تلك البلاد ونكل بأهلها ودمر وأحرق ورجع على أعقابه وفي سنة ١٨٤٣ أخضعت الشركة أمرآء السند وبلوخستان وتملكت مصاب النهر المذكور وبعد ذلك بست سنين ضمت البنجاب الى سائر أملاكها ثم وادي كشمير الذي كان أحد أبواب الهند. ثم حاولت أن تجعل أفغانستان تحت سلطتها فلم تفلح ولكنها كانت تتقدم نحو صحراء بامير المرتفعة وهي ملتقى أعظم سلاسل الجبال الآسيوية التي تنتهي اليها ومهد الجبل الأبيض الأوروبي.

على أن روسيا لم تلبث أن أدخلت جنودها الى خيوا وانكلترا لم تلبث أن احتلت

هرات لصد غارات الأعجام عنها بحيث أصبحت كلتا العدوتين تتناظران عن كثب. أما انكلترا فلزمت مكانها وراء جبال بولور وهندوكو وأما روسيا فاستمرت تتقدم بدون انقطاع وهي من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٦٩ قد احتلت أكبر مدائن تركستان الشرقية وسمرقند وكولدجا عاصمة زنغاريا التي تحمي ممرّ الجبال الصينية (ثيان شان) وقد أصبح جميع أمراء هذه البلاد أتباعاً للقيصر ونفذ الرحالون الروسيون حتى الى تركستان الصينية (١٨٧٠) ولا بدّ أن تلتقي الدولتان المذكورتان يوماً في تلك الجهات فإما أن تصطدما فتهزان الأرض هزاً ويعم الدمار والبوار زماناً قد يكون طويلاً وإما أن تتجاملا وتتعاونا على السلم فتنفتح للمتاجر والمكاسب أبواب واسعة وتخرج منها خيرات عظيمة عميمة.

المسألة الشرقية الثالثة ومسألة المحيط الباسيفيكي

هذا المحيط بعد أن كان مهجوراً لامتناع الصين واليابان عن مخالطة سائر الأمم أصبح اليوم ملتقى سفائن الدول المختلفة وصار له من الشأن التجاري الكبير ما كان للبحر المتوسط في العهد القديم وتأتيه البواخر الآن بالاستمرار من نيويورك ومرسيليا وساوثمتون وتريستا قاصدة كانتون ويوكوهاما وسان فرنسيسكو وغيرها.

عزلة الصين واليابان

أول من طرق الصين البرتغاليون ثم المرسلون الكاثوليك (١٥٨١) إرادة أن يهدوا أهلها ثم الهولنديون ثم انكلترا ثم فرنسا وقبل الجزويت في بكين بصفة علماء وكذلك قبلت رسالة دينية روسية كانت تخفي مقاصدها تحت برقع الدين. ولم يؤذن للأجانب بادىء بدء إلا أن يقيموا بعض المتاجر خارج أسوار كانتون. وأرسلت عدة سفارات رسمية روسية وانكليزية لمقابلة أمبراطور الصين وعقد معاهدات تجارية معه فلم تفلح. وكانت اليابان أشد اعتزالاً فإنها أذنت للهولنديين وحدهم أن يدخلوا ميناء ناكازاكي على شرط أن يلزموا جزيرة صغيرة منعزلة في الميناء.

حرب الأفيون (١٨٤٠ — ١٨٤٣)

إن الأفيون من السمام المهلكة للجسم الانساني ومع ذلك فقد أذنت انكلترا

بزراعته في جميع بلاد بنغال حين علمت ميل الصينيين الى تعاطيه ثم كانت تدخله تهريباً الى الصين لأن الحكومة السماوية كانت محرمته على شعبها — وتستورد منه ستين مليوناً في السنة دخلاً لبلاد البنغال. وفي سنة ١٨٣٩ قبض موظف صيني على ٢٢٠٠٠ صندوق من الأفيون وأساء معاملة أصحابها من الانكليز فأرسلت انكلترا بدعوى إهانة بعض رعاياها حملة الى مياه الصين واحتلت جزيرة شوزان وهدمت قلاع بوغ على مدخل نهر كانتون وعرضت شروط الصلح فلم يوافق عليها الأمبراطور فأرسل الانكليز حملتين متتابعتين في البر على الصينيين فوصلوا الى نانكين وعقدوا هناك صلحاً (أغسطس ١٨٤٢) يقضي بفتح خمسة موانيء صينية للتجارة الأجنبية وبترك هون كون لانكلترا وبدفع غرامة تبلغ ١٢٠ مليوناً واتفقت الحكومتان رسمياً على أن تجارة الأفيون محظورة غير أن انكلترا وسعت نطاق التهريب وجعلت تستورد من الأفيون مئة مليون فرنك سنوياً.

معاهدة فرنسا مع الصين (١٨٤٤) والاستيلاء على بكين (١٨٦٠) وفتح اليابان للتجارة الأجنبية (١٨٥٤) وأخذ الروس لمنشوريا (١٨٦٠)

في سنة ١٨٤٤ أرسلت فرنسا سفارة الى بكين عقدت معاهدة تجارية من مقتضياتها استرداد الأوامر التي صدرت في سنة ١٨٢٨ ضد الكهنة الكاثوليك وإعادة الكنائس التي صودرت لأربابها والإذن للمرسلين بنشر تعاليم الانجيل. وفي سنة ١٨٥٦ قتل بعض المرسلين فساء ذلك فرنسا كما ساء انكلترا نقض الصين مرارا مكررة لمعاهدتها المعقودة معها فاتفقت الدولتان على محاربتها وبعد انتصارهما في باليكاوه دخلتا بكين (١٨٦٠). وكان الأمريكيون قبيل ذلك بسنين قلائل قد دخلوا اليابان عنوة بدعوى أنه لا يجوز إقفال الموانيء التي وضعتها الطبيعة في ذلك المكان لحماية السفن من أخطار بحر كثير العواصف (١٨٥٤) وفي سنة ١٨٥٨ انتهز الروس فرصة الرعب الذي وقع في قلب الصين وسلبوها بلاد منشوريا الواسعة (١٨٦٠) وبذلك أصبحت لهم السيادة على بحر أوكوتسك وبحر اليابان. أما انكلترا فكانت لها صخرة هون كون نظير مستقر لسفنها في تلك المياه وكانت لها الهند المجاورة وأما فرنسا

فاتخذت في كوشنشين مستعمرة زاهرة. ومما يخلق بالذكر أن اليابان بعد مخالطتها الارغامية للأجانب دخلت التمدن من بابه وسارت فيه شوطاً بعيداً دل عليه انتصارها الباهر على الصين منذ بضع سنين وعلى الروس في السنة الماضية أعظم دلالة.

— ٩٥ —

مبادىء ثورات ١٨٤٨

ما جرى بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٤٨ وتقدم الأفكار الاشتراكية

بعد أن عقدت معاهدة البواغيز عمت السكينة والسلام في أوروبا وكان المحافظون قد عادوا الى إدارة الحكومة الانكليزية (١٨٤١) والقيصر ينظم روسيا على شكل ثكنة يعد فيها الجيوش الكثيرة لإرهاب أوروبا وآسيا ومترنيخ يحكم النمسا «بانعطاف والدي» واسبانيا تجري على الدستور الذي عدله نارفايس وجعله أميل الى الملكية من الذي سبقه وفرنسا يتولى رئاسة وزرائها كيزو وقد استقر في منصبه من سنة ١٨٤٠ الى ١٨٤٨ على خلاف ما اعتيد من كثرة تبديل الوزارات الفرنسوية. وفي هذه المدة اتسعت المكاسب ونمت الثروة وفتحت المعامل الكبيرة وتزاحم أربابها فكثر المال عند فريق الوسط من الناس وقل عند الفعلة إذ كان يطلب منهم أكثر ما يستطيعون من العمل بأقل ما يكون من الأجرة وعندها نفذت بينهم الأفكار الاشتراكية التي كان الناس يضحكون منها في بادىء أمرها ولم تلبث بعد ذلك أن نشأت عنها ثورات ومظاهرات مخيفة في باريس ولندرة وبلجيكا وسليزيا وبوهيميا وسواها من المدائن والبلدان.

على أن الأفكار الحرة كان يزداد تقدمها في هذه الهنيهة التي ساد فيها السلام على أوروبا وكانت كل أمة تفكر إما في الحرية أو في الاستقلال ولذلك كانت بوهيمياً تزداد مقتاً للروس ورغبة في الانفصال عنهم وكذلك كان شأن ايطاليا مع النمسا.

وكانت المانيا تتمنى وحدتها وتطلبها وبوهيميا والمجر تنزعان الى الاستقلال الإداري وبعض حكومات ايطاليا الى مثل ذلك أو الى توسيع نطاق حريتها وبعض جهات بروسيا الى طلب نظامات حرة عادلة.

فرنسا من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٦

لم يحدث في فرنسا شيء يذكر في هذه المدة سوى أن خطباءها كانوا يتبارون بالفصاحة وحاملي زمام سياستها لم يقدموا على أمر ذي بال. بل كل ما فعلوه أنهم أرسلوا جنوداً يحتلون جزائر مركيزة الصخرية في المحيط الباسيفيكي (مايو ١٨٤٢) وأنكروا ضابطاً فرنسوياً رفع الراية على جزيرة كاليدونيا الجديدة مع كثرة فوائدها وعظم أهميتها وأبوا أن يمنحوا حمايتهم لحكومات هوندوراس ونيكاراكا وهايتي واستفتحوا جزيرة مايوت (١٨٤٣) بقرب مدغسكر. وحدث أن انكليزياً طرده الفرنسويون من تايتي (١٨٤٤) لأنه أثار الأهالي عليهم فذبحوا كثيرين منهم فذهب الرجل الى لندرة واستصرخ فسمعه النواب وطلبوا من فرنسا تعويضاً فاقترحت الوزارة إجابة هذا الطلب على مجلس نواب فرنسا فتعاظم الكدر من أعمال الحكومة ثم حمل حزب المعارضين عليها حملة اضطرها بها أن تمزق المعاهدة التي منحت بها لانكلترا في سنة ١٨٤١ حق المراقبة على السفن الفرنسوية لمنع النخاسة وكان ذلك في مايو سنة ١٨٤٥. وكان مجلس النواب قد رأى ضرورة إتمام فتح الجزائر فاختارت الحكومة لذلك القائد الباسل بوجود فوجد أن عبد القادر استنفر أكثر أهل البلاد للجهاد وأوصل رعبه الى نفس ولاية أوران فلحق به واستمر يتعقبه الى جبال أورانسنيس. وبينما الأمير يفر نحو الصحراء أدركه الدوق دومال وقبض عليه وأسر أهله ولكن الأمير نجا بنفسه ولجأ الى مراكش (١٨٤٣) فأنجده سلطانها بجيش كبير فأرسلت فرنسا البرنس جوانفيل فأطلق المدافع على طنجه وموجادور ثم عقد صلحاً مع السلطان.

وكان بوجود قد انتصر بثمانية آلاف وخمسمئة مقاتل بين رجالة وخيالة على ٢٥.٠٠٠ خيال لعبد القادر في ايسلي (١٤ أغسطس ١٨٤٤) فعاد الأمير الى

مراكش وأخذ يؤلف فيها حزباً له فتخوف منه السلطان واضطره الى الخروج من أرضه فلما وصل الى المراكز الفرنسوية الأمامية سلم نفسه للقائد لامورسيار (٢٣ نوفمبر ١٨٤٧) وكانت انكلترا في كل مكان بحري تعاند فرنسا وهي التي أثارت عليها تايتي ثم هي التي دفعت مراكش الى محاربتها مع عبد القادر وعليه فموالاة فرنسا لهذه الدولة كانت لا تفيدها شيئاً وإنما كان يؤيدها الحكام بدعوى أنها تؤيد السلام.

ومع ذلك فقد حدثت حادثة غيرت وجهة السياسة الفرنسوية فإن الوزارة تعجلت في تزويج الدوق دي مونبانسيه بشقيقة ملكة اسبانيا (أكتوبر ١٨٤٠) وكانت انكلترا تريد أن تزوج بها البرنس دي كوبور على أمل أن يقع له التاج يوماً فيعظم نفوذها في تلك المملكة فلما رأت أن فرنسا سبقتها الى ذلك تباعدت عنها فخافت هذه شر العزلة وتقربت من النمسا وضحت في سبيل ذلك نفوذها في سويسرا وايطاليا وصبرت على افتراس النمسا لولاية كراكونيا وكانت آخر قطعة سلمت من بولونيا.

أما في إيطاليا فان النمسويين احتلوا فرار على ضفة البو فاحتج البابا ولكن فرنسا خذلته (١٨٤٧) وحدث أيضاً أن الحامية الألمانية سفكت دماء كثيرين في ميلانو (فبراير ١٨٤٨) فلم تنجدهم فرنسا بأكثر من الاستعطاف على المنكوبين.

وأما في سويسرا فإن حزب الأحرار أراد أن يزيد قوة الحكومة العامة المركزية وكان ذلك في مصلحة فرنسا لأنها كانت تزيد أمناً على تخمها المجاور لهذه الجمهورية بقدر ما تقوي حكومتها وتتوحد السلطة فيها غير أن كيزو جهل مصلحة بلاده وانتصر لسبع عمالات يقطنها الكاثوليك كانت قد أبت الدخول في الاصلاح غير أن الأحرار حاربوا أهلها تسعة أيام ثم فازوا عليهم وطردوا الجزويت محركيهم (نوفمبر ١٨٤٧).

ذلك ما كانت عليه حال فرنسا في الخارج ولكنها في الداخل كانت أفضل كثيراً فإن الصناعة والتجارة كانتا في اتساع والثروة في ازدياد. وكانت السكك الحديدية تمدّ والطرق تصلح والموانيء تنار وقانون العقوبات يلطف وكانت الوزارة إذا سئلت عن خطأ ركبته في الخارج أجابت بوصف ما تمّ في عهدها من التقدم الداخلي وفي

سنة ١٨٤٦ بلغ احتيال الحكومة في الأنتخابات العامة مبلغاً دل على الفساد الذي تطرق الى أكثر المنتخبين من حيث كانوا يبيعون اقتراعهم للنواب وهؤلاء يبيعونه للوزراء فنتج من ذلك أن المنتخبين كانوا كأنهم يرسلون الى دار الندوة جيشاً من خدمة الحكومة لا نواباً عن الأمة واستمرت الوزارة على شكلها السابق تدير الأمور مع أنها كانت مرذولة ممقوتة . واعتدّ رجالها بقوة أكثريتهم فقل اعتدادهم بالمعارضين وكانوا لا يجيبونهم الى طلب يذكر.

انكلترا وحرية المتاجرة والضريبة على الايراد والنظام الاستعماري الجديد (١٨٤١ — ١٨٤٩)

كان السير روبرت بيل رئيس الوزارة الانكليزية المحافظة ولم يستطع تثبيت قدمها في مركزها (١٨٤١ — ١٨٤٦) ألا يجعل سياستها الداخلية أنزع الى الإصلاح من سياسة خصومه الأحرار فكان يقاتلهم بنفس سلاحهم . وأعظم أعماله المشكورة أنه ألغى القوانين التي كانت تحظر دخول الغلال وتوجب غلاءها في انكلترا وكذلك القوانين التي كانت تزيد العوائد على الواردات الأجنبية وتعوق حرية الإتجار بها وأعاد الضريبة على الإيراد فكانت تستورد منها الخزينة نحو مئة مليون ونقض شرط الملاحة الواضع له كرومويل لانقطاع فائدته في تلك الأيام . ثم توّج مآثره بالعدول عن الخطة الاستعمارية التي كانت أوروبا كلها تجري عليها وكانت سبب انتقاض أمريكا الشمالية على انكلترا وأمريكا الجنوبية على اسبانيا والبرتغال وكندا ولويزانا على فرنسا فمنع السيادة المطلقة لبريطانيا العظمى على أملاكها الخارجية وأعطى كل مستعمرة حرية إدارة شؤونها على يد مجلس شورى تنتخبه وحاكم مراقب منفذ من قبل الحكومة الانكليزية . إلا أنه استثنى الهند والمراكز الحربية كجبل طارق ومالطة وما شاكلها . ولم تلبث انكلترا أن جنت ثمرة هذه الإصلاحات فإن تجارتها تضاعفت من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٤٩ وإيراداتها زادت بما ينيف على ٥٠ مليون جنيه في حين أن سائر الدول كانت تجد العجز في ميزانياتها . وإنما نجت بريطانيا العظمى من توالي الثورات فيها كما كان يحدث في جوارها لأن حكومتها كانت تقدم النظر في

حاجات الشعب فتقضيها له قبل أن يحمل السلاح ليطالب بها ومن هذا القبيل وضعها ضريبة الإيراد في سنة ١٨٤١ لتعفي الغلال واللحم والجعة وسائر الحاجيات من رسوم المكس والجمرك ثم إعلانها حرية الإتجار في سنة ١٨٤٦ لتزيد رفاهة الشعب وتوسع عليه أبواب المكاسب.

النظام الدستوري في بروسيا (١٨٤٧—

إنّ الجرائد كانت تنشر الأفكار الحرة في كل مكان وتستثير الخواطر وحدث في سنة ١٨٤٥ أن ولايات سيلازيا وغرندوقية بوزن وبروسيا الملكية طالبت بحرية الصحف ونشر المناقشات بأنواعها وتعديل قانون العقوبات على مبادىء القضاء الفرنسوي فرفض الملك كل هذه الاقتراحات وكان يقول لا يفصلني شيء عن مباشرة أمور شعبي غير انه اضطر بعد ذلك بسنتين أن يعدل عن هذه الخطة وعقد جمعية عامة دعا اليها مندوبين من جميع بلاده على سبيل الاستشارة فقررت أن يكون لها حق مراجعة الحسابات السنوية المتعلقة بالدين العام وحق التناقش في جميع القوانين العامة ومنها قوانين الضرائب وانه لا يجوز لجمعية أو لجنة أخرى ولو كانت منتخبة من بين أعضائها أن تقوم مقامها في أعمالها وبذلك قيدت الملك ووضعت الدستور النظامي في برلين وانفردت روسيا والنمسا بالاستعصاء على الروح الجديد ومحاربته بكل ما في طاقتهما.

نهضة أقوام بطلب الحرية في النمسا وايطاليا

ما عتم الانقلاب الذي حصل في بروسيا والفشل الذي أصاب البرنس دي مترنيخ من حيث فاز الأحرار على خصومهم في سويسرا أن شدا أزر النازعين الى الحرية في النمسا فأخذ أهل ستيريا والمجر وبوهيميا يطلبون الاصلاح الدستوري ولكن البرنس مترنيخ عاقبهم بتعويله على الحزب الألماني المعادي لهم وبنزعه من بوهيميا حق الاقتراع على الضرائب.

أما في إيطاليا فقد حدثت ثورتان صغيرتان في كالابريا ١٨٤٤ وفي ريميني (١٨٤٥) فأخمدتا ثم انتشرت حرب الأقلام في طلب الاصلاح من حكومة الكنيسة وسائر

الحكومات المحلية ولما جلس بيوس التاسع على سرير البابوية سنة ١٨٤٦ نظرت اليه إيطاليا نظر المنقذ فكان عند حسن ظنها به إذ أنه شرع من فوره بالتفريج من كربة الناس فاستغنى عن حرسه السويسري وفتح السجون واستعاد المنفيين وأشرك الكهنة في تأدية الضرائب وأصلح القوانين المدنية والعقوبية وأسس جمعية أعيان استشارية ومجلساً لإدارة الحكومة وردّ الى رومة نظامها البلدي ونشر لأول مرة ميزانية حكومة الكنيسة. واقتفى إثره ملك سردينيا وغرندوق توسكانا. وفي ٥ دسمبر ١٨٤٦ أوقدت النيران من أحد طرفي جبال الابنين الى الآخر سروراً بتذكار اليوم الذي انكسر فيه النمسويون في جنوا وأخذ الشعب ينادي النداء الروماني القديم «ليطرد البرابرة».

فأسرعت وزارة الأحرار الانكليزية (١٨٤٦) وأرسلت أسطولاً الى مياه صقليا وأخذ سفيرها يطوف في ايطاليا ويشجع الشعب على طلب الدستور وكان حزب المعارضين في فرنسا يستحث البابا على الثبات في خطته ولكن الحكومة أضاعت أجمل فرصة للاتفاق مع انكلترا في هذه المسألة وتسويد نفوذ فرنسا على نفوذ دول الشمال فلم تبد حراكاً بقصد استرضاء النمسا. ولما رأت هذه الدولة ما كان. أرسلت مذكرة عنيفة الى البابا واحتلت مدينة فرا (أغسطس ١٨٤٨) فاحتج الفاتيكان بشدة على ذلك الاحتلال وعزم البابا على الاستمرار في سيره الى الأمام. وتبعته ايطاليا. فإن ليوبولد الثاني وكارلوس البيرت ملك سردينيا أجريا إصلاحات كثيرة في بلادهما ثم وقع وزراؤهما ووزراء البابا على محالفة حجتها الظاهرة توسيع نطاق الصناعة وزيادة رفاهية الشعوب الإيطالية وباطنها إجلاء النمسويين (٣ نوفمبر) ثم دعي دوق مودينا وملك الصقليتين للاشتراك في هذه المحالفة فعدت ذلك النمسا إنذاراً لها وأحلت جنودها في بارمة ومودينا (دسمبر). فعند ذلك شبت النار في جميع ايطاليا. وكان الايطاليون قبل ذلك بثلاثة أشهر قد ثاروا في ردجيو ومسينا (ستمبر) ثم في نابولي فعوقبوا ولكنهم استمروا ناهضين فامتدت حركتهم الى بارمة في ١٢ يناير ١٨٤٨. وفي ١٦ منه انتشرت في جميع الجزيرة. وفي ١٨ منه زحف عشرة آلاف من الثائرين على نابولي يطلبون دستوراً فمنحهم فردينند الثاني ما طلبوه ولكن على شكل الدستور

الفرنسوي الصادر في سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك بأربعة أيام نشر مثل هذا الدستور في فلورنسا وفي رابع مارس نشر في تورينو.

أما البلاد التي كان النمسويون محتليها فقد مقتهم الناس فيها حتى النساء والأطفال. وكان الشعب يثور عليهم في جميع لمبرديا البندقية وفي ميلانو وبافي وبادو والنمسويون يزدادون اشتداداً عليهم ويعملون في رقابهم السيف بلا فائدة ولو وافقوهم على الإصلاح لكانوا هم الفائزين.

ولما تمت ثورة فبراير الجديدة في باريس قامت ثورة مثلها بعد ١٧ يوماً في ويانة فطرد منها البرنس مترنيخ عدو التقدم وفي ٣٠ مارس لم يبق للنمسا في ايطاليا إلا بعض القلاع. ومما تقدم يرى أن ساعة انتصار الروح الحر على روح التأخر القديم كانت قد أزفت بعد أن استمر عراكهما بضع عشرات من السنين.

— ٩٦ —

امريكا من ١٨١٥ الى ١٨٤٨

لم نذكر شيئاً عن العالم الجديد في المدة التي انقضت بين سنتي ١٨١٥ و١٨٤٨ اذ لم يحدث فيه أمر ذو بال. فان امريكا الاسبانية كانت في اضطراب داخلي انتجته حيلولة الاستبداد دون تهيؤ أهلها للاستنارة من الحرية. وامريكا البرتغالية كانت تتقدم على مهل في ظل دستورها وكندا تنجح بما أطلق لها من الحرية والولايات المتحدة تخطو في سبل الحضارة خطوات الجبابرة وتباري أعاظم الدول بتجارتها ومصنوعاتها دون الادبيات والفنون الجميلة التي هي من لوازم النعمة القديمة لا المستحدثة ولم تحدث منازعات في داخلها تثبط ترقيها كما لم تقم لها في الخارج مشكلة مع دولة اوربية سوى ما سبق لنا الالماع اليه من محاربتها لانكلترا (١٨١٢—١٨١٥) وذلك لأن هذه الدولة كانت في عهد نابليون لا تكاد عمارتها تجد سفينة في بحر الا فتشتها أو أسرتها واتفق انها اعتدت على بعض مراكب الولايات المتحدة

فاستاءت حكومتها وشهرت الحرب على انكلترا ولقيت جنودها واسطولها بحراً وبراً فكسرتهم وكسروها ثم بقي الفوز للامريكيين.

وفي سنة ١٨٢١ اعترفت الولايات المتحدة باستقلال المستعمرات الاسبانية وبعث رئيسها مونروي بخطاب الى مجلس الشيوخ ذكر فيه «ان حكومته تعتبر تداخل أية دولة اوربية لاعادة النظام الاستعماري الى بقعة من بقاع امريكا بمثابة عداء توجهه الى الولايات المتحدة نفسها» وعلى هذه الخطة جرت سياسة هذه الجمهورية بعد ذلك بان لا تتداخل في شؤون العالم القديم ولا تأذن له جهدها بالتداخل في شؤون العالم الجديد وقد أيدتها في مسألة فنزويلا التي اختلفت عليها مع انكلترا منذ بضع سنين.

وفي الجملة فان نجاح هذه الجمهورية العظيم تحت راية الحرية السياسية التامة قد احدث في اوروبا تأثيراً جليلاً على الافكار وكان مؤيداً لمذهب أعداء الاستبداد ومرغباً في مبادىء الاحرار.

— ٩٧ —

ثورة ١٨٤٨

بعد انتصار الاحرار في سويسرا والحزب الدستوري في بروسيا ووقوع الفتن في المانيا والنمسا طلبا للحرية ونهوض ايطاليا على رجاء طرد الأجانب والفوز بالاستقلال اشتدت عزائم المعارضين في فرنسا فاتحد تييرس واوديليون كما اتحد حزباهما على اخراج الوزارة أو تمنح الفرنسويين الاصلاحات التي كانوا يطلبونها لهم. فلما أبت ذلك الحكومة كعادتها اقام المعارضون سبعين مأدبة للاحتجاج عليها. ثم حدث عند افتتاح الجلسة الأولى بعد عطلة مجلس النواب ان كيزو استصدر من الملك تصريحاً في خطابه الافتتاحي بأن مئة من النواب أعداء للعرش (٢٨ دسمبر ١٨٤٧) فتلت ذلك مناقشات عنيفة مهيجة استمرت ستة أسابيع. وفي ١٨ فبراير استعد المعارضون

للاحتجاج بمأدبة أخيرة يقيمونها في القسم الثاني عشر من باريس ورأى حزب الجمهوريين أن الفرصة موافقة لهم فاستعدوا لانتهازها. وفي ٢٠ أغسطس اودع أوديليون في مكتب مجلس النواب شكاية من الوزراء فاستاءوا ومنعوا الاجتماع للمأدبة الانذارية. غير أن هذه الوزارة سقطت في مساء ٢٣ فبراير وخلفتها وزارة برئاسة تيرس ففاز المعارضون بامنيتهم ولكنهم لم يستطيعوا صدّ التيار الذي دفعوا الرأي العام فيه وحدث في المساء أن رجلاً مجهولاً أطلق عياراً نارياً على مخفر قصر الخارجية فاجابت العساكر باطلاق النار على المارّة فقتلت خمسين منهم فحمل الآخرون جثثهم وطافوا بها في المدينة وهم ينادون «لقد قتلوا اخوتنا. الانتقام الانتقام» فتسلح الجميع ودارت رحى القتال والمنازعات فأخذ القائد بوجود يستعد للدفاع غير أنه وصله في ليلة ٢٤ أمر من وزيره بأن يرتدّ بعساكره الى قصر التويلري فلم يطع هذا الأمر واستقال. وفي ظهر ذلك اليوم استقال أيضاً الملك لويس فيليب وخرج من قصره محمياً ببعض شراذم من الجنود ولم يلحق به أحد في فراره. ثم ذهب الثائرون الى مجلس النواب واقاموا فيه حكومة موقتة.

— ٩٨ —

أهم الحوادث التي جرت في فرنسا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠

الجمهورية الفرنساوية الثانية (٢٤ فبراير ١٨٤٨ — ٢ دسمبر ١٨٥١)

في ٢٤ فبراير من السنة التالية (١٨٤٨) نادت الحكومة الموقتة بالجمهورية ورضيت سائر فرنسا بما قررته باريس كعادتها. ولكن التجارة والصناعة كانتا في وقوف وكساد والمالية في انحطاط فاضطرت الحكومة أن تزيد على الضرائب أربعة رسوم غير مقررة وكان الوف من الفعلة لا قوت لهم ولا عمل فابتنت معامل وطنية لتعولهم بها غير أن تلك الجماهير التي عبثت باحلامها دسائس الاشتراكيين لم تلبث ان تسلحت وأحدثت فتنة جسيمة في باريس طالت أربعة أيام بين حزب الحكومة

وجنودها وثوار الاشتراكيين الذين كانوا يبلغون مئة ألف. وقد قتل فيها ٥٠٠٠ من الفريقين بينهم ٧ قواد ونائبان وكان بين الجرحى أربعة قواد وثلاثة نواب. وبلغ عدد الذين قبض عليهم في أثناء القتال وفيما بعده ١٢٠٠٠ نفس نفوا الى أفريقيا (يونيو ١٨٤٨).

وخرجت الجمهورية مستضعفة من هذه المعركة فاسرعت في وضع اساسات دستورها وهي توحيد السلطة الانفاذية والقاء زمامها في يد رئيس منتخب. وكان المرشحان لهذا المنصب السامي القائد كافينياك والبرنس لويس نابليون بونابرت ابن اخي الامبراطور فانتخب ثانيهما (١٠ دسمبر) بأغلبية عظيمة وكان ذلك بمثابة احتجاج من الشعب على الجمهورية اذ كان الفلاحون غير راضين عنها لما زادته عليهم من الضريبة وكان أرباب الثروة والصنائع مستائينَ منها لما جرى في عهدها من الفتنة الاشتراكية ثم لم يلبث النزاع أن وقع بين السلطتين الانفاذية والتشريعية وفي سنة ١٨٥١ طلب الرئيس الغاء قانون كان يقضي بمحو ثلاثة ملايين اسم من دفتر المنتخبين (٤ نوفمبر) فابى النواب ذلك عليه كما أبوا عليه حق استدعاء الجنود مباشرة للدفاع عن نفسه بصفته نائباً عن الأمة وكانوا بذلك ينوون له السوء غير انه كان مستظهراً بالجيش وأكثرية الشعب فما عتم أن فض الجمعية وعرض على الأمة دستورا جديداً وافقت عليه بالأغلبية وكان من مقترحاته فيه ان تجعل له الرئاسة الى عشر سنين. ولم يكن هذا الطلب الا تطرقاً الى أعظم منه ففي ٢ دسمبر من سنة ١٨٥٢ نودي به امبراطوراً ووافق على ذلك الشعب بأغلبية تربو على خمسة ملايين صوت.

الامبراطورية الثانية ١٨٥٢ — ١٨٧٠

ولقب البرنس لويس بالامبراطور نابليون الثالث فزاد معالم الاحسان والاغاثة الى ضعفيها ونشط الصناعة ووسع نطاق التجارة بالمعاهدات التي أبرمها مع الدول سنة ١٨٦٠ وملأ فرنسا بالخطوط الحديدية وأنمى المعارف وبالغ في ترقيتها ولكن الحروب التي حدثت في عهده كدرت الصفاء السائد وثبطت خطى النجاح فمنها حرب القريم ادارها لقطع طريق الاستانة على روسيا (١٨٥٤) واشتركت فيها

انكلترا . ومنها حرب ايطاليا فتحها لصدّ غارة النمسويين على وادي البو (١٨٥٩) ومنها حملات سوريا والصين وكوشنشين ومكسيك وفي الختام حرب السبعين الهائلة التي خسرت فيها فرنسا مقاطعتين و١٤ ملياراً وتحملت في نهايتها ثورة جديدة على ما سيأتي بيان ذلك كله .

— ٩٩ —

اوربا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠

ان الثورة التي قلبت حكومة فرنسا لم تلبث ان احدثت ثورات مثلها في نصف القارة الاوربية ولكن الثائرين تمادوا في غيهم فوقعوا على عكس ما أرادوا .

ففي شهر مارس ثار أهل ويانه وبرلين والمانيا والبندقية وميلانو وسلسويك وهولستين وعقبت الثورة في بافاريا استقالة ملكها وفي بارمه اعتزال دوقها .

وفي ابريل ثارت مودينا وصقليا وغرندوقية باد . وفي مايو ثارت بوزن وروميه ونابولي والمجر . وحدثت حركة جديدة في ويانه فلجأ أمبراطورها الى انسبروك . وفي يونيو ثارت بوهيميا ونخارست .

أما بلجكا والبرتغال وأسوج والدانمرك وهولنده وسويسرا وانكلترا فلم يحدث فيها ما يذكر وكان الاصلاح يجري في أكثرها على مهل .

غير أن امبراطور النمسا لم يلبث أن استعان بالقيصر فانجده بجيش دخل قسم منه نخارست ونفذ الآخر الى قلب المجر . فتخوف الشعب في النمسا والمانيا وبروسيا وعاد الامبراطور الى سريره والأمراء الجرمانيون الى أرائكهم واشتد ازر ملك بروسيا . وظن القيصر أنه بعد هذه الخدمة التي اصطنع بها جاره يجوز له قلب ظهر المجن لتركيا وطردها الى آسيا والاستيلاء على مكانها في اوربا الا أن الجنود الفرنسويين والانكليز ثم قسما من البيامنتين حالوا بحرب القريم دون تحقيق أمنيته .

وكان هذا الفوز انتقاماً لفرنسا من روسيا ثم انها انتقمت من النمسا في ايطاليا ولكن وحدة هذه البلاد كان لا بد أن تتبعها وحدة المانيا وهذا ما حاول امبراطور النمسا أن يصل اليه إذ دعا الأمراء الجرمانيين الى وضع تاج الأمبراطورية الألمانية على رأسه غير أن فرنسا هالها ما تأول اليه النمسا من ضخامة الملك فما اذا انضمت المانيا اليها فانحازت الى بروسيا وتركتها تنزع من الدانمرك احدى مقاطعاتها (حرب سلسويك) ثم تسحق جيوش النمسا في سادوا وتضم نصف المانيا اليها. وقد غلطت بذلك غلطة منكرة فانها بعد هذه الحادثة باربع سنين لقيت من بروسيا تحرشاً بها فاخذت تحاربها وهي على غير أهبة فسحقتها جيوش عدوتها وكان عدد البروسيين يزيد ضعفين أو ثلاثة أضعاف عن عدد جنودها.

والخلاصة أن تاريخ اوربا من سنة ١٨٤٨ الى ١٨٧٠ ينحصر في هذه الأمور وهي انحطاط السلطنة العثمانية وهبوط النفوذ الروسي والنمسوي وانحطاط فرنسا على أثر حرب بروسيا ونشأة دولة ايطاليا.

— ١٠٠ —

بقية تاريخ الدولة العلية والولايات التي سلخت عنها من سنة ١٧٩٢ الى سنة ١٨٩٦

السلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٨)

هو الذي وقع على معاهدة ياش كما ذكرنا وفي عهده دخل نابليون الديار المصرية ثم اخرجت جنوده منه وتولاها محمد علي باشا وجرت له حرب مع الروس والانكليز بسبب محالفته لفرنسا فدخل الاسطول البريطاني بوغاز الدردنيل فامتنع عليه فخرج محطما وذهب الى الاسكندرية فضربها وفتحها من فيه من الجنود ونفذوا الى رشيد فكسرهم فيها علي بك الشهير ثم حاصرهم محمد علي في الاسكندرية وأجلاهم عنها بعد عقد شروط بينهم وبينه. وجاء الاسطول الروسي بعد الاسطول الانكليزي فرسا

على فم بوغاز القسطنطينية ليمنع ارسال المدد الى مصر التي ذهب الانكليز اليها لاحتلالها فصادمه الاسطول العثماني وأحدث به من التلف ما اضطره الى الجلاء ودامت بعد ذلك الوقائع براً وبحراً بين الروس والعثمانيين سجالاً . وكان السلطان في خلال ذلك يعد جيشاً على الطرز الغربي الجديد ليدمر اوجاق الانكشارية فهاجوا وخلعوه وكانوا يمقتونه من أجل ما شرع فيه من الاصلاحات التي كانوا ينكرونها على كل السلاطين لتخوفهم منها على أنفسهم ورغبتهم في بقاء السلطنة على ضعفها وانحلالها ليستفيدوا أبداً من عبثهم بها .

السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ — ١٨٠٨)

لم يتول الخلافة الا سنة وقد تم في خلالها الصلح بين الدولة وروسيا بمسعى من نابليون الأول ثم رأى السلطان ان حزباً كبيراً يميل الى ارجاع السلطان مصطفى المخلوع فأنفذ اليه من قتله فقبض عليه الثائرون من أجل ذلك وخلعوه .

السلطان محمود الثاني (١٨٠٩ — ١٨٣٩)

بعد أن بويع بالخلافة باشهر قرر ديوان الشورى قتل السلطان مصطفى لدفع سبب كبير من أسباب الفتن ففعل . وصالح هذا السلطان الانكليز ثم استأنف محاربة الروس الى أن شهر نابليون عليهم الحرب فعقدوا معه معاهدة بكرش (١٨١٢) مسرعين ليجمعوا كل جموعهم ويقاوموا بها طاغية الغرب وكانت هذه المعاهدة جميلة للدولة قضت ببقاء البغدان والافلاق تابعتين لها وكذلك الصرب الا أنها جعل لها بعض الامتياز .

ثم شرع السلطان في اخماد ثورة الوهابية . وأتم ذلك بأمره محمد علي والي مصر على ما رأيناه . واستأصل الخليفة أيضاً طائفة الدره بكلر وكانوا أقوياء ممتنعين ذوي اقطاعات ثم بدأت الثورة اليونانية فشغلت الدولة زماناً وفي اثنائها عادت روسيا فعدلت مع الدولة معاهدة بكرش بما يجعل للافلاق والبغدان اميرين اهليين الى سبع سنين و يمنح الروس حرية الملاحة في البحر الأسود وسمي هذا التعديل بمعاهدة اقرمان (١٨٢٦) .

وفي خلال حرب اليونان أيضاً دمر السلطان الانكشارية حتى أفناهم واستراحت الدولة من شرورهم . وفي سنة ١٨٢٨ رأت روسيا ضعف الدولة على أثر تنكيلها بالانكشارية دون أن تكون قد استعاضت عنهم بجيش أفضل منهم فتمحلت سبباً لإعلان الحرب عليها وذلك أن السلطان أبى بعد موقعة نافارين أن يقرَّ باستقلال اليونان فتقدم الروس حتى خيف منهم على الآستانة وعند ذلك تداخلت الدول في عقد الصلح (١٨٢٩) فكانت أهم مشتملاته جعل نهر بيروت حداً فاصلاً بين السلطنتين ومنح روسيا حرية الملاحة في البحرين الأسود والمتوسط والتنازل لها عن مصابّ الطونه وبوتي والجزء الأعلى من مصب نهر خور بآسيا واستقلال الافلاق والبغدان وبقاء الصرب على ما كانت عليه بموجب معاهدة أقرمان ودفع غرامة حربية وعوض للتجار الروس واعتراف الباب العالي باستقلال بلاد اليونان وكان الفاصل لها عن الدولة العلية خط وهمي يمتد من ارطى الى فولو وكانت من مشتملاتها جزائر سقلادة ونغربنطس وموره .

وفي سنة ١٨٣٠ شرع الفرنسويون في فتح الجزائر فلم يقو السلطان على مدافعتهم .

وفي سنة ١٨٣١ سارت جيوش محمد علي باشا بقيادة نجله ابرهيم لفتح الشام وكسرت عساكر الدولة ثم عقدت معاهدة هنكار اسكله سي بتوسط روسيا على ما مر بيانه وبعد ذلك استؤنف القتال وجرت موقعة نزيب الشهيرة بجوار حلب وقبل أن يرد نبأها الى الاستانة كان السلطان قد توفاه الله مأسوفاً عليه لكثرة ما أصلح وجاهد وتعب في رتق الفتوق الكثيرة التي كانت تضعف السلطنة .

السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ — ١٨٦١)

لما بويع بالخلافة بلغه نبأ انتصار ابرهيم باشا فاجتهد في حل المسألة المصرية وعقد لذلك مؤتمراً في الاستانة تقرر فيه أن لا تكون لمحمد علي باشا الا بلاد مصر وأنفذ هذا القرار في سنة ١٨٤٠ وفي السنة التالية عقدت معاهدة البواغيز التي تقرر فيها أن

لا يجوز لدولة امرار سفنها الحربية من بوغازي البسفور والدردنيل. وبعد ذلك صدر فرمان الوراثة لبيت محمد علي باشا ومنح الاستقلال الاداري للقطر المصري.

ولما فرغ السلطان من هذه الأعمال أصدر خط الكلخانة وشرع في تعميم المعارف والاصلاح الاداري والمالي والعسكري فاضطربت لذلك روسيا وخافت من ترقي الأمة العثمانية فانتهزت فرصة خلاف وقع في القدس بين الطائفتين اللاتينية والارثوذكسية وشهرت الحرب على الدولة العلية فكانت أشهر وقائعها واقعة سينوب البحرية التي دارت دائرتها على الاسطول التركي مع ما أبلى جنوده من البلاء الحسن. ثم تداخلت فرنسا وانكلترا في الأمر لكف روسيا عن مطامعها واتحدتا مع الدولة العلية وجرت حرب القريم وحصار سبستبول الشهير الذي فاز فيه المتحالفون كما ذكرناه وفي سنة ١٨٥٦ عقدت معاهدة باريس وتقرر فيها أن للدولة العلية حق الفصل المطلق في خصوماتها الداخلية كسائر الدول وأن لا يجوز الا للسفن العثمانية والروسية النفوذ في البحر الأسود وأن يقام مجلس مختلط لتأمين السفن التجارية في الطونه وأن تستقل ايالات الافلاق والبغدان والصرب داخلياً وتشترك الدول الموقعة على هذه المعاهدة في انتخاب امرائها.

ثم حدثت فتن عظيمة في بوسنه وهرسك وكريد أخمدها رجال الدولة العظام المشاهير بحسن سياستهم ودهائهم وأولهم الصدر رشيد باشا الذي توفي في بدء هذه الحوادث ثم عالي باشا الذي خلفه وفؤاد باشا ناظر الخارجية. وفي سنة ١٨٦٠ حدثت الفتنة المشهورة في الشام بين الدروز والمسيحيين واشترك فيها والي دمشق وجمهور من الحكام فاخمدها فؤاد باشا وأعانته على ذلك دولة فرنسا باحتلالها البلاد الى سنة ١٨٦١. ثم قررت الدول منح امتياز استقلالي لجبل لبنان ونصب وال مسيحي عليه.

السلطان عبد العزيز (١٨٦١ — ١٨٧٦)

كان أول شروعه في الاصلاح أن شكل مجلس شورى الدولة وديوان الاحكام العدلية وأصدر نظاماً سنتي ١٢٨١ و١٢٨٧ ثم أصلح المالية والعسكرية والبحرية

وألف فرقة من أولاد امراء العشائر بازيائهم المعتادة وجدد الأسلحة والمدافع والذخائر. ثم أقام معرضاً جميلاً في الاستانة وزار الاسكندرية والقاهرة فقوبل بالتهليل والتعظيم اللائقين بمقامه السامي ولا سيا وان الرعية كانت قد اعتادت ان لا ترى سلطانها. وبعد ذلك حدثت فتنة الجبل الاسود واشتدت الى أن انتهت باستقلال الجبل المذكور (١٨٦٤) ثم تحركت بلاد الصرب فتنازلت لها الدولة العلية عما كان باقياً لها من القلاع والمراكز فيها (١٨٦٧) ثم ضمت الافلاق والبغدان الى مملكة سميت بمملكة رومانيا (١٨٦٥) وكل هذه الانقلابات رضيت بها السلطنة عملاً بما أرادته الدول التي كان يزداد تداخلها في شؤونها يوماً بعد يوم. وفي سنة ١٨٦٦ ثار أهل جزيرة كريد بايعاز من روسيا فلم توافق الدول على انفصالهم عن السلطنة وانضمامهم الى مملكة اليونان فقمعت ثورتهم ومنحوا بعض الامتيازات على ما تقرر في مؤتمر عقد في باريس (١٨٦٩) وفي سنة ١٨٧٠ بعث السلطان البعوث لاخماد ثورة استفحلت في جزيرة العرب فكأنما فتحتها جنوده فتحاً جديداً لكثرة ما عانت من المشاق. ومما يذكر لعبد العزيز زيارته لمعرض باريس وعواصم اوربا ورغبته الصحيحة في الاصلاح ولا سيا على أثر عودته الا أنه لم يوفق في انفاذ كثير منها. وفي سنة ١٨٦٦ استصدر اسمعيل باشا والي مصر فرماناً نال به لقب خديو وحق ايراث منصبه لذريته ثم استمنح امتيازات اخرى كبيرة جمعت كلها في فرمان سنة ١٨٩٠. وكانت الدولة العلية قد عارضت في فتح ترعة السويس الى سنة ١٨٦٦ ثم صدرت ارادة سنية لاسمعيل باشا بالموافقة عليه ولما تم زار اسمعيل عواصم اوربا ودعا أكابر الملوك لحضور الافتتاح فاتوا القاهرة وجرت تلك الحفلة الباهرة في ١٧ ستمبر من سنة ١٨٦٩.

وفي سنة ١٨٦٦ توفي الصدر عالي باشا فأخذت احوال الدولة تتضعضع في الداخل لخروج جمهور من أعاظم الرجال على السلطان وكانوا مغضبين منه حانقين عليه كل لسبب فهاجروا الى اوربا وأخذوا يستثيرون الرأي العام عليه. وقامت في تلك الأثناء فتنة ولايتي بوسنه وهرسك (١٨٧٥) فاطفئت ثم فتنة البلغار (١٨٧٦) فاستفحلت وحدثت فيها فظائع عظيمة وارتفع صوت غلادستون في الطعن على

السلطان فاراد أن يتدارك الأمر قبل استفحاله فمنح الولايات التي ثارت بعض الامتيازات فلم ترض بها بل أرادت انجلاء الجنود العثمانية عنها كما حصل ذلك قبلاً للصرب والجبل الأسود. وكانت الأحكام في الاستانة وغيرها قد ساءت كثيراً فتحزب الصفطاء وجمهور من أهل العاصمة وأيدهم جماعة من الحكام وأفتى لهم شيخ الاسلام فحوصر قصر السلطان بالجنود وخلع (٢٨ مايو ١٨٧٦) ثم قتل بعد أربعة أيام.

السلطان مراد الخامس ١٥٧٦

بعد أن تبوأ السرير اشتدت الفتنة في بوسنه والهرسك والبلغار وثار أهل الصرب والجبل الأسود ثانية فجهز السلطان الجيوش وكان منها جيش مصري بعثه اسمعيل باشا وأنفذها لاخماد تلك الثورات فانتصرت في كل جانب الا ر. الجبل الأسود لوعورة المسالك ومنازلة العصاة لهم بدون انتظام وفي خلال هذه الحوادث جنّ السلطان مراد وقال الاطباء ان علته لا يرجى شفاؤها فبويع أخوه جلالة السلطان عبد الحميد الثاني (٣٠ أغسطس ١٨٧٦)

جلالة السلطان عبد الحميد الثاني

تبوأ التخت في يوم الخميس ٣١ مارس من السنة المذكورة آنفاً وأقرّ وزراءه وأصدر فرماناً بما في نيته من اصلاح امور الدولة. ثم أمر بارسال الجنود الى حدود الصرب والجبل الأسود وبوسنه وهرسك لاخماد الثورة فانتصرت على العصاة في كل مكان فتوسطت الدول في عقد هدنة لوضع شرائط الصلح. وفي أثناء المداولات استقال الصدر الأعظم فاستخلف بمدحت باشا وأصدر جلالة السلطان القانون الاساسي ووضع مجلساً للشورى جامعاً للنواب عن كل الملل العثمانية ارادة تحسين شؤون السلطنة. وبعد شهرين من صدارة مدحت نفي بدسيسة روسية وخلفه أدهم باشا وارجىء عقد مجلس الشورى الى أجل غير مسمى ولما كان السفراء في حين اجتماعهم لتقرير شروط الصلح مع الولايات الثائرة لم يقبلوا اشتراك مندوب عثماني معهم بل وضعوا اللائحة ثم عرضوها للموافقة عليها استخفافاً بالدولة رفضها الباب

العالي وكذلك أباها مجلس الشورى في جمعية عامة له فساقت روسيا ٢٥٠٠٠٠ مقاتل الى الحدود التي بينها وبين الدولة العلية و١٥٠٠٠٠ الى حدود الأناضول وفي خلال ذلك أصدرت لائحة تعرف بالبروتوكيل سألت فيها الدول التي اشتركت في مؤتمر الأستانة أن تكلف الباب العالي باسترجاع الجنود من مواقف القتال وترك السلاح والأهبة الحربية وتحسين أحوال الولايات الثائرة تحت مراقبة السفراء فرفض الباب العالي هذه اللائحة الجديدة المجحفة بحقوقه وأعلنت الحرب. وكان للدولة العلية اسطولان في البحر الأسود فاستولت بهما على بعض الموانى والقلاع وقطعت الطريق على السفائن الروسية. وكان لها اسطول في نهر الطونه لم يلبث الاعداء أن ضيقوا عليه مذاهبه بما وضعوه من عراقيل النساف في طرقه وكان لها اسطول في البحر المتوسط صحب الجيش المصري الذي أرسل لمساعدتها وكان يسكن الجزر والشواطىء التي استعد أهلها للثورات. هذا من حيث ما جرى في البحر وأما وقائع البر فهي التي كان لها الشأن العظيم ولذلك نبسط فيها الكلام قليلا فنقول قد علمنا عدة الجنود التي جهزتها روسيا في بادىء الأمر وأما الدولة العلية فحشدت جيوشها وجعلت مختار باشا قائداً عاماً لجنودها في أرضروم والمشير عبد الكريم نادر باشا قائدا عاما في الروم ايلي والمشير درويش باشا قائداً في باطوم وعثمان باشا قائداً في ودين.

وفي ٢٥ ابريل من سنة ١٨٧٧ تحركت عساكر الروس متقدمة ودخلت الحدود العثمانية مستعينة بالميرة والذخيرة اللتين كانت رومانيا تقدمها لها سراً قبيل أن تجاهر بالعداء لمتبوعتها السلطنة العثمانية. وفي ٢٧ يونيه من السنة المذكورة كانت مقاتلة الاعداء قد جازت ولايتي افلاق وبغدان وعبرت نهر الطونه وعبد الكريم باشا لا يبدي حراكاً للدفاع ولذلك عزل ونصب محمد علي باشا والي مصر في منصبه. ثم سارت جنود الروس نحو البلقان واستولت على مضايقه ومواقع أخرى فيه واحتل جانب منها مدينة نيكوبولي فلما رأى عثمان باشا ذلك اتخذ بلونه حصنا له وهي مركز في ملتقى الطرق بين سواحل الطونه ومضايق جبال البلقان فهاجمه الاعداء مرتين وكانوا أكثر عدداً من جنوده فعادوا خائبين. وعند ذلك ورد مدد من العساكر العثمانية فأضيف الى الجيش وقسم الى ثلاثة اقسام أحدها بقي في بلونه تحت قيادة

عثمان باشا والآخر انتصر على جيش للروس باسكي زغرد والثالث كان يقوده محمد علي باشا دحر الأعداء في موقعة صاري نصو حار فأصبح مركزهم في أشد الحرج وعند ذلك بعثت رومانيا بمئة ألف مقاتل لانجاد الروس فعبروا الطونه وقدم القيصر بنفسه الى ساحة القتال فاستؤنف العراك وعلت كلمة الروس وتقهقرت جنودنا الى وارنه وفي ٢٤ أكتوبر حوصرت وارنه حصاراً شديداً الى أن عض الجوع حاميتها بنابه فأخرجها عثمان باشا الى النصر أو القبر وكان المحاصرون ثلاثة أضعافها فغلبوها وجرح عثمان باشا وسلم سيفه فرده اليه القيصر اعجاباً منه بشجاعته. أما الحوادث التي جرت في خلال ذلك في الأناضول فلم تكن أقل أهمية من التي ذكرناها وهي أن الجنود الروسية كانت قد استولت على مدينة اردهان (١٧ مايو ١٨٧٧) وحاصرت قارص وأخذت تهدد ارضروم ثم استولت على مدينة بايزيد (٢٠ ابريل) وكسرت جنودنا في موقعة درام ضاغ (١٠ يونيه) فاحتل مختار باشا مرتفعات زوين ودحر فيها الروس دحرا شديداً في ٢٦ يونيه فرفعوا الحصار عن قارص وتقهقروا وتعقبهم مختار باشا فانتصر عليهم نصرات باهرة في عدة مواقع أشهرها موقعة كدكلر التي لقب على أثرها بالغازي وبعد ذلك وردت النجدات الى الروس فقاوموا مختار باشا ثم ردوه ناكصاً على أعقابه وحاصروا قارص حصاراً شديداً الى أن استولوا عليها عنوة (١٨ نوفمبر) فهرع مختار باشا الى مدينة أرضروم وضم اشتات الجيش وأقام الحصون والمعاقل بسرعة عجيبة واستمر في مركزه مدافعاً للروس الى نهاية الحرب وكان ذلك من أجل الأعمال العسكرية ولم يكتف الروس بما نالوه من النصرات بل خافوا أن ينقطعوا عن القتال مدة الشتاء فتجدد الدولة العلية بعض قواها المفقودة وتخمد بعض الثورات القائمة على ساق وقدم في افلاق وبغدان والصرب والجبل الأسود فاستمروا يسيرون الى الأمام وجازوا جبال البلقان بين الثلوج المتراكمة الى أن استولوا على صوفية بعد قتال (٤ يناير ١٨٧٨) وعلى شبقه (٩ يناير) ثم قاتلوا جيش سليمان باشا الذي أبلى بلاء عجيباً مدة ثلاثة أيام ولكنه لم يلبث أن تقهقر الى جبال ردوب (١٩ يناير) ثم فتحوا أدرنه ودنوا من أبواب الاستانة فطلبت الدولة العلية عند ذلك هدنة للمباحثة في الصلح وفي ٣ مارس من سنة ١٨٧٨ وقعت الدولتان المتحاربتان على

معاهدة سان ستيفانو التي حالت الدول ولاسيما انكلترا دون انقاذها فاستبدلت بمعاهدة برلين الشهيرة (١٣ يونيه ١٨٧٨) وأهم مشتملاتها تقسيم البلغار الى قسمين أحدهما وهو الشمالي تكون منه امارة البلغار المستقلة تحت سيادة الباب العالي والثاني وهو الجنوبي يدعى ببلاد الروم ايلي ويكون تابعاً للدولة العلية وله شيء من الامتياز وأن تكون الملاحة في الطونه جائزة لمن يشاء وأن تستقل رومانيا سياسياً وتمنح مقاطعة دوبروبجه وأن تستقل الصرب تماماً وتمنح اقليم نيش وتستقل امارة الجبل الأسود وتمنح فرضة انتيفاري وثلث الأراضي التي أعطيتها بمقتضى معاهدة سان ستيفانو الملغاة وتعطى روسيا بسارابيا ويضم الى أملاكها بآسيا مدن قارص واردهان وباطوم. وما بقي لتركيا من الاملاك بآسيا تعهدت انكلترا بحمايته في نظير تنازل السلطنة لها عن جزيرة قبرص بمقتضى معاهدة دفاعية عقدت في تلك السنة نفسها بين الدولتين. وجعلت الغرامة ٢٤٥٢١٧٣٩١ ليرة عثمانية ومنحت دولة ايران اقليم قطور والنمسا فرضة اسبيزا واجيز لها احلال عساكرها في بوسنه وهرسك الى أجل غير مسمى لتقيم فيهما الاصلاحات ومما قضت به هذه المعاهدة أيضاً قبول شهادة جميع العثمانيين أمام المحاكم واجراء النظام الأساسي الموضوع سنة ١٨٦٨ لكريد وادخال اصلاحات جمة من قبيل هذا النظام على الممالك العثمانية كلها وخصوصاً الأقاليم التي يسكنها الأرمن حيث تعهدت الدولة بحمايتهم من الجركس والاكراد وأن تبلغ دول اوربا آناً بعد آن عما تنفذه من هذه التحسينات الداخلية.

وعلى الجملة فقد جاءت هذه المعاهدة في نهاية الإجحاف بحقوق الدولة العلية ولم تمض على نفوذها إلا أشهر حتى حدثت فتنة كريد التي أفضت الى عقد معاهدة هلبية (٢٥ أكتوبر ١٨٧٨) وتحركت دولة اليونان وإمارة الجبل الأسود تطالبان بما منحها مؤتمر برلين من البلاد فأجابتها السلطنة الى ذلك بعد مداولات طويلة.

وعلى أثر ذلك خرج الألبانيون على الدولة فأرسل اليهم درويش باشا فتغلب عليهم (٤ مايو ١٨٨١) ولكنهم لم يدخلوا في الطاعة على ما يجب. وفي ٢٩ يونيه من سنة ١٨٨١ حكم بالقتل على مدحت باشا وثمانية من ذوي المناصب العالية بدعوى أنهم قتلة السلطان عبد العزيز ثم حولت عقوبتهم الى النفي. وفي خلال سنتي ٨١

و ٨٢ احتج الباب العالي على احتلال فرنسا لتونس وانكلترا لمصر ومن ذلك الوقت أخذ يتقرب من المانيا استنصاراً بها واستعان بضباطها لتجديد نظامات الدولة العسكرية . وفي غرة يوليو من سنة ١٨٠٠ حمل اسكندر باتنبرج الذي كان قد جعل أميراً على البلغار مجلس نواب الإمارة المذكورة على منحه قوة تشريعية شبيهة بالمطلقة الى سبع سنوات . وفي سنة ١٨٨٩ فتح الخط الحديد الذي يصل الآستانة بالبلاد الأوروبية ومنحت بعد ذلك امتيازات ميناء بيروت وبعض الخطوط الحديدية الأخرى المعروفة في الولايات . وزيد عدد المدارس التي أقيمت في جميع الجهات وفي سنة ١٨٩٠ حدثت المذابح الأرمنية الأولى في ولايات أرضروم وبتليس ووان وبايزيد وغيرها ثم تجددت في ولاية موشي فنشأ عن ذلك أن الأرمن المقيمين في الآستانة اجتمعوا في كنيستهم وسألوا بطريقهم آشقيان أن يرفع عريضة من قبلهم الى السلطان يطلب عدة من الاصلاحات فأبى فضربوه وجرحوه . وعلى أثر ذلك استقال من منصبه غير ان الباب العالي لم يلبث أن أجاب الأرمن الى بعض مقترحاتهم وفي شهر دسمبر من السنة المذكورة عين جواد باشا صدراً أعظم مكان كامل باشا .

وفي ٩ أكتوبر من سنة ١٨٩٥ تجددت المذابح الأرمنية في جميع الولايات التي وجدوا فيها فعظم شأنها في الدنيا بأسرها ونجمت عنها سلسلة مشاكل انتهت حين صدور الإرادة السنية بالاصلاحات الجديدة التي قررها السفراء وأراد السلطان تعميمها في جميع الولايات على السواء وفي خلال سنة ١٨٩٦ كانت أنباء الثورات والعصيان ترد من بلاد الأناضول والأرمن وحوران بالشام ولا تزال كذلك الى اليوم .

المملكة الرومانية

بعد أن جعلت بغدان وافلاق ولايتين مستقلتين أحبتا الانضمام إحداهما الى الأخرى وكان أول مسعاهما في سبيل ذلك أن انتخبتا أميراً واحداً للولايتين يدعى كوزا فحاول أن يستبد فعزل ونصب مكانه كارلوس لويس هوهنزولون البروسي تحت

اسم كارلوس الأول وقد رأينا ما كان من مساعدة رومانيا لروسيا في محاربتها الأخيرة للدولة العلية واعتراف الدول باستقلالها رسمياً في مؤتمر برلين أما حوادثها الداخلية المهمة من ذلك العهد الى غاية سنة ٩٦ فأهمها ثورة الفلاحين (١٨٨٨) وتعديل القانون العقاري بسببها.

الصرب

علمنا أن الصرب حاربوا الدولة العلية سنة ١٨٧٦ في خلال ثورة بوسنة والهرسك وارتدوا خائبين فلما دنت الحرب الروسية العثمانية من أواخرها أعلنوا الحرب ثانية على الدولة العلية فأصابهم من أجل ذلك نصيب جميل في مؤتمر برلين وهو اعتراف الدول باستقلالهم وإضافة أرض واسعة الى بلادهم. وفي شهر مارس من سنة ١٨٨٢ قرر مجلس نواب الصرب أن يلقب الأمير ملكاً فدعي ميلان الأول وظل الى سنة ٨٩ ثم استقال على أثر تطليقه للملكة ناتالي قرينته ونصب ابنه اسكندر الأول ملكاً مكانه وأقام له ثلاثة أوصياء فأفسدوا الأحكام باستبدادهم فعزلهم الملك ذات يوم وأعلن بلوغه الرشد. وفي سنة ١٨٩٤ خاف اسكندر خروج الشعب عليه لخلعه فاستبدل دستور سنة ١٨٨٨ بدستور سنة ١٨٦٩. ومن أهم الحوادث التي جرت في الصرب محاربتها للبلغار في سنة ١٨٨٥ وذلك أن الروم ايلي الشرقية كانت قد ثارت وطردت واليها العثماني طالبة الانضمام الى البلغار فقبل الأمير اسكندر دي باتنبرج مقترحهم واستعد لمحاربة الأتراك فحاولت الدول حسم الخلاف سلمياً فلم تستطع. وكان الملك ميلان قد جهز جيشاً ضخماً فلما رأى البلغار مشتغلين بمناجزة الدولة العلية شهر الحرب عليهم ودخل بلادهم فعند ذلك أرسل دي باتنبرج بلاغاً الى الباب العالي بأنه يجلي عساكره عن الروم ايلي الشرقية وتقدم نحو الشمال لملاقاة الصرب فدحرهم مراراً ودخل بلادهم فاتحاً مع قلة جنوده وكثرة جنودهم فتداخلت النمسا في الأمر وحملت العدوين على المهادنة ثم تصالحا. ورأى السلطان أن يحسم مسألة الروم ايلي الشرقية حسماً مريحاً للدولة فمنح أمير البلغار ولايتها الى خمس سنين ثم تجدد أو لا تجدد على ما تريده الدولة العلية ولا تزال الحال كذلك الى الآن.

إمارة الجبل الأسود

يحكم هذه الإمارة البرنس نقولا الأول الذي خلف في ١٤ أغسطس من سنة ١٨٦٠ البرنس دانيلو الأول. ويبلغ سكانها الآن نحو المليونين. وفي سنة ١٧٨٦ ثار الجبل الأسود على الدولة العلية في خلال خروج الهرسك فحاربتها حرباً شديدة مدة سنتين ثم منحت في مؤتمر برلين ما ذكرناه من الاستقلال وزيادة الأملاك.

ثورة اليونان سنة ١٨٦٢ وانتخاب جورج الأول الدانمركي عليهم (١٨٦٣)

عندما تقرر استقلال اليونان بمقتضى معاهدة ١٨٢٩ خافت الدول أن تضعف تركيا الى حدّ أن لا تقوى على مقاومة الروس إذا حاربوها فأبقت لها كريد وساموس وشيو وتساليا وأبيروس فانتظر اليونان سنوح الفرص لتحرير سائر بني جنسهم ولما تقدمت جنود الروس نحو الطونة في سنة ١٨٥٤ هموا بمساعدتهم فحالت دون ذلك فرنسا وانكلترا ثم أخذت سباستوبول وعقدت معاهدة باريس بما لم يعجبهم فاتهموا ملكهم أوتون البافاري بخور العزيمة ولم يلبثوا أن خلعوه في سنة ١٨٦٢. ثم انتخبوا بعده ولداً قاصراً للملك الدانمرك فسمي جورج الأول وفي سنة ١٨٦٣ تنازلت انكلترا لليونان عن الجزر اليونية جزاء لهم على انتمائهم الى سياستها. وفي سنة ١٨٧٧ نصحت لهم الدولة المذكورة بعدم الاشتراك مع روسيا ورومانيا وأهل الجبل الأسود والصرب في مناوأة الدولة العلية فلزموا السكينة الى أواخر الحرب ثم أرادوا الدخول ليحصلوا على قسم من الغنيمة فوعدوا بها وفي سنة ١٨٨٠ منحوا قسماً كبيراً من تساليا. وفي سنة ١٨٨٥ كادت اليونانية تشترك مع الصرب في محاربة الدولة العلية ثم منعتها من ذلك الدول بالقوة.

تجدد الثورات في جزيرة كريد (١٨٨٩—١٨٩٦)

في سنة ١٨٨٩ عاد الكريديون الى الثورة وجرت فظائع ومذابح ثم أعيدت السكينة الى الجزيرة ولم تستطع حكومة اليونان أن تنال مساعدة الدول لضمها اليها وفي ربيع سنة ١٨٩٦ ثار المسيحيون الكريديون ثانية وطلبوا الانضمام الى بلاد اليونان

فضغطت الدول على الباب العالي فمنحهم استقلالاً إدارياً تحت رئاسة والٍ مسيحي يعين بموافقة اليونان وضمانة الدول.

غير أن الثوار أصروا على اقتراحهم ورأت اليونانية أن تحتل الجزيرة ففعلت وأخذت تستعد لمحاربة الدولة العلية براً فجاءت النتيجة شؤماً عليها حيث انجلت عن كريد وفقدت قسماً من تساليا وابتليت بغرامة حربية تنوء خزائنها بحملها وأقيم فيها صندوق للدين.

إمارة البلغار

بعد دخول البلغار في محاربة الدولة العلية والصرب سنة ١٨٨٥ غضبت روسيا على أميرها اسكندر دي باتنبرج غضباً شديداً لعدم استشارته إياها واضطرته الى الاستقالة (١٨٨٦) فشرع مجلس نواب البلغار من فوره في انتخاب أمير آخر خلافاً لما أراده القائد كولبارس وكيل روسيا السياسي ولذلك لم تلبث العلائق أن قطعت بين البلادين وخيف من احتلال الروس بلاد البلغار لولا حيلولة النمسا والمانيا سراً دون ذلك. وفي سنة ١٨٨٧ انتخب البرنس فرديناند دي سكس كوبورج غوثا أميراً للبلغار فلم تعترف به الدول واحتج الباب العالي على انتخابه وكان رئيس وزراء هذا الأمير ستامبولوف الشهير بقسوته وعدائه لروسيا وقد قتل ضابطاً يدعى بانتزا لأنه كان روسي المشرب ويقال إنه كانت له يد في مقتل أحد زملائه وهو الوزير بلتشف. وفي سنة ١٨٩٣ تزوج البرنس فردينند بأميرة كاثوليكية تدعى ماري لويزا دي بوربون فزاد بذلك غضب روسيا. وفي سنة ١٨٩٤ سقطت وزارة ستامبولوف لشقاق وقع بينه وبين زملائه وخلفه ستويلوف وأخذ يتقرب من روسيا وعفا عن الذين كانوا معتقلين من أجل آرائهم السياسية وفي ٢٥ يونيو من السنة المتقدم ذكرها قتل ستامبولوف وفي سنة ١٨٩٦ نصر الأمير فردينند ولي عهده البرنس بوريس على طريقة المذهب الأرثوذكسي فاعترفت به تركيا ثم روسيا ثم سائر الدول وزار الآستانة وبطرسبورج وباريس فقوبل بترحيب وإكرام.

حرب السبعين وسائر حوادث فرنسا الى سنة ١٨٩٦

كان الجيش الفرنسوي مؤلفاً من ثمانية فيالق قوادها ماك ماهون وفروسار وبازين ولادميرو ودي فايلي وكانروبر وفليكس دواي والحرس الأمبراطوري وعدتهم نحو ٣٠٠.٠٠٠ مقاتل ولم تكن الجنود الاحتياطية مهيأة للحرب. وكانت العساكر موزعة شمالاً في التخوم البروسية والبافارية على مسيرة ٣٧ ميلاً وشرقاً على ضفة الرين المتاخمة لباد على مسافة ٤١ ميلاً وكانت تعوزها الميرة والذخيرة والكسوة وسائر الأشياء الضرورية.

وكان القواد لا يعلمون شيئاً عن العدو وهو يعلم كل شيء عنهم أما قوة الألمانيين فكانت تتألف في باديء الأمر من ثلاثة فيالق قوادها ستينمنر والبرنس فريدريك كارلوس البروسي والملك غليوم الذي كان مساعده مولتك الشهير. وعدة رجالها ٣٣٨.٠٠٠ مقاتل و ١.٧٠٠.٠٠٠ احتياطي للانجاد على مقربة منها وكانت منظمة مكفولة أحسن كفالة ولها طلائع للاستكشاف من الخيالة المهرة الباسلين. وكان تقدمها من كوبلنتس الى تريفس وسارلويس ومن مايانس غربي بافاريا الرينية ومن سبيرا طريق لاندو وبافاريا الرينية.

مواقع ساربروك وويسمبرج وورث وفورباك (٢—٤—٦ أغسطس ١٨٧٠)

انتصر الفرنسيون في مناوشة على مرتفع بين فورباك وساربروك فعظموا شأن هذا الانتصار كثيراً ولكن الألمانيين في ٤ أغسطس اتخذوا خطة الهجوم في شرقي جبال الفوج فباغتوا القائد الفرنسوي ابيل دواي في ويسمبرج وقتلوه وبددوا جنوده الذين كانوا يحاربون واحداً إزاء ثمانية. فقدم ماكماهون للانجاد وكان البروسيون قد دخلوا الألزاس فقاتلهم يوم ٦ أغسطس في ورث وفرشويلر وريشتوفن وكانت جنوده ٤٠.٠٠٠ أمام ١٦٠.٠٠٠ يقودها البرنس كارلوس فأبلوا بلاءً شهيراً ولكن ردّوا على أعقابهم مدحورين وتركوا استراسبرج بلا دفاع فكان ذلك القضاء المبرم على

الألزاس وفي اليوم نفسه كان الألمانيون قد باغتوا فيلق القائد فروسار على مرتفعات سبيكوين فمزقوه وأرجعوه الى فورباك.

سقوط وزارة أوليفيه (٩ اغسطس) وقيام وزارة باليكاو وتولي بازين القيادة العامة

لما بلغت بعض أنباء الفشل الى باريس حدث حرج ومرج ولا سيما في مجلس النواب فاستقالت وزارة أوليفيه وعهدت الأمبراطورة الى الكونت دي باليكا أن يشكل وزارة أخرى واضطر الأمبراطور لشدة ما انتقدت تدابيره الحربية أن يستقيل واستخلف بازين في القيادة العامة.

فيلق شالون

وكانت ستراسبرج قد سقطت وكان الأمبراطور وماكماهون حاشدين ١٢٠ ألف مقاتل في معسكر شالون فكان لا بد لهما من أحد أمرين إما الذهاب سريعاً الى متس لتعزيز بازين وإما الانقلاب الى باريس للدفاع عنها وبعد التردد وإضاعة الوقت تقرر السير الى متس.

تقدم ماكماهون نحو متس

وفي ٢١ أغسطس برح ماك ماهون معسكر شالون في ١٢٠ ألف مقاتل لإنجاد بازين وكان أمامه البرنس كارلوس ومعه ٧٠ ألف عسكري فلولا إبطاؤه لوصل اليه ودحره وتقدم الى متس غير أنه كان لا يجتاز إلا ثلاثة أميال كل يوم وما زال متردداً حتى أقبلت عليه طلائع من البروسيين فعدل عن المسير الى متس وأخذ يتقهقر الى سيدان ثم أصدر اليه أمر من وزير الحربية أن يسير الى متس بأسرع ما يستطيع.

وفي يوم ٣٠ أغسطس باغت الدوق دي سكس فيلق القائد دي فايلي وكان متغيباً عنه فانتصر عليه فازدحمت العساكر الفرنسوية حول سيدان خائرة من الإعياء والجوع.

موقعة سيدان واحتلالها (١ــ٢ أغسطس سنة ١٧٨٠)

وكان الجيش الفرنسوي بين البرنس كارلوس من الجنوب والغرب والدوق دي سكس من الجنوب والشرق فلا منجاة له إلا بأن يسير من الشمال الى مزيار فتباطأ القواد عن ذلك يوماً واحداً فأحدق بهم البروسيون وهم في أرض مطمئنة حولها مرتفعات فأبلى الفرنسويون أحسن بلاء ولكن بسالتهم لم تغنهم فتيلاً فسلم الأمبراطور في ٢ ستمبر وأسر البروسيون مارشالاً و٣٩ قائداً و٨٦ ألف مقاتل و١٠٠٠ حصان و٦٥٠ مدفعاً من ضروب مختلفة.

ثورة ٤ سبتمبر وقيام الجمهورية الثالثة وحكومة الدفاع عن الوطن

لما ورد الى باريس النبأ بسقوط سيدان دخل الشعب الى مجلس النواب في ٤ سبتمبر وأعلن خلع الأمبراطور وقيام الجمهورية وتولى النواب أمانويل أراغو وكراميو وجول فابر وجول فري وغمبتا وغارنيه باجيس وجلازبيزوان وأوجين بلتان وأرنست ، بيكار وهنري روشفور وجولي سيمون زمام الأحكام للدفاع عن الوطن ثم ذهب تييرس يجول في عواصم أوروبا لينال مساعدة من إحدى الدول فلم يفلح فعزم الناس على الاستبسال في باريس وأقاموا الحواجز في الطرق والشوارع وكان ٥٠٠ ألف رجل مسلحين بين جنود بحرية وبرية ومتطوعين وأديرت المعامل ليل نهار لصنع المدافع وذخر الحرب ولما وصل البروسيون الى قرب باريس كان يحتمل أن يتغلب الفرنسيون عليهم لولا أن قائدهم تروشو كان بطيء الحركة لا يعتقد نجاحاً على يد محاربين متطوعين مهما كانت بسالتهم. على أن هؤلاء المتطوعين انتصروا على أعدائهم في عدة مواقع منها فيلجويف (٢٣ ستمبر) وشفيلي (٣٠ منه) وبانيو (١٣ أكتوبر) وغيرها.

بازين بمتس

بعد موقعة فورباك اجتمعت خمسة فيالق فرنسوية حول متس وكان يجب على بازين وعلى الأمبراطور أن يتوجها نحو الغرب فلما عزما على ذلك حاول البروسيون

صدّهما فانكسروا (لونجفيل في ١٤ أغسطس) ولكنهم أخّروهما يوماً عن المسير وفي يوم ١٥ لم يأتيا حراكاً وفي السادس عشر أخذا ا بالمسير وكانا يجوزان ١٤ كيلومتراً في اليوم والأعداء يجوزون أربعين وفي السادس عشر خرج الأمبراطور من متس قاصداً شالون وكان الجيش متقهقراً الى جهة فردون فصدمه البروسيون في روزنفيل وفقد كل من الفريقين ١٧ ألف مقاتل وفي السابع عشر رجع بازين الى متس عوضاً عن مداومة القتال وفي الثامن عشر جرت موقعة غرفلوت وانقطع خط الرجعة من متس على الفرنسويين بسبب تقاعد بازين وإهماله. وفي ٢٧ قاتل بازين البروسيين ليفتح فيهم ثغرة تمكن ماك ماهون من القدوم اليه بنجدته فانتصر في تلك الموقعة وبقي عليه أن يستأنف الجلاد ليبلغ أمنيته ففعل عكس ما يجب ورجع الى متس .

تسليم متس (٢٧ أكتوبر ١٨٧٠)

وفي ٢٧ أكتوبر كانت قد اشتدت المجاعة وقلت الحيلة فسلم بازين وأسر البروسيون ثلاثة مارشالية و٦٠٠٠ ضابط و١٧٣،٠٠٠ عسكري وغنموا ١٦٦٥ مدفعاً و٢٧٨٢٨٩ بندقية وعدة من الرايات وفي ٦ أكتوبر سنة ١٨٧٣ حوكم بازين في مجلس عسكري فاتهم بالخيانة وجرد وحكم عليه بالموت (١٠ دسمبر) فعفا عنه ماك ماهون من القتل وأبدل عقوبته ففرّ من معتقله في ١٠ أغسطس سنة ١٨٧٤.

سقوط ستراسبرج وعدة حصون

ولم ينقطع القتال في داخلية فرنسا منذ يوم ٤ سبتمبر. وكانت ستراسبرج قد حوصرت في ١١ أغسطس فسقطت بعد جهد الاحتمال والمقاومة في ٢٨ سبتمبر. وقبلها أسقطت ليشتمبرج في ١٢ أغسطس وسارسال في ١٤ ومنيتري لفرنسوا في ٢٥ ولان في ٩ سبتمبر وفلسبرج في ١٢ وفردون بعد مقاومة شهيرة في ٩ نوفمبر وتول في ٢٣ وتيونفيل في ٢٥ منه. وجرت مواقع كثيرة أخرى لا محل لذكرها في هذا المختصر.

ما فعله غمبتا وذكر بلاء جيش الشمال

لما رأى غمبتا عدم كفاءة الذين تولوا الحكومة في مدينة تور للنيابة عن الحكام المحصورين في باريس ركب المنطاد في ٦ أكتوبر وذهب الى تور فجعل الشؤون الحربية في يد ضابط مقدام هو المسيو دي فريسينه ثم طاف في أرجاء فرنسا يستنهض الهمم ويلقي الخطب الحماسية فأنشأ جيوشاً كثيرة من المتطوعين وكانوا كلهم شجعاناً ولكن الشجاعة لا تغني من الميرة وذخر الحرب.

واستؤنف القتال ففاز فيه دورليل دي بالادين قائد جيش الشمال واسترجع أورليان من البروسيين بعد موقعة كولميه (٩ نوفمبر) ولكن تسليم بازين مكن من زيادة عدد الجيوش الألمانية المحاربة لجيش الشمال فبعد أن تغلب عليهم هذا الجيش مرتين تغلبوا عليه واستعادوا أورليان منه (٣ دسمبر) وجرت بعد ذلك عدة مواقع سقطت في خلالها أميان ٢٩ نوفمبر ثم مزيار في غرة يناير ١٨٧١ ثم روكروا في ٥ ثم بيرون في ١٠ وانتصر البروسيون أيضاً في معركة سان كانتين في ١٩ منه وكان يبدي الفرنسيون عجائب من البسالة فيظفرون في بعض المواقع ثم تتغلب عليهم كثرة العدد وحسن نظام العدو.

جيش الفوج وحضور غريبلدي وذكر جيش الشرق (من ٩ الى ٢٢ يناير)

كان القائد كمبريال على جيش الفوج الصغير فلما حضر غريبلدي وابناه ريسيوتي ومنوتي منح قيادة الجيوش الحرة من السين الى الفوج فطرد ابنه ريسيوتي البروسيين من شاتيليون سورسين (١٩ نوفمبر) وظهر القائد كريمر عليهم في شاتونوف وحاول غريبلدي الكبير أن يطردهم من ديجون فلم يستطع باديء بدء مع أنه فاز في بعض المواقع الصغيرة. ثم عهد الى القائد بورباكي في قطع صلات العدو وردّهم عن حصار بلفور فرقعت بينه وبينهم موقعة هائلة طالت ثلاثة أيام (١٥ — ١٨ يناير) من هريكور الى مونبليار ثم ردّ الفرنسيون على أعقابهم لشدة البرد والجوع. أما غريبلدي فإنه دفع هجمة للبروسيين على ديجون ودحرهم دحراً (٢١ — ٢٢ يناير ١٨٧١) ولكن ذلك لم يؤثر تأثيراً مفيداً على نهاية الحرب من قبيل مصلحة فرنسا.

التجاء جيش الشرق الى سويسرا وتسليم باريس وما جرى من المواقع قبل ذلك (٣٠ نوفمبر — ٢٩ يناير ١٨٧١)

في هذه الأثناء كانت باريس قد سلمت ووضعت هدنة استثني منها جيش الشرق ولم يشعر بذلك فاستمر واقفاً في مكانه والعدو يتقدم ليحصره الى أن علم بما كان ففرّ لاجئاً الى سويسرا فأكرمه أهلها كثيراً.

أما تسليم باريس فتم في ٢٩ يناير بعد أن عانى أهلها من الجوع ما لا يوصف وجاهدوا جهاداً لم يذكر مثله التاريخ فخرجوا مراراً لملاقاة العدو فنكل بهم تنكيلاً وكان القائد تروشو قد استقال من منصبه العسكري وبقي رئيساً للحكومة المؤقتة.

قيام الجمعية الوطنية في بوردو (١٣ فبراير) ثم في فرسايل وتولي تييرس رئاسة الجمهورية وذكر معاهدة فرنكفورت (١٠ مايو ١٨٧١)

اجتمعت هذه الجمعية في بوردويوم ١٣ فبراير من سنة ١٨٧١ وفي ١٧ منه اختارت المسيو تييرس رئيساً لها وفي غرة مارس كان تييرس قد أنجز البحث في مقدمات الصلح وعرضها على الجمعية فقبلتها. وفي هذه الجلسة عينها أعلنت سقوط الأمبراطورية الفرنسوية. ثم انتقلت الجمعية الى فرسايل في ٢٠ مارس وفي ١٣ أغسطس سمت تييرس رئيساً للجمهورية. وقد تضمنت معاهدة فرنكفورت أن تؤدي فرنسا للبروسيين غرامة قدرها خمسة مليارات فرنك وأن يستمر العدو محتلاً إحدى الجهات الفرنسوية الى وفاء الغرامة كلها وفضلاً عن ذلك تنازلت فرنسا للفاتح عن ولايتي الألزاس واللورين وعدة قرى فكانت مساحة البلاد التي سلخت عنها ١.٤٨٧.٣٧٤ هكتار يقطنها ١٦٢٨١١٣٢ نسمة.

يوم ١٨ مارس وقيام الكومون وضرب الطوق الثاني على باريس (أبريل ومايو ١٨٧١)

وفي غرة مارس دخل البروسيون الى العاصمة وكان أهلها في تهيج لا مزيد عليه وقد تحالفت بعض فرق من الحرس الوطني ودعيت بالفرق المتحالفة وأقامت

المتاريس في الشوارع واستولت على مصنع المدافع فأرسل اليها جيش تحت قيادة ماك ماهون فجرت مذابح فظيعة انتهت بانتصار الجيش ونفي جمهور من القائمين بهذه الثورة وعوقب جمهور بالقتل والسجن ثم عفي عنهم بعد ذلك .

عقد القرضين ونهاية الاحتلال البروسي ١٨٧١ — ١٨٧٣

في يوم ٢١ يونيو ١٨٧١ اذن للحكومة بعقد قرض قدره ثلاثة مليارات فاجتمع لديها أربعة مليارات في ست ساعات وفي ١٥ يوليو ١٨٧٢ اذن للحكومة بعقد قرض آخر قدره ثلاثة مليارات فاكتتب الناس بأربعة عشر ضعفاً لهذا المبلغ . وكان البروسيون كلما دفع قسط من الغرامة ينجلون عن قسم من الأرض التي احتلوها حتى كان أجل احتلالهم في ١٦ ستمبر ١٨٧٣ . فقل النقد في فرنسا حتى ندر وكثرت الضرائب والرسوم . وفي سنة ١٨٧٢ وضع قانون عسكري جديد أصلح من القانون السابق .

استقالة تييرس وتولي ماك ماهون رئاسة الجمهورية

بعد أن نجت فرنسا من احتلال الاعداء تقسم أهلها الى أحزاب واشتد التنازع بينهم حتى اضطر تييرس الذي كان رئيساً للجمهورية واشرف من خدم بلاده بجد واستقامة ودهاء أن يستقيل من منصبه في ٢٤ مايو ١٨٧٣ فخلفه المارشال ماك ماهون الى سبع سنين وفي ٢٥ فبراير ١٨٧٥ تقرر نهائياً ثبوت الجمهورية الفرنسوية وتأسيس مجلس النواب ومجلس الشيوخ وهيئة الحكومة على شكلها الحاضر الا تعديلاً قليلاً .

وكانت الصلات الودية تتراخى بين فرنسا وايطاليا على أثر بعض المشاحنات في مسألة البابوية واعانة فرنسا على هذا الأمر الذي كان ينفر منه الطليان . وفي ١٦ مايو ١٨٧٧ وقع خلاف بين ماك ماهون ووزرائه فاستقالوا فاتخذ وزراء غيرهم فانكرهم مجلس النواب فحلّه في ١٩ مايو . ولما انتخب مجلس النواب الجديد حصل على وزارة دستورية (١٤ دسمبر) . وفي غرة مايو ١٨٧٨ فتح معرض عام في باريس دلّ على ما لفرنسا من الحياة والثروة اللتين لم تضعفها الحوادث .

رئاسة جول غريفي ١٨٧٩

في ٥ فبراير اجتمع اعضاء مجلس الشيوخ ومجلس النواب وانتخبوا حول غريفي رئيساً للجمهورية فشرعت الحكومة في اعمال بنائية وحفرية عظيمة في فرنسا وفي مستعمراتها كان معظم الفضل فيها للوزير دي فريسينه ووضع الحد الحربي لفرنسا فبولغ في أحكام تحصينه وحسنت المعارف وعممت ووسعت المدارس ورممت وفي ١٢ مايو ١٨٨١ عقدت معاهدة بردو التي اعترف فيها باي تونس بحماية فرنسا وسيأتي بيان ما حمل على ذلك وكيف تم. وفي ٢١ مايو جرت الانتخابات العامة فكثر الجمهوريون وقلت الاحزاب الاخرى. وفي ٣٠ يناير ١٨٨٢ جعل فريسينه رئيساً للوزارة ووزيراً للخارجية فامتنع عن مشاركة الفرنسويين للانكليز في ضرب الاسكندرية واحتلال مصر وكان ذلك خطأ لا يغتفر ولا ينسى ولكنه طلب مالاً لاحتلال ترعة السويس وخفارته فأباه مجلس النواب عليه خوفاً من دسائس انكلترا وعداء المانيا التي لولا روسيا وانكلترا لحاربت فرنسا ثانية في سنة ٧٥ بحيث تهلكها الى الأبد.

وفي ٣١ دسمبر توفي غمبتا وفي ٢١ فبراير ١٨٨٣ تولى جول فري رئاسة الوزارة وكان من اعماله الشروع في فتح التونكين والتداخل في مدغسكر حربيا وفي بلاد الكونغو سلميا. على أن مسألة التونكين امتدت وادخلت فيها الصين فحوربت من أجلها وعاد ذلك بالفشل بادىء بدء على الفرنسويين فان جيش القائد نجريه فشل وجرح زعيمه فوقع هذا النبأ وقع الصاعقة في باريس. وفي مايو ١٨٨٥ توفي الشاعر الطائر الصيت السياسي العظيم الكاتب الذي لا يشق له غبار فكتور هوكو فاحتفل بدفنه في غرة يونيو احتفالاً وطنياً لم يذكر التاريخ مثله لأحد من الناس. وفي شهر اكتوبر جرت الانتخابات العامة فأصاب الجمهوريون فيها ٣٨٢ صوتاً وسواهم مئتي صوت واثنين.

الرئاسة الثانية لجول غريفي (٢٨ دسمبر ١٨٨٥)

أهم ما جرى في خلال هذه الرئاسة تولي القائد بولانجه وزارة الحربية وتظاهر

الشعب الفرنسوي بالود له وطرد المطالبين بعرش الملكية والامبراطورية من فرنسا وتنقيح القوانين العسكرية وزيادة الجيش وابتداء دعوة بولانجه السياسية ثم ظهور مسألة المتاجر بالنياشين على يد النائب ويلسن صهر رئيس الجمهورية واشتغال الشرطة والنيابة ومجلس النواب بتحقيقها واظهار مخبآتها واستقالة الوزارة واضطرار جول فري أن يستقيل على الرغم منه.

رئاسة كارنو ٣ دسمبر ١٨٨٧

لما انتخب كارنو رئيساً للجمهورية الفرنسوية اختار المسيو تيرار رئيساً للوزارة وفي عهده انقطعت المباحثة لعقد معاهدة تجارية مع ايطاليا وانتهت قضية ويلسون بحكم أصدرته محكمة الاستئناف تلوم فيه المتاجرين بمبيع الفياشين ولا تقضي بعقوبتهم لعدم وجود نص صريح في القانون يسيغ ذلك. وفي ١٤ مارس ١٨٨٨ احيل الجنرال بولانجه على الاستيداع وفي ٢٧ منه احيل على المعاش فجاز له أن ينتخب وكتب منشوراً الى أهل الشمال يطلب فيه أن يقيموه مندوباً عنهم في مجلس النواب ويقول ان خطته ستكون حل مجلس النواب وتعديل الدستور فانتخب باغلبية عظيمة وكانت له صلات سرية مع البونابرتيين فلما عرض مشروعه رفض ثم لم يلبث أن استقال من النيابة «لشدة تحامل المجلس عليه» وبارز فلوكه فجرح ثم جرت انتخابات جديدة فانتخب بولانجه في عدة مقاطعات أهمها مقاطعة السين. وفي ١٢ ابريل تقررت اقامة القضية العمومية على بولانجه وروشفور وديليون لما أتوه من الأعمال المزعجة للأمن العام ففروا من فرنسا وكان بذلك ابتداء سقوط حزب بولانجه.

وفي ٥ مايو ٨٨٩ فتح معرض باريس وكان من أجمل ما شوهد الى ذلك الوقت وفيه اقيم برج ايفل. وفي ١٤ أغسطس حكم مجلس الشيوخ على بولانجه وزميليه بالاعتقال في سجن محصن وفي ٥ أغسطس ١٨٩٠ اعترفت انكلترا لفرنسا بانتشار حمايتها على مدغسكر.

وفي غرة مايو ١٨٩١ اجتمع مندوبون من الفعلة المعدنيين الفرنسويين والانكليز

والألمانيين والبلجيكيين في بورصة العمل بباريس وقرروا استلفات حكومات بلادهم الى جعل يوم الفاعل ثماني ساعات.

وفي شهر يوليو من سنة ١٨٩١ ذهب بعض أسطول الشمال الفرنسوي لزيارة ميناء كرونستاد الروسي بناء على دعوة القيصر اسكندر الثالث فقوبل رجاله بأعظم حفاوة واكرام وكانت هذه الزيارة أساس التحالف الثنائي.

وفي ١٩ أغسطس دعت جلالة ملكة الانكليز الأسطول الفرنسوي لزيارة ميناء بورتسموث فتبودلت المظاهرات الوديّة وفي ٣٠ ستمبر توفي الجنرال بولانجه ولو كان عقله ودربته قدر نصف سعده لجرى بفرنسا الى حيث يشاء.

وفي شهر فبراير ١٨٩٢ أصدر البابا لاون الثالث عشر منشوره الشهير معترفاً بالجمهورية الفرنسوية. وفي شهر مارس نسفت بعض المنازل في باريس فقبض على رافاشول الفوضوي المشهور ورفيق له يدعى بيسكوي وحكم عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة لثبوت احدى الجنايات عليهما وفي ٣ أكتوبر ١٨٩٢ توفي العلامة الشهير الفيلسوف الكبير ارنست رينان.

وفي شهر نوفمبر جرت مناقشة في مجلس النواب في مسألة فتح ترعة بناما بأمريكا. فان الشركة التي الفها فردينان دي لبس في سنة ١٨٧٦ للقيام بهذا العمل كانت قد تناولت ١٣٢٩٦٩٣٠٧٨ فرنكاً من المكتتبينَ وانفقت منها على المشروع ٦١١٧٧٨٠٣١ فرنكاً فكان هناك فرق قدره ٧١٨ مليوناً لا يعلم أين ضلّ. وفي ٢٠ نوفمبر توفي البارون دي ريناك الذي كان أطول الشركاء باعاً في هذه الاختلاسات هو وكرنيليوس هرتش وارتون. وفي ١٦ دسمبر قبض على شارل دي لسبس وفونتان وسان لروا فسجنوا احتياطياً ثم لحق بهم كوتو ثم أذن مجلس النواب بمحاكمة عشرة من أعضائه لدخولهم في التهمة.

ثم قبض على آخرين وجرت المحاكمة الأولى لدى محكمة باريس الاستئنافية فحكم على فردينان وشارل دي لسبس بالسجن خمس سنين وبثلاثة آلاف فرنك

غرامة وعلى ماريوس فونتان وكوثو بالسجن سنتين وغرامة كالأولى وعلى ايفل بالسجن سنتين وعشرين الف فرنك غرامة (٩ فبراير)

ولم تقم القضية على سائر المتهمين لعدم وجود وجه قانوني يسوغ اقامتها.

وفي ٧ مارس ١٨٩٣ جرت المحاكمة الثانية لجماعة من البناميين فبريء بعضهم وحكم على شارل دي لسبس بالسجن سنة وعلى بايهو بالتجريد من حقوقه الوطنية وبالسجن ٥ سنين وبغرامة ٧٥٠٠٠٠ فرنك وعلى بلوندين بالسجن سنتين وجعل هؤلاء الثلاثة متضامنين في رد ٣٧٥٠٠٠ فرنك الى مصفي شركة بناما.

وفي ١٧ مارس توفي جول فري وكان قد انتخب حديثاً رئيساً لمجلس الشيوخ فخلفه شالمل لاكور.

وفي ٩ فبراير نظرت محكمة النقض والابرام في حكم القضية البنامية الأولى فكسرته بسبب مضي المدة منذ الوقت الذي جرت فيه الحوادث المطلوبة المعاقبة لأجلها.

وفي ١٣ أكتوبر رد البحارة الروسيون الزيارة لفرنسا فقوبلوا بأعظم اكرام. وفي ١٤ و١٥ تجددت حوادث النسف وفي ١ دسمبر أطلق فليان الفوضوي قنبلته في مجلس النواب وهو مجتمع فجرح أكثر من ستين نفساً من الحضور بين اعضاء ومشاهدين وجرح هو نفسه وعلى أثر هذه الحادثة الفظيعة عدل قانون المطبوعات بما يمنع رسائل التهييج أو يخففها. ثم حوكم فاليان وقتل وتعدد بعده النسف مع اشتداد الحكومة على هذه الطائفة الخبيثة. وفي هذه الأثناء ردت مبالغ الى تصفية شركة بناما وتقررت محاكمة هرتس الذي كان لاجئاً الى انكلترا.

وفي ٢٨ ابريل فتح معرض عام في ليون نجح نجاحاً عظيماً وفي ٢٣ يونيو قدم الرئيس كارنو الى هذه المدينة لزيارة معرضها فقوبل بترحيب عظيم وفي يوم الأحد (٢٤) أدبت للرئيس مأدبة فاخرة فالقى فيها خطبة من أجل الخطب ملأت القلوب سروراً ثم ركب مركبته محفوفاً بحرسه ورجال معيته ليذهب الى الملعب الأكبر وكان

الزحام في طريقه شديداً جداً فلما وصل الى شارع الجمهورية تقدم شاب يحمل بيده شيئاً كالقرطاس المطوي وصعد منكمشاً على درجة المركبة وطعن كارنو بخنجر فقبض على الجاني يكاد الجمهور يمزقه لولا الجنود ونقل الجريح الى دار المحافظة فلم ينفعه علاج فقضى نحبه ليلاً وفقدته فرنسا وبكاه العالم أجمع لرجحان عقله وكمال آدابه واعتدال سيرته وكان القاتل اجير خباز ايطالياً يدعى كازيريو جيوفاني سانتو في الثانية والعشرين من العمر أتى فعلته انفاذاً لغرض فوضوي ولا حاجة للتذكير بأنه أعدم .

رئاسة كازيمير بريه

في ٢٧ يونيو ١٨٩٤ انتخب كازيمير بريه رئيساً للجمهورية فاستبقى الوزارة السابقة ولكن الجرائد لم تلبث ان طعنت عليه وحذرت الأمة منه . وفي عهده القصير وضع قانون للتضييق على الفوضويين وعلمت خيانة الضابط اليهودي دريفوس الذي أفشى بعض أسرار الدفاع لرجال دولة اجنبية فحكم عليه بالاعتقال في جزيرة الشيطان بجويانا ثم حاول أهله وأصدقاؤه أن ينقذوه واستعانوا على ذلك بأقلام بعض الكتاب فثبتت الجناية عليه ثانية وصدر حكم على اميل زولا الكاتب بالحبس ستة أشهر وبغرامة لدفاعه عنه وطعنه على المجلس العسكري الذي نظر في قضيته .

ثم تباحث مجلس النواب في فضيحة جديد وهي سوء الحالة التي آلت اليها السكك الحديدية الجنوبية وعلى أثر هذه المناقشة استقالت الوزارة (١٤ يناير) وتلتها استقالة رئيس الجمهورية (١٥)

رئاسة فلكس فور

وفي ١٧ يناير ١٨٩٥ انتخب فلكس فور رئيساً للجمهورية

وفي ٢٨ منه عفي عن المنفيين السياسيين وفيه توفي آخر مرشالية فرنسا وهو كنروبير فشيعت جنازته على نفقة الحكومة وفي ٢٧ ابريل انقطع سد (جسر) خزان في بوزي فدمر هذه القرية وأتلف أربعاً وقتل وجرح ١٢٠ نفساً وكانت الخسارة خمسين مليوناً. وفي ١٨ مارس وافق مجلس النواب على مشروع نهائي وضعته

الحكومة لمعرض عام يقام في باريس سنة ١٩٠٠ وفي ٦ نوفمبر استؤنف البحث في مسألة سكك حديد الجنوب فنشأ عنه نزاع بين مجلس النواب ومجلس الشيوخ استمر زماناً ثم أفضى الى اعتزال الوزارة. وفي هذه الأثناء شرع الانكليز في تسيير حملة على السودان فامرت فرنسا مندوبها في صندوق الدين بأن لا يوافق على اعطاء الحكومة شيئاً من المال الاحتياطي الذي طلبته لذلك واشترك المندوب الروسي في هذا الاحتجاج وفي ٢٠ يونيو أعلن المسيو هانوتو انضمام مدغسكر الى فرنسا. وفي ٥ أكتوبر زار القيصر نقولا الثاني والقيصرة قرينته باريس فقوبلا بترحيب لم يشهد مثله وبعد ذلك رد رئيس الجمهورية الزيارة لجلالة القيصر وصرح بالتحالف الثنائي في خلال الحفلات الشائقة التي أقيمت له.

—١٠٢—

الدولة البريطانية

ملخص أخبار الدولة الانكليزية الى سنة ١٨٩٦

ولدت جلالة الملكة فكتوريا في ٢٤ مايو ١٨١٩ وخلفت عمها غليوم الرابع على عرش انكلترا في ٢٠ يونيو ١٨٣٧ وفي سنة ١٨٦١ فقدت زوجها البرنس دي سكس كوبور غوتا. وحكومة بلادها الآن تتألف من مجلسي الاعيان والنواب كالسابق. وقد تداول الحكم عشرون وزارة منذ تولي الملكة فكتوريا. والدولة الانكلزية الآن منتشرة السلطة في أكثر أرجاء المعمور. مساحتها ومساحة املاكها ٢٦٣٨٦٠٨ كيلومتراً وعدد سكانها والتابعين لها ٣٥٤٤٤٧٠٠٠ نفساً وهي أعظم الدول تجارة ومن أعظمها صناعة. ولها أكثر الأسلاك البرقية البحرية وأكثر الاساطيل أما عدد جنودها البرية فقليل فيه ٢٥٢ الفاً من العاملين ونحو ٢٢٠ ألفاً من الاحتياطيين ونحو ٢٠ ألفاً من عساكر الحاميات المختلفة وهي شارعة في زيادة جيشها بعض الشيء. وخطتها السياسية أن لا تتداخل في الشؤون الدولية الا لصيانة

مصالحها وذلك منذ عقدت معاهدة باريس في سنة ١٨٥٦. وقد ابت أن يكون أحد امرائها ملكاً لليونان في سنة ١٨٦٣ فولت مكانه أميراً دانمركياً وأهدت الى اليونان الجزائر اليونية.

وفي سنة ١٨٦٨ ألف غلادستون الوزارة الحرة الأولى وكانت أهم أعماله الداخلية لائحة وضعها لتخفيف مصائب الايرلنديين وأما في الخارج فانها حاولت أن تمنع شبوب الحرب بين فرنسا والمانيا في السنة السبعين فلم تفلح. وفي سنة ١٨٧٦ ألف ديزرائلي الملقب باللورد بيكونسفلد وزارة محافظة وفي هذه السنة لقبت جلالة الملكة فكتوريا بامبراطورة الهند. وقد حاربت انكلترا في عهد هذه الوزارة الأفغانيين وطوائف الزولوس والبازوتوس في رأس الرجاء الصالح واشترت حصص الخديوي اسمعيل في شركة قناة السويس بمئة مليون فرنك وتداخلت في نهاية الحرب بين روسيا وتركيا سنة ١٨٧٧ واستمنحت قبرص من الدولة العلية في ٤ يونيو ١٨٧٨ وكانت أعمالها هذه مناقضة لخطة عدم التداخل والامتناع عن الفتوح فاضطربت لذلك أفكار الأمة ومنحت أكثرية الأصوات في الانتخابات للأحرار فتولى غلادستون وزارته الثانية في ابريل ١٨٨٠ ومن أعماله فيها اشتداده على الدولة العلية لاعطاء دولسينو للجبل الأسود.

وفي خلال وزارة بيكونسفلد كان جمهور من الارلنديين قد الفوا حزب الاستقلاليين وهم طلاب الهوم رول أو الاستقلال الاداري وكان من مقدميهم بارنل الذي لم يلبث ان اصبح زعيما لهم واستمال غلادستون الى رأيه في وزارته التي أتت بعد هذه وسمي الملك غير المتوج لايرلنده.

وقد اشتهرت هذه الوزارة الحرة بجنايات جديدة جنتها انكلترا في عهدها على بعض الأمم الضعيفة أهمها احتلالها لمصر بدسائس معلومة. وفي ٢٥ يونيو ١٨٨٥ شكل اللورد سلسبوري وزارة محافظة فلم تعش الا قليلاً ثم سقطت وخلفتها وزارة حرة برئاسة غلادستون الذي أيده البارنليون وقد انضم اليهم ووضع لهم في ٨ ابريل مشروع الاستقلال الاداري لارلندره ولكنه لم يفلح في انفاذه فسقط وخلفه

سلسبوري في السنة نفسها واشتد في اضطهاده لبعض الارلنديين الذين أثارتهم المظالم وكانت خطته الخارجية التقرب من التحالف الثلاثي وفي غرة يوليو من سنة ١٨٩٠ امضى اتفاقا تنازل به لالمانيا عن جزيرة هليوجولندفي غرب هولستين عند مصب نهر الألب وتولى مقابل ذلك حماية ويتو وبلاد الصومال وسلطنة زنزيبار بافريقيا. وبما أن حماية زنزيبار كانت لا تخلو عن عقدة لوجود اتفاق بين انكلترا وفرنسا بأنهما لا تتعرضان في أمر لهذه السلطنة فقد اضطرت الأولى أن ترضي الثانية بأن تعترف لها بحمايتها على مدغسكر وبسلطتها على الأرض الواقعة جنوبي الجزائر الى النيجر بمعنى أن الصحراء أصبحت لفرنسا عدا ما لشركة النيجر من الحقوق المكتسبة في بعض تلك الأرجاء. وفي خلال سنة ١٨٩١ اشتدت الأزمة في ارلنده بسبب المحل بل في انكلترا نفسها فكثرت فيها الاعتصابات والمتاعب الاشتراكية وفي هذه السنة توفي بارنل على اثر مرض ولكن حزبه بقي مع انقسامه. وفيها احتلت انكلترا جزيرة سيجري العثمانية ثم برحتها سريعاً لما رأته من عدم اغضاء الدول وأرسلت بعثة الى طنجة فاخفقت في مساعيها.

وفي ١٥ أغسطس ١٨٩٢ منحت الانتخابات الأغلبية للأحرار فعاد غلادستون الى الوزارة للمرة الرابعة ووضع مشروعاً جديداً للاستقلال الاداري في ارلنده فوافق عليه مجلس النواب بعد جلسات طويلة ثم أبى مجلس الأعيان الموافقة عليه فاستقال غلادستون من منصبه بدعوى الشيخوخة وخلفه اللورد روزبري في رئاسة الوزارة الحرة غير أن جلالة الملكة أبت أن تعينه على تعديل الدستور البريطاني بحيث يكون المرجع الى مجلس النواب في القوانين فاستقال ولم يكن له أثر يذكر في السياسة الخارجية سوى تحامله على تركيا بسبب المسألة الأرمنية.

وفي ٢٩ يونيو ١٨٩٥ عاد سلسبوري الى الوزارة وتجددت الانتخابات فنال المحافظون أكثرية عظيمة ومن أعماله الخارجية حملة السودان ومشروع تقسيم الدولة العلية الذي رفضته كل الدول وتماديه في العداء للعثمانيين وقد أخفق امام روسيا في مسألة بامير وامام فرنسا في مسألة الميكونج والنيجر وهذه تم الاتفاق عليها في هذه الأيام وأمام الولايات المتحدة في مسألة فنزويلا وامام الترنسفال على أثر غارة

جميسون وانكساره ومما يخلق بالذكر ظهور شيء من انحراف المانيا عن مودة انكلترا بحيث أصبحت هذه الدولة تصرح الآن باحتياجها الى المحالفات بعد ان كانت تترجح كما تشاء بين التحالفين الثلاثي والثنائي .

—١٠٣—

الدولة الروسية

ملخص اخبار هذه الدولة من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٨٩٦

اتسعت المملكة الروسية حتى أصبح الآن عدد سكانها نحو ١٢٠ مليوناً وبلغ امتدادها من القوقاف الى البحر الأبيض ومن مضيق بهرنج الى فرسوفيا بمحاذاة اسوج وهي تشرف على بحر البلطيق من بطرسبورج وكرونستاد وجزائر الند وتتجه نحو الاستانة ومضيق الدردنيل من سباستوبول والقرم والدانوب وبلاد الجركس وتحيط بالفرس من بحر قزبين وبحر آرال واموداريا ومن هناك ترقب الهند الانكليزية وتنتشر في شمال الصين واليابان من كمشتكا وسيبيريا الشرقية واوكوتسك وبتروبافلوسك .

وكان امبراطور روسيا في سنة ١٨٤٨ نقولا الأول وكان متزوجاً بابنة ملك بروسيا فريدريك غليوم الثالث وفي سنة ١٨٤٩ أعان النمسا على ثوار المجر وكانوا يكادون يمزقونها فأنقذها منهم وكانت وجهة الروس من سنة ١٨٥٣ الى سنة ١٨٥٥ الاستيلاء على الأستانة فردّها عن ذلك فرنسا وانكلترا بتحالفهما . وفي ٢ مارس من سنة ١٨٥٥ توفي الامبراطور نقولا وخلفه ابنه اسكندر الثاني في خلال محاربة الروس للدولة العلية . ولهذا القيصر مأثرة من أجل المآثر وهي تحريره للحراثين المسترقين في ١٧ مايو ١٨٦١ وفي سنة ١٨٦٣ ثار أهل بولونيا فقتل منهم مقتلة فاحشة وكان القتلى نحو ١٥ ألف نفس ونفى واعتقل واحرق بيوتهم وأدخل شبانهم في سلك العسكرية بلا قيد ولا حدود معينة فأبعدهم الى جهات مختلفة . وكان نيف على ٧٠٠ منهم قد

ثاروا في منفاهم بسيبيريا فقتلوا عن آخرهم . ولما تم الفوز لروسيا ولم تجرأ اوربا أن تحرك ساكناً لتخفيف شقاء البولونيين المنكوبين اقفلت أديرتهم ومدارسهم ومكاتبهم وشرطت على موظفيهم معرفة اللغة المسكوبية . هذا وقد امتدت الخطوط الحديدية في روسيا ومنها خط يصنع الآن ليصل بطرسبرج بفلاديفوستوك ويجتاز وسط آسيا كله .

ولما انتهت روسيا من محاربة الدولة العلية وقضت عليها الدول ما قضت في معاهدة برلين لم تكسب من محاربتها شيئاً ذا بال سوى ما ذكرناه في موضعه وفي سنة ١٨٧٠ فتراخت العلائق بين روسيا والمانيا تراخياً لم يكن ذا نتيجة لأن الامبراطور اسكندر الثاني راعى زمام المعاهدة .

وفي ١٣ مارس من سنة ١٨٨١ قتل القيصر بقذيفة القاها عليه بعض النهلستيين وكثيراً ما حاولوا قتله من قبل ذلك فلم يفلحوا وكانت العقبى شراً على ألوف من أصحابهم والمتهمين بمشاركتهم في الرأي . وخلف الامبراطور المتوفي ابنه اسكندر الثالث في يوم وفاته فقتل الخمسة الذين اتهموا بقتل أبيه ومنهم فتاة وتعقب اثار النهلستيين ينكل بهم وكانوا مع ذلك لا ينقطعون عن تجديد الشرور .

وكانت سياسة هذا الامبراطور التقرب الى فرنسا وتجنب المانيا بل مجافاتها وحدث أن البرنس بسمرك في سنة ١٨٨٥ أبعد من نادي بوزن جميع الفعلة الروسيين الذين كانوا مهاجرين الى الارض الألمانية المجاورة فاجابته على ذلك روسيا بابعاد الفعلة الألمانيين الذين كانوا مهاجرين الى بلاد بولونيا وحتمت بأن لا تعلم الا اللغة الروسية في ولاياتها البلطيقية التي كان معظم سكانها من الألمان وعلى أثر هذه الحوادث اشتد الاستعداد للحرب وخيف من شبوب نارها لولا صدق رغبة اسكندر الثالث في السلم .

ولما كانت سنة ١٨٨٨ حاول غليوم الثاني امبراطور المانيا أن يتقرب من روسيا فلم يفلح .

وفي سنة ١٨٩٠ أخذ القيصر يطرد اليهود من بلاده فابعد منهم ١٤٠٠٠ من موسكو وملحقاتها ثم أبعد كثيرين من بطرسبرج ونفى غيرهم بعد ذلك لاشتداد وطأتهم بالربى على المعوزين الضعفاء وفي سنة ١٨٩٢ رسم اسكندر الثالث أن يبنى اسطول روسي للبحر المتوسط . وفي غرة نوفمبر من سنة ١٨٩٤ توفي هذا الامبراطور على أثر داء ألم به فبكته الدول كلها لما اشتهر به من حميد الصفات وعالي الذكاء والميل الى السلم وخلفه كبير أبنائه الامبراطور نقولا الثاني فجرى على خطته واستمر على موالاة فرنسا ومحالفتها كما رسمت مبادئها في مقابلة كرونستاد وعززت بعد ذلك على يد السياسي دي جيرس حين زار باريس ووقع على المعاهدة المكتوبة التي أعلن أمرها فيما بعد . وقد كان لهذا الأمبراطور من الاستقبال العجيب في باريس ما لا ينسى على الدهر كما أن رئيس الجمهورية الفرنسوية لقي في عاصمة الروس أعظم حفاوة . وجلالته متزوج من حفيدة لجلالة ملكة انكلترا اقترن بها بعد وفاة أبيه بقليل وله النفوذ الأول في بلاد الحبشة الآن وقد عين النجاشي منليك أحد رعاياه وهو الكونت ليونتييف حاكماً لولاية خط الاستواء فذهب اليها واستلمها في هذه الأيام واتخذ مساعداً له على ادارتها الدوق هنري دورليان الفرنسوي . وفي عهده امتثل البرنس فردينند ارادة روسيا ونصر ابنه البرنس بوريس على الطريقة الارثوذكسية فاعترف له القيصر وسائر الدول بالامارة . وقد جرت في حفلة تتويج هذا الامبراطور حادثة فاجعة وهي أن ٣٨٧٦ نفساً قتلت دوساً بالاقدام ونحو ٤٠٠٠ نفس جرحت في خلال تهافت الناس على ما كان يوزع من النقل والمأكل والمشرب في تلك الحفلة .

— ١٠٤ —

المانيا

ملخص أخبار هذه الدولة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٩٦

بعد أن انتصرت بروسيا على الدانمرك في سنة ١٨٦٤ وعلى النمسا في سنة ١٨٦٦

وعلى فرنسا في سنة ١٨٧٠ جددت الامبراطورية الألمانية وتسودت عليها في ١٨ يناير ١٨٧١ وتم ذلك في فرسايل في خلال حصار باريس وأصبح امراء الولايات.الألمانية بمثابة موظفين بروسيين وكان سكان هذه الامبراطورية ٤٩٤٢٨٤٧٠ في سنة ١٨٩٠ وقد كوفيء بسمرك على أعماله الجليلة فعين مستشاراً كبيراً للدولة وجعل مركز الرشستاغ وهو مجلس النواب الألماني في برلين.

وكانت خطة بسمرك السياسية منذ سنة ١٨٧١ أن يزيد جيوش المانيا ومعداتها الحربية في البر والبحر ويبتني الموانى وينفق ما استطاعه على ذلك مع أن المانيا كانت فقيرة قبل الغرامة الفرنسوية ولبثت فقيرة بعدها.

ومن خطته أيضاً أنه اضطهد الاكليروس الكاثوليكي ثم أخذ يضطهد الاشتراكيين.

ولما كان بسمرك يحذر من فرنسا مع ضعفها ويرغب في تأييد سطوة الدولة الألمانية الى ما شاء الله حاول أن ينشيء تحالفاً بين امبراطور المانيا وامبراطور روسيا وامبراطور النمسا ولاسترضاء الأخير وعده بأن يعينه على زيادة مملكته من جهة البلقان ووفى له بهذا العهد في سنة ١٨٧٨ حين عقد معاهدة برلين فكان ما نالته النمسا من النصيب لا فضل فيه الا لبسمرك. ولكن هذا التحيز للنمسا كدر روسيا فامتنعت عن المحالفة التي كان بسمرك يطمع فيها فرأى عند ذلك بيكنسفلد الوزير الانكليزي ان يدخل في محالفة المانيا والنمسا لاضعاف فرنسا في الغرب وروسيا في الشرق. غير أن الانتخابات العامة التي حصلت لذلك العهد اسقطته فحول بسمرك وجهه الى ايطاليا واستوثق باديء بدء من ميلها الى مثل هذه المحالفة ثم أدخلها فيها بعد ذلك. ولسنا نتكلف أن نعدد كلما أوجده بسمرك من الوسائل لاستفزاز فرنسا الى محاربته فان ذلك تجدد سنة بعد سنة الى ما بعد سقوطه وكان تارة يعتدي على بعض الضباط الفرنسويين وهم ضمن تخوم بلادهم وتارة ينطق في خطبه بأقوال تستنفد صبر المغلوب وتثير حميته ولم يدخر وسعاً في الحصول على هذه الأمنية التي لم يدركها.

ومن مآثر بسمرك أنه أعان الأمة الألمانية على توسيع نطاق متاجرها وصناعتها فبارت بهما الانكليز والفرنسويين في جميع ارجاء المعمور.

وقد نالت الالزاس واللورين أعظم نصيب من شدة بسمرك الملقب بالرجل الحديدي فانهما ما فتئتا في كل آن تعلنان حبهما للوطن الفرنسوي وتعارضان السياسة الألمانية ولم يفتر هنيهة عن اذلالها وتعذيب أهلها لاخمد الأنفاس فيهما وقد شرط جعل اللغة الألمانية لغة المدارس والحكومة ووضع البلاد مرارا تحت الاحكام العرفية ونكل بجماعات من سكانها تنكيلاً شديداً في بعض الأوقات فلم يغير شيئاً مما في صدورهم بل زاد مقتهم له ولألمانيا. وعلى هذه الخطة جرى الأمبراطور غليوم الثاني في بدء حكمه ثم لطفها الآن قليلاً.

وفي ٢٥ نوفمبر ١٨٨٦ طلب بسمرك من مجلس النواب أن يزاد الجيش في السلم الى ٤٦٧٤٠٩ مقاتل مدة سبع سنين فرفض ذلك مجلس النواب بعد مناقشة عنيفة فتلا بسمرك في الجلسة نفسها مرسوما من الامبراطور بحل مجلس النواب وجاء المنتخبون على أثر هذه الحادثة فوافقوا على المشروع في ١١ مارس. وقبل ذلك أي في ٢٥ فبراير صرح باشتراك ايطاليا رسميا في تحالف المانيا والنمسا المبني على المعاونة لحفظ الحالة الراهنة في كل من الدول المتعاقدة.

ومضمون هذا الصك انها اذا هوجمت احدى الدول الثلاث فالاخريان تأخذان بنصرتها واذا هاجمت لزمتا الحياد واذا حاولت دولة غير محاربة أن تنجد الدولة التي تحاربها احدى الحليفات فحليفتاها تنجدانها الى آخر ما هنالك مما يقصد به العداء لروسيا ولفرنسا.

وفي سنه ١٨٨٧ زار القيصر برلين فقوبل بحفاوة ووداد ولكنه لما خاب ظن بسمرك من استمالته امر بنك السلطنة الألمانية فرفض فجاءة أن يقبل السندات الروسية لاقراض المال عليها فهبطت قيمتها ستة في المئة.

وكان هذا سببا لازدياد النفار وذات البين. وفي سنة ١٨٨٨ عرض بسمرك على الرشتاغ مشروع قانون يقضي بحمل السلاح في حالة الحرب على كل ذكر صحيح

البنيه من سن العشرين الى التاسعة والثلاثين وان كان هناك خطر فالى الخامسة والاربعين فوافق المجلس على هذا الاقتراح.

وفي ٩ مارس من السنة المذكورة توفي الامبراطور غليوم الأول في الواحدة والتسعين من عمره فجزع الألمانيون عليه كثيراً وفي ذلك اليوم تودي بابنه فريدريك الثالث امبراطوراً وكان رجلاً حليماً حكيماً محباً للسلم كاتباً حبيباً الى الأمة غير أنه كان مصاباً بسرطان في الحلق فابقى زمام الأمر بين يدي بسمرك الى أن توفاه الله مأسوفاً عليه في كل مكان (١٥ يونيو ١٨٨٨) وخلفه ابنه غليوم الثاني وهو شاب مفتتن بالعسكرية محب للحرب فخيف أن يطوح بالمانيا في المهالك ولكنه أظهر فيما بعد أنه راغب في السلام وان كانت المظاهر الجندية تعجبه. وقد بدا منه ميل الى روسيا ورغبة في استرضاء فرنسا فاجابت هتان الدولتان دعوته لحضور افتتاح ترعة كييل وارسلت كل منهما بعض مراكب ولكن ذلك لم يمنع من تحالفها ولم يعدل من خطتهما الأساسية.

وفي سنة ١٨٩٠ انقضى الأجل النيابي لأعضاء الرشستاغ فافترقوا وتجددت الانتخابات فكثر بها عدد المندوبين الاشتراكيين فرأى الأمبراطور أن يجاملهم وكان يقول بضرورة الانتصار للفعلة من استبداد المتمولين وكانت هذه الخطة مخالفة لخطة بسمرك فاستقال من منصبه فأقيل لاستحالة أن يجتمع رأسان مستبدان في ادارة سلطنة عظيمة وخلف بسمرك الكونت دي كبريفي أحد القواد فأخذ بسمرك من ذلك الوقت يناوىء الحكومة بجرائده ومنشوراته الى أن استرضاه الامبراطور ببعض الزيارات والاستشارات ولكنه لم يعده الى منصبه. ثم أخذ غليوم يشتغل مباشرة بجميع مسائل الدولة ومنها مسائل الفعلة والدين والمعارف والجندية والبحرية حتى الرسم والروايات. ولشدة رغبته في الانتقال زار تباعاً نروج وروسيا وأسوج ودانمرك وايطاليا والنمسا وبلجيكا وهولندة والاستانة وانكلترا ثم زار الاستانة ثانية فالقدس الشريف فبعض الجهات العثمانية الاخرى.

وفي شهر مارس من سنة ١٨٩٠ انعقد مؤتمر اشتراكي في برلين فأبدى بعض

الأماني ثم انفض. وفي هذه السنة عينها زيد الجيش الألماني في السلم. وفي يونيو سنة ١٨٩١ جدد عقد المحالفة الثلاثية.

وفي ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٩٢ عرض المسيو دي كبريفي على الرشستاغ مشروعاً عسكرياً جديداً لزيادة عدد الجيش في السلم. ولتأييد اقتراحه القى خطبة ذكر فيها أن نية الحكومة سلمية وانكر ما عزي الى بسمرك من أنه حرف تلغراف أمس الشهير بحيث وقع وقعه السيء في فرنسا وجرها الى حرب السبعين وكان اشتهار أمر هذا التحريف قد شغل الدنيا بأسرها ودل على أن المانيا كانت المعتدية على فرنسا في ذلك الوقت. على أن الرشتستاغ أبى التصديق على هذا المشروع فقرأ كبريفي مرسوماً امبراطورياً بحل المجلس في ١٢ يناير ١٨٩٣ وفي ١٥ يوليو من تلك السنة وافق مجلس النواب الجديد على ذلك القانون.

وفي سنة ١٨٩٥ استقال كبريفي والكونت ديلمبرج رئيس الوزارة من منصبهما لعدم اتفاقهما على الوسائل التي كان يجب اتخاذها لكبح جماح الفوضويين وكانوا قد تكاثروا وتكاثرت شرورهم فعين البرنس دي هوهنلوهي سفير المانيا سابقاً في فرنسا وحاكم الألزاس واللورين مستشاراً للدولة ورئيساً لمجلس وزرائها وفي شهر يونيو من السنة الآنف ذكرها فتحت ترعة كييل باحتفال عظيم حضره مندوبون واساطيل لكل الدول. ولما جرت الحرب الأخيرة بين الدولة العلية واليونان كانت المانيا نصيرة للدولة العلية مراعاة بذلك لمصلحتها التي وافقت مصلحة فرنسا وروسيا وقد توافقت مصلحة هذه الدول قبلاً فسعت سعياً واحداً لدفع اشتداد اليابان على الصين وإنهاء مشكلتها بالتي هي أحسن.

النمسا

ملخص أخبار هذه الدولة منذ تأسيس دستورها ١٨٦٧ الى سنة ١٨٩٦

يقطن النمسا ٤١.٣٨٤.٩٥٦ نفساً وأول من وضع الدستور الحالي إجابة للمجر الى طلبهم المكرر هو الكونت دي بوست كبير وزراء النمسا في سنة ١٨٦٧ فأصبح للنمسا مجلسا نواب ووزراء وللمجر مجلسا نواب ووزراء وتوّج الأمبراطور فرنسيس يوسف ملكاً على المجر وبقيت الدولتان متحدتين بالعسكرية والدين تحت سلطة الأمبراطور. وفي سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٩ احتلت النمسا البوسنة والهرسك بناء على قرار معاهدة برلين وفي سنة ١٨٨١ أرادت أن تتخذ جنوداً من هذه الولاية فثارت ثم سكنتها العساكر النمسوية في شهر مارس من سنة ١٨٨٢.

وقد بقيت النمسا زماناً طويلاً وهي لا خطة لها سياسية في الخارج إلا خطة المانيا. أما حالتها الداخلية فمن أشد الحالات ارتباكاً وذلك لأن أممها المتعددة متباغضة متنافرة وكل منها راغبة في الانفصال فالمجر يريدون الاستقلال والتشك السلافيون في بوهيميا وكرواسيا يميلون الى روسيا. والألمانيون في هاتين الولايتين يميلون الى بروسيا والإيطاليون في تريستا وترنتا يميلون الى إيطاليا. وفي سنة ١٨٨٩ توفي الأرشيدوق رودلف النجل الوحيد للأمبراطور وولي عهده وكان قد أحب البارونة ماري دي فرسيرا وهي متزوجة فتواطآ على أن ينتحرا ووجدا ميتين في مابرلن صبيحة ٣٠ يناير. وآلت ولاية العهد الى الأرشيدوق شارل لويس أخي الأمبراطور فتوفي بعد ذلك ببضع سنين وانتهت ولاية العهد الى كبير نجليه وهو مريض بداء غير مرجو الشفاء. على أن النمسا حزبين كبيرين عدا أحزابها وهما أعداء اليهود والاشتراكيين. ولا يكاد يمضي يوم فيها لا تجري حوادث مكدرة بين هذه الشعوب المختلفة سواء في المجالس النيابية أو في المجتمعات العمومية.

وفي ٢٨ يونيو ١٨٩١ وقعت النمسا على تجديد المحالفة الثلاثية الى ست سنين وكانت لا تزال تزيد جيشها مجاراة لألمانيا. وفي سنة ١٨٩٣ تألفت جمعية أوملادينو في بوهيميا ومعناها «شبيبة الأمة» فلم تلبث الحكومة أن حلتها فتحولت الى جمعية سرية ثم فشا أمرها وعوقب كثيرون من أعضائها عقوبات شديدة وكانت غاية هذه الجمعية استقلال بوهيميا.

وفي سنة ١٨٩٤ توفي كوسوط الثوري الوطني الشهير الذي كان زعيم الأمة المجرية وممثل أميالها وآمالها وكان مقيماً في تورينو فعمّ الأسف عليه وجرت مظاهرات حليلة عندما أتي بجثته لتدفن في بلاده.

ويظهر الآن من خطة النمسا انها أخذت تخرج عن خطة الاحتذاء لألمانيا فهي التي عرضت تجديد المحالفة الثلاثية قبل انتهاء أجلها في سنة ١٨٩٧ وهي التي اشتغلت لإدخال المملكة الرومانية في المحالفة الثلاثية وهي التي سألت حصر جزيرة كريد في عهد ثورتها الأخيرة.

ويظن انه من الصعب بقاء النمسا على حالتها الحالة بعد وفاة أمبراطورها المحبوب لمكارم أخلاقه وشدة رغبته في السلم.

— ١٠٦ —

ايطاليا

ملخص أخبار هذه الدولة منذ صيرورة رومة عاصمة لها الى سنة ١٨٩٦

لم تتم وحدة ايطاليا إلا في ١٩ سبتمبر من سنة ١٨٧٠ في خلال الحرب بين فرنسا والمانيا وذلك عندما استولى فكتور أمانويل على رومة وجعلها عاصمة لمملكة ايطاليا.

ولإيطاليا محلسان نيابيان ووزراء مسؤولون تحت سلطة الملك وعدد سكانها ٣٠.٩١٣.٦٦٣ نفساً.

وفي ٩ يناير من سنة ١٨٧٨ توفي فكتور أمانويل وخلفه كبير أبنائه همبرت الأول. وتوفي البابا بيوس التاسع بعد ذلك بشهر وخلفه البابا لاون الثالث عشر.

وكان كثير من الأحزاب يمقتون النمسا لاستيلائها على ترنتا وتريستا ويبغضون فرنسا لاستيلائها على نيقا وسافوا وكورسكا التي اشترتها بمالها. ثم سعى الملك همبرت في اتخاذ حلفاء له فدخل في المحالفة الثلاثية على يد سفيره في ويانه الكونت دي روبيلان (فبراير ٨٣) ولما نشرت فرنسا حمايتها على تونس اشتد التغيظ في إيطاليا عليها وحدثت مظاهرات عدائية شديدة وأسقطت الوزارة ثم قطعت المعاهدة التجارية بين الدولتين وبولغ في تحصين ثغور الألب من جهة فرنسا.

وفي شهر يوليو سنة ١٨٨٣ حدث زلزال هائل في جزيرة إيشيا وموقعها في مدخل خليج نابولي فقتل ٣٠٠٠ نفس.

وكانت ايطاليا مع شدة فقرها تطمع في مجاراة الدول بالاستعمار ففي سنة ١٨٨٠ استولت على مرفأ عصب وفي سنة ١٨٨٥ أهدتها انكلترا مصوع وما يليها الى جوار الأملاك الفرنسوية في تلك الأرجاء وقيل إن الحكومتين اتفقتا على التعاون في مسألتي السودان وطرابلس الغرب بمعنى أن إيطاليا تسهل لها الاستيلاء على طرابلس فلما وصلت الجنود الايطالية الى مصوع فشت فيها الأمراض وكثرت الوفيات وحدث أن الحكومة أرسلت حملة منها لاحتلال فوا وساهاتي في الحبشة فمزقها الرأس الولا تمزيقاً في ٢٧ يناير ١٨٨٧.

وطلبت الوزارة عشرين مليون فرنك لتنفق على حملة مصوعية جديدة. وفي سنة ١٨٨٧ توفي في فلورنسا القائد حسين باشا وأوصى بماله لباي تونس فزعم رجل انه آت من قبل الباي ليطلع على أوراق هذه التركة فأبى عليه قنصل فرنسا ذلك لعدم وجود توكيل بيده فاستعان بالشرطة ودخل القنصلية عنوة في غياب القنصل خلافاً

للمعاهدات فكادت الحرب تنشأ عن هذا الاعتداء وغاية ما نالته فرنسا من الترضية أن ينقل قاضي الصلح الايطالي الذي أذن بذلك الدخول.

وفي سنتي ١٨٨٨ و١٨٨٩ اشتدت الفاقة في إيطاليا على أثر انتهاء المعاهدة التجارية بين فرنسا وايطاليا وعدم تجددها فكان ألوف من الفعلة في رومة وكاتان وتيرانوفا بصقليا لا عمل لهم يتضورون جوعاً. واشتدت الفاقة أيضاً في كالتانيستا وفرار وباري ولوغو وجسي وبيروزا وبارمة وكاربي ورافينا وتعددت حوادث السلب والنهب والقتل في معظم أنحاء ايطاليا.

ومع ذلك كانت وزارة كريسبي تداوم التساح وتواصل الامداد للحملة على الحبشة. وفي سنة ١٨٩١ سقط هذا الرجل لشدة ما أنفق على الحربية والبحرية ولسوء سير البعثة المصوعية. فخلفه روديني ووجد في باديء الأمر أن النجاشي منليك ينقض الحماية الايطالية بدعوى انه خدع في ترجمة المعاهدة وكانت ايطاليا تزعم أن النجاشي هو الذي خدعها. وفي سنة ١٨٩٢ وجد وزير المالية أن عجز الميزانية ارتفع الى نحو ٢٠ مليون فرنك ولذلك أبى على وزير الحربية مالاً طلبه لتجديد جانب من بنادق الجنود فسقطت الوزارة وتولى جيولتي رئاسة الحكومة فطلب حل مجلس النواب ليحصل على أغلبية في المجلس الذي يجيء بعده.

وفي سنة ١٨٩٣ ظهرت فضيحة أشبه بفضيحة بناما وهي مسألة البنك الروماني وذلك أن هذا البنك كان قد أصدر ١٣٠ مليون ورقة نقدية وزعم في تقاريره انه مصدر ٨٠ مليوناً فقط وكان هذا الفرق قد صنع من القراطيس ذات العدد الواحد وبعد محاولة ومطاولة قبض على أحد النواب وعلى مدير البنك وصرحت لجنة التحقيق أن بعض الأوراق اختلست ولم تقع في يدها فنعت النواب الوزراء بالأثمة فاستقالوا وطلبت محاكمتهم.

وفي بدء سنة ١٨٩٤ اشتدت المجاعة في صقليا وتعددت الحوادث فجعلت تحت الأحكام العرفية ثم ثار أهل كارارا من الفاقة ومظالم الجباية فجعلوا تحت الأحكام العرفية أيضاً وسالت الدماء في هاتين الولايتين غزيرة لما توالى من المناوشات بين

الأهالي والجنود. ولما اجتمع مجلس النواب اضطرت الوزارة الجديدة أن تعترف بين يديه أن عجز الميزانية صعد الى ١١٧ مليوناً ووعدت انها تقتصد نحو ٤٥ مليوناً من النفقات الإدارية ولكن لا بد لها من زيادة ضرائب وتجديد أخرى لسد باقي العجز.

وفي هذه السنة نظرت محكمة المحلفين في قضية البنك الروماني وكان المتهمون مدير البنك برناردو وتانلونجو أحد أعضاء مجلس الشيوخ وأمين صندوق البنك وخمسة آخرين فصرح المدير أن الثلاثة والعشرين مليوناً المفقودة من البنك قد دفعت إعانات للحكومة وأنفق بعضها لإصعاد سعر سندات الدخل (رانت) وان الحالة كانت سيئة منذ سنة ١٨٦٨.

ثم أن المسيو جيوليتي رئيس الوزارة السابق الذي اتهم بإخفاء بعض الأوراق أظهر ما كان قد أخفاه مما دل على أن كريسبي وبعض رجال الحكومة الآخرين كانوا مرتشين بقسم من الأموال المفقودة وكان كريسبي رئيس الوزارة فجدد الانتخابات للحصول على أغلبية تبرئة من تلك الوصمة. وكانت الفاقة لا تزال مشتدة في أكثر أرجاء ايطاليا.

وفي سنة ١٨٩٦ أمر كريسبي باستئناف الحرب للانتقام من النجاشي فحصره الايطاليون في قلعة ميكاله ثم انفصل عنهم الرأسان سبات واغوس وفي غرة مارس هاجموا الأحباش في عدوه فانكسروا انكساراً عظيماً. وفقدوا ٥٠٠٠٠ نفس بين قتيل وجريح وأسير في أيدي الأحباش و٧٢ مدفعاً وشيئاً كثيراً من الأسلحة والرايات والركائب.

وعلى أثر هذه الموقعة عزل القائد باراتياري وحوكم وخلفه القائد بلديسيرا وأرسل رسول لعقد الصلح وفك الأسرى وصرحت الوزارة الايطالية انها لا تريد فتح تجرة ولا نشر الحماية الإيطالية على الحبشة وكان النجاشي يطلب عشرين مليون فرنك غرامة حرب فدفعت اليه وعقد الصلح واسترد الأسرى.

سويسرا

ملخص أخبار هذه الدولة من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٨٩٦

يقطن سويسرا نحو ثلاثة ملايين نفس وهي مستقلة منذ ٦٠٠ سنة كما رأيناه وفيها مجلسان نيابيان وهي محصنة التخوم لدفع الاعتداء عليها والمرور منها في حالة الحرب بين دولتين مجاورتين لها .

ولسويسرا التقدم على سائر الدول في بعض المشروعات الكبيرة المفيدة فهي التي أوجدت الجمعية المختلطة لمساعدة الجرحى وجمعية الصليب الأحمر والاتحاد البريدي العام والاتحاد البرقي واتحاد السكك الحديدية الأوروبية لنقل الركاب والبضاعة الأجنبية بدون تأدية رسوم جمركية وجمعية ترقية الآداب والفنون الجميلة . ولكل من هذه الشركات مكتب في برن .

ومن أعمال سويسرا العظيمة فتحها نفقاً لمرور القطر الحديدية تحت جبل سان غوثار وقد تم عمله في ٢٩ فبراير من سنة ١٨٨٢ .

وكثيراً ما عرض على سويسرا الدخول في التحالف الثلاثي وأصرت على عزلتها .

وفي سنة ١٨٩١ حدثت في سويسرا حادثة فظيعة وهي أن قنطرة انهدمت وكان قطار مارّاً فوقها فهلك ركابه وكانوا نحو ٣٠٠ نفس .

وفي غرة أغسطس من تلك السنة احتفلت سويسرا بمرور السنة الستمائة من عهد استقلالها .

وسكان سويسرا أشداء محبون للسلم أهل دعة وكرم وعلم . وبلادهم من أجمل بلاد الدنيا يقصدها السياح للمصيف في كل سنة ويزداد عددهم على التمادي .

— ١٠٨ —

اسبانيا

ملخص أخبار هذه الدولة من سنة ١٨٤٥ الى سنة ١٨٩٠

لما تولت الملكة اليصابات الثانية ابنة فردينند السابع أصبحت اسبانيا ألعوبة في أيدي نفر من الوزراء تناوبوا في تولي الحكم عليها قبل بلوغ الملكة سن الرشد وبعده ومن مستحدثات أحدهم استبدال دستور سنة ١٨٣٧ بدستور وضع سنة ١٨٤٥ وكان فيه تضييق على حرية أهل البلاد فثاروا في سنة ١٨٥٤ بعد حدوث أزمات شديدة في الحكومة وعقدوا جمعية لتأليف حكومة جديدة وفرت أم الملكة واسمها ماري خرستين مرة ثانية الى فرنسا ثم استرجعت الى مدريد وأعادت دستور ١٨٤٥ وفي سنة ١٨٥٩ تهجمت بعض جماعات الريف والقبائل في مراكش على سجن للاسبانيين في أفريقيا فانتشبت الحرب بين البلادين وانتصرت اسبانيا انتصارين باهرين ولكنها لم تستفد من الحرب سوى غرامة بلغت مئة مليون فرنك وزيادة شيء قليل على أراضيها من جهة ستا وذلك لأن انكلترا حالت دون مطامعها.

وفي سنة ١٨٦٦ تولى الوزارة القائد نارفايز وكان جمهور من المتملقين والقسيسين وغيرهم محيطين بالملكة يصرفون الأحكام فيما يشاؤون فأغضب ذلك الشعب فثار في ٢٢ يونيو ولكن الجنود لم تلبث أن قويت عليه وسكنت الهياج.

وفي سنة ١٨٦٨ تجددت الثورة على الملكة ففرت وخلعت عن العرش وعرض التاج على الأمير ليوبولد دي هوهنزولرن فلم يقبله. وكان هذا العرض سبباً في حرب السبعين كما رأيناه.

ثم انتخب البرنس أميدي دي سافوا ثاني أبناء فكتور أموانيل ملك ايطاليا وسمي باميدي الأول فلم يلبث أن اعتزل هذا المنصب المتعب في ١١ فبراير ١٨٧٣ فأعلن قيام الجمهورية الاسبانية وقال قائل أن تكون على شكل جمهورية الولايات المتحدة

السويسرية فسرّ بذلك أهل ولاية قرطاجنة وأعلنوا استقلالهم الإداري فحوربوا الى أن سلموا .

وفي هذه الأثناء انتشبت في شمال اسبانيا الحرب الكارلية الثانية فانتدب المارشال سرانو وهو الحاكم بأمره إذ ذاك في مدريد والقائد كونشا وغيرهما لإخمادها فأبلوا بلاء حسناً وفي ٢٦ دسمبر من سنة ١٨٧٤ أعلن القائد مرتينيس كمبوس أحد ضباط كونشا تنصيب الفونس الثاني عشر ابن اليصابات على عرش اسبانيا بمحضر من الجنود . وفي ١٣ فبراير من سنة ١٨٧٦ اعترك الكارليون وجنود الملك الآخر مرة في ايلوريو فانتصر الجنود عليهم وفرّ دون كارلوس المطالب بسرير اسبانيا الى فرنسا وتمزق شمل أشياعه فسلم معظمهم وفرّ بعضهم وعوقب الآخرون عقوبات شديدة وكانت بذلك نهاية هذه الحرب المشؤومة التي سفك فيها ما شاء الله من الدماء .

وفي هذه السنة وضع الاسبانيون لأنفسهم دستوراً جديداً ملائماً لتقدم الأفكار الحرة عندهم وفي سنة ١٨٧٨ تزوج ملكهم بابنة عمه مرسيديس فتوفيت بعد ذلك ببضعة أشهر فتزوج ثانية بالأرشيدوقة النمسوية ماري خرستين ورزق منها ابنتين . وفي سنة ١٨٨٥ استولى الألمانيون على جزائر كارولين فهبت اسبانيا على قدم وساق تريد محاربة المانيا لاسترداد تلك الجزائر وتخوف الأمبراطور غليوم أن يفقد نفوذه العظيم في تلك البلاد فاتفق مع الملك الفونس الثاني عشر أن يحكم البابا ليون الثالث عشر في الأمر فقضي بأن الجزائر لاسبانيا ومنح المانيا حرية المتاجرة فيها . وفي خلال تلك السنة توفي ملك اسبانيا وكانت امرأته حبلى فعينت وصية ثم ولدت غلاماً سمي الفونس الثالث عشر فنودي به ملكاً . ومن ذلك العهد الى الآن استمرت الأحزاب تارة والفوضوية أخرى تمزق أحشاء هذه البلاد وتزيدها تداعياً الى السقوط والدمار .

اسبانيا وكوبا

هذه الجزيرة تدعى لؤلؤة جزائر الأنتيل وهي أغنى وأفضل المستعمرات الاسبانية ولكنها من زمن قديم تدفعها المطامع الى طلب الاستقلال وتجرئها على ذلك الولايات المتحدة بل تمدها بالمال والرجال . وفي سنة ١٨٨٥ ثارت على قدم وساق فأرسلت

اسبانيا اليها مرتينس كمبوس فلم يفلح في تسكينها فبعثت المارشال ويلر خلفاً له وأربى عدد الجنود الذين أنفذتهم اليها على مئة وخمسين ألفاً ولكن ماذا تفيد الجنود وأمريكا تمد السكان بالمال والميرة والذخيرة والرجال . على أن الاسبانيين انتصروا على الكوبين في بعض المواقع ثم وعدوهم بالاستقلال الإداري فيما إذا سلموا وأخلدوا الى الطاعة فأبوا . ثم انتهى الأمر الى حرب نشبت بين اسبانيا والولايات المتحدة فتح فيها الأمريكان مانيلا عاصمة جزائر فيليبين التي ثارت أيضاً على اسبانيا ثم فتحوا سانتياغو ودمر الأميرال سرفيرا أسطوله كي لا يقع في أيدي الأعداء وأخذ أسيراً ومن نجا معه من قذائف العدو ومع ذلك فإن الاسبانيين أبلوا في هذه الحرب بلاء الأبطال .

— ١٠٩ —

البرتغال

ملخص أخبار هذه الدولة من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٩٦

استمرت الملكة دونا ماريا متولية زمام الحكم في البرتغال من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٥٣ ولما توفاها الله خلفها ابنها بطرس الخامس تحت وصاية أبيه الدوق دي سكس كوبور غوثا الى سنة ١٨٥٥ فاغتالته المنية وخلفه أخوه لويس الى سنة ١٨٨٦ ثم خلفه ابنه كارلوس الأول . وللبرتغال دستور وضع في ٢٩ أبريل ١٨٢٦ ثم عدل في سنة ١٨٥٢ و١٨٥٩ و١٨٨٤ وفيها مجلسان للأعيان وللنواب .

وفي سنة ١٨٨٩ وقع نزاع بين البرتغال وانكلترا على أملاكهم في شرقي أفريقيا ثم امتثلت البرتغال إدارة عدوتها المقتدرة فقام الشعب بمظاهرات شديدة أوشكت أن تتحول الى ثورة . والبرتغال منحطة ولا سيما في أحوالها المالية وهي لا تدقق في سداد ديونها ومآلها الى الافلاس إن لم تصلح شؤونها .

— ١١٠ —

بلجيكا

ملخص أخبار بلجيكا من سنة ١٨٦٥ الى سنة ١٨٩٦

هي أكثر البلاد الأوروبية سكاناً بالنسبة الى مساحتها ويأهلها ٥.٣٤١.٩٥٨ نفساً ولها مجلس أعيان ومجلس نواب وملكها يدعى ليوبولد الثاني وليها منذ سنة ١٨٦٥ إرثاً عن أبيه ليوبولد الأول. وهي مقسومة الى حزبين حزب الكاثوليك وهو الأكبر وحزب الأحرار . وتوجد أحزاب أخرى لا شأن لها.

وقد اشتهرت هذه البلاد ببراعة أهلها في الصناعة والزراعة ويكثر فيها اعتصاب الفعلة. وفي سنة ١٨٩٣ عدل دستورها فأدخل في الانتخاب كل شاب في الخامسة والعشرين من العمر.

وهي محصنة دفعاً للطوارىء التي تمس استقلالها فيما لو حدثت حرب بين دولتين مجاورتين لها.

ولها مستعمرة في بلاد الكونغو الحرة. وقد أقيم فيها معرضان عامان في سنتي ١٨٨٥ و١٨٩٤ فنجحا نجاحاً عظيماً.

— ١١١ —

هولندة

ملخص أخبار هولندة أو البلاد الواطئة الى سنة ١٨٩٦

يقطن هولندة ٤.٧٩٥.٦٤٦ نفساً وهي بزراعتها وصناعتها من أغنى الدول ولها المقام الثاني بعد انكلترا من حيث المستعمرات والثروة. وقد جففت فيها بحيرة

مساحتها ١٨٠ كيلومتراً لتحرث وشرع في تجفيف بحيرة ثانية وسيشرع في الثالثة وكل هذا يزيدها تحولاً. ولهولندة مجلس نواب ومجلس أعيان ودستور عدل أولاً في سنة ١٨٤٠ ثم في سنة ١٨٤٨ ثم في سنة ١٨٧٨ وقد أصلح قانونها الانتخابي قليلاً في سنة ١٨٨٧.

وملكتها الآن ويلهلمين ابنة الملك غليوم الثاني الذي خلف أباه غليوم الأول في سنة ١٨٤٩ وعاش الى سنة ١٨٩٠. وبوفاة الملك غليوم الثاني انفصلت غرندوقية لوكسبرج عن عرش بلجيكا لأنه غير جائز تمليك النساء عليها وجعل أميرها أدولف الذي كان قبل ذلك صاحب دوقية ناسو.

على أن هولندة لم تتداخل في مشاكل أوروبا منذ سنة ١٨٤٠ مجاراة لبلجيكا وعملاً بمصلحتها الخاصة.

وتجري حيناً بعد حين حركات اشتراكية لكثرة الفعلة الذين فيها وذلك كل ما يزعجها في داخلها.

— ١١٢ —

الدانمرك

ملخص أخبار هذه الدولة الى سنة ١٨٩٦

يقطن الدانمرك ٢.٢٩٩.٥٦٤ نفساً ولها مجلس أعيان ومجلس نواب ودستور وضع في سنة ١٨٤٩ وأبدل في سنة ١٨٦٦ وفي سنة ١٨١٥ فقدت بلاد نروج التي انضمت الى أسوج وفي سنة ١٨٦٤ أفقدها الألمانيون بعد حرب عنيفة ولايات

لوينبرج وهلستين وسلسويج ومع ذلك فإن لها أهمية كبيرة من حيث هي مدخل بحر البلطيق .

وملكها يدعى خرستيان التاسع تولاها في سنة ١٨٦٣ وقد زوج إحدى بناته للبرنس دي غال والأخرى لأمبراطور روسيا اسكندر الثالث وأذن لثاني أبنائه أن يكون ملكاً لبلاد اليونان .

وهو يحب الاستبداد في الحكم ويميل عن الأحرار وهم الأكثرون في مجلس النواب الدانمركي الى حزب المحافظين ومن غرائب أموره أنه استوزر المسيو استرب مدة ١٧ سنة وكان وزيره على خلاف مع النواب مدة ١٢ سنة ولم يعزله الى أن استقال .

— ١١٣ —

أسوج ونروج

ملخص أخبار أسوج ونروج الى سنة ١٨٩٦

عندما توفي الملك شارل جان الرابع عشر وهو برنادوت الشهير خلفه على أسوج الملك أوسكار الأول (١٨٤٤ — ١٨٥٩) ثم خلف أوسكار شارل جان الخامس عشر (١٨٥٩ — ١٨٧٢) ثم خلف هذا الملك أوسكار الثاني على أسوج ونروج مضمومتين . وهو ملك سلمي عاقل محب للعلوم منشط للآداب وله مآثر تذكر فتشكر في هذا الباب . ولأسوج دستور وضع في سنة ١٨٦٧ وفيها مجلس للأعيان ومجلس للنواب . وفي نروج مثل ذلك غير أن هذين البلدين لا يتفقان تمام الاتفاق على ما يظهر وربما انفصلا في عهد غير بعيد لما بينهما من المنافسات الظاهرة ولا يزرع

من الأراضي الأسوجية والنروجية إلا قليل فمعمولها في الدخل على الأخشاب والجلود بأنواعها وبعض المعادن وما يصاد من حوت البحر وسمكه. ولها أسطول تجاري ينيف على ١١٥٨٦ سفينة.

ويقطن أسوج ٤،٨٧٣،١٨٣ نفساً ونروج ٢.٠٠٠.٩١٧ نفساً وهم كبار الأجسام ذوو عزم وذكاء.

●

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة - البوشرية
تلفون: ٨٩٤٨٣٧

